45



يوهان ڤولڤجانج فون جوته

# من حياتي

# الشعر والحقيقة

## الجزء الثاني

ترجمة
محمد جديد

دراسات نقدية عالمية
١٦

يوهان ڤولڤجانج فون جوته

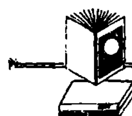
# من حياتي

# الشعر والحقيقة

## الجزء الثاني

ترجمة

محمد جديد



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٢

من حياتي

# الشعر والحقيقة

الجزء الثاني

**العنوان الاصلي للكتاب :**

**Aus meinem Leben**

**Dichtung und Wahrheit**

من حياتي : الشعر والحقيقة = Aus meinem leben
/ يوهان فولفجانج فون جوته ؛ ترجمة محمد جديد . ـ
دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٢ . ـ ج٢ ؛ ٢٤ سم . ـ
( دراسات نقدية عالمية ؛ ١٦ ) .

١ ـ ٩٢٨ : غوته ، يوهان فولفجانج غ ٢ ـ ٨٣٨ غ و ت
م ٣ ـ العنوان ٤ ـ غوته ٥ ـ جديد ٦ ـ السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ـ ١٩٩٢/٨/٩٨٦

# الكتاب التاسع

« ثم ان القلب يتأثر بعد ذلك ، في كثير من الأحيان ، تأثراً هو في صالح فضائل شتّى ، ولا سيما الاجتماعية والرقيقة ، وتُستثار فيه أرقّ الأحاسيس ويتم تطويرها . وسينطبع فيه بصورة خاصة كثير من المعالم التي تتيح للقارىء الناشىء نظرة فاحصة في الركن الخفيّ من القلب البشري وعواطفه ، وتلك معرفة أكبر قيمة من كل ما هو لا تيني واغريقي ، وقد كان أوفيد أستاذاً في ذلك ممتازاً للغاية . ولكن لذا ليس بالسبب الذي نضع من أجله الشعراء القدامى في أيدي الناشئة ، أي أوفيد أيضاً . ونحن نتلقى من الخالق المتفضّل قدراً كبيراً من الطاقات النفسيّة التي يجب ألاّ يقصّر المرء في إعطائها ما يلائمها من الثقافة ، في السنوات الأولى مباشرة ، وهي طاقات لايستطيع المرء أن يتعهّدها بالمنطق ، ولا بالميتافيزيقا أو اللاتينية والاغريقية . فلدينا مخيّلة يجب علينا أن نعرض عليها أكثر الصور براعة وجمالاً ، إذ لاينبغي أن تستحوذ عليها أية تصورات تصادفها ، وأن نوطن النفس بذلك وندربها على التعرّف على الجميل وعلى محبته في كل مكان . وفي الطبيعة ذاتها ، في ملامحه المحددة الأصيلة والأكثر دقة . ونحن نحتاج حاجة ماسة إلى قدر كبير من المفاهيم سواء من من أجل العلوم ، أم من أجل الحياة اليومية . وهما اللتان لا يمكن اكتسابهما في كتاب من كتب الموجزات . وينبغي أن يتم تطوير أحاسيسنا وميولنا وأهوائنا وتنقيتها بصورة إيجابيّة » .

ولم تكن هذه الفقرة الهامة التي عثر عليها في « المكتبة الألمانية العامة(١) » الوحيدة من نوعها . فقد كان ثمة أفكار مماثلة ومبادىء مشابهة تتوارد من كل حدب وصوب . وكانت تحدث فينا ، نحن الفتيان أولى النشاط ، انطباعاً كبيراً ما لبث أثره الحاسم أن ازداد حين زاد في قوته بعدُ مثال فيلاند . ذلك لأن الأعمال العائدة الى حقبته الثانية المتألقة(٢) أثبتت بجلاء أنه قد صاغ نفسه وفْقاً لهذه المبادىء ، وماذا كان في وسعنا أن نبتغي أكثر من ذلك ؟ لقد تم اجتناب الفلسفة بمطاليبها الغامضة . أما اللغات القديمة التي كان اكتسابها يقتضي قدراً كبيراً من الجهد فقد رآها الناس وقد نُحِّيَتْ جانباً الى الوراء ؛ وأمّا كتب الموجزات التي كان هسلت قد أسرّ في آذاننا بكلمة تدعو الى التأمل حول كفاءتها ، فقد باتت الشبهات تحدق بها على نحو مطرد ، وجعل الناس يوجهوننا نحو حياة نشيطة يطيب لنا أن نعيشها ، والى الإطلاع على العواطف التي كنا نحس بها في صدورنا من ناحية أو نحس بها إحساساً أوّلياً من ناحية أخرى ، والتي لم يكن لها بدٌ أن تبدو لنا الآن شيئاً هاماً ونبيلاً ، وان كان الناس يعيبونها من قبل ، اذ كان يفترض فيها أن تكون الموضوع الرئيسيّ لدراساتنا ، وكانوا يشيدون بالإلمام بها على أنه أفضل وسيلة من وسائل تكوين طاقاتنا الفكرية . وكان مثل هذا الطراز من التفكير ، فوق ذلك ، ملائماً لقناعتي الخاصة ، بل لممارستي وتصرفي في الشعر ، كل الملاءمة . ومن أجل ذلك نزلت على رغبة والدي في التوجه الى شتراسبورج دون مقاومة ، بعد أن رأيت الكثير من مقاصدي الحسية ينتهي إلى الإحباط ، والكثير من الآمال الواقعية يتلاشى وكان القوم يعلمونني هناك بحياة بهيجة مرحة في الوقت الذي كان يفترض فيه أن استأنف دراساتي ، وأتخرج في النهاية .

وفي الربيع شعرت أنني استعدت صحتي ، بل استعدت أكثر من ذلك جرأة الشباب ، وتاقت نفسي مرة أخرى الى الخروج من بيت والدي على الرغم من أن ذلك كان لأسباب تختلف عن المرة الأولى . ذلك لأن هذه الحجرات والغرف الجميلة التي عانيت فيها الكثير كانت قد باتت تبعث على الاستياء عندي ، ولم يكن من الممكن إقامة علاقة ممتعة مع الوالد نفسه . ولم أكن استطيع أن أغفر له تماماً أنه كان يظهر مع ارتكاسات مرضي ، ومع الإبلال البطيء ، من نفاد الصبر أكثر مما ينبغي ، بل كان ، بدلاً من أن يواسيني بالتروّي ، يعبّر في كثير من الأحيان ، بطريقة قاسية ، عمّا لم يكن للمرء حيلة فيه ، وكأنه يتوقف على محض الإرادة . ولكنه تعرّض هو أيضاً للحرج والإهانة من قبلي بطرق شتى .

ذلك لأن الشباب يعودون من جامعاتهم بتصورات هي في الحقيقة سليمة وجيّدة تماماً . ولكن لمّا كانوا يرون أنفسهم في هذا الصدد أولي حكمة بالغة ، فانهم يتخذون مثل هذه التصوّرات مقياساً لما يعرض من الموضوعات التي لابد لهم مع ذلك أن يخسروها في الغالب . وعلى هذا النحو كنت قد خرجت بتصور عام عن فن العمارة وتشييد المنازل وزخرفتها . وجعلت أطبق هذا التصور في الحديث عن بيتنا بغير حذر . وكان والدي قد صمم عملية الانشاء كلها ، ونفذ البناء بتجلد عظيم ، ولم يكن ثمة ما يؤخذ عليه ما دام يفترض أن يكون مسكناً له ولأسرته . وعلى هذا الأساس كان قد تم تشييد الكثير جداً من المنازل في فرانكفورت . لقد كان الدرج يرتفع حراً ويتصل بأبهاء كبيرة كان من الممكن أن تكون هي ذاتها حجرات ، اذ كنا نقضي فيها فصل السنة الحسن على الدوام ، ولكن هذه الحياة اللطيفة

المرحة لأسرة واحدة ، وهذا التواصل من الأعلى الى الأسفل تحول الى إزعاج فائق بمجرد أن سكنت بالمنازل أطراف عدة ، مثلما كان علينا أن نعاني ذلك مع الإقامة الفرنسية على نحو بالغ الشدة . ذلك لأن مثل ذلك المشهد مع ممثل الملك ما كان ليحدث ، بل كان والدي خليقاً ألا يحس من كل المتاعب إلاّ قدراً أقل . لو أن دَرَجَنا كان قد أزيح جانباً على طراز لا يتبسج . وخصّص لكل طابق باب مستقل وقد كنت فيما مضى أشيد بهذا الطراز من البناء إشادة كبيرة ، وأعبّر عن مزايا ، وأبيّن للوالد إمكانية تعديل موقع درجه أيضاً ، فتملّكه من جراء ذلك غضب لا يصدق زاد من عنفه أنني كنت قد انتقدت من قبل بعض أُطُر المرايا المزخرفة ، وعبْت سجاجيد صينيّة معيّنة ، وكان ثمة مشهد تم في الحقيقة إزالة أثره وتسويته ، على أنه أدى مع ذلك الى الإسراع في رحلتي الى الإلزاس الجميلة ، التي قمت بها أيضاً على المركبة العمومية المريحة ذات التجهيز الجديد ، بدون توقف ، وفي وقت قصير .

وكنت قد نزلت في فندق «تسوم جايست» ، وأسرعت على الفور ، لإشباع أكثر الرغائب إلحاحاً ، والدنو من الكاتدرائية التي طالما أرانيها المسافرون معي ، وظلت قبالة عيني ، وهي مني على مسافة بطولها ، ولما استوعبت الآن فحسب هذا الأثر الهائل من خلال الزقاق الضيق ، ثم وقفت قبالته ، قريباً جداً منه ، في الميدان البالغ الضيق بالطبع ، أحدث هذا في نفسي انطباعاً فريداً في نوعه تماماً ، ولكنني حملته هذه المرة في نفسي بصورة غامضة فحسب ، اذ لم أكن قادراً على استكماله للتوّ ، فارتقيت المبنى على عجل لئلاّ أفوّت اللحظة الجميلة لمثل هذه الشمس البهيجة المشرقة التي كان يفترض أن تجلوها لي الأرض الفسيحة الغنية مرة واحدة .

وهكذا رأيت تلقائي ، من القاعدة المنبسطة ، المنطقة الجميلة التي قدِّر لي أن أقطنها وأقيم فيها حيناً من الزمان : المدينة المهيبة ، والمراعي التي تمتد بعيداً حواليها ، والمزروعة بالأشجار الرائعة الكثيفة المتشابكة ، وهذا الغني بالخضرة التي تلفت النظر ، والتي تواكب مجرى الراين ؛ فتجلو الضفاف والجزر الكبيرة والصغيرة(١) ، ولم يكن بأقل من ذلك ازدياناً بالخضرة المتعددة الأشكال تلك الأرض المنبسطة في انحدارها من الجنوب ، والتي يرويها «الإلّر» وكان يوجد ، حتى في الاتجاه الغربي ، ناحية الجبال ، بعض المنحدرات التي تقدم منظراً فتاناً على النحو ذاته ، يأتلف من الغابة وازدهارالمروج ، كما تقطع القسم الشمالي الأكثر تلالاً جداول صغيرة لا نهاية لها تتيح المجال في كل مكان للنمو السريع . ولو تصور المرء الآن كل شيء بين هذه البُسُط الممتدة الكثيفة ، وبين هذه المروج المنبثّة على نحو يبعث على البهجة ، لو تصور هذا مستصلحاً على نحو ممتاز ، وصالحاً للزراعة المثمرة ، وأخضر يانعاً ، وقد خص منه أفضل البقع وأخصبها بالقرى والمزارع ، وكان يجد مثل هذه المساحة الكبيرة التي لا يحيط بها البصر ، والمهيأة بحق لتكون فردوساً جديداً للإنسان ، جبالٌ من قريب ، ومن بعيد ، زُرع بعضها واكتسى بعضها بالغابات ، لو تصور المرء ذلك لقدّر الافتنان الذي باركت به قدري الذي خصّني حيناً من الزمان بمثل هذا المقام الجميل .

على أن مثل هذه النظرة الجديدة الى أرض جديدة كان من المفروض أن نقيم فيها حيناً من الزمان ، تتسم فوق ذلك بتلك السمة الخاصة المستعذبة بمقدار ما هي مثيرة للهواجس ، وهي أن الأمر كله كان ماثلاً تلقاءنا كلوحة لم توصف بعدُ ، إذ لم تدوَّن عليها بعد آلام ومباهج تتصل بنا ، فهذه الرقعة المشرقة الملونة المفعمة بالحياة ما زالت

خرساء بالقياس الينا . وانما تتعلّق العين بالأشياء ما دامت على جانب من الأهمية في حد ذاتها فحسب ، ولا يترتب على الميل ، ولا على الهوى بعدُ ، أن يميّزا بوجه خاص هذا الموضع أو ذاك : ولكن الحدس المسبق لما سيأتي لا يلبث أن يبعث الاضطراب في الفؤاد الفتّي ، كما أن الحاجة التي لم يُتَحْ لها الإشباع تقتضي بهدوء ما يفترض مجيئه ويحتمل ، وما سيتخذه في كل الأحوال طابع المنطقة التي توجد فيها ، سواء كان خيراً أم شراً ، وبصورة غير ملحوظة .

ولما نزلت من شاهق لبثت حيناً قبالة المبنى المهيب ، غير أنّ ما لم أستطع أن اتبيّنه تماماً ، لا في المرة الأولى ، ولا في الفترة الثانية ، هو أنني لمست في هذه الأعجوبة شيئاً مهولاً كان خليقاً أن يفزعني بلا ريب لولا أنه بدا لي ممكن الإدراك من حيث هو شيء منظّم مدبر ، بل بدا لي مستحسناً من حيث كمال إنجازه . على أنني لم أشغل نفسي مع ذلك بمتابعة هذا التناقض بحال من الأحوال ، بل تركت مثل هذا المَعْلم المدهش يتابع ممارسة تأثيره عليّ من خلال حضوره .

واتخذت مسكناً صغيراً ، ولكنه أنيق حسن الموقع ، على الجانب الصيفي من سوق السمك ، وهو شارع جميل طويل كانت الحركة الدؤوبة فيه تملأ كل لحظة خالية . ثم قدمت كتاب التوصية . ووجدت بين رعاتي تاجراً كان غارقاً مع أسرته في تلك الأفكار التقويّة المعروفة لدي من قبل بما فيه الكفاية ، على الرغم من أنه لم ينفصل عن الكنيسة فيما يتصل بالطقوس الظاهرية للعبادة . وقد كان في ذلك رجلاً حكيماً ، ولم يكن بحال من الأحوال فاتر الهمة فيما يأتي وما يدع . وكان رفاق المائدة الذين دلني القوم عليهم وأوصوهم بي جدّ ظرفاء ومُسلّين . وكان عدد من العوانس يقمن بأمر هذا الفندق العائلي منذ

وقت طويل ، بنظام ونجاح كبير ، وربما كان القوم نحو عشرة أشخاص ، وثمة واحد من هؤلاء يتمثل في ذهني أشدّ ما يكون التمثل، ويدعى مَايَرْ(١) ، من مواليد لنداوْ . وقد كان في وسع المرء أن يعدّه ، بالنظر الى قوامه ووجهه أجمل إنسان ، لولا أنه كان يتسم ، في مجمل طبيعته ، بشيء من الوهن والاضطراب وكذلك كان يشوّه مواهبه الطبيعيّة الرائعة طيش لا يصدق ، كما يشوه نفسه الطيّبة استهتار لا سبيل الى الإمساك بزمامه ، وكان له وجه أقرب الى الاستدارة منه الى الشكل البيضاوي ، وكان طلقاً بشوشاً ، وكانت آلات الحس ، من عينين ، وأنف وفم وأذنين مما يمكن للمرء أن يعدّها غنيّة ، اذ كانت تنطق بامتلاء فائق دون أن تكون كبيرة الى درجة الإفراط . . وكان فمه بوجه خاص فائق الظرف بشفتيه المنفرجتين ، وكان يضفي على سيمائه كلها تعبيراً مؤداه أنه كان لغزاً ، ومن ذلك أن حاجبيه كانا يتصادمان فوق أنفه ، وذلك ما كان يحدث في الوجه الجميل دائماً تعبيراً جميلاً عن النزعة الحسيّة ، وقد اكتسب حب الناس جميعاً بالبشر والإيناس والاخلاص وطيب القلب ، وكانت ذاكرته لاتصدق ، ولم يكن الانتباه في المحاضرات يكلفه شيئاً ، فقد كان يحتفظ بكل ما يسمع ، وكان يبلغ من حدة الذهن ما يكفي ليجد في كل شيء بعض ما يثيرا اهتمامه ، وكان مما يهون عليه ذلك أنه كان يدرس الطب . وكانت كل الانطباعات تظل حيّة في نفسه . وكان يبلغ من جرأته في استذكار المحاضرات وتقليد الأساتذة في بعض الأحيان أنه حين يكون قد استمع في الصباح الى ثلاث حصص مختلفة ، يدع الأساتذة ، على المائدة ظهراً ، يتوالون فقرة فقَرة ، بل يدعهم يتعاقبون أحياناً بصورة أكثر تقطعاً ، فكانت تلك المحاضرة ذات الفقرات الملوّنة

طالما تسلّينا ، على أنها كانت تقع منا في كثير من الأحيان موقعاً ثقيلاً أيضاً .

أما الآخرون فكانوا أناساً يتسمون بقدر أقل أو أكثر من الدقة والرصانة والجدّ . وكان يوجد بينهم فارس متقاعد من فرسان لويس الرابع عشر(١) ، ولكن الطلاب كانوا هم الأغلبيّة ، وكانوا جميعاً من الأفاضل ذوي الروح الودية ، إلا أنه كان عليهم ألا يتجاوزوا نصيبهم المألوف من الخمر . أما أن هذا الأمر لم يتحقق بسهولة فقد كان ذلك هو الشغل الشاغل لرئيسنا ، الدكتور زالتسمان(٢) ، وكان وهو عزبٌ في الستينات ، يتردد على مائدة الغداء هذه ، ويحافظ على نظامها وسمعتها ، وكان يملك ثروة حسنة ، وكان في مظهره الخارجي مقتصداً وأنيقاً ، بل كان من أولئك الذين يخرجون دائماً بالحذاء والجوربين ، وقبعته تحت ذراعه . أما اعتمار القبعة فقد كان حدثاً استثنائياً عنده . وكان يحمل معه في العادة مظلة ، اذ يأخذ في حسبانه أن أجمل أيام الصيف قد تأتي في كثير من الأحيان بالعواصف ووابل المطر على البلاد .

وناقشت مع هذا الرجل عزمي على الاجتهاد في تحصيل المزيد من علم الحقوق هنا في شتراسبورج ، لأتمكن من التخرج في أقرب وقت ممكن . ولما كان مطلعاً على كل شيء بدقة . فقد سألته عن المحاضرات التي كان علي أن استمع إليها . وعن رأيه في المسألة على كل حال ، وأجاب عن ذلك بقوله ان الأمور في شتراسبورج لا تجري على النحو الذي تجري عليه في المعاهد الألمانية ، حيث يسعى القوم الى تكوين حقوقيين بالمعنى الواسع والثقافي ، أما هنا فيجري توجيه كل شيء في الحقيقة صوب الجانب العملي ، تبعاً للعلاقة مع فرنسا ، وعلى نمط

تفكير الفرنسيين الذين يحلو لهم التمسك بالواقع الراهن . وانهم يسعون الى تلقين كل واحد مبادىء عامة معينة ، ومعلومات أولية معينة . وانهم يختصرون ما استطاعوا ولا يقدمون إلا المتناهي في ضرورته . ثم عرفني على رجل كان القوم يثقون به ثقة كبيرة من حيث كونه معيداً ، وقد تمكن من اكتساب هذه الثقة لدي أيضاً في أجل جدّ قريب . فشرعت في التحدث اليه حول المدخل الى موضوعات علم الحقوق ، ولم تكن دهشته قليلة حيال خيلائي . ذلك لأنني كنت قد اكتسبت من عمق النظر في علم الحقوق خلال إقامتي في لايبتسيج أكثر مما أتيح لي من الفرصة حتى الآن لتفصيل القول فيه ، خلال عرضي هذا ، على الرغم من أن كل تحصيلي لم يكن مـــن الممكن أن يعد إلاّ نظْرة شاملة موسوعية عامة ، لا معرفة حقيقية محددة . وحتى اذا لم يكن لنا أن نفخر بالنشاط الحقيقي في الحياة الجامعية فان هذهالحياه تحققبلا ريب مزايا لا حصر لها فيكل ضرب من ضروب التعليم .و ذلك لأننا نكون على الدوام محاطين بأناس يملكون العلم أو يلتمسونه ، بحيث نستمد دائماً بعض الزاد من مثل هذا الجو ، وان كان ذلك بصورة لاشعورية .

وقد أفهمني أستاذي المعيد آخر الأمر بعد أن صبر بعض الوقت على تخبّطي في المناقشة ، أن لا بدّ لي قبل كل شيء أن أحتفظ بغايتي الأولى نصب عيني ، وهي أن أتقدم للامتحان ، وأتخرّج ، ثم اتحول بعد ذلك الى الممارسة على كل حال ، وقال : « لكي نظل عند النقطة الأولى ، فان المسألة لاتُلتَمس بعيداً بحال من الأحوال ، ولا يتساءلون كيف وأين نشأ القانون ، وما الذي أعطى الباعث الداخلي و الخارجي له ، ولا يبحث المرء كيف تغير بفعل الزمان والعادة ،

ولا إلى أي مدى قد يتم قلبه رأساً على عقب بالتفسير الخاطئ أو الاستعمال القضائي المعكوس . ففي مثل هذه الأبحاث ينفق رجال العلم حياتهم بصورة جلية تماماً . أما نحن فتساءل عما يوجد في الوقت الراهن ؛ وهذا ما نطبعه في ذاكرتنا بقوة ؛ ليكون ماثلاً في أذهاننا على الدوام حين نريد أن نستخدمه لمصلحة عميلنا ولحمايته ، وعلى هذا النحو نجهّز شبابنا من أجل حياتهم القادمة . أمّا ما وراء ذلك فيتحقق بحسب حالة مواهبهم ونشاطهم » . وعلى أثر ذلك سلمني كراريسه التي كانت مكتوبة في صورة أسئلة وأجوبة ، والتي كان في وسعي الى حد كبير أن أؤدي منها امتحاناً على الفور ، لأن كتاب هوبه(١) الموجز الصغير في الحقوق كان ما يزال ماثلاً في ذاكرتي بصورة كاملة ، أما ماتبقّى فقد استكملته ببعض الجهد ، وأهّلت نفسي ، خلافاً لارادتي ، وبأسهل طريقة ، لأكون مرشحاً للامتحان .

ولكن لمّا كان كل نشاط خاص في الدراسة قد انقطع لديّ على هذا الطريق : اذ لم يكن عندي تقبّل لشيء وضعي ، بل كنت أريد أن يُشرَح لي كل شيء من الوجهة التاريخية ، ان لم يكن من الوجهة العقلانية ، وهكذا وجدت لطاقاتي مضماراً أكبر ، كنت استعمله بأروع طريقة ، اذ كنت استسلم لاهتمام ورد عليّ من الخارج بطريق المصادفة .

وكان معظم رفاق مائدتي من أهل الطب . وهؤلاء ، كما هو معروف ، هم الطلاب الوحيدون الذين يتحدثون بحيوية في علمهم ، ومهنتهم حتى خارج ساعات الدرس . وانما يكمن هذا في طبيعة المسألة . وذلك أن موضوعات جهودهم هي الأكثر حسيّةً ، وهي في الوقت ذاته الأكثر سموّاً ، وهي الأكثر بساطة والاكثر تعقيداً .

فالطب يشغل الانسان كلّه ، لأنه يتناول الانسان كلّه . وكل ما يتعلّمه الفتى ينتهي في الوقت نفسه الى ممارسة هامة ، وهي تنطوي على الخطر في الحقيقة ، ولكنها مجدية بمعنى ما . ولذلك فهو يندفع بحماسة نحو ما يجب معرفته وعمله لأنه يثير اهتمامه في حد ذاته من ناحية ، ولأنه يفتح أمامه أفقاً من المستقبل يقوم على الاستقلال والرخاء .

واذاً فلم أكن اسمع على المائدة شيئاً آخر سوى الأحاديث الطبية ، مثلما كان الحال من قبل في الفندق العائلي للمستشار لودفيج(٢) .وكذا لم يكن يرد كثير من الأشياء الأخرى في الحديث عند النزهات وحفلات الترفيه . ذلك لأن رفاق مائدتي ، الذين كانوا رفاقاً فاضلين ، كانوا قد تحوّلوا الى رفاق لسائر الأوقات أيضاً . وكان ينضّم إليهم في كل مرة طلاب مماثلون لهم في التفكير ومماثلون لهم في الدراسة ، من كل حدب وصوب . وكانت كلية الطب تتألق متفوقة بصورة مطلقة على سائر الكلّيات ، سواء بالنظر الى شهرة معلميها ، أم بالنظر الى تردّد المتعلمين ، وهكذا كان يجرفني التيار بسهولة أكبر حين بلغت معرفتي بكل هذه الأشياء قدراً أمكن معه زيادةُ حبّي للمعرفة وقَدْحُ زناد ذلك الحب في أجل قريب . ولذلك أخذت أتردد ، لدى حلول الدورة الثانية ، على الكيمياء عند شبليمَن(١) ، وعلى التشريح عند لوبشتاين(٢) ، واعتزمت أن أكون مجتهداً حقاً ، لأنني كنت قد اكتسبت في مجتمعي ، بمعلوماتي الأوّلية ، أو بالأحرى ، بمعلوماتي الفائقة ، بعض السمعة والثقة .

ومع ذلك فلم تكن هذه التسلية وهذا التبَعْثُر في دراساتي كافيَيْن ، اذا كان مقدّرا لها أن يتكدّر صفوها مراراً وعلى نحو خطير ، لأن حدثاً من أحداث الدولة ذات الشأن بعث الحركة في

كل شيء وأتاح لنا سلسلة لا يستهان بها من أيام العطلات . وذلك أن ماري انطوانيت(٣) ، أرشيدوقة النمسا ، وملكة فرنسا ، كان مرسوماً لها أن تمرّ بشتراسبورج في طريقها الى باريس . وجرى التحضير بنشاط وتكرار كثير للاحتفالات التي يتم بها لفت نظر الشعب الى أن هناك عظماء في العالم . وكان يستوقف نظري بصورة خاصة في هذا المقام المبنى الذي أقيم لاستقبالها وتسليمها الى يد مبعوث زوجها ، على جزيرة في الراين بين كلا الجسرين، وكان لا يرتفع عن الأرض إلاّ قليلاً ، وكان في وسطه قاعة كبرى ، وعلى كلا جانبيها قاعتان أصغر ، ثم يليها حجرات أخرى تمتد ناحية الخلف قليلاً . وجملة القول أنه كان من الممكن أن يعدّ ، لو أنه بُني بناء أكثر قابلية للبقاء ، مَرْبَعَ لَهْوٍ لكبار الشخصيّات . غير أن ما كان يثير اهتمامي فيه بصورة خاصة ، وما كنت لأضّن من أجله ببعض البوزلات ( وهي قطع نقد فضية صغيرة كانت متداولة في تلك الأيام ) لكي أحظى من البوّاب بدخول متكرر ، انما كان البُسُط المطرَّزة التي كان القوم قد كَسَوْا بها كل شيء من الداخل . اذ رأيت هنا أوّل مرة أنموذجاً من تلك السجاجيد المطرَّزة نقلاً عن اللوحات الجدارية لرافائيل(٤) ، وكان لهذه النظرة عندي أثر حاسم تماماً ، اذ انني تعرّفت على ما هو صحيح وكامل ، بالجملة ، وان كان ذلك منقولاً . وجعلت أذهب وأجيء ، ثم أجيء وأذهب ، فلا أستطيع أن أرتوي من النظر ، بل كان يعذبني طموح لاطائل تحته ، اذ كان ما أخاطبه على هذا النحو الفائق خليقاً أن يسرني ادراكه ، وكنت أجد هذه القاعات الجانبية باعثة على ذروة الابتهاج والانشراح بمقدار ما كنت أجد القاعة الرئيسية مريعة . وكان القوم قد كَسَوْا

هذه بسجاجيد جدارية(١) أكبر وأكثر بريقاً ، وأغنى ، ذات زخارف مكثّفة جرى تطريزها بالنقل عن لوحات لفرنسيين جدد .

وكنت الآن خليقاً أن آلـف هذا الأسلوب أيضاً ، لأن إحساسي ، كان مثل حكمي ، لا يسهل عليه أن يستبعد شيئاً كلّ الاستبعاد ، ولكن الموضوع كان يثير استيائي الى أقصى الحدود . فقد كانت هذه الصور تتضمّن قصة ياسون(٢) وميديا وكرويسا ، أي أنها كانت تتضمن مثالاً لأتعس ضروب الزواج . فالى يسار العرش كان المرء يرى العروس التي كانت تصارع أقسى ضروب الموت وقد أحاط بها المواسون المتفجّعون ، والى اليمين كان الأب قد تولاّه الرعب حيال أطفاله القتلى عند قدميه ، بينما كانت الهة الغضب تشقّ طريقها في الهواء على العربة التي يجرّها التنيّن ، ولكيلا تفتقر هذه القسوة والفظاعة إلى شيء ناب عن الذوق ، كان يبرز ، في صورة حلقة ، وراء المخمل الأحمر لظهر العرش المطرّز بالذهب ، من اليمين ، الذنبُ الأبيض لذلك الثور السحري ، على حين كان الوحش الذي يلفظ النار ، نفسُه ، وياسون الذي يناضله ، يغطّيان تلك الستائر النفيسة تغطية كاملة .

وهنا انبعثت في صدري الآن كل المبادىء التي كنت قد اكتسبتها في مدرسة أوزر . لقد كان يحدث أن يجيء القوم بالمسيحية والرسل الى القاعـات الجانبيّة للمبنى الذي يقام فيـه العرش ، دونما اختيار أو رويّة . وما من شك في أن قياس الحجرات كان يوجّه قيّم السجّاد الملكي ، إلا أنني اغتفرت هذا بسهولة ، لأنه عاد عليّ بفائدة جُلّى . ولكن خطأً كذلك الذي في القاعة الكبرى أخرجني عن طوري تماماً ، وجعلت أناشد رفاقي ، بحيوية وعنفوان ، أن يكونوا شهداء على مثل

هذه الجريمة بحق الذوق والشعور — وصحت قائلاً ، من دون أن أحفل بالواقفين من حولي : « أمِنَ المسموح به أن يوضع أمام عينيَّ ملكةٍ شابةَ مثال ربما كان من أفظع صور الأعراس التي أقيمت في يوم من الأيام ، ومع أول خطوة في بلادها ، على هذا النحو ، دونما روية ! أولا يوجد بين المهندسين ومصممي ( الديكور ) ومزيني الجدران بالسجاد ، إنسان يدرك أن الصور تمثل شيئاً ما ، وأن الصور تؤثر في الفكر والشعور ، وأنها تحدث انطباعات ، وتثير هواجس ! أما إنّ هذا لا يختلف حقاً عن أن يبعث المرء الى هذه السيدة الجميلة المفعمة ، كما نسمع ، بحب الحياة ، بأشنع شبح للقائها حتى الحدود » . ولست أدري كل ماقلت بعد ذلك . وجملة القول ان رفاقي حاولوا تهدئتي وإخراجي من الدار لكيلا يثير ذلك الاستياء . ثم أكدوا لي أنه ليس من شأن كل امرىء أن يلتمس المعنى في الصور ، وأنهم ما كان ليخطر ببالهم هم على الأقل شيء من ذلك في هذا الصدد . وتبعاً للنزوات ذاتها فان السكان جميعاً ، في شتراسبورج وما حولها ، مهما بلغ من تدفقهم فلن يقع بصرهم حينئذ إلا على الملكة نفسها مع حاشيتها .

وما زلت أذكر بصورة جيدة حقاً الملامح الجميلة والنبيلة لهذه السيدة الشابة ، التي تتسم بالبشر كما تتسم بالمهابة . وقد ظهرت في عربتها الزجاجية ، وهي مرئية بالقياس الينا جميعاً بصورة كاملة ، مع مرافقاتها ، وكأنها تتندر ، في حديثها الحميم ، بالجمهور الذي كان يتدفق نحو موكبها . وفي المساء كنا نطوف في الشوارع لنرى المباني المضاءة المختلفة ، ولا سيما قبة الدير الملتهبة التي لم نكن نستطيع أن نسرح الطرف فيها على نحو كاف ، سواء على القرب أم على البعد .

ومضت الملكة في طريقها ، وتفرّق شعب الريف ، وسرعان ما كانت المدينة هادئة كشأنها من قبل . وكان القوم قد أصدروا قبل وصول الملكة التعليمات المعقولة تماماً ، وهي ألا يظهر في طريقها أشخاص مشوّهون ، ولا ذوو عاهات ومرضى يثيرون الاشمئزاز . وكان القوم يتندّرون بهذا . فوضعت قصيدة فرنسية قصيرة عقدت فيها مقارنة بين مجيء المسيح الذي كان يجوب الأرض من أجل المرضى والمشلولين ، ووصول الملكة التي كانت تُجفل من هؤلاء التعساء ولم يأخذ عليها أصدقائي شيئاً ، وفي مقابل ذلك انتقد اللغة والوزن فرنسيّ كان يعيش معي بقسوة شديدة ، على الرغم من أنه لم يكن ، كما كان يبدو ، إلا مفرطاً في التقصّي ، ولا أذكر أني وضعت بعد ذلك قصيدة فرنسية(١) مرة أخرى .

ولم يكد يتناهى من العاصمة خبر الوصول السعيد للملكة حتى أعقبه بريد مفزع : وذلك أن عدداً كبيراً من البشر قد هلكوا مع الخيول والعربات في مهرجان للمفرقعات ، عن طريق خطأ في النظر من قبل الشرطة في شارع مسدود بمواد البناء ، وأن المدينة دهمها الحزن والألم في وسط احتفالات الزفاف هذه . وحاول القوم أن يخفوا عِظَم المصاب ، سواء عن الزوجين الملكيّين الشابّين ، أم عن العالم ، بأن يدفنوا الأشخاص القتلى سراً ، حتى لقد غدا كثير من الأسر مقتنعاً ، بمجرد المبيت الكامل لذويهم خارج البيت ، أنّ هؤلاء ايضاً قد جرفهم الحادث الرهيب . ولست في حاجة الى الإشارة الى أن تلك الصور الفظيعة في القاعة الرئيسية باتت في مثل هذه المناسبة تتجاّى لي بصورة حية : ذلك لأن كل امرىء يعرف مدى القوة التي تبلغها انطباعات أخلاقيّة معينة حين تكاد تتجسّد في انطباعات حسيّة .

ومع ذلك فقد كان مقدّراً لهذا الحدث أن يوقع أهلي في فزع ومحنة ، بفعل مكيدة أبحتها لنفسي . وذلك أن ثمة احتكل كامعيناً قد اتصل من بعد أيضاً بيننا معشر الشباب الذين كنا معاً في لايبتْسج ، اذ يخادع بعضنا بعضاً ونمارس التعمية والإلغاز على نحو متبادل . وبمثل هذه الجرأة المستهترة كتبت الى صديق في فرانكفورت(١) ( وكان هو ذاته الذي استعمل قصيدتي في خباز الفطائر هيندل ، مضخّمةً ، على «ميدون»(١) وكان سبباً في انتشارها العام ) رسالةً مؤرّخة من فرساي أنبأته فيها بوصولي السعيد الى هناك ، وبمشاركتي في الاحتفالات وما سوى ذلك ، ولكني أوصيته في الوقت ذاته بالصمت المطبق . ولابد لي بعد من الاشارة في هذا الصدد الى أن زمرتنا الصغيرة من أهل لا يبتسج كانت قد اعتادت منذ تلك الدعابة التي أثارت لدينا قدراً غير قليل من الاستياء ، أن تقفّي عليها من حين الى آخر بضروب من التعمية والإلغاز ، وكان ذلك بوجه خاص لأنه كان الانسان الأكثر إضحاكاً في العالم ، ولم يكن هناك من هو أكثر منه ظرفاً حين يكتشف الخطأ الذي كان القوم قد ساقوه اليه عمداً ، وقمت ، بُعَيْد ذلك ، حين كتبت الرسالة ، برحلة قصيرة ، ولبثت خارج البيت أربعة عشر يوماً ، وكان خبر تلك المصيبة قد وصل في هذه الأثناء الى فرانكفورت ، وكان صديقي يعتقد أنني في باريس وجعله هواه يخشى أن أكون أصبت بتلك المصيبة ، فجعل يسأل والديّ والأشخاص الآخرين الذين دأبتُ على الكتابة اليهم ألم تصلهم رسائل . ولما كانت تلك الرحلة تمنعني أن أبعث بشيء من هذا القبيل فقد كانت

---

(١) من أبطال الأساطير اليونانية (الأوذ يسا) (المترجم)

الرسائل تُفتقد من كل ناحية ، فجعل يغدو ويروح ، وقد تولاه فزع شديد ، وأفضى بذلك آخر الأمر الى أقرب أصدقائنا الذين تولاهم الآن قلق مماثل . وكان من حسن الحظ أن هذا التكهن لم يبلغ والدي قبل أن تصل رسالة تعلن عن عودتي الى شتراسبورج . واغتبط أصدقائي الشباب اذ عرفوا أنني على قيد الحياة ، غير أنهم ظلّوا مقتنعين كل الاقتناع أنني كنت في أثناء ذلك في باريس . على أن الأنباء التي تنم عن صدق العاطفة ، حول الهموم التي أصابتهم من أجلي أثرت في نفسي تأثيراً بلغ منه أنني قطعت عهداً على نفسي ألا أقرب أمثال هذه المقالب الى الأبد . غير أنني سمحت لنفسي بعد ذلك أن تقترف مع ذلك ، ويا للأسف ، شيئاً مشابهاً في بعض الأحيان . فالحياة الواقعية تفقد في كثير من الأحيان بريقها الى حد يضطر عنده المرء الى أن يجلوها في بعض الأحيان بطلاء الخيال البراق .

وكان ذلك التيار الهائل ، تيار البلاط والأبهة ، قد انفرط عقده ، ولم يخلف عندي شوقاً آخر سوى الشوق الى تلك البُسُط الرافائيلية التي كنت خليقاً أن أتأملها مسروراً كل يوم وكل ساعة ، وأمجدها بل، أصلي لها . وكان من حسن الحظ أن أتيح لجهودي الحماسية أن تثير اهتمام بعض الشخصيات ذات الخطر ، بها ، فلم تؤخذ ، ولم تُعبّأ إلا في آخر وقت ممكن ، فأسلمنا أنفسنا الآن من جديد الى مسار حياتنا الجامعية والاجتماعية الوادعة . أمّا ما يتصل بالأخيرة فقد ظل زالتسمن ، كاتب المحكمة ، وعميد مائدتنا ، المربي العام . وكان عقله وسماحته ، ونبله الذي عرف كيف يحافظ عليه عند كل هزل ، وحتى تجاه بعض النزوات الصغيرة التي كان يسمح لنا بها ، يجعل منه امرءاً محبوباً ذا مكانة عند الزمرة كلها ، ولم أعرف إلا حالات

قليلة أظهر فيها استياءً جدّياً أو تدخّل بسلطته في المنازعات والمشاجرات الصغيرة ، وكنت ، من بين هؤلاء جميعاً ، ذلك الذي يلازمه كأشد ما تكون الملازمة ، كما أنه لم يكن أقل ميلاً الى الحديث معي لأنه رآني مثقفاً ثقافة أكثر تعدداً في جوانبها من الآخرين ، ولم أكن أحادي النظرة في الحكم ، كنت أحذو حذوه في المظهر الخارجي أيضاً لكي يستطيع أن يعلن على الملأ دونما حرج أنني زميله ورفيقه . وعلى الرغم من أنه لم يتقلّد إلاّ وظيفة واحدة كانت تبدو ضئيلة الأثر فقد كان يؤديها بطريقة تبوّئه غاية الشرف ، وذلك أنه كان مسجلاً في دائرة الأيتام . وكان بالطبع يمسك بيديه بالسجل هناك ، شأن أمين السر الدائم في الجامعة ، ولما كان قد عني بهذا العمل كثيراً من السنين على أدق الوجوه فلم يكن هناك أسرة لم تكن مدينة له بالشكر ، من أولى الأسر الى أدناها ، مثلما لا يكاد يوجد في ادارة الدولة كلها امرؤ يستطيع أن يجني من البركة أو اللعنة مثل ما يجني من يعنى بالأيتام أو يبدد ثروتهم ومالهم ، أو يُسْلِمَهم الى الضياع .

ويعد أهل شتراسبورج من المتحمسين للنزهات . ولا ريب أن من حقهم أن يكونوا كذلك ، فحيثما يوجه المرءُ خطواته يجْد مرابع اللهو ، طبيعيّة حيناً ، ومؤسّسةً تأسيساً فنياً في عصور قديمة وحديثة حيناً آخر ، فيزور الواحد منها كما يزور الآخر ، ويستمتع بذلك شعبٌ صغير مستبشر مرح . غير أن ما كان يلفت أنظار جمهور كبير من المتنزهين هنا على نحو أكثر ابتعاثاً للبهجة من الأماكن الأخرى إنما كان الزيّ المتنوع للجنس الأنثوي . فكانت الطبقة الوسطى من بنات المدن ما تزال تحتفظ بالضفائر المرفوعة الى الأعلى اذ تنغرس فيها إبرة

كبيرة على نحو محكم ، ولم يكن أقل من ذلك لفتاً للنظر نوع معين من الثياب مختصَر تغدو معه كل جرّة قدم شيئاً مزعجاً . وكان الممتع في ذلك أن هذا الزيّ لم يكن يتباين تبايناً حاداً تبعاً للطبقات ، اذ كان ما يزال هناك بعض بيوت النبلاء الأثرياء الذين كانوا يأبون أن يسمحوا لبناتهم بالابتعاد عن هذا الزي . وكان الآخرون يتبعون النمط الفرنسي ، وكان هذا الفريق يكسب في كل عام بعض الأنصار . وكان لزالتسمن كثير من المعارف ، فكان يدخل كل بيت ، وكان هذا متعة كبيرة لمرافقه ، ولا سيما في الصيف ، لأن المرء كان يحظى بلقاء حسن وأصحاب طيبين واستجمام في كل مكان ، في الحدائق ، قريبها و بعيدها ، وكان يتلقى أيضاً في الوقت نفسه دعوة في هذا اليوم البهيج أو ذاك . وفي مثل هذه الحال وجدت فرصة للتقرب من عائلة لم أكن أزورها إلاّ زيارتي الثانية ، بسرعة كبيرة ، وكنا قد دعينا ، وحضرنا في الوقت المحدد . ولم تكن الجماعة كبيرة ، وكان بعضهم يلعب ، وبعضهم يتنزه كالمعتاد . ثم انني رأيت بعد ذلك حين كان من المفروض أن نذهب الى المائدة ، المضيفة وأختها تتحادثان بانفعال كأنهما في حرج شديد ، فابتدرتهما في الحال وقلت : « ليس من حقي ، في الحقيقة ، أن أتدخل ، يا سيدتي ، في أسراركما ، ولكن ربما كنت على استعداد لتقديم مشورة حسنة ، أو حتى لأداء خدمة » . فكشفتالي ، على أثر ذلك ، عن وضعهما المزعج : وهو أنهما دعتا اثني عشر نفراً الى المائدة ، وفي هذه اللحظة قدِم أحد الأقرباء عائداً من رحلة ، وكان خليقاً أن يغدو الآن بحكم كونه الثالث عشر ، عبرة بليغة لنفسه إن لم يكن عبرة لبعض الضيوف » . فأجبت قائلاً : « من السهل جداً تدارك الأمر ، فلتسمحا لي أن أبتعد ، وأن احتفظ لنفسي بالتعويض»

ولما كان هناك شخصيات لها سمعتها ونمط حياتها الراقي فقد أبتا ان تسلما بذلك بحال من الأحوال ، بل أرسلتا الى الجيران من أجل العثور على الرابع عشر ، ولم أرَ بذلك بأساً ، ولكن حين رأيت الخادم يعود من باب الحديقة بغير طائل ، تواريت وقضيت أمسيتي مسروراً تحت الزيز فونات الهرمة في فايتسناو . وكان من النتائج الطبيعية لهذا الحرمان أن يعوَّض عنه بسخاء .

وهناك نوع من المؤانسة العامة لا يمكن تصوّره بدون لعب الورق . وقد جدّد زالتّسمَن الدروس الجيدة للسيدة بوهمه(١) ، وغدوت أكثر مطاوعة حين تبيّن لي حقاً أن المرء يستطيع ، عن طريق هذه التضحية الضئيلة ، ، ان كان ثمة تضحية كهذه ، أن يستمدّ بعض المتعة ، بل أن يكتسب حريّة أكبر في المجتمع ممّا عسى أن يستمتع به من وجوه أخرى . ومن أجل ذلك أخذوا يبعثون لعبة البيكيه القديمة الهاجعة ، وتعلمت لعبة الويست ، وأعددت لنفسي ، بتوجيه من معلمي الخاص ، كيسا للعب كان يفترض أن يكون غير قابل للطعن فيه في كل الظروف ، ووجدت الآن فرصة لقضاء معظم الأمسيات مع صديقي في أفضل الأوساط ، حيث كان القوم في معظم الأحيان يظهرون حسن النية نحوي ، ويصفحون عن ضروب التجاوز الصغيرة التي دأب الصديق مع ذلك على لفت نظري اليها مهما تكن طفيفة .

ولكن لكي أحيط علماً ، في هذا الصدد ، بطريقة رمزية ، بمدى ما يضطر المرء الى التلاؤم مع المجتمع ، والسير على نهجه ، في المظهر الخارجي أيضاً ، اضطررت الى شيء كان يبدو لي أنه الأكثر ازعاجاً في الدنيا . لقد كان لي في الحقيقة شعر جميل جداً ، ولكن حلاّقي الشتراسبورجي أكد لي على الفور أنه محلوق حلاقة جائرة أكثر مما

ينبغي في الناحية الخلفية وأنه يستحيل عليه أن يشكّل من ذلك حلاقة يمكنني أن أظهر فيها أمام الملأ اذ لن يتم عندئذ إلا ترجيلُ قليل من الشعر الأمامي القصير المجعد ، ولا بد من أن يحُزَم كل ما تبقّى ، ابتداءً من قحف الرأس ، في الضفيرة أو بتسريحة كيس الشعر . ولا يبقى لي في هذا الصدد إلاّ القبول بتسريحة ما للشعر الى أن يكون النموّ الطبيعي قد استقام من جديد تبعاً لمقتضيات العصر . ووعدني بألا يلاحظ أحد في يوم من الأيام هذا الغش البريء الذي قاومته في البداية مقاومة جدية شديدة ، اذا استطعت أن أحزم أمري في هذا الصدد على الفور ، وبرّ بوعده ، وكنت أعَدُّ دائماً أفضل الشباب حلاقة وشَعْراً . ولكن لما كان لابد لي أن أظل منتصب القامة معفراً بالمساحيق من الصباح الباكر ، وأن ألزم جانب الحذر لكي لا أشيَ بالزينة الزائفة عن طريق الاستدفاء أو الحركة العنيفة فقد أسهم هذا القسر اسهاماً كبيراً حقاً في حملي على سلوك أكثر هدوءاً وتهذيباً حيناً من الزمان ، وفي تعويدي أن أخرج والقبعة تحت ذراعي ، وبالتالي : بالحذاء والجوربين أيضاً ، ومع ذلك فلم يكن يجوز لي أن أقصّر في ارتداء الجوارب الجلدية الرقيقة التحتية لحماية نفسي من بعوض الراين الذي دأب على الانتشار في أمسيات الصيف الجميلة فوق المروج والحدائق . ولئن حُرِمت في هذه الظروف حركة الجسد العنيفة فقد كانت أحاديثنا الجماعية تزداد حيوية وحرارة على نحو مطرد ، بل كانت أمتع الأحاديث التي كنت قد خضت فيها حتى ذلك الوقت ، في تلك الأيام .

ومع أسلوبي هذا في الاحساس والتفكير لم يكن يكلفني شيئاً على الاطلاق أن أدع كل امرىء يتبوأ المكان الذي هو فيه ، بل المكان الذي

يريد أن يتبوّأه ، وعلى هذا النحو أكسبتني الصراحة القائمة على جرأة شاب نشيط تجلّت أول مرة تقريباً في ازدهارها الكامل ، أصدقاء وأنصاراً كثيرين جداً،وازداد رهط مائدتنا الى عشرين نفراً،ولما كان صاحبنا زالتسْمَن يتمسّك بطريقته الموروثة ، فقد ظل كل شيء في مساره القديم ، بل أصبح الحديث أكثر لياقة ، على وجه التقريب ، اذ كان على كل واحد أن يتخذ جانب الحذر أمام العديدين . وكان بين القادمين الجدد رجل أثار اهتمامي بوجه خاص ، وكان يدعى يونج(١) ، وكان هو ذاته الذي عُرف أول الأمر باسم شتللنج . وكانت شخصيته تنطوي، بغضّ النظر عن طراز ملابسه المتقادم ، على شيء من الرقة مقترن بشيء من الخشونة ، وكان الشعر المستعار على هيئة الكيس لا يشوه وجهه الحافل بالمعاني ، والمتسم بالظرف ، وكان صوته رقيقاً دون أن يكون ناعماً أو ضعيفاً ، بل لقد كان يتحول الى صوت مستحسن الجرس قوي بمجرد أن تأخذه الحماسة ، وهو الأمر الذي كان يحدث بسهولة كبيرة . وكان المرء اذا عرفه معرفة أوثق وجد فيه عقل إنسان سليم يستند الى الوجدان ولذلك فهو يدع نفسه تتحكّم فيها الأهواء والعواطف ، وكان ينبثق عن هذا الوجدان ذاته حماسة للخير والأصالة والحق في أنقى الصور الممكنة . ذلك لأن مسار الحياة عند هذا الرجل كان قد غدا بسيطاً جدّاً ، وكان مع ذلك مزدحماً بالأحداث والنشاط المتعدد الوجوه . وكان مَعْدِن طاقته إيمان لايتزعزع بالله ، وبعون يتنزّل من لَدُنه على نحو مباشر ، تؤيده العناية الّتي لاتنقطع والإنقاذ الذي لا يخيب ، من كل محنة ، و من كل سوء ، بصورة ظاهرة للعيان . وكان يونج قد حصّل في حياته من ضروب الخبرة قدراً كبيراً للغاية ، وقد تكررت هذه الخبرات

مؤخراً ، في شتراسبورج ، في كثير من الأحيان ، حتى انه كان يعيش حياته بأكبر قدر من المتعة ، على نحو معتدل في الحقيقة ، ولكن بصورة تخلو من الهموم ، وكان ينصرف الى دراساته بجدّ متناهٍ على الرغم من أنه لم يكن يستطيع أن يعتمد على دخل مضمون من فصل الى آخر من فصول السنة . وقد لجأ في صباه ، وهو في طريقه الى أن يغدو وقادا للفحم ، الى مهنة الخياطة ، وبعد أن تعلّم دروساً الى جانب ذلك من أشياء أعلى ، دفعته الروح المتعطشة الى التعليم الى وظيفة مدرس ، وقد أخفقت هذه المحاولة ، وعاد الى المهنة ، التي كان يُستدعى منها مراراً ، اذ كان كل امرىء يمحضه الثقة والهوى بسهولة ، ليتولى وظيفة معلم خصوصيّ على نحو متكرر . ولكنه كان يدين بالفضل بثقافته الأعمق والأخص الى ذلك الطراز الشائع من البشر الذين يلتمسون الشفاء لأنفسهم بأيديهم ، وكانوا يحصّلون ، اذ كانوا يَنزِعون الى تهذيب أنفسهم بقراءة الكتاب المقدس ، والكتب ذات المضمون الجيد ، وبالتذكير والاعتراف المتبادل ، درجة من الثقافة كان لابد أن تثير الإعجاب . ذلك لأنه في الوقت الذي كان فيه الاهتمام الذي يصحبهم ويسليهم في المجتمع ، يستند الى أبسط أسس الأخلاق وحب الخير وحسن السلوك ، وكانت الانحرافات التي يمكن أن تظهر لدى الناس من ذوي الظروف المحدودة ، كهذه الظروف ، ضئيلة الأهمية ، ومن أجل ذلك كان ضميرهم يظل في معظم الأحيان نقيّاً ، وكانت نفوسهم تظل في العادة مستبشرة : لم تنشأ ثقافة مصطنعة : بل ثقافة طبيعية أصيلة كان لها فوق ذلك فضل يتمثّل في أنها كانت تتلاءم مع كل الأعمار والطبقات ، وأنها كانت ، بحكم طبيعتها مألوفة بصورة عامة ، ولذلك كان هؤلاء الأشخاص أيضاً بُلغاء حقاً في

مجالهم ، وقادرين على التعبير عما يخالجهم في كل شؤون القلب ، الأكثر دقة وتأثيراً ، على النحو الملائم والجدير بالإعجاب . وقد كان يونج الطيب على هذه الشاكلة . ولم يكن الناس يجدونه مجرد ثرثار ، بل بليغاً في وسط القلائل الذين إن لم يكونوا على شاكلته في الفكر فقد كانوا مع ذلك من أولئك الذين لايضيقون ذرعاً بطريقته في التفكير . وكان يسرد قصة حياته بوجه خاص أحسنَ السرد ، وكان يعرف كيف يجسِّد للمستمع كل الظروف بوضوح وبصورة حيّة ، وقد دفعتهُ الى تدوين هذه القصة ووعدني بذلك . ولكن لمّا كان يشبه في فن التعبير عن ذاته السائر في نومه ، الذي لايجوز للمرء أن ينبّهه حين لايتاح له أن يَهوي من علَيائه ، وكان يشبه نهراً كبيراً لا يجوز للمرء أن يضع شيئاً في طريقه حين لا ينبغي له أن يهدر ، فقد كان لابد له أن يشعر بالضيق في وسط الجماعة الكبيرة ، ولم تكن عقيدته تنّم عن شك ، ولا كان إيمانه ينّم عن سخرية . ولئن كان لا ينضب له معين في الحديث الى الأصدقاء فقد كان يتعثّر كل شيء عنده على الفور حين يعاني من تناقض . وكنت أتداركه بالعون في هذه الأحوال ، في العادة ، فيكافئني على ذلك بالحب الصادق . ولما كانت طريقته في التفكير ليست غريبة عني في شيء ، بل سبق أن عرفتها ، على الأرجح ، لدى أفضل أصدقائي وصديقاتي معرفة دقيقة ، كما كانت تلائمني حقاً في بداهتها وبساطتها بصورة مطلقة ، فقد كان في وسعه أن يجد نفسه معي في أفضل أحواله . وكان اتجاه فكره مستحسناً عندي ، كما كنت أدع إيمانه بالمعجزات ، الذي كان يثبت فائدته بالقياس إليه الى درجة بالغة ، دونما طعن . على أن زالتسمَن كان يسلك تجاهه سبيل المداراة والرفق ، وأقول سبيل المداراة والرفق ، لأن زالتسمن

كان لابد له ، على مقتضى شخصيته ، وطبيعته ، وسنّه ، وظروفه ، أن يقف الى جانب المسيحيين العقلانيين ، بل الى جانب المسيحيين المعقولين ، ويلتزم بهم ، وهم الذين كان دينهم يقوم في الحقيقة على استقامة الشخصية ، وعلى الاستقلال الرجولي ، والذين لم يكن يسرّهم ، من أجل ذلك ، أن ينغمسوا ، وينهمكوا ، في الأحاسيس التي يمكن أن تؤدي بسهولة الى الكَدَر(١) ؛ وفي التحمّس الذي يمكن أن ينتهي بهم الى الظلام في أجل قريب . وكانت هذه الفئة أيضاً جديرة بالاحترام ، كثيرة العدد ، وكان كل الشرفاء الممتازين متفاهمين ، وكانت لهم عقيدة واحدة ، كما كان نهجهم في الحياة واحداً .

وكان ليرسه(١) ، وهو رفيق مائدتنا كذلك ، ينتمي أيضاً الى هذه الفئة . وكان شاباً مستقيماً ، وكان مع ثروته المحدودة يتسم بالاعتدال والتدقيق في الأمور . وكان أسلوبه في الحياة وفي تصريف أمور البيت هو أكثر ما عرفت من الأساليب تقتيراً في أوساط الدارسين . وكانت ثيابه أكثر الثياب نظافة بيننا جميعاً ؛ ومع ذلك فقد كان يظهر دائماً في الثياب ذاتها ، ولكنه كان يعالج خزانة ملابسه بأقصى العناية ، وكان يحافظ على نظافة ما حوله . وعلى هذا النحو كان يريد أن يكون كل شيء في الحياة العامة تبعاً لمثاله . ولم يكن يحدث أن يستند في أي مكان ، أو يعتمد بمرفقه على المائدة ، ولم يكن ينسى قطّ أن يسم منديله بعلامة ، وكان يحيق بالخادم دائماً شر مستطير اذا تبيّن أن المقاعد لم تكن في الغاية من النظافة . ومع كل هذا فلم يكن يتسم بشيء من الجمود والثقل في مظهره الخارجي . وكان حديثه يتسم بالحرارة والاخلاص ، كما كان مفعماً بالحيوية ، مع توكيد وجفاف ، اذ

---

(١) الكدر بفتح الكاف والدال معاً : نقيض الصفاء ، المعجم الوسيط

كان يتشح ، على نحو مستحسن للغاية ، بدعابة ساخرة خفيفة . وكانت قامته حسنة التكوين ، هيفاء ، أقرب الى الطول ، وكان وجهه موسوماً ببثور الجدري ، باهت الملامح ، وكانت عيناه الزرقاوان الصغيرتان مشرقتين ذواتَيْ نظرة ثاقبة . ولئن كان لديه الآن من الأسباب ما يحمله على تربيتنا من بعض الوجوه فقد كنا ندعه يقوم فينا عدا ذلك بدور معلم المبارزة ، لأنه كان يمارس لعباً بارعاً جداً بالسيف غير المرهف . وكان يبدو أن مما يروق له أن يمارس في هذه المناسبة كل حذلقة هذه المهنة علينا . وكنا نستفيد منه أيضاً حتى الفائدة ، وكان لابد لنا أن نكون مدينين له بالشكر لقاء بعض ساعات الأنس التي أتاح لنا أن نقضيها في حركة وتمرين جيدين .

وبفضل كل هذه الخصال كان ليرسه يعدّ نفسه الآن اعداداً تاماً لوظيفة حكم أو وسيط في كل المنازعات الصغيرة والكبيرة التي تنشب في محيطنا على الرغم من ندرتها ، والتي لم يكن زالتسمن ليستطيع تهدئتها بأسلوبه الأبوي ، ومع استبعاد الأنماط الخارجية التي تثير قدراً كبيراً من الفساد في الجامعات ، كنا نمثل ، بحكم واقع الأحوال ، وبالارادة الطيبة ، مجموعة مغلقة كان يتصل بها بعض الآخرين بطريق المصادفة ، ولكنهم لم يستطيعوا التغلغل فيها ، وكان ليرسه يظهر غاية النزاهة ، في حكمه على ألوان الأستياء الداخلية ، وكان يستطيع ، حتى حين لايعود من الممكن تسوية المسألة بالكلمات والتأويلات ، أن يمهد للترضية المنتظرة بطريقة مخلصة لاتنطوي على الضرر . ولم يكن ثمة انسان أكثر منه ملاءمة لهذا حقاً ، كما أنه دأب ، في كثير من الأحيان ، على أن يقول ان السماء لم تقدّر له أن يكون بطلاً من أبطال الحرب ، ولا بطلاً من أبطال الحب ، ولذلك فهو يريد أن يكتفي

بدور المدرب . ولما كان يظل ثابتاً على حاله بصورة مطلقة ، وكان يمكن أن يُنتَظر اليه على انه أنموذج صحيح لطراز من التفكير جيد وثابت . وقد انطبع التصور الخاص به عميقاً في نفسي ، جديراً بالحب. ولما كتبت « جوتس فون برليشنجن » شعرت بحافز يدفعني الى أن أقيم نصباً تذكارياً لصور صداقتنا ، وأن أطلق اسم فرانتس ليرسه على الشخصية الطيبة التي تعرف كيف تنتظم في موقع التبعيّة بطريقة بالغة النبل .

وفي الوقت الذي كان يعرف فيه كيف يذكرنا دائماً ، عن طريق جفافه الفكاهي المتواصل ، بما يجب على المرء نحو نفسه ، ونحو الآخرين ، وكيف ينبغي للمرء أن يوطن نفسه على أن يعيش مع الناس بسلام وقتاً طويلاً قدر الإمكان ، ويتخذ حيالهم ، من أجل ذلك ، موقفاً ما ، كان عليّ أن أناضل في مواجهة أحوال وأعداء مختلفين كل الاختلاف ، اذ كنت على خلاف مع نفسي ، ومع الموضوعات ، ومع العناصر . لقد كنت في وضع صحي كان يدفعني الى الأمام بدرجة كافية في كل ما كنت أريد أن أقوم به ، وينبغي لي أن أقوم به ، إلاّ ان نقطة إثارة واحدة كانت قد تبقّت ، ولم تكن تدعني دائماً في حالة التوازن. كنت أضيق ذرعاً بالصوت القوي . وكانت الموضوعات المتصلة بالمرض بغيضة إليّ ، ولكن كان هناك دُوار يخيفني بوجه خاص ، وكان ينتابني كلما أطلَلْت بنظري من مرتفع ، وكنت أحاول أن أتدارك كل هذه النقائص ، وذلك بطريقة عنيفة ، لأنني لم أكن أريد أن أضيع وقتاً ، فكنت أسير في المساء ، عند نوبة النوم ، الى جانب العدد الكبير من الطبول التي كان عَصْفها وضرباتها الشديدة خليقين أن يفجّرا القلب بين الضلوع . وكنت أرتقي ، وحدي تماماً ، أعلى

قمم برج الكاتدرائية ، وأجلس فيما يسمى «بالعنق» ، أو تحت «العقدة» ، أو «التاج» ، كما يسميه الناس ، الى أن تجرّأت على الخروج من جديد الى الهواء الطلق . حيث يرى المرء ، وهو واقف على لوح لايكاد يبلغ ذراعاً مربّعاً ، دون أن يتمكن من الاستناد الى شيء خاص ، الأرض التي لانهاية لها أمامه ، على حين تتوارى أدنى الأشياء المحيطة به ، وزخارف الكنيسة ، وكل ما يقف عليه الإنسان ، أو يعلوه . وتبدو المسألة تماماً كما لو أن المرء يرى نفسه مرتفعاً في الهواء على منطاد الهواء الساخن . وكنت أكرر مثل هذا الخوف والعذاب كثيراً ، الى أن غدا الأثر ممالا أحفل به البتّة . ولقد جنيت فيما بعد فائدة عظيمة من تلك التمارين الأولى ، في الرحلات بين الجبال ، وفي الدراسات الجيولوجية ، وفي المباني الكبرى ، حيث أمشي ، في مراهنة مع النجارين ، على الأخشاب المنصوبة بصورة حرّة ، وعلى قَوْصَرات(١) المباني ، بل في روما ، حيث يضطر المرء الى القيام بمثل هذه التمارين على الجرأة لكي يرى الأعمال الفنية الهامة عن كثب . أما التشريح فكان مضاعف القيمة عندي لأنه علّمني أن أتحمّل أكثر المشاهد اثارة للغثيان بينما كان يروي ظمأي الى المعرفة . وكذلك كنت أتردّد على عيادة الطبيب الشيخ ايهرمان(١) ، كما كنت أشهد دروس فن التوليد ، لولده ، برغبة مزدوجة ، وهي الإلمام بكل الأحوال ، وتحرير نفسي من كل هاجس حيال الأشياء المثيرة للغثيان . وقد بلغت من ذلك بالفعل درجة لم يكن من الممكن عندها أن يخرجني عن اتزاني شيء من أمثال ذلك في يوم من الأيام . غير أني لم أكن أحاول أن أحصّن

---

(١) القوصرة مثلث منحوت في أعلى واجهة البناء «المترجم»

نفسي تجاه مغريات هذه الانطباعات الحسيّة وحدها ، بل تجاه مغريات المخيّلة أيضاً ، أمّا الانطباعات الخاصة بالظلام ، والحافلة بالنُذُر ورعدة الخوف ، في أفنية الكنائس ، والأماكن المنعزلة ، والكنائس ، والمعابد في الليل ، وكل ما يمكن أن يمتّ الى ذلك بصلة ، فقد تمكنت ، على النحو ذاته ، من أن أجعلها شيئاً يستهان به ، وقد بلغت في ذلك أيضاً ما جعل النهار والليل ، وكل مكان ، سواء لديّ تماماً ، بل لقد بلغت من ذلك أنني حين راودتني ، في وقت لاحق ، النزعة الي تذوّق رعدة الصبا المستعذبة من جديد مرة أخرى في مثل هذه البيئة ، لم أستطع أن افتعل في نفسي هذه الرعدة الى حدٍ ما ، عن طريق أغرب الصور التي ابتعثتها في نفسي ، وأكثرها اثارة للفزع .

وقد جاء هذا الجهد من أجل تحرير نفسي من إلحاح الأشياء المفرطة في الجد والعنفوان ، التي كانت تواصل هيمنتها عليّ ، وكانت تبدو لي في صورة قوة حيناً ، وفي صورة ضعف حيناً آخر ، عوناً أيمّا عون لذلك النمط من الحياة الأجتماعية المرنة التي كانت تجتذبني على نحو مطرّد الزيادة ، وتعلمت آخر الأمر أن استمتع بها بحرية كاملة . وليس من العسير أن يلاحظ المرء في العالم أن المرء يكون أكثر ما يكون شعوراً بالتحرر والخلاص من نقائصه،وعلى أكمل وجه ، حين يجسّد لنفسه نقائص الآخرين،و يستفيض في ذلك ، في تعريض ممتع . وانه لإحساس جد ممتع أن نعرض أنفسنا عن طريق الاستهجان وأحاديث التجريح . في من هم أمثالنا ، وذلك ما يطيب للجماعة الطيبة ، سواء أكانت مؤلفة من قليل أم كثير ، أن تنغمس فيه الى أقصى الحدود . ولكن ما من شيء يشابه الاعتداد الممتع بالنفس ، حين نرفع أنفسنا الى منزلة القضاة على الكبار والرؤساء والأمراء

ورجال الدولة ، ونرى المؤسسات العامة عديمة البراعة متناقضة مع أغراضها ، ولا نلاحظ إلاّ العقبات الممكنة والفعلية ، ولا نعترف بعظمة المقصد ، ولا بالاسهام الذي يجب توقّعه من قبل الزمان والظروف .

ومن كان يذكر حال الدولة الفرنسية ويعرفه من الكتابات المتأخرة على وجه الدقة والتفصيل فسيتصّور بسهولة كيف كان الناس في تلك الأيام يتحدثون ، في الشطر الالزاسي ،عن الملك والوزراء ، وعن البلاط والمقرَّبين . وكان ذلك جديداً بالقياس الى حبي للاطلاع ، وكان بالقياس الى سلاطة اللسان والجهالة عند الشباب ، من الموضوعات المرغوبة جداً . وكنت ألاحظ كل شيء بدقة ، وأدوّنه بنشاط ، وأرى الآن ، من خلال القليل المتبقّي ، أن مثل هذه الأخبار لها بالنتيجة قيمة معينة ، على الرغم من أنها تتألف في الوقت الحاضر من مجرد خرافات واشاعات عامة لا يعتمد عليها ، وذلك لأنها تفيد في جمع الخفّي الذي غدا آخر الأمر معروفاً ، الى المكشوف والمعروف منذ تلك الأيام ، وفي جمع ما كان يُحكَم عليه من قبل المعاصرين حكماً صائباً أو خاطئاً ، الى قناعات العالم اللاحق ، والمقارنة بينهما ،

وكان مايلفت انتباهنا ، ماثلاً أمام أعيننا ، نحن المتسكعين ، في كل يوم ، مشروع تجميل المدينة الذي بدأ تنفيذه بالانتقال من الرسوم التخطيطية والمخططات الى الواقع بأغرب طريقة ، وذلك أن المدير جايو (١) كان قد اعتزم أن يزيل الأزقّة الملتوية وغير المتجانسة في شتراسبورج ، وأن يؤسس مدينة جميلة مرموقة مخطّطة بالحبل . وقد قام بلونديل(٢) ، وهو مهندس معماري من باريس ، بتصميم مشروع

مبنيّ على ذلك ربح به مائة وأربعون من مالكي البيوت مزيد من المساحة وخسر ثمانون ، وظل الباقون على حالتهم السابقة . وكان من المفروض في هذا المشروع المصدّق عليه ، والذي ما كان ليتم ادخاله في حيّز التنفيذ مرة واحدة ، ، أن يتسع خلال الزمن اللازم لتنفيذه ، في الوقت الذي كانت المدينة تتأرجح فيه ، بما هي عليه من روعة غير قليلة ، بين الشكل واللاشكل ، فاذا كان من المفروض ، مثلاً ، أن يغدو جانب ملتوٍ من الشارع مستقيماً تقدّ أول مولع بالبناء الى الخط المحدد ، وربما فعل ذلك أول جار له ، أو ربما فعل ذلك الثالث أيضاً ، أو الرابع ، من هناك ، فكان يتخلّف من تلك الأشكال من التقدم في البناء أكثر الفجوات نشوزاً ، في صورة أفنية أمامية للبيوت الواقعة في الخلف . ولم يكن القوم يريدون أن يلجأوا الى القوة ، ولكنهم ما كانوا ليحرزوا تقدما على الاطلاق دونما إرغام . ومن أجل ذلك لم يكن يحق لأحد أن يحسّن أو يصنع في بيته المحكوم عليه شيئاً مما يمت بصلة الى الشارع . وكانت كل الأشكال الناشزة الغريبة الحاصلة بطريق المصادفة تعطينا نحن المتسكعين الجوّالين ، الباعث الأكثر حظاً من الترحيب لدينا ، لممارسة سخريتنا ، بوضع مقترحات للاسراع بالإنجاز ، على طريقة بيهرش ، ثم في الارتياب دائماً في امكانية تحقيقها ، على الرغم من أن بعض المباني الجميلة الناشئة من جديد كان خليقاً أن يوجهنا نحو أفكار أخرى . وما كنت لاستطيع أن أبيّن الى أي مدى كان الزمان الطويل مواتياً لذلك المشروع .

وكان من الموضوعات الأخرى التي كان يطيب لأهالي شتراشبورج البروتستانت أن يتحدثوا فيها ، إخراج اليسوعيين . وكان هؤلاء الآباء قد ظهروا بمجرد أن أصبحت المدينة في يد الفرنسيين ، على الفور ،

وبحثوا عن مقرّ . ولكنهم سرعان ما انتشروا وشيّدوا معهد يصادم الكاتدرائية بحيث يغطّي الجزء الخلفي من الكنيسة ثلث واجهته . وكان من المفروض أن يغدو مربّعاً كاملاً ، وأن يكون له حديقة في الوسط ، وكان هناك ثلاثة جوانب قد تم انجازها ، وهي من الحجارة ، صلبة مثل كل مباني هؤلاء الآباء . أما أن البروتستانت كان يتعرضون للمضايقة من قبلهم ، ان لم يتعرّضوا للاضطهاد ، فذلك ما كان يكمن في مخطط الجماعة التي أخذت على عاتقها أن تعيد الديانة القديمة من جديد في حجمها الكامل . ومن أجل ذلك كانت حالتها تبعث على أقصى الارتياح لدى الخصم . وكان الناس يرون ، وصدورهم لاتخلو من الانشراح ، كيف كانوا يبيعون خمورهم ، وينقلون كتبهم ، وقد خصص المبنى لأخويّة رهبانية أخرى ربما كانت أقل نشاطاً . وما أعظم سرور الناس حينما يتخلصون من خصم ، بل من مجرد راعٍ ، اذ لا ترى القطعان أنها تتعرّض للذئاب حيث يفتقد كلب الصيد .

ولما كان لابد أن يكون لكل مدينة مأساتها التي يفزع منها الأطفال وذرية الأطفال ، فقد كانوا في شتراسبورج يذكرون في كثير من الأحيان القاضي التعيس كلينْجلِنْ الذي فقد آخر الأمر الحظوة لدى البلاط بعد أن ارتقى أعلى درجات السعادة الدنيوية وساد المدينة والريف بغير حدود ، واستمتع بكل ما يمكن أن تهبه الثروة والمكانة والنفوذ ، وسيق الى الاستجواب بصدد كل ما تم التحقيق فيه بياله ، بل زج به في السجن ، حيث ذوى ، في موت تحيط به الشبهات ، وهو يربو على السبعين عمراً .

وكان ذلك الفارس من فرسان لويس ، وهو رفيق مائدتنا ، يعرف كيف يروي هذه القصة وغيرها من الأقاصيص بحماسة وحيوية ، ومن أجل ذلك كان يطيب لي أن أصحبه في النزهات ، خلافاً للآخرين ، الذين كانوا يتحاشون أمثال هذه الدعوات ، ويدعونني وحدي معه . ولما كنت استرسل في معظم الأحوال ، حيناً من الزمان ، في الذهاب مع المعارف الجدد ، دون أن أفكر كثيراً فيهم ، ولا في التأثير الذي كانوا يمارسونه علي ، فقد لاحظت شيئاً فشيئاً فحسب ، أن أقاصيصه وأحكامه كانت أقرب الى أن تثير في نفسي الاضطراب وتربكني منها الى أن تعلمني وتجلو لي الأمور . ولم أكن أعرف قط أين يذهب بي على الرغم من أن اللغز كان خليقاً أن يحلّ بسهولة . وكان من أولئك الكثيرين الذين لا تعود عليهم الحياة بطائل ، والذين يستنفدون جهودهم من أجل ذلك في الجزئيات ، أوّلاً وآخراً . وكان من سوء الحظ أنه كان مولعاً ، بل مشغوفاً الى حد فائق بالتأمل ، دون أن يكون بارعاً في التفكير . وفي أمثال هؤلاء الناس يسهل أن يرسخ تصوّر ثابت يستطيع المرء أن ينظر اليه على أنه اكتئاب (ميلانخوليا) . وكان ما يفتأ يعود الى هذه الوجهة مرةً بعد أخرى ، وغدا بذلك على المدى البعيد ثقيلاً للغاية . وذلك أنه دأب على الشكوى بمرارة من النقص في ذاكرته ، ولا سيما ما يتصل من ذلك بأقرب الأحداث . وكان يزعم ، تبعاً لاستنتاج خاص ، أن كل الفضائل تصدر عن الذاكرة الحسنة ، وأن كل الرذائل ، في مقابل ذلك ، تصدر عن النسيان . وكان يعرف كيف يدعم هذه النظرية بكثير من حدة الذهن ، مثلما يمكن ادعاء كل شيء حين يسمح المرء لنفسه بأن يستعمل ويطبّق الكلمات دونما تحديد على الاطلاق ، بمعنى واسع حيناً ، وبمعنى ضيق حيناً آخر ، وبمعنى وثيق الصلة أو بمعنى بعيد الصلة .

وفي المرات الأولى كان الاستماع اليه مسلياً حقاً ، بل كانت أحاديث ثرثرته تحوز الإعجاب . وكان الناس يعتقدون أنهم يقفون أمام سفسطائي بليغ يستطيع أن يضفي البريق ، في دعابة أو تمرين ، على أغرب الأشياء . غير أن ما يؤسف له أن هذا الانطباع الأول لم يلبث أن فقد حدته بسرعة كبيرة : ذلك لأن الرجل كان يعود في نهاية كل حديث الى الموضوع ذاته ، مهما يكن تصّر في حياله . ولم يكن من الممكن وقفه عند الأحداث القديمة ، على الرغم من أنها كانت تثير اهتمامه هو ذاته ، وكان يتمثلها في ذهنه بأدقّ التفاصيل ، بل كان ينتزعه في كثير من الأحيان ظرف عارض ضئيل من وسط قصة من تاريخ العالم ، ويدفع به نحو فكرته المحبوبة اللدودة .

وكانت احدى نزهاتنا بعد العصر باعثة التعاسة بوجه خاص في هذا الصدد . ولا بأس في أن ترد قصتها هنا بدلاً من الحالات المماثلة التي قد تتعب القارىء ان لم تكدّر صفوه .

فقد لقينا في الطريق خلال المدينة ، سائلة طاعنة في السن أفسدت عليه ، بالتوسلات والإلحاف ، مجرى قصته ، فقال : « أغربي عني ، أيتها الغولة العجوز ! » ، ومضى في طريقه ، فهتفت من ورائه بالقول المأثور المعروف ، ولكن مع شيء من التعديل ، اذ علقت بقولها ان الرجل المتجهم نفسه مسنّ ، وقالت : « اذا كنت لا تريد أن تغدو كبيراً فقد كان ينبغي لك أن تشنق نفسك في صباك ! » فانفتل على عقبيه بشدة ، وأوجست خيفة من مشهد مسرحي ، وصاح قائلاً : « أأشنق نفسي ! . أأشنق نفسي ! كلا ، ما كان هذا ليحدث ، اذ كنت فتى أطيب من ذلك . أما أن أشنق نفسي ، أن أشنق نفسي بنفسي ، فهذا شيء كان ينبغي أن أقدم عليه حقاً . لقد كان علي أن

أصوّب نحو نفسي طلقة من البارود ، اكيلا أشهد أنني ما عدت أساوي تلك الطلقة ، ووقفت المرأة كالمتحجرة ، أما هو فقد مضى قائلاً : « لقد أدليت بحقيقة كبرى يا أم الغيلان ! ولما كان القوم لم يغرقوك بعدُ أو يحرقوك ، فقد حقّ لك أن تكافأي على قوالك المأثور الصغير » . وناولها قطعة نقد صغيرة فضية لم تكن مما يسهل على المرء أن يعطيها لسائل .

وكنا قد بلغنا أول جسر من جسور الراين ، وذهبنا الى الحانة حيث كنا نفكر بالعودة ، وجعلت أحاول أن أعود به الى الحديث السابق ، حين تقدمت منا بغتة على الممشى الجميل فتاة فائقة الحسن ، وظلت واقفة أمامنا ، وانحنت بلطف ، وصاحت : آه ، آه ، يا سيدي النقيب ، الى أين ؟ » واردفت بما يقال عادة في مثل هذه المناسبة . ورد قائلاً بشيء من الحرج : « لا أدري . . . » فقالت بدهشة ظريفة : « كيف ؟ » أو تنسى أصدقاءك بهذه السرعة ؟ » . وأثارت كلمة النسيان استياءه ، فهز برأسه ، وقال بشيء غير قليل من التجهّم : « حقاً ، يا آنستي ، ما كنت لأعرف ذلك ! » — فردت الآن بشيء من الدعابة ، ولكن بكثير من الرصانة : « فلتكن على حذر يا سيدي النقيب ، فقد لا أعرفك في مرة أخرى ! » . ومضت على أثر ذلك في طريقها ، في خطوات قوية ، لاتلوي على شيء . وبغتة ضرب رفيق طريقي رأسه بكلتا قبضتيه ضربة شديدة ، وصاح قائلاً : « يالي من حمار ! ، أنا الحمار العجوز ، الآن يتبيّن لك ، أعلى حق أنا أم لست على حق » . وانخرط الآن بطريقة جد عنيفة في أحاديثه وافتراضاته المعتادة التي لم تزده هذه الحادثة إلا قدرة عليها ، ولست أستطيع ،

ولا أحب ، أن أكرّر ما كان يعده خطبة فيليبية(١) موجهة الى نفسه ، وأخيراً التفت الي ، وقال : « أنا أدعوك لتكون شاهداً ! أتذكر تلك البائعة ، عند الناصية ، التي ليست بالشابة ، ولا بالجميلة ؟ أنا أحييها في كل مرة ، حين نمر بها ، وأتحدث إليها ببضع كلمات ودية ، ومع ذلك فقد انقضت الآن ثلاثون سنة ، وأنا ذو حظوة لديها . والآن ، بعد ما لا يكاد يبلغ أربعة أسابيع ، وأقسم على ذلك ، ظهرت لي هذه الفتاة أكثر رقة مما ينبغي لها ، وأزعم الآن أني لا أعرفها ، وأهينها على رقتها ! أما إني لأقول ذلك دائماً ، فنكران الجميل أعظم الآثام ، وما من إنسان يمكن أن يكون ناكراً للجميل لو لم يكن نسيّاً ! »

ودخلنا الحانة ، ولم يكن يعوق الأراجيز التي كان يطلقها حيال نفسه وحيال رفاقه في السن إلا جمهور الشاربين المتزاحمين في القاعات الأمامية ، وكان هادئاً ، ورجوت أن يكون قد أفرخ روعه ، حين دخلنا حجرة علوية ، حيث وجدنا شاباً يروح ويجيء وحده ، وقد حياه النقيب باسمه . وطاب لي أن أتعرف عليه، لأن الرفيق العجوز كان قد تحدث الي عنه بكثير من الخير وروى لي أن هذا قد عُيّن في مكتب الادارة الحربية ، وأنه أسدى اليه في بعض الأحيان خدمات جُلى ، في نكرانٍ للذات ، حين تُغَصّ الفنادق العائليّة . وقد سرني أن الحديث اتخذ وجهة عامة ، وشربنا زجاجة من الخمر ، ونحن نستأنف الحديث ، ولكن خطأ آخر ينشأ هنا ، لسوء الحظ ، وكان صاحبي الفارس يشترك فيه مع البشر أولى المزاج السوداويّ . ذلك لأنه مثلما كان لايستطيع على وجه الإجمال أن يتخلّص من

(١) نسبة الى فيليب ، ملك مكدونيا ، انظر الحاشية الخاصة بهذه الصفحة . «المترجم»

ذلك التصور الراسخ ، كان يتشبّث بانطباع مزعج يتصل باللحظة الراهنة ، وكان في هذه لأثناء يطلق العنان لأحاسيسه في قرقرة لاتهدأ . ولم يكن الاستياء الأخير حيال نفسه ذاتها قد خمد أواره ، وكان يضاف الى ذلك شيء جديد على نحو متكرر ، وهو من نوع مختلف تماماً بالطبع . وذلك أنه لم يكد يقلّب بصره هنا وهناك طويلاً حتى لاحظ على المائدة حصة مزدوجة من القهوة ، وفنجانين ، وربما كان قد أحسّ الى جانب ذلك أيضاً ، اذ كان هو نفسه زير نساء مرهف الحسّ ، بوجود إشارةٍ ما الى أن هذا الشاب لم يكن موجوداً وحده بصورة دائمة على هذا النحو ، ولم يكن ينبعث في خاطره تكهن مؤداه أن الفتاة الحسناء قد قامت بزيارة هنا ، ثم يتحول هذا التكهن الى احتمال ممكن التصديق ، حتى اجتمع الى ذلك الاستياء أكثر ضروب الغيرة غرابة ، لاثارة الارتباك فيه على نحو كامل .

وقبل أن أتمكن من استشعر شيئاً ، اذ كنت أتحدث حتى الآن الى الشاب حديثاً بريئاً كل البراءة ، أخذ النقيب يطلق أحاديثه اللاذعة بنبرة كنت أعرفها لديه معرفة حقة ، وهو يتناول زوج الفناجين ، وهذا الأمر أو ذاك . وحاول الشاب ، اذ أحس بالصدمة ، أن يتحاشاه بأسلوب مرح وبطريقة معقولة ، كما جرت العادة بذلك بين الناس ذوي السلوك المهذّب ، ولكن الشيخ مضى في فظاظته ، لا يرجو لشيء وقادراً ، حتى لم يبق أمام الآخر شيء سوى أن يتناول قبعته وعصاه ، وأن يدع وراءه عند الوداع دعوة لا لَبْس فيها البتة ، الى المبارزة . واذا غضب النقيب ينطلق في عنفوان أشدّ ، اذ كان قد أتى في هذه الأثناء على زجاجة من الخمر وحده تقريباً ،

فضرب بقبضته على المائدة ، وصاح أكثر من مرة : « سأقتل هذا »
ولكن المسألة لم تكن تنطوي على سوء القصد الى هذا الحد ، اذ كان
يستعمل هذه العبارة كثيراً حين يقاومه أحد أولا يروق له على نحو ما .
وقد تدهور الوضع على النحو ذاته بغتة في طريق العودة : اذ كنت
قد تهورت ببيان نكرانه للجميل حيال الشاب ، وذكرته كم ذكر لي
بالثناء مروءة هذا الموظف المنطوية على المبادرة الى المكرُمات .
كلا ، فان مثل هذا الغضب من قبل انسان على ذاته لم يعرض لي قط
مرة أخرى ؛ لقد كانت هذه هي الكلمة الختامية الأكثر حماسة لتلك
البدايات التي كانت الفتـاة الحسناء قد قدمت الحافز لهـا . اذ
رأيت هنا الندم والتفكير وقد بلغا حدّ الكاريكاتور ، وكانا عبقريين
حقاً ، مثلما تقوم كل حماسة مقام العبقرية . ذلك لأنه قام بالتقاط
مجمل أحداث جولتنا بعد الظهيرة ، من جديد ، واستخدمها استخداماً بلاغياً
من أجل تفريغ الذات ، وأخيراً ترك المتسولة العجوز تلوح أمامه
مرة أخرى ، وكدّر صفو نفسه تكديراً لم يكن لي بدٌّ معه من
أن أخشى أن يقذف بنفسه في الراين . ولو كنت متأكدا أنني سأمسك
به من جديد بسرعة مثلما فعل المعلم الخصوصي بصاحبه تلماخ(١) ،
لكان في وسعه أن يقفز ، ولكنت أتيت به الى المنزل مُبْتَرِداً هذه
المرة .

وقد أفضيت بالمسألة على الفور الى ليرسه ، وذهبنا في الصباح
التالي الى الشاب الذي أضحكه صديقي بجفافه ، واتفقنا على التحضير
لاجتماع عَرَضي يفترض أن يتم فيه تسويةٌ ما . على أن ما كان
أكثر اثارة للضحك في هذا الصدد أن النقيب غفل في هذه المرة أيضاً
عن فظاظته ، وأظهر استعداده لاسترضاء الشاب الذي لم يكن لديه

استعداد للمشاحنات . وتمت تسوية كل شيء في صباح واحد ، وبما أن الحادثة لم تبق مكتومة تماماً ، فلم أكن استطيع أن أتحاشى نكات أصدقائي الذي استطاعوا أن يتكهنوا من خلال خبرتهم الخاصة الى أي مدى كان من المحتمل أن تكون صداقتي مع النقيب ثقيلةً في بعض المناسبات .

وبينما كنت أفكر فيما يمكن الافصاح عنه بعدُ أولاً ، عَبَرَ في خاطري من جديد ، بفعل عبث غريب للذاكرة ، مبنى الكاتدرائية المهيب(٢) ، الذي كنت في تلك الأيام أوليه اهتماماً خاصاً ، والذي كان يتجلّى للعيون بصورة مطلقة ، سواء في المدينة أو في الريف ، على نحو ثابت .

وكنت كلما أكثرت من تأمل واجهته اشتد وتطور ذلك الانطباع الأول ، ومؤداه أن السامي والممتع متحدان هنا.فادا لم يكن يفترض في المَهول ، أن يفزعنا حين يواجهنا في صورة كتلة ، واذا كان لا يربكنا حين نحاول أن نتقصّى جزئيّاته ، كان لا بد له أن يدخل في علاقة غير طبيعية ، كما أنها مستحيلة على ما يبدو . وإنما يجب عليه أن يقترن مع الممتع . ولكن لمّا لم يكن في امكاننا إلا التعبير عن الانطباع الخاص بالكاتدرائية حين نتصور تَبَيْنُك الخاصتين اللتين لا يمكن المواءمة بينهما، متحدثين معاً ، فانه يتبيّن لنا أي قيمة رفيعة يجب علينا أن نضيفها على هذا المعْلَم القديم ، ونبدأ بداية جدية بتصوير كيف أمكن أن تتداخل عناصر على هذا القدر من التعارض ، فيما بينها ، وتترابط بسلام .

وقبل كل شيء نوجه تأملاتنا ، دون أن نفكر في الأبراج ، نحو الواجهة وحدها ، وهي التي تواجه أعيننا مواجهة قويّة ، في صورة

مربّع منتصب متطاول . فاذا ما دنونا منه في الغَسَق ، وفي ضوء القمر ، وفي ليلة ساطعة النجوم ، حيث تغدو الأجزاء أكثر أو أقلّ غموضاً ، ثم تتوارى آخر الأمر ، رأينا مجرد جدار هائل توجد بين ارتفاعه وعرضه نسبة مجدية . واذا ما تأملناها في النهار وجردّناها ، بقوة فكرنا من الجزئيات ، رأينا فيها جانباً أمامياً من مبنى لايضم حجراته الداخلية فحسب ، بل يغطي كذلك في الوقت نفسه بعض الأشياء الواقعة بجواره . وتشير الفتحات في هذه المساحة الهائلة الى حاجات داخلية . ونحن نستطيع أن نقسّمها على الفور ، تبعاً لهذه الحاجات ، الى تسعة حقول . فأما الباب الكبير الأوسط الموجّه باتجاه صحن الكنيسة ، فهو أول ما تقع عليه أعيننا . وعلى كلا جانبيه يقع بابان أصغر منه ، تابعان للممرات العرضية . وفوق الباب الرئيسيّ يلتقى بصرنا بالنافذة المتشكلة على صورة العجلة ، والتي يفترض أن تنشر في الكنيسة ، وفي قبتّها ، ضوءاً باعثاً لأحاسيس شتى . وعلى الجانبين تظهر فتحتان كبيرتان عموديتان مستطيلتان ذواتا زوايا قائمة ، متضادّتان مع الفتحات الوسطى الى درجة بالغة ، وهي تشير الى صلتها بقاعدة الأبراج المتطاولة . وفي الطابق الثالث تصطف ثلاث فتحات بعضها الى جانب بعض ، وهي مخصصة لقواعد الأجراس وحاجات الكنيسة الأخرى . وفي الذروة يرى المرء مجمل البناء من خلال إفريز الشرفة ، وقد اختتم بصورة أفقية ، بدلاً من القوْصرة . وتستند تلك الحجرات الموصوفة التسع الى أربعة أعمدة منبثقة من الأرضيّة ، اذ تحيط بها وتقسمها الى أربعة أقسام كبيرة عمودية .

وكما أن المرء لايستطيع أن ينكر على مجموع الكتلة تناسباً جميلاً بين الارتفاع والعرض ، فانها تكتسب أيضاً شيئاً من الرشاقه المتجانسة

في الجزئيات بفضل هذه الأعمدة ، وبفضل التقسيمات الرشيقة فيما بينها .

ولكن فلنثابر على تجريدنا ، ولنتصور هذا الجدار الهائل بدون زخارف ، مع الأعمدة المتطاولة المشرئبّة الراسخة ، مع وجود الفتحات الضرورية فيه ، ولكنها لاتوجد أيضاً إلا بمقدار ما تسدّ الحاجة . واذا ما سلّمنا لهذه الأقسام الرئيسية أيضاً بنسب سليمة ، غدا المجموع جليلاً في الحقيقة ، غير أنه ما يزال يفتقر الى البهجة الى حد ثقيل ، كما أنه يبدو غير فني بحكم كونه خالياً من الزينة . ذلك لأن العمل الفني الذي يتم ادراك مجموعه في أجزاء كبرى ، بسيطة ، متناسقة ، يحدث انطباعاً يبعث المهابة حقاً ، ولكن المتعة الحقيقية التي تؤدي الى الإعجاب لا يمكن أن تحدث إلا بتوافق كل التفاصيل المتطوِّرة . ولكن هذه النقطة بالضبط هي التي يرضينا فيها البناء الذي نتأمله الى أقصى الدرجات : لأننا نرى الزخارف كلها ، وكل واحدة منها ، متلائمة مع كل جزء تزينه ، كل التلاؤم ، وهي تابعة له ، وتبدو منبثقةً عنه . ومثل هذا التعدد في الجوانب يعطي دائماً ارتياحاً كبيراً ، اذ يصدر عن الشيء الملائم ، ومن أجل ذلك يثير في الوقت نفسه الشعور بالوحدة . ولا يكون التنفيذ موضع التقدير من حيث هو ذروة الفن إلا في هذه الحالة .

وكان من المفروض أن يظهر الآن بفضل مثل هذه الوسائل ، حائط متين ، بل جدار منيع كان قد تجلّى ، فوق ذلك للعين في صورة قاعدة لبُرجَيْن يطاولان السماء ارتفاعاً ، معتمداً على نفسه في الحقيقة ، ولكنه رشيق ومزخرف مع ذلك ، وأن يمثل مفهوم الصلابة التي لا تتزعزع ، على الرغم من أن الثقوب تخترقه بآلاف الوجوه .

وقد تم حلّ هذا اللغز بأكثر الطرق توفيقاً . وذلك أن فتحات الجدران ، والمواضع الصلبة فيها ، والأعمدة ، وكل شيء له شخصيته الخاصة التي تنبثق مـمّا هو مخصَّص له . وهذا يتصل عن طريق الدرجات بالأقسام السفلّية ، ومن أجل ذلك يزدان كل شيء بالروح الملائمة ، ويمكن الاحاطة بالكبير والصغير ، سواء بسواء ، لوجوده في مكانه الصحيح ، وعلى هذا النحو يتمثل الممتع في المهول . وأنا أذكر بالأبواب فحسب ، وهي الأبواب المنغمسة ، من وجهة المنظور ، في سماكة الجدار ، والمزخرفة حتّى اللانهاية ، عند أعمدتّها وقنطراتّها المدببة ، وبالنوافذ ووردتّها الصناعية الناشئة عن الشكل المستدير ، وبالمظهر الجانبي(١) لقضبانها ، وكذلك بالأعمدة الأنبوبيّة النحيلة للأقسام العمودية . وليتمثل المرء الأعمدة المتراجعة على درجات ، وقد اقترنت بها مبان صغيرة مدببّة خفيفة الأعمدة ، رشيقة ، مشرئبّة مثلها الى الأعالي ، لحماية صور القديسين ، في صورة مظلّلة العرش . وكيف يظهر ، آخر الأمر ، كل ضلع ، وكل زرّ في صورة كأس زهرة ، وسلسلة من الأوراق ، أو في أي صورة كانت من الصور الطبيعية الأخرى التي بُدّلت أشكالها بروح الحجر . ولينظر المرء في المبنى ، واذ لم يكن المبنى ذاته ، فلتكن صور المبنى مجملاً ، وصور التفاصيل ، من أجل الحكم ، ومن أجل بث الحياة في بياني . وربما بدا هذا لبعضهم مبالغاً فيه . ذلك لأنني احتججت ، أنا نفسي ، الى وقت طويل للتعرف الوثيق على قيمته ، وقد استحوذ عليّ في الحقيقة ميل اليه لدى النظرة الأولى .

ولما كنت قد ترعرعت بين أولئك الذين يعيبون فن العمارة القوطي، فقد كنت أغذي نفوري من الزخارف المُثْقَلة والمشوشة

من عدة وجوه ، والتي كانت بفعل عَسَفها تجعل الشخصية ذات الكآبة الدينية منفِّرة الى أقصى الحدود . وقد عمدت الى ترسيخ هذه النقمة لديّ ، إذ لم أكن أقع إلا على أعمال من هذا النوع لاروح فيها ، ولا يمكن للمرء أن يحسّ فيها بنسب جيدة ، ولا بتسلسل سليم . غير أني كنت أعتقد هنا أنني كنت أبصر كشفاً جديداً لم تكن تبدو لي فيه تلك المآخذ بحال من الأحوال ، بل كانت تنضح بنقيض ذلك .

وكنت كلما أطلت النظر اعتقدت أنني اكتشفت منجزات أكبر بصدد ما قلته ، وكان مما خرجت به النسب الصحيحة بين الأقسام الأكبر ، والزخرفة المبدعة بمقدار ما هي غنية ، حتى أدق التفاصيل . على أنني تعرفت الآن على الترابط فيما بين هذه الزخارف المعقدة ، وكيف يفضي كل قسم رئيسي الى آخر ، وعلى تحديد التفاصيل التي تعد متجانسة في الحقيقة من حيث النوع ولكنها فائقة التبدّل من حيث الشكل ، من المقدس الى المهول ، ومن الورقة الى التسنين . وكنت كلما أمعنت في البحث ازدادت دهشتي ، وكلما ازدادت تسليتي لنفسي ، وارهاقي لها ، بالقياس والرسم ، ازداد تعلّقي ، حتى لقد أنفقت كثيراً من الوقت في دراسة ما هو متوفّر حيناً ، وفي اعادة صياغة ما هو مفتقد أو غير مكتمل حيناً آخر ، ولا سيما الأبراج ، في أفكار ، وفي رسم على الورق ، ولما كنت أجد هذا البناء مؤسساً في بقعة ألمانية عريقة ، ومزدهراً الى هذا الحد في عصر ألماني أصيل ، كما كان إسم معلم البناء ، الموجود على شاهدة قبر متواضعٍ ، له وقعٌ ونسبٌ وطنيان أيضاً ، فقد تجرأت على تبديل التسمية ذات السمعة السيئة حتى الآن ، وهي الفن القوطي ، وقد حفزتني قيمة هذا الأثر الفنيّ، واثبات هذا الفن تحت اسم الفن الألماني الخاص بأمتنا. على

أنني لم أقصر من ثم في اعلان أفكاري الوطنية على الملأ ، في صورة شفوية أولاً ، ثم في مقالة قصيرة(١) موجهة الى د.م. إفيريني في شتاينباخ .

واذا وصلت روايتي لسيرتي الى الحقبة التي ظهرت فيها الصحيفة المذكورة مطبوعة ، والتي أوردها بعد ذلك هردر في كراسته: « حول الأسلوب والفن الألمانيين ، فسيَرد مزيد من الكلام في هذا الموضوع الهام ، ولكني أريد ، قبل أن أتحول هذه المرة عن الموضوع أن انتهز هذه الفرصة لأبرر الشعار الذي صُدِّر به المجلد الحالي(١) لأولئك الذين قد يرتابون فيه بعض الارتياب . واني لأعرف حق المعرفة أن من الممكن أن يورد المرء خبرات معكوسة حيال الكلمة الألمانية الطيبة والمفعمة بالأمل ، وهي : « ما يتمناه المرء في الصغر يحظى منه بالكثير في الكبر » . وان بعض الأشياء في هذا الصدد قد تكون مما يترتّب تأويله تأويلاً مفتعلاً ، ولكن هناك كثيراً مما يشهد لصالحه ، وأنا أصرّح بما اعتقده في هذا الصدد .

وإنما تعد رغائبنا ضروباً من الشعور المسبق بالقدرات ، وطلائع لما سنكون على استعداد لأدائه ، وما نستطيعه ونحبّه يتمثل لمخيلتنا ، خارج ذواتنا ، وفي المستقبل. ونحن نحسّ بحنين الى ما نملكه بالفعل ، وفي قرارة نفوسنا . وهكذا يحّول التناول الحماسي المستبق ، الممكن حقّاً الى واقعي وارد في الحلم .

فاذا كان مثل هذا الاتجاه الآن كامناً على نحو يقيني في طبيعتنا ، تحقّق مع كل خطوة من تطورنا جزءٌ من الرغبة الأولى ، وذلك

(١) انظر الصفحة الأولى من المجلد الأول .

على الطريق المستقيم في الظروف المواتية ، وفي الظروف غير المواتية ، من طريق ملتوٍ مانفتأ نُعرِّج منه ، مرة بعد أخرى ، على ذلك الطريق . وهكذا يرى المرء الناس يصلون بالمثابرة الى متاع الدنيا ، فيحيطون أنفسهم بالثروة والتألّق ، والشرف الظاهري . وثمة آخرون يطمحون بثقة أكبر ، الى المزايا الروحية ، ويكتسبون نظرةً الى الأشياء شاملةً واضحة ، وطمأنينةً للنفس ، وأمناً في الحاضر . والمستقبل .

ولكن هناك اتجاهاً ثالثاً ، يعد مزيجاً من كليهما ، ولا بد أن يتهيّأ له النجاح على أكثر الوجوه يقيناً ، وذلك حين يصادف صبا الانسان زماناً مثمراً يرجح فيه الابداع على التخريب ، وينبعث فيه من حين الى آخر الشعور المسبَق بما يقتضيه مثل هذا العصر ومايَعِد به . وعلى هذا النحو سيضرب بجذوره مندفعاً بتأثير البواعث الخارجية ، الى الاسهام النشيط ، هنا حيناً ، وهناك حيناً آخر ، وسوف تغدو رغبته في أن يكون فعّالاً في كثير من الجوانب حيّة فيه . والآن تنضم الى المحدوديّة البشرية عقبات عارضة كثيرة جداً ، بحيث يظل هنا شيء مبدوءٌ على حاله ، ويسقط من اليد هناك ما سبق أن أمسكت به ، وتتمزّق الرغائب واحدةً بعد الأخرى . ولكن اذا كانت هذه الرغائب صادرة عن قلب نقيّ ، متماشية مع حاجة العصر ، جاز للمرء أن يرقد ناحية اليمين وناحية الشمال ، ويستلقي وهو مطمئن الى أنه لن يتّم العثور من جديد على هذه الرغائب والحفاظ عليها وحدها ، بل سيخرج الى الضوء بعض الأشياء المتصلة بها ، ممّا لم يمسسه المرء قط ، ولم يفكر به أبداً . فاذا رأينا الآن ، خلال مسيرة حياتنا ، الآخرين ينجزون ذلك الذي كنا نحن أنفسنا نشعر منْ قبل أننا مندوبون اليه ، ولكننا اضطررنا الى التخلّي عنه ، مع بعض الأشياء الأخرى ، عند

ذلك يحل الشعور الجميل ، بأن البشرية بمجملها هي وحدها الانسان الحق ، وأن الفرد لا يستطيع أن يكون مسروراً وسعيداً إلاّ حين تكون لديه الشجاعة لكي يحسّ بنفسه في المجموع . . وقد جاءت هذه الملاحظة هنا في مكانها الصحيح . ذلك لأنني حين أفكر في الهوى الذي كان يجتذبني الى تلك المباني القديمة ، وحين أقدّر الوقت الذي كرّسته لكاتدرائية شتراسبورج وحدها ، والاهتمام الذي تأملت به بعد ذلك كاتدرائية كولونيا(١) ، وكاتدرائية فرايبورج ، فأحسست بقيمة هذه المباني احساساً مطّرد الزيادة ، ربما ألوم نفسي اذ غابت هذه عن بصري فيما بعد كل الغياب ، بل خلفتها وراء ظهري تماماً ، حين اجتذبني فن أكثر تطوّراً(٢) . ولكن حين أرى الآن ، في آخر الأيام ، الاهتمام موجّها نحو تلك الموضوعات ، والميل ، بل الشغف ، يظهر حيالها ويزدهر ، وأرى شبّاناً قد استحوذت عليهم ، فهم يبذلون الطاقات والوقت ، والعناية والثروة ، لمعالم عالم ماض ، بغير حساب ، عند ذلك أذكر بسرور أنّ هذا الذي أردته وتمنّيته كان له قيمة . واني لأرى ، وأنا منشرح الصدر ، أن القوم لا يعرفون كيف يقدّرون انجاز الأوائل من أوائلنا فحسب ، بل يحاولون أن يصوروا المقصد الأول مستمداً من البدايات غير الناجزة ، من خلال الصورة على الأقل ، لنتعرف ، من هذا الطريق ، على الفكرة التي تظل بلا ريب أوّل كل مشروع وآخره ، ويطمحون الى استجلاء ماض يبدو مختلطاً مشوّشاً ، بالجدّ المتروّي ، وبعث الحياة فيه . وأنا أثني هنا ثناءً متميزاً على سو لبتس بواسريه(٣) الطيب الذي يشغله على نحو لا يعتريه الكلل تشييد كاتدرائية كولونيا في نقش فخم على النحاس ، ليكون صورة أنموذجية لتلك المفاهيم الرائعة التي كان

مغزاها النزوع الى السماء على طريقة بابل ، والتي كانت خارجة عن إطار الوسائل الأرضية الى درجة أنه لم يكن لها بدٌّ من أن تتعثّر بالضرورة لدى التنفيذ(٤) . ولئن كنا نعجب حتى الآن من أن أمثال هذه المباني لم تزدهر إلاّ الى هذا المدى فحسب ، فاننا سنعلم ، ونحن في الغاية من العجب ، ما كانت النية تتجه الى انجازه في الحقيقة .

فياليْتَ المشروعات الأدبية — الفنية من هذا الطراز تلقى الرعاية الملائمة من قبل كل أولئك الذين يتمتعون بالطاقة والمقدرة والنفوذ لكي تتجلّى لنا عقلية آبائنا العملاقة ، ولنستطيع أن نكون تصوراً عما عسى أن يكونوا أرادوه . على أن النظرة الناجمة عن ذلك لن تظل عديمة الجدوى . كما أن الحكم سيكون أهلاً لأن ينطبق في النهاية ذات مرة بحق على تلك الأعمال . بل أن هذا سوف يحدث على أكثر ما يكون عمقاً لو قام صديقنا الشاب النشيط ، فضلاً عن دراسته المكرسة لكاتدرائية كولونيا ، بتتبّع تاريخ فن العمارة في عصرنا الوسيط حتى التفاصيل . وإذا تم بعد ذلك في هذه الأيام تنمية ما يجب معرفته بأية صورة حول الممارسة العملية لهذا الفن ، وإذا تم عرضه في كل مبادئه الأساسية عن طريق المقارنة بالفن الاغريقي — الروماني وبالفن الشرقي — المصري فلا يمكن أن يبقى إلاّ القليل مما يجب عمله . أمّا أنا فسوف أستطيع ، حين تنتشر نتائج أمثال هذه الجهود الوطنية، مثلما هو الآن شأن البيانات الخاصة ، أنْ أكرّر وأنا منشرح الصدر حقاً، تلك الكلمة بأفضل معانيها : « ما يتمنّاه المرء في الصغر يحظى منه بما يكفيه في الكبر » .

ولكن إذا كان المرء يستطيع ، في صدد مثل هذه المؤثرات ، التي تعود إلى قرون ، أن يعتمد على الزمن ، وأن يترقّب الفرصة ، فان هناك،

في مقابل ذلك أشياء أخرى يجب أن تُجنى ويُستمتَع بها في الصبا ، طازجة كالثمار الناضجة . ولا يجُور أن يذكر مع هذه الانعطافة المباغتة إلا الرقص الذي يجري تذكير الأُذُن به ، مثلما يجري تذكير العين بالكاتدرائية ، في كل يوم ، وفي كل ساعة ، في شتراسبورج ، وفي الالزاس . وكان والدي قد علمني الرقص بنفسه منذ الصبا الباكر ، أنا وأختي ، وهو أمر كان خليقاً أن يليق برجل شديد الرصانة على نحو رائع بما فيه الكفاية ، إلاّ أنّه لم يكن يسمح بأن يخرجه أحد عن اتزانه في هذا الصدد ، فكان يوجهنا أدقّ التوجيه في الأوضاع والخطوات ، ولما بلغ بنا مدى كافياً لنرقص رقصة المينْوويت (١) ، جعل ينفخ في آلة الفلوت الصغير شيئاً سهل المتناول ، في إيقاع ثلاثي ( كالفالس) وجعلنا نتحرك بموجبه بصورة جيدة على قدر الامكان . أما في المسرح الفرنسي فقد رأيت ، إذ فاتتني حفلات الباليه ، الرقصات المنفردة ، والرقصات الثنائية ، ودوّنت من ذلك بعض الحركات الرائعة للأقدام، ووثبات شتى فلما اكتفينا الآن من المينوويت التمست من والدي ضروباً أخرى من الموسيقا الراقصة التي كانت كتب النوطات تقدم الكثير منها في أشكالها المعروفة بالكودا (١) والستاكاتو باصّ . وصممت لنفسي في الوقت نفسه الخطوات وسائر الحركات الخاصة بذلك ، والتي كان الايقاع فيها يلائم أعضائي كل الملاءمة ، وكنت مجبولاً عليها . وقد أسعد هذا والدي إلى درجة معينة ، بل كان يمتعه ويمتعنا في بعض الأحيان أن ندع القرودة ترقص على هذه الطريقة . وبعد حادثتي مع جريتشن، وخلال كل إقامتي في لايبتسج لم أعد إلى هذه الخطة من

---

(١) Minuett رقصة بطيئة رزينة

جديد . بل ما زلت أعرف أنه حين اضطرّني القوم ، في حفلة راقصة ، إلى رقصة مينوويت ، بدا أن الايقاع والحركة قد تلاشيا من أعضائي ، وأنني ما عدت أذكر الخطوات ، ولا الأشكال ، بحيث كنت خليقاً أن أخرج من ذلك مجلّلاً بالعار ، لولا أن القسم الأكبر من المشاهدين زعم أن سلوكي العديم البراعة انما هو مجرد عناد تحدوه رغبتي في أن أفسد على النساء كل متعة في دعوتي إلى الرقص خلافاً لإرادتي ، والانخراط في صفوفهن .

وكنت خلال إقامتي في فرانكفورت قد انقطعت تماماً عن أمثال هذه المباهج . ولكن سرعان ما انبعثت في شتراسبورج المقدرة على الايقاع في أعضائي مع ما عداها من مُتَع الحياة . ولم يكن القوم يمرّون ، وهم يتسكّعون في أيام الآحاد ، وفي حياتهم اليومية ، بمربع من مرابع اللهو من دون أن يجدوا هناك حفنة من الناس قد اجتمعت للرقص ، وكانت في أغلب الأحيان تدور في حلقة.وعلى النحو ذاته كان هناك حفلات رقص خاصة في المنازل الريفية . وكان القوم قد أخذوا في الحديث عن حفلات التنكر المتألقة في الشتاء المقبل . ولا ريب أنني لم أكن هنا خليقاً بمكاني وبمجتمعي . عند ذلك أشار عليّ صديق كان يتقن رقصة الفالس أيّما إتقان ، أن أتدرّب أول الأمر في حفلات أقل شأناً ، لكي يكون من الممكن أن أحظى بشيء من التقدير بعد ذلك في أفضل الحفلات . وجاء بي إلى أستاذ للرقص كان معروفاً بالبراعة ، ووعدني هذا بأن يواصل توجيهي بعد أن أكون قد راجعت الأسس الأوليّة وتمثلتُها. وكان من ذوي الطباع الفرنسية الجافة البارعة ، وقد تلقّاني بالمودة . ودفعت اليه أجرة الشهر سلفاً وتلقيت اثنتي عشرةبطاقة وعدني لقاءها

بساعات تدريس معينة . وكان الرجل صارماً ، دقيقاً ، على أنه لم يكن متحذلقاً . ولما كنت قد حظيت بشيء من التمرين المسبق ، فقد أديت ذلك بسرعة ، شاكراً له ، ونلت إعجابه .

وكان هناك مع ذلك ظرف يسهّل التعليم إلى حد كبير عند هذا المعلّم : وذلك أنه كان له ابنتان ، وكانت كلتاهما جميلة ، وهما بعد دون العشرين عاماً . ولما كانتا تلمّان بهذا الفن منذ الصغر فقد أظهرتا فيه براعة كبيرة ، وكانتا خليقتين أن تتمكنا من مساعدة حتى التلميذ الفائق البلادة على تحصيل شيء من المران، بحكم كونهما شريكتي رقص . وكانت كلتاهما بالغة الظُرف ، ولم تكونا تتحدثان إلاّ بالفرنسية أما أنا فكنت أتمالك نفسي وأتماسك لكي لا أبدو أمامهما بليداًومضحكاً. وقد أسعدني أنهما كانتا ، هما أيضاً ، تثنيان عليّ ، وكانتا دائماً على استعداد لأداء رقصة المينوويت على أنغام كمنجة الوالد الصغيرة ، بل لتعليمي رقصة الفالتس والحركة الدورانية . وكان يبدو أن الأب لم يكن له في نهاية الأمر عملاء كثيرون ، وكانتا تعيشان حياة منعزلة .ولذلك كانتا تلتمسان مني بعد الدرس ، في بعض الأحيان ، أن أمكث لديهما ، وأن أزجي الوقت في الحديث ، فكان ذلك يسرني أيضاً ، ولاسيما حين راقت لي صُغراهما حقاً ، وكانت تسلك سلوكاً شديد التهذيب بصورة مطلقة ؛ وكنت أتلو في بعض الأحيان شيئاً من رواية من الروايات ، وكانتا تفعلان الشيء ذاته . أما الكبرى التي كانت جميلة جداً ، بل ربما كانت أجمل من الثانية ، ولكنها لم ترق لي مثل هذه ، فكان سلوكها تجاهي أكثر تودّداً ، وأكثر لطفاً في كل شيء . وكانت لدى الدرس حاضرة دائمة ، وكانت تمدّ في الدرس طولاً في بعض الأحيان ، ومن أجل ذلك كنت أرى في بعض الأحيان أن هناك ما يوجب عليّ أن

أقدم إلى الوالد بطاقتين فلم يكن يقبلهما مع ذلك . وكانت الصغرى ، في مقابل ذلك ، أقرب إلى السكينة والنَأْيِ بنفسها ، على الرغم من أنها لم تكن تسلك سبيل العداء تجاهي ، وتطاوع أباها حين يناديها لتحل محل الكبرى .

وقد اتضحت لي علة ذلك ذات مساء ، لأنني حين هممت بدخول غرفة الجلوس مع الكبرى بعد انتهاء الرقص ، وقفتْني وقالت : « فلنبق هنا قليلاً ، لأني أريد أن أفضي إليك بهذا فحسب ، وهو أن لدى أختي عرّافة يراد منها أن تكشف عن حقيقة الأمر فيما يتصل بصديق من الخارج يتعلق كل قلبها به وقد علقت كل آمالها عليه . ومضت قائلة : « أما قلبي فخال ، وسوف اضطر إلى أن أتعود النظر إليه على أنه منبوذ » . فأسديت إليها ، على أثر ذلك ، بعض المجاملات ، إذ رددت بالقول ان في وسعها أن تكون الأكثر يقيناً في ذلك ، حين حين يتصل الأمر بهذا ،وحين تسائل المرأة الحكيمة على النحو ذاته. فقالت : « وإني لأريد أن أقدم على ذلك أيضاً ، لأنني وددت لو عرفت شيئاً كهذا منذ وقت طويل ، وقد كنت أفتقر في ذلك حتى الآن إلى الايمان . وأنحت عليّ باللائمة من أجل ذلك ، وأكّدت أنه ما من شيء في الدنيا أكثر يقيناً من هاتف الغيب هذا . إلاّ أنه يجب ألا يسأله المرء عابثاً أو مستهتراً ، بل يقتصر على الهموم الحقيقية. ومع ذلك فقد اضطرَرْتُها آخر الأمر إلى دخول تلك الغرفة معي بمجرد أن أيقنت أن المهمة قد انتهت . ووجدنا الأخت خالية البال تماماً ، وكانت أكثر مؤانسة لي أنا أيضاً من ذي قبل ، ميّالة إلى الدعابة وفيها شيء من الظُرْف . ذلك لأنها لما كانت قد أَمِنت صديقها الغائب

فربما رأت ألاّ حرج عليها في أن تؤانس صديقاً حاضراً لأختها ، اذ كانت تنظر إليّ هذه النظرة .

ثم أخذت تتودد الى العجوز فتبذل لها عطاء سخياً اذا مارضيت أن تدلي الى الأخت الكبرى والىَّ أيضاً ، بالخبر اليقين . فبسطت عُدّتها مع المقدمات والطقوس المعتادة ، وذلك لتتنبأ للجميلة أولاً ، وجعلت تتأمل وضع الأوراق بعناية ، ولكن بدا انها تتلعثم ، وأبت أن تفصح عمّا لديها . فقالت الصغرى التي كانت قد غدت أقرب الى الإلمام بمثل هذه اللوحة السحرية : « لقد رأيتك ترددين ، ولا تريدين أن تكاشفي أختي بشيء مزعج ، ولكن هذه ورقة مشؤومة ! » . وشحب وجه الكبرى ، ولكنها تمالكت نفسها وقالت : « هلاّ تكلمت ، فان ذلك لن يكلفني رأسي » . عند ذلك أوضحت العجوز لها ، بعد تنهدة عميقة ، أنها تحب ، وأنْ ليس يحبها أحد ، وأن امرءاً آخر يقف بينهما ، ونحو ذلك من أمثال هذه الأمور . وبدا الحرج على الفتاة الطيبة ، واعتقدت العجوز أن في وسعها أن تحسّن المسألة بعض التحسين من جديد ، اذ وضعت أملاً في رسائل ، أو في مال . فقالت البُنيّة الجميلة :أما الرسائل فلست انتظر شيئاً منها ، وأما المال فلست أحبه . ولئن كان حقاً ما تقولين من أنني أحب ، فأنا استحق قلباً يبادلني الحب » . فردت العجوز قائلة وهي تخلط الأوراق ، وتبسطها مرة ثانية : « فلنر لعل الحالة تتحسّن . ولكن الأمر لم يزدد إلاّ سوءاً أمام أعيننا جميعاً . وذلك أن الجميلة لم تكن تقف في وضع أكثر عزلة فحسب ، بل كان يلفّها شيء من الاستياء . لقد كان الصديق أكثر بعداً عنها ، بينما تقدمت الشخوص الوسيطة الى الأمام . وأرادت العجوز أن تبسط أوراقها مرة ثالثة ، وهي تؤمّل نظرة أفضل ،

ولكن البنيّة الجميلة لم تتمالك نفسها بعد ، فأجهشت ببكاء لا سبيل الى وقفه ، وجعل صدرها اللطيف يخفق خفقاناً عنيفاً ، وانفتلت ، وجعلت تعدو خارجة الى حجرتها ، ولم أر ما ينبغي لي أن أفعل ، اذ كان الهوى يمسكني عند هذه الحاضرة ، على حين يدفعني الإشفاق الى تلك . وكان موقفي ينطوي على قدر غير قليل من الإزعاج ، وقالت الصغرى : « هلاّ واسيت لوسيندا ! هيّا فالْحَق بها » . وترددت ، وأنّى يكون لي أن أواسيهامن‌دون أن أؤكد لها نوعاً من الميل على الأقل ، وهل كان في وسعي أن أفعل ذلك ، في مثل هذه اللحظة بطريقة باردة رصينة ! » . وقلت لإميلي : « فلنذهب معاً » . وردت هذه بقولها : « لست أدري » هل يحسّن وجودي حالتها » . ومع ذلك فقد ذهبنا ، ولكننا وجدنا الباب موصدا ، ولم تجب لوسيندا على الرغم من أننا جعلنا نقرع الباب ونصيح ونتوسّل على قدر ما نريد ، وقالت إميلي : « لابد لنا أن ندعها تفعل ما تريد ، فانها لا تريد الآن شيئاً آخر ! » وإذا كنت أذكر بالطبع سيماءها منذ تعارفنا الأول ، فقد كانت تنطوي دائماً على شيء من العنف والاضطراب وكانت تظهر ميلها نحوي في أكثر الأحيان بألاّ توجه شقاوتها نحوي . وماذا كان يمكنني أن أفعل ! ونقدت العجوز بسخاء على ما أحدثت من سوء ، وهممت بالذهاب حين قالت إميلي : « لقد طابت الأوراق من أجلك الآن أيضاً » . وكانت العجوز على استعداد . وصحت قائلاً : « لا تدعيني أشهد ذلك ! » وأسرعت الى نزول الدرج .

وفي اليوم التالي لم تكن لديّ الشجاعة للذهاب الى هناك . أما في اليوم الثالث فقد أبلغتني إميلي في وقت جدّ مبكر ، عن طريق غلام كان قد جاءني ببعض الرسائل من الأختين ، وحمل اليهما رداً على

ذلك أزهاراً وفواكه ، برجائها ألا أتغيّب اليوم . وأتيت في الساعة المألوفة ، ووجدت الوالد وحده ، فأصلح لي بعض الأشياء في وقع أقدامي وخطواتي ، وفي إقبالي وإدباري ، وفي وقفتي ومظهري ، وبدا آخر الأمر راضياً عني . وأقبلت الصغرى في نهاية الحصّة ، ورقصت معي رقصة مينوويت بالغة الرشاقة كانت حركاتها فيها فائقة الظرْف . وأكدّ الأب أنه ليس من السهل أن يرى زوجين أجمل وأرشق وفقاً لمخطّطه . وبعد الحصة ذهبت كالمعتاد إلى حجرة الجلوس ، وتركنا الأب وحدنا ، وافتقدت لوسيندا ، وقالت إميلي : « إنها ترقد في الفراش ، ويسرني أن أسهر عليها ، فلا تكن قلقاً من من أجل ذلك ، وانما تخفّ حدة مرضها النفسي أولاً حين ترى نفسها مريضة مرضاً جسديّاً ، أما الموت فهي لاتحبه ، وعند ذلك تفعل ما نريد. ولدينا أدوية منزلية معينة تتناولها ، وتستريح ، وعلى هذا النحو تهدأ الأمواج المضطرمة شيئاً فشيئاً . على أنها طيبة جداً ولطيفة جداً في حالة مرض كهذا المرض الموهوم ، ولما كانت تجد نفسها في حقيقة الأمر في صحة حسنة ، ولا تعاني إلا من الهوى ، فانها تصّور لنفسها ضروباً من الموت مفرطة في الرومانسيّة ، تخافها بطريقة مستعذَبة . شأن الأطفال الذين يتحدث المرء اليهم عن الأشباح . فقد أعلنت إلي في مساء الأمس ، بعنفوان أكثر بعُد ، أنها ستموت هذه المرة بلا ريب ، وأن علينا ألا ندخل عليها بالصديق الزائف الناكر للجميل الذي أحسن إليها أيمّا إحسان . والذي يسيء اليها الآن أيمّا اساءة ، إلا حين تكون من الموت على بعد قاب قوسين أو أدنى . فهي تريد أن توجه اليه من التقريع ضروباً مُرّةً كالعلقم ، وتُسلم الروح في الوقت نفسه أيضاً » .
وصحت قائلاً : « لا علم لي بأني مذنب من حيث إعرابي عن أي

ميل إليها واني لأعرف امرءاً يستطيع أن يدلي لي بهذه الشهادة على أفضل وجه » . فابتسمت إميلي وأجابت : « أنا أفهمك ، واذا لم نكن ذكيّيْين حازمَيْن وقعنا جميعاً في مأزق حرج . فما أنت قائلٌ اذا التمست منك ألا تستأنف ساعاتك بعدُ ؟ فلديك على كل حال أربع بطاقات بعدُ من الشهر الأخير ، وقد صرّح والدي ، أنه يجد أن ممايتنافى مع المسؤولية أن يأخذ منك بعدُ مزيداً من المال ، إلا أن تريد أن تكرّس جهودك الرقص بطريقة أكثر جدّية . أمّا ما يحتاجه شاب في هذه الدنيا فذلك ما تملكه الآن » . فرددت قائلاً : « وهذه النصيحة باجتناب دارك ، تقدمينها إلي أنتِ يا إميلي ؟ » . فقالت : «أجل ، أنا ، ولكن لا من قلبي . ألا فاسمع ذلك فحسب . فعندما أسرعت بالذهاب قبل الأمس ، طلبت معرفة طالعك بورق اللعب ، وكان الحكم يتكرّر ثلاث مرات ، وهو يزداد توكيداً . لقد كنت محاطاً بضروب شتّى من الخير والمتاع ، بالأصدقاء والكبار من السادة ، ولم يكن ينقصك المال . أما النساء فكن على مسافة ما منك ، غير أن أختي المسكينة ، كانت بوجه خاص أبعدهن ، وكان هناك أخرى تزداد قرباً منك على نحو مطرّد ، ولكنها لم تقف الى جانبك قط ، اذ وقف بينكما ثالثٌ ، وانما أود أن أعترف الك فحسب أنني رأيت نفسي في المرآة الثانية ، وبموجب هذا الاعتراف سوف تفهم نصيحتي المبنية على سلامة القصد أحسن الفهم . وقد أقرَرْت لصديق بعيد بقلبي ويدي . وقد أحببته حتى الآن فوق كل شيء ، ومع ذلك فربما كان من الممكن أن يكون حضورك أكثر أهمية لديّ مما كان الآن ، وما عسى أن تجني من موقف بين أختين كانت احداهما خليقة أن تشقيك بهواها و الأخرى ببرودها . وكل هذا العذاب من أجل لا شيء ، والى أجل

قريب . ذلك لأننا لو لم نكن نعلم من تكون ، وما عسى أن تكون آمالك لوضعت أوراق الطالع ذلك بأشد الوضوح أمام عيني . وقالت : «وداعاً» ، ومدت يدها الي ، وترددت ، فقالت وهي تقودني نحو الباب : والآن ، لكي تكون هذه المرة حقاً المرة الأخيرة التي نتحادث فيها ، فلتأخذ ما كنت خليقة أن أمنعك إياه في غير هذا الظرف » ، وارتمت على عنقي ، وقبّلتني أرقّ قبلة ، وطوّقتها وشددتها الي .

وفي هذه اللحظة انصفق الباب الجانبي منفتحاً ، ووثبت الأخت خارجة وهي في قميص نوم خفيف ، ولكنه محتشم ، وصاحت : « لاينبغي الك أن تودعيه وحدك ! » . وأرسلتني إميلي ، فأمسكت بي لوسيندا ، وطوّقت قلبي تطويقاً محكماً ، وضغطت خصلات شعرها السود على وجنتي وبقيت حيناً من الزمان على هذا الوضع . وعلى هذا النحو وجدت نفسي في مأزق بين كلتا الأختين ، كما تحدثت بذلك النبوءة الى إميلي قبل حين . وأرسلتني لوسيندا ، وجعلت تنظر في وجهي نظرة الجد . وهممت أن أمسك بيدها ، وأقول لها شيئاً ودياً ، ولكنها أعرضت عني ، وجعلت تمشي في الحجرة بضع مرات جيئة وذهاباً بخطوات قويّة ، ثم ألقت بنفسها في زاوية الأريكة . ودنت منها إميلي ، ولكنها صُدَّت على الفور ، ونجم هنا مشهد ما زال ماثلاً في ذاكرتي على نحو مزعج . وعلى الرغم من أنه لم يكن ينطوي على شيء مسرحي ، بل كان يليق تماماً بفرنسية شابة مفعمة بالحيوية ، فانه لم يكن يمكن أن يتكرّر على المسرح بصورة لائقة إلا على يد ممثلة قديرة مرهفة الحس .

وجعلت لوسيندا تمطر أختها بوابل من التوبيخ . وصاحت قائلة : ليس هذا هو القلب الأول الذي يميل نحوي ، ثم تسرقينه ، فقد كان

الأمر على هذه الصورة بلا ريب مع الغائب الذي خطبك في النهاية أمام عيني . وكان لابد لي أن أشاهد ذلك ، واحتملته ، ولكني أعرف كم كلفني من دموع لاحصر لها ، وقد اقتنصت هذا مني الآن ، من دون أن تطلقي ذاك ، فكم واحداً تقدرين أن تمسكي في وقت واحد . أما إني لصريحة طيبة القلب ، وكل امرىء يعتقد أنه عرفني بسرعة ، وأن من حقه أن يهملني ، أما أنت فخفيّة ساكنة ، والناس يعتقدون بالعجائب حيال ما يمكن أن يكمن وراءك ، ولكن ليس يوجد وراءك إلا قلب بارد أناني يعرف كيف يضحي بكل شيء من أجل نفسه ، ولكن ما من أحد يعرفه بسهولة ، لأنه يكمن مختبئاً في أعماق صدرك ، وقلّما يعرفونه مثل قلبي الحنون الوفي الذي أحمله مكشوفاً مثل وجهي ».

ولاذت إميلي بالصمت ، وكانت قد جلست الى جانب أختها التي كان الحديث يستثيرها على نحو مطرد ، وقد استرسلت في الحديث عن أشياء خاصة معينة لم يكن الإلمام بها يجديني شيئاً . أما إميلي التي كانت تحاول تهدئة أختها ، فقد أشارت الي من الخلف بوجوب المغادرة ولكن مثلما ترى الغيرة والريبة بآلاف العيون فقد بدا أن لوسيندا أيضاً لاحظت ذلك ، فوثبت وانطلقت نحوي ، ولكن بغير عنف ، ووقفت قبالتي ، وبدت كأنها تفكر في شيء ما ، ثم قالت : « اني لأعلم أني فقدتك ، ولن أدعي حقوقاً لي فيك بعدُ ، ولكن لن يكون لك ، يا أختي ! » وأمسكت بي ، مع هذه الكلمات ، من رأسي ، على التحقيق تماماً ، وجعلت تجوس بكلتا يديها بين خصلات شعري ، وتضغط وجهي على وجهها ، وتقبّلني مراراً في فمي ، ثم صاحت :

« والآن فلتخشَ لعنتي . الويل ثم الويل الى أبد الآبدين لمن تقبّل تلك الشفاه أول مرة بعدي ؛ ولتحاولي أن ترتبطي به من جديد . فاني أعلم أن السماء تسمعني هذه المرة ، وأنت يا سيدي ، فلتسرع ، ولتسرع على قدر ما تستطيع ! »

وجعلت أنزل على الدرج كمن يطير ، وقد عقدت العزم على ألاّ أدخل البيت مرة أخرى أبداً .



# الكتاب العاشر

ولما كان الأدباء الألمان ما عادوا يقفون وقفة رجل واحد ، أعضاءً في نقابة ، فقد باتوا لا يتمتعون ، في عالم الطبقة الوسطى ، بأدنى المزايا ، اذ لم يكن لهم سند ، ولا مكانة ، ولا سمعة ، إلا بمقدار ما كانت تواتيهم علاقة ما . ومن أجل ذلك كان مما يتوقف على المصادفة أن تؤدي الموهبة بحكم الطبيعة الى الشرف أو العار . وكان لابد للفقير من أبناء هذه الدنيا أن يجرّر أذيال البؤس في الحياة وهو واع لفكره و طاقاته ، وأن يبدّد الموهبة التي أوتيها من لَدُن ربّات الشعر ، اذ تزيحها جانباً حاجات اللحظة الحاضرة . وقد باتت قصيدة المناسبات(١) وهي النوع الأول والأكثر أصالة بين الأنواع الأدبية قاطبة مزدراةً الى درجة يبلغ منها أن الأمة لاتستطيع حتّى الآن أن تصل الى تصور للقيمة العالية لهذه القصيدة ، وأن الشاعر ، اذا لم يسلك سبيل جنتر(٢) نفسه ، بدا في هذه الدنيا في منزلة التابع على نحو بالغ البؤس ، في صورة مهرّج ، وطفيلي ، وممثل ، بحيث كان يمثل ، سواء على خشبة المسرح ، أم على مسرح الحياة شخصية يستطيع المرء أن يعبث بها كما يشاء .

وكانت ربة الشعر اذا صحبت في مقابل ذلك ، رجالاً أولي سمعة اكتسب هؤلاء بذلك بريقاً يرتدّ الى صاحبة العطاء . فقد كان النبلاء

المتمرسون بالحياة ، مثل ها جيدورن(٣) ، والمواطنون الممتازون ، مثل بروكيس ، والعلماء البارزون ، مثل هالّر ، يعدون من أوائل الأمة ، على شاكلة أولئك الذين هم الأكثر نبلاً ، والأوفى حظاً من التمدير ، وكان ممن يحظون بالتكريم بوجه خاص اولئك الذين كانوا يتميزون ، الى جانب تلك الموهبة الجميلة ، بأنهم رجال أعمال نشيطون أمناء . ولذلك كان أوز (١) ، ورابينر ، وفايسه ، يتمتعون باحترام فريد من نوعه تماماً ، اذ كان على المرء أن يقدر هنا الخصال المتناهية في التباين والتباعد ، والتي قلما يرتبط بعضها ببعض في وقت معاً .

ولكن كان من المفروض الآن أن يحل الوقت الذي تغدو فيه العبقرية الأدبية واعية لذاتها ، حيث تهيء لنفسها علاقاتها الخاصة بنفسها ، وتعرف كيف تضع الأساس لمكانة مستقلة . وقد اجتمع كل شيء في كلوبشتوك(٢) ليضع الأساس لمثل هذه الحقبة ، وكان فتى نقيّاً سواء من الوجهة الحسيّة أم الوجهة الأخلاقية . ولمّا كان قد رُبّي تربية جادة وأساسيّة ، فقد كان يعلق ، منذ صباه ، قيمة كبرى على ذاته ، وعلى كل ما يعمله . وفي الوقت الذي كان يقدر فيه خطوات حياته متروّياً ، كان يتجه ، في شعور مسبق ، بجماع طاقته الداخلية ، صوب أعلى الموضوعات التي يمكن تصوّرها . فقد كان من المرسوم أن يلقى المسيح ، ذلك الاسم الذي ينطوي على خصال لا حصر لها ، التمجيد على يديه من جديد . وكان مرسوماً عنده أن يكون المخلص هو البطل الذي كان يزمع أن يصحبه ، عبر ضروب من المهانة والآلام الى أعلى الانتصارات السماوية. لقد كان كل ما يكمن في النفس الفتيّة من جوانب ربانية ، وملائكيّة ، وبشرية ، مُسْتَغْرَقاً هنا ، فهو يعيش الآن ، وهو الذي رُبّي على الكتاب المقدس ، وغذي بطاقته ، مع آباء

الكنيسة والرسل كأنهم ماثلون أمامه . ومع ذلك فهؤلاء جميعاً لم يُستَدعوا من وراء القرون إلا ليرسموا دائرة من الضوء حول الواحد الذي ينظرون الى مهانته مندهشين ، وعليهم أن يسهموا في تبجيله تبجيلاً مجيداً . ذلك لأن الديّان الأبدي سيجلو في النهاية ، السحائب عن محيّاه ، بعد ساعات الكدر والفزع . وفي مقابل ذلك سيقود هذا اليه البشر الضالين، بل سيقود اليه من جديد روحاً مرتداً(٣) ، وتزغرد السماوات الحيّة في آلاف من الأصوات الملائكية من حول العرس ، وينسكب ائتلاق المحبة على الكون الذي كان قبيل ذلك يركز بصره على مكان تضحية فظيعة . وما زال السلام السماوي الذي أحسن به كلوبشتوك ، في تصور هذه القصيدة وأدائها ، يتجلى حتى الآن لكل من يقرأ الأناشيد العشر الأولى من دون أن يعرب عما لديه من مطالب لا يطيب لثقافة متقدمة أن تتنازل عنها .

وكانت مكانة الموضوع تزيد لدى الشاعر شعوره بشخصيته الخاصة (١) ، أما أنه كان قد دخل هذه الجوقات من قبل ، وأن المسيح قد آثره ، وأنه سيوليه الثناء على جهوده وجهاً لوجه ، وذلك هو الثناء الذي أولاه إياه بقدر غير قليل من العذوبة هنا من قبلُ كل قلب ورعٍ حسّاس ، من خلال قدر من الدموع النقيّة ، أمّا هذا كله فقد كان أفكاراً وآمالاً طفولية بريئة كأشد ما يمكن أن تتسم به ، وتتعلق به نفس مجبولة من معدن طيب . وعلى هذا النحو اكتسب كلوبشتوك الآن الحق الكامل في النظر الى نفسه على أنه شخصية مقدسة . وهكذا كان يجتهد في عمله سعياً وراء النقاء المتسم بفائق الانتباه . وكان ما يزال يقض مضجعه في آخر العمر على نحو غير عادي أنه كان قد وجّه حبه الأول (٢) الى امرأة تركته اذ تزوجت

سواه ، لا يستيقن أتراها أحبته حقاً ، وهل كانت جديرة به . أما الأفكار التي كانت تربطه بميتا(٣) ، وهذا الميل الصميمي الهادئ ، وفترة الزوجية المقدسة القصيرة ، والنفور المتبقّي لدى الزوج من علاقة ثانية ، كل ذلك يعد من قبيل الأسلوب الذي يبيح به لنفسه أن يتذكر ذلك يوماً في ملأ السعداء من جديد .

وقد لقي هذا السلوك الشريف حيال نفسه ذاتها تصعيداً من حيث انه استضيف في الدانمارك التي يحظى فيها بالتقدير ، في بيت سياسي(٤) كبير ، وممتاز من الوجهة الإنسانية ، فترة من الزمان . فقد أصبح ههنا ، وهو في وسط أكثر رقياً ، في وسط منطوٍ على نفسه حقاً ، ولكنه متجه في الوقت ذاته نحو قواعد التعامل الخارجية ، ومكرسٌ اهتمامه للعالم ، ذا اتجاه أكثر تحديداً بعدُ . وكان السلوك الرصين ، والكلام الموزون ، والإيجاز ، حتى حين كان يتحدث الحديث الصريح والحاسم ، يضفي عليه مظهراً معيناً ، شأن مظهر الدبلوماسيين والوزراء ، يناقض تلك الآراء الطبيعية الرقيقة ، على الرغم من أن كلتيهما كانت تنبثق من معين واحد . ومن بين كل هذا تقدّم أعماله الأولى (٥) صورة طبق الأصل ، وانموذجاً نقّياً ، ومن أجل ذلك كان لابد أن تكتسب نفوذاً لا يصدق . أمّا أنه كان يساند آخرين مساندة شخصية في الحياة وفي الأدب ، فذاك أمر قلما آتي على ذكره من حيث كونه أحد خصاله البارزة .

ولكن مثل هذه المساندة للشباب في العمل والممارسة الأدبية ، والولَع بدفع الشباب المفعمين بالآمال ، والذين لم يواتهم الحظ ، الى الأمام ، وتمهيد الطريق أمامهم ، هو ما أضفى العظمة على رجل

ألماني كان من حتمه أن يعدّ الثاني بالنظر الى المكانة التي أضفاها على نفسه بنفسه ، وأن يعدّ الأول بالنظر الى التأثير الحيّ . ولن يغرب عن بال أحد أن جِلْايْم(١) هو المقصود هنا . وكان ، وهو الذي يتقلّد وظيفة غامضة ولكنها ذات عائد لابأس به ، والذي يقطن مكاناً حسن الموقع ، ليس بالمفرط في الاتساع ، يُشيع فيه النشاط العسكري والمدني والأدبي الحياة ،وتصدر عنه عائدات وَقْفٍ كبير غني من دون أن يتبقى جزء منها لمصلحة المكان ، وكان يحسّ في نفسه بدافع حيوي مثمر ، لم يكن مع ذلك يكفيه تماماً على الرغم من كل قوته . ومن أجل ذلك أسلم نفسه الى دافع آخر ربما كان أقوى منه ، وهو أن يدفع الآخرين الى إبداع شيء ما ، وكان كلا النشاطين يتشابك أحدهما مع الآخر بغير انقطاع خلال حياته الطويلة كلها . ولم يكن ليستغني عن قرض الشعر والعطاء ، إلا بمقدار ما يستغني عن التنفّس . وفي الوقت الذي كان فيه يعين المواهب المحتاجة من أنواع شتى على تجاوز كل المآزق السابقة أو اللاحقة ، ويكرم الأدب بذلك حق التكريم كان يكتسب عدداً كبيراً جداً من الأصدقاء والمدينين له ، والاتباع ، حتى لقد كان يسرّ القوم أن ينزلوا شعره الغزير منزلة لها شأنها ، لأنهم لم يكونوا ليقدروا على أن يردّوا بشيء على جمائله الواسعة إلا باحتمال قصائده .

وقد أحدث هذا التصور السامي الذي أتيح لكلا الرجلين أن يكوناه عن قيمتهما ، والذي حفز الآخرين إلى أن يروا لأنفسهم شأناً ما ، آثاراً جد كبيرة وجميلة ، ولكن هذا الوعي ، على رفعة شأنه ، أدّى الى وبال خاص بالقياس اليهما معاً ، والى بيئتهما ،وعصرهما . واذا جاز للمرء أن يعد كلا الرجلين عظيماً عظمة لاجدال فيها ،

فقد ظلا تجاه العالم مجرد صغيرين كما ظلت أوضاعهما الظاهرية بالنظر الى الحياة الأوفر حظاً من الحركة، أوضاعاً خاوية . فالنهار طويل ، والليل من بعده ، والمرء لا يستطيع أن يقرض الشعر ، أو يعمل أو يعطي دائماً ، ولم يكن من الممكن أن يُشغَل وقتهما كما تُشغَل أوقات أهل الدنيا والنبلاء والأغنياء . وكانوا من أجل ذلك يعلقّون قيمة كبرى على عُسر أحوالهم ، كما كانوا يرون فيما يصنعون ويمارسون أهميّة لم يكونوا يعترفون بها إلا فيما بينهم ، وكانوا يستمتعون بنوادرهم أكثر مما ينبغي حين كانوا يضفون على لحظتهم طابع الظُرف ، ومع ذلك فلم يكونوا يستطيعون بالنتيجة أن يجعلوا منها شيئاً له شأنه بحال من الأحوال . وكانوا يلقون من الآخرين الثناء والتقدير ، كما يستحقون ، ويردّون عليه بمثله ، ولكن بشيء من الاعتدال ، على أن ذلك كان يتسم دائماً بالكثير من السخاء . ولمّا كانوا يشعرون أن ميلهم له قيمة كبيرة ، فقد ارتضوا لأنفسهم أن يعربوا عنه مراراً ، ولم يكونوا يضنّون في هذا السبيل بورق ، ولا بحبر . وعلى هذا النحو نشأت تلك المراسلات(١) التي يعجب العالم الحديث من ضآلة مضمونها ، وهو العالم الذي لا يمكن أن يؤخذ عليه أنه لا يكاد يتبيّن الامكانية المتمثلة في أن البشر الممتازين كان في وسعهم أن يتسلّوا بمثل هذه الغثاثة المتبادلة حين تفسح المجال للإعراب عن الرغبة في بقاء أمثال هذه الصحائف غير مطبوعة . . ولكن القوم يدعون تلك المجلدات القلائل تظل قائمة الى جانب كثير من المجلدات الأخرى على رفّ الكتب ، حين يتعلمون من ذلك أن أكثر البشر امتيازاً لا يعيش إلا معتمداً على يومه ، ولا يستمتع إلا بقوت ضئيل ، حين يسرف في الانكفاء على نفسه ، ويقصر في الانتهال من فيض العالم الخارجي ،

حيث يستطيع هناك فحسب أن يجد غذاء لنمّوه ومقياساً لذلك النمّو في الوقت نفسه .

وقد كان نشاط أولئك الرجال في أجمل فترات ازدهاره حين أخذنا نحن معشر الشباب أيضاً ننشط في محيطنا . وكنت قد أوغلت كثيراً في الطريق الى التورط مع الأصدقاء الصغار ، ان لم يكن ذلك مع الشخصيات الأكبر سناً ، في مثل هذا التزلّف ، والإكبار ، والإشادة ، والتمجيد ، وقد كان من الممكن ، ضمن بيئتي ، أن يعدّ ما أخرجته جيداً على الدوام . فالنساء . والأصدقاء ، والمحسنون ، لن يجدوا رديئاً ما أنجزه المرء ووضعه إكراماً لهم ، وعن مثل هذه المجاملات ينبثق آخر الأمر التعبير عن متاع فارغ الى جانب مثيله ، اذ يسهل أن تتلاشى الشخصيّة في عباراته ، اذا لم تتهيّأ له صلابة العود من حين الى آخر عن طريق براعة ذات مستوى أعلى . وهكذا كان علي أن أقول عن حظّي ان كل ما كان ساكناً أو ناشطاً في نفسي ، من الاعجاب بالنفس والزهوّ بها ، والخيلاء ، والصلَف ، والكبرياء ، قد تعرّض لامتحان قاس جداً من قبل معارفٍ غير منتظرين ، وقد كان امتحاناً فريداً في نوعه ، ولم يكن متماشياً مع العصر بحال من الأحوال . فكان ذلك مما زاد من وطأته ، ومن الإحساس به .

ذلك لأن أهمّ الأحداث التي قدر لها أن تعود علي بأخطر النتائج إنما كان التعرّف على هرْدَر(١) ، وما أعقب ذلك من ارتباط وثيق به . وكان قد صحب الأمير فون هولشتاين — أويتن الذي كان يعاني من ظروف نفسية كئيبة ، في أسفاره ، ووصل معه حتى شتراسبورج . وأعرب رهطنا ، بمجرد سماعهم بوجوده ، عن رغبة عارمة في

التقرب اليه ، وأصابني هذا الحظ أول الأمر على نحو مباغت كل المباغتة ، وبصورة عَرَضيّة . وذلك أنني كنت قد غدوت الى فندق «الروح» التمس غريباً من ذوي الشأن لا أذكر من هو . فوجدت في أسفل الدرج بالضبط رجلاً يوشك أن يرتقيه مثلي ، وقد كان من الممكن أن أحسبه رجلاً من رجال الكهنوت وكان شعره المعفّر بالمساحيق مضموماً نحو الأعلى في خصلة دائرية ، وكان يتميّز بثوبه الأسود ، على أنه كان يمتاز أكثر من ذلك بمعطف أسود حريريّ كان قد جمع نهايته وحشرها في جيبه . ولم يكن هذا المخلوق الذي يلفت النظر الى حدّ ما ، والذي يتسم مع ذلك بالظرف والإيناس على الإجمال . والذي كنت قد سمعت من يتحدث عنه ، يدعني أشك بحال من الأحوال في أنه هو القادم الشهير . وكان لابدّ لمخاطبتي إياه أن تقنعه على الفور أنني أعرفه . فسألني عن اسمي الذي ما كان يمكن أن يكون ذا شأن بالقياس اليه ، غير أنه بدا كأن صراحتي تعجبه ، اذ قابلها بمودّة كبيرة ، وأظهر على الفور ، ونحن نرتقي الدرج ، استعداده للادلاء بحديث مفعم بالحيوية . وقد غاب عن ذهني مَنْ كنا نزور في تلك الأيام . وجملة القول انني رجوت منه عند الافتراق أن يأذن لي أن أراه حيث يقيم ، فأذن لي بذلك أيضاً ، مع قدر غير قليل من المودة . ولم أقصّر في الإفادة من هذه الحُظْوة مراراً . وكان يجتذبني اليه اجتذاباً مطّرد الزيادة ، وكان في سلوكه شيء من الدماثة يتسم باللياقة والتهذيب الفائق ، في غير رشاقة أو أناقة ، على وجه التحقيق ، وجبهة حافلة بالمعاني ، وأنف غير مدبّب ، وفم بارز ، ولكنه بالغ الرقة والعذوبة من الوجهة الفردية ، وكان تحت الجناحين الأسودين زوج من العيون السود الفاحمة التي لا تقصّر في إحداث أثرها على

الرغم من أن إحداهما كانت في العادة حمراء ملتهبة ، وكان يحاول ، بالأسئلة المتعددة الجوانب أن يتعرّف علي وعلى أحوالي ، وكانت جاذبيّته تحدث أثرها فيَّ على نحو مطرد الزيادة . وكنت ذا طبيعة جد أليفة بصورة مطلقة ، ولم أكن أضن عليه ، هو خاصّةً ، بأي سرّ من الأسرار اطلاقاً ، ومع ذلك فلم يلبث أن ظهر النبض الباعث على الصدمة في طبعه . وسبب لي قدراً غير قليل من الازعاج . وكنت أحدثه أحاديث شتّى عن شواغل صباي ، وهواياتي . وكان منها الحديث عن مجموعة من الأختام التي كنت قد جمعتها بصورة رئيسية عن طريق مشاركة صديق العائلة(١) الكثير المراسلات . وكنت قد رتبتها وفقاً لسجلات الدولة . وكنت قد غدوت في هذه المناسبة مطلعاً على كل الحيثيّات وأصحاب المراكز والسلطة ، حتى النبلاء ، وقد ارتبطت بذاكرتي هذه الشعارات الخاصة بالأنساب ارتباطاً شديد التواتر ، ولا سيما في احتفالات التتويج . وكنت أتحدث عن هذه الأشياء ببعض السهولة والطلاقة غير أنه كان له رأي آخر ، اذ انه لم ينح باللائمة على كل هذا الاهتمام ، بل تمكن من أن يجعله أمراً باعثاً على الضحك عندي أيضاً ، بل جعله يكاد يثير اشمئزازي .

وكان مقدَّراً لي أن أحتمل من روح المعارضة هذه الكامنة لديه أشياء أخرى لايستهان بها . لأنه اعتزم الإقامة في شتراسبورج ، اذ كان يفكر في مفارقة الأمير من ناحية ، وبسبب سوءٍ ألم بعينيه من ناحية أخرى . . وقد كانت هذه البليّة من أشد البلايا وطأة وأكثرها إزعاجاً ، وزادها وطأة أنّها لم يكن من الممكن شفاؤها إلا بعملية مؤلمة متناهية الازعاج ، ، وغير مضمونة . وذلك أن الحويصلة الدمعية كانت مغلقة من الأسفل أكثر مما يجب ، كما أن العظم المجاور كان

يفتقر الى الفتحة التي يفترض أن يتم هذا الإفراز عن طريقها . ومن أجل ذلك كان لابد من شقّ أرضية الحويصلة ، وأن يُثقب العظم ، اذ يتم عندئذ إمرار شعرة حصان عبر نقطة الدمع ثم تُسْحَب ، عبر الحويصلة المفتوحة ، فَعبْر القناة الجديدة المتصلة بها بتلك الطريقة ، وتُحرَّك جيئة وذهاباً في كل يوم لتأمين الاتصال بين كلا الجزئين ؛ وكل ذلك ما كان ليتحقّق ويتم الوصول اليه إلا بعد أن يكون قد تم إحداث شقّ خارجي في تلك المنطقة .

وأقام هرْدَر الآن ، بعد فراقه للأمير ، في مسكن خاص ، وقد عقد العزم على أن يوعز الى لوبشتاين (١) باجراء عملية له . هنالك أتيحت لي التمارين التي حاولت عن طريقها أن أخفّف من حدة إحساسي . فقد استطعت أن أشهد العملية ، وأن أقوم على خدمة رجل عزيز ومساعدته بطرق شتى . ووجدت هنا الآن كل سبب يحملني على الإعجاب بتجلّده وصبره ، اذ انه لم يظهر أدنى استياء ، ، لا عند الجروح المتعددة ، ولا عند التضميد المتكرّر كثيراً ، وكان يبدو أنه الأقلّ معاناة بيننا . ولكن ما من شك في انه كان علينا ، في أوقات الاستراحة أن نحتمل تبدّل مزاجه من وجوه عديدة ، وأقول : علينا ، اذ كان حواليه في معظم الأحيان ، سواي ، روسي رقيق الطبع ، يدعى بيجيلوف . وكان هذا من معارف هردر السابقين في ريغا . وكان يسعى الى استكمال تحصيله في الجراحة باشراف لوبشتاين ، على الرغم من أنه جاوز الصبا . وقد كان في وسع هردر أن يكون فائق العذوبة في جاذبيته وحلاوة معشره . ولكنه كان يعود بالسهولة ذاتها الى إظهار جانب يبعث على الانزعاج .

والحق ان الناس جميعاً يتّسمون بهذا الجَذْب والصَدّ ، تبعاً لطبيعتهم ، فمنهم من أوتي قدراً أكبر ، ومنهم من أوتي قدراً أقل ، ومنهم من أوتي ذلك في إيقاعات بطيئة ، وآخرون في أيقاعات أسرع . وقليل منهم من يستطيع حقاً أن يكبت خصاله المتفرّدة في هذا الصدد . وكثير منهم من يفعل ذلك ظاهرياً . أمّا هرْدَر فقد كان رجحان فكاهته المتحدّية المرّة اللاذعة راجعاً بلا ريب الى بلواه ، والآلام الناجمة عنها . وكثيراً ما ترد هذه الحالة في الحياة . على أن الناس لا يلاحظون الأثر المعنوي للظروف المرضيّة ملاحظة كافية ، ولذلك فهم يحكمون على بعض الخصال حكماً شديد الجور ، لأنهم ينظرون الى الناس جميعاً نظرتهم الى السليم المعافى ، ويطالبونهم بأن يكون سلوكهم أيضاً على هذه الشاكلة .

وكنت أتردد طوال مدة هذا العلاج على هردر في الصباح والمساء . وكنت أمكث لديه أياماً بطولها أيضاً ، فعوّدت نفسي بصورة أكبر ، وخلال أجل قصير ، على تأنيبه وتقريعه ، حين تعلمت كيف أقدر خصاله الجميلة والعظيمة ، ومعارفه الواسعة ، ونظراته العميقة ، على على نحو يزداد مع كل يوم . وقد كان أثر هذا اللوّامة الطيّب القلب عظيماً وخطيراً ، وكان يكبرني خمسة أعوام ، فكان ذلك مما يشكل فرقاً كبيراً في أيام العمر الأولى ، ولمّا كنت أسلّم له بما كان عليه ، واجتهد في تقدير ما أنجزه ، فقد كان لابد أن يكون له تفوّق كبير عليّ . غير أن الوضع لم يكن بالمريح : ذلك لأن كبار السن الذين صحبتهم حتى ذلك الوقت ، كانوا يحاولون أن يثقفوني بلباقة ، وربما جنحوا بذلك الى التساهل أيضاً . أما هردر فما كان المرء ليستطيع

أن يتوقع منه الرضى قط مهما يكن سلوكه . وفي الوقت الذي كان يتصارع فيه على الدوام مالديّ من ميل عظيم اليه وتوقير له من ناحية ، مع الاستياء الذي كان يثيره لديّ من ناحية أخرى ، كان يقوم صراع في داخلي هو الأول من نوعه مما سبق أن أحسست به في حياتي . ولما كانت أحاديثه تنطوي على الأهمية في كل وقت ، سواء أكان يسأل ، أم يجيب ، أم كان يعرب عما في نفسه بأية طريقة أخرى ، فقد كان لابد أن يَحْفِزَني الى نظرات جديدة في كل يوم ، بل في كل ساعة . وكنت قد وطّنت نفسي في لا يبتسج على وجهة ضيقة محدّدة ، كما أن معلوماتي العامة في الأدب الألماني لم يُتَح لها أن تتوسّع من خلال ظروفي في فرانكفورت ، بل أن أعمالي الكيميائية ذات السمة الصوفية الدينية قادتني الى أقاليم غامضة ، وظل ما حدث منذ بعض السنين في عالم الأدب الواسع غريباً عني في معظمه . أمّا الآن فقد تعرفت مرة واحدة ، عن طريق هردر ، على كل مطمح جديد ، وعلى كل الاتجاهات التي بدا أنها تسلك السبيل ذاته . أما هو ذاته فقد كان قد حقق لنفسه مايكفي من الشهرة (١) وتبوأ ، بفضل «فصوله» في الأدب الألماني الحديث ، و«غابات النقد» (١) ، وسواهما ، مكانه جنباً الى جنب مع أعظم الرجال الذين اجتذبوا أنظار الوطن اليهم منذ عهد طويل . أمّا ما كان يكمن في مثل هذا الفكر من حركة ، وما كان لابد أن ينطوي عليه من الاختمار ، فذلك مالا سبيل الى تصوره ، ولا الى تصويره . غير انه لاريب في ان الطموح الكامن كان عظيماً ، وذلك ما سوف يقر به المرء بسهولة حين يفكر في تلك السنوات الكثيرة اللاحقة وفي كل ما خلف من الآثار وفي كل ما أنجز من الأعمال .

ولم نكن قد عشنا معاً وقتاً طويلاً على هذه الطريقة ، حين أسرّ اليّ أنه يفكرّ في الاشتراك في مسابقة الجائزة التي رُصدت من برلين لأفضل كتاب عن أصل اللغات(١) ، وكانت دراسته على وشك الانتهاء ، ولمّا كان يكتب بخط شديد النقاء ، فقد كان في وسعه أن يطلعني في أجل قريب على مخطوط صالح للقراء في صورة كراريس . ولم أكن قد فكرت قط في مثل هذه الموضوعات ، فقد كنت ما ازال أسيراً في وسط الأشياء الى حدّ لايتيح لي أن أفكر في مبتدئها ومنتهاها ، كما أن المسألة بدت لي شيئاً لا حاجة اليه الى حد ما ، ذلك لأنه اذا كان الله قد خلق الانسان انساناً فانما كانت اللغة بمثابة الطريق السويّ المدبرّ له ، ومثلما كان لا بدّ له أن يلاحظ أنه يستطيع أن يسير ويتناول الأشياء ،فقد كان لابد له أن يعي أيضاً أنه قادر بعده على أن يغني بحنجرته ، وأن يحوّر هذه الألحان عن طريق اللسان ، والحلق ، والشفتين بطرق مختلفة . ولما كان الانسان ذا أصل ربّاني فقد كانت اللغة كذلك أيضاً . واذا كان الانسان كائناً طبيعياً ، بالنظر الى محيطه الطبيعي ، كانت اللغة طبيعية على النحو ذاته . ولم يكن في وسعي أن أفرّق بين هذين الشيئين أبداً ، شأن الروح والجسد . وكان زوسميلش(٢) ، الذي يتسم ، الى جانب واقعية خام ، بشيء من العقلية الخيالية ، قد انحاز الى الأصل الرباني ، وهذا يعني أن الرب قد قام بدور المعلم تجاه البشر الأوائل . وكانت رسالة هردر تتجاوز ذلك ، لتبيّن كيف يستطيع الانسان ويجب عليه ، من حيث هو إنسان ، أن يصل الى لغة من اللغات معتمداً على طاقاته الذاتية ، بلا ريب . وقرأت الرسالة باستمتاع كبير ، ومن أجل تثبيت عقيدتي الخاصة ، غير أني لم أكن ذا باع طويل ، لا في العلم ، ولا في التفكير ، لأبرر حكماً في هذه

المسألة . ولذلك أظهرت للمؤلف إعجابي ، اذ أضفت مجرد ملاحظات قليلة مستمدة من طريقتي في التفكير . ومع ذلك فقد كان يتلقى هذا الجواب كما يتلقى سواه . اذ كان المرء يلقى اللوم والتقريع ، سواء أوافق موافقة مشروطة أم غير مشروطة . وكان صبر الجراح البدين أقل من صبري . فكذّب نبأ هذه الرسالة الفائزة بالجائزة على سبيل المزاح . وأكدّ أنه ليس مؤهلاً على الإطلاق للتفكير في هذه المسائل التجريدية. بل كان يؤثر الانهماك في لعبة الهُمْبُرة التي كنا في العادة نلعبها معاً في المساء . .

ولم يفقد صاحبنا هردر شيئاً من حيويته مع هذا العلاج الباعث على الانزعاج ، والمؤلم، غير أن ما فيه من الرفق والتجمل كان يتناقص على نحو مطرد. ولم يكن يستطيع أن يكتب رقعة ليطلب شيئاً من دون أن يضيف إليها أي شيء من توابل سخريته . ومن ذلك أنه كتب إليّ ذات مرة يقول :

اذا وصلت اليك رسائل بروتوس ، في رسائل شيشرون ، إليكَ ، أنت الذي يعلّله المربّون في المدارس ، على ألواح المقاعد المصقولة ، متخذين سَمْتَ الأبّهة ، على أنهم يعلّلونك ظاهراً أكثر مما يعلّلونك باطناً ، أنت الذي تنحدر من الآلهة ، أو من القوط ، أو الغائط .

فابعث بها ، يا غوتّه ، إليّ .

ولم يكن من المستحسن ، بالطبع ، أن يسمح لنفسه بهذا العبث باسمي : ذلك لأن اسم الآدمي ليس كالمعطف الذي ينسدل حوله ، والذي يستطيع المرء على كل حال أن يشدّه ويمطّه ، وانما هو ثوب

ملائم كل الملاءمة ، بل هو كالبشرة ذاتها ، اذ تنمو معه شيئاً فشيئاً ، فلا يستطيع المرء أن يحكّها أو يخدشها من دون أن يؤذي نفسه .

على أن المأخذ الأول كان أوفر حظاً من التبرير في مقابل ذلك . وذلك أنني كنت قد أخذت معي الكتب الواردة بالتبادل(١) من لانجر ، ومعها بعدُ طبعات جميلة مختلفة من مجموعة أبي ، ونضدتها على رفّ نظيف . وقدتوفرت لديَّ الارادة المثلى لاستعمالها . ولكن كيف كان يمكن أن يكفي الوقت الذي كنت أقسّمه بين مئات الألوان من النشاط . على أن هردر ، الذي كان فائق الانتباه حيال الكتب ، لأنه كان يحتاجها في كل لحظة . أحس بوجود مجموعتي الجميلة لدى الزيارة الأولى ، وسرعان ما شعر أيضاً بأنني لا استخدمها على الاطلاق ، ولذلك دأب على التهكم علي بذلك في المناسبات اذ كان العدوّ الألدّ لكل تظاهر ولكل تفاخر .

وثمة قصيدة تهكمّية أخرى تخطر ببالي ، وقد أرسلها في المساء ، حين كنت قد حدثته عن معرض درسدن كثيراً . ولا ريب أنني لم أكن متعـمقاً في الروح السامية للمدرسة الإيطالية . ولكن دومينيكو فيتي ، وهو فنان ممتاز ، كما كان من أهل الفكاهة ، ولم يكن ، بناء على ذلك ، من الدرجة الأولى ، كان قد اجتذبني كثيراً . وكان لابد من رسم موضوعات كهنوتية . فكان يلتزم بالحكايات الرمزية في العهد الجديد ، ويسرّه أن يصورها ، بكثير من التميز ، والذوق ، والمزاج الحسن . وكان يقربها بذلك من الحياة المألوفة كل التقريب . وقد انطبعت في نفسي التفاصيل التي تنم عن الحذق بمقدار ما تنم عن البساطة في تركيباته انطباعاً حياً . اذ رعته ريشة تتسم بالطلاقة ، وقد سخر هردر من حماسيّ هذه الطفولية للفن على النحو التالي :

العطف يحملني

على الأُنْس الى أستاذ بعينه .

يدعى دومينيكو فيّي (١) .

وهو يقلّد حكايات الكتاب المقدس على نحو مضحك

في جمال يحوّلها الى خرافة من خرافات المجانين ،

العطف يحملني — أيتها الحكايات الجنونية !

ولقد كان في وسعي أن أورد من أمثال ذلك قدراً أكثر أو أقل مرحاً أو غموضاً ، من النوادر الحلوة أو المرة . ولم تكن تبعث لديّ الاستياء ، على أني لم أكن أرتاح إليها . ولكن لمّا كنت مع ذلك أعرف كيف أقدّر كل ما يسهم في تثقيفي تقديراً عالياً ، وقد سبق أن تخليت مراراً عن آراء وميول سابقة ، فقد وطنت نفسي على ذلك في أجل قريب ، ولم أكن أسعى إلا الى أن أميز ، على قدر ما كان موقفي يمكنني في تلك الأيام ، بين اللوم المُحِق ، والمطاعن الجائرة . وعلى هذا النحو لم يكن يحلّ يوم من دون أن يكون بالقياس إليّ حافلاً بالدروس على نحو متناهٍ في جدواه .

وقد أحطتُ بالشعر من جانب مختلفٍ تماماً ، وبمعنى مغاير كل المغايرة لما كنت أعرفه حتى ذلك الوقت ، وكان ذلك الجانب في الحقيقة من النوع الذي يلائمني جداً . وذلك أن فن الشعر العبري(٢) الذي كان يعالجه على طريقة سلفه لوفت(٣) معالجة بارعة ، والشعر الشعبي(٤) الذي كان يَحْفِزُنا الى البحث عن رواياته في الالزاس ، وأقدم الوثائق في صورة الشعر ، كانت تشهد على أن فن الشعر موهبة عالمية وشعبية ، لا ميراث خاص بالرجال المثقفين . والتهمت هذا

كله . وكنت كلما ازددت عنفواناً في التلقّي ازددت سخاءً في العطاء . وكنا ننفق معاً أمتع الساعات . وكنت أحاول أن استأنف ما بدأت به من دراساتي في الطبيعة . ولما كان المرء يحظى بما يكفيه من الوقت دائماً اذا ما أراد أن يحسن استعماله ، فقد أتيح لي ضِعفا ذلك وثلاثة أمثاله . أما ما يتصل بخصب هذه الأسابيع القلائل التي عشناها معاً ، فأنا أستطيع أن أقول حقاً ، ان كل ما فصّل هردر القول فيه شيئاً فشيئاً فيما بعد كان هناك نواة تشير اليه ، وأنني غدوت بذلك في وضع مواتٍ يتيح لي أن استكمل كل ما كنت قد فكرت به حتى الآن ، وتعلمته ، واكتسبته ، وأن أصله بشيء أعلى ، وأوسّعه . ولو أن هردر كان أكثر منهجيةً لوجدت أكثر التوجيهات ملاءمة لاتجاه ثابت في ثقافتي ، ولكنه كان أكثر ميلاً الى الاختبار والحثّ ، منه الى القيادة والتوجيه . وهكذا عرفني أول الأمر على كتابات هامّان(١) التي كان يوليها قيمة كبيرة جداً . ولكن بدلاً من أن يعرفني على مسالك هذا الفكر الممتاز ودروبه ، كان يستخدمه في العادة لمجرد التندّر حين كنت أعرب عن استغرابي لكي أصل الى فهم أمثال هذه الصحائف الحافلة بالألغاز . وكنت في هذه الأثناء أحسّ حقاً أن ثمة شيئاً في كتابات هامّان كان يروقني ، فأسلمت نفسي اليه من دون أن أعلم من أين يجيء ، والى أين يؤدي .

وبعد أن طال أمد العلاج أكثر مما يجب ، وأخذ لوبشتاين يتردد في المعالجة ، ويكرر نفسه حتى غدت المسألة تأبى أن تنتهي الى نهاية ، وكان بيجيلوف قد أفضى اليّ سرّاً بأن من العسير أن يأمل المرء في مخرج حسن : تكدّر صفو العلاقة كلها : فغدا هردر نافد الصبر متبرماً ، ولم يكن يوفّق الى استئناف نشاطه كما كان حتى الآن ، على

أنه كان أحرى أن يحدّ من نشاطه حين أخذ القوم يعزون العمليّة الجراحية التي انتهت الى الإخفاق ، الى الإجهاد الفكري المفرط عند هردر ، والى صحبته لنا على ذلك النحو المتصل المتسم بالعنفوان ، بل وبالمرح أيضاً . وجملة القول أن المجرى الاصطناعي للدمع أبى أن يتشكّل بعد هذا القدر الكبير من العذاب والآلام ، ولم يتحقّق الاتصال المقصود . ورأى القوم أنفسهم مضطرين الى أن يتركوا الجرح ينغلق ، لكيلا يتفاقم البلاء . واذا كان لابد للمرء أن يعجب ، عند عملية هردر ، بتجلّده مع مثل هذه الآلام فقد كان لابد لاستسلامه الكئيب ، بل الساخط ، أن يحمل في أفكاره مثل هذه النقيصة مدى العمر ، وأن ينطوي على شيء نبيل حقاً كان يحظى عن طريقه بتقدير أولئك الذين كانوا يرونه ويحبونه ، الى الأبد . وقد كان لابد لهذه البليّة التي كانت تشوّه وجهاً له كل هذه الأهميّة أن يزيد من سوئها بالقياس اليه أنه كان قد تعرّف على امرأة ممتازة في دار مشتات(١) ، وظفر بمودتها . وربما كان هذا هو المقصد الرئيسي الذي حمله على الخضوع لذلك العلاج ، ليتقدم في رحلة العودة . الى من يوشك أن يخطبها وهو أكثر انطلاقاً وبشاشة ، وأحسن استعداداً ، وليرتبط بها برباط أشدّ توثيقاً وإحكاماً . ومع ذلك فقد انطلق مغادراً شتراسبورج بأسرع ما يستطيع . ولما كانت إقامته حتى الآن باهظة على قدر ما هي مزعجة فقد اقترضت له مبلغاً من المال وعدني بتسديده في أجل محدد.وانقضى الوقت من دون أن يصل المال . والحق ان دائني لم يذكرني ، ولكني ظللت في حرج طوال عدة أسابيع . وأخيراً جاءت الرسالة ، والمال ، وهنا أيضاً لم يتنكر لذاته ، ذلك لأن رسالته تضمنّت بدلاً من الشكر والاعتذار ، جملة من الأشياء الساخرة في أبيات من الشعر

الهزلي المختل الوزن كانت خليقة أن توقع امرءاً آخر سواي في متاهة ، بل كانت خليقة أن تثير نفوره ، غير أن ذلك لم يبلغ من نفسي مدى أعمق ، اذ كنت قد كوّنت عن قيمته تصوّراً بالغ العظمة والقوة يأتي على كل ما يثير النفور مما كان خليقاً أن يلحق به الأذى .

ومع ذلك فليس يحسن بالمرء قط أن يتحدث عن أخطائه وأخطاء غيره ، ولا سيما في ملأٍ من الناس ، اذا لم يكن يتوخى بذلك احداث أثر نافع . ولذلك أود أن أورد هنا بعض الملاحظات الملحة .

ان الشكر ونكران الجميل يُعدّان من تلك الأحداث التي تعرض في العالم الأخلاقي في كل لحظة ، والتي لايستطيع الناس أن يصلوا الى الطمأنينة حيالهما . وقد تعودت أن أفرّق بين الاستهانة بالجميل ، ونكران الجميل ، وكراهية الشكر . أما ذلك الأول فانه مولود مع الانسان ، بل مخلوق من أجله . ذلك لأنه ينبثق عن نسيان سعيد لا مبالٍ ، لما يسوءُ ، ولما يسرُّ على حد سواء . وهو الذي يغدو به استمرار الحياة وحده فحسب ممكناً . وانما يحتاج الانسان الى جهود تمهيدية والى ضروب من التعاون من أجل حياة حافلة بالمتاعب ، حتى انه حين يريد أن يؤدي ما يترتب عليه من الشكر للشمس وللأرض ، وللرب، وللطبيعة ، وللأوائل ، وللأبوين ، وللأصدقاء والزملاء ، دائماً ، لايتبقى عنده ، لا الوقت ، ولا الشعور اللازم لتقبّل مآثر جديدة ، وللاستمتاع بها . ثم ان الانسان الطبيعي اذا ما ترك تلك اللامبالاة تهيمن عليه ظاهراً وباطناً تمكنت منه لامبالاة باردة على نحو مطّرد الزيادة ، وأخيراً ينظر الى صاحب الفضل نظرته الى غريب قد يحقّ له أن يقوم بما يلحق به الأذى أيضاً اذا كان ذلك نافعاً لذلك

المرء على أية حال . وهذا وحده يمكن أن يسمى نكران الجميل الذي يصدر عن الجلافة التي لابد للطبع غير المهذّب أن يتيه فيها آخر الأمر بالضرورة . على أن الإعراض عن الشكر ،وهو مقابلة الجميل بسلوك الساخط المستاء ، أمر جدّ نادر ، ولا يرد إلاّ عند البشر الممتازين ، عند أولئك الذين ولدوا ولديهم استعدادات كبرى مع شعور مسبق بها ، في حالة من الفاقه ، أو في وضع بائس ، وشقّوا طريقهم في الحياة خطوة خطوة منذ الصبا . ولم يكن لهم بدٌّ من أن يتقبلوا ، من كل مكان ، العون والمساندة التي تغدو في بعض الأحيان مُرّةً أو ممقوتة ، بفعل فظاظة المتفضِّل ، اذ يكون ما يتلقونه من المتاع الرخيص ، وما يؤدونه لقاء ذلك من نوع أعلى ، بحيث لا يمكن التفكير في تعويض حقيقي . وكان ليسّنْج ، مع ما أوتي في أفضل مراحل عمره من وعي حسن ، ، قد عبّر عن المتاع الرخيص في هذا الصدد(١) ذات مرة تعبيراً فظّاً ولكنه مرح . أمّا هردر فكان ما يفتأ يفسد على نفسه وعلى الآخرين نكهة أحلى الأيام ، اذ لم يتمكن من تخفيف ذلك السخط الذي تولاّه في الصبا بالضرورة ، عن طريق طاقة الذهن في وقت لاحق .

ولا ريب أن في وسع المرء أن يطرح هذا المطلب على نفسه ، اذ يتاح للمقدرة على التثقيف عند الواحد من البشر ضوءُ الفطرة الذي ينشط على الدوام لتنويره حيال أوضاعه ، هنا أيضاً ، على نحو بالغ الرفق . وقد لا ينبغي للمرء على الاطلاق أن ينظر الى حالات التثقيف الأخلاقية على أنها جدّ فادحة ، وألاّ يبتغي إليها الوسائل البعيدة المتناول ، والمفرطة في الجدّ ، اذ يمكن أن تمّحي أخطاء معينة

بسهولة بالغة ، بل بطريق اللعب . وكذلك نستطيع أن نبعث في نفوسنا عرفان الجميل مثلاً عن طريق مجرد العادة ، وأن نحافظ على حيويته : بل نحوّله الى ضرورة .

وقد يحسن في محاولة لكتابة السيرة الذاتية أن يتحدث المرء عن نفسه . فأنا بفطرتي قليل الامتنان ، شأن أي انسان ، وقد يحدث ، حين أقابل جميلاً بالنسيان ، أن أنقاد ، بفعل الشعور الحادّ الناجم عن علاقة متوتّرة في اللحظة الحاضرة ، الى نكران الجميل بسهولة كبيرة .

ولمواجهة هذا عودت نفسي أولاً أن أتذكر ، في صدد كل ما أملك ، كيف وصلت اليه ، وعمّن تلقيته ، سواء أكان هدية ، أو مبادلة ، أو شراءً ، أو بأية طريقة أخرى . وقد عودت نفسي أن أفكّر ، لدى عرض مجموعاتي(١) ، في الأشخاص الذين تلقيت الجزء من أجزائها بوساطتهم ، بل المناسبة ، والمصادفة وأبعد حافز أو عون تهيأت لي به أشياء عزيزة وغالية عندي ، وأن أوفّي هؤلاء حقهم . فان ما يحيط بنا يكتسب بذلك حياةً ، ونحن نراه في إطار ترابط ذهني متصل بنشوئه ، مفعم بالمودة . وعن طريق تمثّل الظروف الماضية يتم رفع شأن الحياة الراهنة واغناؤها ، ويبرز المبادرون الى الجمائل مراراً من المخيّلة ، ويربط المرء بصورتهم ذكرى مستعذبة ويجعل نكران الجميل مستحيلاً عليه ، كما يجعل الرد عليه في بعض المناسبات سهلاً ومرغوباً فيه . وفي الوقت ذاته ينساق المرء الى ملاحظة ماليس بمُلْك محسوس ، ويسرُّه أن يستعيد بإيجاز من أين يصدر تراثه الأعلى ، والامَ يرجع تاريخه .

وقبل أن أحوّل النظر عن علاقتي بهرْدر ، تلك العلاقة ذات الأهمية والنتائج الكبيرة بالقياس الي ، أجد المزيد مما يجب إيراده . اذ لم يكن ثمة شيء أكثر بداهة من أن أغدو ، شيئاً فشيئاً ، أكثر شحاً ، فيما يتصل بالإفضاء الى هردر بما كان يسهم في ثقافتي حتى الآن ، ولا سيما تلك الأشياء التي كانت ما تزال تشغلني بصورة جدية في اللحظة الراهنة . فقد كان أفسد عليّ المتعة في بعض ما كنت أحبّ من قبل ، وأنحى عليّ بأشد اللوم بوجه خاص لما كنت أجد من المتعة في «مسخ الكائنات»(١) لأوفيد . لقد كان في وسعي ان شئت أن أدخل محبوبي في حمايتي كما أشاء ، أن أقول إن شئت ، انه ما من شيء يمكن أن يكون أدعى الى السرور بالقياس الى خيال شابّ من المكث في تلك الأماكن المشرقة الرائعة ، مع الآلهة وأنصاف الآلهة ، وأن يكون المرء شاهداً على أعمالهم وأهوائهم . كان في وسعي ، ان شئتُ أن أورد ذلك التقرير المذكور آنفاً(٢) ، تقرير الرجل الجادّ ، بالتفصيل وأدعم ذلك بخبرتي الخاصة : غير أن هذا كله لم يكن له قيمة ، اذ كان يرى أنْ ليس هناك حقيقةٌ مباشرةٌ حقيقيّة في هذه القصائد ، وأنه لاوجود هنا ، لالبلاد الاغريق ، ولا لإيطاليا ، ولا للعالم الأصيل ولا للعالم المصنوع ، وإنما كل شيء تقليد لما هو موجود من قبل ، وتصوير منمّق متكلّف كما ينتظر ذلك من مُفرِطٍ في التمدّن(٣) ، وحين كنت أهم أن أقول آخر الأمر إن ما يخرجه فرد ممتـــاز انما هو طبيعةٌ أيضاً ، وأن الشاعر إنما كان هو الشاعر دائماً ، في كل الشعوب ، السابقة واللاحقة ، لم يكن ينظر الى هذا نظرة حسنة على الاطلاق ، وكان لابد لي أن أحتمل في سبيل ذلك أشياء ، بل ان صاحبي أوفيد كاد يغدو بذلك بغيضاً اليّ . ذلك لأنه ما من ميل ، ولا عادة ، يبلغان

من القوة ما يستطيعان به أن يحافظا على بقائهما في وجه أحاديث السوء من قبل الرجال الممتازين . فثمة شيء يظل عالقاً دائماً . وكان أكثر ما عُنيت به أن أكتم عنه اهتمامي بموضوعات كانت قد تأصلت عندي . وكان الأمر يقتضي أن تصاغ في أشكال شعرية شيئاً فشيئاً . وكانت هذه «جوتس فون برليشنجن(٤) » و«فاوست» . وكانت سيرة حياة الأول قد مست صميم قلبي . وذلك أن شخصية العصامي الفظ ، ذي النوايا الطيبة . في عصر الوحشيّة والفوضى ، أثارت لديَّ أعمق الاهتمام . كما كانت حكاية مسرحية العرائس(٥) الحافلة بالمعاني ، في الأخرى ، تنعكس أصداؤها في نفسي وتطنّ في أذني بكثير جداً من الايقاعات . وكنت قد أمعنت في التنقّل بين كل ألوان المعرفة ، واندفعت في وقت مبكر بما فيه الكفاية الى غرور تلك المعرفة . وكنت قد بَلَوْتُ ذلك أيضاً في الحياة بطرق شتى ، وكنت أعود من ذلك وأنا أكثر بعداً عن الإشباع ، وأشدّ عذاباً . فجعلت أحمل الآن هذه الأشياء ، ومعها بعض الأشياء الأخرى ، وأغدو بها وأروح ، وأتسلّى بها في ساعات الوحدة ، من دون أن أدون شيئاً من ذلك.ولكني كنت أستخفي من هردر ، أكثر ما استخفي ، بكيميائي الصوفية السحرية وما يتصل بها ، على الرغم من انني كنت ما أزال أشتغل بها بسرور فائق ، في الخفاء ، من أجل استكمال صياغتها على نحو أكثر ترابطاً منطقياً مما نقله الي الناس . واعتقد أنني عرضت عليه من الأعمال الأدبية «المتورطون(١)» . ومع ذلك فأنا لا أذكر أنني لقيت من جانبه أيّ توجيه أو تشجيع في هذا الصدد ، ولكنه ظل مع هذا كله كما كان عليه ، وكان ما يصدر عنه يحدث أثره ، فاذا لم يكن أثراً باعثاً للسرور كان أثراً يتسم

بالأهمية بلا ريب ، بل كان لخطّه سلطان سحري علي . ولا أذكر أنني مزقت إحدى أوراقه ، بل حتى مجرد رقعة بخط يده ، أو رميت بها ، ومع ذلك فلم يتبق لي ، على الرغم من التبدّل المتعدد في المكان والزمان وثيقةٌ من تلك الأيام الرائعة السعيدة الحافلة بالإرهاصات .

أمّا أن جاذبية هردر(٢) كانت تحدث أثرها على الآخرين مثلما كانت تحدثه علي فذلك ما لم أكن لأذكره لولا أنه كان علي أن ألاحظ أنه امتدّ بوجه خاص الى «يونج» ، المدعو شتللنْج ، ولم يكن بدٌّ للاجتهاد المخلص البليغ عند هذا الرجل من أن يثير اهتمام كل من كان له قلب ما ، بدرجة عالية ، وأن يدفع إرهاف حسه الى الصراحة كلَّ من كان على استعداد لأن يفضي اليه بشيء ما . كما أن هردر كان يسلك حيال نفسه ذاتها سلوكاً أكثر تروّياً مما يفعل حيالنا نحن الآخرين : ذلك لأن تأثيره في الآخرين كان يبدو في كل وقت محكوماً بالعلاقة مع التأثر الذي كان يحدث عنده . وكانت محدودية يونج تتسم بقدر كبير من الارادة الطيبة ، كما كان تقدمه يقترن بقدر كبير من الرقة والجد ، بحيث لا يمكن لمن يتفهمه أن يقسو عليه ، ومن كان حسن النية تجاهه فلن يهزأ به ولن يستفزّه . كما أن همة يونج شُحِذت من من قبل هردر الى درجة كان يشعر عندها بالقوة والتشجيع في كل ما يعمل ، بل لقد بدا أن ميله إلي آخذ في التضاؤل بالدرجة ذاتها ، ولكننا ظللنا رفاقاً منسجمين على الدوام ، وكان كلٌّ منا يساند الآخر ، كعهدنا ، ونتبادل تأدية أكثر الخدمات انطواءً على المودة .

فلنبتعد الآن مع ذلك عن حجرة الصديق المريض ، وعن الملاحظات العامة التي تشير الى المرض أكثر مما تشير الى صحة الفكر ، ولنتجه الى

الهواء الطلق ، الى شرفة الدير العالية الفسيحة ، وكأن الزمان ما زال ههنا حيث كنا نحن الرفاق الصغار نتجه الى هناك في كثير من الأحيان مساءً لنحيّي مع الرومان المتخَمين الشمس الآفلة . فههنا كان يتلاشى كل شيء في تأمّل المنطقة ، وعند ذلك يتعرض إرهاف العينين للاختبار ، وكان كل امرئ يسعى الى الاحساس بأبعد الأشياء ، بل الى التمييز بينها بوضوح ، وكان يستعان بمناظير جيدة ، وكان كل صديق بعد الآخر يشير بدقة الى الموضع الذي غدا أحبّ المواضع اليه وأكثرها قيمة ، ولم يكن ينقصني أنا أيضاً مثل هذا الموضع الصغير الذي كان ، على الرغم من أنه لم يكن يتميز بأهمية في المنطقة ، يجتذبني اليه أكثر من كل شيء آخر . وقد انبعث النشاط الآن ، مع أمثال هذه المناسبات ، في المخيلّة عن طريق السَرْد القصصي ، كما تم الاتفاق على بعض الرحلات القصيرة ، اذ كانت كثيراً ما تُرْتَجَل ارتجالاً ، ولا أريد أن أروي منها بالتفصيل إلا واحدة بدلاً من كثير ، اذ كانت ، من بعض الوجوه ، بعيدة الأثر بالقياس اليّ(١) .

وذلك أنني توجهت ، على صهوة الحصان ، مع اثنين من الأصدقاء ورفاق المائدة ، هما إنجلباخ(٢) وفايلاند(٣) ، وكلاهما من مواليد الالزاس السفلى ، الى تْسابَرْن ، حيث كان المرْبَع الصغير الطيّب يضحك إلينا في الطقس الجميل فائق الحلاوة . وكان منظر القصر الأسقفيّ يثير إعجابنا . وكانت رحابة الحظيرة الجديدة ، والعظمة والأبّهة ، يشهدن على سائر وجوه ترف المالك . وقد فاجأتنا روعة الدَرَج ، ودخلنا الحجرات والقاعات متهيّبين ، إلا أن شخص الكاردينال(٤) ، وهو رجل ضئيل متداعٍ ، رأيناه يتناول الطعام ، كان نابياً عما حوله . وكانت الإطلالة على الحديقة رائعة ، وكان ثمة قناة

يبلغ طولها ثلاثة أرباع الساعة ، موجهة توجيهاً مستقيماً كخيط البنّاء ، الى وسط القصر ، تعطي صورة بليغة عن روح المالكين السابقين وطاقاتهم ، ثم جعلنا نطوف هنا وهناك ، ونستمتع ببعض أجزاء هذا الكل ذي الموقع الحسن ، عند نهاية سهل الالزاس الرائع ، وعلى سفح جبال الفوج .

وبعد أن استمتعنا بهذا المركز الكهنوتي البارز ذي السلطان الملكي ثم خلفناه وإقليمه وراءنا ، وصلنا في وقت مبكر من الصباح التالي الى مبنى عام ينفتح مدخله انفتاحاً بالغ الأبهّة ، عن مملكة جبارة . وكانت الطرق الجبلية الشهيرة ، التْسابِرنيّة(١) ماثلةً أمامنا . اذ كان طريق مرصوف بالحجارة يتلوّى كالأفعى صاعداً في شعاب الجبل على نحو يبلغ من هدوئه أن المرء لايكاد يحسّ بذلك الالتواء . وكان عرضه يكفي ثلاث عربات جنباً الى جنب . وكانت صلابة الطريق وسَلاستُه ، والمرتفعات التي سُويّت بالأرض على كلا الجانبين للمشاة ، والمجاري الصخرية لتصريف مياه الجبل ، كل ذلك كان قد أنشىء إنشاءً يبلغ من نظافته وفنّه ، وبقائه على الزمن أنه يتيح منظراً يبعث على الرضى . وهكذا يصل المرء شيئاً فشيئاً الى حصن بفالتسبورج ، وهو حصن جديد قائم على أكمة متوسطة الارتفاع . أمّا المباني فقد شيّدت بأناقة على صخور ضاربة الى السواد ، من حجارة متشابهة . وكانت خطوط الملاط المتميّزة بطلائها الأبيض الكلسّي تبيّن بدقة حجم حجارة البناء ، وتقدم دليلاً على نقاء العمل يلفت الأنظار . أما المكان نفسه فقد وجدناه نظامياً كما يليق بالحصن ، مبنّياً من الحجارة ، وكانت الكنيسة تنطوي على ذوق حسن . وعندما أخذنا نطوف في الشوارع — وكان ذلك

في الساعة التاسعة من الصباح الباكر — سمعنا الموسيقا ، وكان القوم يرقصون الفالس في الحانة حسب مزاجهم . ولمّا لم يكن السكان يسمحون للقحط الكبير ، بل للمجماعة التي تهددهم ، أن يصرفاهم عن متعتهم . فان روح الاستمتاع عندنا معشر الشباب لم يتكدّر صفوها بحال من الأحوال ، حين أبى الخباز علينا بعض الخبز في السفر ، ودلّنا على المطعم ، حيث أتيح لنا أن نلتهمه على الفور .

ونزلنا الطريق الجبليّ الآن ، راكبين ، بسرور عظيم ، لنتأمّل هذه الأعجوبة الهندسية مرة ثانية تأمّل المعجبين ، ولنستمتع مرة أخرى بالمنظر المنعش المطل على الالزاس . وسرعان ما وصلنا «بوخز فايلر » ، حيث كان الصديق فايلاند قد أعدّ لنا استقبالاً حسناً . وانما تعدّ ظروف المدينة الصغيرة ملائمة جداً لروح الشباب الناضرة . فالعلاقات العائلية حميمة ملموسة بدرجة أكبر ، والحياة المنزلية التي تراوح بين العمل الوظيفي المتسّم بالخمول ، والحرفة المدنّية ، وزراعة الحقول والبساتين ، بنشاط معتدل تحملنا على الاسهام الودي . ويعد حسن المعشر ضرورياً ، على أن الغريب يجد نفسه في تلك الدوائر المحدودة في وضع بالغ الإمتاع ، حين لا تمسّه ، في أي مكان ، أمورٌ من قبيل الخلافات بين السكان ، وهي التي تعدّ في مثل هذه الأماكن ملموسة بصورة أكبر . وقد كانت هذه المدينة الصغيرة حاضرةَ اقطاعية هاناو — ليشتنبرج التابعة لجراف دار مشتات الاقطاعي ، تحت السيادة الفرنسيّة . وقد جعلت الحكومة المعنية هنا ، ومجلس المنطقة ، من المكان محوراً هاماً لواحدة من ممتلكات الأمراء الفائقة الجمال التي تعد محط الآمال . وكان يحدث بسهولة أن ننسى الشوارع المتباينة ، وطراز البناء غير النظامي في ذلك المكان حين

كنا نخرج لنشاهد القصر القديم والبساتين التي أنشئت في موقع ممتاز على إحدى الروابي ...وكانت بعض الأحراش الترفيهية الصغيرة ، وحدائق تربية طيور التَدْرُج(١) الداجنة والبرية ، وبقايا بعض المنشآت المشابهة تبيّن كم كان لابد لهذا المَرْبَع الصغير أن يكون عليه من الجمال فيما سلف .

ومع ذلك فقد كان يفوق كل هذه الملاحظات أن يظلّ المرء ببصره من باسْتِبرج ذات الموقع القريب ، على المنطقة الفردوسية على نحو كامل . وقد نبّهني هذا المرتفع المتراكم كله من القواقع المختلفة ، أول مرة الى مثل هذه الوثائق الخاصة بالعالم الأول ، ولم أكن قد رأيتها بعدُ أبداً في كتلة كبيرة كهذه معاً . على أن البصر المولع بالتأمّل سرعان ما اتجه صوب المنطقة على سبيل الحصر . فالمرء يقف على آخر طلائع الجبال متجهاً نحو البلد ، وفي ناحية الشمال تقع مساحةٌ خصبة تتناثر فيها الغابات الصغيرة ، وتحدها جبال حقيقيّة تمتد في الغرب نحو تْسابِرْن ، حيث يمكن للمرء أن يتبيّن القصر الأسقفي ، ودير القديس يوحنا الواقع على بعد ساعة منه بوضوح . ومن هناك تتابع العين سلسلة جبال الفوج الآخذة في التضاؤل حتى الجنوب .

واذا ما اتجه المرء نحو الشمال الشرقي رأى قصر ليشتبرج ، وللعين أن تتقصّى النظر في رحاب الألزاس التي لاتنتهي ، والتي تتجلّى للنظر في أراض طبيعية يزداد فيها التبخّر(١) على نحو مطرد ، الى أن تتلاشى آخر الأمر جبال سوابيا ، في الأفق كالظلال .

---

(١) Fasan بالألمانية ، و Pheasant بالأنكليزية ، طائر طويل الذيل يشبه الحجل .

وكنت قد لاحظت في رحلاتي القليلة في أرجاء العالم مقدار أهمية تقصّي مجرى المياه في الأسفار ، بل السؤال عن الجدول الصغير ، والى أين ينتهي جريانه آخر الأمر ، وبذلك يحصل المرء على نظرة عامة عن كل منطقة من مناطق الأنهار يوجد فيها المرء ويكون تصوراً عن المرتفعات التي يتعلّق بعضها ببعض ، ويتوجّه بأقصى قدر من اليقين ، على هدى هذه المعالم التي تعين على المشاهدة كما تعين الذاكرة في مواجهة ذلك الخليط الجيولوجي والسياسي من البلدان . وبهذه الملاحظة ودّعتُ الازاس الغالية وداعاً احتفالياً ، اذ كنا نعتزم التوجه الى اللورين في الصباح التالي .

وانقضت الأمسية في أحاديث حميمة ، حيث كان القوم يلتمسون الترفيه عن النفس في مواجهة حاضر لا يسّر ، بتذكُّر ماض أفضل . وقبل كل شيء كان اسم الجراف(١) راينهارد فون هاناو ،(٢) مباركاً هنا ، كما هو في كل الاقليم الصغير ، وهو الذي كان عقله الراجح وبراعته ، يتجليّان في كل ما يأتي وما يدع . وكان ما يزال هناك بعض المعالم الباقية من حياته . وانما يمتاز أمثال هؤلاء الرجال بمزية تتمثل في أنهم محسنون من وجهين أولهما للحاضر الذي يضفون عليه السعادة ، ومن ثم للمستقبل الذي يغذّون فيه الشعور والجرأة ويحافظون على سلامته .

ولما توجهنا الآن الى الجبل في الاتجاه الشمالي الغربي ، ومررنا عند لوتسلشتاين ، وهو قصر جبلي قديم ، بمنطقة كثيرة الآكام ، ونزلنا الى اقليم الساروالموزل أخذت السماء تتجّهم ، وكأنما تريد أن

---

(١) Graf من ألقاب النبالة الألمانية ، يقابل الكونت عند الفر .

تجعل من حالة المنطقة الغربية الأشدّ تجهماً ، شيئاً ملموساً على نحو أكبر .
أما وادي السار حيث بلغنا بروكِنهايم أولاً ، وهي محل صغير ، وأبصرنا في مواجهته فويسار فيردن ذات البناء الحسن، والقصر الترفيهي ، فتحف به الجبال من كلا الجانبين . وهي جبال كان يمكن أن تضفي الكآبة لولا أن سلسلة لا نهاية لها من المراعي والمروج التي نسمي (هوهيناو) كانت تمتد عند سفوحها حتى ساربروكن(١) ومن ورائها الى حيث لا يحيط بها البصر . وهنا يجتذب النظر مبانٍ كبيرة لمزرعة تربية الخيول عائدة الى دَوْق سابق من أدواق اللورين . أما الآن فستخدم بحكم كونها ذات موقع جد ملائم لمثل هذه الأغراض بالطبع ، مباني لإدارة المزارع ، ووصلنا الى ساربروكن عن طريق سارجيموند . وكان هذا المقر الصغير نقطة ضئيلة في أرض كثيرة الصخور والأحراش . وكانت المدينة الصغيرة الكثيرة الآكام ، والتي أشبعها مع ذلك آخر الأمراء تزيينا ، تحدث على الفور انطباعاً ممتعاً ، اذ كانت المنازل كلها مطلية بالأبيض الرمادي ، وكانت المنازل ذات الارتفاع المتباين تغطي منظراً متعدد الوجوه . وفي الوسط ، وعلى ساحة جميلة تُحدِق بها المباني المرموقة ، تقوم الكنيسة اللوثرية بأبعاد صغيرة ولكنها متلائمة مع المجموع . وتقع مقدمة القصر على مستوى واحد مع المدينة : أما الجانب الخلفي ، في مقابل ذلك ، فيقع على سفح صخرة . ولم يكتف القوم بتدريج هذه الصخرة على مصاطب ليصلوا الى الوادي بصورة مريحة ، بل أعدّوا أيضاً ، في الأسفل ، مكاناً للحديقة مستطيلاً مربّع الزوايا ، وذلك عن طريق تحويل النهر من ناحية ، وعن طريق قطع الصخرة من ناحية أخرى ، وعلى أثر ذلك رُدِم المكان كله بالتراب أولاً ، ثم زُرع ، وكان زمان هذا المشروع

في الحقبة التي كان الناس فيها يستشيرون المهندس المعماري في إنشاءات الحدائق ، مثلما يستعين الناس في هذه الأيام بعيْين رسّام المناظر الطبيعية . وكان الاعداد الكلي للقصر نفيسِه ومُستَطرَفِه ، وغنيّه ومزَخرَفه ، ينّم عن مالك مولَع بمباهج الحياة ، كما كان شأن الأمير الراحل(٢) . أمّا الأمير الحالّي فلم يكن موجوداً في المكان . واستقبلنا الرئيس فون جُنْديروده بحفاوة متناهية ، وأكرم وفادتنا على نحو أفضل مما كان يحق لنا أن نتوقعه . وأفَدْتُ من بعض المعارف الذين وصلنا اليهم بغية الاطلاع من عدة جوانب . وكانت حياة الأمير السابق الحافلة بالمتع تتيح مادة كافية للتسلية ،ولم يكن أقل من ذلك المنشآت المتعددة الأنواع التي أقامها للاستفادة من المزايا التي كانت تتيحها طبيعة اقليمه ، وههنا نشأ في الحقيقة اهتمامي بالمناطق الجبلية ، وانبعث الوَلَع بالتأملات الاقتصادية والتكنولوجية التي شغلتني شطراً كبيراً من حياتي . وسمعنا عن مناجم الفحم الحجري الغنية في (دود فايل) ، وعن مصانع الحديد والشبّ ، بل سمعنا عن جبل مشتعل ، وتجهّزنا لنرى هذه الأعجوبة عن كثب .

وأخذنا الآن نجوب جبالاً ذات أحراش كان لابد لمن يأتي من بلاد خصبة رائعة أن تبدو له قاحلة كئيبة . ولم يكن من الممكن أن تجتذبنا الا بالمضمون الداخلي في أحضانها ، وطفقنا نتعرّف على مصنع آلي بسيط فمصنع معقّد بُعَيْدَه ، بصورة متناوبة ، وعلى حداد المناجل ، وعلى عملية سحب الأسلاك . واذا كان يسرُّ المرء من تلك العملية أنها تحل محلّ الأيدي المألوفة فانه لا يستطيع أن يرتوي من الإعجاب بها ، اذ تفعل فعلها بمعنى عضوي أعلى لاسبيل الى أن ينفصل عنده العقل عن الوعي . وكنا نطلب من منجم الشبّ معلومات دقيقة

عن استحصال هذه المادة البالغة الأهمية(١) ، وتنقيتها . وحين لاحظنا أكواماً كبيرة من مادة بيضاء زهمة ، هشّة ، ترابيّة ، سألنا عن فائدتها ، فأجاب العمال وهم يبتسمون انه الزبد الذي ينقذف الى الأعلى عند غليان الشبّ ، والذي يوعز السيد شتاوْف بجمعه لأنه يأمل أن يجعل منه صالحاً أيضاً . فصاح مرافقي مندهشاً : « أو مازال السيد شتاوف(٢) على قيد الحياة ؟ » ، وأجاب القوم بالإيجاب وأكدو أننا لن نكون ، حسب خطة سفرنا ، بعيدين عنه حين نمر بمسكنه المنعزل .

وكان طريقنا يسير الآن عالياً في اتجاه الميازيب التي كان يُساق إليها ماء الشب ، ماراً بأفضل الأنفاق التي يسمونها الخنادق الأرضية التي يستخرج منها أنواع الفحم الحجري الشهير في دودفايل ، وهي تتميّز ، حين تكون جافة،باللون الأزرق للفولاذ المقسى الى الدرجة الداكنة ، حيث تلوح على سطحه أجمل سلسلة من ألوان قوس قزح عند كل حركة . ومع ذلك فقد كانت الصُدوع المظلمة في الأنفاق تجتذبنا بدرجة أقل ، اذ كان مضمون هذه الصدوع مسفوحاً حوالَيْنا على نطاق واسع . ووصلنا الآن الى الخنادق المفتوحة التي كانت ألواح الشبّ تتم تصفيتها فيها ، وفاجأنا بُعَيْد ذلك ، على الرغم من استعدادنا ، حدث غريب . فقد دخلنا هُوَّة يغمرها الماء ووجدنا أنفسنا في منطقة الجبل المشتعل ، وأحاطت بنا رائحة الكبريت القوية ، وكان جانب من جوانب الكهف متوهجاً تقريباً ، وقد غُشِّيَ بحجارة ضاربة الى الحمرة مبيضّة من الحريق ، وكان دخان كثيف يتصاعد من الصدوع ، وكان المرء يشعر بحرارة الأرض حتى من خلال النعال الصلبة . وانه لحدث قائم على المصادفة الى حد بعيد ، لأن المرء لا يعرف كيف التهبت هذه المسافة ، وهو يتيح لصناعة الشبّ أعظم المزايا ، وهي أنّ

الألواح التي يتألف منها السطح العلوي للجبل ترقد هنا مشويّة بصورة كاملة ، ولا يبقى إلا أن تُصفى باختصار . وكان الصدع كله قد نجم عن أن القوم كانوا قد أزاحوا الألواح المتكلسة شيئاً فشيئاً واستهلكوها وتسلّقنا صاعدين من هذا العمق ، وعدونا على قمة الجبل . وكانت غابة جميلة من شجر الزان تحيط بالمكان الذي كان يلي الكهف ويمتد على كلا جانبيه . وكانت بضعة أشجار تنتصب متيبسة ، وأخرى تذوي بالقرب من الأخريات اللواتي لم تكن تقدّر بعدُ ، وهي ما زالت في خضرتها الكاملة ، ذلك اللهيب الذي كان يدنو مهدداً جذورها هي أيضاً .

وكانت فوهات مختلفة ترسل دخانها في المكان ، وكانت فوهات أخرى قد استنفدت دخانها ، وكذلك كانت هذه النار تستعر منذ سنوات عشر خلال الشقوق والصدوع المتداعية التي تعرض الجبل للتقويض . وربما امتدت صدوع عبر طبقات الفحم الجديد أيضاً . ذلك لأن القوم كانوا يعتزمون متابعة علامات هامة للفحم الحجري الوفير على بعد بضع مئات من الخطوات في الغابة ، ولكنهم لم يكونوا قد قطعوا شوطاً بعيداً حين هاجم العمال دخان قوي وطردهم . ورُدِمَت الفوهة من جديد ، ولكننا وجدنا المكان مازال يرسل الدخان حين كنا نمرّ به في طريقنا الى مقرّ صاحبنا الكيميائي المستوطن . وهو يقع بين الجبال والغابات . وتتخذ الوديان هنا التواءات شديدة التعدد في أشكالها ، شديدة السحر ، والأرض من حوله سوداء فحميّة . وكثيراً ما تخرج الأسرّة في النهار . وما كان فيلسوف الفحم — أو فيلسوف النار كما دأب الناس على القول… ليستطيع أن يستوطن استيطاناً أكثر لياقة من هذا .

وتقدمنا الى بيت صغير يمكن استخدامه للسكنى على نحو لابأس به ، ورأينا السيد شتاوف الذي سرعان ما عرف صديقي واستقبله بشكاوى من الحكومة الجديدة ، واستطعنا بالطبع أن نلاحظ من أحاديثه أن مصنع الشبّ ، وكذلك بعض المنشآت الأخرى ذات المقصد الحسن ، تتحمّل النفقات الطائلة بسبب الظروف الخارجية ، وربمّا الداخلية أيضاً ، وسوى ذلك مما كان يشكو منه . وكان من كيميائيّي ذلك الزمان الذين كانوا مولعين ، بحكم شعورهم الصميمّي بما يمكن للمنتجات الطبيعية أن تؤديه ، بالتأمّل الدقيق في الأمور الصغيرة ، والأشياء الجانبية ، ولم يكونوا يعرفون ، لقصور معلوماتهم ، كيف ينجزون انجازاً مكتملاً بما فيه الكفاية ، ما يمكن الخروج منه بمزية اقتصادية وتجارية حتماً . وعلى ذلك فقد كانت الفائدة التي كان يعلّل نفسه بها من وراء ذلك الزبَد جدّ بعيدة ، فلم يخرج بشيء سوى كتلة هلامية متخثّرة من ملح النشادر كان الجبل المشتعل قد قدّمها اليه .

وعمد ذلك الإنسان القزم النحيل الذي سلخ جُلّ عمره بمحض ارادته مسروراً ، وهو يفضي بشكاواه الى الأذن البشرية ، الى جرّ قدميه في فردة حذاء . وفردة خفّ ، وبجوربين متهدّلين يشدهما الى الأعلى مراراً بغير طائل ، ، وهو يرتقي الجبل ، حيث كان يقوم مصنع استخراج الراتنج الذي كان قد أنشأه بنفسه ،وهويراه الآن ينهار ، بألم بالغ . وكان يوجد هنا سلسلة مترابطة من الأفران ، حيث كان يجري تنقية الفحم الحجري من الكبريت ، اذ كان يفترض جعله صالحاً للاستعمال في مصانع الحديد . ولكن القوم كانوا يريدون في الوقت نفسه أن يستفيدوا من الزيت والراتنج أيضاً ، بل كانوا

يريدون ألا يضيّعوا حتى السناج ، وهكذا كان كل شيء متصلاً بعضُه ببعض وراء الرغائب ذات الوجوه المتعددة . وكان الناس في أيام حياة الأمير السابق يمارسون العمل على سبيل الهواية ، آملين أن يتساءل القوم الآن عن المنفعة المباشرة التي لم يكن هناك سبيل الى اثباتها .

وبعد أن أسلمنا معلمنا الى وحدته ، أسرعنا الى مصنع الزجاج — اذ كان الوقت قد غدا متأخراً ، حيث تعرفنا — في مرورنا العابر ، على نشاط من أهم الأنشطة في تاريخ الفن البشري وأروعها . على أننا كنا نهتم ، معشر الفتية الناشئين ، اهتماماً أكبر من اهتمامنا بتلك الخبرات الهامة ، ببعض المغامرات الهزلية ، وبمفرقعات مفاجئة مع حلول الظلام ، غير بعيد من نويكيرش . ذلك لأنه مثلما كان يُحَوم في الجو من حولنا سحائب مضيئة من الحُباحِب(١) بين الصخور والأحراش ، على ضفاف السار ، كان صنّاع المناجل القاذفون بالشرر يؤدون قبالتنا ألعابهم النارية الممتعة . وفي ساعة متأخرة من الليل دخلنا المسابك الواقعة في بطن الوادي ، واستمتعنا بالظلمة الجزئية الغريبة في تلك الأنفاق المسقوفة بالألواح ، والتي لم يكن ينيرها إلاّ الفتحة الصغيرة الخاصة بالفرن المتّقد ، اضاءة قليلة . وكان اصطخاب الماء ، والكور الذي يتحرك بفعله ، وعزيفُ تيار الرياح وهديرها الذي يصّم الآذان ويربك الحواسّ اذ يضطرم في الفلز ، يدفعنا في النهاية الى الخروج ، عائدين الى نويكيرش المشيدة في أعلى الجبل .

---

(١) الحباحب بضم الحاء الأولى وكسر الثانية ، ذباب يطير بالليل ، يضيء ذنبه «المعجم الوسيط»

ولكنني لم أستطع ، على الرغم من كل التعقيد والاضطراب في النهار ، أن أجد مستقراً بعدُهنا ، فأسلمت صديقي الى نومة هانئة ، وغدوت ألتمس قصر الصيد الواقع على مستو أعلى ، وله إطلالة واسعة ، على الجبل والغابات التي لم يكن ثمة سبيل الى التعرف عليها إلاّ بفضل سماء الليل المشرقة ، والتي كانت جوانبها وأعماقها تمتنع على بصري . وكان المبنى خاوياً بمقدار ما كان منعزلاً ، ومصوناً . ولم يكن يوجد ناظر للقصر ، ولا صياد . وقعدت أمام الأبواب الزجاجية الكبيرة على الدرج الذي كان يحفّ بالمصطبة الدائرية كلها . وهنا ، في وسط الجبل ، على تربة داكنة تغطيها الغابة ، التي لم تزدَدْ في مواجهة الأفق المشرق الذي تتسم به ليلة الصيف إلاّ ظلمة ، وقبة النجوم المتوهجة فوقي ، جلست في المَرْبَع طويلاً ، خالياً الى نفسي ، وأنا اعتقد أنني لم أشعر قط بمثل هذه العزلة . وما كان أعذب ما باغتني به من أجل ذلك ، على البعد ، ايقاع صادر عن بضعة أبواق ، بعث الحياة دفعة واحدة في الجو الساكن كعبير البلسم . هنالك انبعثت في نفسي صورة طيف مستعذَب كان قد توارى الى الخلف أمام الأشكال الملوّنة في أيام الرحلة هذه . وكان يزداد جلاءً على نحو مطرد ، ويدفع بي من مكاني الى البيت حيث اتخذت الترتيبات اللازمة للرحيل في أقرب وقت .

على أن طريق الإياب لم يكن يتخذ مثل طريق الذهاب . ولذلك انطلقنا مارّين بتسفايبروكن(١) التي كانت خليقة أن تجتذب انتباهنا أيضاً بحكم كونها مَرْبَعاً جميلاً يستحق التقدير ، وألقينا نظرة على القصر الكبير البسيط ، وعلى ميادين النزهة الفسيحة الأرجاء المزروعة بجذوع الزيزفون بطريقة نظاميّة ، والمجهّزة تجهيزاً لائقاً لتدريب خيول

المطاردة (١) على الصيد ، وعلى الحظائر الكبيرة ، والمنازل السكنية التي بناها الأمير لتطرح في اليانصيب . وكان هذا كله ، وكذلك ثياب السكان وسلوكهم ، ولا سيما النساء والفتيات ، ينبىء عن علاقة بعيدة المدى ، ويجسّد الصلة بباريس التي لم يكن في وسع كل شيء وراء الراين أن يتجنّب تأثيرها منذ عهد بعيد . وزرنا كذلك مستودع الخمور الأميريّ الواقع في ظاهر المدينة ، وهو فسيح الأرجاء مجّهز ببراميل كبيرة فنيّة ، ومضينا في طريقنا ، ورأينا البلد آخر الأمر على ما هي عليه في سار بروكن . وكان بين الجبال المقفرة الموحشة قليل من القرى ، وهنا ينسى المرء ما تعلّمه من البحث عن الحبوب . وصعدنا الى بيتش ، وقد جعلنا هورنباخ الى جانبنا ، وهي تقع في المكان الهام الذي تفترق عنده المياه ، فيذهب قسم الى السار وقسم الى الراين . وكان من المفروض أن تجتذبنا هذه المياه الأخيرة اليها عما قريب . ومع ذلك فلم نستطع أن نضنّ بانتباهنا على البلدة الصغيرة ، بيتش ، التي تتلوى حول جبل على نحو جدير جداً بالرسم الزيتي ، وعلى الحصن الواقع في الأعلى . وقد بني جزء من هذا الحصن على الصخور ، وحُفر جزء آخر فيها ، على أن القاعات تحت الأرض تستوقف النظر بصورة خاصة ، فما يوجد هنا ليس مجرد مكان كاف لإقامة جمهور من الناس والماشية ، بل يجد المرء قاعة تحت الأرض للتدريب ، وطاحونة ، وكنيسة صغيرة ، وكل ما يمكن للمرء أن يحتاجه اذا ما قُدّر للسطح العلوي أن يضطرب .

وكنا الآن نتابع الجداول المتساقطة خلال وادي الدببة . وكانت الغابات الكثيفة على كلا المرتفَعين غير مستعملة . وهنا تتعطّن الجذوع بالآلاف ، بعضها فوق بعض ، وتتفتّق الفروع الغضّة بأعداد لا تحصى ،

فوق أسلافها المتعطّنة جزئياً . وهنا كان يطرق مسامعنا من خلال أحاديث بعض المرافقين اسم ديترش(١) من جديد ، وهو الاسم الذي كثيراً ما كنا نسمع من ينطق به بلهجة التقدير في مناطق الغابات هذه ، وكان نشاط هذا الرجل ، وثروته والاستفادةمنها ، واستعمالها ، كل ذلك كان يبدو متوازناً . وكان في وسعه أن يبتهج بحق لما اكتسبه فزاد فيه ، وأن يستمتع بما استحقّه فصانه . وكنت كلما ازددت رؤية للعالم ازددت سروراً بأولئك الذين كانوا يذكرون في مناطق معينة بالتقدير والحب ، سوى تلك الأسماء المشهورة على نطاق عام . وهكذا عرفت هنا أيضاً لدى بعض التقصّي ، بسهولة فائقة ، أن فون ديترش عرف قبل الآخرين كيف يستخدم كنوز الجبال من حديد وفحم وخشب ، ويشق طريقه بالعمل ليصل الى الثراء الذي يزداد على نحو مطرد .

وكانت نيدربرون التي وصلنا اليها شاهداً جديداً على ذلك ، وكان قد اشترى هذا المكان الصغير من الجرّاف فون لاينِنجن وشركاء آخرين لينشيء في المنطقة مصانع هامة للحديد . وكان يغشاني هنا ، في هذه الحمامات التي أنشأها الرومان روح العصور القديمة وكانت أنقاضها المهيبة المتمثلة في بقايا النقوش والكتابة المنقوشة ، وتيجان الأعمدة وجذوعها ، تواجهني ببريقها مطلّة من المزارع ، في غمرة الركام والعتاد الاقتصادي ، على نحو رائع .

وهكذا أوليت تقديري أيضاً ، حين كنا نرتقي بلدة «فازنبورج» ذات الموقع القريب ، على الكتلة الصخرية العظيمة التي تشكل قاعدة جانب من الجوانب ، لنقش كتابي حافظ على جودته يمثل نذراً لعطارد ينطري على عرفان الجميل . وكان الحصن ذاته يقع على الجبل الأخير

من جبال «بيتش» مواجهاً الأرض . وتلك هي خرائب قصر ألماني مبني على بقايا رومانية . وكان المرء يرى من البرج ، بنظرة شاملة ، الألزاس كلها مراراً ، وكانت ذؤابة الدير الواضحة تبيّن موقع «شتراسبورج» . ومع ذلك فقد كانت غابة هاجينا وْ الكبرى تنتشر أولاً ، وكانت تبرز من ورائها أبراج هذه المدينة بوضوح تام . وذلك ما كان يجتذبني . وانطلقنا راكبين خلال رايشزهوفن التي بنى فيها فون ديتريش قصراً هاماً ، وبعد أن تأملنا المجرى الجميل لنهر مودّر الصغير ، من التلال عند نيدرمودر ، وهو قادم الى غابة هاجيناو ، تركت صديقي في عملية تنقيب مضحكة في منجم الفحم الحجري كانت خليقةً بالطبع أن تكون أكثر جدية بالقياس الى أهل دودفايل ، وتجولّت راكباً في هاجيناوْ ، في الجهات التي كانت تنتهي بي الى سيز نْهايْم(١) الحبيبة .

ذلك لأن مجمل تلك المناظر المطلّة على منطقة جبلية ، ثم على أرض بهيجة خصبة باعثة على السرور من جديد ، لم يكن يستطيع أن يقيّد نظرتي الداخلّية التي كانت مصوّبة نحو موضوع جذّاب جدير بالحب . وبدا لي طريق القدوم هذه المرة أيضاً أكثر جاذبيّة من طريق الذهاب ، لأنه قرّبني الى امرأة كنت مولعاً بها من كل قلبي ، وكانت جديرة بالتقدير الى حد بعيد مثلما كانت جديرة بالحب . ومع ذلك فلا بأس في أن أذكر ، قبل أن أقود أصدقائي الى مسكنهم الريفي ، ظرفاً أسهم الى حد كبير في بعث الحياة في هواي ، وفي الرضى الذي أسبغته عليّ ، وتصعيدهما .

أما مقدار التخلف الذي لابد أنني كنت واقعاً فيه في الأدب الحديث فيمكن استخلاصه من نمط الحياة التي عشتها في فرانكفورت

ومن الدراسات التي وقفت جهدي عليها . على أن إقامتي في شتراسبورج لم تستطع أن تدفع بي الى الأمام في هذا الصدد . والآن أقبل هِردَر وجاء ، الى جانب معلوماته الواسعة ، ببعض الوسائل المساعدة ، وجاء فوق ذلك بكتب جديدة أيضاً . فأشار علينا ، بكتاب «قس ويكفيلد(١)» من بين هذه الكتب ، على أنه عمل ممتاز يريد أن يعرفنا على ترجمته الألمانية عن طريق التلاوة الذاتية .

وكانت طريقته في القراءة فريدة تماماً ، ومن سمعه يخطب استطاع أن يكوّن تصوّراً عن ذلك . وكان يتلو كل شيء ، بما في ذلك هذه الرواية أيضاً ، بجدّ وبساطة ، بعيداً كل البعد عن كل تصوير مسرحيّ إيمائيّ ، بل كان يتجنّب حتى ذلك التعقيد الذي لا يعد في الإلقاء الملحمي مسموحاً به فحسب ، بل يلقى التشجيع بلا ريب : فكان هناك تبدّل ضئيل في الإيقاع حين تتحدث شخصيات مختلفة ، وبذلك كان يتم توكيد ما تقوله كل شخصية ، ويتم التمييز بين القائم بالفعل وبين المتحدّث . وكان هردَر يدع كل شيء يتعاقب في إيقاع واحد ، من دون الوقوع في الرتابة ، كأنْ ليس هناك شيء حاضر ، وكأنّ كل شيء مُتّسِمٌ بالطابع التاريخيّ ، وكأن ظلال هذه الشخصيات الشعرية لا تمارس فعلها بصورة حية أمامه ، بل تَنْسَرب مارّةً به رقيقة لطيفة ، ومع ذلك فقد كان لهذا الأسلوب في الإلقاء ، من فمه ، جاذبية لاحدّ لها : ذلك لأنه لمّا كان تحسّ بكل شيء أعمق الإحساس وكان يعرف كيف يقدّر تعدّد الجوانب في مثل هذا العمل حق قدره فقد كان يبرز كل ما يستحقه الانتاج ، نقيّاً ، وكان يزيد في وضوحه أن المرء لم يكن يتعرّض للتشويش بسبب التفاصيل المنطوقة بصورة

حادّة فيخرج بذلك من الإحساس الذي يفترض في مجمل العمل أن يُضفيه .

وربما كان القسّ البروتستانتي أجمل موضوع للملحمة قصصية ، فهو يبدو مثل ميلشيسيديك(١) ، قسّاً وملكاً في شخص واحد . ففي أكثر الأحوال التي يمكن تصورها على وجه الأرض براءة ، في حالة الفلاح ، يرتبط في أكثر الأحيان بالعمل ذاته ، مثلما يرتبط بالأحوال العائلية ذاتها . فهو أب ، وربّ منزل ، ورجل من أهل الريف ، وهو عضو كامل تماماً في الجماعة . وعلى هذا الأساس النقيّ ، الجميل ، الدنيويّ ، تقوم رسالته العليا ، وقد عُهِد اليه بتوجيه الناس في الحياة ، والعناية بتربيتهم الروحية ، ومباركتهم في كل المراحل الرئيسية من حياتهم ، وتعليمهم ، وإمدادهم بالقوة ، وتعزيتهم ، وبعث الأمل في مستقبل أكثر سعادة ، وضمانه ، حين لايكفي العزاء في الحاضر . فليتصوّر المرء مثل هذا الرجل ، بأفكارٍ إنسانية بحتة ، ، قويّاً بما يكفي لكيلا يتراجع عن ذلك بحال من الأحوال ؛ وهو متفوّق على الجمهور بتلك الخصلة ذاتها ، إذانه الجمهور الذي لايستطيع المرء أن يتوقع منه النقاء والثبات ، وليعطهِ المعلومات الضرورية لوظيفته ، وليعطه كذلك نشاطاً ينطوي على المرح ، بل يعد حماسياً ، اذ لايفوّت لحظة من أجل عمل الخير ، وبذلك يكون المرء قد جهّزه تجهيزاً حسناً ، وليضِف المرء في الوقت نفسه المحدوديّة الضرورية ، وهي أنه لايظل في دائرة ضيقة فحسب ، بل يمكن أن ينتقل الى دائرة أضيق على كل حال ، وليسبغ المرءُ عليه طيب النفس ،

---

(١) من الملوك الكهنة في العهد القديم

«المترجم»

والوداعة ، والجَلَد ، ونحو ذلك مما يمكن أن يصدر عن شخصية حازمة ، مما يستحق الثناء ، وفوق هذا كله سماحة وصبر مصحوب بالابتسام ، على أخطائه وأخطاء الآخرين . وعلى هذا النحو يكون المرء قد استجمع صورة صاحبنا الناضل الى حد بعيد .

وذلك أن تصوير هذه الشخصيه في مسيرة حياتها ، من خلال أفراحها وأتراحها ، ، والاهتمام المتنامي باطراد في الحكاية ، عن طريق ارتباط ما هو طبيعي تماماً بما هو فريد وغريب ، يجعل هذه الرواية من أفضل ما كتب من الروايات قاطبة ، على أنها تتمتع فوق هذا بمزيّة كبرى ، وهي أنها أخلاقية تماماً ، بل مسيحية بالمعنى الخالص ، اذ تصور المكافأة على الارادة الطيبة ، وعلى الثبات على الحق ، وتقويّ الثقة المطلقة بالرب ، وتدعم الانتصار الحاسم للخير على الشر ،وهذا كلهمن دون أثر من رياء أو تحذلق. وقد حفظ الكاتب من هذين كليهما المقصدُ السامي الذي يتجلّى هنا بصورة مؤثرة في صورة سخرية ، وذلك ما لابد لهذا العمل الصغير أن يواجهنا به في صورة تنم عن الحكمة بمقدار ما هي جديرة بالمحبة . ولا جدال في أن الكاتب ، وهو الدكتور جولد سميث ، يتمتع بنظرة عميقة في العالم الأخلاقي ، في قيمته ، وفي نقائصه ، ولكن ربما كان عليه أن يقرّ بالفضل لكونه انكليزيا ، ويقدر المزايا التي تقدمها اليه بلاده وأمته ، تقديراً عالياً . فالعائله التي يُشغَل بوصفها تقف عند احدى الدرجات الدنيا من الرفاه البورجوازي ، ومع ذلك فلها صلة بأعلى تلك الدرجات . ويعد محيطها الضيق ، الذي يزداد ضيقاً على ضيق ، بفعل المسار الطبيعي والبورجوازي للأشياء ، شاملاً للعالم الكبير .

فعلى الموجة الغنية المضطرمة للحياة الانكليزيّة يعوم هذا القارب الصغير وعليه أن يتلقى ، في السراء والضراء ، الأذى أو العون من الأسطول الهائل الذي يبحر حواليه .

وفي وسعي أن أفترض أن قرائي يعرفون هذا العمل ويحتفظون به في ذاكرتهم وسيشكرون لي ، سواء منهم من كان يسمع باسمه أول مرة ، ومن كان يحفزه حافز إلى قراءته من جديد ، أما أولئك فأنا ألفت نظرهم بصورة عابرة الى أن زوجة الكاهن الريفي من النوع النشيط الطيب الذي لايقصر في شيء حيال نفسه وحيال الآخرين ، ولكنها في مقابل ذلك مصابة بشيء من الوهم تجاه نفسها وتجاه الآخرين . ولا يفوتني أن أشير الى ابنتين ، أوليفي ، الجميلة الأكثر انفتاحاً في تفكيرها ، وصوفي الجذّابة الأكثر انطواءً على نفسها ، والى ولد نشيط يقتفي أثر أبيه ، على شيء من الخشونة ، وهو موسى .

واذا جاز أن يُوصَم هِرْدَر بخطأ في القائه فانما كان ذلك في قلة صبره ، اذ كان لاينتظر المستمع الى أن يكون قد سمع قسماً معيناً من مجرى الأحداث واستوعبه ليكون احساسه في هذا الصدد صحيحاً وليتمكن من التفكير فيه على النحو السليم : فقد كان يريد أن يرى الآثار على الفور بصورة مُعْجَلة ، ومع ذلك فلم يكن يرضى بها حين تظهر ، وكان يستهجن جموح الشعور الذي كان يتفاقم عندي من خطوة الى أخرى . وكنت أحسّ احساس الإنسان ، الانسان الفتّي ، وكان كل شيء حيّاً عندي ، حقيقياً ، وحاضراً . أما هو ، الذي كان لايحفل إلاّ بالمضمون والشكل ، فقد كان يرى بالطبع حقاً أن المادة كانت تستحوذ عليّ ، وهذا مالم يكن يريد أن يكون أما انعكاسات

هذا على بيجيلوف وهي الانعكاسات التي لم تكن بالغة الإرهاف فقد لقيت صدى أسوأ بعدُ . غير أنه كان يتولاه الغضب بصورة خاصة من النقص في حدة الذهن عندنا ، ومن أننا لم نكن نستبق رؤية التناقضات التي كان الكاتب يستخدمها في كثير من الأحيان ، وأننا نسلم أنفسنا للتأثر بها وننجرف معها من دون أن نلاحظ اللمسة الفنية التي كانت تعاود الظهور بصورة متعاقبة . أمّا أننا لم نتبيّن على الفور - ولم نخمّن على الأقل ، منذ البداية ، حيث يوشك بوتشيل أن يفصح ، وهو ينتقل في السرد من صيغة الغائب الى صيغة المخاطب ، عن أنه هو نفسه اللورد الذي يتحدث عنه ، فذلك مالم يغفره لنا . وحين شعرنا آخر الأمر بسرور طفولي لدى اكتشاف الجوّال البائس المسكين ، وتحوله الى سيد غني من أهل البأس ، استعاد أولاً ذلك الموضع الذي غاب عن أسماعنا ، تبعاً لمقصد الكاتب ؛ وألقى موعظة شديدة حول احساسنا المتبلّد . ويتبيّن للمرء أنه كان ينظر الى العمل نظرته الى مجرد انتاج فنيّ ، ويطلب الينا الشيء ذاته ؛ ونحن الذين مازلنا نتقلّب في الأحوال التي يباح للمرء فيها أن يدع الأعمال الفنية تحدث تأثيرها فيه كالمنتجات الطبيعية .

ولم أكن أسمح لمطاعن هردّر أن تضللني بحال من الأحوال . وأنيّ للشباب أن يتاح لهم من السعادة أو التعاسة ما يجعلهم ، إذا ما أثّر فيهم شيء ذات مرة ، يضطرون الى معالجة هذا التأثير بأنفسهم ، لينجم عنه شيء من الخير . كما ينجم عنه شيء من الشر . وقد ترك العمل المذكور في نفسي انطباعاً كبيراً لم أستطع ، أنا ، أن أقدّره ، ولكني كنت أشعر في الحقيقة أنني على وفاق مع تلك الفكرة الساخرة التي ترتفع فوق الأشياء ، فوق السعادة والتعاسة ، والخير والشر ،

والموت والحياة ، وتصل على هذا النحو الى امتلاك عالم شعري حقاً . ولم يكن من الممكن ، بالطبع أن يدخل هذا حيّز الوعي عندي إلاّ فيما بعد . وجملة القول انه كلفني في اللحظة الحاضرة كثيراً من الجهد ، غير أنني ما كنت لأتوقع بحال من الأحوال أن انتقل بهذه السرعة من هذا العالم المتخّيل الى عالم واقعيّ مماثل .

وكان رفيق مائدتي فايلاند الذي كان يضفي المرح على حياته الحادثة النشيطة بالذهاب من حين الى آخر لتفقّد الأصدقاء والأقرباء في المنطقة بحكم كونه من مواليد الألزاس ، ويؤدي اليَّ في نزهاتي الصغيرة بعض الخدمات اذ كان يدخلني كثيراً من الأماكن ، وبيوت العائلات ، بصورة بشخصية تارة ، وعن طريق التوصيات تارة أخرى ، وكان هذا قد حدثني في كثير من الأحيان عن كاهن ريفيّ يعيش قريباً من دروزنهايم على بعد ست ساعات عن شتراسبورج ، ويتولى أبرشية حسنة ، وله زوج متفهّمة وعدد من البنات الساحرات ، وكان حُسْن الضيافة والدماثة في هذا المنزل موضع التقدير الكبير دائماً ، ولم يكن الأمر يقتضي كثيراً لاجتذاب فارس شاب كان قد اعتاد أن ينفق كل الأيام والساعات الواجب تزجيتها على ظهور الخيل وفي الهواء الطلق ، وكذلك عقدنا العزم أيضاً على الانضمام الى هذا الرهط حيث كان على صديقي أن يَعدني أنه لن يقول عني خيراً ولا شراً عند التقديم ، وأنه يريد أن يعاملني معاملة اللامبالاة المطلقة ، بل سيسمح بالظهور بثياب ان لم تكن رديئة ، فهي على جانب من البؤس والإهمال ، وقد ارتضى ذلك وهو يمنّي نفسه ببعض المتعة من جراء ذلك .

وإنها لنزوة يمكن الصفح عنها من جانب البشر ذوي الخطر ، أن يَستَخفوا ذات مرة ، من حيْن الى آخر ، بمزاياهم الخاصة بالمظهر الخارجي لكي يَدّعوا المضمون الانساني الداخلي الخاص يحدث أثره على نحو أكثر نقاءً . ومن أجل ذلك يمتاز تنكرّ الأمراء ، وما ينجم عن ذلك من مغامرات ، بشيء بالغ الظرف دائماً : فيظهر متنكرون بثياب الآلهة التي يجوز لها أن تقدر كل ما يُسدى الى شخصها من الجميل ضعفين ، وهي على استعداد ، إمّا للاستهانة بالمزعج أو القدرة على تفاديه . وكان مما يتلاءم مع الطبيعة كل التلاؤم أن يطيب جو بيتر نفساً مع فيامون وباوسيس ، وكذلك هنري الرابع ، بعد رحلة صيد ، بين فلاحيه ، بتنكّرهم . وكان القوم يحبون ذلك . أمّا أن يخطر ببال شاب لاشأن له ولا جاه ، أن يحصل على بعض المتعة من التنكّر فقد كان يمكن أن يؤوّل بعض الناس ذلك على أنه كبرياء لاتغتفر . ولكن لما لم يكن الحديث هنا عن الأفكار والتصرفات ، والى أي مدى كانت خليقة بالثناء أو اللوم ، بل عن الكيفية التي يمكن أن تتجلى بها وتحدث . فاننا نريد هذه المرة ، من أجل تسليتنا ، أن نغفر للفتى جهالاته ، ولا سيما حين يترتب عليّ أن أذكر هنا أن والدي الوقور ذاته كان قد استثار لديّ منذ الصبا الولع بالتنكّر .

وكنت في هذه المرة أيضاً قد قصّرت شعري على الأقل ، ان لم أكن شوّهته ، عن طريق قطع الملابس الخاصة القديمة من ناحية وبعض القطع المستعارة من ناحية أخرى ، وعن طريق أسلوب تمشيط الشعر ، على نحو عجيب الى حد لم يكن صديقي يستطيع عنده أن يتمالك نفسه من الضحك في الطريق ، ولاسيما حين كنت أتمكن من التقليد الكامل لجلسة تلك الشخصيات وتصرّفاتها ، حين تكون على صهوة الحصان ،

والتي يسميها الناس الفرسان اللاتين . وكان الطريق الجميل المرصوف بالحجارة . والطقس البالغ الروعة ، والقرب من الراين يضفي علينا أحسن مزاج فكاهي . وتوقفنا هنيهة في دروز نهايم ، ليصلح هو من هندامه ، ولأستعيد أنا دوري التمثيلي الذي كنت أخشى الخروج عنه من حين الى آخر . وتتسم المنطقة هنا بطابع الالزال المنبسط المفتوح تماماً . وانطلقنا راكبين على صهوة الخيل في طريق المشاة فوق المروج . وسرعان ما وصلنا الى سيزنهايم ، فتركنا خيولنا في الخان ، وذهبنا بهدوء الى ساحة الأبرشية . وقال فايلاند وهو يشير لي الى البيت من بعيد : « لا يخدعنك ما يبدو عليه هذا البيت من مشابهته لبيت فلاح قديم بائس ، فهو أكثر شباباً في الداخل » — ودخلنا الساحة ، وراقني المكان على الإجمال ، اذ كان يتسم تماماً بما يعد عند الناس جديراً بالتصوير . وربما كان قد أثر في نفسي مثله تأثيراً ساحراً في الفن الهولندي . وكان ذلك الأثر يتجلى بقوة ، وهو ما يخلفه الزمان على كل عمل بشري . وكان البيت ومخزن الغلال والحظيرة في حالة من التداعي تصل تماماً الى النقطة التي يتردد عندها المرء بين الصيانة والانشاء من جديد ، إذ يساوره الشك فيمسك عن أحدهما من دون أن يتمكن من تحقيق الآخر .

وكان كل شيء ساكنا وخالياً من البشر ، سواء في القرية أم في المزرعة . ووجدنا الأب(١) وحده تماماً ، وهو رجل ضئيل منطو على نفسه ولكنه ينطوي على المودة ، لأن العائلة كانت في الحقل . ورحب بنا ، وقدم إلينا شيئاً منعشاً فرد دناه ، وانطلق صديقي يلتمس النساء ، وبقيت أنا وحدي مع مضيفنا . وقال : « ربما كنت تعجب من أنك

تراني في مسكن بائس وأنا في قرية غنية . وفي بقعة وفيرة الغلال » .
ومضى قائلاً : « ولكن هذا ناجم عن التردد . فقد صرحت لي البلدية ، بل المراجع العليا . منذ عهد بعيد ، باعادة بناء المنزل من جديد ، وتم اصلاح العديد من الصدوع ، واختبارها وتعديلها ، ولكن لم يهمل شيء منها كل الاهمال . ولم ينفذ شيء منها تنفيذاً كاملاً . واستغرق الأمر عدداً من السنين لم استطع معه أن أتمالك نفسي من الضيق » — وردد ْت عليه بما رأيته مناسباً لأغذي أمله وأشجعه على أن ينهض بالقضية بقوة أكبر . ومضى على أثر ذلك يصف الشخصيات التي تعود اليها هذه الأمور . وعلى الرغم من أنه لم يكن رساماً للشخصيات متميزاً فقد استطعت مع ذلك أن أدرك حق الادراك كيف كان لابد للعملية أن تتعثر بمجملها .

وكان الموقف الحميم للرجل يتسم بسمة خاصة، من فقد كان يتحدث اليّ وكأنه كان يعرفني منذ عشر سنوات، من دون أن يكون في نظرته أي شيء استطيع أن أتكهن منه بوجود بعض الانتباه نحوي . وأخيراً دخل صديقي مع الأم ، وبدت لي هذه كأنها تنظر إليّ بعينين مختلفتين كل الاختلاف . وكان وجهها عادياً ، جليّ التعبير ، ولابدّ أنها كانت جميلة في صباها . وكانت طويلة القامة ، نحيلة ، ومع ذلك فلم يكن تحولها أكثر مما يلائم تلك السنين . وكان لها من ناحية الظهر مظهر حسن يوحي بالصبا تماماً . وعلى أثر ذلك أقبلت كبرى بناتها في سرعة عاصفة ، مفعمةً بالحيوية ، فسألت عن فريد ريكه (٢) ، مثلما كانت كلتا الأخريين قد سألت عنها ، وأكّد الأب أنه لم يرها منذ أن خرج الثلاث جميعاً ، وانطلقت الابنة من جديد نحو الباب لتبحث عن

أختها ، وجاءتنا الأم ببعض المرطبات ، واستأنف فايلاند مع كلا الزوجين الحديث الذي كان يدور حول عدد من الأشخاص والأمور المعروفة ، مثلما جرت العادة حين يلتقي المعارف بعد بعض الوقت ، فيتساءلون عن أخبار أعضاء المحيط الكبير ، ويتبادلون أخبارهم . وأصغيت ، وعلمت الآن مقدار ما كنت أعِدُ به نفسي من هذا المحيط .

وعادت البنت الكبرى من جديد مسرعة الى الحجرة ، وقد أثار أضطرابها أنها لم تجد أختها ، وانتاب القوم القلقُ عليها ، وطفقوا ينحون باللائمة على هذه العادة السيئة أو تلك . إلاّ أن الأب لم يلبث أن قال بهدوء : « دعوها تذهب دائماً ، فلن تلبث أن تعود ! » . وفي هذه اللحظة دخلت حقاً من الباب ، هنالك أشرقت في هذه السماء الريفيّة نجمة فائقة الظرف . وكانت كلتا الفتاتين ما زالت تلبس الزيّ الألماني(١) كما ألف القوم أن يسمّوا ذلك اللباس . وكان هذا الزي القومي الذي أوشك أن يتخطاه الزمن يليق بفريد ريكه بوجه خاص — تنّورة صغيرة قصيرة بيضاء مستديرة لها حواشٍ وثنيات لاتتجاوز طولها ما يسمح للقدمين المتناهيتين في الظرف أن تظلاّ مرئيتين حتى الكاحلين ، وحزام ضيق أبيض ، وصُدَيْرىّ من الحرير التَمْتَه الاسود — وكذلك كانت تقف عند الحدود بين الفلاحة وابنة المدينة . وجعلت تخطو هيفاء رشيقة كأنها لم تكن تحمل في سريرتها شيئاً ، وكان العنق يكاد يبدو أرق من أن يحتمِل ما على الرأس الصغير اللطيف من غدائر شُقْرٍ غليظة ، وجعلت ترسل النظر حواليها بوضوح شديد من عينين زرقاوين مشرقتين . وكان الأنف الظريف غير المدبّب يبحث في الهواء بحرية بالغة ، كأن ليس من الممكن أن يوجد في العالم همّ من

الهموم . وكانت قبعة القش عالقة بذراعها . وقد سرّني أن أراها وأتعرّف عليها لدى النظرة الأولى مرة واحدة بكامل حسنها وظرفها .

وأخذت الآن ألعب دوري باعتدال ، وقد انتابني الخجل من الاستخفاف بأناس طيبين كهؤلاء الذين لم يكن ينقضي الوقت لتأمّلهم. ذلك لأن الفتيات مضين في ذلك الحديث . وكان ذلك في الحقيقة بحماسة وطلاقة . وأدخِلَ كل الجيران والأقرباء مراراً ، وبدا لمخيلتي وأنا مع مثل هذا الجمع الغفير من الأعمام والعمات ، وأبناء الأعمام والخالات وبنات الأعمام والخالات ، والقادمين والذاهبين ، وسائر الاقرباء ، والأضياف ، ما جعلني أعتقد أنني أقطن أكثر العوالم ازدحاماً بالبشر . وكان كل أعضاء الأسرة قد تحدثوا إليّ ببعض الكلمات . وكانت الأم تتأملني في كل مرة ، كلما جاءت أو ذهبت . ولكن فريد ريكهٍ استرسلت أول الأمر في حديث معي ، وبينما كنت التقط الملاحظات من حولي ، وأقلّب النظر ، سألتني هل أمثل أيضاً ؟ ، وحين أجبت بالإيجاب التمست مني أن أتلو عليها شيئاً ، ولكن الأب لم يفسح لي المجال لذلك إذ رأى أن من اللائق أن يكرم المرء الضيف بأي قطعة موسيقية أو أغنية .

وعزفوا أشياء شتّى ، بشيء من البراعة ، على النمط الذي ألف الناس أن يسمعوه في الريف ، وكان ذلك في الحقيقة على بيانو كان معلم المدرسة خليقاً أن يُحكم موازينه منذ عهد طويل لو أتيح له الوقت . وكان عليها الآن أن تغني أغنية ، أغنيةً معينة تتسم بالرقة والحزن . على أنها لم توفقّ الى ذلك البتّة . فنهضت وقالت باسمة ، أو بالأحرى بمسحة السرور المشرق الذي كان يظل أبداً مخيماً على محيّاها : « لئن كنت رديئة الغناء فانني لا أستطيع أن أنحي باللائمة

على البيانو وعلى معلم المدرسة ، ولكن فلنخرج من هنا بربك ؛ وحينذاك ينبغي لك أن تسمع أغنياتي القصيرة الالزاسية والسويسرية التي تبدو أفضل » .

وعند العشاء شغلتني خاطرة كانت قد ألمت بذهني من قبل الى درجة غدوت عندها مطرقاً صامتاً على الرغم من أن حيوية الأخت الكبرى وسحر الصغرى كانا يهزّاني فيخرجانني في كثير من الأحيان عن تأملاتي . وكان عجبي فوق كل تعبير اذ وجدت نفسي بصورة مجسّدة تماماً في الأسرة الويكفيلدية(١) . ولا ريب أن الأب لم يكن من الممكن أن يقارن بذلك الرجل الممتاز ، ولكن أين عسى أن يوجد نظيره ! وفي مقابل ذلك كانت كل المكانة التي يتسم بها ذلك الزوج ، تتمثل في الزوجة ، ولم يكن في وسع المرء أن ينظر إليهامن دونأن يقدّرها ويشعر بالوجل ازاءها وكان المرء يلاحظ فيها آثار تربية حسنة . وكان سلوكها هادئاً ، طليقاً ، مرحاً ، جذّاباً .

ولئن لم تكن الأخت الكبرى تتمتع بجمال أوليفيا الشهير فقد كانت مع ذلك حسنة القوام ، مفعمة بالحيوية ، وأقرب الى الخشونة . وكانت تظهر النشاط في كل مكان وتبادر أمها بالمعونة في كل شيء . ولم يكن من العسير إحلال فريد ريكه محل صوفي بريمروز : ذلك لأنه لا يقال عن تلك إلاّ القليل، وانما يسلّم المتحدث بأنها ساحرة، وقد كانت كذلك حقاً . ومثلما يحدث العمل ذاته ، والظرف ذاته ، في كل مكان، وحيثما ورد ، آثاراً مشابهة إن لم تكن متماثلة ، فقد ورد هنا أيضاً بعض الحديث عن ذلك ، بل لقد حدث بعض ما سبق حدوثه

(١) تشبيهاً بأسرة رواية قس ويكفيلد

في الأسرة الويكفيلدية . فلما وثب الآن الى الحجرة ، في آخر الوقت تماماً ، ولدٌ أصغر كانوا قد أخبروا به منذ وقت طويل وانتظره الأب بفارغ الصبر ، وجلس الينا أولاً اذ لم يلاحظ الضيوف إلاّ قليلاً ، لم أتمالك نفسي أن صحت قائلاً : « موسى ! ها أنتذا ، هنا أيضاً ! » .

على أن الحديث عند المائدة وسّع مجال النظر في ذلك المحيط الريفي والعائلي ، اذ دار الحديث عن بعض الأحداث المضحكة التي كانت تحدث هنا حينا وهناك حيناً آخر . ولذلك انتهزت فريدريكه الجالسة الى جانبي الفرصة لتصف لي أماكن مختلفة كانت زيارتها جديرة بالجهد ، ولما كانت كل أقصوصة تستدعي أقصوصة أخرى فقد غدا في وسعي الآن أن أتدخلّ على نحو أفضل في الحديث ، وأسرد أحداثاً مماثلة . ولما كان القوم لايضنون في هذا المقام بالخمر الريفي الجيد بحال من الأحوال فقد غدوت معرضاً لخطر الخروج عن دوري ، مما جعل صديقي الحذر يتذرّع بحجة ضوء القمر الجميل ، ويقترح نزهة ، فحبذوها على الفور . وقدّم ذراعيه الى الكُبْرَيَيْن ، وقدمت أنا ذراعي الى الصغرى ، وانطلقنا على هذا النحو عبر الحقول الفسيحة ، وكان موضوعنا السماء التي فوقنا أكثر مما كان الأرض التي كانت تتناهى حوالينا على المدى ، على أن أحاديث فريد ريكه لم تكن تمت بصلة الى ضوء القمر ، فقد كانت ، بالوضوح الذي تتحدث به ، تحول الليل الى نهار ، ولم يكن هناك شيء في تلك الأحاديث خليق أن ينمّ عن إحساس مرهف أو يشي به ، إلاّ أن إشاراتها كان لها تعلق بي أكثر مما كانت حتى الآن ، اذ كانت تعرض لي ظروفها كما تعرض لي المنطقة ، وكذلك معارفها من ذلك الجانب المتعلق بمدى معرفتي بها : اذ أضافت قائلة انها تأمل ألاّ أشذّ أنا عن القاعدة . وأن أعود الى زيارتها مثلما فعل كل غريب دخل عليهم .

وقد سرني غاية السرور أن أصغي وأنا صامت الى الوصف الذي كانت تقدمه عن العالم الصغير الذي كانت تنطلق فيه ، وعن أناسه الذين كانت تقدرهم تقديراً خاصاً ، وأعطتني بذلك تصوّراً واضحاً ، وفي الوقت نفسه ممتعاً للغاية ، عن أحوالها . وكان لذلك وقع جد عجيب في نفسي ، لأني أحسست مرة واحدة باستياء عميق ، إذ لم أشاطرها العيش من قبل ، وأحسست في الوقت نفسه بشعور من الحسد ينطوي على الإيلام حقاً تجاه كل أولئك الذين أتيحت لهم حتى الآن سعادة الوجود في محيطها . وأخذت انتبه على الفور ، وكأني كنت أملك الحق في ذلك ، انتباهاً دقيقاً الى كل ضروب وصفها للرجال ، سواء أظهروا بين أسماء الجيران ، أو أبناء الأعمام وبنات الأخوال ، أو الأقرباء ، وأوجّه تكهّني هذه الوجهة حيناً ، وتلك الوجهة حيناً آخر . ولكن أنىّ يكون لي أن أكتشف شيئاً مع الجهل الكامل بكل الملابسات . وكانت آخر الأمر تزداد طلاقة في اللسان زيادة مطردة ، على حين أزداد أنا صمتاً . وكان الاستماع اليها على هذا النحو ملائماً للغاية . ولما كنت لا أسمع إلاّ صوتها ، على حين تلوح في الغسق ملامح وجهها وكذلك سائر العالم ، فقد كنت أشعر كأني أنظر في قلبها الذي لم يكن لي بدٌّ أن أراه في ذروة النقاء ، اذ كان ينكشف لي في هذه الثرثرة الطليقة الى هذا الحد .

وحين وصل صديقي معي الى حجرة الضيوف المعدة لنا أطلق لنفسه عنان النكتة على الفور مزهوّاً بنفسه . واستغل على أثر ذلك مفاجأته البالغة لي بالتشابه مع عائلة بريمروز . وأقررته على ذلك اذ أعربت له عن امتناني — فصاح : « حقاً » ، ان الحكاية لمحبوكة حبكة تامة ، وهذه العائلة تحاكي تلك محاكاة جيدة جداً ، وان السيد

المستخفي هنا خليق أن يدّعي الحق في أن يتبوّأ مكانة السيد بورتشيل . ثم إننا لمّا لم تكن بنا حاجة الى الأشرار في الحياة العادية مثل حاجتنا اليهم في الروايات فأنا أريد هذه المرة أن أقوم بدور ابن الأخ ، وأسلك سلوكاً أفضل منه . على أني أعرضت عن هذا الحديث على الفور ، على الرغم من أنه كان جد ممتع ، بالقياس إليّ . وسألته مناشداً ضميره ألم يَبُحْ بسريّ حقاً ، فأكد لي قائلاً : « كلاّ ! » . وكان في وسعي أن أصدقه ، وقال : « بل سألوا عن رفيق المائدة المضحك الذي يتناول الطعام معك في فندق عائلي واحد وقد روى الناس لهم عنه أحاديث متداولة شتى ، وانتقلت الآن الى أسئلة أخرى ، هل أحبت ؟ ، هل تحب ؟ هل خُطِبت ؟ ونفى هذا كله ، وأجاب : « حقاً ! ، ان طلاقة وجه كهذه ، صادرة عن الفطرة يمتنع عليّ فهمها ، فلو أنها أحبت ، وخسرت ، ثم تماسكت من جديد ، أو كانت عروساً لكان الأمر غير ذي شأن عندي في كلتا الحالتين » .

وعلى هذا النحو طفقنا نثرثر معاً حتى ساعة متأخرة من الليل ، واستعدت مرحي حين حلّ النهار ، وكانت الرغبة في رؤيتها من جديد تبدو لي رغبة لاتقهر ولكن في الوقت الذي كنت فيه أرتدي ملابسي أفزعتني خزانة الملابس الملعونة التي كنت قد انتقيتها لنفسي بقدر كبير من الغطرسة . وكنت كلما أمعنت في ارتداء قطع الملابس بدوت في نظر نفسي أكثر وضاعة ، ذلك لأن كل شيء كان مقدّراً على أساس هذه النتيجة . وكنت قد فرغت من شَعْري ، ولكن حين حشرت نفسي آخر الأمر في الثوب الرمادي البالي المستعار وأَضْفَت عليّ الأكمامُ القصيرة أكثر المظاهر نبوّاً عن الذوق ، وقعت في اليأس على نحو أكثر جلاءً حين استطعت أن ألاحظ نفسي في مرآة

صغيرة ملاحظةً جزئية فحسب اذ كان شطر مني يبدو دائماً أكثر إثارة للضحك من الشطر الآخر .

وكان صديقي قد أفاق على هذه التسريحة ، وأطلّ ببصره من تحت اللحاف الحريري ، بارتياح ذي الضمير الحي ، وهو يشعر بأمل سارّ في النهار . وكنت قد حسدته على ملابسه الجميلة ، وهي معلقة على الكرسي منذ زمن طويل . ولو أنه كان في مثل قامتي لخطفتها أمام عينيه ، وغيرت ملابسي في الخارج ، ولخلّفت له غلالتي الملعونة في الحديقة ، وأنا مسرور ، ولكان له من المزاج المرح ما يكفي ليدسّ نفسه في ملابسه ، ولوصلت الحكاية عند الصباح الباكر الى نهاية مضحكة . ولكن لم يكن من الممكن التفكير في ذلك البتّة ، ولا في أي حل وسط بارع . أمّا أن أَمْثُل بين يديْ فريد ريكهٍ في الصورة التي استطاع صديقي أن يقدمها إليها على أنني طالب لاهوت مجتهد بارع ولكني فقير ، وهي التي تحدثت مساء الأمس الى ذاتي المتنكرة بهذه المودة ، فقد كان ذلك مستحيلاً عندي كل الاستحالة . ووقفت هناك مغيظاً مطرقاً ، وجعلت أستدعي كل مقدرتي على الاختراع . غير أنها فارقتني ، ولكن حين انفجر ذلك المستلقي بارتياح ، بعد أن أثبتني برهة بنظره ، بضحكة عالية ، وصاح : « كلاّ ، انه لمن الحق أنك تبدو ملعوناً تماماً ! » أجبته بحدّة : « وأنا أعرف ما أصنع ، فوداعاً ، واعذرني ! » وصاح وهو يقفز من السرير ويهم بوقفي: « أأنت مجنون» ! . ولكنني كنت قد خرجت من الباب ، ونزلت الدرج ، وغادرت بيت والساحة ، الى الحانة . وفي مثل سرعة البرق كان جوادي قد أُسرِجَ . وانطلقت في نقمة عارمة ، مهرولاً بجوادي ، الى دروزنهايم ، مجاوزاً للمكان ، ماضياً لا ألوي على شيء .

فلما رأيت نفسي في مأمن جعلت أسير سيراً أبطأ ، وشعرت الآن فحسب كم نأيت بنفسي نأياً لاحد لإزعاجه . ولكني أسلمت نفسي لقدري ومثلت لنفسي رحلة مساء البارحة ، وأنا في ذروة الطمأنينة ، وجعلت أغذو الأمل الهادىء في رؤيتها في أجل قريب . ومع ذلك فلم يلبث هذا الشعور الهادىء أن تحوّل الى ضيق . واعتزمت الآن أن أغدو الى المدينة راكباً على وجه السرعة ، لأغير ملابسي ، ولأتخذ جواداً جيداً وجديداً ، اذ كان في وسعي على كل حال ، وبلا ريب ، كما كان الهوى يصور لي ، أن أصل حقاً قبل المائدة ، أو كما كان محتملا بصورة أكبر ، وقت المائدة اللاحقة ، أو قريباً من المساء ، وألتمس الصفح .

وكنت أهم بغمز جوادي تنفيذاً لهذا العزم حين خطرت في ذهني خاطرة أخرى كانت ، كما بدا لي ، أدعى الى السعادة كثيراً . وذلك أني كنت قد لاحظت منذ البارحة ابناً لصاحب الخان نظيف الثياب حيّاني من فناء داره ، وهو مشغول منذ صباح اليوم بشؤون القرية ، أيضاً . وكان في مثل قامتي . وقد ذكّرني بنفسي تذكيراً عابراً ، وسرعان ما قرنت الفكر بالعمل ، فلم يكد جوادي يحوّل مساره حتى وجدت نفسي في دروزنهايم . وأدخلته الحظيرة ، وتقدمت الى الغلام بالاقتراح ببساطة واختصار : فقد كان عليه أن يعيرني ثيابه لأني اعتزم القيام بشيء مضحك في سيزنهايم ، ولم أحتجْ هنالك الى الفراغ من كلامي واذا هو يقبل الاقتراح بسرور ، ويثني عليّ ، لأني أريد أن أدخل السرور على قلب الآنسة . وقال انهم طيبون جداً ، ومن أهل الفضل ، ولاسيما الآنسة ريكشن . وان الوالدين يسرّهما أن يريا الأمور تسير دائماً على نحو ممتع بهيج . وتأملني بانتباه . ولما كان من الجائز أن يحسبني صعلوكاً

بائساً بالنظر الى حلّتي ، فقد قال : « اذا كنت تريد التسلل ، فهذا هو الطريق الصحيح . وكنا في هذه الأثناء قد قطعنا شوطاً بعيداً في استبدال ملابسنا . وقد كان في الحق خليقاً ألاّ يأتمنني على ملابسه الخاصة بالمناسبات ، ولكنه كان سليم الطوية . وكان جوادي في حظيرته على كل حال . وسرعان ما انتصبت واقفاً في زينتي الكاملة ، وضربت بيدي على صدري ، وبدأ صديقي يتأمل الصورة المماثلة له بارتياح — وقال وهو يمدّ اليّ يده التي شددت عليها بعزم : « اتفقنا ، يا سيدي وأخي ! أرجو ألاّ تسرف في التقرّب من فتاتي فقد تسيء بك الظن » .

أما شَعْري الذي استعاد نموه الكامل فقد استطعت أن اصففه مثل شعره تقريباً . ولما كنت أتأمله مراراً فقد وجدت أن من المضحك أن أقلّد حواجبه الكثّة محاكاة معتدلة برأس فلينة محروق ، على نحو معتدل ، وأقلّصها في الوسط ، لأجعل من نفسي لغزاً من الناحية المظهريّة أيضاً ، في مشروعي الحافل بالألغاز . وقلت له ، وهو يناولني القبعة ذات الأشرطة : « أليس لديك حاجة في الأبرشية استطيع أن أقضيها هناك بطريقة طبيعية ؟ » فردّ قائلاً : « حسناً ، ولكن يجب عليك حينئذ أن تنتظر ساعتين . فان لدينا قيمّة منزل ، وأود أن يقوموا بايصال العصيدة الى السيدة زوجة القس ، وعسى أن تقوم أنت بعد ذلك بحمله الى هناك . ولا بد أن هو فّارت يعاني من محنة ، مع ما في ذلك من دعابة » — وقررت أن أنتظر ، ولكن هاتين الساعتين طالتا طولاً لانهاية له عندي ، وكدت أذوب من نفاد صبري حين انصرمت الساعة الثالثة قبل أن تأتي العصيدة من الفرن . وتلقيتها آخر الأمر وهي جد ساخنة ، وانطلقت بأمانتي مع أجمل أشعة شمس ، وكان نظيري في الصورة ما زال يصحبني مسافة من الطريق ، وقد وعدني أن يلحق

بي قريباً من المساء ويأتيني بثيابي التي رفضتها باصرار ، ملتزماً برد ثيابه اليه .

ولم أكن قد أنطلقت بعيداً بما معي من الهدية التي كنت أحملها في منديل نظيف معقود ، حين رأيت صديقي مقبلاً نحوي عن بعد مع كلتا المرأتين . ووقعت في حيرة عظيمة لا تتلاءم في الحقيقة مع وجودي داخل هذه السُترة . ولبثت واقفاً ، وأخذت استرجع أنفاسي وأحاول التفكير فيما ينبغي المبادرة اليه ، ولاحظت الآن فحسب أن الأرض كانت جد مواتية لي . ذلك لأنهم ذهبوا صوب الجانب الآخر من الجدول الذي كان يفصل ، هو وشريطا المروج اللذان كان يجري فيهما ، بين طرفين للمشاة فصلاً بعيداً.فلماوصلواقبالتي صاحت فريد ريكه التي كانت قد أحست بي منذ بعض الوقت : « ما وراءك يا جورج ؟ » . وكنت من الذكاء بما يكفي ، اذ غطّيت وجهي بالقبّعة التي أخذتها في الوقت الذي رفعت فيه الصّرة عالياً في الهواء ، وقلت : « انها عصيدة المعمودّية ! » . فردّت صائحة : « وكيف حال الأخت ؟ » ، فقلت : « بخير » ، محاولاً أن أتحدث بلهجة ان لم تكن إلزاسيّة فقد كانت غريبة على أية حال . وقالت الكبرى : « احملها الى البيت ، وأعطها الخادم ، ولكن انتظرنا فسنعود قريباً ، أو تسمع ! » .

وأسرعت في طريقي . وأنا أحس بشعور مسبق ينطوي على أفضل الآمال في أنّ كل شيء لابد أن يسير على ما يرام ، اذ كانت البداية سعيدة . وسرعان ما وصلت بيت القس ، ولم أر أحداً ، لا في البيت ، ولا في المطبخ . أما السيد الذي استطعت أن أقدّر أنه مشغول في حجرة الدراسة فلم أرد أن أكدّر صفوه ، ولذلك جلست على الحافّة أمام الباب والعصيدة الى جانبي ، وضغطت القبعة على وجهي .

ولم يكن من اليسير أن أتذكر إحساساً أكثر من ذلك امتاعاً : أن أجلس هنا عند هذه العتبة من جديد ، العتبة التي كنت قد خرجت منذ قليل متعثراً بها ، وأنا يائس ، وأن أراها من جديد ، وأن اسمع صوتها العذب من جديد . وعلى الإجمال بعد أن صوّر لي استيائي فراقاً طويلاً ، وأن أتوقّعها هي في كل لحظة ، وأن أتوقّع معها اكتشافاً كان يخفق له قلبي ، ومع ذلك فقد كان ذلك الأكتشاف ، في هذه الحالة الملتبسة ، كشفاً لا يبعث على الخجل ، ثم مثل هذا المقلب المضحك عند الدخول مباشرة ، والذي لا يماثله واحد من تلك المقالب التي ضحكنا لها بالأمس ! وانما الحب والحاجة أفضل معلّمَيْن ، وقد كانا هنا يحدثان أثرهما معاً ، على أن التلميذ لم يبقَ غيرَ جديرٍ بهما .

وأقبلت الخادم داخلة من مخزن الغلال ، وصاحت بي قائلة : اذاً هل جاءت العصيدة ؟ وكيف حال الأخت ؟ » وقلت وأنا أشير الى العصيدةمن دون أن أرفع بصري : « كل شيء على ما يرام »وأمسكت بالصرّة وغمغمت قائلة : « والآن ما وراءك اليوم أيضاً ؟ هل نظرت بيريشن الى امرىء آخر من جديد ؟ انه شيء لا يُعوّض ! ولسوف يكون ذلك زواجاً نظيفاً اذا استمر ذلك على هذا النحو » ولما كانت تتحدث بصوت عال فقد أقبل القس الى النافذة وسأل عما يجري ؛ فأومأت اليه ونهضت ، والتفتّ صوبه ، ولكني حافظت على القبعة من جديد فوق وجهي . وحين تكلّم كلاماً ودياً ورجا مني البقاء ذهبت الى الحديقة وهممت بدخولها ، حين صاحت بي زوجة القس التي أقبلت نحو باب الفناء . ولما كانت الشمس ترسل أشعتها في وجهي مباشرة فقد كنت استخدم على نحو متكرر المزية التي كانت تؤمنها لي

القبعة ، وحيّيتها بانحناءة ، غير أنها دخلت البيت بعد أن أوعزت إلي ألاّ أنصرف من دون أن استمتع بشيء. فذهبت الآن الى الحديقة أطوّفَ في أرجائها ، وكان كل شيء قد حقق الآن أفضل ضروب النجاح ، ومع ذلك فقد كنت أرسل أنفاساً عميقة حين كنت أفكر في أن الشباب قد يقبلون عما قريب . ولكن الأم دخلت عليّ بغتة ، وكانت توشك أن تطرح عليّ سؤالاً حين نظرت في وجهي الذي ما عدت أستطيع أن أخفيه ، وتعثّرت الكلمة في فمها — وقالت بعد توقف : « لقد كنت أبحث عن جورج ، فمن تراني أجد الآن ! أفأنت هو يا سيدي الشاب ؟ وكم تتخذ إذاً من الأشكال ؟ » — فرددت قائلاً : « انه شكل واحد اذا أردت الجدّ ، واذا أردت المزاح فلديّ من ذلك على قدر ماتريدين » — وقالـــت مبتسمة : « وذلك مالا أريد أن أفسده ، فاخرج من الوراء الى الحديقة ، والى المروج ، الى أن تدق الساعة الثانية عشرة ، ثم عُدْ أدراجك ، وسوف أكون قد أعددت العدة للتسلية . وفعلت ذلك ، ولكن حين أردت ، وأنا خارج من أسوار حدائق القرية ، أن أذهب الى المروج ، كان بعض أهل القرية يقبلون نحوي على طريق المشاة ، فوضعوني في مأزق ، ولذلك يمّمْتُ صوب غابة صغيرة كانت تكلّل مرتفعاً من الأرض قريباً جداً مني ، لأستكِنّ فيها الى أجل محدّد ، ولكن ما كان أشد عجبي حين دخلتها اذ انكشف لي مكان نظيف وكانت تحفّ بهذه الصور المختلفة المشرقة إشراق السماء ، أُطُرٌ من الأحراش لا يستطيع المرء أن يرى شيئاً أبعَث للبهجة وأكثر فتنة منها . فقعدت على أحد هذه المقاعد الطويلة ، ولاحظت على أقوى الأشجار لوحاً صغيراً متطاولاً نقش عليه : استراحة فريد ريكه . ولم يخطر ببالي أنني ربما أتيت لأكدّر صفو هذه الراحة . ذلك لأن

الجميل يتمتع بهوى متفتّح لا يمكن أن يكون لديه : وهو غير واعٍ لأصله ، فكرة عن نهاية ما ، ولا يستطيع أن يستشعر ، وهو يحسّ بالبهجة والسرور ، أنه يمكن أن يسبب الشر أيضاً .

ولم أكد أحظى بالوقت الكافي للنظر فيما حولي ، وأنغمس في الأحلام الحلوة ، حتى سمعت امرءاً قادماً ، وكان هذا هو فريد ريكه نفسها . وصاحت عن بعد : « جورج ، ماذا تصنع هنا ؟ » وصحت قائلاً وأنا أعدو نحوها : « لست جورج ، ولكني واحد يرجو الصفح آلافاً من المرات » . وجعلت تتأمّلني مندهشة ، غير أنها تماسكت في الوقت ذاته ، وقالت بعد تنفّس عميق : « يا لك من انسان فظيع ، لطالما أفزعتني ! » وصحت قائلاً : « انما دفعني القناع الأول الى الثاني ، ولقد كان ذلك غير أهل للصفح لو أني عرفت بعض المعرفة مَنْ كنت ذاهباً اليه . أما هذا فلا ريب أنك تغفرينه : ذلك لأنه هو صورة البشر الذين تلقينهم بكثير من المودة » . وكانت وجنتاها الشاحبتان قد تخضبتا بأجمل حمرة وردية وقالت : « ما ينبغي أن يكون حالك بأسوأ من حال جورج على الأقل ! ولكن دعنا نقعد ! فأنا اعترف بأن الرعب سرى في أوصالي » وأجلس اليها ، وأنا في الغاية من التأثّر — وقالت : « لقد أحطنا بكل شيء علماً حتى الصباح الباكر عن طريق صديقك ، فحدثني الآن عمّا يلي ذلك » . ولم أدعها تقول ذلك مرة ثانية ، بل وصفت لها فزعي من شخصية الأمس ، وانطلاقي العاصف من البيت بهذه الطريقة المضحكة ، حتى طفقت تضحك من أعماق قلبها ضحكة ساحرة ، ثم قفّيْتُ بما تبقّى ، بكل تواضع في الحقيقة ، ولكن بما يكفي من الحرارة ليعد ذلك بمثابة إعلان للحب في إطار تاريخي . واحتفلت بسروري بالعثور عليها من جديد بقبلة على يدها التي تركتها

في يدي ولئن كانت قد احتملت في مسيرة الأمس تحت ضوء القمر ، الثمن الباهظ للحديث فقد وفّيت الدين الآن أيمّا وفاء من جانبي . وكان السرور برؤيتها من جديد ، وبالمقدرة على التصريح لها بكل شيء مما ضننْتُ به بالأمس ، عظيماً الى حد جعلني لا ألاحظ ، في غمرة اندفاعي الى الحديث ، كيف كانت هي نفسها مطرقة صامته . وتنفسّت بضع مرات تنفساً عميقاً ، وتوسّلت اليها مرات ومرات أن تغفر لي ما كنت قد سبّبْتُه لها من الفزع . أما كم ظللنا قاعدين فذلك مالا أعلمه . ولكننا سمعنا بغتة صائحاً يصيح : « ريكشن ! ريكشن ! » . وكان ذلك صوت الأخت — وقالت الفتاة الحبيبة ، وقد عادت الى مرحها الكامل : « سوف يفضي هذا الى حكاية جميلة » . وأضافت قائلة وهي تنحني الى الأمام لتخفي شطراً مني : « انها قادمة من ناحيتي ، فتحوّلْ عن هذا الجانب ، لكيلا يعرفلك القوم على الفور » . وتقدمت الأخت الى المكان ، ولكن لم تكن وحدها . فقد كان فايلاند يسير معها ، وقد ظل كلاهما ، حين أبصرانا ، متحجّرين .

فلو أننا رأينا بغتة لهيباً ينبثق بعنفوان من سطح ساكن ، أو لقينا شيئاً مهولاً تتسم صورته الشوهاء بالنقمة والرهبة ، لما انتابنا مثل ذلك الفزع الرهيب التي يصيبنا حين نرى بأعيننا شيئاً على غير توقّع كنا نعتقد أنه مستحيل من الوجهة الأخلاقية — وصاحت تلك باستعجال من مسّه الرعب : « ما هذا ؟ أنتِ مع جورج ! ويدُكِ في يده ! كيف أفهم هذا ؟ » . وردت فريد ريكه بروية كاملة ، قائلة : « انه يعتذر اليّ عن شيء ، يا أختي العزيزة ، ولديه ما يعتذر اليك عنه ؛ ولكن يجب عليك أن تصفحي عنه سلفاً » . وقالت الأخت وهي تهزّ برأسها ؛ وتنظر الى فايلاند الذي ظل واقفاً بهدوء تام ، على طريقته

الهادئة ، وهو يتأمل المشهد من دون أي تعبير : «أنا لا أفهم ، أنا لااستوعب» ونهضت فريد ريكه واقفة وشدّتني نحوها ، وصاحت : « لا تتلجلج ! فقد رجوت مني الصفح واعطيتكه ! » وقلت وأنا اقترب من الكبرى اقتراباً شديداً : « أجل ، ان الأمر كذلك . فأنا في حاجة ماسة الى الصفح » ، وارتدت الى الوراء ، وصاحت صيحة عالية ، وأخذت الحُمرة تعلوها شيئاً فشيئاً ، ثم ألقت بنفسها على العشب ، وضحكت بصوت فائق الارتفاع ، وأبت أن تظهر الرضى . وابتسم فايلاند بارتياح ، وصاح قائلاً : « أنت فتى ممتاز ! » ثم شدّ على يدي بيده . ولم يكن في العادة كريماً في المداعبات ، ولكن مصافحته كانت تنطوي على شيء من الحرارة والانعاش ، ومع ذلك فقد كان في ذلك مقتّراً أيضاً .

وبعد شيء من الاستجمام والإخلاد الى الهدوء انطلقنا في طريق العودة الى القرية . وعرفت في الطريق كيف تهيّأ الباعث لهذا اللقاء العجيب . وكانت فريد ريكه قد اعتزلت هذه النزهة آخر الأمر ، لتستريح لحظة أخرى قبل المائدة ، وحين وصل ذانِك كلاهما الى البيت ، بعثت بهما الأم ليأتيا بفريد ريكه بأسرع ما يمكن ، لأن طعام الغداء كان جاهزاً .

وأظهرت الأخت المزاج الفكاهي المتناهي في طلاقته ، وحين علمت أن أمها قد اكتشفت السر ، صاحت قائلة : « بقي الآن أن يدخل في الموضوع أبي ، وأخي ، والأجير والخادم كذلك » . وحين أصبحنا عند سور الحديقة كان لابد لفريد ريكه أن تستبق الذهاب الى البيت مع صديقي . وكانت الخادم مشغولة في حديقة المنزل ، وصاحت بها أوليفي ، ( وهذا هو اسم الأخت الكبرى أيضاً ) : « انتظري ،

فلديّ ما أقوله لك ! » . وتركتني واقفاً عند السور ، وذهبت الى الفتاة . ورأيت أنهما كانتا تتحدثان حديثاً بالغ الجد . وصوّرت لها أوليفي أن جورج على خلاف مع بيرْبن ، وأنه يبدو مهتماً بالزواج منها ، ولم يكن لهذا وقع سيئ على الفتاة ، واستدعيتُ الآن ، وكان عليّ أن أؤيّد ما قيل . وخفّضت البُنَيّة الجميلة الصريحة عينيها ، وظلت على هذا النحو الى أن غدوت واقفاً قريباً جداً منها . ولكن حين أبصرت الوجه الغريب بغتة ، أطلقت هي أيضاً صرخة عالية ، وولّت الأدبار وأوعزت إليّ أوليفي أن أتبعها ، وأمسك بها لكيلا تدخل المنزل وتحدث ضجيجاً . ولكنها قالت انها تريد أن تذهب الى هناك بنفسها ، وترى كيف حال أبيها . وفي الطريق التقت أوليفي بالأجير الذي كان على علاقة طيبة بالخادم. وكنت في هذه الأثناء قد استبقْتُ الفتاة ، وأمسكت بها . وصاحت أوليفي قائلة : « تصوّر ! ياله من حظ ، لقد انتهى الأمر مع بربارة ، وسيتزوج جورج ليزه » . وقال الفتى الطيب : « هذا ما فكرت به طويلاً » ، وظل واقفاً وهو مستاء .

وكنت قد أفهمت الفتاة أن المسألة تتوقف على مجرد اطلاع الأب . وانطلقنا الى الغلام الذي كان ينعطف ويحاول الابتعاد . ولكن ليزه جاءت به ، وصدرت عنه ، هو أيضاً ، أغرب الحركات اذ أصيب بخيبة الأمل . وذهبنا معاً الى المنزل . وكانت المائدة ممدودة ، والأب في الحجرة . ودخلت أوليفي التي كانت تقفني وراءها ، الى العتبة ، وقالت : « أظن أنك لاتمانع يا أبي في أن يتناول جورج الطعام معنا اليوم ؟ ولكن يجب أن تأذن له أن يدع القبعة على رأسه » . وقال الشيخ : « لا مانع لديّ ، ولكن فيم هذا الشيء غير المألوف ؟ هل أصابه أذى ؟ » . وسحبتني ، وأنا واقف ، والقبعة على رأسي

وقالت وهي تقودني الى الحجرة الصغيرة : « كلاّ ، ولكن هناك قفصاً للطير تحتها ، وقد تطير ، وتلحق بنا الأذى ، أذلها بضعة من الطيور غير المهذبة » وسكت الأب على النكتةمن دون أن يعلم ما يفترض أن يعنيه هذا . وفي تلك اللحظة رفعت القبعة عن رأسي وأدّت لي انحناءة الاحترام وطلبت اليّ مثلها . ونظر الشيخ اليّ فعرفني ، غير أنه لم يخرج عن سَمْتِه الكهنوتيّ ، وصاح وهو يرفع اليّ اصبعه كالمتوعّد قائلاً : « عجباً يا سيدي المرشح ! لقد غيرّت جوادك بسرعة فائقة ، وقد خسرتُ بين عشية وضحاها مساعداً كان وعدني منذ الأمس وعداً صادقاً أنه سيرتقي في بعض الأحيان منبرالخطبة الأسبوعية نيابة عني » . ثم ضحك من كل قلبه ، ورحّب بي ، وجلسنا الى المائدة ، وجاء موسى بعد وقت طويل ، لأنه اعتاد ، وهو الولد الأصغر المدلل ، أن يغفل عن سماع جرس الظهيرة ، وكان ، فضلاً عن ذلك ، قلّما يلقي بالاً الى المجتمع ، وقلما كان يفعل ذلك أيضاً حين يُلقي بِرَجْع الحديث . ووضعه القوم ، ليجعلوه أكثر أمناً ، لابين الأختين ، بل عند نهاية المائدة ، حيث اعتاد جورج أن يقعد في بعض الأحيان . وحين أقبل من وراء ظهري نحو الباب ضربني ضربة شديدة على إبطي ، وقال : « وجبة مباركة ، يا جورج ! » ورددت قائلاً : « شكراً جزيلاً يا سيدي ، الشريف » . وأفزعه الصوت الغريب ، والوجه الغريب – وصاحت أوليفي : « ماذا تقول؟ ، أوَلا يبدو مشابهاً لأخيه حقاً ؟ » وردموسى الذي استطاع أن يثوب إلى رشده للتوّ قائلاً : « أجل ، ولكن من الخلف ، مثما يشبه الناس جميعاً » . ولم ينظر إليّ من جديد على الاطلاق ، بل كان يكتفي بالاشتغال بالتهام المآكل التي كان عليه أن يُصلِح أطباقها بنشاط ، ثم راق له أيضاً أن ينهض من حين إلى آخر ،ويبادر إلى عمل شيء ما في الفناء ، أو في الحديقة . وعند المائدة اللاحقة(١) أقبل جورج الحقيقي ،

(١) مائدة الحلوى والفواكه

وبعث مزيلماً من الحياة في المشهد بأكمله ، وأراد القوم أن يؤدّبوه على غيرته ، ولأنه كان من الممكن أن يجعل مني خصماً ، ولكنه كان يتمتع بقدر كاف من التواضع والحنكة . وقد عمد إلى الخلط بطريقة تتسم بقدر من النعاس أو الدُوار ، بين عروسه ، وصورته المماثلة ، والأوانس ، كلٌّ بعضهم مع بعض ، على نحو لم يكن المرء يعرف معه بعدُ عمّن كان يدور الحديث ، حتى كان القوم يسمحون لانفسهم آخر الأمر أن يأتوا على قدح الخمر وقطعة ( الجاتو ) العائدة إليه ، بهدوء ، وسرور كبير .

وبعد المائدة دار الحديث عن رغبة القوم في الخروج الى النزهة ، وذلك ما لم يكن يليق بثيابي الفلاحيّة ، بلا ريب . ولكن النساء كن قد تذكرن ، منذ صباح اليوم الباكر ، حين عرفن من رَحَل بتلك السرعة أن رداءً جميلاً له سُجُف لقريب لهنّ معلّقٌ بالخزانة ، وقد اعتاد أن يخرج به الى الصيد عند وجوده هنا . غير أني رفضت ذلك ، متخذاً في الظاهر أشكالاً شتى من المزاح ، ومستنداً في قرارة نفسي الى شعور بالغرور ، وهو أنني لا أريد أن أفسد الانطباع الحسن الذي أحدثته وأنا في صورة الفلاح ، عن طريق ذلك القريب . وكان الأب قد ابتعد ليخلد الى نومة القيلولة ، وكانت الأم مشغولة بشؤون المنزل كعهدها دائماً . ولكن الصديق اقترح أن أرويَ شيئاً فوافقت على الفور . واتجهنا الى خميلة فسيحة ، وسردت حكاية دوّنتها بعد ذلك تحت عنوان « ميلوزينه الجديدة(١) » . وهي تمت بصلة الى « باريس الجديد » مثل صلة الشابّ بالغلام . وقد كنت خليقاً أن أدرجها هنا ، لولا أنني خشيت أن أسيء ، بضروب العبث العجائبيّ للخيال ، الى ما يحيط بنا ههنا من واقع الريف وبساطته ، على نحو يبعث على الرضى. وجملة القول انني أصبت الجزاء الذي يُجزى به المخترع والراوي لمثل هذه الضروب من الانتاج ، من

اثارة الفضول ، وشدّ الانتباه ، وحفزِ الهمة الى الحلّ المستعجل للألغاز المستعصية ، وتخييب التوقّعات ، وايقاع الارتباك عن طريق الغريب الذي يحل محله الأشدّ غرابة ، واثارة العطف والخوف ، واثارة القلق ، والتأثير ، والوصول بالنفس الى الراحة والسكينة آخر الأمر عن طريق تحويل جدّ ظاهري الى مزاج يتسم بالظرف والمرح ، وتَرْكِ مادة للصور الجديدة من أجل المخيّلة ، ومادة للعقل من أجل التفكير ذي المدى الأبعد .

واذا قُدِّر للمرء في مستقبل الأيام أن يقرأ هذه الحكاية مطبوعة ويرتاب في أن من الممكن أن تكون أحدثت مثل هذا الأثر ، فليقدّر هذا أن الإنسان في الحقيقة انما هو مجبول على التأثير في الحاضر فحسب . فالكتابة اساءة استعمال للغة . وقراءة المرء وحده بهدوء انما هي بديل كئيب للحديث . والانسان انما يحدث كلَّ ما يقدر على احداثه من التأثير على الانسان عن طريق شخصيته ، والشباب أقوى ما يكون تأثيراً في الشباب . وهنا تنشأ أشد ضروب التأثير نقاءً أيضاً . وهذه هي التي تبعث الحياة في العالم ولا تدعه للموت ، لا من الوجهة المعنوية ، ولا من الوجهة المادية . وقد أخذت عن أبي فصاحة تعليميّة معينة ، وعن أمي موهبة تصوير كل ما يستطيع ابراز طاقةِ التخيّل ويمسُّها ، ابرازاً مشرقاً قوياً ، وبثّ حياة جديدة في حكايات معروفة ، واختراع أخرى وسردها ، بل الاختراع في السرد . وقد غدوت بتلك الموهبة الأبوية مصدر ازعاج للمجتمع في معظمه : اذ من عساه يرتاح الى الاستماع الى آراء الآخر وأفكاره ، ولا سيما تلك الصادرة عن فتى يبدو حكمه ، لنقص التجربة ، قاصراً على الدوام . أما أمّي فقد أعدّتني ، في مقابل ذلك للحدث الاجتماعي اعداداً حسناً حقاً .

وانما تتمتع أشدّ الحكايات فراغاً بجاذبية كبيرة تجاه المخيلة ، ويتقبّل العقل أكثر المضامين ضآلة ، بامتنان .

وبمثل هذه الألوان من التصوير التي لم تكن تكلفني شيئاً كنت أكتسب محبة الأطفال وأثير اهتمام الشباب وأسلّيهم ، وألفت انتباه الكبار اليّ ولكنني اضطررت خلال أجل قريب الى وقف هذه التمارين في المجتمع ، على ما كان عليه في العادة ، ولم أصل من وراء ذلك إلا إلى الخسارة البالغة في الاستمتاع بالحياة والتنمية الحرّة للذهن . ومع ذلك فقد كانت تانِك الموهبتان الأبويتان تصحبانني عبر حياتي كلها ، مقترنتين بثالثة ، وهي الحاجة الى الافصاح عما في نفسي بالتمثيل ، وعن طريق التشبيه ، وبالنظر الى هذه الخصائص التي تبيّنَها لديّ الدكتور جالّ(١) ذو البصر الثاقب والبديهة الحاضرة ، أكدّ هذا ، بناء على نظريته أنني ولدت في الحقيقة لأكون خطيباً شعبياً . ولم يكن فزعي من هذه المكاشفة بالفزع القليل . ذلك لأنها لو كان لها أساس بالفعل لكان كل ما تبقىّ مما كان في وسعي القيام به ، مهنة غير موفقة مع الأسف ، اذ لم يكن يوجد لدى أمّتي شيء يمكن تناوله بالخُطبة .

# القسم الثالث

**لقد رتبت الأمور بحيث لا تبلغ الأشجار السماء في نموها**

## الكتاب الحادي عشر

وبعد أن فرغت في تالك الجميلة ، في سيزنهايم ، من قصتي التي يتعاقب فيها المألوف مع المستحيل على نحو مستحسن بما فيه الكفاية ، رأيت مستمعاتي اللواتي كنّ قد أظهرن اهتمامهن حتى الآن بصورة متميزة تماماً قد سُحِرْنَ بتصويري الغريب الى أقصى حدود السحر ، ورجَوْن مني رجاءً ملحاً أن أدوِّن لهن الحكاية ليستطعن أن يكرّرْنها في كثير من الأحيان فيما بينهن أنفسهن ، وبالتلاوة مع الآخرين ، فوعدتهن بذلك وزادني رغبةً فيه أنني كنت آمل أن أجد في ذلك ذريعة لتكرار الزيارة ، وفرصة لعلاقة أوثق . وانفرط عقد الجماعة لحظة من الزمان ، وربما شعروا جميعاً أن الأمسية قد تكون باهتة الى حد ما ، بعد نهار أنفقوه بهذا القدر من النشاط . وحرّرني صديقي من هذا القلق اذ التمس لنا الإذن في جواز توديعهم على الفور ، لأنه كان عليه ، بحكم كونه مواطناً جامعياً مواظباً على دراساته ، أن يقضي هذه الليلة في دروزنهايم ، وهو يرغب أن يكون منَ الغد في شتراسبورج في الوقت المناسب .

وبلغنا مهجعنا معاً صامتين . أما أنا فلأنني كنت أشعر بشَرَك(١) عالق بقلبي يشدني الى الوراء ، وأما هو فلأن ذهنه كان ينطوي على شيء آخر لم يلبث أن أفضى اليّ به حين وصلنا . وبدأ بقوله « انه لمن العجيب أن تقع على هذه الحكاية بالذات . أو لم تلاحظ أنها أحدثت أثراً متميّزاً تماماً ؟ » . ورددت على ذلك قائلاً : « بلا ريب ، وأنى يكون لي ألاّ ألاحظ أن الكبرى ضحكت في بعض المواضع أكثر مما ينبغي لها ، وأن الصغرى هزّت برأسها حتى جعل بعضكم ينظر في وجوه بعض نظرة ذات معنى ، وحتى أوشكت أنت أن تخرج عن طورك . ولست أنكر أن الأمر كاد يفقدني صوابي ، اذ عبرت في ذهني خاطرة مؤداها أنه ليس من اللائق أن يروى للبنات الصغيرات مثل هذه الأشياء الشائنة التي يستحسن أن تظل مجهولة لديهن ، وأن يُعطَوْا عن الرجال تصوّرات سيئة كتلك التي لابد أن يكوّنوها بالضرورة عن المغامر » — وردّ ذلك بقوله « كلاّ ، أبداً ! فأنت لاتقدّر ذلك ، وأنىّ لك أن تقدّره ؟ فان البنات الصغيرات الطيبات لايجهلن مثل هذه الأشياء التبة ، كما تعتقد : ذلك لأن المجتمع الكبير من حولهن يعطيهن حافزاً لبعض التفكر . وعلى ذلك يتسم بسمة ما وراء الراين مثل ذَيْنك الزوجين كما تصفهما أنت ، ولكن وصفاً مبالغاً فيه وأسطوريّاً . فأمّا هو فضخم فظّ غليظ ، وأما هي فرقيقة مزوّقة بما يكفي ليحملها على يده . أما ما تبقّى من علاقتهما وقصتهما ، فيتلاءم كذلك ، تلاؤماً دقيقاً مع قصتك ، حتى لقد سألتني الفتيات سؤال الجادّ أو كنتَ تعرف أولئك الشخوص ، كنت تصورهم على سبيل المكر ؟ وقلت مؤكداً : « كلاّ ! وانك لتحسن صنعاً اذا

تركت هذه الحكاية بغير تدوين . على أننا نريد أن نجد لأنفسنا عذراً عن طريق التردد والذرائع » .

وأخذني العجب الشديد ، لأنني لم أكن فكرت في زوجين في شرقيّ الراين ولا في ما وراء الراين ، بل لم أعرف على الاطلاق كيف أبيّن كيفية وصولي الى تلك الخاطرة . وربما كان يسرّني أن اشتغل ، في فكري ، بمثل هذه الدعابات ، من دون ذيول أخرى ، وذلك ما كان من المفروض أن يحدث للآخرين أيضاً ، فيما اعتقد ، لو سردت عليهم الأقاصيص .

ولما عدت في المدينة الى مزاولة شؤوني شعرت بثقلها شعوراً أكثر من ذي قبل : ذلك لأن الانسان المجبول على النشاط يغرق نفسه بالخطط ويثقلها بالأعمال . على أن هذا يحقق نجاحاً جيداً تماماً أيضاً الى أن يقف في طريقه أيه عقبة مادية أو معنوية ، للوصول بالخلل في القوى اللازمة للمشروع ، الى الوضوح .

وكنت أمارس الدراسة الحقوقية بالقدر الكافي من النشاط لأنتهي من التخرج ببعض الدرجات المشرّفة . وكان جانب الطب يجتذبني ، لأن الطبيعة كانت تتيح لي الإحساس به من كل ناحية ، إن لم تكن تكشف لي عنه . وقد كنت مرتبطاً بذلك عن طريق الألفة والعادة . ولم يكن لي بد من أن أكرس للمجتمع بعض الوقت والانتباه أيضاً : ذلك لأنني كنت قد لقيت في بعض العائلات بعض ما يسرّني ويشرفني . ولكن كل هذا كان من الممكن النهوض به ومواصلته ، لولا أن ما كان فرضه عليّ هردَر كان يُثْقِل عليّ الى حد لا نهاية له . وكان قد هتك الستار الذي كان يخفي عني فقر الأدب الألماني . وكان

قد قضى بقسوة على بعض الأحكام المسبقة لديّ ، فلم يبق في سماء الوطن إلا القليل مـن النجوم البارزة ، اذ كان يعامل الباقين جميعاً على أنهم مجرد طفيليين عابرين ؛ بل أفسد عليّ ما كنت أؤمّله من نفسي ذاتها ، وأتصوّره الى حد أخذت عنده أرتاب في كفاءاتي الخاصة . ومع ذلك فقد كان يجرفني في الوقت ذاته معه على الطريق الواسع الرائع الذي كان هو ذاته يجنح الى السير فيه ؛ ولفت انتباهي الى الكتاب المفضّلين لديه ، والذين كان في طليعتهم سويفت(١) وهامَنْ(٢) وكان يهزني ويدفعني الى النهوض بقوة أكبر مما كان يحملني على أن أُطامِنَ رأسي . والآن أضيفت الى هذا التشويش المعقد حماسةٌ تتصل به كانت ، وهي تهدّد باستنزافي ، تستطيع في الحقيقة أن تنأى بي عن تلك الظروف ، ولكن كان يصعب عليها أن تتمكّن من الارتفاع فوقها . وأضيف الى ذلك بعدُ بلاءٌ جسديّ ، وهو أني كنت بعد الطعام أشعر كأن كتلة تعترض حنجرتي ؛ ولم أتخلّص من ذلك إلاّ فيما بعد بسهولة كبيرة حين أمسكت عن خمر أحمر اعتدنا أن نشربه بسرور كبير . وكان هذا الإزعاج الذي لايطاق قد فارقني في سيزنهايم أيضاً الى حدّ وجدت نفسي عنده في سرور مضاعف . ولكن حين عدت الى نظامي الغذائي في المدينة عاد فوراً الى الظهور من جديد فكان عندي باعثاً للضيق الشديد ، وجعلني هذا كله كثير الاطراق والتفكير ، معتلّ المزاج ، وربمّا كان مظهري مطابقاً لسريرتي .

على أن ما كان أدعي الى الاستياء من ذي قبل ، اذ عادت تلك العلة الى الظهور على نحو شديد بعد المائدة ، أنني كنت أداوم على المستشفى(٣) ، وكان المرح والعفوية الكبيران اللذان كان المعلم الجليل

يوجهنا بهما من سرير الى آخر ، والملاحظة الدقيقة للأعراض المرضية الهامة ، والحكم على سير العلّة بصورة مطلقة ، والتقليد الهيبوقراطي (١) الجميل الذي تظهر به أشكال المعرفة بالاستناد الى الخبرة الخاصة ، والأحاديث الختامية التي كان من عادته أن يتوج بها ساعاته ، كل هذا كان يجتذبني اليه ، ويجعل المادة الغريبة التي لم أكن أطلّ عليها إلاّ من خلال شقّ ضيق ، أكثر جاذبية وأحب إليّ ، وكان إجفالي من المرضى يتناقص على نحو مطرد كلما تعلّمت تحويل هذه الأحوال الى مفاهيم يبدو الشفاء واستعادة الشخصية الانسانية والكيان الانساني لقوامها ممكنا بها . وربما وقع بصره عليّ بوجه خاص ، من حيث كوني شاباً غريباً ، وغفر لي الشذوذ العجيب الذي كان يقودني الى دروسه . وقد اختتم محاضرته هذه المرة ، لابنظرية كانت تعود على أي مرض تحت الملاحظة ، بل قال بمرح : « سادتي ! اننا نرى أمامنا بعض أيام العطلة ، استفيدوا من هذه الأيام للاستجمام ، الدراسات لاتقتضي المعالجة بالجد والنشاط وحدهما ، بل بالمرح وانطلاق الذهن أيضاً فامنحوا أجسامكم الحركة ، وتجوّلوا على الأقدام ، وعلى ظهور الخيل في الأرض الجميلة ، وسوف يبتهج ابن البلد بما هو مألوف ، كما أن الأرض ستَهَبُ الغريب انطباعات جديدة وستخلف لديه ذكرى ممتعة .

ولم يكن معنا في الحقيقة إلاّ اثنان ممّن كان يمكن أن يُوجّه هذا التذكير اليهما ، وعسى أن تكون هذه الوصفة قد أنارت السبيل للآخر مثلي على النحو ذاته ! وخيِّل اليّ أني أسمع صوتاً من السماء ، وانطلقت مسرعاً قدر طاقتي لأطلب جواداً ، ولأخرج في حلة نظيفة . وأرسلت في طلب فايلاند ، ولم يكُن ثمة سبيل الى العثور

عليه ، على أن هذا لم يثنِ عزمي ، ولكن ما يؤسف له أن المراكزكانت قد بدّلت أماكنها ، ولم أنطلق مبكراً بالقدر الذي كنت آمله . وعلى الرغم من أنني كنت أشتدّ في غمز جوادي فقد داهمني الليل ، ولم يكن من الممكن أن أخطىء الطريق ، وكان القمر يرسل ضوءه على مشروعي الحماسيّ ، وكانت الليلة شديدة الرياح ، تبعث الرعدة في المفاصل ، وانطلقت انطلاقة الواثب لكيلا اضطرّ الى انتظار رؤيتها الى الصباح الباكر .

وكان الوقت متأخراً حين أوقفت جوادي في سيزنهايم ، وأكدّ لي النازل ، رداً على سؤالي هل يوجد بعدُ ضوء في الأبرشية ، ان النساء قد خرجن منذ هنيهة الى البيت ، وهو يعتقد أنه سمع أنهن مازلن ينتظرن غريباً . ولم يرق لي ذلك ، لأنني كنت أودّ لو كنت الوحيد ، وابتدرْتُهنّ مسرعاً لأكون الأول في الظهور على الأقل ، على ما في الوقت من تأخير ، ووجدت كلتا الأختين جالسة أمام الباب ، ولم يبدُ أنهما مندهشتان كثيراً ، ولكن كنت أنا المندهش ، حين أسرَّت فريدريكه الى أوليفي بصوت سمعته مع ذلك ، قائلة : « ألَم أقل ذلك ؟ ها هو ذا ! » . وقادتاني الى الحجرة فوجدت وجبة خفيفة(١) صغيرة مبسوطة على المائدة . وحيّتني الأم تحية المعارف القدماء ، ولـ ن حين أبصرتني الكبرى في الضوء انفجرت في قهقهة عالية : اذ كانت قلما تستطيع أن تتمالك نفسها .

وبعد هذا الاستقبال الأول المتسم بشيء من الغرابة غدا الحديث على الفور متسماً بالطلاقة والمرح : أمّا ما ظل خافياً عليّ هذا المساء فقد اطلعت عليه في الصباح التالي . وكانت فريدريكه قد افترضت بصورة مسبقة أنني سآتي ، ومن تُراه لا يحس ببعض الارتياح لدى تحقق

شعور مُسبَق ، حتى وإن كان ذلك حزيناً ؟ فان كل المشاعر المُسبَقة ، اذا ما أيدتها الأحداث ، تعطي الانسان عن نفسه تصوراً أعلى ، ومن ذلك أنه يستطيع أن يعتقد أنه يتمتع بشعور بالغ الارهاف يمكنه من أن يتلمس علاقة بعيدة المدى أو يبلغ من حدة الذهن ما يجعله يدرك روابط ضرورية ولكنها غير يقينية . على أن ضحكة أوليفي لم تبق سراً ، اذ انها اعترفت لي أنه بدا لها أن من المضحك جداً أن تراني هذه المرة متأنقاً في أحسن هندام . ووجدت فريدريكه مقابل ذلك أن من المفيد ألا تفسر لي مثل هذه الظاهرة على أنها غرور ، بل آثرت أن ترى في ذلك الرغبة في الظفر باعجابها .

وفي وقت مبكر أهابت بي فريدريكه أن أخرج للنزهة . وكانت أمها وأختها مشغولتين باعداد كل شيء لاستقبال طائفة من الضيوف . واستمتعت ، الى جانب الفتاة الحبيبة ، بالصباح الباكر الرائع في يوم الأحد في الريف مثلما جسده لنا هيبل(٢) الذي لايُقدَّر . ووصفت لي الطائفة المنتظرة ، ورجتني أن أقف الى جانبها ليتم الاستمتاع بكل المباهج معاً قدر الإمكان ، وحسب نظام معين ، وقالت : « لقد ألف الناس أن يتسلوا فرادى ، ثم يُدلون بدلوهم في المزاح ولعب الورق ، وأخيراً لايبقى لطائفة منهم إلا اللجوء الى الورق ، وللآخرين إلا أن يطلقوا لأنفسهم العنان في الرقص »

وصممنا خطتنا وفقاً لذلك ، حيال ما كان يفترض أن يتم قبل المائدة وبعدها ، وكان كلٌّ منا يُعرف الآخر ، بصورة متبادلة ، على ألعاب جماعية جديدة ، وكنا متفاهمَين مسرورين ، حين نادانا الجرس الى الكنيسة ، حيث لم أجد موعظة الأب المتسمة بشيء من الجفاف ، مفرطة في الإطالة .

على أن قرب الحبيب يقصّر الوقت دائماً ، ومع ذلك فقد انصرفت هذه الساعة أيضاً بشيء من الإطراق والتفكير الخاصّ. وكنت أستعيد في نفسي المزايا التي كانت تظهرها بأكثر الأشكال تحرراً منذ هنيهة أمامي : فكان ثمة بشاشة مقصودة ، وبراءة مقترنة بالوعي ، وابتهاج مع الحساب والتقدير . لقد كانت خصائص تبدو غير متوافقة ، غير أنها كانت متلائمة لديها ، وكانت تَسِم مظهرها بسمة الظرف الفائق . وكان عليّ الآن أن أسجل أيضاً ملاحظات أكثر جدية حول نفسي أيضاً ، وهي ملاحظات كانت أقرب الى أن تدعو الى المرح الطليق . وكنت أحاذر منذ أن أضفت الفتاة ذات العاطفة الجيّاشة اللعنة والقداسة على شفتيّ ، ( لأن كل تدشين يتضمن كليهما معاً في نزعة خرافية بما يكفي ، أن أقبِّل أي فتاة ، لأنني كنت أخشى أن ألحق الضرر بمثل هذه الفتاة بطريقة معنوية فظيعة . ولذلك كنت أتغلّب على كل نزوع الى الملذات يشعر الفتى عن طريقه أنه مندفع الى الظفر من الفتاة الجذّابة بهذه الحظوة التي تنطوي على الكثير أو القليل . ولكن حتى في أكثر المجتمعات تهذيباً كان ينتظرني امتحان ثقيل ، وحتى تلك الألعاب المسمّاة بالألعاب الصغيرة التي تنطوي على قدر من الظرف يقل أو يكثر ، والتي يجتمع من جرائها طائفة من الشباب المرح ويتحدّثون ، انما هي مؤسسة في معظمها على الرهائن التي تشكل القبلات عند استردادها قيمة فداءٍ لايستهان بها . وكنت قد اعتزمت الآن بصورة قطعية ألاّ أقبّل ، ومثلما يستفزّنا أي نقص أو عقبة الى ضروب من النشاط ماكنا في العادة لنميل اليها ، فقد كنت أبذل كل شيء كانلديّ من الموهبة والفكاهةمن أجل الثباتولأكون في هذا الصدد أقرب الى الربح أمام الجماعة ومن أجلها مني الى الخسارة .

وكانوا اذا اقتضى الأمر شعراً من أجل فك رهان وجهوا الطلب نحوي في الغالب . على أني كنت على أهبة الاستعداد دائماً ، وكنت أعرف في مثل هذه المناسبة كيف أخرج بشيء في مديح المضيفة أو المرأة التي أظهرت نحوي غاية اللطف . واذا اتفق أن فرضت عليّ ، على كل الأحوال قُبلة كنت أحاول أن أتملّص بلفتة كانت ترضي القوم بالقدر ذاته . ولما كان لديّ من الوقت مايتيح لي التفكير في ذلك من من قبل فلم أكن أفتقر الى ضروب متعددة من البهرجة ، ولكن تلك الضروب المرتجلة كانت هي الأكثر توفيقاً دائماً .

ولما أتينا البيت كان الضيوف الذين وصلوا من جهات عديدة يثرثرون في مرح فيما بينهم الى أن جمعتهم فريدريكه ودعتهم الى نزهة في ذلك المكان الجميل ، وقادتهم اليه . وهناك وجد القوم وجبة خفيفة سخيّة ، وكانوا يريدون انتظار ساعة طعام الغداء وهم في ألعابهم المسلّية . وهناك عرفتُ كيف أحضّرُ ، وأنفّذُ ، بالاتفاق مع فريدريكه ، على الرغم من أنها لم تكن تشعر أدنى شعور بسرّي ، ألعاباً ، وضروباً من افتداء الرهائن من دون قبلات .

وكانت ضرورة براعتي الفنية ، وحذقي تزداد اذ أحسّ المجتمع ، الذي كان من قبل غريباً عني تماماً ، احساساً سريعاً ، بالعلاقة بيني وبين الفتاة الحبيبة ، وكان يبذل الآن ، متخابثاً ، كل الجهد ليفرضها عليّ . وذلك ما كنت أتحاشاه سراً . ذلك لأن الناس اذا لاحظوا في مثل هذه الأوساط هوى لدى أناس من ذوي الشباب سَعَوْا الى إحراجهم أو تقريب العلاقة بينهم ، مثلما يجتهدون بالنتيجة ، حين تتبيّن عاطفة غلاّبة ، في التفريق بينهما ، كما أن الانسان المحبّ للمخالطة لا يهمه البتة أن يفيد أو يلحق الأذى حين يحظى بمجرد التسلية .

وتمكنت في هذا الصباح أن استوعب ، ببعض الانتباه ، مجمل كيان فريدريكه الى حدّ ظلت معه هي ذاتها طوال الوقت ، بل ان تحيات الفلاحين الودية الموجهة نحوها بصورة متميزّة كانت تحدث انطباعاً مؤداه أنها محسنة اليهم ، وأنها باعثة على ارتياحهم . وفي البيت كانت الكبرى الى جانب أمها ، وكان كل يقتضي جهداً جسدياً لايُطلَب من فريدريكه ، وكان القوم يراعونها من أجل صدرها كما يقولون .

وثمة شخصيات نسائية تحظى باعجابنا بوجه خاص في الغرفة ، وأخرى تتميزّ على نحو أفضل في الخلاء . وكانت فريدريكه من الأخيرات وكان كيانها وقوامها لايبرز ان أبداً بفتنة أكبر مما يبرزان حين تنطلق على طريق مرتفَع للمشاة ، وكان حسن سلوكها يبدو كأنه يضاهي الأرض الموشّاة بالزهر ، وكان المرح الذي لا يكدّره مكدّر في محيّاها يبدو كأنه يضاهي السماء الزرقاء . على أنها كانت تحمل هذا الأثير المنعش الذي كان يحيط بها ، معها الى البيت أيضاً ، وسرعان ما أمكن أن يلاحظ أنها كانت تعرف كيف تجلو ضروب الكدر ، وتزيل الانطباعات الناجمة عن المصادفات المزعجة الصغيرة .

وإنما يتمثل أنقى ضروب السرور الذي يمكن للمرء أن يجده في شخص المحبوب ، في رؤيته أنه يبعث السرور لدى الآخرين . وقد كان سلوك فريدريكه في المجتمع سلوكاً طيب الأثر بوجه عام ، وكانت تروح وتغدو ، في النزهات ، كروحٍ باعثةٍ للحياة سابحةٍ في الهواء . وكانت تعرف كيف تسدّ الثغرات التي تنشأ هنا وهناك . أمّا رشاقة حركاتها فقد سبق منّا إطراؤها . وكانت أكثر ما تكون ظرفاً حين تعدو . ومثلما يبدو الظبي وهو يحقق مشيئة قدره تحقيقاً

كاملاً حين ينطلق بخفة كالطائر فوق البذور المتفتحة فقد كانت تعبّر أوضح التعبير عن أسلوبها حين كانت تنطلق عبر السهول والمروج لتأتي بشيء منسيّ أو تلتمس شيئاً ضرورياً . وكانت مع ذلك لا تعود قط وهي مبهورة الأنفاس ، وتظل متوازنة كل التوازن . ولذلك كان لابد للقلق الكبير المفرط من جانب الوالدين على صدرها أن يبدوَ لبعض الناس مبالَغاً فيه .

أمّا الأب الذي كان يصحبنا في بعض الأحيان عبر المروج والحقول فلم تكن تتاح له الصحبة الملائمة في أغلب الأحيان، ولذلك كنت ألحق به ، ولم يكن يقصّر في مبادرتي بالحديث عن موضوعه المفضّل من جديد ، وكان يفيض في الحديث عن البناء المقترح لدار الأبرشيّة . وكان يشكو بوجه خاص من أنه لايستطيع صيانة الشقوق التي أصلحت بعناية من جديد ليتروى في الأمر ويفكر في هذا الاصلاح أو ذاك ، ورددت على ذلك بأن من اليسير التعويض عنها ، وتطوّعت لانجاز المخطط الذي يتوقف عليه كل شيء ، بلا ريب ، أولاً ، وسرَّه ذلك حقاً . وكان على معلم المدرسة أن يكون في متناول يده أثناء المسح الضروري . وقد انطلق أيضاً يستنهض همته على الفور ليكون ذراع المسح بالقدم والشبر جاهزاً في الصباح الباكر .

ولما انصرف قالت فريدريكه : « انك لتحسن الصنيع حقاً اذ تغضي عن الجانب الضعيف عند والدي العزيز ، ولا تتجنّبه أو تقاطعه كالآخرين الذين ملّوا هذا الحديث ، ولا بدّ أن أعترف اليك بالطبع أننا نحن الآخرين نرغب في البناء ، اذ انه سيبلغ ارتفاعاً مفرطاً بالقياس الى العامّة والينا أيضاً . وانما هو منزل جديد وعتاد منزلي جديد ! وما كان الحال ليروق الضيوف عندنا أكثر من ذلك فقد

اعتادوا المبنى القديم ، ونحن نستطيع أن نقوم على ضيافتهم بسخاء . أمّا هناك فقد كان المكان خليقاً أن يضيق بنا على رحابته . وذلك هو وضع المسألة ، ولكن لا يفوتنّك أن تكون لطيفاً ، واني لأشكر لك هذا من قلبي » .

وسألت امرأة أخرى انضمت الينا عن بعض الروايات ، وهل قرأتها فريدريكه ، ونفت ذلك ، لأنها كانت قلّما تقرأ على الاطلاق ، فقد نشأت على الاستمتاع بالحياة في جو أخلاقي طلق(١) ، وربيّت على هذا الأساس ، وكانت رواية (ويكفيلد) حاضرةً في ذهني ولكني لم أجرؤ على تقديمها اليها اذ كان التشابه في الظروف مفرطاً في إثارة الانتباه ، ومفرطاً في تضمّن المعاني — وقالت « انه ليسرني كثيراً أن أقرأ الروايات ، فان المرء يجد فيها أناساً ظرفاء للغاية ويودّ بلا ريب لو يرى أمثالهم » .

وفي الصباح التالي تم مسح المنزل ، وجرى ببطء شديد ، اذ كنت قليل البراعة في هذه الفنون مثل معلم المدرسة . وأخيراً أنجز مشروع مهلهل . وأفصح لي الأب عن مقصده ، ولم يكن مستاءاً حين استأذنت لكي أنجز اصلاح الصدع في المدينة بمزيد من السهولة . وتركتني فريدريكه وهي مسرورة ، فقد كانت على يقين من هواي ، كما كنت على يقين من هواها ، كما أن الساعات الست ما عادت تبدو مدى بعيداً . وكان من اليسير جداً أن يسافرالمرء الى دروزنهايم بالمركبة الفرنسية المغلقة(١) ، ويحافظ على علاقته بهذه الوسيلة من وسائل المواصلات ، وكذلك عن طريق السعاة النظاميين والاستثنائيين ، اذ كان على جورج أن يقوم بدور متعهد النقل(٢) .

ولما وصلت المدينة اشتغلت في الساعات الأولى – اذ لم يكن التفكير في النوم الطويل وارداً بعد – بالمخطط الذي رسمته رسماً نظيفاً قدر الإمكان . وكنت في هذه الأثناء قد بعثت اليها بكتب ، وبكلمة ودية موجزة فوق ذلك ، وتلقيت على الفور جواباً منها ، واستمتعت بخط يدها الخفيف الجميل الرقيق ، وكان مضمونه واسلوبه طبيعيين يتسمان بالجودة والظرف ، صادران عن سريرة النفس . وعلى هذا النحو كنت أحافظ على الانطباع الممتع الذي تركته في نفسي وأجدّده دائماً . وكنت أستعيد في نفسي مزايا كيانها الظريف بسرور فائق ، وأغذّي الأمل في العودة الى رؤيتها وقتاً أطول ، وفي أجل قريب .

ولم يكن الأمر بعدُ في حاجة الى دعوة من جانب المعلم الطيب ، اذ كان قد شفاني في الوقت المناسب شفاءً كاملاً حتّى ما عدت أجد بسهولة رغبة في رؤيته ورؤية مرضاه من جديد . وكان التّراسل مع فريدريكه يزداد حيوية ، ودعتني الى احتفال يحضره أصدقاء من وراء الراين ، وكان من المفروض أن أعدّ نفسي لإقامة طويلة . وفعلت ذلك اذ حزمت طرداً في المركبة الفرنسية المغلقة ، وبعد ساعات قلائل وجدت نفسي بالقرب منها . والتقيت بطائفة كبيرة مرحة ، وانتحيت بالأب جانباً ، وناولته المخطط الذي أظهر سروراً عظيماً به ، وناقشت معه ماكنت أفكر به أثناء اخراجه ، ولم يكن يتمالك نفسه من السرور ، وأثنى بوجه خاص على نظافة الرسم ، وكنت قد تمرّنت على ذلك منذ الصبا ، وبذلت هذه المرة فوق ذلك جهداً خاصاً ، وعلى أجمل ورق . ولكن هذا السرور لم يلبث أن أفسده الهمّ على مضيفنا الطيب ، اذ قدم المخطط ، خلافاً لنصيحتي ، وفي غمرة فرحه القَلْبيّ ، الى

الجماعة . ولما كان أولئك القوم بعيدين بعداً شاسعاً عن الاعراب عن
عن الاهتمام المنشود به ، فان فريقاً منهم لم يلق بالاً الى هذا العمل
الممتع البتّة . أما الآخرون الذين كانوا يعتقدون ان لهم دراية بالمسألة
فقد زادوا الأمر سوءاً ، اذ طعنوا في التصميم على أنه مخالف للأصول
الفنية ، وحين كان الشيخ في غفلة عنهم لحظة من الزمان عالجوا هذه
الصحائف النظيفة على أنها مسودّات ، وخطّ أحدهم خطوطاً حادّة
بقلم الرصاص تمثل مقترحاته التصحيحية على الورق الناعم بحيث
ما عادت العودة الى النقاء الأول واردة في الحسبان .

ولم يكن في وسعي أن أعزّي الرجل البالغ الاستياء الذي أفسد
القوم سروره على هذا النحو المستنكَر ، على كثرة ما أكدّت له
أنني كنت أنا أعدُّها مجرد مشاريع أوّلية كنا نريد أن نتناقش فيها
ونبني عليها رسوماً جديدة ، وانصرف ، على الرغم من كل ذلك ،
وهو في ذروة السخط ، وشكرت لي فريدريكه اهتمامي بأبيها مثلما
حمدت لي الصبر على فظاظة الضيوف المشاركين .

أما أنا فلم أكن أعرف ألماً ولا استياء بالقرب منها . وكانت
الجماعة تتألف من أصدقاءٍ شبابٍ أولي صخبٍ شديد ما كان السيد
الشيخ لينزع الى التفوّق عليهم ولا كان يقدم شيئاً ادعى الى الاعجاب
مما كانوا يمارسون ولم يكن القوم قد وفّروا الخمر منذ الإفطار ،
ولم يدَّعوا ، عند مائدة الغداء التي بُسِطت عليها الأصناف المستحسَنة
كل الاستحسان ، متعة تفوّتهم ، واستساغوه جميعاً ، وبوجه خاص
بعد التمرين الجسدي المُجهد ، ومع الحرّ الشديد . ولئن كان الموظّف
الشيخ قد أفرط بعض الإفراط في إسداء الخير فان الشباب لم يقصّروا
عن مداه كثيراً .

وكنت في سعادة لاحد لها الى جانب فريدريكه ، طلقَ اللسان ، مَرحاً ، حاضر البديهة ، عالي الصوت ، ومع ذلك فقد كان الشعور ، والتقدير ، والوّلاء يحملني على الاعتدال . وكانت هي على شاكلتي ، صريحة ، مرحة ، متحمسة ، تطيب نفساً بالحديث . وكنا نبدو كأنما نعيش للحفلة وحدها ، على أنّ كلاً منا كان يعيش لصاحبه فحسب .

وبعد الطعام جعل القوم يلتمسون الظل ، وأخذوا في ألعاب جماعية وجاء دور ألعاب المراهنة . ولدى افتداء الرهائن بلغ كل شيء ، من كل نوع ، حدّ الافراط . فالحركات التي كانوا يطلبونها ، والتصرّفات التي كانوا يمارسونها ، والمسائل المطلوب حلّها ، كل شيء كان شاهداً على متعة جريئة لا تعرف حدوداً . وكنت أصعّد بنفسي هذه الدعابات المتسمة بالجموح ، عن طريق بعض النوادر . وكانت فريدريكه تتألق من خلال بعض الخواطر الهزلية ، وبدت لي أعذب مما كانت في أي وقت مضى ، وزالت عني كل الأوهام الخرافية الناجمة عن الوسواس المرضي ، وحين سنحت الفرصة لأقبّل حبيبتي البالغة الرقة قبلة حارّة لم أفوّتها ، وكنت أقلّ تعففاً عن تكرار هذه المتعة .

وأخيراً تم تحقيق أمل الجماعة في الموسيقا ، فتناهت الى أسماعنا ، وانطلق القوم جميعاً الى الرقص . وكانت الرقصة الألمانية(١) ، ورقصة الفالس ، والرقصة الدورانية هي البداية والوسط والنهاية . وكانوا جميعاً قد نشأوا على هذا الرقص الوطني . وكنت أشرّف معلماتي السريّات في الرقص تشريفاً غير قليل . وكانت فريدريكه التي ترقص وهي تمشي ، وتقفز ، وتعدو ، مسرورة جداً ، وظللنا معاً في معظم الأحيان ، ولكننا سرعان مااضطررنا الى الاخلاد الى الراحة ، لأن

القوم أقنعوها من كل جانب ألاّ تمضي في الانطلاق الجنوني ؛ واستعضنا عن ذلك بنزهة خلويّة ، ويدانا معقودتان . وفي ذلك المكان الهادىء ، بأشد العناق حرارة . وأشد ضروب التوكيد صدقاً ، على أننا متحابّان من الأعماق .

وانطلق بنا كبار السن الذين كانوا قد نهضوا من اللعب . وعند وجبة العشاء كان القوم قلما يثوبون الى الرشد كعهدهم ، ورقصوا حتى ساعة متأخرة من الليل . ولم تكن تفتقد الأنخاب ، وكذلك ضروب التشجيع الأخرى الى الشراب ، كما كان الحال عند الظهيرة .

ولم أكن قد أغرقت في النوم بضع ساعات حين أيقظني غليان دمي واضطرامه ، ومثل هذه الساعات والأوضاع هي التي يُغير فيها القلق والشعور بالندم على الانسان المتمدّد دونما دفاع في العادة . وصوّرت لي مخيلتي على الفور أكثر الصور حياةً ، فاذا أنا أرى لوسيندا وهي ترتدّ عني بانفعال ، بعد القبلة العنيفة ، وقد التهبت وجنتها ، وتنطق ، متوهجة العينين ، بتلك اللعنة التي لايراد بها إلا تهديد أختها ، والتي تهدد بها أبرياء غرباء من دون أن تعلم ،وأرى فريدريكه واقفة قبالتها وقد تجمدت من النظرة ، وهي شاحبة تشعر بنتائج تلك اللعنة التي لاتعرف عنها شيئاً . وأجد نفسي في الوسط وأنا قليل الاستعداد لرفض الآثار الذهنيه لتلك المغامرة ، مثلما كنت قليل الأستعداد لتجنب تلك القبلة التي تنذر بالشقاء . وكانت صحة فريدريكه الرقيقة تبدو كأنها تسرّع الحادث الموعود ، وبدا لي حبها الآن حباً بائساً حتماً وودت لو كنت بعيداً عنها كل البعد .

ولست أريد أن اكتم ما كان أكثر إيلاماً لي بعدُ في الأساس . فكان ثمة غرور معيّن يحفظ لديّ تلك الخرافة ، وذلك أن شفتيَّ — سواء

أكانتا مباركتين أم ملعونتين – كانتا تبدوان لي أهم من ذي قبل وكنت واعياً لسلوكي المتعفف مع قدر غير قليل من الاعجاب بالنفس إذ كنت أحرم نفسي بعض المتعة البريئة لأحتفظ بتلك المزية السحرية ولكي لا أصيب مخلوقاً بريئاً حين أتخلى عنه ، من ناحية أخرى .

غير أن كل شيء قد انتهى الآن وما من سبيل إلى استعادته . وكنت قد عدت أدراجي إلى ظرف عادي مألوف ، وكنت أعتقد أني آذيت المخلوقة العزيزة للغاية وألحقت بها ضرراً لاسبيل إلى إصلاحه وهكذا أرتدت تلك اللعنة من شفتي إلى قلبي أنا بدلاً من أن أتخلص منها .

وكان هذا كله يضطرم في دمي الثائر بفعل الحب والعاطفة الجياشة ، والخمر والرقص ، فيبعث الاضطراب في تفكيري ؛ ويؤلم شعوري حتى غدوت أشعر ، ولا سيما في مقابل مباهج الأمس اللذيذة ، أنني في حالة من اليأس كانت تبدو لا حدود لها . وكان من حسن الحظ أن ضوء النهار أطل عليّ من خلال شق في مصراع النافذة ، فلما تغلّبت على كل قوى الليل وقَفَتْني الشمس المنبثقة من جديد على قدمي ، وسرعان ماكنت في الخلاء وانتعشت بسرعة وأن لم أستعد صحتي .

وانما تفقد الخرافة ، وكذلك بعض الأشكال الأخرى من التوهم ، بسهولة كبيرة من قوتها حين تقف في طريق غرورنا بدلاً من أن تتملّقه ، وتسعى إلى أن تسبب لهذا الكيان الرقيق شيئاً من النكد . ونحن نرى عندئذ حقاً أننا نستطيع التخلص منها حينما نشاء ، ونحن نتخلى عنها بسهولة أكبر كلما كان كل ما نجنيه منها صالحاً لمنفعتنا . وكان النظر إلى فريدريكه ، والشعور بحبها ، ومرح البيئة المحيطة بها ؛

كل هذا كان ينحي عليّ باللائمة لأنني كنت أطوي ضلوعي في وسط أسعد الأيام على طيور النجس البالغة الكآبة . واعتقدت أني أفزعتها عني إلى الأبد وكان سلوك الفتاة العزيزة الذي يزداد تقرّباً مني وثقة بي على نحو مطرد ، يشيع السرور في كل أعطافي وقد وجدت نفسي سعيداً حق السعادة اذ منحتني هذه المرة قبلة عند الوداع علانية ، شأن الأصدقاء والأقرباء الآخرين .

وفي المدينة كانت تنتظرني ضروب شتى من الأعمال والتسليات كنت أستخلص نفسي منها في كثير من الأحيان عن طريق التراسل الذي مهّدت له الآن تمهيداً نظامياً ، مع حبيبتي . وقد ظلت هي ذاتها في الرسائل أيضاً . وسواء أَسَرَدَتْ شيئاً جديداً ، أو ألمْحَتْ الى حدث معروف ، أو وصفت وصفاً خفيفاً ، أو تأمّلت تأملات عابرة فقد كان الحال دائماً كأنها تظهر ، بريشتها أيضاً ، رائحةً غادية ، راكضةً واثبة ، في رشاقة وثقة متعادلتين . وكان يسرني أنا أيضاً أن أكتب اليها : ذلك لأن تصوير سجاياها كان يزيد في هواي حتى في غيابها ،حتى ان هذه التسلية لم تكن تقل إلاّ قليلاً عن التسلية الشخصية ، بل لقد غدت فيما بعد أَنْفَس وأكثر امتاعاً .

ذلك لأن تلك الخرافة لم يكن لها بدّ أن تضمحلّ كل الاضمحلال فقد كانت تقوم في الحقيقة على انطباعات السنين الخوالي . ولكن روح العصر ، واندفاع الشباب ، ومخالطة الرجال ذوي الحلم والفهم ، كل ذلك كان في غير صالحها ، بحيث لم يكن من اليسير أن يوجد امرؤ في بيتي كلها ، لايكون الاعتراف بتوهّمي هذا مدعاة للضحك عنده بصورة كاملة . غير أن أسوأ ما في الأمر هو أن ذلك الجنون

خلفّ وراءه ، حين هرب ، نظرة أصيلة حول هده الحالة التي يجد الشباب أنفسهم دائماً فيها ، وهم الذين لايتهيّأ لأهوائهم المبكّرة أن تبشّر بنجاح دائم . ولم يسعفني إلاّ القليل في التخلص من الخطأ ، حتى لقد كان العقل والتفكير لايزيدان الأمر إلاّ سوءاً بما كانا يسهمان به من دور في هذه الحالة . وكان شغفي يتنامى كلما ازددت معرفة بقيمة الفتاة الممتازة . وكان قد أزف الوقت الذي كان مقدّراً لي فيه أن أَفْقِد كثيراً مما هو جدّ عزيز ومستحسَن ، وربما الى الأبد .

وكنا قد عشنا حيناً من الزمان معاً حياة هادئة حلوة ، حين ارتكب الصديق فايلاند إثماً اذ جاب معه « قسّ ويكفيلد » الى سيزنهايم ، وناولني الرواية ، اذ كان الحديث يدور عن التلاوة ، بغتة ، وكأن المسألة ما كانت لتنطوي على شيء مطلقاً . وعرفت كيف أتمالك نفسي ، وقرأت بالمرح والطلاقة اللذين كانا في مُكْنَتي . وانطلقت أسارير وجوه مستمعِيَّ أيضاً في الوقت نفسه ، وبدا أنهم لايضيقون البتة بأن يُضطرّوا مراراً الى المقارنة . ولئن كانوا وجدوا صُوَرَ نظائر مماثلة هزلية لرايموند وميلوزينه(١) فقد رأوا أنفسهم دائماً هنا في مرآة لم تكن تُقَبِّحُ بحال من الأحوال . ولم يعترف القوم بذلك اعترافاً صريحاً ، على أنهم لم ينكروا أن المرء يتقلّب بين أناس متقاربين في الفكر والشعور .

وانما يحس كل الناس من ذوي الجبلّة الحسنة ، مع الثقافة المتنامية ، أن عليهم أن يلعبوا في العالم دوراً مزدوجاً : دوراً واقعياً ، ودوراً مثالياً ، ويجب أن نلتمس في هذا الاحساس أساس كل

شيء نبيل . أمّا ما يعود الينا من دور واقعي فنعرفه بوضوح شديد ، وأمّا ما يتصـــل بالثاني فذلك أمـــر نستطيع أن نصـــل الى الوضـــوح بصدده . وقد يبحث الانسان عن قَدَر أعلى في الأرض أو في السماء ، في الحاضر أو في المستقبل ، ولكنه يبقى من أجل ذلك ، بلا ريب ، معرضاً من الداخل للحيرة الدائمة ، ومن الخارج للتأثير المعوِّق دائماً ، الى أن يتخذ بصورة نهائية قراراً باعلان أن ما يلائمه هو الحق .

ولعلّ من المحاولات الأكثر قابلية للمغفرة ، أن يرسم المرء لنفسه شيئاً أعلى ، وأن يضع نفسه على صعيد واحد مع من هو أعلى منه ، ومنْ ذلك دافعٌ لدى الشباب يحملهم على أن يقارنوا أنفسهم بشخصيات الروايات . وانه لَدافعٌ في الغاية من البراءة ، ومهما يكن من استهجان المرء له فهو خال من الضرر الى أبعد الحدود ، اذ انه يسلّينا في أوقات يكاد يقتلنا فيها الملل ما لم نلجأ الى التسلية الحماسية .

وكم من مرة لا يكرر الناس فيها صلاة الابتهال دفعاً لضرر الروايات ، وما عسى أن يكون في ذلك من مصيبة اذا ما وضعت فتاة لطيفة . أو شاب فاضل ، نفسيهما مكان الشخصية التي تسير أمورها سيراً أفضل أو أسوأ منهما ؟ وهل تمتاز الحياة المدنية بكل هذه القيمة ، أم هل تأتي الحاجات اليومية على الانسان كله تماماً ، حتى يكون عليه أن يَرْبَأ بنفسه عن كل مطلب جميل ؟

وهكذا يمكن ، بلا ريب ، رؤية أسماء المعمودية الشعرية التاريخية التي تغلغلت في صورة فروع جانبية صغيرة من الآداب القصصية الشعرية الرومانسية . فحلّت محل أسماء القديسين ، باعثة للغيظ عند رجال الدين المعمّدين في حالات ليست بالنادرة . وهذا

الدافع الذي يحمل المرء على أن يضفي النبالة على طفله باسم حسن الجرْس وان كان لا ينطوي على شيء في ذاته ، يعد دافعاً جديراً بالثناء . وهذا الارتباط بين العالم المتخيّل والعالم الواقعيّ ينشر حتى على حياة المرء كلها رونقاً مستعذَباً . فنحن خليقون أن نرى أننا نهين الطفلة الجميلة التي نسميها ، عن رضى واختيار ، باسم «برتا» ، اذا ما سميناها «أورسلبلاندينه» . ولا ريب أن اسماً كهذا خليق أن تتعثّر به شفتا الانسان المثقف ، فضلاً عن المحبّ . وليس لنا أن نأخذ على العالم الذي يصدر حكمه ببرود وتحيّز حين ينظر الى كل ما يظهر في صورة خيالية على أنه مدعاة للضحك والاستهجان . غير أنه لابد لخبير الانسانية المفكر أن يعرف كيف يقدّر ذلك تبعاً لقيمته .

غير أن هذه المقارنة التي دفع أحدُ الخبثاء العشاقَ على ضفة الراين الجميلة ، اليها ، كان لها أكثر النتائج استحساناً بالقياس الى حالتهم . والمرء لايفكر في نفسه حين يتأمل نفسه في المرآة ، ولكنه يشعر بنفسه ، ويضفي عليها المكانة ، والأمر على هذه الشاكلة مع تلك الصور الأخلاقية اللاحقة التي يتبيّن المرء فيها أخلاقه وميوله ، وعاداته وسماته الخاصة ، وكأنها في مخطط تغشاه الظلال ، ويطمح إلى أن يمسك بها ويعانقها في شعور أخوي حميم .

وكانت عادة الاجتماع تزداد رسوخاً على نحو مطرد ، ولم يكن القوم يعرفون شيئاً آخر سوى أنني أنتمي الى هذا المحيط ، وارتضى القوم ذلك وسكتوا عنه من دون أن يتساءلوا عما عسى أن ينجم عن ذلك. وأبي والديّن لا يجدان نفسيهما مضطريْن الى أن يدعا البنات والأبناء حيناً من الزمان يسترسلون في ظروف طليقة كهذه ، الى أن يثبت

بطريق المصادفة شيء ما من أجل الحياة هو أفضل مما يمكن أن تخرج به خطة مرسومة منذ عهد طويل".

وكان القوم يعتقدون ، سواء بالاستناد الى أفكار فريدريكه ، أم بالاستناد الى استقامتي التي كانوا قد اتخذوا بصددها حكماً مسبقاً لصالحي بسبب ذلك التعفف العجيب حتى عن الملاطفات البريئة ، أن في وسعهم أن يثقوا بي كل الثقة . وكانوا يتركوننا دون مراقبة ، كما كانت العادة هناك ، وفي تلك الأيام ، بصورة مطلقة ، وكان مما يتوقف على اختيارنا أن نتجول في المنطقة في جماعة أصغر أو أكبر ، وأن نزور الأصدقاء لدى الجيران . وكنت أجد على هذا الجانب من الراين وعلى الجانب الآخر ، وفي هاجيناو ، وفورت لويس ، وفيليتس بورج ، وفي أوتيناو ، الأفراد الذين رأيتهم مجتمعين في سيزنهايم ، متفرقين هنا ، كلاً على حدة ، مضيفاً ودوداً مضيافاً ، يفتح بسرور بالغ أبواب المطبخ والقبو ، كما يفتح أبواب الحدائق والكروم ، بل المنطقة بأسرها . وكانت جزر الراين أيضاً هدفاً لرحلاتنا المائية في كثير من الأحيان . وهناك أثقلنا على سكان حوض الراين الصافي ، دونما رحمة ، بالمرجل ، وبالموقد ، و بالإدام المقلي ، وربما كنا خليقين أن نقيم هنا ، في أكواخ الصيادين الحميمة ، أكثر مما ينبغي لولا أن ناموس الراين الرهيب أخرجنا من جديد بعد بضع ساعات . وتجاه هذا الإفساد الذي لايطاق لواحدة من أجمل النزهات الترفيهية ، حيث كان كل شيء فيما عداها موفقاً ، وحيث كان يبدو أن هواي لايزيده النجاح الجيد للمشروع إلا نمواً ، انفجرت حقاً ، حين وصلنا جد مبكرين ، الى البيت قاصرين منزعجين ، في أحاديث تجديفية بحضور الأب الكهنوتي الطيب ، وأكدت أن

هذا الناموس وحده كان خليقاً أن يصرفني عن فكرة أن إلهاً حكيماً قد خلق العالم . وأهاب بي السيد الشيخ التقيّ مقابل ذلك أن أعود الى رشدي بجدّ ، وأفهمني أن هذا البعوض لم ينشأ ، هو والهوامّ الأخرى الاّ بعد هبوط الأبوين الأوّلين ، أو أنه اذا كان له وجود في الفردوس فانما هو خليق أن يقتصر على أن يطنّ طنيناً مستعذَباً ، ولا يلسع . وشعرت للتوّ بعودتي الى رشدي : ذلك لأن المرء الغاضب لابدّ من تطييب خاطره وحمله على الابتسام اذا وفقنا الى ذلك . وقد أكدت مع ذلك أنه لم تكن هناك أبداً حاجة الى السيف الملتهب لإخراج الزوجين الخاطئين من الجنة ، وأنه يجب عليه بالأحرى أن يسمح لي أن أتصور أن هذا إنما حدث عن طريق الناموس الضخم في دجلة والفرات ، وهكذا دفعته الى الضحك من جديد ، لأن الرجل الطيب كان يتفهم النكتة أو يدعها على الأقل تمر مرور الكرام .

ومع ذلك فقد كان الاستمتاع بأوقات النهار والفصول في هذا البلد الرائع أكثر جديةً . ولم يكن يحسن بالمرء أن يُسلِم نفسه إلا للحاضر ليستمتع بهذا الإشراق في السماء الصافية ، وبهذا التألّق في الأرض الخصيبة ، وبهذه الأمسيات المعتدلة ، وهذه الليالي الدافئة ، الى جانب الحبيبة أو بالقرب منها . وظلت الصباحات الأثيريّة النقية تسعدنا شهوراً بطولها.اذ كانت السماء تتجلى في كامل أبهتها وقد خضَّبت الأرض بفيضٍ غامر من الندى ، ولكيلا تغدو هذه المسرحية مفرطة في البساطة كانت السحائب تتكدّس في كثير من الأحيان فوق الجبال البعيدة ، في هذه المنطقة حيناً ، وفي تلك المنطقة حيناً آخر . وكانت تظل أياماً،بل أسابيع بطولها ،من دون أن تكدّر صفو السماء النقية ، بل كانت العواصف العابرة ذاتها تنعش الأرض وتضفي

االروعة على الخضرة التي كانت تعود الى التألّق في أشعة الشمس قبل أن تتمكن من تجفيفها . وكان قوس قزح المزدوج ، والشريطان السماويان المتسمان بلونين أشهبين داكنين كالحاشية ، أروع ، وأكثر تلويناً وأجلى ، ولكنها أسرع الى الزوال أيضاً ، مما لاحظت في أي مكان .

وفي هذه البيئات برز الولع بقرض الشعر الذي لم أكن قد أحسست به زمناً طويلاً ، من جديد . ووضعت لفريدريكه بعض الأغاني(١) ذات الإيقاع المعروف ، وقد كانت خليقة أن تشكل كتيباً ظريفاً ، ولم يبق منها إلا القليل ، ومن اليسير على المرء أن يستخلصها من آثاري الباقية .

ولما كنت مضطراً ، بسبب دراساتي الغريبة وسائر علاقاتي ، الى العودة الى المدينة في كثير من الأحيان ، فقد انبثقت بذلك لهوانا حياة جديدة كانت تحفظنا من كل ما يزعج ، مما جرت العادة أن يُختَتَم به الهوى من أمثال تلك المنازعات الصغيرة بين المحبّين ، في صورة نتيجة باعثة للاستياء . فكانت حين تَبْعُد عني تعمل من أجلي ، وتفكرّ في أي تسلية جديدة لي حين أعود . وكنت اذا نَأَيْتُ عنها أعمل من أجلها لأكون جديداً عليها مرة أخرى ، بفعل موهبة جديدة أو خاطرة جديدة . وكانت الصور الزيتية في تلك الأيام قد غدت منذ حين فحسب زيّاً سائداً ، فرسمت لها على الفور بعض القطع ، وأرسلتها اليها سلفاً مع قصيدة(٢) ، اذ كنت مضطراً الى المكث بعيداً عنها وقتاً أطول مما كنت أقدر . ولكي أفي أيضاً بالوعد الذي قطعته للأب ، بمخطط بناء جديد مكتمل أقنعت خبيراً شاباً بالبناء بالعمل في ذلك بدلاً مني ، وأولِعَ هذا وَلَعاً شديداً بالمهمة من حيث كونها

معروفاً يسديه اليّ ، وزاد من همته فيها الأمل في استقبال حسن عند عائلة مرموقة كهذه . وقام بانجاز المسقط الأفقي ، والمسقط الرأسي ، والمقطع العرضي للبيت ، ولم ينسَ الفناء والحديقة ، وأضيف الى ذلك أيضاً بيان مفصَّل ولكنه شديد الاعتدال ليظهر إمكانية تنفيذ مشروع واسع المدى ، باهظ التكاليف ، في صورة المشروع السهل والقابل للتنفيذ .

وقد هيّأت لنا هذه القرائن الدالّة على جهودنا الودّية اكرم استقبال . ولما كان الأب رأى أننا ننطوي على أحسن رغبة في خدمته فقد خرج علينا برغبة أخرى ، وهي أن يرى كرسيّه الذي كان في الحق جميلاً ولكنه بلون واحد ، مزيناً بالأزهار والزخارف . وأعربنا عن استعدادنا ، وجيء بالألوان والفراشيّ واللوازم الأخرى من باعة الخردوات والمواد الكيماوية في المدن المجاورة . ولكن لكيلا ينقصنا أيضاً إخفـــاق على شاكلة ذلك الذي في رواية «ويكفيلد» لم نلاحظ إلاّ الآن ، وحين كان كل شيء قد تم رسمه بأكثر الطرق اجتهاداً وتلويناً ، أننـــا أخذنا طلاءً التلميع مغشوشاً كـــان يأبى أن يجفّ ، فلا أشعة الشمس وتيار الهواء ، ولا الطقس الجاف ولا الرطب ، ولا أي شيء كان يعود بطائل . واضطر القوم في هذه الاثناء الى الاستعانة بصندوق لسقط المتاع ، ولم يبق أمامنا إلاّ أن نكشط الزخرفة من جديد بجهد أكثر من الجهد الذي رسمناها به . وكان يزيد من ضيقنا بهذا العمل أن الفتيات كنّ يرجون منا أن نتصرّف تصرف المتأنّي الحذر لنحافظ على الأرضيّة التي ما كان من الممكن بلا ريب أن تعود بعد هذه العملية الى رونقها الأصلي من جديد .

على أن حياتنا المرحة لم يتكدّر صفوها بفعل الأحداث العارضة الصغيرة إلاّ بمقدار ما عرَض الدكتور بريمروز وعائلته الجديرة بالحب : ذلك لأن بعض السعادة غير المنتظرة أصابتنا مثلما أصابت الأصدقاء والجيران أيضاً ، اذ كان يجري الاعلان عن الأعراس ، ومعموديّات الأطفال ، وانشاء مبنى ، واقتسام ارث ، وربح في اليانصيب ، على نحو متعاقب ، ويُستمتَع بذلك استمتاعاً مشتركاً . وكنا نتمتع بكل ألوان السرور معاً كالتراث المشترك ونعرف كيف نرتقي بها عن طريق الفكر والمحبة . ولم تكن هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي أجد نفسي فيها وسط عائلات ومحافل اجتماعية وذلك في لحظة ازدهارها الأقصى . واذا جاز لي أن أتملّق نفسي بالقول انني أسهمت في إضفاء البهاء على مثل هذه الأيام فلا بدّ لي مقابل ذلك أن ألوم نفسي على أن مثل هذه الأوقات مرت بنا من أجل ذلك مروراً خاطفاً سريعاً وتوارت في وقت مبكر .

وكان مقدراً لحبنا الآن أن يصمد لامتحان فريد . وأود أن أسميه امتحاناً على الرغم من أن هذا ليس بالكلمة الصحيحة . وذلك أن الأسرة الريفية التي صادقتها كان لها بيوت من ذوي قرابتها في المدينة ذات سمعة وصيت حسن وفي أحوال ميسورة من حيث ثروتها وكان الشباب من أهل المدينة كثيراً ما يكونون في سيزنهايم . أما من هم أكبر سناً من أمهات وعمات ، وهم أقل تنقلاً ، فكانوا يسمعون أموراً شتى عن الحياة هناك ،وعن جمال البنات الآخذ في الازدياد، بل سمعوا بنفوذي حتى لقد رغبوا في التعرف عليّ أولاً . وبعد أن زرتهم مراراً ، وأستُقبِلت عندهم استقبالاً لائقاً ، طالبوا بأن يرونا أيضاً جميعاً مرةً واحدة ، وذلك بوجه خاص لأنهم كانوا يرون أنهم مدينون برد الاستقبال الوديّ .

وكانت المفاوضات حول هذا تتردد وقتاً طويلاً . وكان من العسير على الأم أن تتخلى عن شؤون البيت ، وكانت أوليفي تجفل من المدينة التي لم تكن تتلاءم معها وكانت فريدريكه لاتميل إليها . وهكذا ظلت المسألة تراوح مكانها إلى أن جرى البّت فيها آخر الأمر بأن بدا لي أن من المستحيل أن آتي إلى الريف خلال أربعة عشر يوماً إذ كان المرء يؤثر أن يُرى في المدينة ، مع شيء من القسر ، على ألاّ يُرى البتة . وهكذا وجدت الآن صديقاتي اللواتي لم أتعوّد رؤيتهن إلا على مسرح الريف ، واللواتي كانت صورهن لاتظهر لي حتى الآن إلا على خلفية من أغصان الأشجار المتمايلة ، والجداول ذات الحركة الرشيقة ومروج الأزهار المحنية هاماتها ، وعلى أفقٍ طلقٍ يمتد أميالاً — فرأيتهن الآن أول مرة في حجرات المدينة التي كانت في الحق واسعة ولكنها مع ذلك ضيقة بالقياس إلى السجاجيد، والمرآة والساعات ذات البندول والدمى المصنوعة من الصينيّ . وانما تمتاز العلاقة بما يحبه المرء بأنها حاسمة الى درجة أن البيئة لاتعني إلاّ القليل . أمّا أن البيئة الملائمة ، الطبيعية ، المألوفة هي المطلوبة هنا ، فذلك ما تتطلبه النفس . ولم أكن استطيع ، مع شعوري الحيويّ تجاه كل ما هو حاضر ، أن احتمل على الفور تناقض اللحظة الراهنة . وكان السلوك المهذب النبيل الرصين من جانب الأم يتلاءم كل التلاؤم في هذا الوسط ، ولم تكن تتميز من سائر النساء ، أما أوليفي فكانت تثبت أنها ضيقة الصدر ، كسمكة على الشاطئ . وكانت حين تناديني ، في ظروف أخرى ، في الحديقة ، أو تومئ اليّ لتنتحيَ بي جانباً في الحقل ، حين يكون لديها شيء خاص تدلي به ، تفعل ذلك أيضاً بينما تجرني الى ركن النافذة . وكانت تفعل ذلك في غير براعة ، لأنها كانت تشعر أنه ليس بالأمر اللائق . ومع ذلك

فهي تفعله . وكان ما كانت تدلي به اليّ أقل الأشياء أهمية في هذا العالم ، ولم يكن ذلك شيئاً سوى ما كنت أعرفه من قبل : وهو أنها تحس بألم رهيب من رغبتها في الذهاب الى الراين ، والى ما وراء الراين ، بل الى تركيّا ، وكانت فريدريكه مقابل ذلك تلفت النظر الى أقصى الحدود في هذا الصدد . والحق أنها لم تكن ، هي أيضاً ، منسجمة هنا ، ولكن هذا كان يشهد لشخصيّتها ، وذلك أنها بدلاً من أن تتلاءم مع هذا الظرف كانت تُعدلُه وَفْقاً لها ، دونما شعور . ومثلما كان سلوكها في المجتمع بالقرية كان سلوكها هنا أيضاً . وكانت تعرف كيف تبعث الحياة في كل لحظة من دون أن تثير الاضطراب،وتثير الحركة في كل شيء وتبعث السكينة في المجتمع عن هذا الطريق ذاته ، وهو المجتمع الذي لا ينشأ فيه الاضطراب في الحقيقة إلاّ عن الملل . وكانت بذلك تشبع رغبة عماتها في المدينة اللواتي أردن أن يشهدن ذات مرة تلك الألعاب والتسليات الريفية وهنَّ على أريكتهن ، اشباعاً كاملاً . فلما تمّ من هذا ما يكفي ، جرى استعراض خزانة الملابس ، والزينة ، وما كان يميّز بنات العمات القاطنات في المدينة ، ذوات الثياب الفرنسية، بوجه خاص ، فلقيت إعجاباًمن دون حسد. كما هوّنت فريدريكه الأمر على نفسها معي أيضاً ، اذ عاملتني كشأنها دائماً . وبدا أنها لاتضفي عليَّ مزية أخرى سوى أنها كانت تتجه بمطامحها ورغائبها اليّ قبل أي امرىء آخر وتقرّ بذلك أنني خادمها .

وقد طالبتني بهذه الخدمة في ثقة في أحد الأيام التالية ، حين أسرّت اليّ أن السيدات يرغبن في الاستماع الى قراءتي ، وكانت بنات المنزل قد تحدثن كثيراً عن هذا : لأنني كنت أقرأ في سيزنهايم أيَّ شيء يطلبه الناس وفي أي وقت ، وكنت مستعداً على الفور ، إلاّ أنني

رجوت منهن الهدوء والانتباه بضع ساعات ، ونزل القوم على هذا ،
وقرأت ذات مساء «هاملت» كلها(١) دونما توقف . متغلغلاً في
مغزى المسرحية على قدر ما استطعت ، معبّراً عن ذاتي بحيوية
وعاطفة جيّاشة كما هو شأن الشباب ، وجنيت إعجاباً كبيراً . وكانت
فريدريكه تتنفّس تنفساً عميقاً من حين الى آخر وتغشى وجنتيها
حمرة عابرة ، ولم تكن هاتان العلامتان الدالّتان على قلب متأثّر
رقيق ، مع المرح الظاهر والهدوء الخارجي ، مجهولتين عندي ، وكانتا هما
الجزاء الوحيد الذي أطمح اليه . واستوْقفَت الثناء على أنها دفعتني الى
ذلك ، وهي مسرورة ولم تبخل على نفسها بفخر ضئيل مؤداه أنها
تألقت من خلالي وبوساطتي .

ولم يكن مقدّراً لهذه الزيارة للمدينة أن تستغرق وقتاً طويلاً ،
ولكن الرحيل تأجّل . وكانت فريدريكه تقوم بدورها في تسلية
الجماعة ، ولم أكن أنا أقصر في ذلك أيضاً ، ولكن الوسائل المساعدة
الوفيرة التي تكثر في الريف سرعان ما نضبت في المدينة ، وكان مما
زاد الوضع إيلاماً أن الكبرى كانت تفقد سيطرتها على نفسها شيئاً
فشيئاً . وكانت الأختان هما الوحيدتان في المجموعة اللتان كانتا
تلبسان الزي الألماني(٢) ، ولم تكن فريدريكه قد فكرت قط على
غير هذا النحو وكانت تعتقد أنها تكون على ما يرام في كل مكان بهذا
الزيّ ، ولم تكن تقارن نفسها بمن عداها ، ولكن أوليفي لم تكن تحتمل
البتة أن تخالط هذا المجتمع الذي يبدو نبيلاً وهي متميزة بهذا الزي
الذي هو أقرب الى زي الخادمات . وكانت وهي في الريف لاتكاد
تلاحظ الزيّ المدنيّ على الأخريات ، ولم تكن تطالب به . أما في
المدينة فلم تكن تطيق زيّ الريف . وكان هذا كله ، بالاضافة الى

ماتبقيّ من لياقة نساء المدينة ، والى المئات من الأمور الصغيرة في بيئة مناقضة تماماً . يعتمل في نفسها بضعة أيام على هذا النحو في التاب الحافل بالعواطف الجيّاشة حتى لقد كان عليّ أن أوجّه نحوها كل الاهتمام القائم على التملق لأطيّب خاطرها بناء على رغبة فريدريكه . وكنت أُوجس خيفةً من مشهد عاصف ، وأرى اللحظة التي ستلقي فيها بنفسها على قدميّ ، وتناشدني بحق كل ما هو مقدس أن أنقذها من هذا الوضع . وكانت تتحلى بالطيبة الفردوسيّة حين تتمكن من التصرف على طريقتها ، ولكن هذا القسر جعلها على الفور في وضع غير مريح واستطاع في النهاية أن يدفع بها الى اليأس . وكنت أحاول الآن أن أعجل بما كانت الأم تريده لأوليفي ، وما لم يكن مكروهاً عند فريدريكه — ولم أكن أمتنع عن الثناء على هذه في حضور أختها . وكنت أقول لها كم يسرني أن أجدها غير متغيّرة حتى في هذه الأجواء ، حرة كل الحرية كالطير على الأغصان . وكانت تبلغ من اللطف ما يكفي لترد قائلة انني هنا على أية حال ، وأنها لاتريد خروجاً ولا دخولاً اذا كنت معها .

وأخيراً رأيتها ترحل . وكان لذلك وقع الصاعقة على قلبي : لأن احساسي كان قد فصل بين حالة فريدريكه وحالة أوليفي والحق أنني لم أكن مروَّعاً ترويعاً عاطفياً شديداًالى هذا الحد ولكنني لم أكن أشعر مع ذلك بارتياح كهذا بحال من الأحوال .

ولمّا كنت في الحقيقة قد ذهبت الى شتراسبورج للتخرج فقد كان مما يعد من الشذوذ في حياتي أنني كنت أنظر الى عمل أساسي كهذا نظرتي الى مسألة جانبية . وكنت قد طرحت القلق بسبب الامتحان

جانباً(١) بطريقة سهلة جداً . ولكن كان من الواجب الآن التفكير في المناقشة أيضاً ذلك لأنني كنت قد وعدت أبي عند الرحيل من فرانكفورت ، ووضعت أنا نصب عيني ، أن أكتب هذه المناقشة . وانما هو بالطبع خطأ أولئك الذين يقدرون على بعض الأمور ، بل على كثير منها حتى انه ليبلغ منهم أنهم يثقون بقدرتهم على كل شيء ، ولا بد للشباب أن يمرّوا بهذه الحالة ذاتها لكي يصدر عنهم شيء ما فحسب . وكنت قد أتحت لنفسي نظرة شاملة في علم الحقوق ، وفي مادته المختصّة بأسرها الى حد بعيد . وأثارت موضوعات متفرقة في الحقوق اهتمامي اثارة كافية . وكنت اعتقد ، وأنا الذي اتخذت من لايزر(١) قدوة لي ، أنني سأشق طريقي إلى مدى بعيد بعقلي البشري المتواضع . وظهرت حركات كبرى في التشريع . وكان من المفروض أن تصاغ الأحكام استناداً الى المعقولية .وكان الناس يرون الحقوق القديمة القائمة على العرف والعادة تتعرض للخطر في كل يوم . وكان القانون الجنائي بوجه خاص على أبواب تغيير كبير . أما ما كان يعنيني أنا فقد كنت أشعر حقاً أن أشياء كثيرة لا حد لها تنقضي من أجل انجاز ذلك الموضوع الحقوقي الذي كنت قد رسمته لنفسي . وكانت المعرفة الحقيقية تفلت من يدي ، ولم يكن ثمة توجّه داخلي يدفع بي الى هذه الموضوعات ، كما كان الدافع من الخارج مفتقداً . بل كانت ملكة مختلفة كل الاختلاف قد جرفتني بتيارها . وكان لابد لي ، اذا ما قدّر لي أن أجد متعة على الاطلاق ، أن أظفر من المسألة بأي شيء ، وكان لابد لي أن ألمس فيها شيئاً يبدو لي مثمراً ، ويفتح لي آفاقاً . وهكذا كنت قد لاحظت بعض المواد ملاحظة جيدة ، بل جمعت مواداً فوقها وباشرت العمل في مختاراتي الأدبية ايضاً . وأخذت أقلّب النظر فيما كنت أريد

اثباته ، وأفكر في النمط الذي كنت أريد أن أرتب العناصر تبعاً له ، كلاً على حدة مرة أخرى . وعملت بهذه الطريقة حيناً من الزمان . ولكنني كنت من الذكاء بما يكفي لأرى في أجل قريب أنني لست قادراً على التقدم ، وأن معالجة مادة خاصة تقتضي اجتهاد المثابر ، بل ان المرء لن ينجز مثل هذا الشيء الخاص بنجاح ما لم يكن على وجه الاجمال عاملاً قديماً فيه على الأقل ، ان لم يكن معلماً .

على أن الأصدقاء الذين أفضيت اليهم بحرج موقفي وجدوني مضحكاً ، اذ رأوا أن المرء يستطيع أن يناقش في الأطروحة مناقشة تَعْدِل الرسالة بل تَفْضُلها . وقالوا ان هذا ليس بالأمر غير المألوف على الاطلاق . وارتضيت إظهار الميل الشديد الى مثل هذا المخرج ، ولكن أبي الذي كتبت اليه في ذلك طالب بعمل نظاميّ كان يرى أن في وسعي أن أُتمِه على نحو جيد جداً اذا ما أردت ذلك فحسب ، وكرّست له الوقت الملائم ، وكنت الآن مضطراً الى الزجّ بنفسي في أي شيء عام ، واختيار أي شيء مألوف عندي . وكان تاريخ الكنيسة معروفاً لديَّ أكثر من تاريخ العالم تقريباً ، وقد أثار اهتمامي الشديد منذ ذلك الوقت الصراع الذي تعيش فيه الكنيسة ، وهي المؤسسة الدينية المعترف بها عموماً ، والذي يوجد بعد صفحتين فما وراءهما ، وسيظل موجوداً دائماً . ذلك لأنها تعيش في صراع خالد مع الدولة التي تريد أن تعلوَ عليها من ناحية ، وفي صراع مع الأفراد الذين تريد أن تحشدهم حولها . والدولة لاتريد من جانبها أن تقرّ لها بالسيادة ، والأفراد يقاومون حقها في القسر . والدولة تريد كل شيء للأغراض العامة والعمومية ، والفرد يريد ذلك لشؤون المنزل ، والقلب ، والرفاه . وقد كنت منذ الطفولة شاهداً على مثل هذه الحركات ، حيث كانت

الأمور تسوء بين رجال الدين وأولي الأمر حيناً ، وبينهم وبين العامّة حيناً آخر . وكنت من أجل ذلك قد أثبتُّ في ذهني الفتيّ أن الدولة ، وهي المشرِّع ، لها الحق(١) في تحديد معالم الثقافة التي ينبغي لرجال الدين أن يمارسوا التعليم ويتصرفوا تبعاً لها ، وأن على العامة مقابل ذلك أن يتوجهوا توجّهاً دقيقاً من الناحية المظهرية والعلنية . وأخيراً ينبغي ألاّ يكون السؤال المطروح ماذا يفكر كلٌّ بينه وبين نفسه ، وماذا يشعر وعلام ينطوي ذهنه . وكنت أعتقد أنني رفعت بذلك كل ضروب التعارض مرة واحدة . ولذلك اخترت لمناقشتي الشطر الأول من هذا الموضوع ، وهو أن المشرِّع ليس من حقه فحسب ، بل من واجبه ، أن يرسِّخ ثقافة معينة لايحق لرجال الدين ولا للعامّة ، أن يتنكرّوا لها ، وعالجت هذا الموضوع من الناحية التاريخية طوراً ، ومن الناحية العقلانية طوراً آخر ، اذ بيّنت أن كل الأديان العلنية العامة انما تم ادخالها عن طريق قادة الجيوش والملوك والرجال الأقوياء ، بل أن هذا هو الحال مع المسيحية . فقد كان مثال البروتستانتية قريباً كل القرب . وكان يزيدني جرأة على المضي في العمل أنني كنت أكتبه في الحقيقة لمجرد ارضاء والدي ، ولم أكن أتمنى شيئاً وأؤمله بشوق أكثر من ألاّ تقرّه الرقابة . وكنت ما أزال أحمل عن بيهرِش كراهية لاتقاوَم لرؤية شيء لي مطبوعاً . وكانت صحبتي لهرْدَر لم تزدني إلاّ كشفاً عن عجزي الشديد الوضوح ، بل كان سوء الظن بنفسي الى حد معين قد وصل الى النضج الكامل عن هذا الطريق .

ولما كنت قد أبدعت هذا العمل كله تقريباً من ذاتي ، وكنت أتكلم اللاتينية وأكتبها بطلاقة ، فقد كان الوقت الذي كنت استعمله

في هذه الرسالة ينصرم على نحو بالغ العذوبة . وكان للمسألة شيء من أساس على الأقل . ولم يكن التصوير سيئاً ، من الناحية البلاغية ، وكان للمجموع اطار حسن . ولم أكدأفرغ من ذلك حتى راجعته مع معلم للاتينية ، وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يصحح لي الأسلوب على الإجمال فقد أزال كل الهنات التي تلفت النظر بصورة عابرة ، حتى تكوّن شيء يمكن عرضه . وأرسلت نسخة نظيفة على الفور الى أبي الذي لم يوافق على أن أياً من الموضوعات التي سبقت معالجتها قد تم الفراغ منه ، ومع ذلك فقد كان راضياً كل الرضى عن المشروع من حيث موافقته للروح البروتستانتية تماماً ، وسكت عما لديّ من الغريب وأثنى على جهدي ، وتوقّع أن يكون للاعلان عن هذا العمل الصغير أثر ممتاز .

وسلمت الآن كراريسي الى الكلية . وكان من حسن الحظ أن أن هذه تصرفت على نحو ذكيّ بمقدار ما هو لبق . وبدأ العميد ، وهو رجل حاذق مفعم بالحيوية ، بكثير من ضروب الإشادة بعملي ، ثم انتقل الى ما فيه من أمور تستوقف النظر ، وهي التي عرف كيف يحولها شيئاً فشيئاً الى أمور خطيرة ، وختم بأنه لايمكن أن يكون من المستحسن الاعلان عن هذا العمل أطروحةً أكاديمية ، وأن المرشح للتخرج قد أظهر للكلية أنه شاب يحق لها أن تعلّق عليه أفضل الآمال ، وأن الكلية تريد ، بسرور ، أن تدعني أناقش الأطروحة ، لكيلا تقف في طريق القضية ، وأنني استطيع بالنتيجة أن أنشر رسالتي كما هي ، أو بعد مزيد من المعالجة ، باللاتينية أو بلغة أخرى . وسيكون هذا سهلاً عليّ في كل مكان طالما أنني لست من أهل الوظائف ، وبحكم كوني بروتستانتيّاً ، وسأكون عندئذ خليقاً أن استمتع

بالإعجاب على نحو أكثر نقاءً وشمولاً . وكنت لا أكاد أخفي عن الرجل الطيب أي عبء ثقيل كان يزيحه إقناعُه عن قلبي وكنت ازداد ارتياحاً في سريرة نفسي مع كل حجة جديدة يدلي بها لكيلا صفوي برفضه أو يغضبني ، وكذلك كان الأمر بالقياس اليه آخر الأمر أيضاً حين لم أبادر الى الرد على حججه بشيء ، على غير توقّع ، بل وجدتها بالأحرى فائقة في هدايتها ووعدته أن أتصرف في كل شيء تبعاً لنصيحته وتوجيهه . وجلست الآن من جديد مع أستاذي المعيد ، وتم اختيار الموضوعات وطبعها(١) ، وسارت المناقشة سيراً عابراً ، في وجه معارضة رفاق مائدتي ، بمرح عظيم ، بل مع الاستهانة ، اذ كان تمريني القديم على النظر في «مجموعة القوانين» يواتيني الى حد بعيد ، وكان من الممكن أن أُعَدَّ إنساناً حسن الاطلاع ، واختتم الحفل بمأدبة تقليدية جيدة .

وكان والدي في هذه الأثناء مستاءً جداً لأن هذا العمل الصغير لم يطبع بصورة نظامية على أنه أطروحة ، اذ كان يأمل أن أضفي على نفسي الشرف بها عند دخولي فرانكفورت . ولذلك كان يريد لها أن تكون محققّة تحقيقاً خاصاً ، ولكنني بينت له أن المادة الموضوعة بصورة موجزة فحسب لابد لها أن تعالج بمزيد من التفصيل في المستقبل ، فرفع المخطوط لهذا الغرض بعناية ، ورأيته بعد بضع سنوات بين أوراقه .

وتم تخرجي في السادس من آب ١٧٧١(١) ، وفي اليوم التالي بعده مات شوبفلِن(٢) عن خمسة وسبعين عاماً . وكان هذا أيضاً قد أثرّ فيَّ تأثيراً خطيراً من دون اتصال مباشر: ذلكِ لأن الرجال المعاصرين لممتازين يمكن مقارنتهم بالنجوم الكبرى التي تتوجه إليها أعيننا مادامت

ماثلة في الأفق ، وتشعر أنها تستمد منها القوة والثقافة اذ ما أتيح لها أن تستقبل مثل هذه الألوان من الكمال . وكانت الطبيعة السمحة قد أضفت على شوبفلين مظهراً مرموقاً ، وقامة هيفاء ، وعينين ناطقتين ، ولساناً فصيحاً ، وحضوراً مستعذباً على الاطلاق ، على أنها لم تبخل على حبيبها بالمواهب الذهنية أيضاً . وكانت سعادته ثمرة مزايا فطرية تكوّنت بالاكتساب الهادىء . وكان من أولئك البشر السعداء الذين يميلون الى أن يجمعوا الماضي الى الحاضر ، ويعرفون كيف يربطون بين الاهتمام بالحياة ، والمعرفة التاريخية . وكان ، وهو المولود في بادن ، والناشىء في بازل ، وشتراسبورج ، ينتمي الى وادي الراين الفردسي انتماءً أصيلاً كل الأصالة ، من حيث كونه موطناً فسيح الأرجاء ، حسن الموقع ، ولما كان ينطوي على ميل الى الأشياء التاريخية والأثرية فقد كان يتناولها تناولاً مرحاً عن طريق مخيّلة موفقة ، ويتلقّاها من خلال ذاكرة مواتية ، ولما كان ذا شغف بالتعلّم والتعليم فقد سلك طريقاً في الدراسة وفي الحياة يحقق التقدم على نحو مطرد . فهو يبرز ويلمع نجمه في أجل قريب دونما تعثر من أي نوع كان ، وينتشر أثره بسهولة في العالم الأدبيّ وفي عالم المدينة . لأن المعارف التاريخية تغني حيثما كانت ، والبشاشة تليق بكل مكان ، ويتجوّل في أرجاء ألمانيا ، وهولندا ، وفرنسا ، وايطاليا . ويتصل بكل علماء عصره ، ويسلّي الأمراء ، ولا يُثْقِل على رجال البلاط إلاّ حين تطول على المستمعين ، بفعل فصاحته الحيّة ، ساعات المائدة ، وفي مقابل ذلك يكتسب ثقة رجال السياسة ، ويجد بذلك في كل مكان مسرحاً لاستعراض مواهبه ولطالما رغب القوم في التمسك به في بعض الأماكن ، ولكنه يظل على اخلاصه لشتراسبورج وللبلاط الفرنسيّ . وهناك أيضاً

يُعتَرَف برسوخ قدمه في البلاغة الألمانية ، ويحميه القوم حتى من القاضي القوي كْلِنْجْلِن (١) الذي كان يناصبه العداء في الخفاء . ولمّا كان اجتماعياً ذَرِبَ اللسان بفطرته ، فقد كان يحقق التقدم في مخالطة الناس أيضاً مثلما يحققه في المعرفة والأعمال ولم يكن الناس يعرفون من أين تهيأ له كل الوقت ؛ ولا كنا نعرف أن نفوراً من النساء كان يصحبه خلال حياته كلها ؛ فكان يكسب من وراء ذلك قدراً غير قليل من الأيام والساعات التي يبددها المولَعون بالنساء تبديداً سعيداً .

وكان ينتمي ، فيما عدا ذلك ، وبحكم كونه كاتباً ، الى النظام العام ، وبحكم كونه خطيباً ، الى الجمهور ، وكانت برامجه ، وخُطَبه ، وأحاديثه مكرّسة لليوم الخاص ؛ للاحتفال الذي آذن بالابتداء ؛ بل كان عمله الكبير « الألزاس المصورة » يتناول الحيـاة التي يبتعث فيها الماضي من جديد ، ويبعث النضارة في الشخصيات التي عراها الذبول ، ويبعث الحياة من جديد في الحجر المنحوت المتشكل ؛ ويضع النقوش الكتابية المضمحلّة المهشّمة مرة ثانية أمام الأعين ؛ وأمام عقل القارىء . وعلى هذه الطريقة يغطي نشاطه الالزاس وما جاورها ؛ وفي بادن وبفالتس يحتفظ بنفوذ مستمرّ ، وفي مانهايم يؤسس أكاديمية العلوم ، ويظل رئيساً لها حتى وفاته .

ولم أُقاربْ هذا الرجل الممتاز قطُّ إلاّ في ليلة في الليالي ، حين كنا نحمل إليه قبضة المشعل الصغيرة . وكانت نيران الاسفلت في مشاعلنا تملأ فناء المبنى الوقفيّ القديم الذي تغطيه أشجار الزيزفون كالقبّة ، بالدخان أكثر مما تضيئه . وبعد انتهاء صخب الموسيقا نزل الينا ، وظهر بيننا ، وهنا كان في مكانه حقاً . ووقف الشيخ المرح ناحل الطويل العود أمامنا مهيباً في سَمْتٍ طَلْقٍ رشيق ، وألقى

فينا كلمة مترويّة قيمة بما فيه الكفاية ،من دون أثر لافتعال أو تحذلق، في لهجة أبوية حميمة ، حتى لقد خيّل الينا في هذه اللحظة أنه يعاملنا كما يعامل الملوك والأمراء الذين طالما أُثِر عنه الحديث اليهم أمام الملأ . وأعربنا عن سرورنا بصوت بالغ الارتفاع ودوّت أصوات الأبواق والطبول مراراً ، وانفرط عقد الجامعيين الاحبّة المفعمين بالآمال متفرقين الى منازلهم وقد اطمأنت نفوسهم .

وكان لتلميذَيْه ورفيقَيْ دراساته ، كوخ(١) وأوبرلين(٢) علاقة وثيقة بي . وكنت أنطوي على وَلَع جارف بالأطلال القديمة ، وتركاني أزور المتحف مراراً ، وهو الذي كان يتضّمن المستندات الخاصة بكتابه الكبير عن الإلزاس من وجود عديدة ، بل انني لم أتعرّف على هذا السِفْر عن كثب إلاّ بعد تلك الرحلة ، حيث كنت ما أزال أجد الآثار في مكانها ، وغدا في وسعي الآن ، وأنا أجد التشجيع الكامل ، أن أجسّد لنفسي ، في النزهات الكبيرة والصغيرة ، وادي الراين الذي كان أحد الممتلكات الرومانية ، وأرسم بعض الأحلام في اليقظة عن الزمن السالف .

ولم أكد أحرز بعض التقدم في هذا الصدد حتى دلّني أوبرلين على بعض معالم العصر الوسيط ، وعرفني على الخرائب والأطلال والأختام والوثائق التي كانت ماتزال باقية حتى ذلك الوقت ، بل حاول أن يبثّ في نفسي ميلاً الى من يسمون بالشعراء الجوّالين وشعراء الملاحم البطوليه . . وقد غدوت مديناً بالكثير لهذا الرجل الطيب ، وكذلك للسيد كوخ ، ولو أن الأمور سارت على وَفْق إرادتهما ورغبتهما لكان لابد لي أن أدين لهما بسعادة حياتي . ولكن الأمور سارت على النحو التالي .

كان شوبفْلِنْ ، الذي كان يتقلّب في الأوساط العليا الخاصة بالقانون العام طوال حياته ، ويعرف حق المعرفة النفوذ الكبير الذي تعد أمثال هذه الدراسات وما يتصل بها ملائمة لتحقيقه في بلاط الملوك ومجالس الوزراء بالقياس الى عقل يتمتع بالكفاءة ، يشعر بنفور لايقاوم من حالة أهل القانون المدني ، وقد أدخل الفكرة ذاتها في عقول أتباعه . وقد تعرّف عليّ كلا الرجلين المذكورين آنفاً ، وأصدقاء زالتسمَن ، بطريقة ودية لطيفة . وكانوا يقدّرون التناول الحماسيّ للموضوعات الخارجية ، وأسلوب العرض الذي كنت أعرف كيف أبرز بوساطته مزايا تلك الموضوعات وأبعث فيهم اهتماماً خاصاً بها ، تقديراً أكثر من تقديري . ولم يكن اشتغالي الضئيل بل الهزيل بالقانون المدني ، ليظل غائباً عن أذهانهم . فقد كانوا يعرفونني بما يكفي ليعلموا الى أي حد يسهل التأثير عليّ . ولم أكتم أيضاً ولعي بالحياة الجامعية . وكانوا يفكرون من أجل ذلك في أن يميلوا بي صوب التاريخ ،والحقوق الدستورية والبلاغة ، بصورة عابرة أول الأمر ، ثم بصورة أكثر حسماً . وكانت شتراسبورج ذاتها تهيء مزايا كافية . وكان من المفروض أن يجتذبني الأمل في القنصلية الألمانية في فرساي ، وسابقة شوبفلِن الذي كانت منزلته تبدو لي بالطبع منزلـــة لاسبيل الى بلوغها ، لاتقليداً في الحقيقة ، بل اقتداء ، وربما للوصول عـــن هذا الطريق الى موهبة مماثلة في الثقافة يمكن ان تكون ذات نفع سواء لمن يحق له أن يفخر بها أم للآخرين الـــذين يفكرون في استعمالها لذاتها . وكـــان أولياء نعمي هؤلاء ، ومعهم زالتسمن ، يعلقون قيمة كبرى على ذاكرتي

وعلى مقدرتي على الإحاطة بروح اللغات، ويحاولون بذلك في المقام الأول أن يبرّروا رغباتهم ومقترحاتهم .

أما كيف لم يسفر هذا كله عن شيء ، وكيف اتفق أنني انتقلت من جديد ، من الجانب الفرنسي الى الجانب الألماني ، فذلك ما أفكر في عرضه هنا . ولكن ليسمح لي القارىء ، كعهده حتى الآن ببعض النظرات العامة من أجل الانتقال .

فهناك القليل من السِير التي يمكن أن تصوّر تقدما للفرد بحتاً ، هادئاً ، ثابتاً ، فحياتنا ، كالمجموع الذي نحن متضمّنون فيه ، مركّبة بطريقة لاسبيل الى ادراكها ، من الحرية والضرورة(١) . وما نريده انما هو اعلان مُسبَق عما سوف نعمله مع كل الظروف . ولكن هذه الظروف تؤثر فينا بطريقتها الخاصة . وعلى حين تكمن الماهية(٢) فينا ، فان الكيف قلّما يرتبط بنا ، ولا يجوز لنا أن نتساءل عن العلة ، ومن أجل ذلك يدلنا الناس على السببيّة .

لقد كانت اللغة الفرنسية عزيزة عليّ منذ الصبا . وكنت قد تعرفت عليها في حياة أكثر نشاطاً ، وتعرّفت من خلالها على حياة أكثر نشاطاً،واكتسبتها من دون قواعد وتعليم ،عن طريق المعاشرة والمران لتكون بمثابة لغةٍ أمّ ثانية . وصرت أود الآن أن استخدمها بطلاقة أكبر ، ومن أجل ذلك فضّلتُ شتراسبورج مكاناً للاقامة الجامعية المتكرّرة ،على المعاهد العالية الأخرى.ولكن كان مقدّراً لي ، مع الأسف ، أن أشهد نقيض آمالي ، وأن أنصرف عن هذه اللغة وهذه العادات أكثر من أن اتجاهي اليها .

على أن الفرنسيين الذين يبذلون الجهد من أجل السلوك الحسن على نحو مطلق ، يتحلّوْن بالصبر تجاه الأجانب الآخذين في التحدّث

بلغتهم ، فليس من شأنهم أن يضحكوا من أحد لأي خطأ ، أو يلووه على ذلك من دون مداراة. ولكن لمّا كانوا لايحتملون مع ذلك اقتراف الأخطاء في لغتهم فانهم يلجأون الى أسلوب تكرار ما يقول المرء بذاته ، ولكن بوجه آخر ، كأنهم يؤيدونه تأييداً مهذّباً ، وهم يستعملون في ذلك التعبير الحقيقي الذي كان المرء خليقاً أن يستعمله ، وعلى هذا النحو يوجّهون الخبير والنبيه الى ما هو صحيح وملائم .

ومهما يكن ما يحققه المرء من كسب وتقدّم ، حين يكون جادّاً في الأمر ، وحين يتحلّى بنكران الذات ، ليضع نفسه موضع التلميذ ، فانه لابد له مع ذلك أن يشعر دائماً بالهوان الى حدّ ما . ولما كان المرء يتعرّض ، وهو يتحدث عن المسألة من المسائل ، للمقاطعة ، بل الى تحويل وجهة الحديث ، في كثير من الأحيان ، فانه يدع الحديث ينقطع وقد عيل صبره . وكان هذا يصادفني أنا بوجه خاص من دون الآخرين ، اذ كنت أعتقد دائماً أنني أدلي بشيء هام ، ولكني كنت أريد أيضاً أن أسمع مقابل ذلك شيئاً هاماً ، وليس مجرد اعادتي دائماً الى التعبير ، وتلك حالة كانت ترد عندي كثيراً ، لأن فرنسيّتي كان أكثر بَهْرَجَةً من فرنسية أي غريب آخر . وكنت ألاحظ العبارات الاصطلاحية والنبرات على ألسنة الخدم والأتباع والحرس ، وصغار الممثلين وكبارهم ، وهواة المسرح ، والفلاحين والأبطال ، وكان مقدراً لهذه اللهجة المختلطة ، كلغات برج بابل أن تزداد اختلاطاً بفعل عنصر أساسي عجيب ، اذ كان يسرّني أن أستمع الى رجال الاصلاح الدينيّ الفرنسيين ، وكان يزيدني ميلاً الى زيارة كنائسهم أن رحلة النزهة في يوم الأحد الى بوكنهايم لم تكن تغدو مسموحاً بها

فحسب ، بل كانوا يوصوننا بها . ولكن لم يكن مقدّراً أن يكون الأمر كافياً عند هذا الحد : وذلك لأنني لمّا كنت في سنوات الصبا ازداد شيئاً فشيئاً اعتماداً على ألمانيّة القرن السادس عشر فقد أدخلت بسرعة كبيرة فرنسيي تلك الحقبة الرائعة في هذا الميل أيضاً . وكان مونتانيي(١) ، وأميو ، ورابليه ، ومارو ، أصدقائي ، وكانوا يبعثون لديّ الاهتمام والإعجاب . وكانت كل هذه العناصر المختلفة تتقلّب الآن في حديثي مختلطاً بعضُها ببعض اختلاطاً فوضوياً بحيث كان يضيع على المستمع في معظم الأحيان الغايةُ المتصلة بالتعبير الرائع ، بل ان الفرنسيّ المثقف ما عاد يوجهني بأدب ، بل كان يضطر الى أن ينحي عليّ باللائمة ويعلمني تعليم المعلم للتلميذ . وإذاً فقد كانت الأمور تسير بالقياس اليّ هنا كما كانت في لا يبتسج من قبل . إلاّ أنني لم أكن أستطيع هذه المرة أن أعود الى الحديث ذي اللهجة المحلية(٢) بما يصح في مسقط رأسي مثلما يصح في أقاليم أخرى . بل كان من المفروض أن أمتثل هنا ، على الأرض الغريبة ، للقواعد المألوفة » .

وربما كنا خليقين أن نسلّم بهذا أيضاً لولا أن داهيةً من الخبثاء نفث في آذاننا ان كل جهود الأجنبي من أجل الحديث بالفرنسيّة ستظل على الدوام بغير نجاح ؛ لأن الأُذُن المُدَرَّبة تميّز الألمانيّ والإيطالي ، والانكليزي ، من وراء قناعه الفرنسي تمييزاً دقيقاً للغاية . وقد يتحمّل القومُ الواحد منا تحمّلاً ، ولكنه لايحظى بحال من الأحوال بالقبول في أحضان الكنيسة المفتونة و حدها بلغتها .

ولم يكن القوم يسمحون إلا باستثناءات قليلة . وكانوا يطلقون علينا اسم السيد جريم(٣) ، ولكن كان يقال ان شوبفلن نفسه لم يبلغ

الذروة، وكانوا يسلمّون بأنه قد أدرك في وقت مبكر ضرورة التعبير عن نفسه بفرنسية كاملة ، ويقرون ميله الى الإفضاء بما في نفسه الى كل انسان ، ولا سيما منادمة الكبار والنبلاء ، بل كانوا يحمدون له أنه كان يسعى ، وهو في الميدان الاستعراضي الذي كان فيه ، الى أن يجعل من لغة الاقليم لغةً له وأن يجعل من نفسه قدر الإمكان نديماً وخطيباً فرنسياً . ولكن ما عسى أن يجديه التنكرّ للغته الأم ، والسعي الى لغة غريبة؟فليس بمستطيع أن يصنع ذلك على وجهه الصحيح أمام أحد من الناس . فالناس سيجدونه مغروراً في المجتمع ، وكأن أحداً يريد،ويستطيع أن يفضي بما في نفسه الى الآخرين من‌دون احساس بذاته أو زهو بنفسه ! ثم ان الخبراء في الحياة واللغة كان يؤكدون انه يناقش ويحاور أكثر مما ينادم . وكان ذاك يعترف به خطأ متوارثاً أساساً عند الألمان ، كما يعترف بهذا بوجه عام على أنه فضيلة رئيسية للفرنسيين . وليس هناك أفضل من ذلك بالقياس اليه خطيباً عاماً . واذا ما طبع كلمة الى الملك أو الى الأمراء انتبه اليها اليسوعيون الذين كانوا ينقمون عليه ، وكشفوا عما هو مجانب للنزعة الفرنسيّة في عباراته .

وبدلاً من أن نتعزّى بذلك ، وأن نحتمل ما هو غث في سبيل ماتحته من ثمين ، كان يثير غيظنا مقابل ذلك هذا التحيّز المتحذلق ، والأحرى أننا نرتاب في هـذا المثال الذي يلفت النظر ، ونستيقن منه ، وهو أن من الجهد الذي لاطائل تحته أن ترضي الفرنسيين من خلال القضية ، لأنهم يتعلقون بالشروط الظاهرية التي ينبغي أن يظهر بها كل شيء ، تعلّقاً مفرطاً في الدقة . ومن أجل ذلك نتخذ

قرارنا المضاد برفض اللغة الفرنسية جملةً ، ونتجه أكثر مما كنا نفعل حتى الآن ، نحو اللغة الأم ، بعزم وحزم .

وكنا نجد في الحياة فرصة لذلك واهتماماً به . ولم تكن الالزاس بعدُ مرتبطة بفرنسا منذ عهد بعيد بما يكفي لكيلا يبقى عند الكبار والصغار تعلّق حميم بالقوانين والتقاليد واللغة والزيّ . وحين يفقد المغلوب نصف وجوده مضطراً يرى من العار أن يتخلّى عن النصف الآخر بمحض ارادته . ولذلك يتمسك بكل ما يمكن أن يبتعث الأيام الماضية الطيبة ويقرّب الأمل في عودة حقبة سعيدة . وكان كثير من سكان شتراسبورج يشكلون محافل صغيرة منعزلة في الحقيقة ولكنها مترابطة مع ذلك من حيث الجوهر ، وكانت تزداد على الدوام عدداً وتعبئة عن طريق الكثير من رعايا الأمراء الألمان الذين كانوا يملكون مساحات شاسعة من الأراضي تحت السيادة الفرنسية : وذلك لأن الآباء والأبناء كانوا يقيمون في شتراسبورج أوقاتاً تطول أو تقصر بسبب الدراسة أو العمل .

وكنا لا نكاد نتحدث بشيء عند المائدة كما نتحدث بالألمانية . وكان زالتسمن يفصح عما في نفسه بالفرنسية بكثير من الطلاقة والأناقة ، ولكنه كان من حيث الطموح والفعل ألمانياً كاملاً على نحو لا جدال فيه . وكان في وسع المرء أن يتخذ من ليرسه أنموذجاً للفتى الألماني . أما ما يَرْفون ليندأوْ فكان الحديث المتعثر بالألمانية أحبَّ اليه من أن يقتصر على الفرنسيّة السليمة . ولئن كان بين الباقين أيضاً بعضُ من يميل الى اللغة والتقاليد الغاليّة فقد كانوا مع ذلك يدّعون الجوّ العام يهيمن علينا ما داموا معنا .

وانصرفنا عن للغة الى شؤون الدولة . والحق أننا لم نكن نعرف كثيراً مما يستحق الثناء عن قوانين مملكتنا . وكنا نسلّم بأنها تتألف من عدد من ضروب الشطط والتجاوز في القوانين ، ولكنها كانت ترتقي بنا أكثر من القوانين الفرنسية الحاضرة التي كانت تختلط في صورة طائفة من أشكال التجاوز التي لا قانون فيها . والتي لم يكن من الممكن أن يرى لحكمها مفعول إلاّ في المكان الخاطىء ، ولم يكن له بدٌّ من أن يفسح المجال للتنبّؤ علانية بتغيير كامل للأشياء ، ومن خلال نظرات مستقبليّة سود .

وكنا اذا ما نظرنا في مقابل ذلك نحو الجنوب بعث الينا فريدريش ، النجم القطبيّ ، بضوئه من هناك ، اذ كان يبدو أنه يستقطب ألمانيا وأوروبا ، بل العالم . وقد تجلى رجحان كفته في كل شيء تجلّياً متناهياً في شدته حين تقرّر ادخال التدريب البروسي وحتى نظام أركان الحرب البروسي في الجيش الفرنسي . وكنا نغفر له آخر الأمر إيثاره للّغة الأجنبيّة ، فقد كنا نحسّ بارتياح اذ كان شعراؤه وفلاسفته وأدباؤه الفرنسيّون ماضين في إثارة استيائه ، وكانوا يعيدون عليه القول انه لايمكن أن ينظَر اليه ويعامل إلاّ على أنه غاصب دخيل .

على أن ما كان يباعد بيننا وبين الفرنسيين مباعدة أشدّ من ذلك انما كان الادعاء المتكرّر في غير تهذيب ، ومفاده أن الألمان على اطلاقهم وفيهم الملك المتطلع الى الثقافة الفرنسيّة ، يفتقرون الى الذوق . وكنا نحاول أن نهدىء أنفسنا حيال هذا التعبير الذي كان يلحق بكل حكم كاللاّزمة ، عن طريق اللامبالاة ، ولكن لم يكن في وسعنا أن نستجلي الأمر حين أراد القوم أن يؤكدوا لنا أن ميناج نفسه قد قال ان الكتاب الفرنسيين يملكون كل شيء إلاّ الذوق ، مثلما عرفنا نحن أيضاً عن

باريس المعاصرة الآن أن أحدث الكتاب يفتقرون جميعاً الى الذوق ، وأن فولتير نفسه لايستطيع أن يفلت تماماً من هذه النقيصة المتناهية في فداحتها . ومن أجل ذلك كنا لانريد ، ونحن نلجأ الى الطبيعة من قبل ، وعلى نحو متكرر ، أن نولي تقديراً لشيء سوى الحقيقة والصدق في الشعور ، وكان التعبير السريع الجريء عن ذلك الشعور :

الصداقة ، والحب ، والأخوة(١) ،

أوليست هذه بالتي تنشِد نفسها بنفسِها ؟

كان هذا الشعار وصيحةَ الميدان التي اعتاد أعضاء زمرتنا الجامعية الصغيرة أن يتعرّف بعضهم على بعض بها وينعشوا أنفسهم . وكانت هذه المبادىء كامنة في أساس كل المآدب الاجتماعية التي لم يكن ابن العم ميشيل (٢) ليقصرّ في زيارتنا في اثناءها بالطبع ، في بعض الأمسيات ، بألمانيته المعروفة .

واذا شاء المرء ألاّ يجد فيما سرد حتى الآن ، إلاّ بواعث خارجية قائمة على المصادفة ، وخصوصيات شخصية ، فقد كان الأدب الفرنسي في حد ذاته يتسم بخصائص معينة لم يكن لها بدٌّ أن تصدم الفتى أكثر مما تجتذبه . وذلك أنة كان أدباً متقادماً ، ارستقراطياً ، ولا يستطيع الشباب الباحث عن المتعة وعن الحرية أن يجد التسلية عن طريق أيّ من هاتين السمتين .

ولم يكن أحد قد رأى مسارالأدب الفرنسيّ يتعرّض قط لانقطاع كامل منذ القرن السادس عشر ، بل كانت الاضطرابات الداخلية ، السياسية والدينية تزيد من سرعة خطوات تقدمه شأن الحروب الخارجية . ولكن كنا نسمع من يزعم بصورة عامة أنه ظّل ثابتاً في ازدهاره

الكامل منذ مائة عام ، وأن الظروف المواتية أنضجت محصولاً وفيراً مرة واحدة وخرجت به على نحو موفّق الى درجة أن المواهب الكبرى في القرن الثامن عشر تضطر الى الاكتفاء بقراءة لاحقة واحدة اضطراراً يمليه التواضع فحسب .

ومع ذلك فقد كان هناك كثير من الأمور التي تقادمت ، وفي طليعتها الملهاة التي لم يكن لها بدٌّ من اعادة النضارة اليها المرة بعد المرة لتتلاءم مع الاهتمام الجديد ومع الحياة والتقاليد الجديدة ، وان كان ذلك على صورة أقل كمالاً في الحقيقة . وكان كثير من التراجيديات قد اختفى من المسرح ، ولم يدع فولتير الفرصة الهامة السانحة الآن تفلت من يديه ليحقّق أعمال كورني(١) ، وذلك ليظهر كم كان سلفه مقصّراً ، وهو الذي كان عامّة الناس يرون أنه لم يبلغ شأوه .

وحتى فولتير هذا ، وهو أعجوبة زمانه ، غدا الآن متقادماً كالأدب الذي ظل قرناً من الزمان يبثّ فيه الحياة ويهيمن عليه . وكان يوجد الى جانبه ، ويعيش حياة خاملة بعدُ ، كثير من الأدباء ، في سن يتراوح نشاطها وحظها من التوفيق بين الزيادة والنقصان ، وقد تواروا شيئاً فشيئاً . وكان تأثير المجتمع على الأدباء يزداد زيادة مطردة . ذلك لأن المجتمع الأفضل ، الذي يتألف من شخصيات ذات حسب ومكانة وثروة ، كان يتخذ من الأدب تسلية رئيسية له ، وقد غدا الأدب بذلك اجتماعياً وارستقراطياً بصورة كاملة . وكانت شخصيات الطبقة الراقية ، والأدباء تتشكّل على نحو متعاقب ، ولم يكن بد لهؤلاء من أن يعدل بعضهم صورة بعض على نحو متعاقب . ذلك لأن كل ما هو ارستقراطيّ انما هو في الحقيقة رافض ، وكذلك غدا النقد الفرنسيّ رافضاً أيضاً ، بل جاحداً ،

متنقصاً ، مسيئاً في الكلام . وكانت الطبقة العليا تستخدم مثل هذه الأحكام في وجه الكتاب ، وكان الكتاب يتصرفون على هذا النحو مع قَدْر أقل من التهذيب ، فيما بينهم ، بل في وجه رُعاتِهم ، ولئن كان القوم لايستطيعون التأثير في الجمهور فقد كانوا يحاولون أن يباغتوه ، أو يستميلوه الى جانبهم عن طريق الزلفى . وهكذا نشأ ، بصرف النظر عن ذلك ، ما كان يبعث الحركة في أعمق أعماق الكنيسة والدولة ، انه التخمرُّ الأدبي الذي بلغ منه أن فولتير نفسه احتاج الى فعاليته الكاملة ، وكل وزنه الراجح ليظل عائماً فوق تيّار الاستخفاف العام . بل بلغ من ذلك أنه سُمِّيَ طفلاً عنيداً عجوزاً ، وجعل الناس ينظرون الى جهوده المتصلة بغير كلال على أنها طموح مغرور لشيخوخة وليّ عهدها ، وغدا الناس يأبون أن يقدّروا بعدُ مبادىء معينة ظل يتمسك بها طوال عمره ، وكرّس أيامه من أجل انتشارها . بل أبى القوم أن يلقوا بالاً الى الهه الذي كان يواصل التبرّؤ من كل صبغة إلحادية بوساطته . وهكذا كان لابد له ، وهو الأب الأكبر ، والبطريرك شأنه في ذلك شأن أصغر دعاته ، أن ينتبه الى اللحظة الحاضرة ، وأن يقتنص الفرصة المستجدّة ، وأن يفرط في اسداء الجميل لأصدقائه ، والتصديّ بالسوء لأعدائه ، وأن يتصرّف ، تحت ستار الطموح الجنونيّ القائم على حب الحقيقة ، تصرفاً زائفاً وباطلاً . فهل كان مما يستحق العناء أن يعيش المرء حياة نشيطة كبيرة كهذه اذا كان مقدَّراً له أن ينتهي وهو أكثر ارتباطاً منه حين بدأ ؟ أما الى أيّ مدى كان مثل هذا الظرف لايطاق فذلك ما لم يكن يغيب عن ذهنه السامي واحساسه المرهف ، وكان في بعض الأحيان يتنسّم الهواء بالوثبة والصدمة ، ويطلق لمزاجه العنان ، ويتخطى الحدود ببعض المناورات

التي كان الأصدقاء والأعداء يعربون عن استيائهم منها : لأن كل امرىء كان يعتقد أنه يعرفه كل المعرفة على الرغم من أنه ما من أحد كان يستطيع أن يصنع صنيعه . على أن الجمهور الذي لايسمع دائماً إلاّ أحكام الشيوخ يسهل عليه كثيراً أن يغدو من ذوي النضج المبكّر ، وليس هناك شيء أقلّ جدوى من حكم ناضج اذا ما تبنّاه عقل غير ناضج .

أما نحن ، معشر الفتيان الذين كانت الاستقامة مع أنفسنا ذاتها ومع الآخرين ماثلة نصب أعيننا دائماً ، اذ كانت لنا خير رائد في الحياة والدرس ، في عالم ألماني يقوم على حب الطبيعة وحب الحقيقة ، فقد كان التحيز الحزبي عند فولتير ، وتشويه هذا القدر الكبير من الموضوعات ذات الشأن يزيد من استيائنا على نحو مطرد . وكان بعضنا يشد أزر بعض كل يوم في الإعراض عنه ، ولم يكن يرتوي غليله قط من الحط من مكانة الدين والكتب المقدسة التي أُسِّسَ عليها ، سعياً في ايذاء من يسمون بالقساوسة ، مثيراً بذلك بعض الأحاسيس المزعجة . ولكن حين سمعت الآن أنه لكي يدحض رواية الطوفان أنكر كل القواقع المتحجّرة ، وعدَّ مثل هذه الأشياء من ضروب عبث الطبيعة ، فقد ثقتي كلها ، اذ كان قد تبيّن لي ، بأم عيني ، وبالوضوح الكافي ، وأنا في باستبرج ، أنني موجود على قاع البحر القديم الذي جفّ ، تحت الجلود المتسلّخة من سكانه الغابرين.أجل ، لقد كانت هذه الجبال تغشاها الأمواج . أما أن ذلك كان قبل الطوفان أو في أثنائه فما كان لذلك أثر عندي ؛ وحسبي أن وادي الراين كان بحراً هائلاً ، خليجاً لايحيط به البصر ؛ وما كان لأحد أن يصرفني عن هذا الاقتناع .

بل كنت اعتزم المضيّ في معرفة البلدان والجبال مهما تكن النتائج الناجمة عن ذلك .

واذاً فقد كان الأدب الفرنسيّ متقادماً وارستقراطياً ، في حد ذاته ، وبفعل فولتير ، ولْنَتَسُقْ في صدد هذا الرجل الذي يستوقف النظر بعض الملاحظات الأخرى !

لقد كانت رغبة فولتير وجهده يتجهان منذ صباه الى الحياة العملية والاجتماعية ، الى السياسة والى الكسب على النطاق الواسع ، والى العلاقة بحكام الأرض والى الاستفادة من هذه العلاقة لكي ينتمي هو نفسه الى حكام الأرض . ولم يستسهل أحد أن يجعل من نفسه مرتبطاً كل هذا الارتباط في سعيه الى أن يكون مستقلاً . وقد أتيح له أيضاً أن يستعبد العقول ، وسقطت الأمم في يده ، وعبثاً كان مناوئوه يخرجون عليه بمواهب متواضعة ، وكراهية هائلة . فما كان ثمة شيء ينال منه . والحق أنه لم يستطع قط أن يتصالح مع البلاط ، ولكن الملوك الأجانب دانوا له مقابل ذلك . فقد كانت كاترينا ، وفريدريك الأكبر ، وجوستاف ملك السويد ، وكريستيان ملك الدانمرك ، وبونياتوفسكي ملك بولونيا ، وهاينرش ملك بروسيا ، وكارل أمير براونشفايج ، يعلنون ولاءهم له . بل ان البابوات كانوا يرون أنه لابد لهم أن يتألّفوه بشيء من التسامح . أمّا أن جوزيف الثاني كان يجافيه فلم يكن في ذلك فخر لهذا الأمير ، فما كان مما يلحق الأذى به وبمشروعاته أن يكون أكثر تجمُّلاً وأكثر تقديراً للفكر .

على أن ما أسوقه هنا مقتضباً ضمن سياق معين كان له في ذلك الزمان ، اذ كان يمثل مجد اللحظة الحاضرة ، والتعارض القائم على الصراع الأبدي ، وَقْعٌ في آذاننا كوقع الأشياء التي لا رابطة بينها ، ولا

عبرة فيها . وكان الناس ما يفتأون يسمعون الثناء على الأجداد ، وكانوا يطالبون بشيء حسن ، جديد ، ولكنهم كانوا يرفضون الأجَدّ دائماً . فلم يكد أحد الوطنيين يصور موضوعات فرنسية وطنية ترتقي بالوجدان على المسرح الذي اعتراه الجمود منذ عهد طويل ، ولم تكد مسرحية «حصار كالية(١)» تحظى باعجاب حماسي حتى قُدر لهذه المسرحية ذاتها ، هي وشخصياتها الوطنية ، أن تكون فارغة وعُرْضَة للانتقاص من كل وجه . وجعل القوم يعدّون ألوان الوصف عند ديتوش(١) ، وهي تلك التي طالما كنت أتسلّى بها وأنا غلام ، ضعيفة ، وغدا اسم هذا الرجل المجيد باهتا . وكم من كتاب آخرين كنت أضطر ألاّ أذكرهم لكيلا أضطر بسببهم الى أن احتمل أن يؤخذ عليَّ أنني أحكم على الأمور بمقاييس القرويين اذا ما أظهرت أي اهتمام بأمثال هؤلاء الرجال وأعمالهم في وجه من كان يجري وراء أحدث التيارات الأدبية .

وهكذا كنا نغدو بالقياس الى الرفاق الألمان الآخرين أكثر إثارة للاستياء على نحو مطرد ، وكنا نحب ، تبعاً لأفكارنا وفطرتنا الخاصة ، أن نتمسك بانطباعات الأشياء ، وألاّ نعالجها إلاّ ببطء ، وألاّ ندعها تذهب ، إذا لم يكن بدٌّ من ذلك ، إلاّ متأخرة قدر الإمكان . وكنا على يقين أن المرء يستطيع ، بالانتباه المخلص ، والعمل الدؤوب ، أن يستخلص من كل الأشياء شيئاً ما ، وأنه لابدّ للمرء أن ينتهي آخر الأمر ، عن طريق الجهد القائم على المثابرة ، الى أن يصل الى نقطة يمكن عندها الإفصاح عن علة الحكم مع الحكم في الوقت ذاته . ولم يكن يغيب عن أذهاننا أيضاً أن العالم الفرنسي الكبير والرائع كان يتيح لنا بعض المزايا والمكاسب : ذلك لأن روسّو(٢) كان قد ظفر باعجابنا

حقاً . ولكن اذا تأملنا حياته ومصيره رأيناه يضطر مع ذلك الى أن يجد الجزاء الأكبر على ما أسداه في أنه أتيح له أن يعيش في باريس مجهولاً منسياً .

وكنا اذا ما سمعنا من يتحدث عن الموسوعيين(٣) ، أو فتحنا مجلداً من عملهم العملاق خُيِّل الينا كأن المرء يدخل متجولاً بين البَكَرات المتحركة والأنوال التي لاتحصى في معمل كبير ، وكأنه يشعر ، أمام هذا القدر من الدويّ والهدير ، وأمام هذه الآليّة التي تصيب كل عين وفكر بالدُوار ، وأمام هذا الذي يمتنع ادراكه من المنشأة التي يتداخل بعضها في بعض بأشد الطرق تعقيداً ، وهو يتأمل كل ما يقتضيه صنع قطعة من القماش ، بأنه يلحق الأذى بثوبه الذي يحمله على جسده .

وكان ديدرو(٤) وثيق الصلة بنا الى حد كاف ، اذ كان كشأنه في كل ما كان الفرنسيون يأخذونه عليه ، ألمانياً أصيلاً . ولكن موقفه كان أعلى ، وكان مجال بصره أوسع من أن نستطيع أن نضع أنفسنا على صعيد واحد معه ، ونتبوّأ مكاننا الى جانبه . ومع ذلك فقد كان «أولاده الطبيعيون» الذين عرف كيف يبرزهم ويضفي عليهم النبالة بالفن البلاغي الكبير ، يحظون باعجابنا الى حد بعيد ، وكان لصوصه المتوحشون ومهرّبوه أولو الجرأة يفتنوننا ، وقد استفحل أمر هؤلاء الصعاليك فيما بعد على البرناس الألماني استفحالاً شديداً . وكذلك كان هو أيضاً ذلك الذي كان ينشر ، مثل روسّو ، مفهوماً عن الحياة يثير النفور ، توطئة هادئة لتلك التغييرات الهائلة في العالم ، التي كان يبدو كل ما كان قائماً فيها آخذاً في الاضمحلال .

ومع ذلك فقد يحسن بنا أن نـدع هذه التأملات جانباً ، وأن نلاحـظ

ما أحدثه كلا الرجلين المذكورين من أثر في الفن . وهنا أيضاً كانا يوجّهان نحو الطبيعة ، وكانا يصرفاننا عن الفن الى الطبيعة .

وإنما تتمثل الرسالة الأسمى لكل فن في أنه يقدم ، عن طريق البريق ، تخييلاً لواقع أعلى ، ولكن من الطموح الخاطىء أن يحقق الفن البريق مدة تطول الى حد لايبقى معه في النهاية إلاّ واقعيٌّ مبتذل .

وكان المسرح قد وصل ، من حيث كونه المحل المثاليّ ، عن طريق تطبيق قوانين المنظور على الأجنحة الخلفية(١) المرصوفة بعضها وراء بعض ، الى أعلى المزايا ، وكان الناس يريدون الآن أن يتخاوا عن هذا الكسب بجرأة ، وأن يوصدوا جوانب المسرح ، وأن يشكلوا جدراناً حقيقية بين الحجرات ، وأن ينسجم فن التمثيل عند الممثلين ، وينسجم كل شيء على الإجمال ، وأن ينبثق بذلك مسرح جديد كل الجدة .

وكان الممثلون الفرنسيون قد بلغوا في ملهاتهم ذروة الأصالة الفنية(١) ، وكانت الإقامة في باريس وملاحظة المظهر الخارجي لرجال البلاط وأحوال الممثلين والممثلات من خلال العلاقات الغرامية مع الطبقات الأعلى ، كل ذلك كان يسهم في زرع أعلى ما في الحياة الاجتماعية من ضروب البراعة والحذق ، في المسرح ، بالصورة ذاتها . ولم يكن لأصدقاء الطبيعة الا القليل مما ينتقدونه في هذا السبيل . ومع ذلك فقد كانوا يعتقدون أنهم يقومون بخطوة كبرى الى الأمام اذا ما اختاروا لمسرحياتهم موضوعات جدّية ومأساوية مما لم تكن الحياة المدنية ذاتها تفتقر اليه ، واستخدموا النثر على النحو ذاته من

---

(١) الكواليس

أجل تعبير أعلى ، وكانوا بذلك يخرجون ، شيئاً فشيئاً ، الأشعار المجانبة للطبيعة مع ضروب الالقاء والإيماء المجانبة للطبيعة في الوقت نفسه .

وكان أشد ما يلفت النظر ، ولا يُلاحظ على نطاق عام ، أن التراجيديا في هذا الوقت ، وهي التي كانت التراجيديا القديمة المحكَمة ذاتها ، بايقاعها وغناها الفني ، وكانت تتهدّدها ثورة لم هناك سبيل الى دفعها إلاّ بالمواهب الكبرى وبسلطان النسب .

وذلك أن الممثل ليكان(١) الذي كان يقوم بأدوار أبطاله بلياقة مسرحية خاصة ، وبمهابة وقوة ، وكان ينأى بنفسه عن الطبيعيّ والمألوف، تصدى له رجل يدعى أوفريسن(٢) أعلن الحرب بكل فظاظة ، وكان يسعى في كل تمثيله المأساوي الى التعبير عن ذروة الحقيقة . ولم يتح لهذه الطريقة أن تلائم طريقة سائر شخصيات المسرح الباريسي . فظل وحده ، والتحم هؤلاء معاً . أما هو فقد آثر ، بما لديه من عناد غير قليل واصرار على اسلوبه ، أن يغادر باريس ، وأن يمر بشتراسبورن وهناك رأيناه يمثل دور أوجست في مسرحية «سِنّا (٣)» ، ودور ميتريدات ، ونحو ذلك من الأدوار الأخرى ، بأكثر أشكال النبل أصالةً وطبيعيّةً ، وقد ظهر رجلاً وسيماً طويلاً ، أقرب الى النحول منه الى القوة ، ولم يكن في الحقيقة متسماً بجلال السَمْت ، بل بالسمت النبيل الباعث على الإعجاب ، وكان تمثيله متروياً هادئاً،من دون أن يكون بارداً ، وكان قوياً بدرجة كافية ، حيثما كان الأمر يقتضي ذلك ، وكان فناناً متمرساً جداً ، وكان من أولئك القلائل الذين يعرفون كيف يحولون الفنيّ الى الطبيعة تحويلاً كاملاً ، ويعرفون كيف

يحوّلون الطبيعة الى الفن تحويلاً كاملاً . وهؤلاء في الحقيقة هم الذين تبعث مزاياهم التي يُساء فهمها نظرية الطبيعيّة الزائفة، في كل عصر .

وكذلك أريد أن أذكر أيضاً عملاً آخر صغيراً ولكنه يصمع عصراً على نحو يلفت النظر : وهو «بجماليون(٤)» . لروسووان في وسع المرء أن يفيض في الحديث عنه ، ذلك لأن هذا النتاج العجيب يبدو وكأنه يتأرجح بين الطبيعة والفن ، مع الطموح الزائف الى إذابة هذا في تلكْ . ونحن نرى فناناً أدى أكثر الأشياء كمالاً ومع ذلك فهو لايجد اشباعاً في أنه أخرج فكرته عن ذاته وصورها تصويراً فنياً وأضفى عليها حياة أعلى ، كلاّ ! إنما ينبغي لها أن تتنزّل اليه في الحياة الأرضية ، فهو يريد أن يخرّب الجانب الأعلى الذي أبدع الفكر والفعل ، عن طريق أشد الأفعال الشهوانية ابتذالاً .

وكان هذا كله ، وبعض ماعداه ، من صحيح وباطل ، وحقيقي ونصف حقيقي ، مما كان يفعل فعله في نفوسنا ، يسهم إسهاماً أكثر بعدُ في اختلاط المفاهيم بعضها ببعض . وكنا نسلك في تردّدنا بعض الطرق الفرعية والملتوية . وهكذا كان يجري التمهيد من جوانب عديدة لتلك الثورة الأدبية الألمانية(١) التي كنا شهوداً عليها ، والتي كنا نسهم في التأثير فيها على نحو متصل ، اسهاماً شعورياً أولا شعورياً : شئنا أم أبينا .

ولم يكن لدينا دافع ، ولا تعلّق بالاستنارة والتقدم على الطريقة الفلسفية . أما الموضوعات الدينية فكنا نعتقد أننا قد بلغنا فيها بأنفسنا درجة الاستنارة ، ولذلك كنا لانحفل البتة بصراع الفلاسفة الفرنسيين العنيف مع القساوسة، ولم يكن للكتب المحظورة المحكوم عليها بالنار ، والتي كانت تثير في تلك الأيام صخباً شديداً ، أثر علينا . وأنا أذكر

بدلاً من كل ذلك «نظام الطبيعة(٢)» الذي تناولناه بدافع الفضول ، ولم نكن ندرك كيف يمكن أن يكون مثل هذا الكتاب خطراً . وبدا لنا باعثاً للكآبة جداً ، مظلماً جداً(٣) ، موسوماً بسمة الأموات الى حد بعيد ، حتى لقد كان علينا أن نكابد المشقة في احتمال حضوره . وحتى كنا نرتعد تلقاءه ، كأننا أمام شبح . والكاتب يعتقد أنه يوصي بكتابه خاصة الخواص ، حين يؤكد في المقدمة أنه يريد ، وهو الشيخ الذي آذنت حياته بالانتهاء ، وغدا على حافة قبره ، أن يعلن الحقيقة الى العالم المعاصر والعالم اللاحق .

وأخذنا نتضاحك منه : ذلك لأننا كنا نعتقد أننا لاحظنا أن الشيوخ لايقدرون في هذا العالم ما هو جدير بالمحبة ومستحسن فيه حقاً — «فالكنائس القديمة عاتمة الزجاج !»— «ولا بد للمرء أن يسأل الأطفال والعصافير عن طعم الكرز والتوت» — تلك كانت كلماتنا التي نتندّر بها ، ولذلك بدا لنا ذلك الكتاب خلاصة مركزة حقيقية للخرف ، غير مستساغة ، بل نابية عن الذوق ، كان يرى أن كل شيء ينبغي أن يُبنى وجوده على الضرورة ، ولذلك يرى أنْ ليس هناك إله . وكنا نتساءل : ولكن أولا يمكن أيضاً أن يوجد اله بالضرورة ؟ وكنا مع ذلك نقر بالطبع أننا لانستطيع أن نتخلّص من ضرورات الأيام والليالي والفصول والمؤثرات المناخية ، والأحوال الطبيعية والحياتية ، ومع ذلك فنحن نحس بشيء فينا كان يبدو عَسَفاً كاملاً ، وكذلك بشيء يحاول أن يتوازن مع هذا العَسَف .

ولم نكن نستطيع أن نتخلى عن الأمل في أن نغدو عقلانيين على نحو مطرد الزيادة ، وأن نزداد استقلالاً عن الأشياء الخارجية ، بل عن أنفسنا ذاتها ، بصورة مطردة . ولكلمة الحرية وقع يبلغ من جماله

أن المرء لايستطيع أن يستغني عنها حتّى ولو كانت تشير الى خطأ من الأخطاء .

ولم يكن أحدٌ منا قد قرأ الكتاب الى نهايته ، لأننا وجدنا أنفسنا وقد خاب انتظارنا الذي فتحنا الكتاب من أجله . كان هناك اعلان عن نظام الطبيعة وكنا نأمل بناء على ذلك أن نلم فعلاً بشيء عن الطبيعة ، عن وثننا ، لقد كان علم الطبيعة ، والكيمياء ووصف السماء والأرض ، والتاريخ الطبيعي والتشريح وبعض العلوم الأخرى تدلنا دائماً ، منذ سنوات ، وحتّى اليوم الأخير ، على العالم الكبير المزدان . وقد وددنا لو نحيط علماً بالشموس والنجوم والكواكب والأقمار ، والجبال والوديان والأنهار والبحار وكل مايعيش ويسكن فيها ، سواء في ذلك الأقرب والأكثر عموماً . أما أنه لم يكن بد من أن ترد بعض الأشياء مما يمكن أن يبدو للإنسان العادي ضاراً ، ولرجال الدين خطيراً ، وللدولة غير مسموح به ، فذلك ما لم نكن نرتاب فيه ، وكنا نأمل ألاّ يكون هذا الكتيّب قد اجتاز امتحان النار عن غير جدارة ، ولكن ما أشد ما شعرنا به من الخواء والفراغ في منتصف الليل هذا الإلحاديّ الكئيب ، الذي أختفت فيه الأرض بكل تصاويرها ، والسماء بكل نجومها . وكان يقول انها المادة وجدت منذ الأزل ، وانها متحركة منذ الأزل ، وان المفروض الآن أن تبدع بهذه الحركة يميناً ويساراً ، وفي كل الاتجاهات ، وبصورة مباشرة ، ظواهر الوجود التي لاتحصى . لقد كنا خليقين أن نرضى حتّى بهذا كله لو أن الكاتب أنشأ لنا العالم بالفعل ، من مادته المتحركة ، أمام أعيننا . ولكنه ما كان ليعرف من الطبيعة إلاّ المقدار الذي كنا نعرفه . ذلك لأنه في الوقت الذي يثبت فيه بعض المفاهيم العامة كالأوتاد ، يتركها على الفور ، ليحوّل

هذا الذي يبدو أعلى من الطبيعة ، أو يبدو طبيعة أعلى ضمن الطبيعة ، الى طبيعة مادية ، ثقيلة ، متحركة حقاً ، ولكنها عديمة الاتجاه ، عديمة الصورة ، ويعتقد أنه حقق بذلك كسباً كبيراً حقاً .

ومع ذلك فاذا كان هذا الكتاب قد ألحق بنا بعض الضرر ، فقد كان ذلك الضرر هو أننا غدونا ننقم على كل فلسفة ، ولا سيما الميتافيزيقا ، من أعماق قلوبنا ، على أن ذلك لم يزدنا مقابل ذلك إلاّ اندفاعاً حيوياً وحماسياً للمعرفة والاطلاع ، والعمل والكتابة الشعرية .

وعلى هذا كنا ننفض أيدينا ، ونحن على حدود فرنسا ، من كل ما يمت الى الفرنسيّة بصلة مرة واحدة . لقد كنا نرى أسلوبهم في الحياة بالغ التقييد ، مفرطاً في الارستقراطية ، ونرى شعرهم بارداً ، ونقدهم مدمّراً ، وفلسفتهم عويصة ، ومع ذلك فهي بعيدة المتناول ، حتى لقد وقفنا عند النقطه التي يتوجه فيها المرء الى الطبيعة البكر من باب التجربة على الأقل ، لولا أن تأثيراً آخر كان يهيّؤنا منذ وقت طويل من أجل نظرات الى العالم ومتَع فكرية أعلى وأكثر تحرراً ، وأصيلة بمقدار ما هي شعرية ، ويهيمن علينا بصورة خفيّة أول الأمر ، ولكنه يغدو شيئاً فشيئاً أكثر جلاءً وعنفواناً .

وأكاد لاأحتاج الى القول ان شكسبير(١) هو المقصود هنا . على أن الأمر لايحتاج الى مزيد من التفصيل بعد أن أفصحت عن هذا . وذلك أن الألمان يعرفون شكسبير أكثر مما تعرفه كل الأمم الأخرى ، بل ربما أكثر من أمته ذاتها . فلقد أغدقنا عليه كل الإنصاف والاستحسان والرعاية التي نقصّر فيها ، حيال أنفسنا نحن فيما بيننا . فهناك رجال من ذوي الفضل يشتغلون بابراز مواهبه الفكرية في ضوء ملائم .

ولقد كان يسرني أن أصادق في كل وقت على كل ما قال الناس على

شرفه ، ولصالحه ، بل في الاعتذار عنه . . وقد سبق تصوير أثر هذا الفكر الممتاز عليّ ، كما سبقت بعض المحاولات في تصوير أعماله التي لقيت الموافقة ، وكذلك قد يكون في هذا البيان العام الغناء هنا الى أن أكون في وضع يتيح لي أن أفضي الى الأصدقاء بقراءة لاحقة لملاحظات حول أعمال كبرى كهذه كنت أقوم بمحاولة لإدراجها في هذا الموضع .

ولست أريد في الوقت الحاضر إلاّ أن أبيّن بمزيد من التفصيل الأسلوب الذي تعرفت به عليه . فقد حدث ذلك في وقت مبكر ، في لايبتسج ، من خلال كتاب دودّ «جماليات شكسبير» . ومهما يكن في وسع المرء أن يقول عن هذه المجموعات التي تتحدث عن الكتاب بصورة متقطعة ، فلا ريب أنها تحدث بعض الأثر المستحسن . ولا ريب أننا لا نكون دائماً في حالة من حضور الذهن وحدّته تمكننا من تمثّل كتاب كامل بحسب قيمته ، أولسنا نفتح الكتاب من الكتب على مواضع لها صلة مباشرة بنا ؟ على أن الشباب الذين يفتقرون بوجه خاص الى الثقافة الواسعة ، يتأثرون ببعض المواضع المتألقة تأثّراً محموداً الى حد بعيد . وعلى هذا فما زلت أذكر ، فيما أذكر من أجمل أيام حياتي ، تلك الأيام التي كان الكتاب المذكور يَسِمُها بسمته . فكانت تلك الخصائص الرائعة ، والأقوال المأثورة العظيمة وضروب الوصف البليغة ، واللمحات الفكاهية ، كل ذلك كان يؤثر فيّ على حدة ، تأثيراً قوياً .

ثم ظهرت الآن ترجمة فيلاند(١) . والتُهِمَت التهاماً ، وتحدث بها الأصدقاء والمعارف بعضهم الى بعض ، وتواصَوْا بها ، وكنّا نحن الألمان نمتاز بأن عدداً من الأعمال الهامة عند الأمم الأجنبية تم نقلها

أولاً بطريقة سهلة مشرقة . ولمّا كان شكسبير مترجماً ترجمة نثرية ، من قبل فيلاند أولاً ، ثم من قبل إشِنْبرُج(٢) ، فقد كان من الممكن أن ينتشر انتشاراً سريعاً من حيث كونه مادة للمطالعة مفهومة على نطاق عام ، ملائمة لكل قارىء ، وأن يحدث أثراً كبيراً . وأنا أقدّر الإيقاع كما أقدر القافية اللتين لايكون الشعر شعراً إلا بهما ، ولكن ما يتسم بالأثر الفعّال العميق والأساسيّ حقاً ، وما ينطوي على الثقافة والنفع حقاً ، هو ذلك الذي يتبقىّ من الأديب حين يُترجَم نثراً . عند ذلك يبقى المضمون الكامل الصِرف الذي يتمكن المظهر الخُلّبيّ في كثير من الأحيان ، من أن يخيّله لنا ، حين يغيب ذلك المضمون الحقيقيّ ، ، ويظل يغشيّه مادام حاضراً . ولذلك فأنا أعدّ الترجمات النثرية في بداية تعليم الشباب أكثر فائدة من الترجمات الشعرية . ذلك لأن من الممكن أن يلاحظ أن الفتيان، الذين لابد أن يستخدم عندهم كل شيء للمزاح ، انما يتسلّون بَجَرْس الكلمات ، وبوَقْع المقاطع الصوتيه ، ويفسدون ، بنوع من الجسارة على المحاكاة الساخرة ، المضمون العميق في أرفع الأعمال . ومن أجل ذلك أتساءل أليس من الواجب القيام أولا بترجمة نثرية لهومير : ولكن كان لابدّ لها بالطبع أن تكون جديرة بالمرحلة التي يوجد فيها الأدب الألماني في الوقت الحاضر . وأنا أدع هذا وما قلته آنفاً لينظر فيه حضرات المربين عندنا ، أولئك الذين يعتمدون على الخبرة الواسعة في هذا الصدد أفضل ما يكون الاعتماد ، إلاّ أنني أريد بعدُ ، لصالح اقتراحي ، أن أذكّر بترجمة لوثر للكتاب المقدس : ذلك لأن قيام هذا الرجل العظيم بنقل سفر وُضع بأشد الأساليب اختلافاً ، بايقاعه الشعري ، والتاريخيّ ، ، والتوجيهيّ والتعليمي الى لغتنا الأم ، وكأنما صُبَّ في قالب واحد ،

قد أفاد الدين أكثر مما لو أراد محاكاة خصائص الأصل على التفصيل . وعبثاً حاول القوم بعد ذلك أن يجتهدوا في كتاب أيوب والأناشيد والأغاني الأخرى، ليجعلوها صالحة للاستمتاع في قالبها الشعري . على أن الترجمة البسيطة تظل هي الأفضل بالقياس الى الجمهور الذي يُراد التأثير فيه .وفي الحقيقةلا تفيد تلك الترجمات النقدية الّتي تنافس الأصل إلاّ لتسلية العلماء فيما بينهم .

وكذلك كان شكسبير يحدث تأثيره في مجتمعنا بشتراسبورج ، مترجَماً وفي الأصل ، جزءاً فجزءاً أو مجملاً ، وفي مواضع مختارة ومنتقاة ، بحيث غدونا شيئاً فشيئاً متمكنين من شكسبير مثلما يتمكن المرء من رجال الكتاب المقدس . وكنا نحاكي ما كان يعرّفنا عليه من فضائل عصره ونقائصه ، في أحاديثنا ، وكنا نجد في مماحكاته أعظم المتعة ، وننافسه بترجمتها ، بل بالتجرؤ على الأصل . وكان مما يسهم في ذلك إسهاماً غير قليل أن حماسة عظيمة تولـّتني حياله قبل الآخرين . وكان الإقرار السارّ بأن ثمة شيئاً أعلى ماثلاً أمامي مُعْدِيا لأصدقائي الذين كانوا يتجهون جميعاً هذه الوجهة الفكرية . ولم نكن ننكر إمكانية التعرف على أمثال هذه الأعمال بصورة أوثق والاحاطة بها والحكم عليها بروّية . ولكننا كنا نحتفظ بهذا لمرحلة لاحقة : أما الآن فلم نكن نريد إلاّ المشاركة البهيجة والمحاكاة الحيـــويّة ، وألاّ نبحث ونُماحِك ، مع هذه المتعة الكبيرة ، في الرجل الذي كان كان يمنحنا ذلك ، بل كنا نرتاح الى تبجيله على نحو غير مشروط .

واذا أراد المرء أن يعرف على نحو مباشر ما كان في تلك الأيام يجري التفكير والحديث والتباحث فيه ، فليقرأ مقالة هردر في شكسبير ، في كراسة (٢) «حول الأسلوب والفن الألمانيين(١) » ، ثم « ملاحظات

في المسرح » بقلم لينتس(٢) ، اللتين أُضيف اليهما ترجمة « خاب سعي العشاق » . ويتغلغل هردر في الجانب الأعمق من شخصية شكسبير ويصورها تصويراً رائعاً . ويسلك لينتس حيال الجانب التقليدي في المسرح سلوكاً أكثر اتساماً بالنزوع الى تحطيم الأصنام ، ويريد أن يرى طريقة شكسبير هي السائدة في كل مكان . ولما كنت أجد نفسي هنا مدفوعاً الى الاتيان على ذكر هذا الانسان المفعم بالمواهب على قدر ما هو غريب فقد يكون هذا هو المكان الملائم لمحاولة الادلاء ببعض الأشياء عنه . لقد تعرفت عليه في أواخر فترة إقامتي في شتراسبورج . وكنا قلما يرى أحدنا الآخر ، ولم يكن أصحابه أصحابي . ولكننا كنا نلتمس مع ذلك الفرص للّقاء ، ويسرنا أن نتبادل الأخبار ، اذ كانت لنا أفكار متشابهة من حيث كوننا شابين ينتميان الى العصر ذاته . كان قصيراً ولكنه ظريف القوام ، له رأس صغير بالغ الظُرف كان قالبه الجميل يتسم بملامح لطيفة خالية من الحدّة تماماً . وكان له عينان زرقاوان ، وشعر أشقر ، وكان على الإجمال شخصية ضئيلة على نحو ما كان يُعْرُض لي بين شباب الشمال(١) من حين الى آخر ، وكان وئيد الخَطْوِ فيما يشبه الحَذَر ، وكانت له لغة مستعذَبة ، ليست بالطليقة كل الطلاقة ، وسلوك يتردد بين التحفظ والوجل ، كما يليق تماماً بالشباب . وكان يجيد تلاوة القصائد القصيرة ، ولا سيما قصائده الخاصة ، اجادة بالغة ، ويكتب كتابة سَلِسَة . أما ما يتصل بطراز فكره فلم أكن أعرف سوى الكلمة الانكليزية « Whimscal » (١) ، التي تلخّص ، كما يشير الى ذلك القاموس ، عدداً جمّاً

---

(١) بمعنى متقلب ، غريب الأطوار .

من الغرائب في مفهوم واحد ومن أجل ذلك لم يكن ثمة أحد أقدر منه على الإحساس بضروب الشطط والنزوات في عبقرية شكسبير أو محاكاتها وتقدم الترجمة المذكورة آنفاً شاهداً على ذلك . وهو يتعامل مع مؤلفه بحرية كبيرة ، ولا يقصر اسلوبه عن الاقتضاب والأمانة ، ولكنه يعرف كيف يتلاءم مع الوسيلة ، أو العادة ، عند سلفه تلاؤما جيداً جداً ، وكيف يتمثل حركاته ولفتاته على نحو مرح بحيث كان يستطيع أن ينتزع الإعجاب من ذلك الذي كان يروقه .

وكانت طرائف المهرجين تصنع كل سعادتنا بوجه خاص ، وكنا نثني على لينتس من حيث كونه انساناً محظوظاً ، اذ وُفِّق الى تلك اللوحة لقبر الحيوان(١) الذي أردته الأميرة قتيلاً على النحو التالي :

لقد رمت الأميرة الجميلة فأصابت
حياة أيِّل صغير

فخرّ صريع نوم ثقيل
وذا كلب الصيد يُعْوِلّ ! — بلا مين ، لام للأيل
ليغدو بذلك أُيَيْلِلاً ، بلام للتصغير
ولكن ، فلنضف لاماً رومانية
لينجم عن ذلك خمسون أيِّلاً
وأنا أجعلها مائة
فأكتبها بلامين رومانيّتين .

وكان الميل الى اللامعقول ، الذي يتجلى عند الشباب حراً ، بسيطاً من ولكنه ينسحب فيما بعد الى الأعماق شيئاً فشيئاً من دون أن

يضمحل تماماً ، مزدهراً كل الازدهار عندنا . وكنا نسعى الى الاحتفال بأستاذنا الكبير عن طريق النوادر الأصلية أيضاً . وكنا نُزهي بأنفسنا كثيراً حين نستطيع أن نعرض على الجماعة شيئاً من هذا الطراز الذي كان يلقى بعض الاستحسان ، ومن ذلك المثال التالي في أستاذ للفروسية أصابه الأذى على صهوة حصان جامح :

كان هناك فارس يسكن في هذا المنزل
والى جانبه أستاذ أيضاً ،
فاذا صنع المرء من ذلك باقة زهر
نشأ من ذلك أستاذ في الفروسية
وهو الآن معلم في الركوب
يحمل اللقب بحق
ولكن اذا أخذت المطيّةُ المعلمَ معها
فويل له ، ولذريته !

وكان يثور جدل حامي الوطيس حول أمثال هذه الأشياء ، وهل كانت جديرة بالمهرّج أم غير جديرة به . وهل كانت صادرة عن معين الجنون الأصيل الخالص ، أم كان يشوبها شيء من الحكمة والعقل على نحو غير ملائم وغير مسموح به . وقد كان من الممكن أن تنتشر هذه الأفكار الغريبة على نحو أكثر شدة ، وأن يكون قدر أكبر في حالة اسهام في ذلك ، ولا سيما حين أعطى ليسنغ(١) الذي كان يحظى بالثقة الكبيرة ، الإشارة الأولى على ذلك في « كتاباته المسرحية » .

ومع مثل هذه الجماعة المتوائمة ذات الشعور المتوفّز أتيحت لي بعض الرحلات الممتعة الى الإلزاس العليا ، فكان ذلك سبباً في عودتي منها من دون فائدة خاصة. وكانت الأشعار القصيرة الكثيرة التي تنبثق

عنا في كل مناسبة ، والتي كان من الممكن أن تشكل بحق وصفاً بهيجاً للرحلات ، قد أنتهت الى الضياع . وفي رواق دير مولسنهايم أعجبنا بالرسوم الملونة على ألواح الزجاج ، وفي المنطقة الخصبة بين كولمار وشيليشتارت كانت تتردّد أصداء أناشيد مضحكة الى سيريس(١) ، كان يجري فيها تفصيل استهلاك كثير من الفواكه بصورة مستفيضة ويُشاد به ، كما ينظر الى مسألة النزاع الهام حول الاتجار الحر أو المقيدّ بهذه الفواكه نظرة بالغة المرح . وفي إنسيسهايم رأينا النيازك(٢) الهائلة معلقة في الكنيسة ، وجعلنا نهزأ ، تبعاً لنزعة الشك في ذلك العصر ، بسرعة التصديق عند البشر ، من دون أن نقدِّر أن أمثال تلك الموادّ الصادرة عن الأجواء ان لم تسقط على أرضنا فلا بد لها أن تُحفَظ على الأقل في حجراتنا .

وما زال يسرني أن أتذكر حَجّاً مع مائة ، بل ألف من المؤمنين قمنا به الى جيل أوتّيلْيين ، اذ كان يقال ان ابنة جميلة لأحد الأشراف أقامت ، بدافع التقوى ، هنا بين الأنقاض والحجارة المهشّمة . حيث مازال جدار الأساس لقلعة من قلاع الرومان باقياً . وغير بعيد عن الكنيسة الصغيرة التي يهذّب السائحون فيها أنفسهم يعرض القوم ينبوعها . ويسردون أموراً في غاية الظرف . وكانت الصورة التي كونتها عنها ، واسمُها ، منطبَعْين في ذهني انطباعاً عميقاً ، وقد ظللت عهداً طويلاً أحمل كليهما معي حيثما ذهبت ، الى أن أضْفَيْتُهما آخر الأمر على إحدى بناتي(٣) التي كانت متأخرة في الحقيقة ، ولكن حبي لها لم يكن ، من أجل ذلك ، أقلَّ من ذاك ، وكانت تقع من القلوب التقيّة النقيّة موقعاً حسناً .

---

(١ Ceres ) الهة الزراعة والحصاد عند الرومان .

وكانت الإلزاس الرائعة تعاود العين على هذا المرتفع أيضاً ، فكانت هي ذاتها دائماً ، وهي الجديدة أبداً ، فمثلما يكون شأن المرء في المسرح الدائري ، اذ يحيط بالجمهور كله بنظرة شاملة ، أيّان يتّخذ مجلسَه ، ولكنه يرى جيرانه كأشد ما تكون الرؤية وضوحاً ، يكون الأمر أيضاً ، مع الأحراش ، والصخور ، والآكام ، والغابات ، والحقول ، والمروج ، والمرابع ، على القرب والبعد ، بل أراد القوم أن يظهروا لنا بازِل عند الأفق . أمّا أننا رأيناها فذلك ما لا أستطيع أن أقسم عليه ، غير أن الزرقة البعيدة للجبال السويسرية كانت تمارس هنا أيضاً حقها علينا ، اذ كانت تدعونا اليها ، ولمّا كنا لانستطيع أن نلبّي هذا الدافع فقد كان يخلّف لدينا شعوراً مؤلماً .

وكان يزيدني انهماكاً في هذه التسليات وألوان المرح ، وحتى درجة السكر ، في الحقيقة ، أن علاقتي الحارّة بفريدريكه أخذت الآن تبعث على الخوف . اذ كان مثل هذا الميل عند الشباب ، المتجه الى غير قصد معيّن ، مما يمكن تشبيهه بقنبلة يلقى بها في الليل ، فتصعد في خط انسيابيّ ، متألّق ، وتختلط بالنجوم ، بل تبدو كأنها تمكث بينها لحظة من الزمان ، ثم ترسم الخط نفسه حقاً من جديد ، ولكن على نحو معكوس ، وتعود أخيراً ، حين تنهي مسارها ، بالدمار . وكانت فريدريكة تظل هي ذاتها دائماً ، وتبدو كأنها لاتفكر ولا تريد أن تفكر ، في أن هذه العلاقة يمكن أن تنتهي في أجل جد قريب . أمّا أوليفي ، التي لم يكن يسرها أن تفتقدني ، ولكنها ما كانت لتخسرني بمقدار تلك بلا ريب ، فقد كانت أكثر استشرافاً للمستقبل ، أو أكثر صراحة ، وكانت تتحدث اليّ في بعض الأحيان عن وداعي المحتمل ، وتلتمس لنفسها ولأختها العزاء . على أن الفتاة التي تتخلّى

عن رجل لاتجحد تعلّقها به لاتعد أبداً في الوضع الحرج الذي يجد فيه الفتى نفسه بعد أن يكون قد قطع شوطاً بعيداً في الافصاح عما في نفسه حيال امرأة ، فهو يمثل دائماً شخصية باعثة على الحزن : ذلك لأن المرء ينتظر منه ، من حيث كونه رجلاً في طور النشوء ، نظرة شاملة معينة تحيط بظروفه ، ولن يكون الاستهتار المفرط لائقاً به . ثم ان الأسباب التي تحمل فتاةً على أن تنسحب تبدو دائماً أسباباً وجيهة ، أما أسباب الرجل فلا تكون كذلك قط .

ولكن أنىّ يتهيّأ لعاطفة تدغدغُنا . أن تَدَعنا نتنبّأ الى أين يمكن أن تنتهي بنا ؟ ذلك لأننا حتى حين نكون قد تخلينا عنها تماماً لانستطيع أن نتخلّص منها ، فنحن نتسلى بالعادة المحبّبة وان كان ذلك بطريقة متغيّرة . وذلك ما جرى لي . فعلى الرغم من أن حضور فريدريكه كان يبعث في نفسي الخوف ، لم أكن أعرف شيئاً أحلى من أن أفكر فيها وهي غائبة ، وأتسلّى معها . وكان خروجي يزداد نُدرَةً ، ولكن رسائلنا كانت تتعاقب على نحو أكثر حيوية . وكانت تعرف كيف تجسّد لي أحوالها تجسيداً مرحاً ، ومشاعرها تجسيداً ظريفاً ، مثلما كنت استحضر تلقاء نفسي مآثرها بعناية وحماسة . وكان الغياب يجعلني حراً ، وقد ازدهر ميْلي كله حق الأزدهار بفعل المحادثة على البعد . وكان في وسعي أن أتعامى في أمثال هذه اللحظات عن المستقبل حقاً بصورة كاملة . اذ كان لي في تعاقب الأيام والأعمال الملحة ما يسلّيني . وكنت قد تمكنت حتى ذلك الوقت من تحقيق أكثر الأمور تعقيداً ، وذلك عن طريق الاهتمام الحيويّ دائماً بالحاضر ، وبما يتصل باللحظة الحاضرة . ولكن كل شيء كان يتراكم عليَّ في النهاية تراكماً شديداً بعضه فوق بعض على النحو الذي كان من المألوف

أن تسير الأمور عليه حين يكون على المرء أن يتخلّص من مكان من الأماكن .

على أن حدثاً عارضاً آخر سلبني الأيام الأخيرة. وذلك أنني كنت في وسط جماعة مرموقة في بيت ريفيّ كان في وسع المرء أن يرى منه واجهة الدير والبرج البارز فوقها شامخاً شموخاً بالغ الروعة . وقال أحدهم : انه لمن المؤسف أن البناء بمجمله لم يكتمل ، وأنْ ليس لدينا إلاّ البرج الواحد . ورددت على ذلك بقولي : « ان مما يؤسفني بالقدر ذاته أيضاً ألاّ أرى هذا البرج الواحد منفّذاً تنفيذاً كاملاً ، لأن الحلزونات الأربعة تنقطع انقطاعاً مفاجئاً الى حد مفرط . وقد كان يحسن أن تضاف إليها أربعة من الذوائب الخفيفة ، وكذلك ذُؤابة أعلى منها في الوسط ، حيث ينتصب الصليب الغليظ » .

وحين أفصحت عن هذا الادعاء بحيويّة مألوفة خاطبني رجل قصير مرح مُسائلاً : « من قال لك هذا ؟ » فرردت بقولي : « البرج نفسه ، فقد تأملته بانتباه وقتاً طويلاً ، وأبديت نحوه من الوَلَع ما جعله يقرّر أن يفضي إليّ بهذا السر الواضح(١) » . وردّ ذاك بقوله : « لم يحدثك باطلاً ، فأنا خير من يستطيع أن يحيط بذلك ، لأنني أنا الوكيل المعيّن للمباني . وما زال عندنا ، في محفوظاتنا ، المخططات الأصلية التي تفيد الشيء ذاته ، والتي استطيع أن أعرضها عليك » — وبسبب ارتحالي الوشيك ألحفت في استعجال هذه المكرُمة ، وتركني أرى اللفائف التي لاتقدّر بثمن ، ورسمت بسرعة الذوائب الناقصة في التنفيذ بوساطة الورق المُشرب بالزيت ، وآسِفت لأنني لم أطّلع من قبل على هذا الكنز ، ولكنّ هذا هو ما كان مقدّراً أن يجري لي دائماً ، وهو أنني لم يكن لي بدّ

أن أصل أولاً ، بشق النفس ، وعن طريق النظر والتأمل في الأشياء ، الى مفهوم ربما لم يكن يلفت النظر ، ولم يكن يثمر الى هذا الحد لو أنه قُدِّم إليّ تقديماً .

ولم أكن أستطيع ، في غمرة هذا الضيق والارتباك ، أن أكف عن رؤية فريدريكه مرة أخرى ، وكانت أياماً مؤلمة لم تبق ذكراها في نفسي ، ولما مددت إليها يدي وأنا على صهوة الحصان طفرت الدموع من عينيها ، وشعرت بالانزعاج ، وركبت في طريق المشاة الى دروزنهايم . وعند ذلك ألمّ بي احساس داخلي متناهٍ(١) في غرابته . وذلك أنني رأيت ، لا بعينيْ الجسد ، بل بعينَيْ البصيرة ، نفسي ذاتها ، تواجهني على الطريق ذاته ، وعلى صهوة الحصان ، من جديد ، وكان ذلك في ثياب لم ألبسها قط من قبل . كانت رمادية في لون سمك الكُرْكيّ ، موشّاة بشيء من الذهب ، ولم أكد أنفض عن نفسي هذا الحلم حتى توارت تلك الشخصية تماماً ، ومع ذلك فقد كان من الغريب أنني وجدت نفسي بعد ثماني سنوات في الثوب الذي حلمت به ، ولم ألبسه اختياراً ، بل بطريق المصادفة ، لأزور فريدريكه مرة أخرى . ومهما تكن الطريقة التي تسلكها هذه الأشياء آخر الأمر فقد منحني الخيال العجيب في تلك اللحظات بعض التهدئة حيال الفراق . وكان الألم لمغادرة الإلزاس الرائعة ، مع كل ما ظفرت به فيها ، الى الأبد ، قد خفّت حدته ، ووجدت نفسي وقد تخلصت آخر الأمر من دُوار الوداع عائداً من جديد الى رحلة وادعة ممتعة الى حد بعيد .

ولما وصلت مانهايم أسرعت بشوق كبير الى رؤية قاعة الأثريات(٢) التي كان الناس يفاخرون بها كثيراً . وكنت قد سمعت كثيراً من

الحديث عن هذه الأعمال الفنية الهامة منذ كنت في لايبتسج بمناسبة أعمال فينكلمان وليسّنج ، ولكن قلّما رأيتها ، اذ لم يكن يوجد نسخ مسبوكة في الجامعة باستثناء لاوكون الأب(٣) ، والفاون ، مع الصنوج(٤) . وكان ما يروق لأوزَرْ أن يقوله لنا بصدد هذه التصاوير مشحوناً بالألغاز بما يكفي فكيف يريد المرء أن يعطي المبتدئين أيضاً تصوّراً عن نهاية الفن .

وكان استقبال المدير فيرشافل(١) ودياً ، وقادني الى القاعة أحدُ أعوانه الذي تركني ، بعد أن فتح لي ، لميولي وتأملاتي . وهنا وقفت الآن ، عرضةً لأغرب الانطباعات ، في قاعة فسيحة رحبة ، مربّعة تكاد تكون مكعبة ، مع ارتفاعها الفائق تضيئها النوافذ تحت الزخرفة اضاءة جيدة . ولم تكن أروع التماثيل الصغيرة من العصور القديمة مصفوفة على الجدران فحسب ، بل كانت منضّدة أيضاً فيما بينها ضمن إطار المساحة الآجمالية . كانت غابة من التماثيل يستطيع المرء أن يجوس خلالها ، بل كانت طائفة كبرى مثالية من البشر لم يكن للمرء بدّ من أن يتغلغل في حناياها . وكان من الممكن لهذه الأشكال الرائعة أن توضع ، بفعل رفع الستائر وإسدالها ، تحت أفضل الأضواء ، وكانت فوق ذلك قابلة للتحرك فوق قواعدها ، اذ يمكن أن تنعطف وتدور كما يودّ المرء .

وبعد أن لبثت حيناً من الزمان أعاين الأثر الأول لهذه الكتلة التي لاتُقاوم ، اتجهت الى تلك الأشكال التي كانت أكثرها اجتذاباً لي ، ومن تراه يستطيع أن ينكر أن أبوللو البلفيدير(٢) ينتصر حتى على احساسنا قبل كل شيء بحجمه الهائل المتوازن ، وقوامه الأهيَف ، وحركته الطليقة ، ونظرته المنتصرة . ثم اتجهت الى لاوْكون(٣) الذي رأيته هنا أولاً متصلاً مع أبنائه . وجعلت أتمثلّ في نفسي على

نحو جيد قدر الإمكان ما جرى حوله من حديث وجدال ، والتمس وجهة نظر ما ، ولكني كنت أنجذب الى هذه الوجهة حيناً ، والى تلك حيناً آخر ، واستحوذ عليّ المبارز المحتضر(٤) وقتاً طويلاً ، وكان لابد لي أن أدين على وجه الخصوص بأسعد اللحظات لمجموعة كاستور ويوللّوكس(٥) ، لهذه البقايا الثمينة ، على الرغم من إشكاليّتها . وكنت ما زلت لا أعرف مقدار استحالة تقديم بيان فوري عن تأمل استمتاعيّ . وأرغمت نفسي على التفكير . وبمقدار ما كان يتعذّر عليّ أن أوفّق في الوصول الى أيّ نوع من الوضوح ، كنت أشعر مع ذلك أن كل كتلة من هذه الكتل المحتشدة قابلة للإدراك ، وأن كلّ موضوع طبيعيٌ وينطوي على أهمية في حد ذاته .

على أن انتباهي الأكبر كان مصوباً نحن (لاوكون) ، وقد حسمت المسألة الشهيرة ، وهي : لماذا لا يصرخ ، بأن قلت لنفسي انه لايستطيع الصراخ . وكانت كل التصرفات والحركات في الشخوص
حسمت المسألة الشهيرة ، وهي : لماذا لا يصرخ ، بأن قلت لنفسي انه لايستطيع الصراخ . وكانت كل التصرفات والحركات في الشخوص
الثلاثة تنبثق عندي من المفهوم الأول الخاص بالمجموعة . وكان مجمل وضع الجسم الرئيسي المتسم بالعنفوان قدر اتسامه بسمة الفن مركباً من باعثين ، من الاندفاع نحو الأفاعي ، ومن الهرب من العضة الراهنة . ومن أجل تخفيف حدة هذا الألم كان لابدّ للجزء السفلي من الجسم أن يتقلّص ، وأن يُحال بينه وبين الصياح . وهكذا حكمت أنا أيضاً بأن الابن الأصغر لم يتعرّض للعض مثلما كنت أحاول بعد ذلك أن أفسّر بعدُ ما هو فنيّ في هذه المجموعة . وكتبت في هذا الصدد كتاباً الى أوزر الذي لم يلق بالاً الى تفسيري ، بوجه خاص .

بل ردّ على مقصدي الحسن بمجرد تشجيع عام . أما أنا فقد كنت أشعر بما يكفي من السعادة للتمسك بهذه الفكرة ، ولكي أدّعَها مستقرة عندي بضع سنين ، الى أن انضمت أخيراً الى جملة تجاريبي وقناعاتي . وبتلك الروح أفضيت بها بعد ذلك في طبعة (بروبيليئين) .

ولم يكن مقدّراً لي ، بعد التأمّل الحثيث لهذا القدر الكبير من أعمال النحت ذات المستوى الرفيع ، أن أفتقر أيضاً الى تذوّق أوّلي لهندسة العمارة القديمة . ووجدت نسخة مسبوكة من تيجان أعمدة القاعة المستديرة (١) Rotonda ولست أنكر أن إيماني بفن العمارة الشمالي بدأ يهتز بعض الاهتزاز لدى رؤية أوراق الأكانتوس تلك الأنيقة والفظيعة على حد سواء .

ومع ذلك فقد كان هذا التأمل الواسع المبكّر ، الذي كان يحدث أثره لدي عبر حياتي كلها ، ضئيل النتائج بالقياس الى الفترة التالية من حياتي . ولكم كان يسرني أن أبدأ كتاباً بهذا الوصف بدلاً من أن انتهي به : اذ لم يكد باب القاعة الرائعة يغلق ورائي حتى وددت لو أثوب الى نفسي من جديد . بل بتُّ أحاول بالأحرى أن أبعد تلك الصور عن [illegible] ثقيلة ، وما كنت لأعود الى هذا المجال إلاّ من طريق خلفي طويل ، وكان الإثمار الهادىء لمثل هذه الانطباعات لايُقدّر البتة ، اذ كان المرء يتلقّاها مستمتعاً بها من دون حكم يمزقها ويفسدها . و[illegible] الشباب بالمقدرة على هذه السعادة القصوى حين لا ينزع الى النقد ، بل يدع الممتاز والجيّد يحدث تأثيره عليه دونما بحث وتصنيف .

# الكتاب الثاني عشر

وغدا الرحالة الآن أكثر صحة آخر الأمر ، ووصل الى البيت وهو أكثر سروراً مما كان في المرة الأولى ، ولكن شيئاً من التوتّر المفرط كان يتجلى في كيانه ، وهو أمر ما كان ليدل كل الدلالة على صحة النفس . وقد وُضِعت أمي منذ البداية في الوضع الذي لم يكن لها فيه بدٌّ من أن تشغل بتوجيه الأمور وتسويتها بوسيلة معينة . وفي ما ينتس كان فتى يعزف على الجُنُك قد حاز إعجابي الى حد حملني على أن أدعوه الى فرانكفورت ، اذ كان المعرض على الأبواب ، وذلك لأقدم اليه مسكناً ، ووعدته بمساعدته على التقدم ، ومن خلال هذا الحديث تجلّت من جديد تلك السمة الخاصة التي كلفتني ثمناً باهظاً في حياتي ، وهي النظر بعين التفاؤل حين تلتفّ الشخصيات الشابة حولي وتلتصق بي ، فكنت بذلك أنوء آخر الأمر بعبء ثقيل بالطبع . ولم يكن في وسع معاناة مزعجة بعد أخرى أن تردّني عن الدافع الفطري الذي كان يهدّد بتضليلي من حين الى آخر ، وهو الذي كان ما يزال حاضراً بأحلى أشكال الإقناع . وكانت أمي التي تفوقني بصفائها ، تتنبّأ تنبؤ المستيقن بالمقدار الذي لم يكن بدٌّ لوالدي أن يصاب به من الأمور الغريبة حين يقوم جوّال موسيقي بارتياد المآدب والمشارب معتمداً على بيت له كل هذه السمعة الحسنة ، سعياً

وراء قوته . ومن أجل ذلك كانت تجتهد في تأمين مأوى وقوت له فيما جاورنا ، وأوصيت به أصدقائي ، وعلى هذا النحو بات الفتى في حالة لابأس بها . وبعد عدد من السنين رأيته من جديد ، حيث كان قد غداأكبر وأكثر بلادةوثقلاً مندون أن يحرز كثيراً من التقدم في فنه . ولم تكن المرأة الطيبة التي رضيت عن القطعة التجريبية الأولى الخاصة بضبط الأوزان وتصحيحها كل الرضى ، تحسب أنها ستحتاج الى هذا الفن مطلقاً في الأيام التالية . أمّا الوالد الذي كان يعيش عيشةً راضية مع هواياته ، وأعماله القديمة فكان مطمئناً ، شأنَ من يُنْفِذ خططه على الرغم من كل العقبات وضروب التلكؤ . وكنت الآن قد تخرجت ، وكانت الخطوة الأولى في مسيرة الحياة المدنية البعيدة قد تم القيام بها ، وأحرزت أطروحتي اعجابه ، وكان مشغولاً بالنظر فيها عن كثب ، وببعض الإعداد لاخراجها في المستقبل . وكنت قد كتبت ، خلال إقامتي بالإلزاس ، كثيراً من القصائد القصيرة والمقالات ، والخواطر عن الرحلات ، وبعض الأوراق الطيّارة ، وكان مما يسلّيه وضع العناوين لها وتنسيقها ، والمطالبة بتكميلها ، وكذلك كان يسرّه أن يترقب اضمحلال نفوري الذي لم أتغلّب عليه حتى الآن ، من رؤية شيء من هذه الأشياء مطبوعاً . وكانت أختي قد جمعت حولها لفيفاً من النسوة العاملات اللطيفات.وكانت تهيمن عليهن من دون أن تتسم بالنزعة الرجولية، اذ كان عقلها يستطيع الإغضاء عن كثير من الأمور ، وكانت ارادتها الطيبة تستطيع أن تسوّي كثيراً من الأمرر ، وكانت ، فوق ذلك ، في وضع يتيح لهاأن تقوم بدور المؤتمنة علىالسر أكثر منأن تقوم بدور المناوئة . ومن بين الأصدقاء والمعارف القدامى كنت أجد في هورن(١)

الصديق الوفي الذي لايتغير . والنديم الطَلْقَ الأسارير ، كما دخلت في علاقة حميمة مع ريزه(٢) الذي لم يكن يقتصرّ في تمريني على حدة الذهن واختباره ، اذ كان يقابل بالمعارضة الدائمة الحماسة المذهبية التي كان يسرّني سروراً مفرطاً أن أقع فيها ، وذلك عن طريق الارتياب والنفي . وانضم آخرون الى هذه الزمرة التي سآتي على ذكرها في المستقبل . ومع ذلك فقد كان بين الشخصيات التي جعلت إقامتي الجديدة في مسقط رأسي ممتعة ومثمرة ، الأخوان شلوسّر(٣) بلا ريب ، وكان أكبرهما ، هيرونيموس ، وهو باحث في القانون يتسم بالتقصّي والاقتضاب ، يتمتع بثقة عامة ؛ وكان أحب مواطن الإقامة اليه بين كتبه وأضابيره ، في الحجرات التي كان يسودها أشدّ النظام . وهناك لم أكن أجده قطّ إلاّ طلقَ الأسارير ، بادي الاهتمام ، وكان يظهر في المحافل الأوسع أنه ممتع ومسلٍ : لأن فكره كان يزدان ، عن طريق مطالعة واسعة ، بكل ما هو جميل في عالم مَنْ قبله . ولم يكن يأنف أن يزيد مباهج الأنس بالقصائد اللاتينية المستملحة ، في المناسبات ، كما أنني مازلت أملك قصائد دوبيت (Distichen) فكاهية مختلفة له كتبها تحت بعض الصور التي رسمتها لنماذج كاريكاتورية فريدة معروفة على نطاق واسع في فرانكفورت . وكنت استشيره في كثير من الأحيان في مسار حياتي وعملي الذي يجب التمهيد له . ولو لا أن ميولاً وأهواءً وأشكالاً من الشرود بمئات الوجوه جرفتني فحولتني عن هذا الطريق لكان لي الرائد الأكثر أمناً .

وكان الأقرب إليَّ منه في العمر أخوه جورج الذي كان قد انسحب عائداً من تربتوف ، اذ كان في خدمة الدوق أويجين فون

فورتمبرج ، ولم يكن . مع طول باعه في المعرفة بالعالم . والمهارة العملية . متخلفاً في إلمامه الشامل بالأدب الألماني والأجنبي أيضاً . وكان يسرّه أن يكتب ، كشأنه من قبل ، بكل اللغات ، ولكنه لم يكن يدفعني بذلك الى التقدم . اذ كنت ، بحكم انصرافي الى الأدب الألماني وحده ، لا أعالج الآداب الأخرى إلاّ بالقدر الذي يتيح لي أن أقرأ أفضل الكتّاب بلغاتهم الأصلية الى حدّ ما . وكانت استقامته تثبت دائماً أنها هي ذاتها . بل ربما كانت معرفته بالعالم هي التي دفعته الى التمسك بأفكاره المنطوية على المقاصد الحسنة تمسّكاً أشد صرامة ، بل أكثر تصلّباً .

ذلك لأنني سرعان ماتعرّفت من خلال كلا هذين الصديقين أيضاً على ميرك(١) الذي كانت قد بلغته ، عن طريق هردر ، من شتراسبورج معلومات عني لم تكن في غير صالحي . وكان هذا الرجل الخاصّ الذي أثر في حياتي أعظم التأثير ، من مواليد دارمشتات . وما كنت لأدلي إلاّ بالقليل عن ثقافته السابقة . فبعد انتهاء دراساته صحب فتى الى سويسرا حيث لبث حيناً من الزمان وعاد متزوجاً . وحين تعرّفت عليه كان صرّاف رواتب عسكرياً في دارمشتات . وكان قد اكتسب بما فطر عليه من العقل والفكر معلومات واسعة جداً ، ولا سيما في الآداب الحديثه ، ونظر في تاريخ العالم وتاريخ البشر في كل العصور والأصقاع . وقد أوتي ملكة الحكم الصائب المرهف ، وكان الناس يقدرونه بحكم كونه موظفاً طيباً حازماً ومحاسباً بارعاً . وكان يدخل كل مكان بسهولة ، بحكم كونه من أهل المجتمع بالقياس الى أولئك الذين لم يكن قد جعل نفسه مفزعاً في نظرهم بفعل لمحاته اللاذعة . وكان طويلاً أهيَف القوام ، يتميّز بالأنف

المتقدم المدبّب ، وكانت العينان الزرقاوان الفاتحتان ، وربما الرماديتان تضفيان على نظرته التي كانت تتنقّل هنا وهناك بانتباه ، سيماءَ النمر ، وقد حفظ لنا كتاب «علم الفراسة» للافاتر مسقط وجهه الجانبي . وكان في شخصيته تنافر عجيب ، فقد كان ، وهو الرجل الطيب النبيل بطبيعته ، والذي يعتمد عليه ، قد نقم على العالم وترك هذه المسحة من مرض الوهم تهيمن عليه الى حد كان يشعر عنده بميل لايقاوم الى أن يكون خبيثاً عن قصد ، بل وَغْداً . وكان ، وهو العاقل الهادىء ، والطيب في الوقت نفسه ، يمكن أن يخطر بباله الجانب الآخر ، مثلما يخرج الحلزون قرونه ، ليصنع أي شيء يزعج امرءاً آخر أو يحرجه ، بل يلحق به الأذى . ومع ذلك فمثلما يسرّ الإنسان أن يعاشر شيئاً خطراً حين يعتقد أنه في مأمن منه ، كان كان يزيدني ميلاً الى الحياة معه والاستمتاع بخصاله الحسنة أن ثمة شعوراً يمكن الاعتماد عليه كان يدعني أحسّ احساساً مسبقاً أنه لن يوجّه الجانب السيء منه نحوي . ومثلما كان الآن يفسد على نفسه ، بفعل هذه الروح المضطربة من الوجهة الأخلاقية ، وبفعل هذه الحاجة الى معاملة الناس بسوء القصد ، وبالخبث ، حياةَ الأُنس من ناحية ، كان ثمة اضطراب آخر كان يغذّيه في نفسه بعناية حقيقية ، يتعارض مع طمأنينة نفسه . وذلك أنه كان يشعر بدافع معين الى الانتاج يتصل بالولع بالصنائع . وكان يزيده تعلقاً بذلك أنه كان يسهل عليه أن يفصح عما في نفسه بسهولة وعلى نحو موفّق ، نثراً وشعراً ، وقد أتيحت له الجرأة الى حد بعيد على أن يلعب دوراً بين العقول اللامعة في ذلك الزمان . وما زلت أنا أملك رسائل شعرية فيها جرأة غير مألوفة ، وفظاظة وغضبة على طريقة سويفت تتميز

الى حد بعيد بالنظرات الأصيلة الى الأشخاص والأشياء . ولكنها مكتوبة في الوقت ذاته بقوة في التجريح تجعلني لا أريد حتى مجرد نشرها في الوقت الحاضر ، بل أود إما أن أتلفها أو اضطر الى حفظها للعالم اللاحق وثائق لافتة للنظر خاصة بالصراع الخفي في أدبنا . على أن انطلاقه الى العمل من منطلق سلبي تخريبي في كل أعماله كان أمراً مزعجاً له هو ذاته . وكان كثيراً ما يعرب عن حسده إيّايَ على ولَعي البريء بالتصوير الذي ينبثق عن الاستمتاع بالنموذج والأصل المقلّد .

وقد كان ولَعه الأدبي بالصنعة آخر الأمر أقرب الى أن ينفعه منه الى أن يضره لولا أنه شعر بدافع لا يُقاوَم الى أن يبرُز في مجال التقنية وفي المجال التجاري أيضاً . ذلك لأنه حين أخذ يلعن كفاءاته وخرج عن طوره اذ لم يستطع أن يشبع مطامعه في موهبة تقوم على الممارسة بصورة عبقرية بما يكفي سرعان ما ينبذ الفن التشكيلي وفن الشعر ، ثم يأخذ في التفكير في مشاريع تجارية تتصل بالمصانع يقصد بها تحصيل المال في الوقت الذي تمنحه فيه المتعة .

وكان في دارمشتات آخر الأمر طائفة من الرجال المثقفين(١) . وكان المستشار الخاص فون هيسّه(٢) روزير أمير المقاطعة ، والأستاذ بيترسن(٣) ، والعميد فينك(٤) ، وآخرون ، من أهل البلد ، وكان يزيد من شأنهم أن بعض المجاورين من الأغراب وكثيراً من المسافرين العابرين كانوا ينضمون اليهم على نحو متعاقب . وكانت زوجة المستشار فون هيسّه(٥) ، وأختها السيدة فلاكسلاند(٦) من النسوة ذوات الكفاءات والمواهب النادرة ، وكانت الأخيرة ،

وهي عروس هوْدَر ، تتمتع بضعفَيْ صاحبتها من السحر بفضل خصالها ، وبتعلّقها بمثل ذلك الرجل الممتاز .

وليس في الإمكان التعبير عن مقدار ما كان هذا الوسط يبعث الحيوية عندي ويدفع بي الى الأمام . وكان يسرّ القوم أن يستمعوا الى تلاوة أعمالي الناجزة أو المبدوءة ، وكانوا يشجعونني حين أحدثهم بصراحة وتفصيل عما أنتويه ، ويلومونني حين أؤخر ما بدأت به من قبل لدى ظهور كل حافز جديد . وكانت «فاوست» قد مضت قُدُماً ، كما كانت « جوتس فون برليشنجن» تتشكّل في ذهني شيئاً فشيئاً ، وكانت دراسة القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر تشغلني ، كما ترك مبنى الدير ذاكَ أثراً جدّياً عليّ الى حد كبير ، اذ كان ممكناً أن ينتصب ماثلاً هنا خلفيّةً لتلك الأعمال الأدبية على نحو لائق تماماً . ولقد دوّنت ماكنت أفكرّ به وأذكره حول ذلك الفن المعماري ، وكان أوّل ما بادرت اليه خليقاً أن يسميه المرء ألمانياً ، لا قوطياً ، وألاّ يعدّ أجنبياً ، بل وطنياً ، والثاني أنه لايجوز للمرء أن يقارنه بفن العمارة عند الاغريق والرومان ، لأنه ينطلق من مبدأ مختلف كل الاختلاف . فاذا كان ذلك الفن ، الذي كانت تُظِلّه سماء أكثر سعادة ، يدع سقفه يستقرّ على أعمدة ، فقد نشأ الجدار المُخْتَرق في حد ذاته . أما نحن الذين كنا نضطر الى أن نحمي أنفسنا من غائلة الطقس ، والى أن نحيط أنفسنا بالجدران من كل ناحية ، فعلينا أن نقدر العبقرية التي عثرت على الوسيلة التي تضفي التنوّع على الجدران الضخمة ، وتخترقها في الظاهر ، وتشغل العين على نحو مهيب وبهيج في المساحة الشاسعة . وكان الأمر نفسه ينطبق على الأبراج التي لم تكن ، كالقباب ، تشكل سماء متجهة

نحو الداخل ، بل كانت تشرئبّ نحو السماء ، وكان المقصود أن ينبىء وجود القداسة المستقرّ في أساسها ، عن انتشاره بعيداً في الأراضي الممتدة حواليها . أمّا الجانب الداخلي من هذا البناء المهيب فلم أكن أجرؤ على تناوله إلاّ بالنظرة الشاعرية ، ومن خلال الحالة النفسية المتسمة بالخشوع .

ولو راق لي أن أوجز هذه النظرات التي لا أريد أن أجمد قيمتها ، بوضوح وجلاء ، وبأسلوب رفيع ، لكان منشور « حول فن العمارة الألماني(١) » بقلم د.م ايفريني ،ا.شتاينباخ ، قد أحدث مزيداً من الأثر منذ تلك الأيام التي أخرجته فيها ، ولَنبّه أصدقاء الفن في الوطن في وقت أسبق ، ولكنني غشّيْتُ ، اذ أغراني مثال هامّن وهردر ، هذه الأفكار والملاحظات البسيطة كل البساطة ، بسحابة ضبابية من الكلمات والعبارات الغريبة ، وأغلقت ، عليَّ وعلى الآخرين ، باب النور الذي كان منفتحاً لي . وعلى الرغم من ذلك فقد لقيت هذه الأوراق قبولاً حسناً ، وطبعت مرة أخرى في كراسة هردر «حول الفن والأسلوب الألمانيّيْن(٢) » .

ولئن كان يسرني الآن جداً أن اشتغل بالآثار القديمة في الوطن ، وأن أحاول أن أتمثّلها في نفسي ، عن هوى من ناحية ، ومن أجل أغراض أدبية وأغراض أخرى من الناحية الثانية ، فقد كانت الدراسات الخاصة بالكتاب المقدس ، والأمور المستحسنة من الدين تصرفني عن ذلك من وقت الى آخر ، اذ كان لابد لحياة لوثر وأعماله التي تألقت تألقاً رائعاً في القرن السادس عشر أن تقودني من جديد دائماً الى الكتب المقدسة ، والى النظر في الأحاسيس والآراء الدينية .

وكان مما يتملّق إعجابي بنفسي أن أنظر الى الكتاب المقدس على أنه عمل مجموع ، نشأ بصورة تدريجية ، وعولج في عصور مختلفة ، اذ كانت هذه الطريقة في التصوّر ليست سائدة بحال من الأحوال ، وكانت أقل من ذلك الى حد بعيد قبولاً في الوسط الذي كنت أعيش فيه . أمّا ما يتصل بالمضمون الرئيسيّ فقد كنت أتمسّك بتعبير لوثر . وكنت انتقل في التفاصيل الى ترجمة شميد الحرفيّة(١( محاولاً أن استخدم في ذلك عبريّتي الضئيلة قدر الإمكان . أما أن الكتاب المقدس ينطوي على تناقضات فذلك مالن يجادل فيه احـد على ان القوم كانوا يحاولون حل هذة التناقضات بان يتخذوا الاساس من أشد المواضع وضوحاً ، ثم يجتهدون في التوفيق بين تلك المواضع المناقضة ، والأقل وضوحاً وبين ذلك الموضع . أمّا أنا فقد كنت أريد أن أستخلص ، بالتمحيص ، أيَّ المواضع كان يعبّر عن جوهر المسألة أكثر مما عداه ، وأتمسّك بهذه ، وأنبذ الأخرى على أنها مزورّة .

ذلك لأن رأيا أساسياً كان قد رسخ في ذهني منذ تلك الأيام من دون أن أعرف أن أقول هل أُملي عليّ ، أو استثير عندي ، أم صدر عن إمعان خاص في التفكير . وكان هذا هو أن مدار المسألة في كل ما يُنقل الينا ، ولاسيما فيما ينقل مدوّناً ، يعود على الأساس ، وعلى اللبّ والمغزى ، والوجهة الخاصة بذلك العمل . فههنا يكمن الأصيلُ الأصيلُ ، والربّانيُّ ، والفعّالُ ، والملموس الأ صليّ ، والذي لايتزعزع ، وما من زمن ، ولا تأثير خارجي ، ولا شرط ، يستطيع أن يعيب على هذا المعدن الأصيل شيئاً ، وعلى الأقل فهو لا ينتقص منه أكثر مما ينتقص مرض الجسد من روح سليمة التكوين . وأن اللغة ، واللهجة ، والسمة الخصوصيّة ، والأسلوب ، وأخيراً الكتابة ، يجب أن ينظر اليها على أنها الجسد لكل عمل فكري ،

ولكن هذا الجسد ، مع كونه في الحقيقة وثيق الصلة بالمضمون بدرجة كافية ، عرضةً للتدهور والفساد ، وكما أنه ليس هناك أثر منقول يُعطى نقيّاً كل النقاء من حيث طبيعته ، واذا سُلّم نقياً أيضاً فلا يمكن أن يكون بالنتيجة مفهوماً في كل وقت فهماً كاملاً ، أما ذلك فبسبب النقص في الأعضاء التي تم النقل عن طريقها ، وأما هذا فبسبب اختلاف الكفاءات وأساليب "التفكير" البشرية ، فلذلك هذا أيضاً هو السبب في أن المفسرين لن يتشابهوا أبداً .

ومن أجل ذلك يعد البحث في المضمون الداخلي ، وفي حقيقة الأثر الذي يلائمنا بوجه خاص ، شأن كل امرىء من الناس ، وعليه وعليه مع ذلك أن يقدّر قبل كل شيء ماهية علاقته بسريرتنا ، والى أي مدى تستثار بفعل تلك الطاقة الحيوية طاقتُنا الخاصة ويتم إخصابها ، وعلى المرء في مقابل ذلك أن يُسْلِم كل شيء خارجي ، لايبلغ من نفوسنا ، أو يخضع للشك ، الى النقد ، الذي لن يصل قطّ ، حتى ولو تمكن من تمزيق المجموع إرباً إرباً ، وتقطيع وصاله ، الى أن يسلبنا الأساس الحقيقيّ الذي نتمسك به ، بل لن يُضِلّنا لحظة واحدة عن الإيمان الذي عقدنا العزم عليه ذات مرة .

وهذه القناعة المنبثقة عن العقيدة والنظر ، والتي تعد قابلة للتطبيق وباعثة للقوة في كل الحالات التي نعرف أنها هي الحالات الأهم ، تكمن في أساس بنيان حياتي الأخلاقية والأدبية على حد سواء ، ويجب أن ينظر إليها على أنها رأس مال حسن الاستثمار كثير النماء ، على الرغم من أننا يمكن أن ننقاد في حالات فردية الى استعمال خاطىء . وعن طريق هذا التصوّر فحسب غدا الكتاب المقدس قريب

المتناول حقاً بالقياس اليّ . وكنت قد أتيت عليه مراراً ، كما يحدث في التعليم الديني عند البروتستانت ، بل تعرفت عليه بطريقة القفز من موضع الى آخر ، من الأمام الى الخلف ، وبالعكس . وكانت الطبيعية الفجّة في العهد القديم والبساطة الرقيقة في العهد الجديد ، قد اجتذبتاني في التفاصيل ، ولكنهما كان يمتنع عليهما الصمود الحق أبداً في الحقيقة ، على أن الخصائص المختلفة للكتابين المختلفين ما عادت تضللني الآن ، وكنت أعرف كيف أتمثّل معناها على نحو أمين بحسب التسلسل ، وكنت قد استفرغت من الجهد في هذا الكتاب قدراً أكبر من أن استغني عنه من جديد في يوم من الأيام ؛ وكنت من هذا الجانب المريح ذاته بمأْمَنٍ من كل ألوان الهزء ، لأني تبينّت عدم أخلاصها في الوقت نفسه ؛ ولم أكن أزدريها فحسب ؛ بل كان من الممكن أن تثور ثائرتي تلقاءها ؛ ومازلت أذكر بدقة ، أنني كنت خليقاً أن أضيق ذرعاً بفولتير . وأنا بعدُ في حماستي الطفولية المتعصبّة ، اذا ما أتيح لي أن أتمكن منه ، بسبب مسرحيته «شاؤل(١)» . وفي مقابل ذلك كان كل نوع من البحث البلاغيّ يلائمني الى حد بعيد . أما الإيضاحات الخاصة بالأماكن والأزياء الشرقية التي كانت تلقي ضوءاً يزداد زيادة مطّردة ، فكنت أتقبلّها بقبول حسن ، وأواصل تدريب كلّ حدّةٍ ذهني على الروايات المأثورة القيمة الى حد بعيد .

ولعلّ القارىء يعرف كيف حاولت من قبل أن أدشّن معرفتي بأحوال العالم الأول الذي يصفه لنا السفر الأول من أسفار موسى . ولما كنت فكر الآن بالتصرف خطوة خطوة ، وبأسلوب نظاميّ ، فقد تناولت الكتاب الثاني بعد انقطاع طويل ؛ ولكن ما كان أعظم ذلك

الفرق ! فمثلما تلاشى الخصب الطفولي من حياتي بالضبط ، وجدت الكتاب الثاني تفصله عن الأول هُوَّة هائلة ، فالنسيان الكامل للزمن الغابر يتجلّى حتى من الكلمات القلائل الهامة : « وعند ذلك ظهر ملك جديد في مصر لايعرف شيئاً عن يوسف ، ولكن الشعب أيضاً ، وقد كان لايحصى كنجوم السماء ، كان قد أوشك أن ينسى الأب الأول الذي كان يهوه قد بذل له هذا الوعد ذاته ، الناجز الآن ، تحت السماء ذات النجوم ، وكنت أشق طريقي في الكتب الخمسة بجهد لا يوصف ، وبوسائل وطاقات قاصرة . وقد وصلت من خلال ذلك الى أغرب الخواطر . واعتقدت أنني وجدت أن وصايانا العشر ليست هي التي كانت في الألواح ، وأن بني اسرائيل لم يتنقّلوا في الصحراء أربعين عاماً ، وكذلك كنت أتصور أنني أستطيع أن أقدّم إيضاحات جديدة كل الجدة حول شخصية موسى .

وكذلك لم يسلم العهد الجديد من أبحاثي ، ولم أجنّه ولعي بالتمييز ولكنني أقررت مع ذلك ، بدافع الحب والهوى ، تلك الكلمة الشافية : « فليتناقض الانجيليّون ، مادام الانجيل نفسه لايتناقض(١) » ، وفي هذا المضمار أيضاً كنت أعتقد أنني أقوم باكتشافات شتى .أما تلك الموهبة في اللغات التي أتيحت لي ببهائها ووضوحها في عيد العنصرة ، فقد أوّلتها لنفسي بطريقة غامضة بعض الغموض ، على أنها غير ملائمة لاستجلاب كثير من المشاركين .

وقد حاولت التكيف مع احد التعاليم الرئيسية في اللوثرية ، وهي تلك التي زادت الجماعة الدينية من حدتها بعد ، وهي النظر الى ما هو خاطئ في الانسان على أنه هو المهيمن ، على الرغم من أن ذلك لم يحرز نجاحاً خاصاً . ومع ذلك فقد كنت قد تمكنت الى

حد بعيد من مصطلحات هذا العلم ، واستخدمتها في رسالة راق لي أن أبعث بها ، تحت قناع كاهن ريفيّ ، الى أخ جديد له في الوظيفة على أن الموضوع الرئيسيّ في هذا الكتاب كان شعار ذلك الزمان ، وهو التسامح ، وكان يحظى بالتقدير لدى الأدمغة والعقول الأفضل .

وأوعزت بطبع هذه الأشياء التي خرجت الى حيز الوجود شيئاً فشيئاً ، في العام التالي على حسابي ، لأجرّب نفسي لدى الجمهور ، وأهديتها أو أعطيتها مكتبة آيشنبرج ، لبيعها قدر الإمكان من دون أن يعود اليّ من خلال ذلك بعض الفائدة . وكان تنقيحٌ هنا أو هناك ، لهذه يذكّر بها ، تذكيراً لصالحها حيناً ، ولغير صالحها حيناً آخر ، ومع ذلك فسرعان ما أصبحت نسياً منسيّاً . وكان والدي يحتفظ بها بعناية في محفوظاته ، ولولا ذلك لما كان في حوزتي نسخة منها . وسوف أضيفها ، مع بعض ما هو غير مطبوع من هذا النوع مما عثرت عليه بعدُ ، الى الطبعة الجديدة من أعمالي .

ولما كنت الآن قد تركت نفسي تنقاد ، في الحقيقة سواء في الأسلوب الكهنوتي في مثل هذه الأوراق ، أم في إخراجها ، وراء (هامّن (١) ، فانه يبدو لي هنا أن هذا هو الموضع الملائم للاتيان على ذكر هذا الرجل الجليل المؤثّر الذي كان بالقياس الينا في تلك الأيام سراً مثلما ظل كذلك دائماً بالقياس الى الوطن . وقد أثار الضجة كتابه «مآثر سقراط» وكان محبّباً بوجه خاص الى أولئك الذين لم يكن في وسعهم أن يحتملوا روح العصر الباهرة . وكان الناس يحسّون هنا برجل ضليع عميق التفكير ، وكان ، على معرفته الدقيقة بالعالم الظاهري وعالم الأدب ، ينطوي على شيء خفيّ لا يُسبرَ غوره . وكان يعبر عن

ذاته في هذا الصدد بطريقة خاصة تماماً ، وكان أولئك الذين كانوا في تلك الأيام يهيمنون على أدب اليوم يعدّونه بالطبع متعصباً عويصاً ، غير أن طائفة من الشباب الطامح كانت تنجذب اليه حقاً ، بل كان «الهادئون في البلاد» أنفسهم ، كما كانوا يُسمّون بين الهزل والجد ، وهم تلك النفوس التقيّة التي كانت تشكل كنيسة غيرمرئية مندون أن تنتمي الى أية جماعة ، كانوا يوجهون انتباههم نحوه . وكان «ساحر الشمال» بالقياس الى صاحبتي سوزانا كَلْتِنْبِرْج ظاهرة تعدّ موضع الترحيب ، ولم يكن أقل من ذلك في نظر صديقها موزر . وكان الناس يربطون بينهما ، ولا سيما حين عرفوا أنه كان يعرف ، مع عسر أحواله المنزلية ، كيف يحافظ على هذا النمط الجميل والسامي من التفكير . وقد كان من اليسير ، مع ما يتمتع به موزر من نفوذ عظيم ، تأمين حياة معتدلة ومريحة لرجل قانع كهذا . وتم التمهيد للمسألة أيضاً ، بل كان القوم قد وصلوا الى حد من التفاهم والتقارب جعل هامّن يقوم برحلة طويلة من كونجزْ برج الى دارمشتات . ولكن حين اتفق أن كان الرئيس غائباً عاد ذلك الرجل الغريب ادراجه على الفور ، لسبب لا يُعْرَف وظل مع ذلك محافظاً على علاقة ودية عن طريق الرسائل . وما زال في حوزتي رسالتان من كونجزبرج (٢) الى راعيه تقدمان شاهداً على ما يتسم كاتبهمابه من العظمة ونقاء السريرة .

ولكن مثل هذه العلاقة الحسنة لم يكن مقدراً لها أن تدوم طويلاً . فقد كان أولئك البشر الأتقياء ينظرون الى ذلك أيضاً على أنه تقيّ على طريقتهم ، وكانوا يعاملونه معاملة تنطوي على الاجلال على أنه «ساحر الشمال» ، ويعتقدون أنه خليق أن يواصل الظهور بالسلوك

اللائق ، ولكنه سبّب شيئاً من الصدمة عن طريق «السحائب(٣)» ، وهي تعقيب على «مآثر سقراط» ؛ فلما أخرج بعدها الآن أيضاً «الحملات الصليبية للفقيه اللغويّ(٤)» التي لم يكن يرتسم على غلافها الصورة الجانبية لشيطان ذي قرون على شكل عنزة فحسب ، بل كان على احدى الصفحات الأولى أيضاً ديك كبير محفور على الخشب يعطي الايقاع للديكة الصغار التي كانت تقف أمامه والنوطات معلقة بمخالبها وقد تجلّت في صورة مضحكة للغاية ، اذ كان المقصود أن تعزف على سبيل الهزل مقطوعات معينة من الموسيقا الكنسية لم يكن المؤلف يُقِرُّها . ونجم عن ذلك استياء بين أولئك الذين يمالئونه ويجاملونه لم يكتمه القوم عن المؤلف الذي لم يتعظ بذلك ؛ وانسحب من العلاقة الوثيقة . ومع ذلك فقد كان هردر يحافظ على حيوية اهتمامنا بهذا الرجل دائماً ، اذ كان ؛ وهو الذي ظلت الرسائل تتصل بينه وبين عروسه وإيّانا ، ينقل الينا كل ما كان يصدر عن ذلك العقل اللافت للنظر على الفور . وكان من ذلك أيضاً تنقيحاته وبياناته التي كان يدفع بها الى «صحيفة كونجزبرج» ، وكانت تحمل جميعاً طابعاً خاصاً . وفي حوزتي مجموعة كاملة في الغالب لكتاباته(١) ومقالة هامة جداً بخط اليد(٢) حول تقريظ هردر ، تتصل بأصل اللغة يلقي فيها أضواءً كاشفة عجيبة على هذه القطعة التجريبية لهردر ، بأشد الأساليب خصوصية (٣) .

ولم أتخلَّ عن الأمل في تدبير أمر تحقيق أعمال هامّن(٤) ؛ سواء بنفسي ، أو تشجيع ذلك على الأقل ، ثم ان الأوان قد يؤون ؛ حين تمْثُل هذه الوثائق الهامة من جديد أمام أعين الجمهور ، للحديث عن الكاتب وطبيعته وتكوينه على نحو أكثر تفصيلاً . وفي غضون

ذلك أودّ أن أوردهنا بعض الأشياء إذ يحفزني الى ذلك أن الرجال الأفاضل الذين وهبوا له محبتهم مازالوا على قيد الحياة ، وان موافقتهم وتوجيههم سيكونان موضع الترحيب عندي . على أن المبدأ الذي يمكن أن تُرَدَّ اليه كل بيانات هامّن هو هذا : « كل ما يقوم الإنسان بأدائه ، سواء أتم اخراجه عن طريق الفعل ، أو الكلمة ، لابدّ أن يصدر عن مجمل طاقاته متحدةً ، وكل ما هو متفرق فهو خليق أن يُنْبَذ » . فياله من مبدأ رائع ! ولكن اتباعه عسير . وقد ينطبق على الحياة والفن إبالطبع ، ولكن صعوبة كبيرة تعرُض في مقابل ذلك مع كل أثر منقول من خلال الكلمة التي لاتكون شعرية على وجه التخصيص . ذلك لأن الكلمة لابد لها أن تنفكّ ، ولا بد لها أن تتفرّق لتؤدي شيئاً ، ولتعني شيئاً ، ولابد للإنسان أن يكون أحاديّ النظرة في الوقت الذي يتحدث فيه بالنسبة للخطة الحاضرة . وليس هناك إفادة ولا علم دون عزل . ولكن لما كان هامّن يعارض هذا الفصل معارضة قطعية ، وكان يريد أن يتحدث في وحدة مثلما كان يحسّ ويتخيّل ويفكر في وحدة أيضاً ، ويطالب الآخرين بمثل ذلك ، فقد وقع في تناقض مع أساوبه الخاص ، ومع كل ما كان في وسع الآخرين أن يخرجوه ، ولكنه يلجأ الى كل العناصر لكي يقوم بالمستحيل ، فالنظرات المتناهية في العمق والخفاء ، حيث تتلاقى الطبيعة والفكر في الخفاء ، وومضات العقل الباعثة الضوء التي تنبعث من مثل هذا اللقاء ، والصور الهامة التي تحوم في مثل هذه الأقاليم ، والأقوال المأثورة القديسين والدنيويين من الكتاب ، وما يمكن أن يضاف الى ذلك على سبيل الفكاهة فيما عدا ذلك ، كل هذا يشكل المجموع الرائع لأسلوبه وأشكال بيانه ، واذا لم

يستطع المرء أن يصحبه الآن في الأعماق ، ولا أن يمضي معه في الأعالي ، ولا أن يتمكن من الشخوص التي كانت تلوح أمامه ، ولا أن يستخلص من أدب عولج الى حد لانهاية له مغزى موضع مشار اليه وحده على وجه التخصيص فسوف تشتد علينا وطأة الكدر والظلمة كلما أمعنا في دراسته وسوف تزداد هذه الظلمة مع السنين لأن إيماءاته كانت موجهة على نحو بارع الى سِمات خاصة معينة كانت سائدة في الحياة وفي الأدب في ذلك الحين . ويوجد ضمن مجموعتي بعض أوراقه المطبوعة التي أورد على هوامشها بخط يده المواضع التي تعود اليها إشاراته ، فاذا ما فتحها المرء كان أمامه واجب مزدوج غامض يبدو لنا بالغ الامتاع ، إلاّ أن على المرء أن يتخلىّ عمّا يسمّى في العادة فهماً . وقد تستحق مثل هذه الأوراق من أجل ذلك أيضاً أن تسمى أوراق عـرّافـة ، لأن المرء لايستطيع أن ينظر فيها لذاتها فحسب ، بل يجب عليه أن يتحيّن الفرصة التي يلجأ عندها الى هاتف الغيب ، وكلما فتحها المرء اعتقد أنه يرى شيئاً جديداً ، لأن المعنى المستكنّ في كل موضع يمسّنا ويثيرنا بطريقة متعددة الجوانب .

على أني لم أره قط شخصيّاً ، ولا كانت لي به صلة غير مباشرة عن طريق الرسائل(١ )، ويبدو لي أنه كان فائق الوضوح في علاقاته المعيشيّة وصداقاته ، وأن شعوره بعلاقات البشر فيما بينهم وبعلاقتهم معه كان شعوراً سليماً جداً ؛ وكانت كل الرسائل التي رأيتها له أكثر وضوحاً الى حد بعيد من كتبه ، لأن علاقتها بالزمان والظروف وكذلك بالشؤون الشخصية ، كانت تبرز بمزيد من الوضوح . ومع

ذلك فقد كنت أعتقد أنْ قد تبيّن لي أنه لما كان يشعر بتفوق مواهبه الفكرية شعوراً متناهياً في البساطة ، فقد كان يعدّ نفسه في كل وقت أكثر حكمة وذكاءً من مراسليه الذين كان يلقاهم لقاءً أقرب الى السخرية منه الى المودة الحميمة . ولئن كان هذا ينطبق على الحالات الفردية فقد كان بالقياس إليَّ هو الحالة الغالبة بلا ريب ، وكان هو السبب في أنني لم أَسْعَ قطُّ الى التقرب منه .

وكانت تَطّرد بيننا وبين هردر في مقابل ذلك صلة أدبية مريحة على نحو متناهٍ في الحيوية ، إلاّ أن ما يؤسف له أنه لم يكن يستطيع قط أن يحافظ على هدوئه وصفائه . ولكن هِرْدر لم يكن يمسك عن مزاحه وتأنيبه ، ولم يكن المرء يحتاج الى أن يثير مِرْك كثيراً ، وهو الذي كان يعرف كيف يستفزّني الى درجة نفاد الصبر . ولما كان هردر يبدو أنه هو الأكثر تقديراً لسويفت(١) بين كل الكتاب والبشر فقد كان يسمى فيما بيننا بالأسقف(٢) ، وكان هذا باعثاً لضروب من الأخطاء والاستياء على نحو متكرر .

وبصرف النظر عن ذلك سرّنا كثيراً أن نسمع أنه كان من المقرر تعيينه في بوكيبورج ، مما أضفى عليه شرفاً مضاعفاً : ذلك لأن راعيه الجديد(٣) كان قد اكتسب أعلى سمعة من حيث كونه رجلاً متبصراً شجاعاً على الرغم من غرابة أطواره ، وكان «توماس أبْتْ(٤)» قد غدا معروفاً ومشهوراً في مجال هذه الأعمال ، وكان الوطن يندب المتوفي ، وقد سرّه النصب التذكاريّ الذي أقامه له راعيه ، وكان من المفترض الآن أن يقوم هردر ، في مقام ذلك الذي عاجلته المنيّة ، بتحقيق كل تلك الآمال التي كان سلفه قد ابتعثها على نحو يستحق التقدير الى حد بعيد .

وكانت الحقبة التي حدث فيها هذا تضفي على مثل هذا المنصب بهاء وقيمة مضاعفين . ذلك لأن عدداً من الأمراء الألمان كانوا يحذون حذو الجراف فون ليبه ، حتى لقد كانوا لايدخلون في خدمتهم العلماء والقادرين على أداء الأعمال حق الأداء فحسب : بل كانوا يدخلون أيضاً رجالاً أولي فطنة يعدون بالكثير ، ويقال ان كلوبشتوك(٥) قد استدعي من قبل المركيز كارل فون بادن ، لا من أجل خدمات حقيقية ، بل لكي ينقل الظرف والفائدة الى المجتمع الأرقى . ومثلما تنامت بذلك أيضاً سمعة هذا الأمير العظيم كان لابد لتقدير كلوبشتوك أن يزداد على النحو ذاته زيادة ليست بالقليلة . وكان كل ما يصدر عنه محبباً وقيماً ، وكنا ننسخ القصائد الغنائية والمراثي بعناية على قدر ما كان يتاح لكل منا . ومن أجل ذلك كنا في غاية السرور حين أنشأت الأميرة الإقطاعية الكبيرة كارولينه فون هيسه — دارمشتات مجموعة منها ، ووقعت في أيدينا احدى النسخ القلائل التي أتاحت لنا أن نستكمل أعداد مجموعاتنا الخطية الخاصة . ولذلك ظلت تلك المطالعات الأولى زمناً طويلاً أحب المطالعات الينا ، بل كنا كثيراً ما نهتز ونطرب لقصائد عابها المؤلف فيما بعد . والحق أن الحياة المنبثقة عن الروح الجميلة لايزداد تأثيرها إلا حرية كلما بدا أنها اقل انجذاباً الى مادة الفن عن طريق النقد .

وكان كلوبشتوك قد عرف كيف يحقق لنفسه وللآخرين من الرجال أولي المواهب سمعة ومكانة عن طريق شخصيته وسلوكه . وكان عليهم الآن أن يدينوا له أيضاً ، وحيثما كان ذلك ممكناً ، بتأمين معيشتهم البيتية وتحسينها . وذلك أن تجارة الكتب كانت تعتمد

في الزمن السابق على الكتب الهامة العلمية الجامعية ، وعلى المواد الموجودة في دور النشر التي كانت تعود بعوائد معتدلة . ولكن انتاج الآثار الشعرية كان ينظر اليه على أنه شيء مقدّس ، وكان القوم يعدّون من قبيل التجارة الشائنة تقريباً أن يأخذ المرء عليها أجراً أو يزيد فيه . وكان الكتاب والناشرون(٢) في أروع علاقة متبادلة . وكان كلاهما يظهر ، كما كان الناس يريدون أن يفترضوا ، في صورة الرعاة والزبائن . وكان أولئك الذين ينظر اليهم من قبل الجمهور في العادة على أنهم أناس أخلاقيون الى أقصى الحدود ، الى جانب موهبتهم ، ويحظون بالتقدير ، يتمتّعون بمنزلة فكرية ، ويشعرون أنهم مَجْزِيّون بسعادة العمل ، وكان يسرّ هؤلاء أن يكتفوا بالمركز الثاني ويتمتعون بمزيّة مرموقة : أما الآن فقد أنزل اثراءُ تاجر الكتب الغنيِّ منزلةً فوق منزلة الشاعر الفقير من جديد ؛ وهكذا كان كل شيء في حالة التوازن الأمثل . ولم تكن الشهامة وعرفان الجميل المتبادلين بالأمر النادر : وظل برايتكوبف وجوتشيد طوال حياتهما رفيقَيْ منزل واحد . ولم يكن الشحّ والتقتير والدناءة ، ولا سيما عند القائمين باعادة الطبع ، قد تفاقما بعدُ .

وبصرف النظر عن ذلك كانت قد نشأت بين الكتاب الألمان حركة عامة . فقد كانوا يقارنون بين أحوالهم الخاصة ، المتواضعة جداً ، ان لم تكن بائسة ، وبين ثروة تجار الكتب المرموقين . وكانوا يتأملون مقدار عظمة مجد رجل مثل جيللرت، أو رابينر ، وضيق ذات اليد الذي يضطر كاتب ألماني محبوب على نطاق عام الى أن يرزح تحت وطأته اذا لم يهوّن على نفسه عبء الحياة عن طريق أي مورد آخر للرزق . بل كانت الشخصيات المتوسطة والأدنى

شأنا تشعر بحاجة ملحّة الى أن ترى وضعها متحسّناً ، وأن تستقلّ عن الناشرين .

وظهر الآن كلوبشتوك ، وعرض كتابه «جمهورية الأدباء(١) للاشتراك . وعلى الرغم من أن الأناشيد المتأخرة في «المسيح المنتظر» لم تستطع ، بسبب مضمونها من ناحية ، وبسبب معالجته من ناحية أخرى ، أن تحدث الأثر الذي كان للأناشيد السابقة التي جاءت ، مع نقائها وبراءتها هي ذاتها ، في عصر نقيّ بريء ، ، فقد ظل التقدير للشاعر هو ذاته دائماً ، وهو الذي عطف القلوب والعقول والنفوس عند كثير من الناس ، اليه عن طريق إخراج قصائده الرعويّة . وقد عرض كثير من الرجال ذوي النوايا الحسنة ، وفيهم عدد من ذوي النفوذ الكبير ، قبول الدفع سلفاً ، وكان ذلك بالعملة الذهبية اللويسيّة ، لأن القوم كانوا يرون أن ما يفترض فيهم في هذه المناسبة لم يكن دفع قيمة الكتاب بمقدار ما كان مكافأة المؤلف ، في هذه المناسبة على خدماته للوطن . هنالك جعل الناس جميعاً يتدافعون الآن ، حتى الفتيان والبنات ، الذين لم يكن لديهم كثيرٌ يبذلونه ، لفتح علب مدخراتهم ، وأسهم الرجال والنساء ، والطبقة العليا والوسطى ، في هذا البذل المقدّس ، وربّما وصل المشتركون الى الألف ، وبلغ التوقع أقصى ذروته ، وكانت الثقة كبيرة قدر الإمكان .

وكان لابد لهذا العمل بعد ذلك أن يحرز ، لدى ظهوره ، أغرب نجاح في الدنيا ، وكان له قيمة هامة على الدوام في الحقيقة ، على أن ملاءمته لم تكن بأقل من ملاءمة عامة . ومثلما كان كلوبشتوك

يتصور الشعر والأدب كان يتم عرض ذلك الأدب في صورة جمهورية ألمانية قديمة من طبقة الكهان الكلبيّة ، وكان يُشارُ الى مبادئه حول الأصيل والزائف في أقوال مأثورة موجزة كان يُضحىّ فيها ببعض ما هو حافل بالعبر في الصورة الغريبة . وقد كان الكتاب بالقياس الى الكتاب والأدباء ، وما زال ، شيئاً لايُقدَّر ، ولكنه لم يكن من الممكن أن يكون فعّالومجدياً إلاّ في هذا الوسط ، كما أنّ من كان يفكر بنفسه فقد كان يتبّع المفكر ، ومن كان يعرف كيف يبحث عن الأصيل ويقدّره كان يجد نفسه وقد تعلّم من الرجل الطيب العميق ، ولكن القارىء الهاوي لم يكن يحظى بالتنوير ، اذ بقي الكتاب مغلقاً دونه ، ومع ذلك فقد كان القوم قد وضعوه في متناول كل الأيدي ، وفي الوقت الذي كان القوم فيه ينتظرون الكتاب الذي يحتاجون اليه حاجة كاملة ، كان معظهم يتلقى ذلك الذي لم يكن يستطيع أن يخرج منه بأدنى ذوق . وكانت الدهشة عامّة ، ولكن التقدير للرجل كان عظيماً الى حد لا يمكن أن يصدر معه تذمّر ولا غمغمة خافتة . وكان العالم الفنيّ الجميل يسلّي عن الخسارة ويَهَب الآن ، عابثاً ، النسخ التي ظفر بها بثمن باهظ . وقد تلقيت أنا بعض النسخ من صديقات فاضلات ، ولكن لم يبق لديَّ منها شيء .

وقد نشأ عن هذا المشروع الذي نجح فيه الكاتب وأخفق فيه الجمهور النتيجةُ السيئة ، وهي أنه ما عاد من الوارد الآن التفكير في الاشتراك ولا في المشتركين . ومع ذلك فقد كانت تلك الأمنيْة قد بلغت من الانتشار العام ما لايمكن معه ألاّ تتجدّد المحاولة . وقد تصدّت للقيام بهذا على نطاق واسع وكامل دار ديسّاوْ للنشر(١) .

وكان من المفترض هنا أن يتمتع المثقفون والناشرون جميعاً ، في اتحاد معقود ، بالمزية المتوخّاة ، بصورة نسبيّة ، وقد بعثت الحاجة الملموسة منذ عهد طويل الى حد مزعج ثقة كبيرة هنا على نحو متكرر ، ولكن لم يكن من الممكن المحافظة عليها وقتاً طويلاً ، وكان من المؤسف أن المساهمين انفضّ بعضهم عن بعض بعد جهود قصيرة مع خسارة متبادلة .

ومع ذلك فقد تم التمهيد لاتصال سريع بين أصدقاء الأدب ، وكانت تقاويم عرائس الشعر(٢) تربط بين كل الشعراء الشباب ، وكانت الصحف(٣) تربط بين الشاعر والكتاب الآخرين ، وكان استمتاعي بالكتابة الأدبية لاحد له ، وكان سلوكي تجاه ما أخرجته سلوك اللامبالاة . ولكن لم يكن ميلي اليها يتجدد إلاّ حين كنت أجسّدها لنفسي وللآخرين من جديد في وسط اجتماعي . وكذلك كان يسرّ كثيراً من الناس أن يسهموا في أعمالي الكبيرة والصغيرة ، لأنني كنت أضطرّ كلَّ امرىء يحس في نفسه بمجرد شيء من الميل الى الكتابة والبراعة فيها ، بالحاح ، الى أن ينجز شيئاً ما ، على طريقته الخاصة ، وبصورة مستقلة . وكانوا يستحثونني جميعاً على النحو ذاته من جديد الى شعر جديد وكتابة جديدة .

وقد كان هذا الحثّ والدافع المتبادلان اللذان وصلا الى حد الإفراط ، يعطيان كل امرىء على حسب طبيعته نفوذاً باعثاً للبهجة. ومن هذه الإثارة وهذا الإبداع ، ومن هذه الحياة ، واتاحة الحياة للآخرين ، ومن هذا الأخذ والعطاء الذي كان يُمارس بنفس طليقة ، من دون أي دليل نظريّ ، من قبل عدد كبير من الفتيان ، كل بحسب طبعه الذي فُطر عليه ، من دون تحفظات ، عن هذا كله

نشأت تلك الحقبة الأدبية الشهيرة ذات السمعة الحسنة والسيئة التي اندفع نحوها جمهور من الرجال الشباب العباقرة بكل الجرأة ، وبكل الاعتداد بالنفس ، وبالقدر الذي يليق بمثل هذا الفصل من السنة على نحو خاص ، فأحدثوا باستعمال طاقاتهم بعض المتعة وبعض الخير ، وباساءة استعمال تلك الطاقات بعض الاستياء وشيئاً من الشر . وتعدّ الآثار الناجمة عن هذا المصدر ، والآثار المضادة لها الموضوع الرئيسي لهذا المجلد .

ولكن ما الذي ينبغي للشباب أن يجدوا فيه أقصى الاهتمام ، وعلى أي نحو ينبغي لهم أن يبعثوا الاهتمام بين أمثالهم ، اذا لم يكن الحب ينفث فيهم الروح ، واذا لم تكن شؤون القلب ، أياً كان نوعها ، حيّة فيهم ؟ لقد كان عليّ أن أشكو ، في الخفاء ، من غرام خاسر ، وكان هذا يجعلني ليّناً ومتسامحاً ومحبّباً الى المجتمع أكثر مما كنت في الأيام المتألقة ، حين لم يكن هناك شيء يذكرّ في بنقص أوزلّة ، وكنت أنطلق على وجهي لاتحدني قيودٌ أبداً .

وقد مزّق نياط قلبي جواب فريدريكه على وداع تحريريّ . لقد كانت اليد ذاتها ، والفكر ذاته ، والشعور ذاته ، الذي تكون تجاهي وحولي . وكان هذا الأوان أوّل شعوري بالخسارة التي كانت تعاني منها ، ولم أكن أرى امكانية للتعويض عنها ، بل حتى للتخفيف من وطأتها . كانت تتمثّل لي حاضرة كل الحضور . وكنت أحس دائماً أنني افتقدها ، على أن أسوأ ما في الأمر أنني لم أكن استطيع أن أغفر لنفسي شقاءها . لقد كانت جريتشن قد انتزعت مني انتزاعاً . أما أنيتا فقد تركتني . على أني كنت هنا المذنب أول مرة ، اذ كنت قد جرحت أجمل قلب في أعمق أعماقه ،

وكذلك كانت حقبة الندم السوداوية ، مع افتقاد الحب المألوف المنعش ، في الغاية من الإيلام ، بل لم تكن تطاق . ولكن الانسان يهفو الى الحياة ولذلك بتُّ أهتم اهتماماً مخلصاً بالآخرين . وكنت أسعى الى تخليصهم من مآزقهم ؛ وأوثّق ما كان يوشك أن ينفصم لكيلا ينتابهم مثل ما انتابني . ولذلك دأب القوم على تسميتي بالمؤتمن ، كما سمّوني «المتجول» أيضاً بسبب تجوالي في المنطقة . وكان يواتيني في هذه التهدئة لنفسي ، التي ما كانت لتُتاح لي إلاّ في الأجواء الطليقة ، وفي الوديان ، وعلى المرتفعات ، وفي الحقول والغابات ، موقع فرانكفورت الذي كان يتوسط دارمشتات وهو مبورج(١) ، وهما مَرْبَعان ممتعان كانا يتمتعان بعلاقة جيدة بفعل آصرة القربى بين كلا البلاطين . وتعودت الحياة في الشارع والتجوال كالساعي بين الجبال والأرض المنبسطة جيئة وذهاباً . وكثيراً ما كنت أذهب وحدي أو مع أصحابي في أرجاء مسقط رأسي ، وكأنه لايعنيني في شيء وأتناول الطعام في أحد المطاعم الكبرى في شارع الجسر ، ثم أواصل طريقي بعد الطعام . ويمّمت أكثر من مرة صوب الأرض العريضة ، أو الطبيعة الطليقة ، وكنت أتغنى في الطريق بأناشيد وقصائد حماسية مازال باقياً لديّ منها واحدة بعنوان «اغنية المسافر العاصفة(٢)» . وكنت أترنم بهذا اللغو الجزئي بحماسة وأنا هائم على وجهي ، اذ دهمني طقس مخيف ، ولم يكن لي بدٌّ من مواجهته .

ولم يتأثّر قلبي ، ولم يُشغَل ، وكنت أتجنّب ، مخلصاً ، كل علاقة وثيقة بالنساء ، وهكذا ظلّ خافياً عليّ أن روحاً لطيفة كانت تحوم في الخفاء حولي ، وأنا الغافل الذي لا يدري ، وكانت امرأة رقيقة لطيفة تكنّ ميلاً اليّ في الخفاء ، ولم أكن أشعر بها ؛ وكنت

من أجل ذلك على وجه الخصوص أبدو في مجلسها الأنيس أكثر إشراقاً وظُرفاً . ولم يحدث إلاّ بعد بضع سنين ، بل بعد موتها ، أن علمت بالحب السماوي الخفيّ ، بطريقة كان لابد لها أن تزلزلني . ولكني كنت بريئاً ، وكان في وسعي أن أحزن لمخلوق بريء حزناً نقياً صادقاً ، وكان يزيد ذلك الحزن رقة أن الاكتشاف تم على وجه الخصوص في حقبة أسعدني فيها الحظ بأن أعيش دونما حماسة على الإطلاق ، لنفسي ولميولي الفكرية .

ولكني كنت في الوقت الذي كان الألم لوضع فريدريكه يثير مخاوفي ، ألتمس لنفسي العون على طريقتي الخاصة ، من فن القريض ، فاستأنف الاعتراف الشعري المعهود من جديد ، لأغدوَ عن طريق هذا التفكير القائم على تعذيب النفس جديراً بالطهارة الداخلية . وقد تكون كلتا الماريتين (١) في «جوتس فون برليشنجن» ، و«كلافيجو(٢)» ، وكلتا الشخصيتين السيّئتين اللتين تقومان بدور المحبّيْن لهما ، نتائج لمثل هذه التأملات النادمة .

ولكن مثلما يتغلّب المرء في الصبا على الإصابات والأمراض بسرعة ، ، لأن هناك جهازاً سليماً للحياة العضوية يتكفّل أمر المريض ، ويستطيع أن يتيح له وقتاً ليتماثل للشفاء ، فقد ظهرت التمارين البدنية(١) على نحو موفق ، في بعض الفرص المواتية ، مفيدة الغاية ، وحظيت بتشجيع جديد ، ودُفِعْت الى مسرّات ومباهج جديدة في الحياة . وكان ركوب الخيل(٢) يحلّ شيئاً فشيئاً محلّ تلك

---

(١) مثنى ماري

(٢) مسرحيتان مشهورتان لجوته ، أولاهما مترجمة الى العربية في سلسلة مسرحيات عالمية التي تصدر بالكويت ، والثانية غير مترجمة . «المترجم»

الجولات التسكُّعيّة الكئيبة الثقيلة . وكان المرء يصل الى غرضه على نحو أسرع وأكثر متعة وراحة . وعاد الرفاق الفتيان الى ممارسة المبارزة(١) من جديد . ولكن عالماً جديداً انفتح أمامنا بوجه خاص ؛ اذ قررت على عجل أن أتزلج على الجليد(٢) الذي لم أكن جربته قط من قبل ، وبلغت منه في أجل قصير ، بالتمرين والرويّة ، والمثابرة ، المدى الضروري المشاركة في الاستمتاع (٣) بتزلُّج بهيج مفعم بالحيوية ، من دون أن أسعى الى التفوّق بوجه خاص .

على أننا كنا مدينين بهذا النشاط الجديد البهيج أيضاً الى كلوبشتوك والى حماسته لهذه الحركة السعيدة التي كانت الأحداث الخاصة تؤيدها ، اذ كانت قصائده الغنائية تقدم على ذلك شهادة لاسبيل الى الطعن فيها . وأنا أذكر بدقة تامة أنني ابتعثت في ذهني ذات صباح صقيعيّ مشرق ، وأنا أقفز من السرير ، تلك المواضع :

لقد أبهجني مجرد الشعور بالعافية
فصنعت ، وأنا أنزل بعيداً ، على الشاطىء
البلّور الذي يغطيّه ببياضه

يا لَنهار الشتاء الناشيء
كيف يجلو بضوئه البحيرة ، جلاءً رقيقاً !
وقد نثر الليل عليه طوقاً متألقاً من النجوم

وعقدت عزمي المتردّد المُتَلَجْلِج على الفور ، وطرت فوراً الى المكان الذي كان في وسع المبتدىء أن يقوم بتمارينه الأولى فيه مع شيء من البراعة . وانه لحق ! فقد كان هذا التجلّي للقوة يستحق أن يوصي به كلوبشتوك بلا ريب . اذ كان يصلنا بأكثر ألوان

الطفولة نضارة ، ويهيب بالفتى أن يستمتع برشاقته كل الاستمتاع ، ويدفع الشيخوخة المتعثّرة . وكذلك تعلقنا بهذه المتعة تعلّقاً مفرطاً ، فلم يكن يكفينا أن نقضي يوماً من أيام الآحاد الرائعة على الجليد ، بل واصلنا حركتنا حتى ساعة متأخرة من الليل . فمثلما ترهق ضروب الإجهاد الأخرى الجسد تضفي عليه هذه قوة دافعة متجددة أبداً . وكان البدر الكامل البازغ(١) من خلال السحب فوق مروج الليل الفسيحة المتحولة الى حقول من الجليد ، وريح الليل التي تتصدى لمسيرتنا بعزيفها ، والدويّ الرهيب الناجم عن الجليد الساقط مع تناقص الماء ، والصدى الغريب لحركاتنا الخاصة ، كان كل ذلك يجسّد لنا مشاهد أوسّيانية(١) تجسيداً كاملاً كل الكمال . وكان هذا الصديق حيناً ، وذلك حيناً آخر ، يدع احدى قصائد كلوبشتوك الرعوية تتجاوب أصداؤها في صوت بين الغناء والإنشاد . وحين كنا نجتمع في ضوء الغسق كان يتردد المديح الصادق لمنشىء مسرّاتنا .

أَوَلا ينبغي أن يحظى بالخلود ،
من أبدع لنا الصحة والمسرّات ،
التي لم تجُد بها الخيلُ قط في سيرها الجريء ،
والتي لاتوجد حتى في الرقص ؟

وانما يستحق مثل هذا الثناء رجل يعرف كيف يضفي النُبل على أي عمل أرضيّ وينشره على نحو ينطوي على التقدير ، بفعل حافز فكريّ !

ومثلما يتجه الأطفال الموهوبون الذين اكتمل تكوين مواهبهم

---

(١) Ossianisch ، نسبة الى Ossian من أبطال الأساطير الكلتية .

الفكرية منذ وقت مبكر ، أكتمالاً رائعاً ، متى شاؤوا ، الى أبسط ألعاب الأطفال . جديد كنا ننسى بسهولة مفرطة عملنا في الأشياء الأكثر خطراً ، ومع ذلك فقد كانت هذه الحركة المتسمة بالوحدة في الغالب ، وهذا التردد المتمهل فيما هو غير محدّد ، يبتعث من جديد كثيراً من حاجاتي الداخلية التي كانت هاجعة حيناً من الزمان . ولقد غدوت مديناً لمثل هذه الساعات بالصياغة الأسرع للأغراض القديمة .

ومنذ ذلك الوقت كانت القرون الأشد إظلاماً في التاريخ الألمانيّ تشغل فضولي ومخيلتي ، وكانت فكرة الصياغة المسرحية لجوتس فون برلشنجن في بيئته الزمانية عزيزة لديّ أثيرة عندي الى حدّ بعيد . وقرأت الكتاب الرئيسيين بنشاط ، ووجهت كل اهتمامي الى مؤلف «حول السلام العام» لِ(داتّ)(١) ، وكنت قد درسته دراسة شاملة بنشاط وجعلت أتمثّل في نفسي تلك التفاصيل الغريبة قدر الإمكان ، واستطعت أن استخدم هذه الجهود الموجهة نحو مقاصد أخلاقية وشعرية ، في جانب آخر أيضاً . ولما كان من المفترض أن أزور فيتسلار ، فقد كنت من الناحية التاريخية على أهبة الاستعداد الكامل : ذلك لأن محكمة الاستئناف (٢) كانت قد أنشِئت أيضاً نتيجة للصلح الاقليمي . وكان من الممكن أن يُعدَّ تاريخ تلك المحكمة خيطاً موجهاً هاماً عبر الأحداث الألمانية المختلط بعضها ببعض . على أن طبيعة المحاكم والجيوش تتيح أدقّ النظرات في طبيعة أي دولة ، بل أن الأمور المالية التي يعدّ الناس تأثيرها بالغ الأهمية تأتي وراء ذلك كثيراً : ذلك لأن المجموع اذا افتقر الى المال جاز له أن يأخذ

من الفرد ماجمعه وحافظ عليه بشق النفس . وهكذا تكون الدولة دائماً غنية بما فيه الكفاية .

أما مالقيت في فيتسلار فليس بذي أهمية كبيرة ، ولكنه يمكن أن يثير اهتماماً أكبر اذا لم يكن المرء يأنف من التاريخ العابر لمحكمة الاستئناف ، ليتمثّل اللحظة غير المواتية الّتي وصلت فيها أنا الى هناك .

وانما يمتاز حكام الأرض بأنهم يستطيعون ، مثلما يكونون في الحرب أشجع الناس وأوفرهم حزماً ، أن يحشدوا حولهم في السلم أحكم الناس وأكثرهم استقامة . وقد كان ينتمي الى بلاط دولة الأمبراطور الألماني مثل هذه المحكمة الّتي كانت تصحبه في جولاته في انحاء المملكة دائماً . ولكنْ لا هذه العناية ، ولا القانون السوابيّ(٣) الذي كان سارياً في جنوب ألمانيا ، ولا القانون السكوني الذي كان سارياً في شمالها ، ولا القضاة المعيّنون للحفاظ عليهما ، ولا ترتيبات التسوية بين الأنداد ، ولا الحكام المعترف بهم بموجب الاتفاقيات ، ولا المصالحات المبرمة الّتي يعقدها رجال الدين ، ولا شيء من ذلك كان في وسعه أن يهدّىء روح النزاع المستثارة الّتي كان يستفزّها عند الألمان الصراع الداخلي والحملات الأجنبية ، وبصورة خاصة الحملات الصليبية ، بل حتى تقاليد المحكمة ، بل كانت هذه تغذيها ، وتحولها الى تقليد . وقد كانت المتاعب بالغة الازعاج بالقياس الى الامبراطور مثلما كانت بالقياس الى الطبقات الأقوى ، اذ كان الصغار يثقل بعضهم على بعض بذلك ، أو يثقلون على الكبار أيضاً حين يتحدون . وكانت كل القوى الموجهة نحو الخارج مشلولة ، كما كان النظام الموجه نحو الداخل معطّلاً . وفضلاً عن ذلك فقد كانت المحكمة

السرية القديمة جاثمة على جزء كبير من الوطن . وقد يستطيع المرء أن يكون تصوراً عن أهوالها حين يتصوّر أنها انحطت الى شرطة سرية وقعت آخر الأمر في أيدي أناس ليس لهم صفة رسمية .

وقد جرّب القوم كثيراً من الأشياء من أجل تسوية هذه الظُلامة بغير طائل ، الى أن اقترحت الطبقات الاجتماعيه آخر الأمر محكمةً بالاعتماد على الوسائل الخاصة ، وبصورة ملحة . ومهما يكن من حسن النية في هذا الاقتراح فقد كان مع ذلك يشير الى توسيع الصلاحيات الطبقيّة والى تقييد في السلطة الامبراطورية . وفي عهد فريدريك الثالث تتعرّض المسألة للتلكؤ . أما ابنه مكسيميليان فيتساهل تحت الضغط الخارجي ، ويعيّن رئيس المحكمة ، وتبعث الطبقات بالقضاة المساعدين ، وكان من المفترض أن يبلغوا أربعة وعشرين ، أما في البداية فكان القوم يقتصرون على اثنى عشر .

وكان ثمة خطأ عام يقترفه البشر في مشروعاتهم ، يُعدُّ هنا أيضاً النقيصة الأساسية الخالدة في محكمة الاستئناف : فقد كانت وسائل قاصرة تستعمل من أجل هدف كبير . وكان عدد معاوني القضاة جدّ قليل ، فكيف كان ينتظر منهم انجاز المهمة الثقيلة الواسعة المدى ! ولكن من ذا الذي كان يفترض أن يلحّ في طلب الإعداد الكافي ؟ أما الامبراطور فما كان ليشجع مؤسسة كان يبدو أنها تحدث آثاراً أقرب الى مناوأته منها الى محاباته . بل كان لديه ذريعة أكبر كثيراً لتشكيل محكمته الخاصة وبلاطه الخاص(١) ؛ واذا ما تأمل المرء مصلحة الطبقات فان المحكمة ما كانت لتجديهم في الحقيقة الا في تهدئة الأعصاب ، أما أن تشفي الجرح فلم يكن

ذلك هدفاً قريباً الى أذهانهم ، ثم انه كان يضاف الى ذلك بذل جديد المصاريف ! وربما لم يكن قد أتضح للقوم كل الوضوح أن كل أمير كان يزيد في عدد العاملين في خدمته عن طريق هذه المؤسسة . وكان ذلك بالطبع من أجل هدف حاسم ، ولكن من يَهَب المال عن طيب خاطر من أجل الضروري ؟ لقد كان كل امرىء خايقاً أن يكون مسروراً إذا ما ظفر بما هو نافع بالرجاء والتوسّل .

وفي البداية كان يُفترَض أن يعيش مساعدوا القضاة من الأعطيات ثم سُمِح لهم بشيء معتدل من الطبقات الاجتماعية ، وكان كلا هذين ضئيلاً ، ولكن كان هناك رجال أولو رغبة وبراعة وجِدّ يتداركون الحاجة الكبيرة التي تلفت النظر . وتم تعيين أعضاء المحكمة . أمّا أن القوم قد تبينوا أن المسألة هنا تتصل بتخفيف السوء فحسب ، لا بمحوه ، أو أن القوم كانوا ، كشأنهم في الحالات المماثلة ، يعللون أنفسهم بالأمل في أن ينجزوا بالقليل كثيراً ، فذلك ما لاسبيل الى الفصل فيه . وجملة القول أن المحكمة كانت تتخذ ذريعة لمعاقبة مثيري القلاقل أكثر مما كانت تُتّخذ لمحو الظلم من الأساس . ولكنها لاتكاد تلتئم حتى تنبثق قوة منها ذاتها ، وتشعر بعلوّ المقام الذي وُضِعت فيه ، وتتعرّف على أهميتها السياسية الكبيرة ، وتحاول الآن أن تكتسب بالنشاط الذي يلفت النظر سمعة أكبر شأناً . وبهمة جديدة تقوم بتصريف كل ما يمكن ويجب انجازه على نحو سريع ، وكل ما يرجع الفصل فيه الى اللحظة الحاضرة ، وسوى ذلك مما يمكن الحكم فيه بسهولة . وهكذا يظهرون في كل أنحاء المملكة أولي فعالية وأهلاً التقدير . أما المسائل ذات المضمون العسير ، أي المنازعات القانونية الحقيقية ، فكانت تتخلّف وحدها ، ولم

يكن ذلك بالمأساة . وذلك أن الدولة لايعنيها إلاّ أن تكون المُلكية في يقين وثبات ،أما أن يملك الناس ما يملكون بالحق فقلّما يعنيها ذلك ومن أجل ذلك لم يكن ينشأ عن العدد الهائل المتنامي من القضايا المتأخرة ضرر للدولة . أما أولئك الذين كانوا في حاجة الى العنف فقد كان يُحسَب لهم حسابٌ بصورة مسبقة ، وكان القوم يستطيعون أن يفرغوا من أمر هؤلاء . أما الآخرون الذين كانوا يتنازعون في مُلكيّة نزاعاً قانونياً فقد كانوا يعيشون ، ويتمتعون ، ويعانون المحن على قدر ما يستطيعون ، وكانوا يموتون ، ويهلكون ، ويتصالحون اذ لم يكن هذا كله إلاّ خيراً أو شراً بالقياس الى عائلات متفرقة . أما الدولة فكانت تعود الى الطمأنينة شيئاً فشيئاً . ذلك لأن حقاً قانونياً في استعمال القوة ضد العصاة كان قد وضع في يد محكمة الاستئناف . فاذا كان في وسع المرء أن يضرب بالحرمان البابوي عرض الحائط فان هذا خليق أن يكون أشد مفعولاً .

أما الآن ، اذ كان عدد مساعدي القضاة يزداد حيناً ويتناقص حيناً آخر ، بالاضافة الى بعض حالات التوقف ، ومع انتقال المحكمة (١) من مكان الى آخر ، فلم يكن بدٌّ لهذه البقايا والأضابير أن تتنامى الى حد لا نهاية له . ولجأ القوم الآن الى الحرب بقسم من المحفوظات من شْبايَر الى أشافنبرج ، وبقسْم الى فورمز ، ووقع القسم الثالث في أيدي الفرنسيين الذين اعتقدوا أنهم استولوا على محفوظات للدولة ، وكانوا خايقين بعد ذلك أن يميلوا الى التخلص من هذا الركام من الأوراق اذا ما ارادوا أن يوجهّوا لذلك عربات الحمولة

وعند مفاوضات السلام في ويستفاليا تبيّن للرجال المجتمعين البارعين اي منجنيق يقتضيه تحريك تلك الحمولة السزيفيّة من

مكانها . وكان من المقرر الآن تعيين خمسين مساعداً للقضاة . ولكن هذا العدد لم يتحقق بلوغه قط . وكان القوم يكتفون مراراً بالنصف ، لأن النفقات كانت تبدو باهظة جداً . ولكن لو أن المهتميّن بمجملهم رأوا منفعة لهم في المسألة لأمكن القيام بهذا كله . وكان تأمين الرواتب لخمسة وعشرين من مساعدي القضاة يقتضي نحو مائة ألف جولدن . وما كان أسهل تأمين ضعفي ذلك على ألمانيا . ولم يكن من الممكن تنفيذ اقتراح تزويد محكمة الاستئناف بأمتعة كهنوتيه مسحوبة . اذ كيف كان ينبغي لكلتا الطائفتين الدينيتّين أن تتفاهما على هذه التضحية ؟ وذلك أن الكاثوليك كانوا يأبون أن يخسروا المزيد ، وكان البروتستانت يريدون أن يستخدموا كل كل ما ظفروا به لأغراض داخلية . وكان لانقسام الدولة الى حزبين دينيّيْن هنا أيضاً ، أسوأ الأثر من وجوه عدّة . وكان إسهام الطبقات في محكمتها هذه يتناقص على نحو مطرد : فكان أولو البأس منهم يسعون الى التخلص من الاتحاد . وكان الطلب يزداد بصورة مطردة على الاجازات التحررية لمنع استدعاء المرء من قبل المحكمة العليا . وكان الكبار يتخلفون عن الدفع ، وكان الصغار الذين يعتقدون أنهم يتمتعون بالحظوة يماطلون قدر وسعهم .

وما كان أصعب تأمين حاجة الدفع اليومية للرواتب ، لهذا السبب . وقد نشأ عن ذلك شُغْل جديد ، واهدار جديد للوقت بالقياس الى محكمة الاستئناف . فقد كانت العمليات السنوية المسماة بعمليات التفتيش تُعنى بذلك في الماضي . وكان الأمراء يتجهون بأشخاصهم ، أو عن طريق مستشاريهم . في الأسابيع ، أو في الشهور فحسب ، الى مكان المحكمة ، ويفتشون خزائن الأموال ،

ويستقصون البقايا ، ويقومون بعملية جبايتها . وكانوا في الوقت نفسه مفوَّضين ، اذا ما تعثّر شيء في المسار القانوني وفي المحكمة ، أو كشِف عن أية إساءة ، بتدارك ذلك ، أمّا أن يكشفوا عن نقائص المؤسسة ويزيلوها ، وأن يحققّوا في الجرائم الشخصية للأعضاء ويعاقبوا عليها ،فلم يَغْدُ ذلكجزءاً من واجبهم إلاّ فيما بعد. ولكن لمّا كان المعالجون للقضايا يريدون أن يطيلوا نَفَس الحياة لآمالهم لحظة بعد لحظة ، وكانوا من أجل ذلك يلتمسون محاكم أعلى ويسعون وراءها ، فقد أصبحت عمليات التفتيش هذه أيضاً محاكم للمراجعة والتدقيق كان الناس يأملون أن يجدوا فيها اصلاحاً للأمور في حالات معينة جليّة أول الأمر ، ثم باتوا يأملون آخر الأمر في ارجاء النزاع وتخليده في كل المسائل ، حيث كان يسهم في ذلك ، كل بدوره على حِدة ، مناشدةُ مجلس النّواب ، وتَطلُّع كلاً الحزبين الدينييّن الى المحافظة على التوازن فيما بينهما ، ان لم يكن من الممكن رجحان أحدهما على الآخر .

ولكن لو تصوّر المرء ما كان يمكن أن تكون عليه هذه المحكمةمن دون مثل هذه العقبات ،ومن دون مثل هذه الشروط المعوقة والتخريبيّة ، لما كان في وسعه أن يكوِّن هذه الصورة بالقدر الكافي من الغرابة والأهميّة . ولو كان يشغلها منذ البداية عدد كاف من الرجال ، ولو أن القوم ضَمِنوا لهؤلاء الرزق الكافي ، لغدا ذلك الأثر الهائل الذي كان يمكن أن يبلغه هذا المجتمع ، مع براعة الرجال الألمان ، أثراً لاتخطئه العين . واذاً لكانوا جديرين حقاً بلقب النواب الاتحاديين التشريفيّ الذي كان يُطلقَ عليهم في الكلام البلاغيّ ، بل كان في

وسعهم أن يرتفعوا الى قوة وسيطة متناسبة في شرفها مع كلا الجانبين بين الرئيس والأعضاء .

ولكن المحكمة كانت تجر أقدامها جرّاً بشق النفس وهي بعيدة بُعداً شاسعاً عن مثل هذه الآثار الكبيرة ، ما خلا وقت قصير في عهد كارل الخامس ، وقبل حرب الثلاثين عاماً ، على أن المرء لايفهم كيف أمكن أن يوجد لهذا العمل الكئيب الذي **لا**يتحقق من ورائه عرفان الجميل . ولكن ما يشتغل به المرء في كل يوم يرتضيه لنفسه ، حين يتمتع بالبراعة فيه ، وان لم يكن يرى على وجه الخصوص ان ثمة شيئاً ما سينجم عنه . على أن الألمانيّ بوجه خاص يتمتع بهذا النمط من العقلية المثابرة ، وكذلك ظل أعظم الرجال قدراً يشتغلون بهذه الأعمال والموضوعات طوال ثلاثة قرون . وان قاعة عرض متميّزة لمثل هذه الصور الخليقة أن تثير الآن بعدُ الاهتمام وتبعث الجرأة .

ذلك لأن الانسان البارع يظهر في مثل هذه العصور الفوضوية بالذات وهو أصلبُ ما يكون عوداً ، ومن كان يبتغي الحَسَن فهو يجد نفسه في مكانه الصحيح . وكـــان من أمثلة ذلك آن إدارة فورستبرج(١) مازالت تتمتّع بأطيب الذكريات،وبموت هذا الرجل العظيم يبدأ عصر الكثير من الاساءات المخرِّبة .

ولكن كل هذه النقائص المتأخّرة والسابقة كانت تنشأ عن المصدر الأول الوحيد ، ألا وهو عدد الأشخاص الضئيل . وكانت التعليمات تقضي بأن يقوم مساعدو القضاة بعرض القضايا بتسلسل حازم وحسب نظام محدّد . وكان في وسع **كل** امرىء أن يعرف متى سيحلّ دوره ، وأي قضية ستأتيه من القضايا الواجب عليه

عرضها ، وكان في وسعه أن يشتغل بها ، وأن يستعد لها . ولكن كانت البقايا الخبيثة تتراكم الآن ، واضطر القوم أن يقرروا انتقاء المنازعات القانونية الأهمّ وأن يعرضوها خارج نظام الدَوْر . على أن الحكم بأولويّة مسألة على المسائل الأخرى عسيرٌ مع تزاحم الحالات الهامة ؛ والاختيار ذاته يفسح مجالاً للمحاباة . ولكن حالة أخرى جديرة بالنظر أضيفت الى ذلك . وذلك أن المدقّق كان يعذب نفسه ويعذب المحكمة بنزاع معقد عويص ، وفي النهاية لم يكن يوجد أحد يصدر الحكم. وكان الفرقاء قد تصالحوا ، وتراضوا ، وماتوا ، وقد غيّروا رأيهم . ولذلك قرر القوم ألاّ يتولّوا إلاّ تلك الموضوعات التي كان يجري التذكير بها . وكانوا يريدون أن يكونوا على يقين من المثابرة المتصلة للفُرقاء ، وبذلك تمّ التمهيد لأكبر النقائص : ذلك لأن من يوصي بقضيته فلا بدّ له أن يوصي بها امرءاً من الناس ، ومن عساه يوصي بها خيراً من ذلك الذي هي بين يديه . وكان من المستحيل المحافظة على سرِّية هذه حسب النظام . وكيف كان يفترض أن تظل هذه مكتومة مع هذه الكثرة من المرؤوسين المشتركين في الاطلاع . واذا رجا المرء الاستعجال فمن الممكن بلا ريب ان يرجو المراعاة أيضاً : ذلك لأن ملاحقته لقضيته تبيّن بذاتها أنه يعدّها عادلة . وقد لا يصنع المرء ذلك على نحو مباشر ، ولكن ما من شك في أنه سيفعل ذلك عن طريق أولى المراتب الأدنى ، ولا بد من كسب مودة هؤلاء ، وعلى هذا النحو يتم التمهيد لكل المؤتمرات والرشاوى .

وكان الامبراطور جوزيف ، بدافع منه ، وتقليداً لفريدريك ، يوجه اهتمامه بادىء ذي بدء الى السلاح والى العدلية . وكان يضع

محكمة الاستئناف نصب عينيه ، ولم تكن أشكال الظلم التقليدية ، والاساءات المستحدثة قد ظلت مجهولة عنده . وهنا أيضاً كان من الواجب الإثارة ، والهــزّة ، والعمــل . ودون أن يســأل هــل هذا من امتيازاته الامبراطورية ، ودون أن يستطلع امكانية النجاح السعيد ، اقترح التحقيق ، واستعجل بافتتاحه(١) . ولم يكن القوم قد قاموا بتحقيق نظاميّ منذ مائة وستين عاماً . وكان هناك ركام هائل من الأضابير يرقد منتفشاً ويتنامى في كل عام ، اذ لم يكن في وسع سبعة عشر من المساعدين القضائيين أن يصرفوا حتى الأعمال الجارية . وكان قد تراكم عشرون ألفاً من القضايا ، وكان بالإمكان انجاز سبعين في العام ، وكان يضاف اليه ضعفاه . وكان هناك عدد غير قليل من أعمال التدقيق ينتظر المفتشين . وكان الناس يزعمون أنها تبلغ الخمسين ألفاً ، وكانت بعض أشكال التجاوز فوق ذلك تعوق سير الأعمال في المحكمة ، ولكن النقائص الشخصية لبعض المساعدين القضائيين كانت تبدو في الخلفية أنها هي الأكثر خطورة .

وحين كان من المقرر أن أذهب الى فيتسلار كان التحقيق قد مضى على عمله بضع سنوات ، وكان المدانون قد عُزِلوا ، وكان التحقيق قد قطع شوطاً بعيداً . ولمّا لم يكن يجوز الآن لخبراء القانون الدستوري الألماني وأساتذته أن يدعوا هذه الفرصة تفوتهم لعرض وجهات نظرهم وتقديمها من أجل المصلحة العامة ، فقد ظهر العديد من الكتابات المتعمقة ذات المقاصد الحسنة ، التي كان في وسع المرء أن يستخلص منها معلومات أساسية بمجرد امتلاكه المعلومات الأولية . واذا ما رجع المرء في هذه المناسبة الى دستور الدولة ، والكتابات التي تتناوله كان مما يلفت نظره أن الحالة الفظيعة لهذا الجسد المريض

على نحو مطلق ، والذي لم تكن المحافظة عليه لتتم إلاّ بمعجزة ؛ كانت تلائم المثقفين بوجه خاص أعظم الملاءمة ، ذلك لأن الهمّة الألمانية العالية ، تلك التي كانت تندفع نحو تحصيل المعلومات الدقيقة أكثر مما تندفع نحو النتائج ، كانت تجد هنا حافزاً لاينضب معينه ، يدفع الى عمل متجدد أبداً . وكان في وسع القوم الآن أن يضعوا الدولة في مواجهة الامبراطور ، والطبقات الاجتماعية الأدنى في مواجهة الطبقات الأعلى ، والكاثوليك في مواجهة البروتستانت . وكان هناك دائماً ، تبعاً للمصالح المتباينة ، آراء مختلفة بالضرورة ، وفرصة دائمة لصراعات جديدة ، وردود معاكسة . ولما كنت قد تصورت في نفسي كل هذه الأوضاع القديمة والجديدة قدر الإمكان لم يكن في وسعي أن أؤمل كثيراً من المتعة في إقامتي في فيتسلار ، إذ لم تكن أبواب الأمل تجتذب المرء الى العثور على عالم مزدوج في مدينة حسنة الموقع حقاً ولكنها صغيرة وسيئة البناء ، فكان هناك أولاً المدينة الأصلية القديمة التقليدية ، ثم مدينة غريبة جديدة . وكان هناك تكليف بفحص هذه فحصاً دقيقاً ، وهي محكمة موجِّهة وموجَّهة ، وكان الخوف والقلق يساوران نفوس فريق من السكان من أن يُزَجَّ بهم بعدُ أيضاً في التحقيق المرسوم ، وأن يوصَم أفراد مرموقون طالما كان يُنظَر اليهم نظرة التقدير بأشنع الجرائم ، ويعاقبوا عقاباً مخزياً ، كان هذا كله يشكل أكثر الصور مأساوية ، وما كان ليجتذب المرء الى المزيد من التعمق في المسألة التي بدت الآن ، على ما فيها من تعقيد في حد ذاتها ، بالغة الاضطراب بفعل

الاساءات . وكنت أعتقد أنني أرى بصورة مسبقة أنني لن ألفي هنا ، ما خلا القانون الدستوري والقانون المدني الألماني ، شيئاً علمياً بصورة خاصة ، وأنني سوف استغني عن كل تعبير شعري ، حين ساقني الى هذا المضمار ، بعد شيء من التردد، حسب تغيير أوضاعي أكثر مما ساقني اليه دافع المعرفة . ولكن ما كان أشدّ عجبي حين عرضت لي ، بدلاً من المجتمع المتجهم حياةٌ جامعيةٌ ثالثة . وذلك أنني كنت التقي ، على مائدة مطعم كبرى ، بكل الشخصيات الثانوية في البعثة تقريباً ، وهم رهط من الشباب المرحين ، وكانوا يستقبلونني بمودة ، ولم يبقَ خافياً عليّ منذ اليوم الأول أنهم كانوا يضفون المرح على اجتماعهم برواية رومانسية(١) . وذلك أنهم كانوا يعرضون لوحة لعبة الفروسية ، بظرف ومرح . وكان يجلس في الأعلى قائد الجيش ، والى جانبه المستشار ، ثم أهم موظفي الدولة ، ويليهم الآن الفرسان حسب أقدميتهم ، أما الأجانب الذين كانوا يسدون المشورة فلم يكن لهم بدٌ من أن يرتضوا أدنى الأماكن . وكان الحديث غير مفهوم بالقياس اليهم في معظم الأحيان لأن اللغة كانت قد اغتنت ببعض الإيماءات فضلاً عن التعبيرات الخاصة بالفرسان . وأطلق على كل منهم اسم من أسماء الفرسان مع لقب . أمّا أنا فقد سمّوني «جوتس فون برليشنجن» البليغ . وكنت قد استأهلت ذاك باهتمامي بالجدّ الألمانيّ الطيب ، وهذا بتعلّقي المخلص وتبجيلي لعظماء الرجال الذين تعرّفت عليهم ، وقد غدوت في هذه الإقامة مديناً بكثير من الشكر للجراف فون كيلما نسينج(١) ، فقد كان أكثرهم جدّاً ، فائق البراعة ، فائقاً

في إمكان الاعتماد عليه ، وكان فون جوبيه(٢) رجلاً يصعب أن يُسبَر غوره ويصعب وصفه ، ذا قوام صلب ، عريض هانوفري ، هادئاً ، منطوياً على نفسه ، ولم يكن ينقصه مواهب من نوع ما ، وكان الناس يحسبونه ابن الطبيعة ، وكان يحب أيضاً شخصية معينة حافلة بالأسرار ، ويكتم أخص رغائبه وأغراضه ضمن إطار بعض الأمور الغريبة ، اذ كان يمثل الروح الحقيقية لنادي الفرسان العجيب ، من دون أن يطمح الى مكانة قائد الجيش ، بل ترك القوم يختارون امرءاً آخر ، اذ مات في هذا الوقت بالذات رأس الفرسان هذا ، وكان يمارس نفوذه من خلال ذلك ، وكذلك كان يعرف أيضاً كيف يوجه بعض المصادفات الى تلك الوجهة بحيث كانت تبدو ذات أهمية ، وكان يمكن تنفيذها بأشكال خرافية ، ولكن لم يكن في وسع المرء أن يلاحظ في هذا كله غرضاً جدياً ، اذ كان كل ما يعنيه أن يعمل على اشاعة البهجة في الملل الذي لم يكن ثمة بدٌّ له ولأصحابه أن يحسّوا به في عملهم المتعثّر الخطى ، وليملأوا الفراغ ، ولو كان ذلك بمجرد نسيج العنكبوت . وكانت هذه اللعبة الساخرة آخر الأمر تمارس بجدّ ظاهري كبير ، من دون أن يجد أحدهم من المضحك أن تُعامَل مطحنةٌ على أنها قصر ، والطحانُ على أنه سيد الحصن ، وأن يرى المرء في «أبناء هايمون الأربعة(٣)» كتاباً في القانون الكنسيّ ، وأن يتلو فقرات منه في الطقوس تلاوة خاشعة . وكان يتم القبول ذاته ، للفارس في مرتبته ، مع رموز تقليدية مستعارة من أنظمة متعددة للفروسية . ثم كان من البواعث الرئيسية للفكاهة أن القوم كانوا يعاملون ما هو مكشوف كما يعاملون سراً من الأسرار ، فكانوا يمارسون الشيء علانية ، ولم يكن يجوز أن يجري الحديث عنه ، وطبعت

لأئحة مجموع الفرسان ، بكثير من اللياقة ، كما تطبع تقاويم مجلس النواب ، وحين كانت الأُسَر تجرؤ على السخرية من هذا وترى المسألة كلها عبثاً وشيئاً يدعو الى السخرية كان يجري التآمر وقتاً طويلاً لمعاقبتها الى أن يكون القوم قد دفعوا زوجين جادّين ، أو قريباً حميماً ، الى الدخول معهم ، وقبول مرتبة الفارس ، اذ كان ينجم عن استياء ذويه سرور رائع بالأذى .

وقد تسلّل الى نظام الفروسية هذا نظام غريب آخر كانت يقصد به أن يكون فلسفيا وصوفياً ، ولم يكن له اسم حقيقي . وكانت المرحلة الأولى تسمى الانتقال ، والثانية الانتقال من الانتقال ؛ والثالثة الانتقال من الانتقال الى الانتقال ، والرابعة من انتقال الانتقال الى انتقال الانتقال . أما تفسير المعنى السامي لهذه السلسلة من المراحل فكان مهمّة المطلعين . وكان هذا يتم بالاستناد الى كتيب مطبوع تُفَسَّر فيه تلك الكلمات الغريبة بطريقة أشد غرابة ، أو يعمدون بالأحرى الى المبالغة فيها . وكان الاشتغال بهذه الأشياء هو الأكثر إقبالاً من بين ضروب تزجية الفراغ . وكان يبدو أن حماقة بيهرِش ، والطبيعة المعكوسة عند لِنْتسِ ، قد اتحّدتا هنا ، ولكني أكرر أنه لم يكن هناك سبيل الى العثور على أيّ أثر من هدف وراء هذه الأستار .

وعلى الرغم من أنه كان يسرّني جداً أن أدلي بالمشورة في أمثال هذه المقالب ، كما أنني أصلحت أول الأمر الفقرات المأخوذة من «أطفال هايمون الأربعة» ، وقدمت مقترحات تتصل بكيفية تلاوتها في الأعياد والحفلات ، كما كنت أعرف ، أنا ، كيف أتلوها بنفسي ، بتوكيد عظيم ، فقد كنت أرهقت نفسي منذ وقت سابق

بممارسة هذه الأشياء ، ولذلك فحين افتقدت بيئتي في فرانكفورت ودار مشتات سرّني أعظم السرور أن أجد جرتّر(١) الذي صحبني متعلقاً بي ومخلصاً ، وقابلته بعاطفة حميمة . وكان رقيق القلب ، نقيّ السريرة ، طَلْق الأسارير ، وكانت موهبته تتسم بالتمرس والإحكام ، وكان يجتهد في الأناقة الفرنسية ، ويستمتع بذلك الجزء من الأدب الانكليزي الذي يتناول الموضوعات الأخلاقية والموضوعات الممتعة . وكنا ننفق كثيراً من الساعات في تبادل المعلومات والمقاصد والميول ، وكان يَحْفِزُني الى بعض الأعمال الصغيرة ، كما كان يطلب شيئاً من قصائدي لتقويم «بوا(١)» ، اذ كان على علاقة بأهل جوتنجن .

وعن هذا الطريق تهيأ لي بعض الصلة بأولئك الذين كانوا متماسكين وهم الشباب والموهبون ، وكان لهم فيما بعد أثر كبير متعدد الجوانب. وكان كلا الجْرافَيْن(*)(٢)من آل شتولبرج ، وبورجن وفوس وهولتي ، وآخرين ، يلتفّون حول كلوبشتوك عقيدةً وفكراً ، وهو الذي كان أثره يمتد الى كل الأنحاء . وفي الوقت نفسه كان تفكير آخر أيضاً يتطور ضمن هذا الوسط الأدبي الألماني الآخذ بالاتساع على نحو مطرد ، مع أعمال شعرية متعددة الأشكال ، ولم أكن أعرف له اسماً حقيقياً تماماً أطلقه عليه ، وربما كان في وسع المرء أن يسميه الحاجة الى الاستقلال ، التي تنبثق دائماً في السلم ، وبوجه خاص هناك حيث لايكون المرء في الحقيقة مرتبطاً . أما في الحرب فان المرء يحتمل من القوة الوحشية قدر ما يستطيع ، وهو

---

(*) تثنية الجراف – من ألقاب النبالة عند الألمان ، يقابل الكونت عند الفرنسيين.

يشعر أنه مصاب حقاً في جسده وفي اقتصاده ، لا في أخلاقه ، والقسر لا يلحق العار بأحد ، وليس من قبيل الخدمة المعيبة أن يكون المرء في خدمة الزمان ، وانما يعتاد المرء أن يعاني من العدو والصديق ، وهو ينطوي على رغبات لا أفكار . أمّا في السلم فتنبثق روح الحرية في الانسان على نحو مطرد ، وكلما ازداد المرء حرية ازداد رغبة في الحرية ، ومن شأن الانسان ألاّ يطيق شيئاً فوق ذاته ، فنحن لا نريد أن يُضيّق علينا ، ولا ينبغي أن يُضيّق على أحد ، وهذا الشعور الرقيق ، بل المريض ، يظهر في النفوس الجميلة في صورة العدالة ، وقد كانت هذه الروح ، وهذا الحّس ، يتجلّيان في كل مكان في تلك الأيام ، ولمّا لم يكن هناك على وجه الخصوص إلاّ قلائل يعانون من الضغط فقد أراد الناس أن يحرروا هؤلاء أيضاً من الضغط العارض . وهكذا نشأ نزاع أخلاقيّ معين ، وتدخلٌ من قبل الأفراد في الحكومة أدى ، مع بداياته الجديرة بالثناء ، الى نتائج وخيمة الى حد لاسبيل الى الإحاطة به

وكان فولتير قد نال شهرة كبيرة من خلال الحماية التي أسبغها على أسرة كالاس . وتبوّأ مكانة رفيعة . أما في ألمانيا فقد كان ما قام به لافاتر ضد الحاكم(١) يكاد يكون أكثر لفتاً للنظر وأكثر أهمية ، اذ كان الحس الجمالي المرتبط بجرأة الشباب يطمح الى التقدم . ولما كان القوم يدرسون منذ عهد قريب فحسب من أجل الوصول الى الوظائف فقد أخذوا الآن يتجهون الى المشرف على الموظفين ، وقد أزف الوقت الذي كان كاتب المسرحيات والروايات يلتمس فيه أبطاله الأشرار بين الوزراء وأصحاب المناصب(٢) ، ومن هنا نشأ عالم نصفه متخيّل ونصفه واقعي ، يتسم بالتأثر والتأثير المقابل ،

وهو العالم الذي شهدنا فيه بعد ذلك أعنف ضروب الادعاء والاستثارة التي كان كتاب المجلات(٣) والصحف اليومية يسمحون بها لأنفسهم مقرونة بنوع من الحنق تحت ستار العدالة . وكان يزيدهم انصرافاً الى هذا العمل على نحو لا سبيل الى مقاومته أنهم كانوا يدخلون في روع الجمهور أن ما يمثّل أمامه انما هو المحكمة الحقّة : وانه لسخف ! اذ ليس للجمهور سلطة تنفيذية ، ولم يحدث أن نفع الرأي العام في ألمانيا الممزقة أحداً أو ألحق الضرر بأحد .

والحق أن شيئاً من ذلك الطراز لم تلاحظ آثاره علينا معشر الشباب ، وقد كان خليقاً أن يكون موضع اللوم ، ولكن تصوراً معيناً مماثلاً كان قد استحوذ علينا ، وكان في الحق غير ذي ضرر ، اذ كان يصدر عن الشعر والأخلاق والطموح النبيل معاً ، ولكنه كان مع ذلك عديم الجدوى .

وكان كلوبشتوك قد أعطى حافزاً رائعاً عن طريق «موقعة هرمان(٤)» وعن طريق تقديم هذه الى جوزيف الثاني . فقد صور الألمان الذين تحرروا من ضغط الرومان تصويراً رائعاً محكماً ، وكانت هذه الصورة ملائمة حقاً لبعث الشعور بالذات في الأمة . ولكن لمّا كانت الوطنية في السلم تقوم على مجرد ان يعود كلٌّ الى وجهته(٥) . وينتظر وظيفته ويتعلم درسه لتكون أحواله المنزلية على ما يرام فان الشعور الوطني الذي أثاره كلوبشتوك لم يجد موضوعاً كان في وسعه أن يمارس ذاته من خلاله . وكان فريدريش قد أنقذ شرف جزء من الألمان في مواجهة عالم متحالف . وأتيح لكل عضو في الأمة أن يسهم في انتصار هذا الأمير عن طريق استحسانه وتقديره . ولكن أين يذهب القوم بشعور التحدي ذلك المستثار ، وأي وجهة

كان من الواجب أن يتخذها ، وأي أثر كان ينبغي أن يحدثه ؟
لقد كانت المسألة تتمثل أول الأمر في القالب الشعري وأغاني شعراء الشمال الألماني(١) التي طالما كان يُطعَن فيها ، بل كانت ترى مدعاة للسخرية ، وكانت تتراكم بفعل هذا الدافع ، وبفعل هذه الصدمة . ولم يكن هناك أعداء ظاهرون يجب محاربتهم فجعل القوم يتمثلون الطغاة ، ولم يكن بدٌّ للأمراء وخدمهم أن يفرّطوا من أجل ذلك بشخوصهم ، بصورة عامة أول الأمر ، ثم بصورة خاصة شيئاً فشيئاً . وهنا انضم الشعر بقوة الى ذلك التداخلّ المشار اليه آنفاً ، في المعالجة الحقوقية . وانه لمما يلفت النظر أن نرى قصائد من ذلك العصر كتبت كلها بروح واحدة ، يُستَبْعَد فيها كل شيء رفيع ، سواء أكان ملكياً أم ارستقراطياً .

أما ما يتصل بي فقد استأنفت استخدام فن القريض للتعبير عن مشاعري وخواطري ، وثمة قصائد قصيرة ، مثل «المسافر(٢)» ، تدخل في هذه الحقبة ، وقد أدرجت في «تقويم ربّات الشعر في جوتنجن» . أمّا ما كان قد تغلغل في نفسي من ذلك الداء فقد سعيت الى التحرر منه بعُيَيْد ذلك ، في «جوتس فون برليشنجن(٣)» ، اذ وصفت كيف يقرر الرجل الطيب الحسن التفكير ، في عصر الخراب ، أن يحل محل القانون والسلطة التنفيذية ولكن اليأس ينتابه حين يظهر أمام الزعيم الموقّر المعترف به في صورة ملتبسة ، بل في صورة المتمرد .

على أن قصائد كلوبشتوك الرعوية لم تمهد الطريق للأساطير الشمالية(٤) في فن الشعر الألماني بمقدار ما مهّدت أحدوثة [illegible] آلهتها ، وعلى الرغم من أنه كان يسرني في العادة أن استخدم كل ما أصل اليه فانني لم أستطع مع ذلك أن أحمل نفسي على استخدام

هذه الأسماء . وكان مردّ ذلك في الحقيقة الى الأسباب التالية ؛ فقد كنت قد تعرفت على أساطير «الإيدا» منذ عهد طويل من مقدمة كتاب «مالّيه(٥)» في التاريخ الدانماركي ، وتمكنت منها على الفور . وكانت تنتمي الى تلك الأساطير التي كان يسرني أعظم السرور أن أرويها اذا ما طلب اليّ ذلك رهط من الناس ، ووضع هردر في يدي كتاب (ريسينيوس(٦) وزاد في معرفتي بأساطير البطولة ، ولكني لم أستطع أن أدخل كل هذه الأشياء ، مهما يكن تقديري لها ، في مجال مقدرتي الأدبية ، ومهما يكن من روعة اثارتها لمخيلتي فقد كانت تستعصي على الرؤية المحسوسة على حين كانت أساطير الاغريق التي تحولت عن طريق عظماء فناني العالم الى شخوص مرئية يسهل تخيلها ، وكانت ما تزال ماثلة أمام عيوننا بمقدار كبير . ولم أكن أكثر من إظهار الآلهة مطلقاً ، لأنها كانت بالقياس اليّ ما تزال تتخذ مُقامَها خارج الطبيعة التي كنت أعرف كيف أحاكيها ، وما الذي كان خليقاً أن يدفعني الآن إلى إحلال فودان محل جوبيتر ، وتور محل مارس ، والى ادخال صور ثانوية ، بل مجرد صدى كلمات ، في أدبي ، بدلاً من الشخصيات الجنوبية الموصوفة بدقة ؟ لقد كانت من ناحية تنتمي بالأحرى الى الأبطال الأوسيانيين(١) الذين لاشكل لهم كذلك ، ولكن على نحو أكثر فجاجة وتعملُقاً ، ومن الناحية الأخرى كنت أنحو بها منحى الأسطورة المرحة لأن المسحة الفكاهية التي تشيع في الأسطورة الشمالية كلها كانت محبّبةً اليّ . لافتةً للنظر الى حد فائق . وكانت تبدو لي الوحيدةَ التي تمازح نفسها بنفسها مطلقاً ، في مقابل سلالة عجيبة من الآلهة العمالقة المغامرين والسحرة والكائنات المهولة التي لايشغلها إلاّ تضليل أرفع الشخصيات أثناء

حكمها ، والسخرية منهم ، وتهديدهم بعد ذلك بانهيار فظيع لا مندوحة عنه . .

وكانت الخرافات الهندية تحظى لديّ باهتمام مشابه ، ان لم يكن مماثلاً ، وقد تعرفت عليها أولاً من خلال رحلات (دابِّر(٢)) ، وأدخلتها على النحو ذاته ، بشغف عظيم ، في مخزوني من الأساطير ، وأصبت نجاحاً عظيماً في اعادة سرد(هيكل راما(٣)) . وعلى الرغم من التعدد الكبير في جوانب شخصيات هذه الأسطورة فقد ظل القرد هانيمان(٤) مع ذلك ، الشخصية الأثيرة لدى جمهوري ، ولكن هذه الأغوال التي لاصورة لها وذات الصور الخارقة للطبيعة ، لم تستطع أن تشبعني من وجهة الشعر الحق ، اذ كانت تقع من الحقيقي الذي كان ذهني يتطلع اليه بغير هوادة ، موقعاً مفرطاً في البعد .

ومع ذلك فقد كان مقدراً لإحساسي بالجميل أن تدعمه أروع طاقة في وجه كل هذه الأشباح المجانبة للفن . وانما تكون الحقبة من حقب أدب ماحقبة سعيدة دائماً حين تعود أعمال الماضي الكبرى الى الظهور ، وتدخل في اطار الحياة اليومية ، لأنها تحدث حينئذ أثراً جديداً كل الجدّة . وكذلك أشرق علينا الضوء الهوميريّ جديداً مرة أخرى ، وكان ذلك في الحقيقة موافقاً لروح العصر الذي كان مواتياً أشدّ المواتاة لمثل هذا التجلي : ذلك لأن الإحالة الدائمة على الطبيعة أدت آخر الأمر الى أن يتعلم الناس ملاحظة أعمال الأقدمين من هذه الناحية أيضاً ، وكان ما يفعله عدد من الرحالة لإلقاء الضوء على الكتب المقدسة يقوم به آخرون من أجل هومير ، وتهيّأ

التمهيد الناس بفضل جيس (Guy's)(١) . أمّا وود(٢) فأعطى القضية عنفوانها . على أن هناك تنقيحاً من جوتنجن للأصل الذي كان في البداية شديد الندرة ، وقد عرفنا على الغاية وعلّمنا الى أي مدى تم تحقيقها .فما عدنا نرى في تلك القصائد شخصية بطولية مشدودة الأعصاب ، منتفخة(٣) مزهّوة ، بل الحقيقة المنعكسة عن حاضر مغرق في القديم ، وكنا نسعى ، ما وسعنا الجهد ، الى استخلاصها لأنفسنا . والحق أنه لم يكن من الممكن في الوقت نفسه أن يدخل في عقولنا تماماً ما كانوا يزعمون من أنه لابد للمرء ، لكي يفهم الطبائع الهوميريه حق الفهم ، أن يتعرّف على الشعوب المتوحشة وعاداتها كما يصفها لنا وصّافو الرحلات في العوالم الجديدة .ذلك لأنه لم يكن ثمة سبيل الى إنكار أن الأوروبيين صوّروا كما صوّر الآسيويون ، في القصائد الهوميرية ، وهم بالغون من الحضارة منزلة رفيعة ، وربما كان ذلك أرفع منزلة مما يحتمل أن تكون أيام الحرب الطروادية قد تمتّعت بها . ولكن ذلك المبدأ كان بلا ريب متطابقاً مع المذهب الطبيعي السائد . وكان في وسعنا أن ندعه يتبوأ مكانه الى ذلك الحد .

ومع كل هذه الشواغل التي كانت تتصل بعلم الانسان بمعناه الأعلى ، كما تتصل بفن القريض في المقام الثاني ، وفي أحبّ النواحي الي . كان لابد لي أن أعرف حقاً في كل يوم أنني كنت مقيماً في فيتسلار . وكان الحديث عن حالة أعمال التحقيق ومعوّقاتها المتفاقمة على نحو مطرد ، واكتشاف عيوب جديدة ، يتردد صداه في كل ساعة . . وهنا كانت الدولة الرومانية المقدسة تلتئم الآن مراراً ، لا لمجرد الاحتفالات الشكلية ، بل من أجل عمل يبلغ أعماق الأعماق .

ولكن لم يكن لي بدّ هنا أيضاً أن يخطر ببالي قاعة الطعام(٤) تلك الكبيرة التي خلا نصفها في يوم التتويج حيث ظل الضيوف المدعوون في الخارج لأنهم كانوا أرفع شأناً . وكانوا قد توجهوا في الحقيقة الى هنا ، ولكن لم يكن بدٌّ للمرء من أن يطلع بعدُ على أغراض أشد سوءاً . وذلك أن الافتقار الى التماسك في المجموع ، والتنافر بين الأجزاء ، كانا يتجليان على نحو مستمر ، ولم يبق سراً أن الأمراء قد أفضى بعضهم الى بعض برغبة مفادها أن المرء لابد أن يرى أليس من الممكن ، في هذه المناسبة ، أن ينتزع من الرئيس شيئاً ما ؟ أمّا ما كان لابد للتفاصيل الصغيرة الخاصة بكل نوادر الاهمال والتقصير والمظالم والرشاوى أن تخلفه من انطباع لدى إنسان شاب كان يريد الخير ، وكان يعالج دخيلة نفسه بهذه الروح ، فذلك ما كان يشعر به معه كل مستقيم فأين عسى أن ينشأ مع مثل هذه الظروف احترام للقانون وللقاضي ؟ ولكن حتى لو أن القوم كانوا قد وضعوا أعظم الثقة في الآثار الناجمة عن التحقيق ، ولو أمكنهم أن يعتقدوا أنه سيحقق مهمته العليا المرسومة ، لما كان هناك سبيل الى العثور على شفاء للفتى الطلق الأسارير الذي يمضي قدماً الى الأمام . وكانت الشكليات في هذه القضية في حد ذاتها تتجه جميعاً وجهة متعجلة . ولم يكن بدٌّ لمن أراد أن يكون له بعض التأثير وشيء من الأهمية أن يخدم دائماً من كان على الباطل فحسب ، وهو المتهم دائماً ، وأن يكون في فن المبارزة الجدلية بارعاً حق البراعة في أساليب التمويه والتحريف والتملص .

ومن أجل ذلك كنت أتيهُ أحياناً في الجانب الآخر ، ولمّا لم أكن أُوَفّق ، في هذه التسلية ، الى أعمال جمالية ، فقد كنت

أتجاوزها الى التأملات الجمالية ، اذ ان كل تنظير يشير الى نقص أو تعثّر في طاقة الانتاج ، وكنت أقوم ، مع ميرْك فيما مضى ، ومع جوتّر الآن ، في بعض الأحيان ، بمحاولة استخلاص المبادىء التي يمكن للمرء أن يتجه بموجبها الى العمل الابداعي ، ولكن لم أوفّق ، لا أنا ولا هما . أمّا ميرْك فقد كان ريبيّاً اصطفائياً ، وأمّا جوتّر فكان يتمسك بتلك الأمثلة التي تلائمه أشد الملاءمة . وكانت نظرية سولتسر(١) قد أعلنت ، من أجل الهاوي أكثر منها من أجل الفنان ، وفي مثل هذا المجال من مجالات النظر يتجه الطلب قبل كل شيء الى النتائج الأخلاقية ، وهنا ينشأ على الفور صراع بين الفئة الابداعية والفئة النفعية . ذلك لأن العمل الفني يمكن أن يكون له ، وسيكون له بالفعل ، نتائج أخلاقية ، ولكن مطالبة الفنان بالمقاصد الأخلاقية تعني إفساد صنعته .

وكنت قد درست ما قال القدماء في هذه الموضوعات الهامة منذ بضع سنين ، بنشاط ، ولئن لم يكن ذلك بطريقة متسلسلة فقد تمت قراءته بصورة متقطعة ، فلم يبق أرسطو ، ولا شيشرون ، ولا كنتليان ، ولا لونجين(١)، ولا أحد من هؤلاء من دون أن ألتفت اليه . ولكن هذا لم يُجْدِني فتيلاً : ذلك لأن كل هؤلاء الرجال كانوا يفترضون بصورة مسبقة المعاناة التي كانت منقطعة لديّ . وكانوا يقودونني الى عالم غنيّ غنىً لا حدَّ له ، بالأعمال الفنية ، وكانوا يعرضون منجزات الأدباء والخطباء العظام الذين لم يكن قد بقي من معظمهم إلاّ الأسماء،ويقنعونني بحيوية بالغة أنه لابد أن يُمَثَّل أمامنا أول الأمر فيضٌ غزير من الأشياء قبل أن يتمكن المرء من التفكير في ذلك ، وأنه لابد للمرء أن يؤدي شيئاً ما أول الأمر ،

بل لابد له أن يخطيء لكي يتعرف على كفاءاته وعلى كفاءات الأخرين ولا ريب أن معرفتي بقدر كبير من الجانب الجيد في تلك الأيام السالفة كانت على الدوام معرفة مدرسية ترتكز على الكتب، ولم تكن حيّة بحال من الأحوال. اذ كان مما يلفت النظر حقاً، ولا سيما عند أشهر الخطباء، أنهم كوّنوا أنفسهم في غمار الحياة تماماً وأن المرء لم يكن يستطيع قط أن يتحدث عن خصائص شخصيتهم الفنية من دون أن يورد معها في الوقت نفسه سماتهم النفسية الشخصية. وكان يبدو أن هذه الحال كانت عند الأدباء أقل منها عند مَنْ عَداهم، ولكن الطبيعة والفن لم يكونا يلتحمان إلاّ من خلال الحياة. وهكذا ظلت نتيجة كل تفكيري وتطلّعي تتمثّل في عزمي على أن استقصي الطبيعة الداخلية والخارجية، وأن أدعها تفرض نفسها بنفسها من خلال محاكاة قائمة على الحب.

ومن أجل هذه الضروب من التأثر التي لم تكن تهدأ في الليل ولا في النهار، كان لديّ مادتان عظيمتان، بل هائلتان، كنت في حاجة الى أن أقدّر غناهما بعض التقدير فحسب لكي أخرج بشيء ما له أهميته. وكان ذلك هو الحقبة الأقدم التي تقع فيها حياة جوتس فون برليشنجن، والحقبة الأحدث التي وُصِف ازدهارها التعيس في «آلام فرتر».

أما التمهيد التاريخي للعمل الأول فقد سبق أن تحدثت عنه. وسيكون التمهيد في الوقت الحاضر للبواعث الأخلاقية الخاصة بالعمل الثاني.

لقد كانت تلك النية المتمثلة في ارسال طبيعتي الداخلية على سجيتها تبعاً لخصائصها وترك الطبيعة الخارجية لتحدث آثارها علي

حسب خصائصها ، كانت تلك النية تدفعني الى العنصر الغريب المتصور في «آلام فرتر» وكتابتها . لقد كنت أسعى ، في قرارة نفسي الى التحرر من كل ما هو غريب ، والى تأمل الخارجيّ تأمّل المحبّ ، والى أن أدع كل الكائنـــات تحدث أثرها عليّ ابتداءً من الكائن البشري فما دون ذلك ، ممعناً في العمق الى أقصى ما يمكن عنده أن يكون قابلاً للإدراك ، كلاًّ بحسب نوعه . وعن هذا الطريق نشأت صلة قربى غريبة مع موضوعات الطبيعة كلّ على حدة ، وانسجام داخلي ، وتوافق مع المجموع بحيث كان كل تغيير ، سواء في الأماكن والمناطق ، أو في المواقيت اليومية ، أو الفصول ، أو ما عدا ذلك مما يمكن أن يحدث ، يمسّني في الصميم . وكانت نظرة الرسام تنضم الى نظرة الأديب ، وكانت المناظر الطبيعية الريفية الجميلة التي كان النهر الحبيب يبعث فيها الحياة ، تزيد في ميلي الى العزلة ، وتهيىء المناخ المواتي لتأملاتي الهادئة الممتدة الى جميع الجهات .

ولكن منذ أن فارقت ذلك المحيط العائلي في سيزنْهايم ، ثم فارقت الآن من جديد دائرة أصدقائي في فرانكفورت ودارمشتات ، ظل ثمة فراغ في صدري لم أكن أقدر على سدّه ، ولذلك وجدت نفسي في وضع يداهمنا فيه الانحدار بمجرد ظهوره ظهوراً مستتراً الى حد ما ، مداهمةً مفاجئة ، ويستطيع أن يحبط كل مقاصدنا الحسنة .

وفي الوقت الذي يكون فيه الكاتب قد وصل الى هذه المرحلة من مشروعه يشعر أول مرة بانشراح صدره في عمله . ذلك لأن هذا الكتاب يغدو منذ الآن فحسب كما ينبغي أن يكون عليه في الحقيقة . على أنه لم يعلن استقلاله ، وانما كان مرسوماً له أن يسدّ الثغرات

في حياة كاتب ، وأن يكمّل شطراً من كتاب ، ويحافظ على ذكرى ضروب من الجرأة المفقودة المهجورة ، ولكن ما تم صنعه لايعد تكراره واجباً ولا ممكناً . وعبثاً يستدعي الأديب الآن طاقات النفس المعطّلة ، وعبثاً يطالبها أن تمثل من جديد تلك العلاقات الحميمة التي كانت تجمّل له الإقامة في لانتال تجميلاً فائقاً . ومن حسن الحظ أن الفطرة كانت قد تولّت هذا الأمر من قبل ، ودفعته الى أن يستمسك في أيام الشباب ذات المقدرة بما يُدبر عنه أولاً ، ويصفه ويعرضه للملأ بالجرأة الكافية ، في الساعة المواتية . أمّا أن المقصود هنا هو كتيّب «آلام فرتر» فذلك مالا يحتاج الى مزيد من البيان . وسيكون من الواجب الافضاء، بصورة تدريجية ، ببعض الأمور عن الشخصيات الواردة فيه ، وكذلك عن الأفكار المطروحة .

وكان بين الشباب الذين كان يفترض فيهم أن يتمرّنوا بصورة مسبقة على مسار خدمتهم المقبلة ، اذ كانوا مخصّصين للسفارة ، امرؤٌ دأبنا على تسميته بالعريس . وكان يتميز بسلوك هادىء رتيب ، ووضوح في وجهات النظر ، وحزم في الفعل والقول ، وكان عمله المرح ، ونشاطه الدؤوب يتيحان له حظوة عند رؤسائه ، حتى لقد وعده القوم بتعيين قريب ، وكان له بذلك ما يبرر المبادرة الى خطبة امرأة(٢) كانت تلائم طرازه النفسي ، ورغباته كل الملاءمة . وكانت قد أثبتت أنها فائقة النشاط بعد وفاة أمها ، اذ كانت ربّة لأسرة فتية كثيرة العدد ، وتولّت وحدها العناية بشؤون أبيها في حياة الترمّل حتى غدا في وسع زوج المستقبل أن يأمل منها الشيء ذاته لنفسه ولذريته ، وأن يتوقع سعادة منزلية فائقة . وكان كل امرىء يُقِرّ ، حتى من دون أن يضع نصب عينيه أهداف الحياة هذه

من وجهة منفعتها الخاصة ، أنها امرأة محط الرغائب ، وكانت من تلكم اللواتي اذا لم يبعثن العواطف المشبوبة فقد جبلن على إثارة الإعجاب العام . وكان القوام الخفيف البنية ، الحسن التكوين ، والطبيعة النقية السليمة ، وما ينبثق عن ذلك من النشاط الحيوي البهيج ، والمعالجة الحازمة لما هو ضروري في كل يوم ، كل هذا كان قد اجتمع لها . وكنت أرتاح دائماً الى تأمل مثل هذه السجايا . وكان يسرني أن أصحب أولئك الذين يملكونها . وحين لم أكن أجد على الدوام فرصة لإسداء خدمات حقيقية اليهم كان يسرني أن أشاطرهم ، من دون الآخرين، متعة تلك المسرات البريئة المتاحة للشباب دائماً والتي يمكن اللجوء اليها دونما كبير جهد . ولما كان من المتفق عليه بعد أن النساء لايتأنقن إلا فيما بينهن ولا يعتريهن الكلل من تأنق بعضهن لبعض فقد كان أحبهن الي تلكم اللواتي ، يوحين عن طريق الحفاظ على البساطة، الى الصديق، والى العريس ، بالثقة الهادئة ، وبأن هذا يحدث له وحده، في الحقيقة ، وان حياة بأسرها يمكن أن تتصل على هذا النحو من دون كثير من ضروب التكلف . وليس من شأن أمثال هذه الشخصيات أن تشغل بنفسها كثيراً ، فلديها وقت للنظر في العالم الخارجي ، ولديها من فراغ البال ما يكفي للتوجه اليه ، ولتضع نفسها موضع الندله ، وهن يكتسبن الذكاء والفهم دونما عناء ، وقلما يحتجن الى الكتب من أجل ثقافتهن . كذلك كانت العروس ، أما العريس فكان ، بالنظر الى مزاجه المستقيم الأليف ، على نحو مطلق ، يسرع الى تعريف كل من يقدره عليها ، وكان يبدو مسروراً ، اذ كان ينهمك في القسم الأكبر من النهار في أعماله بنشاط ، حين تتسلى خطيبته في

العادة ، بعد الجهود المنزلية المبذولة ، وترفّه عن نفسها بصورة جماعية ، في نزهات وحفلات ريفية مع الأصدقاء والصديقات .
وكانت لوتّه — لأن هذا هو الاسم الذي سيطلق عليها حقّاً — قانعة متواضعة بمعنى مزدوج : أولاً بحكم طبيعتها التي كانت موجهة نحو ارادة الخير العام أكثر من توجّهها نحو ميول خصوصية ، ثم انها كانت قد وقفت نفسها لرجل كان قادراً على أن يعلن ، وهو أهلٌ لها ، استعدادة لربط مصيره بمصيرها مدى الحياة . وكانت أكثر الأجواء مرحاً تسود في محيطها . ولئن كان من المناظر الأكثر امتاعاً أن يرى المرء أن الأبوين يقدمان الى أبنائهما رعاية لاتنقطع ؛ فان مما هو أكثر جمالاً بعدُ أن يؤدي الاخوة الى الاخوة مثل ذلك . فنحن نعتقد هناك أننا نرى شيئاً أقرب الى الغريزة الطبيعية والتقليد المدني ، أما هنا فنرى شيئاً أقرب الى الاختيار والنفسّية الحرة .

على أن القادم الجديد ، الذي كان خالصاً تماماً من كل قيد ؛ وكان خالي البال في حضور فتاة تأبى ألاّ تؤوّل أكثر الخدمات كرماً على أنها خَطْبٌ لودها ، وكان من الممكن بناء على ذلك أن تكون أكثر سروراً بذلك ، ترك الأمور تجري على أعنّتها بهدوء ، ولكنه سرعان ما وقع أسيراً لها ، مكبّلاً بها ، كما كان في الوقت نفسه يلقى من الزوجين الشابين معاملة بالغة الثقة والمودة الى حد ما عاد يعرف عنده نفسه ذاتها . وقد وجد ، وهو العاطل الحالم ، اذ لم يكن ثمة حضور يكفيه ، ما كان ينقصه في صديقة كانت ، وهي تعيش من أجل السنة كلها ، تبدو كأنها تعيش من أجل اللحظة الحاضرة فحسب . وكانت تحبه مرافقاً ؛ وسرعان ما غدا لايستطيع أن يفقد قُرْبَها ، لأنها كانت وسيلته الى عالم الحياة اليومية . وسرعان

ما باتا رفيقين لاينفصلان ، في عمل متوسّع ، في الأراضي الزراعية وفي المروج ، وفي المراعي كما في الحديقة . وكان العريس اذا سمحت له أعماله أسهم بنصيبه في ذلك ، وكان الثلاثة جميعاً قد ألف بعضهم بعضاً من دون أن يقصدوا ذلك،ولم يكونوا يعرفون كيف انتهى بهم الأمر إلى ألاّ يستغني بعضهم عن بعض . وهكذا عاشوا طوال الصيف الرائع ، أغنيّةً رَعَويّة أصيلة كانت الأرض الخصبة فيها تجود بالنثر ، ، على حين يجود الهوى الخالص بالشعر . وكانوا يتسلّون بالتجوال عبر حقول الذرة الناضجة عند الصباح المخضلّ بالندى ، وكانت أغنية القُبُّرة ، وشَدْو السُمّان ألحانا مسلية ، وكان يلي ذلك ساعاتٌ من الحرّ ، ثم تهب عواصف هائلة فكان ذلك لايزيدهم إلاّ التئاماً بعضهم مع بعض ؛ وكان من اليسر أن ينشأ عن الحب المتصل بعض الاستياء العائلي ، وهكذا كان اليوم يُعقب الآخر ، وكانت الأيام جميعاً تبدو كأنها أيام الأعياد ، وكان من الواجب أن يطبع التقويم كله بالأحمر . وسوف يفهمني من يتذكر ما جرى التنبؤ به حول أصدقاء هيلواز الجديدة(١) الذي شُقوا بالسعادة : « ولسوف يحصد القنّب ، وهو جاثٍ عند قدمي حبيبته ، وسوف يتمنى أن يحصد القنّب ، اليومَ ، وغداً ، وبعد غد ، بل طوال حياته كلها .

ولا أستطيع أن أقول الآن إلاّ القليل ، على أنه كثير الى الحد الذي قد تمسّ الضرورة اليه ، عن شاب ترددإسمه كثيراً جداً في الحقبة التالية ، وكان هذا بير وسالم (٢) ابن عالم اللاهوت ذي الفكر الحرّ المرهف ، وكان هو أيضاً معيّناً لدى سفارة : كان قوامه جديراً بالإعجاب ، فهو مربوع القامة حَسَن البنية ، له وجه أقرب الى

الاستدارة منه الى الطول ، وملامح هادئة وادعة ، وكل ما عدا ذلك مما يمكن أن يكون لفتى أشقر وسيم ، ثم عينان زرقاوان جذابتان أكثر منهما ناطقتين وكانت ملابسه هي الملابس الشائعة بين ألمان المناطق الواطئة، المجلوبة في تقليد للانكليز ، من بذلة مزدوجة الذيل ، وصدار جلدي أصفر ، وملابس تحتية وحذاء ذي ساق له مهمازان أسمران . ولم يزُرْه المؤلف قط ولا رآه حواليه ، وكان يلتقي به في بعض الأحيان لدى الأصدقاء ، وكانت المظاهر الخارجية للشاب متزنة ، كما كانت متسمة بحسن القصد ، وكان له إسهام في مختلف ضروب الانتاج ، وكان يحب بوجه خاص أمثال هذه الرسوم والمشروعات التي كان القوم يستخلصون فيها من المناطق الفريده طابعها الهادىء . وكان في مثل هذه المناسبات يشارك في نقوش جيسّنَر ، ويشجع الهواه على الدراسة وفقاً لها . وكان قلّما يشارك في تلك الفروسية والمحاكاة الساخرة ، أو لا يشارك البتة ، وكان يعيش لنفسه وأفكاره . وكان الناس يتحدثون عن هوىً فائق منه لزوجة صديق . ولم يكن الناس يرونهما قط معاً ، وكانوا قلّما يعرفون ما يقولون عنه سوى أنه يشتغل بالأدب الانكليزي . ولمّا كان ابن رجل موسر فقد كان لا يحتاج الى أن ينصرف الى الأعمال انصراف القَلِق المتوجّس ، ولا إلى أن يُلْحِف في التماس التعيين العاجل .

وكانت تلك النفوس الجسْنَرية تزيد في متعة الأشياء الريفية وفي الاهتمام بها. وكانت القصيدة التي كنا نتلقاها بحماسة في محيطنا المحدود تدعنا لا نلقي بالاً الى شيء آخر منذ الآن . وكان لابد أن «القرية المهجورة» لجولد سميث(١) أن تلائم كل امرىء في ذلك

المستوى الثقافي ، بل في ذلك المحيط الفكري ، ملاءمة كبيرة ، وكان كل ما يسرّ المرء أن يراه بعينيه ، وما يحبه ويقدّره ويبحث عنه في الحاضر بشغف ، يوصَف ، لا وجوداً حيّاً فعالاً ، بل وجوداً منصرماً زائداً ، ابتغاء الاسهام في ذلك إسهاماً مَرِحاً شأن الشباب . فمن أيام الأعياد والمهرجانات في الريف ، الى القداس الكنيسي ، والأسواق السنوية ، ثم الاجتماع المهيب للكبار ، اذ يطغى عليه ولع الشباب بالرقص ، بل هناك بعدُ إسهام الفئات المثقفة . وما أكثر ما كانت هذه المباهج تبدو لائقة وقد أضفى عليها الاتزانَ الكاهنُ الريفيّ الطيب الذي كان يعرف كيف يسوّي ويحسم ما يجاوز الحد على كل حال وما يمكن أن يعطي حافزاً للمنازعات والشجار . وهنا أيضاً وجدنا من جديد صاحبنا المخلص ويكفيلد في محيطه المعروف ، ولكن لا كما كان يعيش بجسده ، بل ظلاً بعثته ألحان الشكوى الخافتة الصادرة عن شاعر المراثي الانكليزي . بل ان فكرة هذا العرض ذاتها تعد من أكثر الأفكار حظاً من النجاح بمجرد أن يَعزِم المرء ذات مرة على أن يبتعث من جديد ماضياً بريئاً بالحزن الساحر . ويالَه من نجاح أتيح للانكليزي بكل معانيه في هذا المشروع اليسير ! وشاطرت جوتّر الحماسة لهذه القصيدة الغاليّة الى أقصى الحدود ، وهو الذي وفق الى الترجمة(١) التي قمنا بها معا توفيقاً أفضل مني : ذلك لأنني كنت أنزع الى محاكاة الأهمية الدقيقة للأصل وللُغتنا في وَجَل شديد ، ولذلك كنت مطابقاً له حقاً في مواضع متفرقة ، لا في المجموع كله .

واذا كانت السعادة القصوى تكمن ، كما يقولون ، في الشوق ، واذ جاز ألاّ يتجه الشوق إلاّ إلى ما لا سبيل الى بلوغه ، فقد اجتمع

كل شيء حقاً ليجعل من الفتى الذي نصحبه في الوقت الحاضر في متاهاته ، أسعد الفانين .وذلك أن الميل الى عروس محروم منها ، والطموح الى الظفر بروائع الأدب الأجنبي لدينا واكتسابه ، والاجتهاد في محاكاة الموضوعات الطبيعية ، لا بالكلمات فحسب ، بل بقلم الرسم والفرشاة ، من دون تقنية حقيقية: كل من هذه الأمور على حدة كان خليقاً أن يكون كافياً أن يبعث الورم في القلب والضيق في الصدر . ولكن لكي يُنتَزع المكابِدُ مكابدة بالغة الحلاوة من هذه الظروف ، ولكي تؤدي به أحوال جديدة الى اضطراب جديد ، نجم الأمر التالي .

وذلك أن هوبفنر (٢) ، أستاذ الحقوق ، كان يوجد في جيسّن ، وكان بارعاً في مادته بمقدار ما كان رجلاً مفكراً فاضلاً ، وكان يحظى بالاعتراف والتقدير من قبل مِرْك وشلوسر ، ولقد طالما تمنيت أن أتعرّف عليه ، وبات من المستحسَن الآن ، اذ كان كلا ذينِك الصديقين يفكران بالقيام بزيارة له للحديث في موضوعات أدبية ، أن أتوجّه أنا كذلك في هذه المناسبة ، الى جيسّن . ولكن لمّا لم يكن من اليسير علينا ، كما كان العهدُ بذلك في خيلاء الأيام السعيدة الوادعة ، أن نستطيع القيام بشيء بطريقة مستقيمة ، بل كنا نحاول أن ننتزع ، كالأطفال الحقيقيين ، أية دعابة كانت ، حتى من الضروري ، فقد كان من المفروض أن أظهر أنا الذي كنت غير معروف ، في شخصية غريبة ، وأُرضي ولعي بالظهور متنكراً هنا مراراً . ولذلك اذ انطلقت من فيتسلار محاذياً نهر اللان ضارباً في الوادي الجميل ، وكانت أمثال هذه الجولات تصنع سعادتي القصوى من جديد ، وكنت أبتكر ، وأنهمك وأشق طريقي بالعمل ، وكنت

مرحاً مسروراً بهدوء نفسي ذاتها ، وكنت أعدُّ ما كان العالم المتناقض أبداً يطرحه عليّ في غير براعة ، وعلى نحو مختلط . ولما وصلت الى غاية طريقي التمست مسكن هـوبفنر ، وقـرعت باب حجرة دراسته ، وحين صاح بي قائلاً : « ادخل ! » تقدمت منه بتواضع مثل طالب جامعي اتجه من الكليـة الى بيته وأراد في الطريق أن يتعرّف على أعلى الرجال قدراً . وكنت مستعداً لأسئلته عن أحوالي الأكثر تفصيلاً . ورويت حكاية واقعيّة قابلة للتصديق بدا راضياً بها ، ولما بينت على أثر ذلك أنني حقوقيّ أصبت بذلك نجاحاً لابأس فيه ، لأنني كنت أعرف فضله في هذه المادة ، وأعرف أنه كان يشتغل حتى في ذلك الوقت بالقانون الطبيعيّ . ومع ذلك فقد تعثّر الحوار بضع مرات ، وبدا كأنه يتصفّح كتاباً في الأنساب أو ينظر في أمر صرفي . وكنت أعرف مع ذلك دائماً كيف أتردّد اذ كنت بلا ريب أنتظر شلوسّر الذي كانت دقة مواعيده معروفة لديّ وجاء هذا أيضاً بالفعل ، ورحّب به صديقه . ولم يلق اليّ بالاً حين نظر اليّ نظرة جانبيّة . ولكن هو بفنر جرّني الى الحديث ، وأظهر أنه رجل انساني طيب النوايا على نحو مطلق . وأخيراً ودّعتهم وأسرعت الى الفندق حيث تبادلت مع مِرْك بعض الكلمات العابرة ، واتفقنا على ما بعد ذلك .

وكان الأصدقاء قد عزموا على أن يدعوا هو بفنر الى المائدة ومعه في الوقت ذاته كريستيان ها ينريش شميد(١) ، ذاك الذي كانت له في عالم الأدب منزلة جدّ ثانوية في الحقيقة ، ولكنه كان يلعب دوراً مع ذلك . وكان قد تم الاتفاق على هذا الأمر في الحقيقة ، وكان من المفروض أن يُعاقَب على بعض ما اقترف من خطيئة

بطريقة مضحكة ، وحين كان الضيوف قد اجتمعوا في قاعة الطعام أوعزت الى النادل أن يسأل هل يأذن لي السادة أن أشاطرهم الطعام ؟ أما شلوسّر الذي كان يلوح على وجهه شيء من الجدّ حقاً ، فأبى ، لأنهم لم يكونوا يريدون لحديثهم الودي أن يكدّره ثالث ، ولكن بعد إلحاح من النادل ، وشفاعة هوبفنر ، الذي أكدّ أنني امرؤ لاضير فيه ، سُمِح لي بالدخول ، وكنت أسلك في البداية سلوك المتواضع والخجول ، ولم يكن شلوسّر ومِرْك يلجآن الى التزلُف ، وكانا يسترسلان في بعض الأمور بصراحة كأنْ لم يكن بينهما غريب . ودار الحديث حول أهم الشؤون الأدبية ، كما تناول أهم الرجال . وأظهرت الآن مزيداً من الجرأة ، ولم أدع أحداً يعوقني حين كان شلوسّر يعطيني اشارة جادّة ، وكان مِرْك يعطيني اشارة فيها شيء من السخرية . ومع ذلك فقد كنت أوجّه الى شميد كل سهامي التي كانت تصيب عوراته المعروفة لديّ حق المعرفة اصابة حادّة وأكيدة .

وكنت قد سلكت سبيل الاعتدال على مائدة خمر نوسّل . غير أن السادة طلبوا أن يقدَّم اليهم خمر أفضل ، ولم يقصّروا في إبلاغي أنا أيضاً بذلك . وبعد أن تناول الحديث كثيراً من شؤون اليوم واتخذ وجهة عامة ، وعالج القوم المسألة التي تتكرّر دائماً مادام هناك كُتّاب ، وهي هل الأدب في ارتقاء أم في انحطاط ، وهل هو في تقدّم أم في تراجع ؟ وناقش القوم هذه المسألة التي قلّما يتفق عليها المسنّون والشباب ، والمعنيّون والمنسحبون ، بوجه خاص ، مناقشة مرحة،من دون أن تتوفّر لديهم الرغبة المباشرة في التفاهم حول ذلك بصورة حاسمة . وأخيراً أمسكت بزمام الحديث ، وقلت :

«ان للآداب ، كما يبدو لي ، فصولاً تُخلِّف ، اذ تتعاقب فيما بينها ، كما يحدث في الطبيعة ، ظواهر معينة ، وتتكرّر ، كلاً حسب دوره ، ولذلك فأننا لا أعتقد أن المرء يستطيع أن يثني على أي عصر من عصور الأدب ثناءً كاملاً أو يذمّه ذماً كاملاً . وأنا لايسرني بوجه خاص ، أن يُعليَ المرء من شأن مواهب معينة إعلاءً شديداً ويمجدّها ، ويذم المواهب الأخرى ويقمعها مقابل ذلك. فان حنجرة البلبل يستثيرها الربيع ، ولكن الربيع يستثير في الوقت نفسه حُلقومَ الوقواق . والفراشات التي تستريح اليها العين ، والبعوض الذي يقع من الشعور موقعاً شديد الإزعاج، انما يستثيرهنّ حرارة الشمس ذاتها ، ولو أن المرء قدَّر هذا لما سمع الشكاوى ذاتها تتجدّد كل عشر سنين ، ، ولما تبدَّد العبث بهذه الكثرة لاستئصال هذا وذاك مما لا يروق » . ونظرت الجماعة اليّ في دهشة متسائلين من أين عسى أن يأتيني هذا القدر الكبير من الحكمة ، وهذا القدر الكبير من التسامح ؟ أمّا أنا فمضيت أقارن باطمئنان تام الظواهر الأدبية بمنتجات الطبيعة . ولست أدري كيف وصلت حتى الرخويّات وعرفت كيف استخلص منها أموراً عجيبة شتى . وقلت ان هذه مخلوقات لايستطيع المرء أن ينكر أن لها في الحقيقة نوعاً من الجسد ، بل صورة معينة . ولكن لمّا لم يكن لها عظام فان المرء لايعرف شيئاً صحيحاً يبدأ به حيالها ، وما هي بشيء أكثر من مجرد مخاط حيّ : ومع ذلك فلابد أن يحتوي البحر على مثل هؤلاء السكان أيضاً . ولما كنت استأنفت المقارنة المتعلقة باللياقة لأشير الى شميد الحاضر وهذا النوع من الأدباء الذين لاشخصية لهم لفت القوم نظري الى أن المقارنة المفرطة في التوسّع لاتعني آخر الأمر شيئاً على الاطلاق ،

فرددت بالقول : « اذاً فأنا عائد الى الأرض ! وسأتحدث عن اللبلاب فمثلما لاتحتوي تلك على عظام ، ليس لهذا جذع ، ولكنه يسره أن يلعب الدور الرئيسيّ حيثما التصق، فهو يختص بالجدران القديمة التي ليس فيها ما يمكن إفساده بعدُ على أية حال ، والناس يبعدونه عن المباني الجديدة بالبداهة . أما الأشجار فيمتصّها ، وهو بالقياس اليّ أكثر ما يكون بعداً عن الاحتمال حين يتسلق وتدلاً ، ويؤكّد أن ههنا جذع حيّ ، لأنه كساه بالخضرة » .

وعلى الرغم من أن القوم أخذوا عليّ مراراً غموض تشبيهاتي وعدم قابليتها للتطبيق ، فقد كنت أزداد على نحو مطرد نشاطاً تجاه كل المخلوقات الطفيليّة وأعددت أموري على نحو فائق الظرف ، على قدر ما كانت معلوماتي الطبيعية في تلك الأيام تتيحه لي . وفي النهاية أنشدت نشيد الهتاف بحياة الرجال المستقلين ، ونشيد الهتاف بسقوط كل المتطفلّين ، وتناولت بعد المائدة يد هوبفنر ، وشدَدْتُ عليها بخشونة ، وأعلنت أنه أطيب رجل في العالم ، وعانقته كما عانقت الآخرين آخر الأمر بحرارة حقيقية . وكان الصديق الفاضل الجديد يعتقد أنه يحلم حقاً الى أن قام شلوسّر ومِرْك بحل اللغز ، ونشرت الدعاية المكتشفة مرحاً عاماً انسجم فيه شميد نفسه الذي طاب نفساً من جديد بالاعتراف بمنجزاته الحقيقية وباسهامنا في هواياته .

ولم يكن في وسع هذا التمهيد الظريف إلاّ أن يبعث الحياة في المؤتمر الأدبي ويهيئ له الجو المواتي ، وهو الذي كان في الحقيقة محطّ الأنظار . وكان مِرْك الذي كان يشتغل بالنواحي الجمالية حيناً ، وبالأدبيّة حيناً آخر ، والتجارية أحياناً ، وقد دفع شلوسّر

ذا الفكر الثاقب والإلمام والاطلاع الواسع في قدر كبير من المواد العلمية ، الى تحرير صحيفة «بيانات مثقفي فرانكفورت (١)» في هذه السنة . وكانوا قد ضمّوا اليهم هو بفنر وأكاديميين آخرين في جيسّن ، ومربّياً من أولي الفضل في دار مشتات ، هو العميد فينك ؛ وما عدا أولئك من الرجال الأفاضل . وكان لكل منهم في مادته معلومات تاريخية ونظرية كافية ، وكانت روح العصر تدع هؤلاء الرجال يحدثون آثارهم تبَعاً لروح واحدة . وتقدّم السنتان الأوليان من هذه الصحيفة ( اذ وقعت بعد ذلك في أيد أخرى ) دليلاً رائعاً على مدى انتشار النظرة العميقة ونقاء النظرة الشاملة . وصدق عزيمة المتعاونين ، اذ تتحقق التنمية لما هو إنسانيّ وما ينطوي على المواطنة العالمية ، كما تتهيّأ الحماية للرجال الأفاضل المشهورين بحق ؛ من كل أنواع المضايقة ، ويقف الناس الى جانبهم في مواجهة الأعداء ، ولا سيما في مواجهة التلاميذ الذين يستغلّون التقاليد الآن إيذاءً لمعلميهم . ولعلّ من أكثر الأمور إمتاعاً عمليات التنقيح التي تتناول مجلات أخرى ، ومنها مجلة «المكتبة العامة» البرلينيّة ، و«دويتشر ميركور» ، حيث يعجب المرء بالبراعة في قدر كبير من الموادّ ، وبالنظرة العميقة ، وبالإنصاف ، حق الإعجاب .

أما أنا فقد تبيّن لهم أن ماينقصني لأكون منقحاً حقيقياً لم يكن أكثر من كل شيء . وكانت معرفتي التاريخية غير مترابطة . ولم يجتذبني تاريخ العالم ، ولا تاريخ العلوم ، ولا تاريخ الأدب إلاّ في عصور معينة . أما الموضوعات ذاتها فلم تجتذبني إلاّ بصورة جزئيه وإجمالية . على ان إمكانية صياغة الأشياء وتصوّرها حية في نفسي خارج سياقها ، وضعتني في حالة كنت معها أشعر أنني

في موطني تماما ، في قرن من القرون ، أو في فرع من فروع العلم من، دون أن أحيط بأي علم ،لا مـمّا سبق ولا ممّا يليه . وكذلك كانت روح نظرية عملية قد انبثقت في نفسي حتى غدوت أقدّر الأشياء تقديراً أقرب الى أن يكون مبنيا على ما ينبغي أن تكون عليه منه الى ما كانت عليه ، من دون سياق فلسفي حقيقي ،بل على طريقة القفزات . وكان يضاف الى ذلك ادراك بالغ السهولة ، وتقبّل ودي لآراء الآخرين لمجرّد أنها لم تكن تتناقض تناقضاً مباشراً مع قناعاتي .

وكان من الأمور المواتية لتلك العصبة الأدبية فوق ذلك مراسلة حيّة ، ومناقشات شخصية متواترة في الأماكن المجاورة . فكان من يقرأ الكتاب أولاً ، أو يتلوه، يجد لنفسه مساعداً ، وتجري مناقشة المسألة ، وربطها بما يتصل بها ، ثم انه اذا انتهى الى نتيجة معينة آخر الأمر ، تولى واحدٌ ادارة التحرير ، وبذلك يتسم كثير من أعمال التنقيح بالبراعة مثلما يتسم بالحيوية ، ويكون ممتعاً مثلما يكون مرضياً . وكان دور رئيس المراسم ينتهي الي في كثير جداً من الأحيان ، وكان أصدقائي يأذنون لي بالمُزاح ضمن أعمالهم أيضاً ، ثم بالدخول مستقلاً في الموضوعات التي كنت أشعر أنني أهل لها ،والتي كانت لها مكانة خاصة في قلبي . وعبثاً كنت أسعى الى ابتعاث الروح والمغزى الحقيقيين لتلك الأيام من جديد ، سواء عن طريق التصوير أو التأمّل ، لولا أن كلتا السنتين من تلك الصحيفة المذكورة تقدمان لي بذاتهما أهمّ الوثائق . وقد تظهر في المستقبل مقتطفات(١) من المواضع التي أتعرّف من خلالها على نفسي من جديد ، في المكان الملائم ، مع مقالات مشابهة .

ومع مثل هذا التبادل الحيوي للمعارف والآراء والقناعات تعرفت على هوبفنر بسرعة كبيرة وعن كثب وظفرت بمودته . وبمجرد أن كنّا وحدنا معاً تحدثت اليه عن موضوعات مادته التي كان من المفترض أن تكون مادّتي أيضاً ، ووجدت ايضاحاً وبياناً مترابطين بصورة طبيعية جداً . ولم أكن بعد في تلك الأيام أعي بوضوح أنني انما استطيع أن أتعلّم شيئاً من الكتب ، ومن خلال الحديث ، لا من المحاضرة المنبريّة المتواصلة . لقد كان الكتاب يتيح لي أن أقف عند موضع ما ، بل يتيح لي أن أنظر الى الوراء ، وذلك ما لم تكن المحاضرة الشفهية والمعلّم يستطيعان أن يتيحاه لي.وفي بعض الأحيان كانت فكرة تستحوذ على ذهني في بداية الحصة فأتعلّق بها ، ثم أفقد ما يليها ؛ وأخرج عن السياق كل الخروج ، وذلك ما كان ينتابني أيضاً في كليات الحقوق ، فاتخذت من ذلك بعض الذرائع للحديث في ذلك الى هوبفنر الذي جاراني بسرور كبير في شكوكي وهواجسي ، كما سدّ بعض الثغرات ، حتى لقد تولّدت لديّ الرغبة في الإقامة معهفي جيسّنلأكتسب العلم منه مندون أن أبتعد مع ذلك عن ميولي في فيتسلار بعداً مفرطاً . وكان كلا الصديقين يعملان بطريقة مناوئة لرغبتي هذه ، وهما لايدريان أول الأمر ، ثم وهما يدريان : ذلك لأن كليهما لم يبادرا بالخروج من هنا بنفسيهما فحسب ، بل كان لهما مصلحة بعد في اخراجي من هذه المنطقة .

وقد كشف لي شلوسّر أنه دخل أول الأمر في علاقة صداقة ، ثم في علاقة أكثر توثّقاً مع أختي ، وأنه يتطلّع الى وظيفة عاجلة ليقترن بها ، وجعلني هذا التصريح أحس بشيء من الصدمة على الرغم

من أنه كان من المفروض أن أقف على ذلك منذ عهد طويل في رسائل أختي ، ولكن من السهل علينا أن نضرب صفحاً عما يمكن أن يمسّ النظرة الحسنة التي نحملها عن أنفسنا . اذ لاحظت الآن فحسب أنني أشعر بالغيرة حقاً تجاه أختي وهو شعور قلما كنت أكتمه عن نفسي ، ولا سيما حين باتت علاقتنا ، منذ عودتي من شتراسبورج أكثر تَوَثُّقاً الى حد بعيد . وأيّ وقت لم نُزْجه بافضاء أحدنا الى الآخر بشؤون القلب الصغيرة و الخلافات المتصلة بالحب وسواها ! وهل انفتح أمامي في مجال المخيلة عالم جديد كان عليّ أن أدخلها فيه ؟ لقد كان لابد من تعريفها على أعمالي الفنية الخاصة الصغيرة ، وعلى شيء من الشعر العالمي الواسع الانتشار ، شيئاً فشيئاً . فأخذت أترجم لهاترجمة مرتجلة تلك الموضوعات من هومير التي كان في وسعها أن تشارك فيها أول الأمر . وكنت أقرأ تحتها الترجمة الحرفية لكلارك(١) بالألمانية بالقدر الممكن من الإجادة ، وكانت تلاوتي تتحول في العادة الى قوالب ونهايات عروضية . وكانت الحيوية التي كنت أصوغ بها الصور ، والعنفوان الذي كنت أعبر به عنها يزيحان كل العقبات الناجمة عن الموقع المحدّد للكلمة . ذلك لأن ما كنت أخرجه من طريق الروح كان هذا الموقع يتابعه بروحه ، وكنا نتسلىّ في بعض ساعات النهار بهذه الطريقة ، فاذا التأم عقد جماعتها استُحضِر الذئب فينريس ، والقرد هاينمان بالإجماع . وما أكثر ما كان عليّ أن أكرر سَرد القصة المشهورة عن سخرية العمالقة السحريين من (تور) ومرافقيه ، بالتفصيل ! ولذلك تبقىّ لديّ أيضاً من كل هذه الآثار الأدبية انطباع بالغ الإمتاع ، حتى انها مازالت تعد دائماً من أنفس ما يمكن أن تبتعثه

مخيلتي ، وكنت قد أدخلت أختي ضمن علاقتي بأهل دارمشتات أيضاً ، وكان لابد لحولاتنا وأسفارنا أن تشدّ علاقتنا برباط أوثق اذ كنت أتحدث اليها في الرسائل عن كل ما كنت ألقاه ، وأفضي اليها بكل قصيدة قصيرة ، حتى ولو كانت مجرد اشارة تعجب ، على الفور ، وأطلعها أولاً بأول على كل الرسائل التي كنت أتلقاها ، وعلى الأجوبة التي كنت أردّ بها عليها . وكان كل هذا النشاط الحيّ قد تعثّر منذ رحيلي عن فرانكفورت ، ولم تكن إقامتي في فيتسلار لتعود بجدوى كافية من أجل هذه التسلية . على أن الميل الى لوتّه كان مقدراً له أن يعود بجدواه على ضروب الاهتمام بأختي . وجملة القول انها كانت تشعر أنها وحيدة ، وربما شعرت أنها مهملة ، وكانت خليقة أن تعير أذناً صاغية للجهود المخلصة لرجل شريف ، وهي الجهود التي كان يفضي بها اليها بهواه الذي كان في العادة شديد التقتير فيه ، على ما كان عليه من جدّ وانغلاق ، كما كان أخا ثقةٍ جديراً بالتقدير . ولم يكن لي الآن بدٌ أن أسلم بذلك لصديقي بسعادته في الوقت الذي كنت فيه لا أكفّ عن القول انه لولا غياب الأخ لما أمكن أن تستقيم الأمور الى هذا المدى مع الصديق .

وبالطبع فقد كان صديقي وصهري المحتمل يحرص حرصاً شديداً على أن أعود الى البيت لأن التردّد الحرّ عليها يغدو ممكناً بوساطتي ، وقد كان الشعور المتصل بهذا التردد عند هذا الرجل المصاب بالهوى الرقيق على غير توقع يبدو أنه مما تمس الحاجة اليه الى أقصى الحدود . ولذلك فقد أخذ عليَّ عهداً أن ألحق به فوراً .

وكنت آمل من مِرْك الذي كان الآن في سعة من الوقت ، أن يطيل إقامته في جيسّن لأستطيع أن أنفق بعض ساعات النهار مع صاحبي هوبفنر الطيب ، اذ كان الصديق يزجي وقته في صحيفة «بيانات مثقفي فرانكفورت» ولكن لم يكن ثمة سبيل الى زحزحته ، ومثلما كان الحب يصرف صهري عن الجامعة كانت الكراهية تصرف هذا عنها . ذلك لأنه مثلما توجد مكروهات فطرية ، ومثلما لايستطيع بعض الناس أن يحتملوا القطط ، ويضيق آخرون صدراً بهذا أو ذاك ، فقد كان مرْك عدوّاً لدوداً لكل المواطنين الجامعيين الذين كانوا في ذلك الوقت يتسمون بمنتهى الفظاظة في جيسّن ، على أنهم كانوا يروقون لي تماماً ، فقد كان من الجائز حقاً أن أحتاج اليهم لأتخذ منهم أقنعة في احدى مسرحياتي الخاصة بليلة الصوم ، إلاّ أن رؤيتهم في النهار ، وصخبهم في الليل ، كانا يفسدان عليه كل ضرب من ضروب المزاج الحسن . وكان قد أنفق أجمل حقبة من أيام شبابه في سويسرا الفرنسية ، وتمتّع بعد ذلك بصحبة أهل البلاط ، وأهل الدنيا ، ورجال الأعمال ، والأدباء المثقفين . وكانت طائفة من العسكريين الذين انبعثت فيهم نزعة الى الثقافة الفكرية يزورونه ، وهكذا كان ينتقّل بحياته في وسط بالغ الثقافة . أمّا أن تلك الفوضى كانت تثير استياءه فلم يكن في ذلك مدعاة للعجب ، ولكن نفوره من الطلاب الجامعيين كان في الواقع أكثر جموحاً مما يليق برجل رصين مهما يكن من إضحاكه إيّايَ في كثير جداً من الأحيان بألوان وصفه الظريف لمظهرهم وسلوكهم الشائنَيْن . ولم تكن دعوات هوبفنر وإقناعي ليُجْدِيا فتيلاً ،

فكان من الواجب عليَّ أن أرتحل معه في أقرب وقت ممكن الى فيتسلار .

وكنت لا أكاد أستطيع الانتظار الى أن أدخلته على لوته ، ولكن حضوره في هذا الوسط لم يكن في صالحي : ذلك لأن شأنه معي كان شأن ابليس الذي قلّما يعود بطائل حيثما ولىّ وجهه ، إذ كان لا يسرني على الأقل ، بلا مبالاته تجاه هذا الشخص الحبيب وان لم يكن يبعث في نفسي الحيرة .

لقد كان في وسعي بلا ريب أن أتنبأ ، لو تذكّرت ، أن مثل هؤلاء الأفراد النحلاء المتأنّقين أنفسهم ، وهم الذين ينشرون حواليهم المرح المفعم بالحياة من دون أن يكونوا أهلاً لما فوق ذلك، لم يكونوا يعجبونه بوجه خاص ، وكان يفضل شخصية مرموقة من صديقاتهم، ولما كان يفتقر الى الوقت لانشاء علاقة وثيقة معها فقد جعل يوجه اليَّ اللوم بمرارة حقيقية لأنني لم أبذل الجهد في سبيل هذه الشخصية اللامعة ، وذلك بوجه خاص ، لأنها كانت حرة ليس لها أية علاقة ، وقال انني لاأقدّر مزيتي ، وانه ينظر ببالغ الامتعاض هنا أيضاً الى ولَعي الغريب بتبديد الوقت .

ولئن كان من الخطورة بمكان أن يعرّف المرء صديقاً على سجايا محبوبته لأنه يراها عندئذ جذّابة مرغوبة ، فان نقيض هذا الخطر ليس بأقل من ذلك ، وهو أن من الممكن أن يضلّلنا عن طريق الادلاء برأيه . والحق أن الحالة هنا لم تكن على هذا النحو : ذلك لأنني كنت قد رسّخت في ذهني صورة فِتْنَتِها ترسيخاً أعمق من أن يسهل معه محوها ، ولكن حضوره وإقناعه كان يزيد مع ذلك في سرعة اتخاذ القرار بمغادرة المكان ، وعرض علي رحلة الى الراين

كان يزمع القيام بها مع زوجه وولده ، عرضاً بالغ السحر ، وأثار شوقي الى أن أرى أخيراً بعيني تلك الأشياء التي سمعت من يتحدث عنها بالحسد ، وحين كان قد رحل فارقت شارلوتة بضمير كان في الحق أنقى منه لدى فراق فريدريكه ، على أنه لم يكن بغير ألم . وكانت هذه العلاقة أيضاً قد باتت بحكم الاعتياد والروية أكثر حرارة من الحد المعقول بالقياس الي . أما هي وزوجها فكانا يلتزمان ، مع المرح ، حدوداً ما كان من الممكن أن تكون أكثر من ذلك جمالاً ورقة . وكانت الثقة الناجمة عن هذا بالذات تدعني أنسى كل خطر . ولم يكن في وسعي في هذه الأثناء ، أن أكتم أن هذه المغامرة تواجه نهايتها ، لأن الاقتران بالفتاة اللطيفة كان يتوقف على ترقية الشاب المنتظرة أولاً ، ولما كان الانسان الذي يتحلى بشيء من الحزم يبادر أموره الضرورية بنفسه ، فقد عقدت العزم على الابتعاد طوعاً قبل أن يخرجني ما لا يمكن احتماله .



# الكتاب الثالث عشر

وتم الاتفاق مع مِرْك على أن نلتقي في فصل السنة الجميل في كوبلنتس عند السيدة فون لاروش(١) . وكنت قد بعثت بأمتعتي الى فرانكفورت ، نازلاً بما يمكن أن أحتاج اليه في الطريق الى نهر اللان . وجعلت أتجوّل الآن حول هذا النهر الجميل الساحر بمتعرّجاته ، والمتعدد الجوانب في ضفافه ، وأنا حرّ في قراري مقيّد في شعوري ، في حالة كان حضور الطبيعة ذات الحيوية الصامته باعثاً فيها على الارتياح الى حد بعيد . وكانت عيني المدرَّبة على استكشاف ألوان الجمال التصويرية وفوق التصويرية ، في المنظر الطبيعي ، تسرح في تأمّل الأنحاء القريبة والبعيدة ، والصخور المكسوّة بالأحراش ، والذُرى التي تلفحها الشمس ، والقيعان الرطبة ، والقصور المتربّعة ، وسلاسل الجبال الزُرْقِ الساحرة على البعد .

وكنت أتحوّل على الضفة اليمنى من النهر الذي كان يَنْسَرِب ، في ضوء الشمس ، على شيء من العمق والبعد عني ، وقد غَشِيَتْ أجزاءً منه أحراشٌ مُعْشَوْشِبة كثيفة ، حين انبثقت في نفسي من جديد رغبة قديمة في التمكن من محاكاة هذه الأشياء على نحو لائق . واتفق أن كان في يدي اليسرى موسى للجيب ، وفي هذه

اللحظة انطلق من القاع العميق للروح ما يشبه الأمر المُبْرم : «لقد كان عليّ أن أقذف بهذه الموسى في النهرِ دونما تلكّؤ ، فاذا رأيتها وهي تسقط فيه فستكون رغبتي الفنية قد تحقّقت ، أمّا اذا حُجِبَ غوصُ الموسى بأشجار الروابي المتدلّية فعليّ أن أتخلىّ عن الرغبة والجهد ، ولم تكد هذه الخاطرة تخطر ببالي حتّى بادرت الى تنفيذها . ذلك لأنني طوّحت بالموسى باليد اليسرى بقوة ، مثلما كنت أمسك بها ، الى النهر ،من دون أن أحفل بالحاجة اليها، وهي التي كانت تجمع في ذاتها قدراً غير قليل من الآلات . ولكن كان لابدّ لي ، هنا أيضاً ، أن ألمس ما في النبوءة من الالتباس الجليّ الذي كان الناس يشكون منه بمرارة كبيرة في العصور القديمة . وذلك أن انغماس الموسى في النهر حُجب عني بالأغصان الأخيرة للصفصاف ، ولكن الماء الذي كان يصدر ردّ فعله على السقوط كان يتواثب كفوارة قوية في الأعالي ، وكان مرئياً رؤية كاملة بالقياس اليّ ، ولم أفسّر هذه الظاهرة لصالحي ، وكان الشك الذي ثار في نفسي من جرائها فيما بعد هو السبب الذي جعلني أقوم بهذه التمارين بمواظبة أقل وبمزيد من الإهمال ، ومنحني بذلك باعثاً لتحقيق تأويل النبوءة . وكنت على الأقل زاهداً في العالم الخارجي في اللحظة الحاضرة ، وأسلمت نفسي الى تخيّلاتي وأحاسيسي ، وخلفت ورائي ، شيئاً فشيئاً القصور والمرابع ذوات الموقع الحسن ، فايلبورج ، وليمبورج ، وديتس ، وناسّاوْ ، وكنت في معظم الأحيان وحدي ، إلاّ أنني كنت أصطحب ، في بعض الأحيان فحسب ، امرءاً آخر ، الى أجل قصير .

وبعد جولة جد ممتعة ، في بضعة أيام ، وصلت الى ايمز ، حيث استمتعت بضع مرات بالحمام اللطيف ، ثم سايرت التيار على قارب في النهر . وهناك انفتح لي الراين القديم ، وسحرني موقع أوبرلانشتاين الجميل ، غير أن ما كان يبدو فوق كل شيء روعةً وجلالاً انما هو قصر (ايرنْبرايتشتاين) الذي كان ينتصب هنا بقوته وجبروته ، في تجهيز كامل ، وكان يقع عند قدميه ، في تضاد بالغ السحر ، المبنى الحسن البناء الذي يسمونه (الوادي) والذي كنت أستطيع أن أصل منه بسهولة الى مسكن المستشار الخاص فون لاروش . ولما أبلغ مِرْك عن وصولي استقبلت لدى هذه الأسرة النبيلة استقبالاً ودياً الى حد بعيد ، وسرعان ما بات يُنظر اليَّ على أنني عضو منها ، اذ كان يربطني بالأم نزعة أدبية وعاطفية ، وبالأب روح دنيويّة مرحة ، وببناتهما صباي .

وكان للبيت الواقع عند النهاية القصوى للوادي ، والمرتفع قليلاً فوق النهر ، إطلالة رحبة في اتجاه مسيرة النهر ، وكانت الغُرفات عالية فسيحة ، والجدران على شاكلة جدران المعارض ، وقد عُلق عليها لوحات رسم متلاصقة بعضُها ببعض . وكانت كل نافذة تشكل الإطار لصورة طبيعية كانت تتميّز بفعل بهاء الشمس اللطيفة تميّزاً يتسم بالحيوية البالغة ، وكنت أعتقد أنني لم أر قط مثل هذه الصباحات البهيجة ، ولا مثل هذه الأماسيّ الرائعة .

ولم يطل مُكثي طيفاً وحيداً في البيت ، اذ استُدعِيَ الى المؤتمر الذي كان من المقرر أن يُعقَد هنا بروح فنيّة من ناحية ، وبروح ذات حسّ مرهف من ناحية اخرى : لَويْكسِنْرنج (١) الذي

خرج الينا من دسلدورف ، وكان هذا الرجل ذو الاطلاع الواسع في الأدب الحديث قد اكتسب في الأسفار المختلفة ، ولا سيما إبان إقامته في سويسرا ، كثيراً من المعارف ، ولمّا كان حلو المعشر ، مداهناً ، فقد ظفر بكثير من الحُظْوة . وكان لديه عدد من الخزائن تتضمن المراسلات الحميمة مع عدد من الأصدقاء : اذ كان هناك صراحة قلبية عامة على نحو مطلق بين الناس ، بحيث لم يكن في وسع المرء أن يتحدث الى فرد من الأفراد او يكتب اليه من دون أن ينظر اليه في الوقت نفسه على أنه مُوَجّه الى طائفة من الناس . وكان المرء يستكشف قلبه ذاته وقلوب الآخرين : وسرعان ما شاع هذا التواصل الأخلاقي والأدبي مع اللامبالاة من قبل الحكومات حيال مثل هذا الإدلاء بالأنباء ، مع السرعة البالغة من جانب الجهات القائمة بتقدير الرسوم ، وأمان الخاتم ، وأجور النقل الزهيدة .

وكانت مثل هذه المراسلات ، ولا سيما ما كان منها يتصل بالشخصيات الهامّة ، تُجمَع بعناية ، ثم تتلى في اجتماعات الأصدقاء في صورة مقتطفات ، وعلى هذا النحو كان الناس يتعرّفون على اتساع مدى العالم الأخلاقي ، اذ لم تكن المقالات السياسية تثير الاهتمام .

وكانت خزائن لويْكْسنْرنْج تتضمن من هذه الوجهة بعض الكنوز ، وكانت ساتل امرأة تدعى جولي بونديلي(٣) موضع تقدير كبير . وكانت امرأة من ذوات العقل والفضل ، مشهورة بصداقتها لروسّو ، وكان كل من كانت له أية علاقة بهذا الرجل الممتاز يستمتع بالمجد الذي يشعّ منه من ناحية ، كما كانت طائفة هادئة قد انتشرت حاملة اسمه في انحاء الأرض العريضة .

وكان يسرني أن اشهد هذه المحاضرات ، اذ كنت انتقل عن طريقها الى عالم مجهول ، وأتعرّف على جوهر بعض الأحداث المنصرمة منذ عهد قريب . ولم يكن كل شيء حافلاً بالمضمون بالطبع . وكان السيد فون لاروش(٤) ، وهو من رجال الدنيا ، ومن رجال الأعمال المرحين ، يتندَّر في كتاباته على احوال الرهبان(٥) والقسّيسين ، على الرغم من كونه كاثوليكيّاً ، ويعتقد انه يرى هنا ايضاً عملية تصادُق ، حيث كان بعض الأفراد الذين لاشأن لهم يلتمسون الدعم عن طريق الارتباط بأناس من ذوي الخطر ، وكان الواحد من هؤلاء يرتقي هو من دون أولئك،وكان هذا الرجل الفاضل يعتزل الجماعة حين تفتتح الخزائن ، فاذا استمع معهم ذات مرة الى بعض الرسائل كان في وسع المرء ان يتوقع تعليقاً ماكراً . وقد قال ذات مرة ، فيما قال ، انه يلتمس من خلال هذه المراسلة مزيداً من اليقين بصدد ما كان يعتقده دائماً ، وهو ان في وسع النساء أن يوفّرن كل اختام الشمع الأحمر ، وما عليهن إلاّ ان يغلقن رسائلهن بالدبابيس وعند ذلك يحقّ لهن أن يكنّ على يقين أنها ستصل الى عنوانها من دون أن تُفتَح. وكان من عادته أن يتهكم ، بالطريقة ذاتها ، على كل ما كان يقع خارج محيط الحياة والعمل ، وكان يتبع في هذا الصدد نمط تفكير سيده ومعلمه ، الجراف شتاديون(١) ، الوزير في امارة ماينتسْ الناخبة الذي كان بلا ريب غير أهل لتحقيق التوازن بين الروح الدنيوية والروح الباردة عند الفتى عن طريق التهيّب من أي شيء ينطوي على ما يحفل بالنبوءات .

وربما كان من الملائم ، مقابل ذلك ، أن ترد هنا طرفة عن الروح العملية العظيمة للجراف . وذلك أنه حين اكتسب مودة لاروش اليتيم ،

واختاره ربيباً له ندب الفتى على الفور لأعمال أمين السر ، وكان يعطيه رسائل ليجيب عنها . وبرقيات لينشئها ، وكان لابد لهذه بعد ذلك أن يتم تبييضها من قبله أيضاً ، وكانت كثيراً ما تزوّد بالرموز ، وتختم ويكتب عنوانها ، ودام هذا سنوات عديدة ، ولما بلغ الفتى مبلغ الشباب ، وغدا في وسعه أن ينهض حقاً بما كان يقتصر حتى الآن على تخيله فحسب مضى به الجراف الى طاولة مكتب كبيرة كانت ترقد عليها رسائل ورزم كاملة ، من دون افتضاض ، محفوظة ، من تمارين الأيام الأولى .

وثمة تمرين آخر كان الجراف يطلبه من ربيبه ، ولن يلقى إعجاباً عاماً الى هذا الحد ، وذلك أن لاروش كان عليه أن يتدرّب على تقليد خط سيده ومعلمه ليزيح عن كاهله بذلك مشقة الكتابة بنفسه . ولكن لم يكن من الواجب أن تستعمل هذه الموهبة في الأعمال فحسب ، بل بل كان على الشاب أن يقوم مقام معلمه في شؤون الحب . فقد كان الجراف متعلقاً تعلقاً شديداً بسيدة شريفة ظريفة ، وحين كان يمكث في صحبتها حتى ساعة متأخرة من الليل ، كان أمين سره في أثناء ذلك يجلس في البيت ويصوغ أشد رسائل الحب حرارة ، وكان الجراف ينتقي منها ، ويبعث بالرقعة على الفور ، في الليل ، الى محبوبته التي كان لابدّ لها أن تستيقن بذلك من النار التي لايخمد أوارها عند ذلك المتبتّل المتيّم بهواها . ولا ريب أن أمثال هذه الضروب من المعاناة المبكّرة ما كان لها أن تعطي الشاب أفضل التصورات عن أحاديث الغرام المكتوبة .

وكان قد استقر في ذهن هذا الرجل الذي عمل في خدمة اثنين من الأمراء الناخبين الكهنوتيين كراهية لاسبيل الى تهدئتها ، ويبدو أنها

نجمت عن ملاحظة التشويه الفجّ المجانب للذوق والمفسد الفكر الذي دأب الرهبان في ألمانيا على ممارسته في بعض الأماكن ، وأنهم كانوا يحظرون ويفسدون كل نوع من الثقافة . وقد أثار كتابه «رسائل حول نظام الرهبنة» ضجة كبيرة وحاز القبول من البروتستانت جميعاً ، ومن كثير من الكاثوليك ، مع الاعجاب الكبير .

ولكن حين كان السيد فون لاروش يستند الى كل ما يمكن أن يسميه المرء إحساساً ، وان كان بعيداً عنه بعداً شاسعاً ، لم يكن يخفي مع ذلك ميلاً أبوياً رقيقاً الى كبرى بناته (١) التي لم تكن بالطبع إلاّ لطيفة حسنة المعشر ، فكانت قامتها أقرب الى الطول منها الى القصر ، لطيفة البنية ، ظريفة القوام في طلاقة ، ولها عينان في الغاية من السواد ، ومحيّا له لون لايمكن تصور لون أنقى منه ولا أكثر إشراقاً . وكانت هي أيضاً تحب أباها وتميل الى أفكاره . ولما كان رجلاً نشيطاً من رجال الأعمال فقد كان معظم وقته يتبدّد في الأعمال المهنيّة . ولما كان الضيوف الذين يحلّون عنده انما يجُتَذَبون في الحقيقة من قبل زوجته لا من قبله فلم يكن في وسع الجماعة أن تمنحه إلاّ قليلاً من السرور . وكان لدى المائدة طلق الأسارير مسلّياً ، وكان يحاول أن ينأى بأطباقه على الأقل عن التوابل المثيرة للحساسية .

وربما قدّر من عرف أفكار السيدة فون لاروش وطريقتها في التفكير — وقد غدت معروفة بصورة مشرفة لدى كل ألمانيّ من خلال حياة طويلة وكتابات كثيرة — أنه لابد أن ينشأ عن ذلك علاقة قائمةعلى التنافر في البيت.ولكن لم يكن الحال كذلك أبداً! فقد كانت أروعَ النساء ، ولست أعرف أمرأة أخرى أقارنها بها . وقد عرفت .

وهي الهيفاء الرقيقة البنية ، والأقرب الى الطول منها الى القصر ؛
كيف تحافظ حتى أواخر سنيّ حياتها على أناقة معينة ، سواء في
قامتها أم في سلوكها الذي كان يتراوح ، بظرفه الفائق ، بين سلوك
السيدة النبيلة وسلوك المرأة ذات المكانة من الطبقة الوسطى . وظلت ،
من حيث حُلّتُها ، هي ذاتها عدداً من السنين . وكان ثمة قبعة مجنّحة
جميلة تتلاءم تلاؤما فائقاً مع الرأس الصغير والوجه الحسن . وكانت
الثياب البنيّة أو الرمادية تضفي على حضورها رصانة وجلالاً .
وكانت تحسن الحديث وتعرف كيف تضفي على ما تقول أهمية على
الدوام . وكان سلوكها تجاه كل امرىء متماثلاً بصورة كاملة . ولكن
هذا كله لا يعبّر بعد عن أخص ما في كيانها ، اذ ان جلاءه عسير .
وكان يبدو أنها تسهم في كل شيء ، ولكن لم يكن شيء يؤثر فيها
تأثيراً عميقاً ، اذ كانت لطيفة تجاه كل شيء ، وكان في وسعها أن
تصبر على كل شيءمن دون أن تتألم.. كانت تقابل هزل زوجها ،
ورقة أصدقائها ولطف أطفالها بالطريقة ذاتها ، وهكذا ظلت دائماً
هي ذاتها من دون أن يؤثر فيها شيء في الدنيا من قبل الخير والشر ، أو
أو في الأدب من خلال الممتاز والهزيل . وكانت تدين لهذا الطراز من
التفكير باستقلالها حتى سن متأخرة في صدد بعض المصائر المحزنة ،
بل الفاجعة . ومع ذلك فلا بد لي ، لكيلا أكون متجنّياً ، أن أذكر
أن كلا ولديها اللذين كانا في تلك الأيام طفلين من ذوي الجمال الباهر
كانا يغريانها في بعض الأحيان أن تعبّر تعبيراً كان يمتاز من ذلك
التعبير الذي كانت تستخدمه للاستعمال اليومي .

وكذلك استأنفت العيش في بيئة جديدة ممتعة الى حد عجيب
حيناً من الزمان ، الى أن أقبل مرك مع أسرته . وهنا نجمت على الفور

صلات قربى جديدة مصطفاة . ذلك لأن مرْك كان قد أنشأ علاقة وثيقة بالسيد فون لاروش بحكم كونه خبيراً بأمور الدنيا وشؤون الأعمال ، ومطلعاً كثير الأسفار ، في الوقت الذي كانت فيه كلمتا السيدتين تتقاربان . وانضم الفتى الى الفتيان ، وكانت البنات من نصيبي ، وسرعان ما اجتذبتني كبراهن بوجه خاص ، وانه لإحساس جد ممتع أن تأخذ عاطفة جديدة في البزوغ فينا من جديد قبل أن يموت صدى العاطفة القديمة كل الموت . وكذلك يسر الإنسان أن يرى على الجانب المقابل للشمس الآفلة القمر بازغاً ، ويستمتع بالبهاء المزدوج لكلا الضوأيْن السماويين .

ولم يكن الأمر يفتقر الآن الى تسلية خصبة داخل البيت وخارجه ، وكان القوم يجوبون المنطقة ، ويصعدون الى قصرايرنْبرايتشياين من هذا الجانب من الراين والى دير الكارتاوزه(١) من ذلك الجانب منه ، وكانت المدينة ، وجسر الموزل ، وزورق العبور الذي كان ينقلنا عبر الراين ، كل ذلك كان يتيح لنا أكثر المتع تنوّعاً . وكان القصر الجديد مازال غير مشيدّ . وقادنا القوم الى المكان الذي كان من المفروض أن يشيّد فيه ، وعرضوا علينا المخططات الأولية المقترحة .

ومع ذلك ففي هذا الظرف البهيج تولّدت من الداخل مادة انعدام التوافق التي تظهر في العادة آثارها المعادية في المجتمعات المثقفة مثلما تظهرها في المجتمعات غير المثقفة . وذلك أن مرْك الذي كان بارد الأعصاب ومضطرباً في الوقت نفسه ، ، كان قد شارك في الاستماع الى تلك المراسلات منذ عهد غير بعيد حين أذاع بعض الخواطر الخبيثة حول الأشياء التي كان يجري الحديث عنها ، وكذلك عن الأشخاص وعلاقاتهم ، غير أنه أفضى إليّ ، خفيةً ، بأغرب الأشياء

التي كان من المفروض أن تكون طيّ الكتمان في الحقيقة . والحق أن الحديث لم يكن يتناول الأسرار السياسية بحال من الأحوال ، ولا أيَّ شيء له ارتباط معين في سياق ما ، وإنما نبهنّي فحسب الى أناس يعرفون كيف يهيّؤون لأنفسهم ،من دون مواهب شخصية ، وببراعة معينة ، نفوذاً شخصياً ، ويحاولون ، عن طريق التعرف على كثير من الناس ، أن يجعلوا من أنفسهم شيئاً ما ، ومنذ هذا الوقت أتيحت لي الفرصة لملاحظة مزيد من أمثال هذه الأمور . ولمّا كان أمثال هؤلاء الأشخاص يغيّرون مكانهم في العادة ، ويحلّون ، وهم الرحالة ، هنا حيناً وهناك حيناً آخر ، فان فضل الجدّة يأتي لصالحهم ، وهو الفضل الذي لاينبغي للمرء أن يحسدهم عليه ، ولا أن يفسده عليهم . لأن هذه هي المسألة التقليدية التي طالما كان كل رحالة يرى فيها خيراً له وكل مقيم يرى فيها شراً له .

ومهما يكن الآن من أمر هذا فقد كنا منذ ذلك الوقت نغذي اهتماماً معينا مشوباً بالقلق ، بل بالحسد ، بأمثال أولئك الذين كانوا يغدون ويروحون على نفقتهم ، وكانوا يلقون عصا التسيار في كل مدينة ، ويسعون الى الظفر بالنفوذ لدى بعض العائلات على الأقل . وقد صوّرت واحداً من هؤلاء الرفاق في مجموعة «الأب براي» ، (١) وآخر أكثر براعة وخشونة في احدى مسرحيات ثلاثاء المَرْفَع التي سيرد الحديث عنها في المستقبل ، وتحمل عنوان «الساطير(٢) ، أو عفريت الغابة المؤلّهْ» بطريقة ان لم تكن منصفة فقد كانت ذات فكاهة مستحسنة .

وكانت عناصر الغرابة في هذه الأثناء ما تزال تتفاعل في مجموعتنا الصغيرة على نحو مقبول تماماً . وكنا مقيدين بالأخلاق ونمط

الحياة الخصوصيّين من جهة ، ولكن كان يخفف من وطأتها من جهة ثانية تلك الطريقة الخاصة لربة الدار التي لم تكن تتأثر بما يجري حولها إلاّ قليلاً ، فكانت تسترسل دائماً في تصوّرات مثالية معينة ، وكانت تتمكن ، بمعرفتها كيفية الاعراب عن مثل هذه التصورات بطريقة ودّية تتسم بالدماثة ، من تخفيف وطأة كل ما يظهر في المجموعة ممّا يتسم بالحدّة ، وتسوية كل أمر شائك .

وكان ميرك قد أذّن بالرحيل في الوقت المناسب تماماً ، فافترقت الجماعة وهي في أفضل أحوالها ، وارتحلت معه ومع ذويه على يخت عائد الى ماينتس صاعداً في الراين ، وعلى الرغم من أن هذا الأمر كان بطيئاً جداً في حد ذاته ، فقد التمسنا من ربان السفينة فوق هذا ألاّ يتعجّل . وهكذا استمتعنا بالأشياء ذات الوجوه المتنوعة الى حد لانهاية له ، والتي كانت تزداد ، مع الطقس البالغ الروعة ، جمالاً في كل ساعة ، وكانت تبدو كأنها تتبدّل أبداً من جديد ، سواء في عظمتها أم في عذوبتها ورقتها ، ولست أتمنى وأنا أذكر أسماء راينفلز ، وسانت جور وباخاراخ ، وبنجن ، وايلفيلد وبيبرش ، إلاّ أن يكون كل واحد من قرائي قادراً على أن يستدعي الى ذاكرته هذه المناطق .

وكنا قد قمنا بالرسم بنشاط ، ورسّخنا بذلك على الأقل تعاقب الصور بآلاف الوجوه على تلك الضفة الرائعة ، ترسيخاً أعمق . على أن علاقتنا ازدادت عمقاً بهذا الاجتماع الطويل ، وبتبادل وجهات النظر بصورة حميمة حول أمور شتى ، الى درجة اكتسب عندها ميرك نفوذاً كبيراً لديّ ، كما غدوتُ أنا بالقياس اليه كياناً مريحاً لايستغنى عنه ، وكان بصري الذي زادت الطبيعة من حدته ينطلق من جديد

الى التأمل الفني . وكانت مجموعات فرانكفورت الجميلة من اللوحات الزيتية والنقوش النحاسيّة ، تتيح لي أفضل الفرص . وإني لمدين بكثير جداً الى ذوق السادة إيتلنج(١) ، وايهرنْرايش ، وبصورة خاصة الى نوتْناجل(٢) الطيب . وكانت رؤية الطبيعة في الفن قد غدت هوىً جارفاً لم يكن له بد في لحظات ذروته ، أن يبدو في نظر الهواة الآخرين ، حتى المشغوفين منهم ، قريباً من الجنون ، وأنىّ يتهيّأ لمثل هذا الميل رعاية أفضل من رعايته عن طريق التأمل المتواصل لأعمال الهولنديين الممتازة . ولكي أتعرّف على هذه الأشياء بطريقة عملية أيضاً ، أخلى لي نوتناجل حجرة كنت أجد فيها كل ما كان ضرورياً للرسم الزيتي ، ورسمت بعض الرسوم البسيطة من الحياة الهادئة مأخوذة عن الواقع . وكان في احداها قبضة سكيّن لشيلدبات ، مطعّمة بالفضة ، فاجأت أستاذي الذي كان قد زارني منذ ساعة فحسب ، مفاجأة جعلته يزعم أنه لابد أنّ أحداً من الفنانين كان معي ممّن هم دونه مرتبةً .

ولو أنني واظبت على التدّرب على هذه الموضوعات مواظبة الصبور ، لأضفيَ عليها الضوء والظل ، وخصائص سطحها العلويّ ، لاستطعت أن أكوِّن لنفسي ممارسة معينة ، وأن أشق الطريق الى ما هو أعلى . ولكن خطأ كل الهواة المتذوقين(٢) ، وهو البدء بالأصعب ، بل ارادة تحقيق المستحيل ، كانا يلاحقانني ملاحقة شديدة ، وسرعان ما تورّطت في مشروعات أكبر ظللت فيها أراوح مكاني ، سواء لأنها كانت تتجاوز طاقاتي الفنية تجاوزاً بعيداً ، أم لأنني لم استطع أن أحافظ على فعالية الاهتمام المنطوي على الشغف والنشاط الدؤوب اللذين يحقق بهما المبتدىء أيضاً شيئاً ما .

ثم ان جوّاً أعلى كان ينتزعني من ذلك في الوقت ذاته مراراً ، على حين كنت أجد الفرصة لتحضير بعض التماثيل الجميلة المصبوبة بالجص لرؤوس من الآثار القديمة . وذلك أن الإيطاليين الذين كانوا يشهدون المعارض كانوا يحملون معهم أحياناً نسخاً جيدة من هذا النوع ، ويبيعونها بعد اتخاذ قالب لها . وعلى هذه الطريقة أنشأت لنفسي متحفاً صغيراً ، اذ كنت أؤلّف على نحو تدريجيّ بين رؤوس اللاوكون(٤) وأبنائه وبنات نيوبي ، ولم يكن بأقل من ذلك أهم أعمال العصر القديم المصغّرة وقد اشتريتها من مخلّفات واحد من أصدقاء الفن ، وكنت أحاول على هذا النحو أن أبعث الحياة من جديد في ذلك الانطباع الكبير الذي كنت قد اكتسبته في مانهايم ، قدر الإمكان .

وفي الوقت الذي كنت فيه الآن أسعى الى صياغة ما كان يستمد حياته من الموهبة أو الهواية أو أي ميل آخر كان لديّ ، وتغذيته وامداده بأسباب الحياة ، كنت أنفق وقتاً غير قليل من النهار ، بناء على رغبة والدي ، من أجل المحاماة(١) التي وجدت ، بالمصادفة ، أفضل الفرص لممارستها . وكان عمي تِكستور(٢) قد وصل الى مجلس الشورى بعد وفاة جدي ، وكان يعهد اليّ بالقضايا الصغيرة التي كنت قد نضجت لها ، وذلك ما كان الأخوان شلوسّر(٣) يقومان به أيضاً . وتعرّفت على الأضابير ، وكان والدي يقرؤها كذلك بسرور كبير ، اذ كان يرى نفسه من جديد ، بتحريض من ولده ، منهمكاً في عمل كان قد استغنى عنه منذ أمد طويل . وكنا نتناقش فيها . ثم انني كنت أعد المرافعات بسهولة كبيرة ، وكان تحت تصرفنا نسّاخ ممتاز(٤) كنا نستطيع الاعتماد عليه في الوقت ذاته من أجل كل الرسميات الديوانية . وهكذا كان هذا العمل يتحوّل عندي الى تسلية أكثر امتاعاً ،

وذلك بوجه خاص لأنه قربني الى أبي الذي كان راضياً كل الرضى عن سلوكي في هذه النقطة : وكان يطّلع على كل ما عدا ذلك مما كنت أمارسه بسرور ، وهو ينتظر انتظار المَشوق أن أجني عمّا قريب مجداً أدبياً أيضاً .

ولما كان كل شيء ، في كل حقبة ، يتعلّق بعضه ببعض : اذ تتشعّب الآراء والأفكار السائدة بأشد الطرق تعقيداً ، فقد كان القوم الآن يتبعون في علم الحقوق أيضاً ، وعلى نحو تدريجي ، كل تلك المبادىء التي كانوا يتناولون الدين والأخلاق بموجبها . وكانت النزعة الانسانية(٥) منتشرة بين المحامين ، وهم الأصغر سناً ، وبين القضاة ، وهم الأكبر سناً ، وكان القوم يتسابقون جميعاً الى التحلي بالانسانية : حتى في العلاقات الحقوقية ، الى أقصى الحدود . فكان يجري إصلاح السجون ، وتُلْتَمَس المعاذير للجرائم ، وتُخَفّف العقوبات ، ويُسهّل تثبيت النسب عن طريق الزواج ، ويُشجّع الطلاق في حالات الزواج غير الناجح . وقد تسنّم أحد أصحابنا المحامين ذروة المجد حين تمكّن بالكفاح ، من تأمين الدخول في هيئة الأطباء لابن جلاّد . وعبثاً كانت النقابات والهيئات تقاوم ، فقد كان يتم اختراق سدّ بعد آخر . وكان تسامح الأحزاب الدينية بعضها تجاه بعض لا يُعلّم فحسب بل يُمارَس . على أن القانون المدنيّ تعرّض لخطر تأثير أكبر حين اجتهد الناس في التداعي الى التسامح تجاه اليهود، بالعقل والفطنة والقوة في عصر الروح الطيبة . وكانت هذه الموضوعات الجديدة الخاصة بالمعالجة الحقوقية ، والتي كانت تتجاوز القانون والعرف ، ولا تطالب إلاّ بالحكم المنصف ، والاهتمام المريح :

تقتضي أسلوباً أقرب الى الطبيعة وأحفَل بالحيوية(١) . وهنا انفتح لنا ، نحن الأصغر سناً ، مجال مشرق كنا نصول فيه ونجول مسرورين . وما زلت أذكر جيداً أن وكيلاً لمستشار في البلاط الملكي بعث اليّ برسالة تقريظية شديدة التهذيب في مثل هذه الحالة ، وكنا نتخذ من المحامين الفرنسيين قدوة وحافزاً .

وبذلك كنا في الطريق الى أن نغدو خطباء أفضل منا حقوقيين ، وذلك ما لفت نظري اليه جورج شلوسّر المتسم بالصلابة ذات مرة ، لائماً . وكنت قد رويت له أنني تلوت على رهطي مرافعة لصالحهم أنشأتها بكثير من الجهد ، فأعربوا لي عن سرور عظيم بها ، وردّ على ذلك قائلاً : « لقد أثبتّ في هذه الحالة أنك أقرب الى أن تكون أديباً منك الى أن تكون محامياً ، فان على المرء ألاّ يتساءل قط ما عسى أن يكون وَقْعُ مثل هذه الكتابة على الموكل ، بل ما عسى أن يكون وقعها على القاضي » .

ولكن لما لم يكن أحد ليحظى بأعمال جدّية وملحة الى هذا الحد يكرس لها نهاره بحيث لايجد على الرغم من ذلك قدراً كبيراً من الوقت في المساء لزيارة المسرح ، فقد كان هذا ما جرى لي أيضاً ، وأنا الذي لم أتوقف ، مع الافتقار الى مسرح ممتاز ، عن التفكير في المسرح الألماني(٢) لأبحث كيف يستطيع المرء أن يدلي بدلوه فيه بصورة عملية على أية حال . على أن حال المسرح في النصف الثاني من القرن السابق معروف الى درجة كافية ، وكل من يريد الاطلاع عليه يجد في كل مكان وسائل مساعدة(٣) جاهزة ، ولذلك فأنا لا أفكر ههنا إلاّ في إيراد بعض الملاحظات العامّة .

وكان النجاح على خشبة المسرح يعتمد على شخصية الممثل أكثر مما يعتمد على قيمة المسرحيات. وكان هذا هو الحال بوجه خاص في المسرحيات المرتجلة(١) جزئياً أو كلياً، حيث كان كل شيء يتوقف على النكتة وعلى موهبة الممثل الهزلي؛ وكان لابد لمادة أمثال هذه المسرحيات أن تكون مأخوذة من أشد ألوان الحياة شيوعاً، وأن تكون موافقة لتقاليد الشعب الذي يمثل القومُ أمامه. وعن هذا الاستعمال المباشر كان ينبثق الاعجاب الكبير الذي كان يتاح لهؤلاء أن يتمتعوا به في كل وقت. وكان مستقرّ هؤلاء على الدوام في ألمانيا الجنوبية، حيث ما يزال الناس يحافظون عليهم حتى الأيام الحالية، ولا يضطرون إلى اضفاء بعض التغيير على الشخصية بالأقنعة الساخرة عن طريق تبديل الشخوص. ومع ذلك فسرعان ما انعطف المسرح الألماني، وفقاً لشخصية الأمة الجادة، نحو الجانب الأخلاقي وتعرّض هذا الانعطاف لمزيد من التسريع بتأثير باعث خارجي. وذلك أنه نشأت بين المسيحيين المتشدّدين مسألة هل يعدّ المسرح من الأشياء الآثمة(٢) التي ينبغي اجتنابها في كل الأحوال، أم يعد مما يستوي فيه الأمران، ويمكن أن يكون مع الطيب طيباً ولا يمكن أن يكون خبيثاً إلاّ مع الخبيث. أما المتعصبون المتشددون فكانوا يجحدون الأخير، ويتمسكون بأنه لاينبغي لكاهن أن يذهب الى المسرح. ولم يكن من الممكن الآن أن يُساقَ الردّ المعاكس بقوة، وكأن القوم لم يكونوا يعدون المسرح غير ضارّ فحسب، بل كانوا يعدّونه نافعاً. ولكي يكون نافعاً لم يكن له بدٌّ من أن يكون أخلاقياً. ومن أجل ذلك كان يبلغ مزيداً من الاكتمال في شمالي ألمانيا، ولا سيما حين تم إخراج الشخصية الهزلية بتأثير ذوق جزئي معين، ولم يكن

لها بد من أن تتنحىّ على الرغم من أن عقولاً حصيفة كانت تشفع لها ، اذ كانت قد استعملتها خشونة المهرّج الألماني في مواجهة الرقة والظرف عند المهرجين الإيطاليين والفرنسيين ، بل لقد توارى سكابين وكريسبين(١) شيئاً فشيئاً ، وقد رأيت الأخير يُمثّل آخر مرة من قبل كوخ(٢) في السنوات الأخيرة من عمره .

وكانت روايات ريتشاردسون(٣) قد لفتت أنظار عالم الطبقة الوسطى الى أخلاقية أكثر رقة ، وقد عالجت مسرحية ليسنج «الآنسة سارة سامبسون » الموضوع ذاته . أما الآن فقد تركت مسرحية «تاجر لندن(٤)» شاباً مضلّلاً يرى في أكثر الأوضاع اثارة للفزع . وكان للمسرحيات الفرنسية الغرض ذاته ، ولكنها كانت تسلك سبيلاً أكثر اعتدالاً ، وكانت تتمكن في النهاية من الظفر بالإعجاب عن طريق التوسّط والاعتدال . وكانت مسرحيات ديدرو «رب العائلة(٢) » و « المجرم الشريف(٥)» ، و « تاجر الخل» ، و «فيلسوف من دون أن يدري »،و « أوجيني »،ومزيد من أمثال هذه الأعمال ، متوافقة مع روح المواطن وروح العائلة المتسمين بالاستقامة وهي الروح التي كانت آخذة في الظهور على نحو مطّرد الزيادة . أما عندنا فكانت مسرحيات «الابن الممتن(٦)» ، و « الهارب من خدمة العلم بدافع حب الولد» ، وما شاكلها ، تسلك الطريق ذاته . وكانت مسرحيات «الوزير» ، و «كليمنتين» وسائر مسرحيات جيبلر ، ومسرحية «المهرّج الألماني »تجسيد لجمينجن : كانت هذه جميعاً تجسّد قيمة الطبقة الوسطى ، بل الدنيا ، تجسيداً سهلاً ، وكانت تفتن الجمهور العريض . أما إيكهوف(٧) فقد رفع ، بشخصيته النبيلة التي كانت تنم لدى جمهور الممثلين عن مكانة معينة كان قد

استغنى عنها حتّى الآن ، من شأن الشخصيات الأولى في أمثال هذه المسرحيات على نحو غير مألوف ، إذ أصاب في تعبيره عن الشرعيّة ، من حيث كونه رجلاً حقوقياً ، نجاحاً كاملاً .

وفي الوقت الذي كان فيه المسرح الألماني يميل الآن الى الانحلال نهض شرودر(١) كاتباً وممثلاً ، وجعل يعالج المسرحيات الهزلية الانكليزية اذ كـــان يدفعه الى ذلك ارتباطها مبورج بانكلترا . ولم يكن من الممكن أن يحتاج في هذا الصدد إلاّ الى مادة هذه المسرحيات في أشد صورها عموماً : ذلك لأن الأصول يغلب عليها انعدام الصورة ، وحتّى لو أنها بدأت بداية حسنة ، وتبعاً لمخطط مرسوم فهي تتلاشى مع ذلك آخر الأمر في المدى البعيد ؛ ويبدو أن ما يهم مؤلفها لايتجاوز إيراد أشد المشاهد غرابة . ومن كان يألف العمل الفنّي ذا المضمون يسوؤه أن يرى نفسه آخر الأمر وقد دُفِع به الى مالا حدود له . وكان يتخلّل هذا فوق ذلك روح جامحة لا أخلاقية ضربت أطنابها الى حد لايطاق ، وعلى نحو يبلغ من الإغراق فيه أنه ربما يصعب أن تجرّد المخطط والشخصيات من كل ألوان اساءاتهما ، فهي غذاء فاسد ، وخطير فوق ذلك ، لايصلح للاستمتاع به وهضمه إلاّ من قبل جمهور من الشعب كبير وفاسد جزئياً ، في عصر معيّن . وقد عالج شرودر هذه الأشياء أكثر مما يعرف الناس في العادة ، فقد غيرها من الأساس ، وقرّبها الى الروح الألمانية ، وخفّف منها قدر الإمكان . ولكن نواة مريرة تظل فيها أبداً ، لأن النكتة تستند في كثير جداً من الأحيان الى الاساءة الى الأشخاص ، سواء أكانوا أهلاً للإساءة أم لم يكونوا كذلك ، فكان يكمن في هذه العرُوض التي كانت تنتشر على النحو ذاته في المسرح ثقل خفيّ مقابل لتلك

الأخلاقية المفرطة في الرقّة ، وكان من حسن الحظ أن تأثير أحد الطرازين على الآخر كان يحول دون الرتابة التي كان المرء خليقاً أن يقع فيها .

على أن الألماني الذي يتسم بطبعه بالطيب والشهامة ، يأبى أن يُساءَ الى أحد . ولكن لمّا لم يكن هنالك انسان يستيقن ، مهما يكن من حُسن تفكيره ، أنْ لن يدسّ عليه امرؤٌ شيئاً مخالفاً لميله ، وكانت المسرحية الهزلية أيضاً تفترض دائماً شيئاً من السرور بالأذى عند المتفرج حين يُقصد بها الى الامتاع ، فقد كان الناس على طريق طبيعي ينتهي بهم الى سلوك كان يعد حتّى الآن غير طبيعي ، وكان يتمثل في الحط من شأن الطبقات العليا وتجريحها بدرجة أقل أو أكثر . وكانت الكتابة الهجائية النثرية أو الشعرية تحترس حتّى الآن من المساس بالبلاط والنبلاء . وكان رابينر(١) يحجم عن كل سخرية في ذلك الاتجاه ، وظل في وسط أدنى . أما زاخاريا فكان كثير الاشتغال بنبلاء الريف ، فهو يصور أهواءهم وخصوصياتهم تصويراً هزلياً ، ولكن بغير ازدراء . وقد حظيت بالاعجاب الكبير مسرحية تومل(٣) «فيلهلمينه» التي تنطوي على الذكاء في تأليفها وتعدّ ممتعة بمقدار ما هي جريئة ، وربما يرجع ذلك ، فيما يرجع ، الى أن المؤلف ، وهو رجل نبيل ومن أهل البلاط ، لم يتناول طبقة النبلاء بذلك الأسلوب القائم على المداراة . على أن الخطوة الأكثر حسماً هي التي قام بها ليسّنج في «اميليا جالوتي(٤)» ، حيث توصف الأهواء والأوضاع القائمة على الدسائس في الأوساط العليا وصفاً جارحــاً مرّاً . وكانت هذه الأشياء جميعاً تلائم روح العصر الثائرة ملاءمة كاملة . وكان أولئك الذين هم أدنى فكراً وموهبة يعتقدون أن من حقهم أن يفعلوا الشيء

ذاته ، بل أكثر منه ، مثلما قدّم جروسْمَن(١) المائدة في « أطباقه الستة» غير المستساغة ، كل الأطعمة المستساغة ، في مطبخ شعبه الغوغائي ، لجمهوره الذي يطيب له الإيذاء . وكان ثمة رجل بليغ ، هو مستشار البلاط راينها رد ، يقوم في هذه المأدبة غير السارة بدور المعلم الخاص في البلاط ، معزياً للضيوف كافة ومسلّياً لهم . ومنذ هذا الوقت أخذ القوم يختارون شخصية الشقيّ في المسرح من الطبقات العليا دائماً . ومع ذلك فلم يكن بدٌّ لذلك الشخص أن يكون موظفاً في البلاط أو أمين سر على الأقل ، ليكون جديراً بمثل هذا الامتياز . ولكن القوم كانوا يختارون أرفع المناصب والوظائف في سالك البلاط ، وفي السلك المدني ، في سجلّ النفوس ، حيث كان الوكلاء القانونيون يتبوأون بعدُ مكان الأشقياء من الطراز الأول في المجتمع النبيل ، من أجل الصور الاستعراضية المتناهية في عربدتها وفجورها .

ومع ذلك ففي الوقت الذي كان لابد لي فيه أن أخشى أن أكون قد تخطّيت الزمن الذي يمكن أن يتناوله الحديث هنا ، أعود الى نفسي ذاتها لآتي ، على ذكر الدافع الذي كنت أحس به اذ يدفعني الى الاشتغال في ساعات الفراغ بالخطط المسرحيّة التي تصورتها ذات مرة .

وكنت قد وسعت اطار فكري عن طريق الاهتمام المستمر بأعمال شكسبير حتى لقد بات المجال المسرحي الضيق ، والوقت القصير المخصص للعرض ، يبدوان لي غير كافيين بحال من الأحوال من أجل تقديم شيء له شأنه ، وقد دفعتني حياة جوتس فون برليشنجن(١) الطيب التي دونها بنفسه الى نمط المعالجة التاريخية ، واتسعت مخيلتي

الى درجة أخذ عندها القالب المسرحي عندي أيضاً يتخطى كل الحدود المسرحية ، ويسعى الى الاقتراب المضطرد في الزيادة ، من الأحداث الحية ، وكنت أتحدث في ذلك كلما أحرزت فيه مزيداً من التقدم الى أختي عـلى نحو مفصل ، ، وكـانت تهتم بمثل هذه الأمور بعقلها وقلبها،وكنت أجدّد هذا الحديث في كثير من الأحيانمن دون أن أقوم بأية خطوة نحو العمل حتى رجتني آخر الأمر ، وقد عيل صبرها ، رجاء الملح ذي المقصد الحسن ، ألاّ أرتضي مجرد كلام كقبض الريح ، بل أن أقيّد آخر الأمر على الورق ما يخطر لي في صورته الراهنة كائنةً ما كانت . ولما دفعني هذا الدافع الى الحزم شرعت ذات صباح في الكتابةمن دون أن أضع لنفسي من قبلُ مشروعاً أو خطة ، وكتبت المشاهد الأولى(٢) . وفي المساء تلوتها على كورنيليا فأولَتها كثيراًمن الإعجاب ، على أنه كان إعجاباً مقيّداً ، اذ كانت ترتاب في أنني سأواصل الطريق على هذا النحو . بل انها أعربت بصورة حاسمة عن عدم إيمانها بمثابرتي واستفزّني هذا الى المزيد فمضيت على ذلك في اليوم التالي ، وكذلك في الثالث ، وكان الأمل يتنامى مع البيانات اليومية ، وكان كل شيء يزداد ، عندي أنا أيضاً ، حيوية من خطوة الى أخرى . اذ كنت قد تمكنت من المادة على أية حال بصورة مطلقة ، وهكذا لزمت العمل بغير انقطاع ، وهو العمل الذي كنت أمضي فيه قدماً الى الأمام ، لا ألوي الى وراء والا الى يمين ولا الى شمال . وبعد حوالي ستة أسابيع استمتعت برؤية المخطوط محبوكاً ، وأبلغت بذلك مرك الذي تحدث عنه حديث العاقل الفطن ، بروح طيبة ، وبعثت به الى هردَر الذي أعرب عن الجفاء والقسوة حياله ولم يقصّر في الاشارة اليّ في بعض قصائد الهجاء من حين الى

آخر ، بأسماء تهكمية . ولم أسلم نفسي الى التضليل عن هذا الطريق ، بل وضعت موضوعي نصب عيني بحزم . لقد كانت الرمية قد رميت ، ولم يكن هناك إلاّ مسألة كيف يضع المرء الحجارة على اللوح على نحو مفيد . وكنت أرى حقاً أنه ما من أحد سينصح لي هنا أيضاً . وحين استطعت بعد بعض الوقت أن أنظر في عملي نظرتي الى عمل غريب عني تبين لي بالطبع أنني حين حاولت التخلي عن وحدة الزمان والمكان انما ألحقت الضرر بالوحدة الأعلى المطلوبة بدرجة أكبر . ولما كنت قد أسلمت نفسي لمخيلتي ، ولواقع داخلي فحسب ، دونما خطة أو مشروع ، فقد ظللت أراوح مكاني الى حد بعيد . وكان في وسع الفصول الأولى أن تكون جد ملائمة لما وضعت من أجله . ولكن عاطفة محتدمة عجيبة جرفتني فيما بعد ذلك ، ولا سيما قرب النهاية ، بصورة لاشعورية . وذلك أنني كنت قد وقعت أنا في غرام اديلهايد في الوقت الذي كنت أنزع فيه الى وصفها وصفاً ساحراً ، وكانت ريشتي لاتتجه إلاّ اليها على غير ارادتي . وكان الاهتمام بمصيرها يزداد . وحين جُمّد نشاط جوتس على أية حال ، ثم لم يعد إلاّ لإسهام بائس في حرب الفلاحين لم يكن هناك شيء أكثر طبيعية من أن تفوقه عند الكاتب امرأة فاتنة ، وهو الكاتب الذي كان يفكر وهو ينفض عن نفسه قيود الفن ، أن يجرب نفسه في مضمار جديد . على أنني تبينتُ هذا النقص ، أو بالأحرى هذه الزيادة المعيبة ، بسرعة فائقة ، اد كانت طبيعة شعري تدفع بي دائماً الى الوحدة ، وبتُّ الآن أحتفظ في ذهني على الدوام بعملي الخاص بدلاً من وصف حياة جوتس والآثار الألمانية القديمة ، وأحاول أن أعطيه زيادة مطردة من المضمون التاريخي والقومي ، وأن أخمد

فيه هذا الذي كان يتسم بالخرافة أو بمجرد العاطفة . ولا ريب أنني كنت في هذا الصدد أضحّي ببعض الأمور ، حين لم يكن بدٌ للهوى الشريف أن يتنحى أمام القناعة الفنية ومثال ذلك أنني عرضت أديلهايد في مشهد ليلي مهول من ليالي الغَجَر وتركت حضورها الجميل يصنع العجائب . على أن الاختبار عن كثب كان يبعدها ، مثلما انتهت أيضاً علاقة الحب المعروضة في الفصلين الرابع والخامس على نحو مفصل ، بين فرانتس وزوجه الموقرة ،الى وضع حرج ولم يتح لها أن تبعث بضوئها إلاّ في أدوارها الرئيسيّة .

وعلى هذا فقد أخذت على نفسي أن أعيد كتابة الموضوع كله بوجه آخر من دون أن أغير أي شيء في المخطوط الأول الذي ما زال في حوزتي بالفعل في صورته الأصلية(١) ، وقمت بهذا بنشاط بلغ منه أن مسرحية متجددة كل الجدة كانت ماثلة أمامي بعد أسابيع قلائل . وكنت أزداد إقبالاً على العمل كلما تناقصت رغبتي في طبع المعالجة الثانية في يوم من الأيام ، اذ كنت أنظر اليها على أنها مجرد تمرين أوّلي كنت أريد في المستقبل أن أتخذ منه ، على نحو متكرر ، أساساً لمعالجة أقوم بها بمزيد من الجدّ والرّوية .

وحين أخذت في سرد بعض المقترحات حول الكيفية التي كنت أفكر أن أبدأ هذا بها على مرْك سخر مني وتساءل ما عسى أن يعني العمل ، ثم معاودة العمل؟ وقال ان الشيء لا يعدو أن يغدو بذلك شيئاً آخر ، وقلما يغدو أفضل ، ولابد للمرء أن يرى ما يحدثه العمل الواحد من أثر ، ثم يظل أبداً يعود الى أداء شيء جديد — وكان يصيح قائلاً : على حسب مقولة المثل : « مع الزمن ، وعـلى السياج ، هكذا تجف

الأقمطة ! » ، وأن التلكؤ والتردد لايصنع إلاّ رجالاً غير واثقين ؛ ورددت عليه بالقول انه لن يكون من المستساغ أن أقدم عملاً صرفت اليه كل هذا القدر من الاهتمام ، الى تاجر كتب ، ثم أخرج من ذلك بجواب قد يكون رافضاً ؛ وإلاّ فأنّى يكون لهم أن يصدروا حكمهم في كاتب ناشيء لا اسم له ، وهو فوق ذلك كاتب جسور ؟ بل انني وددت لو رأيت مسرحيتي «المتورطون» مطبوعة ، وهي التي كنت أكـنّ لهـا بعض التقدير ، حين تلاشي وَجَلي من المطبعة شيئاً فشيئاً ، غير أني لم أجد ناشراً يميل الى ذلك .

وهنا دبّت الحياة في وَلَع صاحبي بالأمور التقنية — التجارية مرة واحدة ، وكان قد أقام ، عن طريق الصحيفة الفرانكفورتيه(٢) ، بعض الصلات بالمثقفين وتجار الكتب . ولذلك كان علينا ، فيما يرى ، أن نخرج هذا العمل الغريب الذي لابدّ أنه يلفت الأنظار ، على نفقتنا الخاصة ، وأنه سيكون من الممكن الخروج من ذلك بمزية حسنة ، مثلما كان شأنه هو ، مع كثير من الآخرين ، أن يحاسب تجار الكتب في كثير من الأحيان على أرباحهم التي كانت بالطبع كبيرة في بعض الأعمال ، ولا سيما حين يغضّ المرء النظر عن مقدار ما يضيع من جديد في الكتابات الأخرى ، ومن خلال سائر العلاقات التجارية الأخرى . وجملة القول انه تم الاتفاق على أن أقوم بتأمين الورق ، وأن يتولىّ هو أمر الطباعة ، وبذلك انطلقنا بهمة الى العمل ، وراق لي الى حد لابأس به على الاطلاق أن أرى مشروعاتي المسرحية في صحائف منشورة نظيفة ، شيئاً فشيئاً ، وكان في الحق أكثر تميّزاً بالنظافة مما كنت أتصورها . وأنهينا العمل ، وتم ارساله في كثير من الطرود ، ولم تلبث أن انبعثت في كل مكان حركة كبرى ، وكان

الاهتمام الذي أثارته عاماً — ولكن لمّا لم يكن في وسعنا ، مع علاقاتنا المحدودة ، أن نوزّع النسخ بالسرعة الكافية على كل الأماكن فقد ظهر بصورة مفاجئة طبعة تالية ، ولمّا لم يكن من الممكن فوق ذلك بالطبع أن يعقب إرسالياتنا إعادةٌ بهذه السرعة ، وعلى أدنى تقدير اعادةٌ نقدية ، فقد كنت ، وأنا الفتى التابع لأسرته ، الذي ما كان من الممكن أن تبلغ خزينته أحوال اليسار ، في وقت كان الناس يولونني فيه من كل صوب كثيراً من الاهتمام ، بل كثيراً من الإعجاب ، في الغاية من الحرج حيال كيفية تسديد قيمة الورق الذي عرفت العالم بموهبتي عليه . أمّا مرْك الذي كان أحرى أن يعرف كيف يتدبّر أمر نفسه فقد كان يعلّق أفضل الآمال على أن كل شيء سيعود الى نصابه في المرحلة التالية ، ولكني لم أتبيّن شيئاً من ذلك .

وكنت قد تعرفت ، من خلال المنشورات الصغيرة التي كنت أحررها مغفلة من الاسم ، على الجمهور ، والنقاد ، على نفقتي الخاصة ، وكنت مستعداً للمديح والذم أيمّا استعداد ، وذلك ، بوجه خاص ، لأنني كنت أتابع الأمر على الدوام منذ سنوات عديدة ، وألاحظ كيف يعامل الناس الكتاب الذين كنت قد أَوْلَيْتُهم اهتماماً فائقاً .

وهنا كان في وسعي ، حتّى وأنا في شك من أمري ، أن ألاحظ بوضوح كيف أن قدراً كبيراً جداً بلا ريب كان يقال جهاراً بغير أساس ، وعلى نحو متحيّز وتعسّفي . وكنت أواجه الآن الأمر ذاته ، وما أكثر ما كان لابد لتناقضات المثقفين أن تضالني به لولا أنني كنت أملك بعض الأسس ! ومن ذلك أن صحيفة « دويتشر ميركور(١) » جاء فيها نقد مستفيض ذو مقصد حسن صادر عن فكر محدود ،

لا على التعيين . ولم أستطع أن أقرّه على كل أوجه نقده ، على أنني كنت أقلّ إقراراً له حين كان يبيّن كيف كان من الممكن أن تصاغ المسألة على نحو آخر . ولذلك سرّني أن أقع بعد ذلك مباشرة على تفسير مرَح لفيلاند كان يناقض الناقد بوجه عام ، ويقف معي في مواجهته . وفي هذه الأثناء كان ذاك قد طبع ، ورأيت مثالاً لطراز العقاية الخاملة عند المطلعين والمثقفين ، فكيف عسى أن تبدو الحالة في وسط الجمهور العريض !

على أن متعة حديثي الى مرْك حول أمثال هذه الأمور واستجلائها كانت قصيرة الأجل لأن زوجة جراف هيسّن — دارمشتات الحصيفة أخذته في حاشيتها عند رحيلها الى بطرسبرج . وكانت الرسائل المفصلة التي كان يكتبها اليّ تهب لي أفقاً أوسع في النظرة الى العالم الذي غدا في وسعي أن أزداد تمكّناً منه ، اذ كانت ألوان الوصف مرسومة من قبل يد معروفة وصديقة ، ولكنني ظللت على الرغم من ذلك شديد الوحدة بسبب ذلك عهداً طويلاً ، وكنت في هذه الحقبة ذاتها محروماً من مشاركته التنويرية التي كنت أحتاجها مع ذلك حاجة شديدة الإلحاح .

فمثلما يعتزم المرء بشجاعة ، وهو يتخذ القرار بأن يغدو جندياً ويمضي الى الحرب ، أن يحتمل الخطر والمشاقّ أيضاً ، وكذلك أن يصبر على الجروح والآلام . بل على الموت ، ولكنه لايتصور بحال من الأحوال الحالات الخاصة التي يمكن فيها لهذه المساوىء أن تفاجئنا مفاجأة تنطوي على ذروة الازعاج ، ينتاب كل مثل ذلك من يجرؤ على العالم ، ولا سيما الكاتب ، وذلك ما جرى لي أيضاً ولمّا كان الجمهور يستثار بالمادة أكثر مما يستثار بطريقة المعالجة فقد كان اهتمام الشباب

بمسرحياتي في معظم الأحيان اهتماماً متعلقاً بالمادة . لقد كانوا يعتقدون أنهم يرون فيها راية يتاح لكل ما في الشباب من جموح وفظاظة أن يفسح لنفسه المجال حقاً في ظل تقدمّها . على أن أفضل العقول التي كان قد لاح فيها الى حين شيء مشابه كانت هي ذاتها التي اجترفتها تلك المسرحيات . وما زال في حوزتي رسالة من المواطن الفاضل والوحيد من بعض الجوانب ، ولست أدري لمن كانت موجهة ؛ ومن الممكن أن تعد دليلاً هاماً على ما أحدثت تلك الظاهرة وما أثارت في تلك الأيام . أما الجانب المقابل فقد لامني منه رجال من ذوي الحلم على أنني صورت تحصيل الحق بالقوة الذاتية ، فيما صورت ، بألوان مفرطة في المحاباة ، بل نسبوا اليّ رغبة في التفكير في احلال تلك العصور الشاذة من جديد ، وثمة آخرون كانوا يرونني رجلاً واسع الاطلاع ، وكانوا يطالبون بأن أحقق القصة الأصلية لجوتس الطيب من جديد ، مع الملاحظات ، وذلك مالم أكن أشعر أنني بارع فيه بحال من الأحوال على الرغم من أنني رضيت بما راق للقوم اذ وضعوا اسمي على عنوان الطبعة الجديدة(٢) . وكان القوم قد رأوا في صاحب حديقة فنيةّ من ذوي الاعتناء لأنني كنت أعرف كيف أجني أزهار حياة كبرى . ومع ذلك فقد أثيرت الشكوك حول ثقافتي وخبرتي الأساسية من قبل الآخرين من جديد . ويزورني رجل مرموق من رجال الأعمال زيارة مفاجئة تماماً ، وأرى نفسي بذلك موضع الحفاوة القصوى ، ولا سيما حين بدأ حديثه بتقريظ مسرحيّي «جوتس فون برليشنجن» ، ونظراتي الحسنة في التاريخ الألماني ، ولكنني أجد نفسي مع ذلك في حيرة من أمري حين ألاحظ أنه لم يأت في الحقيقة إلاّ ليعلمّني أن جوتس فون برليشنجن لم يكن صهراً لفرانتس

فون سيكنجن ، وأنني أسهو ، بهذه المصاهرة الشعرية ، سهواً شديداً عن التاريخ . وحاولت أن أبرّر موقفي بأن جوتس نفسه يطلق عليه هذا الاسم ولكنه يرد عليّ بأن هذا أسلوب من أساليب التعبير لايعبر إلاّ عن علاقة ودية حميمة ، مثلما نسمي ، في العصر الحديث ، سائقي عربات البريد أصهاراً أيضاً ، من دون أن تربطنا بهم رابطة عائلية ، وشكرت له هذا التصحيح على قدر ما استطعت ، وأسفت لأن السوء ما عاد ممكنا تداركه ، وأبدى هو من جانبه أسفه لهذا على النحو ذاته ناصحاً لي ، بمودة متناهية ، بمزيد من الدراسة للتاريخ الألماني والأحوال الألمانية ، وقدّم لي من أجل ذلك مكتبته التي استعملتها استعمالاً حسناً فيما بعد .

على أن أكثر ما لقيت امتاعاً في هذا الصدد كان زيارة تاجر كتب يلتمس لنفسه اثنى عشرية من أمثال هذه المسرحيات ، بصراحة فكاهية ، ووعد بأن يدفع أجراً حسناً عليها . وقد يكون تندّرنا الشديد على ذلك مسألة فيها نظر ، ومع ذلك فلم يكن في الأساس مجاوزاً للحد كثيراً ، لأنني كنت مشغولاً ، بهدوء ، بالتحرك ، من نقطة التحول هذه في التاريخ الألماني ، الى الأمام ، والى الوراء ، ومعالجة الأحداث بروح مماثلة ، وقد كانت عزيمة مستحسنة أحبطها ، كما أحبط عدداً سواها ، مرور الزمن الصاخب المُنْسَرب .

على أن تلك المسرحية لم تكن تشغل الكاتب وحدها حتى الآن ، بل كان يجول في خاطره كثير من الصور والخواطر الأخرى في الوقت الذي كان يجري فيه التفكير فيها وكتابتها واعادة صياغتها وطباعتها والاعداد لها . أما تلك التي كان من المفروض أن تعالج معالجة مسرحية فكانت لها الصدارة ، وكانت هي الاكثر استئثاراً

بالتفكير لتقرب من الكمال ، ولكن كان يتطور في الوقت نفسه انتقال الى أسلوب آخر من التصوير لم تجر العادة بأن يعد من الأساليب المسرحية ، ومع ذلك فقد كانت صلة قرابة عظيمة بها . وكان هذا الانتقال يحدث بصورة رئيسية من خلال سمة خاصة بالكاتب تقلب ، حتى الحديث الذاتي ، الى حوار .

ولمّا كان أحب الأشياء اليه أن ينفق وقته في المجتمع فقد كان يحول التفكير المنفرد الى محادثة تنطوي على المؤانسة ، وذلك على الطريقة التالية : كان من عادته حين يرى نفسه وحيداً أن يستدعي الى ذهنه أيّ شخص من معارفه ، وكان يرجو منه أن يقعد ، ثم يروح ويغدو حواليه ، ويظل واقفاً أمامه ، ويناقش معه الموضوع الذي يكون حاضراً في ذهنه ، وكان هذا يجيب عن ذلك من حين الى آخر ، أو يبدي موافقته ، أو معارضته عن طريق الإيماء المألوف مثلما يتميّز كل انسان بشيء خاص به في هذا الصدد . ثم ان المتحدث كان يستأنف تفصيل ما بدا أنه يعجب الضيف ، أو يقيّد بالشروط ما كان الضيف لايقرّه ، ويحدده تحديداً أدقّ . وكان يتخلّى أيضاً آخر الأمر عن قضيته حقاً . وكان أغرب ما في ذلك أنه لم يكن يختار قط أناساً من معارفه الأقربين ، بل كان يختار أولئك الذين قلّما كان يراهم ، بل طائفة من الذين كانوا يعيشون في عزلة بعيدة عن العالم ، والذين لم تكن تربطه بهم إلاّ علاقة عابرة ، ولكنهم كانوا في معظم الأحيان أناساً أقرب الى الطبيعة التي تأخذ ، منهم الى تلك التي تعطي ، والذين هم على استعداد ، بفكرهم النقيّ ، للاهتمام الهادىء بالأشياء التي تقع ضمن مجال نظرهم ، على الرغم من أنه كان يستحضر لتلك التمارين الجدلية عقولاً معارضة في بعض الأحيان ، وكان ينزل على ذلك أناس

من كلا الجنسين ، ومن كل سن وطبقة ، ويظهرون أنهم لطفاء ظرفاء ، اذ لم يكن القوم يتحدثون إلاّ في موضوعات كانت واضحة لديهم محبّبةً اليهم . ومع ذلك فقد كان مما يمكن أن يقع من بعضهم موقعاً فائق الغرابة أن يعلموا كم من مرة جرى استدعاؤهم الى هذه المساجلة الفكرية التي لابدّ أن فريقاً منهم كان يصعب عليه حضورها بالفعل .

أما مدى صلة مثل هذا الحديث في الذهن بالمراسلة فواضح بما فيه الكفاية ، إلاّ أن المرء يرى هنا انعكاساً لثقة تقليدية ، على حين يتمكن هناك من أن يحقق لنفسه ثقة جديدة ، متبدّلة أبداً ، لا انعكاس لها ، ولذلك فحين كان من الواجب تصوير ذلك السأم الذي يحس به البشر في الحياة،من دون أن تدفعهم الى ذلك ضرورة،كان لابد للكاتب أن يبادر على التوّ الى عرض أفكاره في رسائل : ذلك لأن كل سأم انما هو ولادة ، أي أنه ربيب الوحدة ، ومن يستسلم له يتجنّبْ كل تعارض ، ومن عساه يعارضه أكثر من الجماعة المَرِحة أيّاً كانت ؟ فالاستمتاع بالحياة عند الآخرين يعد نقيصة مزعجة عنده ، وهكذا ينكفىء بتأثير هذا الذي يفترض أن يعزيه بالخروج عن ذاته ، الى أعمق أعماق باطنه . واذا حدث في كل الأحوال أن أعرب عن ذلك فانما يحدث هذا عن طريق الرسائل ؛ : ذلك لأنه ما من أحد يواجه قط بَوْحاً كتابيّاً ، سواء أكان سارّاً أم مزعجاً ، مواجهة مباشرة ، على حين يعطي الجواب المبني على تعليلات معاكسة فرصة لذلك الوحيد ليغدو راسخ القدم في أوهامه ، وحافزاً لمزيد من التصلب . على أن تلك الرسائل الفرْتَرِيّة المكتوبة بهذه الروح تتميّز الآن بتلك الجاذبيّة المتعددة الجوانب لأن مضمونها المتباين جرت

مناقشته بادىء ذي بدء ضمن أمثال هذه المحاورات الفكرية مع عدد من الأفراد ، ثم تبدو ، في انشائها ذاته ، مواجهة الى صديق وشريك واحد . وقد لا يكون من المستصوب أن يقال مزيد عن أسلوب العمل الصغير الذي نوقش كثيراً ، أمّا المضمون فقد يمكن مع ذلك أن يضاف بصدده بعض الأمور .

ان لذلك الاشمئزاز من الحياة(١) أسبابه الجسدية والأخلاقية . ونود أن ندع البحث في تلك الأسباب الطبيب ، والبحث في هذه للأخلاقيّ(٢) ، وألاّ نلاحظ ، في مادة طالما تعرّضت للبحث ، إلاّ النقطة الرئيسية التي تتجلىّ عندها تلك الظاهرة كأشد ما تكون وضوحاً . وان كل اطمئنان في الحياة مبني على تعاقب نظاميّ للأشياء الخارجية . فاختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الفصول ، والأزهار والثمار ، وسوى ذلك مما يتجلىّ لنا من زمن الى آخر ، لنستطيع أن نستمتع به ، وليكون لنا ذلك ، تلك هي الدوافع الحقيقية للحياة الدنيوية . وكلما كنا أكثر تفتّحاً لهذه المباهج كنا أكثر شعوراً بالسعادة . ولكن اذا كان اختلاف هذه الظاهرات يجري أمامنا بين مد وجزر ، من دون أن نهتم له ، واذا كنا غير حسّاسين حيال أمثال هذه التجلّيات الفاتنة : عند ذلك يظهر السوء الأعظم ، بل العلة الأدهى ، فالمرء ينظر الى الحياة نظرته الى عبء مثير للاشمئزاز ، ويُروى عن انكليزيّ أنه شنق نفسه لكيلا يمضي في ارتداء ثيابه وخلعها في كل يوم . وقد عرفت بستانيّاً طيباً كان مشرفاً على متنزّه كبير ، صاح ذات مرة متبرماً : « أوَينبغي لي أن أرى دائماً هذه السحائب الماطرة تحوم من المساء الى الصباح ! » ويتحدثون عن واحد من أعظم رجالنا فضلاً أنه رأى باشمئزاز خضرة الربيع تعود ، وودّ لو ظهرت حمراء على

سبيل التغيير . وتلك هي في الحقيقة أعراض التبرّم بالحياة الذي ليس من النادر أن يفضي الى الإنتحار . وقد كان لدى المفكرين المنطوين على أنفسهم أكثر تواتراً مما يستطيع المرء أن يصدقه . .

ولكن ما من شيء يعد أكثر اثارة للسأم من عودة الحب . والناس يقولون بحق ان الحب الأول هو الحب الوحيد : ذلك لأن أسمى معاني الحب يكون قد ضاع منذ الحب الثاني ومن خلاله . وذلك أن مفهوم الخالد واللانهائي الذي يعلي من شأنه ويحمله في الحقيقة يتعرض للفساد . فهو يبدو فانياً شأن كل متعاقب ، كما أن الفصل بين الحسيّ والاخلاقيّ الذي يفصل في العالم المتمدن المتشابك بين الأحاسيس القائمة على الحب وتلك القائمة على الرغبة يخرج هنا أيضاً بمبالغة لايمكن أن ينشأ عنها شيء من الخير .

ثم ان الشاب سرعان ماتبيّن له من خلال الآخرين ، ان لم يكن من خلال نفسه ، أن العصور الأخلاقية تتعاقب مثلما تتعاقب الفصول . فان احسان الكبار ، والحظوة عند الجبابرة ، ورعاية العاملين ، وهوى الجمهور ، والحب عند الأفراد ، وكل شيء يتقلّب بين مد وجزر ، من دون أن نتمكن من الإمساك به مثلما لانستطيع أن نمسك بالشمس والقمر والنجوم . ومع ذلك فليست هذه الأشياء مجرد حوادث طبيعية ، وهي تفلت من أيدينا بجريرتنا أو بجريرة الآخرين ، وبفعل المصادفة أو الحظ ، ولكنها تتناوب ونحن لانكون قط على ثقة منها .

ولكن أكثر ما يبعث على الخوف لدى الشاب المرهف الحس انما هو العودة التي لاتنقطع لأخطائنا : فما أكثر ما نتأخرّ في أن نتبيّن أننا حين ننجز صياغة فضائلنا نكون قد رسّخنا أخطاءنا في الوقت ذاته ،

وانما ترتكز تلك على هذه كأنما ترتكز على جذورها ، وهذه تتشعّب في الخفاء بمثل القوّة والتعقيد اللذين تتشعّب بهما تلك في وضح النهار . ولما كنا في معظم الأحيان نمارس فضائلنا بارادة ووعي ، على حين نفاجأ بأخطائنا بغير شعور منا ، فان تلك الفضائل قلّما تبعث على بعض السرور لدينا ، على حين تلحق بنا هذه الأخطاء المحنة والعذاب على الدوام . وهنا تكمن أشد النقاط ثقلاً في معرفة الذات ، وهي النقطة التي تكاد تجعلها مستحيلة . وليتصور المرء في هذا الصدد دماً فتيّاً يغلي ، ومخيلة يسهل شلّها عن طريق الموضوعات الفردية ، والى جانب ذلك حركات النهار المتذبذبة . وسوف يجد المرء أن الطموح النافد الصبر ، الى التحرر من مثل هذا المأزق ليس بالأمر المجانب للطبيعة .

على أن أمثال هذه التأملات الكئيبة التي تنتهي بمن يُسلِم نفسه اليها ، الى مالا نهاية له ، ما كانت لتتنامى في نفوس الشباب الألمان الى هذه الدرجة الفائقة لولا أنها أثارت ، وغذّت حافزاً خارجياً الى هذا العمل الكئيب . وقد حدث هذا عن طريق الأدب الانكليزي(١) ، ولا سيما عن طريق الشعر الذي كان يرافق مزاياه الكبرى مزاج متكدِّر جدّي يفصح عن نفسه لكل امرئ يشتغل به . على أن البريطانيّ البارع يرى نفسه منذ الصبا وقد أحاط به عالم له شأنه ، فهو يحفز كل طاقاته ، وهو يعي ، عاجلاً أو آجلاً ، أنه لا بدّ له أن يستجمع ذهنه لكي يتلاءم مع شروطه . فكم من أديب من أدبائها عاش حياة طليقة عاصفة ووجد في وقت مبكر بما يكفي أن من حقه أن يشكو من أعراض الغرور الدنيوي ! وما أكثر من حاول من هؤلاء أن يجرّب نفسه في شؤون الدنيا ، وقام ، في البرلمان ، وفي

البلاط ، وفي الوزارة ، وفي مناصب السفارة ، بالأدوار الأولى حيناً .
وبالأدوار الدنيا حيناً آخر ، وأثبت مشاركته في الاضطرابات الداخلية
وفي أوجه التغيير في الحكومة ، واكتسب ، عن طريق الأصدقاء
والأنصار ، ان لم يكن عن طريق نفسه ذاتها ، خبرات مريرة مثلما
اكتسب خبرات باعثة على السرور ! وما أكثر من نُفوا وطُرِدوا ،
وزج بهم في السجن ، ولحقت الأضرار بأملاكهم !

ولكن مجرد كون المرء مشاهداً لمثل هذه الأحداث الكبرى
يقتضي من الانسان الجدّ أيضاً ، وإلى أين يمكن للجدّ أن يؤدي بعدُ
إلاّ الى ملاحظة الفناء والزوال وتفاهة كل الأشياء الأرضية . على أن
الألماني جدّي أيضاً وهكذا كان الشعر الانكليزي ملائماً له الى أقصى
الحدود ، وكان مَهيب الأثر لأنه كان صادراً عن ظرف أعلى . فالمرء
يجد فيه عقلاً عظيماً ، بارعاً ، متمرساً بالدنيا بصورة كاملة ،
ووجداناً عميقاً ، رقيقاً ، وارادة ممتازة ، وتأثيراً عاطفياً شديداً .
وهذه هي أروع خصال المثقفين الحصفاء التي يستطيع المرء أن يفخر
بها ، ولكن هذا كله لايكوّن شاعراً اذا أخذنا به جملةً . فان الشعر
الحق يتجلّى من خلال مقدرته ، بحكم كونه انجيلاً دنيوياً ، على
تحريرنا ، عن طريق البهجة الداخلية ، وعن طريق السرور الخارجيّ ،
من الأعباء الأرضيّة التي تُثقِل علينا . وهو يرتفع بنا كالمنطاد
الهوائي ، مع الصابورة(١) التي تتعلّق بنا ، الى أقاليم أعلى ، ويدع
متاهات الأرض الداخلة ماثلة هناك أمامنا وقد تطورت ضمن منظور
كمنظور الطيور . وان للأعمال المتناهية في المرح ، كما للأعمال

(١) الصابورة ثقل يجعل في أسفل السفينة أو المنطاد لموازنتهما . «المترجم»

المتناهية في الجدّ ، هدفاً واحداً ، ألا وهو الانتهاء بالمتعة وكذلك بالألم ، الى الاعتدال ، عن طريق التصوير البارع . فلينظر المرء الآن ، بهذه الروح ، في معظم القصائد الانكليزية التي يغلب عليها الطابع الأخلاقي التعليميّ ، فانها لن تظهر في المتوسّط إلاّ تبرّما كئيباً بالحياة ولم يكن هذا أمر قصيدة يونج(١) «خواطر الليل» وحدها حيث يجري بسط هذا الموضوع على نحو متميّز ، وانما تخوض القصائد التأملية الباقية ، ، على غير توقّع ، في هذا المجال الكئيب الذي يُلقى فيه على عاتق العقل مهمة لا يعد كافياً لأدائها ، اذ يتخلّى عنه حتى الدين ذاته مهما يكن من قدرته على تشييده على كل حال . وان في وسع المرء أن يجمع بالطباعة مجلدات بأكملها ممّا يصلح لأن يكون تعليقاً على ذلك النص الرهيب :

ثم ينتهي به الهرم والمعاناة ، يداً بيد ،
الى الموت ، ويحملانه على أن يفهم ،
بعد بحث بالغ الإيلام ، وبالغ الطول ،
أنه كان على خطأ طوال حياته .

أمّا ما يستكمل بعد ذلك تحويل الأدباء الانكليز الى كارهين للبشر ، وينشر شعور الكراهية المزعج تجاه كل شيء ، على كتاباتهم ، فهو أنهم يضطرون جميعاً ، على ما في نظامهم العام من ألوان الانقسام المعقدة ، الى أن يكرّسوا أفضل قسط من حياتهم ، ان لم يكرسوها بأسرها ، الى هذا الحزب او ذاك . ولما كان مثل هذا الكاتب لا يجوز له أن يمدح ويمجّد رهطه الذين انقطع اليهم ، ولا القضية التي يناصرها ، لأنه لن يثير حينئذ إلاّ الحسد والكراهية ، فهو يدرب موهبته بالحديث عن مناوئيه حديثاً سيئاً شريراً قدر الإمكان ، ويرهف أسلحة الهجاء

الساخر ، بل يسممها على قدر ما يستطيع . فاذا حدث هذا من قبل كلا الطرفين أصاب العالم الواقع بينهما الخراب ، وأزيل عن بكرة أبيه ، بحيث لايستطيع المرء أن يكتشف في عصبة من الشعب كبيرة تعمل بوحي العقل ، في أكثر الصور سماحة ، شيئاً سوى الحماقة والجنون ، بل ان قصائدهم الرقيقة تعالج الموضوعات الكئيبة . فهنا تموت فتاة مهجورة ، وهناك يغرق عاشق وفي ، أو يفترسه سمك القرش قبل أن يبلغ محبوبته وهو يسبح مسرعاً . وحين ينزل أديب مثل جراي(٣) في كنيسة قرية ، ويعود الى الترنّم بتلك الألحان المعروفة ، يستطيع أن يكون على يقين أنه يجمع عدداً من أصدقاء الكآبة حواليه . أما قصيدة ملتون «ألليّجرو(١)» فلا بدّ لها أن تبعد المزاج الفاسد في أبيات عنيفة قبل أن تستطيع الوصول الى متعة شديدة الاعتدال . بل أن جولد سميث(٢) المَرِح ذاته يتيه في الأحاسيس المتصلة بالمراثي ، حين تصوّر لنا «قريته المهجورة» فردوساً مفقوداً يبحث عنه «رحّالته» في كل أرجاء الأرض من جديد على نحو يستوي فيه السحر والكآبة .

ولست أشك في أن المرء يستطيع أن يعرض لي أعمالاً مرحة وقصائد تنطوي على البهجة أيضاً ويضعها في مقابل ذلك ، ولكن معظم هذه الأعمال وأفضلها ينتمي بلا ريب الى الحقبة الأقدم . أما الأعمال الأحدث التي ربما يستطيع المرء أن يسلكها في هذه فتجنح ، على النحو ذاته ، نحو الهجاء الساخر ، وهي مُرّة تنظر الى النساء بوجه خاص نظرة الازدراء .

وجملة القول ان تلك القصائد الجدية المشار اليها فيما سبق بوجه عام ، والتي تدفن الطبيعة البشرية ، كانت القصائد المفضّلة التي كنا نؤثرها على كل ما عداها . فكان الواحد منا يلتمس ، وفقاً لطراز

نفسيّته ، حزن المراثي الأخفّ ، وكان الآخر يبحث عن اليأس الجاثم بثقله ، والمتخليّ عن كل شيء ، وحسبُ هذا من الغرابة أن أبانا ومعلمنا شكسبير الذي كان يعرف كيف ينشر هذا المرح الخالص ، كان يزيد هو ذاته من هذه المرارة . فقد ظل هاملت بمحاوراته الأحادية أشباحاً تحرك طيفها في خواطر الشباب جميعاً . وكان كل امرىء يحفظ الموضوعات الرئيسية غيباً ، ويسره أن يتلوها ، وكان كل امرىء يعتقد أن من حقه أن يكون في مثل كآبة أمير الدانمرك ، على الرغم من أنه لم ير شبحاً ولم يكن عليه أن يثأر لوالدٍ مَلِك .

ولكن لكيلا يفرت كلَّ هذا المزاج العكر المكانُ الملائم كل الملاءمة كان أوسيان(٣) قد اجتذبنا حتى آخر جزيرة من جزائر «توله»(٤)( التي نرى فيها ، على بيداء شاحبة لانهاية لها ، ونحن نجوس بين أحجار الأضرحة البارزة المكسوة بالطحلب، العشب الذي تخفق فيه الريح الصَرْصَر ، وسماءً تغشاها السحب الكثيفة فوقنا ، ثم تحولت هذه الليلة الكاليدونية(٢) مع ضوء القمر فحسب الى نهار ، وكان الأبطال الراحلون والفتيات الذابلات يحومون حوالينا الى أن خيل الينا آخر الأمر أننا نبصر شبح (لودا) حقاً في صورته الرهيبة .

وفي مثل هذا العنصر ، وفي مثل هذه البيئة ، وفي الهوايات والدراسات من هذا النوع ، اذ كانت تعذب القوم أهواء غير مشبعة ، ولم تكن جلائل الأعمال تستفزّها من الخارج بحال من الأحوال ،

---

(١) Thule جزيرة أسطورية في الشمال الاسكندنافي .

(٢) نسبة الى شمالي اسكتدلندا .

«المترجم»

وضمن إطار النظرة المستقبلّية الوحيدة ، ومؤداها أنه لابد لنا أن نُسلم أنفسنا الى حياة مدنية متعثرة الخُطى ، لاروح فيها ، في إطار هذا كله كان القوم يعقدون أواصر الصداقة ، في كبرياء يائسة ، مع فكرة مؤداها أن المرء يستطيع أن يفارق الحياة اذا عادت لا تلائمه ، وفقاً لهواه على كل الأحوال ، وكانوا يستعينون بذلك على تجاوز مساوىء الأيام وسآمتها ، استعانة البائس المضطر . وكانت هذه الفكرة من الشيوع بحيث ان «فرتر» ذاته أحدث أثره الكبير لأنه أحدث مفعوله في كل مكان ، وصور الجانب الداخلي لجنون الشباب المرضي تصويراً صريحاً قريب المتناوَل ، أما مدى الدقة التي كان الانكليز يعرفون بها هذا الوبال ، فذلك ما تدل عليه الأبيات الهامة المكتوبة قبل ظهور «فرتر» :

لقد كان ذلك المجبول على الأحزان الملائمة لطبعه(١)
يعرف من الجراح فوق ما في الطبيعة
على حين كانت صورة البؤس تستحوذ على مخيلته
بألوانها المثالية القاتمة ، وأهوالها التي لم تكن ناجمة عنها (*)

فالانتحار حدث من أحداث الطبيعة البشرية يستدعي اهتمام كل انسان مهما يكن من حديث كثير وكلام عنه ، ولابدّ ، في كل حقبة زمنية ، من عودة الى الحديث عنه ، فان مرنتسكيو(٢) يعطي أبطاله وعظماء رجاله الحق في الموت على النحو الذي يحلو لهم ، اذ يقول انه لابد أن يكون متاحاً لكل امرىء أن يختم الفصل الخامس من مأساته متى راق له ذلك . ولكن الحديث هنا ليس عن أولئك الذين قضوا

(١) هذه الأبيات في الانكليزية بالأصل .

«المترجم»

حياة هامة حافلة بالعمل في سبيل أية مملكة عظيمة ، او أنفقوا أيامهم من أجل قضية الحرية ، والذين لن يأخذ المرء عليهم بلا ريب أن يفكروا في متابعة الفكرة التي تبث فيهم الروح بمجرد أن تتلاشى من الأرض ، في العالم الآخر أيضاً . وانما نعني هنا أولئك الذين تنفرهم الحياة من نفسها في الحقيقة لانعدام جلائل الأعمال ، في وسط أكثر الظروف سلاماً في العالم ، وذلك بالمطالب ذات الشطط . ولمّا كنت أنا في هذه الحالة ، وأعرف أفضل المعرفة أي ألم عانيته في ذلك ، وأي جهد كلفني التخلص منها ، فاني لا أريد أن أكتم الملاحظات التي سجلتها حول أساليب الموت المختلفة التي يمكن للمرء أن يختارها ، بصورة متروّية حقاً .

انه لشيء جدّ مجانب للطبيعة أن ينتزع المرء نفسه ذاتها من نفسه ، وألاّ يلحق الضرر بنفسه فحسب ، بل أن يُعدِمَها ، وأن يلجأ في معظم الأحيان الى وسائل آلية ليوجه عزمه نحو العمل . فحين يقع أجاكس على سيفه يكون ثقل جسده هو الذي يستدعي اليه الخدمة الأخيرة ، وحين يلزم المحارب حامل ترسه(١) بألاّ يدعه يسقط في أيدي الأعداء ، تكون هناك أيضاً قوة خارجية يستيقن منها ، إلاّ أنها قوة معنوية بدلاً من القوة الجسدية . والنساء يلتمسن في الماء مُبْتَرداً ليأسهن . أما الوسيلة التي تبلغ الذروة في آليتها ، والمتمثلة في البندقية ، فتضمن فعلاً سريعاً مع أقلّ جهد . وأما الشنق فلا يذكره المرء إلاّ على مضض ، لأنه موت غير شريف . على أن المرء يمكن أن يلقاه أول ما يلقاه في انكلترا ، لأن المرء يرى هناك منذ صباه عدداً غيرقليل يشنقون من دون أن يكون في العقوبة ما ينتقص الشرف . أما السم ، وفتح الشرايين فلا يفكر المرء فيهما إلاّ ليفارق

الحياة بهما رويداً رويداً . وقد كان الموت الأكثر نقاءً ، وسرعة ، وخلوّاً من الألم ، عن طريق أفعى ، لائقاً بملكة(٢) كان قد أنفقت عمرها في الأُبهـّة والمتعة . ولكن هذه كلها ذرائع خارجية ، فهي أعداء يعقد المرء معها تحالفاً ضد نفسه ذاتها .

ولمّا قلّبت النظر في هذه الوسائل جميعاً ، ثم تابعت النظر هنا وهناك في جوانب التاريخ ، وجدت بين كل أولئك الذين يقتلون أنفسهم صغاراً يقدمون على هذا الصنيع إقدام العظماء وأحرار الفكر ، شأن الامبراطور أوتو(٣) ، اذ يقرر هذا الذي كان في الحقيقة في وضع ليس في صالحه ، وليس في الغاية من السوء بحال من الأحوال ، أن يرحل عن هذا العالم من أجل مصلحة المملكة التي كانت منوطة به على نحو ما ، وحقناً لدماء الألوف المؤلفة ، ويحتفل مع أصدقائه بمأدبة ليلية بهيجة ، ويجد القوم في الصباح التالي أنه قد أغمد بيده خنجراً حاداً في قلبه . واستيقنت أن من لم يستطع أن يسلك في هذا الصدد سلوك أوتـّو لايحق له أن يسمح لنفسه أن يرحل عن هذا العالم بمحض ارادته . وعن طريق هذا الاقتناع أنقذت نفسي من هوى الانتحار أكثر مما أنقذتها من العزم على الانتحار . وكان هو ذلك الهوى الذي تسلل في أيام السلام الرائعة تلك ، الى الشباب العاطل . وكنت أملك فيما أملك من مجموعة الأسلحة المرموقة خنجراً نفيساً جيد الصقل . وكنت أضع هذا في كل وقت الى جانب السرير ، وأجرّب ، قبل أن أطفىء النور هل أصيب نجاحاً في إغماد الرأس الحاد عـلى عمق بضعة أصابع في صدري . ولكن حين لم أوفّق الى هذا قط جعلت أضحك من نفسي آخر الأمر ، ونفضت عني كل الصور المشوّهة الاكتئابيّة وقررت أن أعيش . ولكن لكي أستطيع أن أفعل هذا

بصورة مرحة لم يكن لي بدٌّ من أن أهيئ رسالة أدبية أؤديها ، اذ أعبر عن كل ما أحسست به وفكرّت به وتوهمته حيال هذه النقطة الهامة . وجمعت العناصر اللازمة لذلك ، والتي كانت تجيش في نفسي منذ بضع سنين ، وجعلت أصوّر لنفسي الحالات التي كانت أكثر الحالات إلحاحاً وإثارة للفزع ، ولكن لم يكن ثمة شيء يتشكل ، اذ كان ينقصني حدثٌ ، أو حكاية خرافية يمكن أن يتجسد فيها .

واذا أنا أحيط علماً ، مرة واحدة ، بوفاة ييروسالم(١) وأحيط بعد الشائعة العامة مباشرة ، بأدق الأوصاف [illegible] للحدث(٢) . وفي هذه اللحظة كان قد تم وضع مخطط (فرتر) . وتكامل المجموع من كل الجوانب ، وتحول الى كتلة متماسكة ، كالماء في الإناء اذ يقف عند نقطة التجمد ، ويتحوّل بأدنى هزة الى جليد صلب على الفور . وقد كنت أكثر استعداداً للتمسك بهذا الكسب الفريد ، وتجسيد عمل له كل هذا المضمون الخطير والمتعدد الجوانب ، وتنفيذه في كل أجزائه ، حين عرض لي من جديد وضع مزعج لم يدع لي من الأمل إلاّ قدراً أقل من الأوضاع السالفة ، ولم يكن يوحي بشيء سوى اليأس ان لم يوح بالمتاعب .

وانه لمن المصيبة دائماً أن يدخل المرء في علاقات جديدة لم يألفها . فكثيراً ما نتعرض ، خلافاً لارادتنا ، لإغراء الاهتمام الخاطىء ، وتعذّبنا جزئيّةُ أمثال هذه الحالات . ومع ذلك فنحن لانرى وسيلة لاستكمالها ، ولا للإعراض عنها .

وكانت السيدة فون لاروش قد زوجت ابنتها الى فرانكفورت(١) ، وكانت كثيراً ما تأتي لزيارتها ، ولم تكن تستطيع أن تنسجم مع الحالة

التي اختارتها لنفسها . فبدلاً من أن تشعر بالارتياح الى ذلك أو توعز بأي تغيير كانت تسترسل في الشكاوي ، حتى لم يكن هناك بدٌّ للقوم أن يحسبوا حقاً أن ابنتها غير سعيدة ، على الرغم من أنهم لم يكونوا يتبيّنون أين يمكن أن تكمن المصيبة في الحقيقة ما دامت لاينقصها شيء ، وما دام زوجها لايضن عليها بشيء . وكنت في هذه الأثناء أجد قبولاً حسناً في ذلك المنزل . وأحتلّ بذلك المحيط برمّته ، وكان يأتلف من أناس أسهم فريق منهم في الزواج ، وكان الآخرون يتمنون له نجاحاً سعيداً . وكان دومايتس(٢) ، عميد سانت ليونها رد يثق بي ويصادقني ، وكان أول كاهن كاثوليكي أقمت معه صلة وثيقة . ولما كان رجلاً جد متنور فقد زوّدني بمعلومات حسنة ووافية عن العقيدة والتقاليد والأوضاع الخارجية والداخلية في أقدم الكنائس(٣) . وما زلت أذكر شخصية سيدة حسنة القوام على الرغم من أنها ليست شابّة ، اسمها سيرفيير(٤) ، كما نشأت صلاتٌ لي بالأسر السويسرية في ألّيسينا(٥) ، والأسر الأخرى ، على النحو ذاته ، ونشأت علاقات مع الأبناء ، وظلت ودية زمناً طويلاً . ورأيت نفسي دفعة واحدة في المحيط الغريب وكأنني في وطني ، فكنت أندفع ، بل اضطر الى المشاركة في أشغالهم ، ومباهجهم ، بل في ممارساتهم الدينية . أما علاقتي السابقة بالسيدة الشابة ، وكانت في الحق علاقة أخوية ، فقد اتصلت بعد الزواج ، وكانت سني تلائم سنها وكنت في المحيط كله الوحيد الذي كانت تلمس لديه صدى تلك الألحان الروحية التي كانت ألِفَتْها منذ الصبا . وكنا نستأنف حياتنا معاً في ثقة طفولية ، وعلى الرغم من أنه لم يمازج صحبتنا شيء من الهوى فقد كانت تنطوي على العذاب حقاً ، لأنها لم تتمكن من التلاؤم مع بيئتها الجديدة ،

وكان عليها على الرغم من أنها أوتيت متاع الحياة السعيدة الذي انتقل من بيت تال – ايهرنبرايتشتاين ، ومن صبا بهيج الى بيت تجاري ذو موقع موحش ، أن تسلك سلوك الأم تجاه عدد من أطفال زوجها . وكنت محشوراً في هذا القدر الكبير من العلاقات العائلية الجديدة من دون اسهام فعليّ أو مشاركة في التأثير . وكان القوم اذا رضي بعضهم عن بعض بدا أن هذا أمر بدهيّ . ولكن معظم المشاركين كانوا يتجهون اليّ في حالات الاستياء ، وأنا الذي كنت في العادة أزيد الأمور سوءاً على سوء باهتمامي الحيويّ أكثر مما أصلحها . ولم يلبث الأمر طويلاً حتى غدا هذا بالقياس اليّ وضعاً لايحتمل البتة . وكان كل التبرّم بالحياة الذي يُلجِم في العادة أمثال هذه العلاقات الجزئية يبدو أنه يجثم على كاهلي بضعفي ثقله ، وثلاثة أضعافه ، وكان الأمر يقتضي عزيمة جديدة جبارة لتحرير نفسي من ذلك أيضاً .

وقد نبهتني من الحلم وفاة بيروسالم التي نجمت عن ميل تعيس الى زوجة أحد الأصدقاء ولمّا كنت لا أقتصر على النظر فيما أصابه وأصابني نظر المتأمّل ، بل كان ما يشبه ذلك مما يتتابني أنا في اللحظة الحاضرة يبعثّ فيّ اضطراماً عاطفياً ، فلم يكن هناك مندوحة من أن أبثّ كل اللهيب في ذلك النتاج الذي كنت أؤديه آنذاك ، وهو اللهيب الذي لم يكن يدع مجالاً لتمييز بين الشعريّ والواقعي . وكنت قد عزلت نفسي عزلة كاملة من حيث الظاهر ، بل حرمت على نفسي زيارة أصدقائي ، وعلى هذا نبذت في قرارة نفسي كل ما لم يكن ينتمي الى ذلك بصورة مباشرة . وفي مقابل ذلك أجملتُ كل ما كان له صلة بمقصدي ، وجعلت استعرض حياتي المقبلة التي لم أكن بعدُ قد استخدمت مضمونها استخداماً أدبياً . وفي مثل هذه الظروف ،

وبعد ضروب من التمهيد طويلة وكثيرة جداً ، كتبت «فرتر» في أربعةأسابيع من دون أن يُسطّر على الورق مخطط جامع ،أومعالجة لجزء منها في أي وقت سابق .

وكان المخطوط الجاهز الآن ماثلاً في المسوّدة أمامي ، مع قليل من التصحيح والتغيير ، وقد جلّد على الفور : ذلك لأن التجليد يخدم الكتاب خدمة تقارب خدمة الاطار للصورة . والمرء أقرب كثيراً الى أن يرى أنه موجود في ذاته حقاً . ولما كنت قد كتبت هذا العمل الصغير بصورة تلقائية لا ارادية ، شأن السائر في نومه ، فقد أخذني العجب من نفسي حين جعلت أتصفحه الآن ، لأغير فيه شيئاً ما وأصلحه . ومع ذلك فقد عمدت ، وأنا أترقّب أن يخطر لي فوق ذلك بعض الأمور التي قد تكون في صالحه ، الى اعطائه الى أصدقائي من الشباب لقراءته ، فأحدث فيهم أثراً زاد فيه أنني لم أحدث به أحداً من قبل ، على غير عادتي ، ولا كشفت عن نيتّي حياله . ولا ريب أن المادة كانت في الحقيقة هي التي أحدثت الأثر هنا ، على نحو متكرر ، وباتوا على ذلك الآن في حالة نفسية معاكسة لحالتي : وذلك لأنني كنت قد خلّصت نفسي ، عن طريق هذا التأليف ، أكثر مما فعلت ذلك عن طريق أي تأليف آخر ، من عنصر عاصف كان يتقاذفني ، بجريرتي وجريرة غيري ، ومن خلال نمط الحياة العشوائي والمختار ، وعن طريق التصميم والاستعجال ، والعناد والتساهل ، بين مدّ وجزر ، وبأشد الأشكال عنفواناً . وشعرت بالبهجة والحرية من جديد ، مثلما يشعر المرء بعد اعتراف عام ، وبأنني مؤهّل لحياة جديدة . لقد تهيّأت لي الوسيلة المنزلية القديمة(١)

---

(١) يقصد هنا الاعتراف الشعري ( انظر صفحة ٥٢١ ، الربع الأخير ) .

الآن على نحو ممتاز هذه المرة . ولكن بينما كنت الآن أشعر عن هذا الطريق بالارتياح والصفاء اذ حولت الواقع الى شعر كان أصدقائي يُوريكون أنفسهم اذ يعتقدون أنه لابد للمرء أن يقلب الشعر الى واقع ، وأن يمثل مثل هذه الرواية ، ويطلق النار على نفسه على كل حال . وما كان يحدث هنا بين أناس قلائل بادىء ذي بدء بات يحدث بعد ذلك وسط الجمهور العريض ، وغدا هذا الكتيب سيء السمعة من حيث انطواؤه على غاية الأذى ، وكان في ذلك منفعة فائقة لـــي ومـــع ذلك فقـــد كـــانت كل المساوىء وكل المصائب التي يقال انه أحدثها قريبة من التدارك ، بطريق المصادفة ، اذ تعرّض لخطر الإبادة يُعَيْد نشوئه . وذلك ما سارت عليه الأمور ، اذ كان مِرْك قد عاد منذ وقت قصير من بطرسبورج . ولم أكن أتحدّث اليه إلاّ قليلاً ، اذ كان مشغولاً على الدوام ، ولم أستطع أن أفضي اليه إلاّ بأشدّ الأشياء عموماً من روايتي هذه التي كانت غالية عندي . ثم انه زارني يوماً ، ولمّا بدا غير ميّال الى الحديث الكثير رجوت منه أن يصغيَ اليّ ، فقعد على الأريكةً ، وشرعتُ في تلاوة المغامرة ، رسالةً فرسالة ، وبعد أن مضيت في ذلك حيناً من الزمن، من دون أن أغريه باظهار علامة استحسان لجأت الى المزيد من إظهار العاطفة الوجدانية ، وما أشد ما انتابني حين حطمني تحطيماً فائق الهول ، اذ توقفت لاستراحة ، بقوله : «حسناً ! ، هذا شيء حلو تماماً» ، وولىّ من دون أن يضيف شيئاً آخر. وخرجت عن رشدي تماما : ذلك لأنني لمّا كنت أجد متعة في أشيائي ، ولكن لم يكن لديّ في الايام الأولى حكمٌ فيها ، فقد اعتقدت اعتقاد المستيقن تماماً ، أنني تجاوزت الحدود في الموضوع ، أو في الإيقاع ، أو في الأسلوب ، وهي الأمور التي كانت بالطبع موضع النظر جميعاً ، وأنني أخرجت شيئاً غير لائق البتّة . فلو أن نار مدفأة كانت في متناول يدي لرميت فيها بالعمل

على الفور . ولكنني حزمت أمري من جديد ، وقضيت أياماً أليمة الى أن أسرّ لي آخر الأمر أنه كان في تلك اللحظة في أشد الأوضاع التي يمكن أن تعرض للإنسان ، هولاً(١) ، وأنه من أجل ذلك لم يرَ ولم يسمع شيئاً ، ولم يكن يدري أبداً عمّ يدور الحديث في مخطوطي .
وفي هذه الأثناء كانت الأمور قد استقامت من جديد على قدر ما يمكن لها أن تستقيم ، وكان مرْك في أيام عنفوانه ذلك الرجل الذي يرتضي ركوب الأهوال ، وعاد اليه مرحه . الا أنه بات أكثر مرارة من ذي قبل ، وكان يلومني لتصميمي على تعديل «آلام فرتر» بضروب فظّة من التعبير ، ويطالب بأن يراها مطبوعة كما كانت . وتم تأمين مخطوط نظيف لها لم يبق في يديّ طويلاً ، اذ وصل ، بطريق المصادفة ، في اليوم ذاته الذي تزوجت أختي(٢) فيه من جورج شلوسّر ، وكان البيت متألقاً يدب فيه النشاط من الاحتفال البهيج ، كتابٌ من فيجاند(٣) من لايبتسج ، يلتمس مني مخطوطاً . ورأيت في هذا التوافق فألاً حسناً ، فبعثت بـ«فرتر» ، وسرني كثيراً أنّ الأجر الذي تلقيتّه عليه لم تستغرقه الديون التي كنت قد اضطررت الى اقتراضها من أجل (جوتس فون برليشنجن) كل الاستغراق . وقد كان أثر هذا الكتاب عظيماً ، بل هائلاً ، وممتازاً ، لأنه صادف الوقت الملائم بالضبط ، ذلك لأنه مثلما يحتاج المرء إلى قليل من القش لتفجير لغم ، فكذلك كان الانفجار الذي حدث في أعقاب ذلك لدى الجمهور بالغ القوة ، لأن عالم الشباب كان قد أنهك نفسه شيئاً فشيئاً ، وكانت الهزّة على هذا الجانب من القوة ، لأن كلاً منهم انفجر بمطالبيه المبالغ فيها وأهوائه التي لم يتهيّأ لها إشباع ، وآلامه المتصوَّرة ، ولا يستطيع المرء أن يطلب الى الجمهور أن يتقبّل عملاً فكرياً بطريقة فكرية . والحق انه لم يكن يُنظَر إلاّ الى المضمون والمادة كما سبق أن عاينت ذلك لدى أصدقائي ، والى جانب ذلك عاد من جديد الحكم المسبق الناجم

عن مكانة الكتاب المطبوع ، وهو أنه لابدّ أن يكون له هدف تعليمي ، أمّا التصوير الحق فليس له ذلك الهدف ، اذ انه لايستصوب ولا يذم ، بل يطور الأفكار والأحداث في تسلسلها ، وبهذه الطريقة يلقي الضوء ويعلّم .

وكنت قلّما ألقي بالاً الى ضروب النقد فقدكانت المسألة بالقياس اليّ مفروغاً منها تماماً . وكان في وسع أولئك الطيبين أن يروا الآن كيف يفرغون من ذلك . ومع ذلك فان أصدقائي لم يقصّروا في جمع هذه الأشياء وفي التندّر عليها اذ كانوا ذوي خبرة بها . وقد أتاحت لنا «مباهج فرتر» التي خرج بها نيكولاي(١) الفرصة لبعض النوادر . وكان هذا الرجل الطيب آخر الأمر ، وذو المآثر والمعارف ، قد أخذ يزدري وينبذ كل ما لم يكن يتلاءم مع طراز تفكيره الذي كان يرى أنه هو التفكير الحقيقي الوحيد ، اذ كان فكره محدوداً جداً . ولم يكن له بد من أن يجرّب نفسه في مواجهتي أنا أيضاً في الوقت ذاته . وسرعان ما وصل الى أيدينا ذلك الكتيّب . وقد أتاحت لي الصورة القلمية الموجزة الفائقة الإرهاف لشودوفيكي(٢) كثيراً من السرور ، فكنت أقدّر هذا الفنان تقديراً يجاوز الحدود . أما العمل الفني نفسه فقد لُفّق من الكتان المنزلي الخشن الذي اجتهد العقل البشري كثيراً ضمن محيطه العائلي في سبيل اعداده إعداداً يتسم بالخشونة حقاً . ومن دون أن يشعر الكاتب أنه لاسبيل الى حل وسط هنا،وأن زهرة شباب فرتر نخرتها دودة الموت بصورة مسبقة ، يُقِرُّ معالجتي للموضوع حتى الصفحة (٢١٤)(٣) ، وحين يتجهّز الانسان المستوحش للخطوة القاتلة يعرف الطبيب النفسي المتبصّر كيف يدس لمريضه مسدساً مشحوناًبدم الدجاج ،وينجم عن ذلك مشهد وَسِخ ،ولكن من حسن الحظ أنه لايحدث مكروهاً . وتصبح لوتّه زوجة لفرتر ، وتنتهي المسألة كلها بما يسرّ كل واحد منهم .

وهذا ما أستطيع أن أتذكره من ذلك . لأنه لم يقع تحت عيني من جديد . وكنت قد اقتطعت الصورة القلمية . ووضعتها بين أحب النقوش لديّ . ثم وضعت قصيدة ساخرة قصيرة ، في انتقام هادىء صريح لامواربة فيه ، وهي «نيكولاي على ضريح فرتر»(١) . ومع ذلك فليس من الممكن البوح بها . وكذلك استيقظ لديّ الولع بتحويل كل شيء الى مسرحيات على نحو [illegible] فكتبت بهذه المناسبة . حواراً نثرياً بين لوتّه وفرتر(٢) ، تميّز بروحه الهزلية الى حد بعيد ، وفيه يشكو فرتر بمرارة من أن الخلاص عن طريق دم الدجاج قد أفضى الى نهاية بالغة السوء . فلقد بقي على قيد الحياة حقاً ، ولكنه أصاب عينيه فقلعها ، فهو الآن يائس من أن يكون زوجاً لها ولا يتمكن من رؤيتها اذ إن رؤية مجمل كيانها يكاد يكون أحبّ اليه من التفاصيل الحلوة التي يحق له أن يتأكد منها عن طريق الشعور . فان لوتّه ، كما يعرفها الناس لن يجد بها بوجه خاص أيضاً رجل كفيف ، وهكذا تتاح الفرصة للطعن في مبادرات نيكولاي لتدخله المتطفل في شؤون غيره ، وقد كتب هذا كله بفكاهة مستعذبة وتقدير مسبق حرّ لذلك الطموح التعس القائم على الزهوّ بالنفس عند نيكولاي الى التصدي لأشياء لم ينضج لها ، فأثار بذلك ، بالنتيجة ، كثيراً من الاستياء(٣) ، لنفسه والآخرين ، ، وخسر فوق ذلك آخر الأمر منزلته الأدبية خسراناً كاملاً على ماله من مآثر جلى . ولم تنسَخ الصفحة الأصلية لهذه النادرة قط ، وتلاشت منذ كثير من السنين . وكنت أوثر بالحب الانتاج الصغير بوجه خاص . على أن الهوى الخالص الحار بين كلا الشابيّن كان يزيد في شدّته أكثر مما يضعفه الموقف الهزلي المأساوي

الذي وجدا نفسيهما فيه . وكان يسود هناك أعلى ضروب الرقة على الاطلاق ، كما أن الخصم لم يكن لدوداً ، بل تناولته تناولاً فكاهياً . ولم أدع الكتيّب نفسه ينطق بكل هذا القدر من التهذيب ، إذ أعرب عن ذاته على النحو التالي ، مقلداً قافية قديمة :

ألا فليشّن عليّ ذلك الرجل(١) المزهوّ بنفسه
بأني خطير ،
فان الثقيل الغليظ الذي لايستطيع السباحة
ينحي باللائمة على الماء
وماذا يعنيني من مرسوم الحرمان البرلينيّ ،
الصادر عن قساوسة التذوّق السطحيّ !
ومن لم يستطع أن يفهمني ،
فخير له أن يتعلّم القراءة .

ولما كنت مستعداً لكل ما يمكن للناس أن يحتجوا به على «فرتر» فانني لم أضق ذرعاً بحال من الأحوال بكل ذلك القدر من الردود . غير أني لم أكن أحسب أن عذاباً لايحتمل كان يحضّر لي من قبل نفوس تهتم لي وتريد بي خيراً . ذلك لأن القوم بدلاً من أن يقولوا لي في كتابي الصغير (٢) ، في صورته التي كان عليها ، قولاً معروفاً ، أرادوا جميعاً أن يعرفوا بصورة قاطعة ماذا كان وجه الحق في هذه المسألة . وذلك ما كان يبعث على استيائي الشديد . وكنت أواجه ذلك ببالغ النزق . ذلك لأن الإجابة عن هذا السؤال لابد لها أن تمزّق من جديد عملي الصغير الذي طالما بذلت من التفكير لأضفي على كثير من عناصره وحدة شعرية ، وتفسد التالب ، مما يؤدي الى أن تنتهي

الأجزاء الحقيقية ذاتها الى التبعثر والتمزق على الأقل ، ان لم تنعدم .
ومع ذلك فلم يكن في وسعي ، اذ نظرت في المسألة عن كثب ، أن ألوم الجمهور على مطالبه ، فقد أثار مصير بيروسالم ضجة كبيرة . شابّ مثقّف ، محبوب ، لاشائبة فيه ، يرحل عن هذا العالم مرة واحدة ، متمتعاً بالعافية ورغد العيش ، من دون باعث معروف . وكان كل امرىء يتساءل الآن كيف أمكن هذا ، وحين سمع القوم بحب تعس ثارت ثائرة الشباب جميعاً ، اذ كان الناس يتحدثون عن منغصات صغيرة كانت تواجهه في مجتمع النبلاء ، وودّ كل امرىء لو يعرف من ذلك ما هو أكثر دقة ، وقد ظهر الآن في «فرتر» وصف مفصّل حسب الناس أنهم يرون فيه حياة الشاب المذكور وطراز فكره ، وكان المكان والشخصية متوافقين ، واعتقد الناس ، بما في الوصف من موافقة كبيرة للطبيعة ، أنهم قد اطلعوا الآن الاطلاع الكامل ، وشفَوْا غليلهم ، ولكن قدراً كبيراً منه لم يكن ، في مقابل ذلك ، يتلاءم مع هذا من جديد لدى النظرة الأقرب ، وتولّد عند أولئك الذين كانوا يبحثون عما هو حقيقي عملٌ لايطاق ، اذ لابد للنقد التحليلي أن يثير مئات الشكوك . ولم يكن ثمة سبيل الى بلوغ أساس القضية على الإطلاق . ذلك لأن ما كرّست من حياتي وآلامي للانشاء لم يكن من الممكن حل ألغازه ، اذ كنت أسلك في الحياة طريقي الخاص على نحو لم يكن في الحقيقة سريّاً ولكنه كان مع ذلك متسماً بالهدوء .

ولم يكن مجهولاً لديّ أثناء عملي مدى ما يتمتع به من الحظوة ذلك الفنان الذي كان الناس يتيحون له الفرصة ليستخلص دراسة واحدة لفينوس من عدد من الجميلات . وكذلك استبَحْتُ لنفسي أيضاً أن أصوغ صاحبتي لوتّه من هيئة عدد من البُنَيّات الجميلات وخصالهن ،

على الرغم من أن الملامح الرئيسية كانت مستمدّة من أحبّهن إليّ . ومن أجل ذلك كان في وسع الجمهور المنقّب أن يكتشف أوجه الشبه مع نساء مختلفات . وكذلك لم يكن من الأمور التي لاتبالي بها النساء مطلقاً أن تُعَدّ الواحدة منهن «لوته» الحقيقيّة . ولكن هذه الأشكال المتعددة من «لوته» كانت تجرعليّ عذاباً لا حد له،اذ كان كل من ينظر اليّ مجرد نظرة يطالب بأن يعرف معرفة قاطعة أين عسى أن يكون منزل لوته الحقيقية ؟ وكنت أحاول ، مثلما كان ناتان الحكيم يصنع بالخواتم الثلاثة ، أن أَتخلّص الى مخرج ما ، وذلك ما كان يمكن أن يتهيّأ لمن هم أرفع شأناً . ولكن لا الجمهور الميّال الى التصديق ، ولا الجمهور القارىء ، كان يرضى أن يرتوي غليله بذلك . وكنت آمل أن أتخلّص من أمثال هذه الضروب من التنقيب المزعج بعد بعض الوقت ، ولكنها صحبتني عبر حياتي كلها . وحاولت أن أنجو بنفسي من ذلك عن طريق الرحلات في أنحاء مجهولة ، ولكن هذه الوسيلة امتنعت عليّ فجأة . ولئن كان ذلك العمل الصغير قد اقترف شيئاً من ظلم أو أذى فقد عوقب على ذلك العقوبة الكافية ، بل زِيدَ عليها بمثل هذه الألوان من المضايقات التي لا مهرب فيها .

ولمّا ضاقت به السبل على هذا النحو بات يدرك ادراكاً مفرطاً في شدته أن هُوَّةً هائلة تفصل بين الكتاب والجمهور ، ولا يحمل القوم ، على كلا الجانبين ، تصوّراً عنها ، وذلك ما يبعث على سعادتهم . أما مقدار ما يترتب على ذلك من عبثيّة كل المقدمات فذلك ما تبيّن له منذ عهد طويل : ذلك لأن المرء كلما أمعن في التفكير بتوضيح مقصده ازداد تقديماً لباعث التشويش . ثم ان الكاتب قد يقدم لكتابه بما شاء أن يقدم له ، فان الجمهور سيواصل دائماً طرح المطلب الذي

حاول رفضه . وعلى النحو ذاته كنت قد تعرّفت في وقت مبكر على خصلة مقاربة لذلك عند القرّاء تلفت أنظارنا بوجه خاص ، وبصورة مضحكة تماماً ، لدى أولئك الذين يعمدون الى طباعة حكمهم : وذلك أنهم يعيشون على وهم مؤدّاه أن المرء حين ينجز شيئاً يغدو مديناً لهم ، ويظل في كل وقت مقصراً تقصيراً بعيداً عمّا كانوا يريدون ويتمنّون في الحقيقة ، على الرغم من أنهم لم يكونوا قبيل ذلك ، أي قبل أن يروا عملنا ، يملكون تصوراً على الاطلاق ، أن شيئاً كهذا يمكن أن يوجد أو يمكن أن يكون محتملاً . واذا طرحنا هذا كله جانباً كانت السعادة الكبرى ، أو الشقاء الأكبر يتمثلان في أن كل امرىء كان يريد تحصيل المعلومات عن هذا الكاتب الغريب الناشىء الذي برز على هذا النحو المفاجىء ، وبهذه الجرأة . وكان الناس يطالبون برؤيته ، والحديث اليه ، وأن يسمعوا شيئاً عنه ، على البعد أيضاً . وهكذا كان عليه أن يشهد إقبالاً فائق الأهمية ، ساراً حيناً ومزعجاً حيناً آخر ، على أنه مشتّت الفكر دائماً ، اذ كان أمامه أعمال مبدوءة غير قليلة ، بل لقد كانت كافية العمل بضع سنين ، لو أنه استطاع أن يثابر عليها بالهوى المتأصّل ، ولكنه كان قد خرج عن الطمأنينة ، والغسق ، والظلام الذي يستطيع وحده أن يشجّع ضروب الانتاج البحت ، إلى ألوان الصخب الماثلة في ضوء النهار ، حيث يتلاشى المرء في الآخرين ، ويتعرّض للتضليل عن طريق الاهتمام مثلما يتعرّض له عن طريق البرود ، وعن طريق الثناء والذم ؛ لأن هذه الضروب من الاحتكاك الخارجي لاتتوافق قط مع الحقبة الخاصة بثقافتنا ، ولا بد لها أن تلحق بنا الأذى بالضرورة ما دامت لاتستطيع أن تدفع بنا الى الأمام .

ومع ذلك فقد كان الولَع الذي أتى الكاتب عن طريق ذلك المجتمع ، بتحويل كل ما كان يجري في الحياة ، مما يتسم ببعض الأهمية ، الى مسرحيات ، يصرفه عن معالجة الأعمال الكبرى والفراغ منها أكثر مما تفعل شواغل النهار ، ويُصار هنا الى تفصيل ما كانت تعنيه هذه الكلمة الفنية في حقيقة الأمر ( لأنها كانت كلمة فنية ، في ذلك المجتمع المثمر ) ، وذلك أن المرء يعتاد ، اذ يدفعه النشاط الاجتماعي المتسم بخصوبة الذهن في أكثر الأيام بهجة ، الى أن يفتّت ، في ضروب من التصوير الوجيز المتصل باللحظة الحاضرة ، ، كلّ ما كان المرء يجمعه في العادة لينشيء منه ضروباً من الانشاء أكبر حجماً . فالخاطرة المنفردة البسيطة ، والكلمة السعيدة البسيطة ، بل السخيفة ، وسوء التفاهم والتناقض ، والملاحظة المنطوية على حضور البديهة ، والخصائص أو العادات الشخصية ، بل الايماءة ذات المغزى ، وكل ما يمكن أن يرد دائماً في الحياة الملوّنة الصاخبة ، كل ذلك كان يُصوَّر في قالب الحوار ، والسؤال والجواب ، والحدث المنطوي على الحركة ، والمسرحية ، في النثر أحياناً ، وفي الشعر في معظم الأحيان .

ومن خلال هذا التمرين الذي كان يُنفّذ تنفيذاً عبقرياً — عاطفياً ترسّخت تلك الطريقة في التفكير التي كانت شعرية حقاً . فقد كان القوم يَدَعون الموضوعات ، والأحداث ، والشخصيات ، تمارس وجودها في حد ذاتها ، وكذا الأمر في كل العلاقات ، وانما كانوا يسعون الى صياغتها بوضوح وحيوية . وكان المفترض أن يتمتع كل حكم ، سواء أكان إيجابياً أم سلبياً ، بالحركة ضمن قوالب حيّة أمام عيني المتفرج . وكان في وسع المرء أن يسمي هذا النتاج قصائد فكرية مفعمة بالحيوية قد أُغدِقَت عليها الملامح الملائمة والحاسمة

دونما حدّة ومن دون أشكال من النُبُوّ، ومما يعد من هذا القبيل «عيد السوق السنوي(١) » ، أو يعد بالأحرى مجموعة من أمثال هذه المقطوعات ذات الحكمة الساخرة ( Epigrame ) ، ويقصد بكل الأقنعة التي تظهر هناك أعضاء حقيقيون يعيشون في ذلك المجتمع ، أو على الأقل شخصيات مرتبطة بهم ومعروفة الى حد ما . ولكن معنى اللغز كان يظل خافياً على معظم الناس. لقد كان القوم يضحكون جميعاً. وكان قليل منهم من يعرف أن نوادرهم الأشد خصوصية هي التي كانت تستخدم للتندّر . أما كتاب « مقدمة لإيحاءات بارْدْت(٢) » فيعد دليلاً من طراز آخر ، اذ توجد أقصر القصائد بين القصائد المختلطة ، وقد تلاشى وضاع كثير منها . وثمة قصائد أخرى لاسبيل الى الحديث عنها . على أن ما كان يظهر هنا مطبوعاً من هذا القبيل كان يفضي الى مجرد بعث مزيد من الحركة في أوساط الجمهور ، وكان الفضول نحو الكاتب ، مما كانوا يعبرون عنه تعبيراً مكتوباً ، يبعث الحياة في الوسط المجاور الذي كان يتسع أبداً . وكان الدكتور بارْدْت الذي كان في تلك الأيام في جيسّن ، يزورني زيارة مهذبة وحميمة على نحو ظاهر ، وكان يتندّر على «المقدمة» ويرغب في علاقة ودية ، غير أننا ظللنا ، معشر الشباب ، لانقيم حفلة جماعية من دون أن نستمتع ، في حب هادىء للأذى ، بالخصائص التي لاحظناها في الآخرين ، وصوّرناها تصويراً موفّقاً .

ولئن لم يكن يروق لنا بحال من الأحوال أن ننظر الى الكاتب الناشىء نظرة المندهش الى شهاب أدبي ، فقد كان هو يحاول أن يظهر بتواضع مشوب بالسرور ، احترامه لأكثر رجال الوطن بلاءً وتجربة ، ويذكر من هؤلاء أوّل ما يذكر قبل سواه السيد الجليل يوستوس

موزر(١) . وكانت المقالات القصيرة ذات المضمون المتصل بالخدمة المدنية لهذا الرجل الذي لامثيل له قد طبعت منذ بضع سنين في صحيفة «اوسنابروكر انتيلجنس بلاتّرن» ، وقد تعرّفت عليها عن طريق هردر الذي لم يكن يرفض أي شيء ذي قيمة في عصره ، ولا سيما حين يبرز مطبوعاً ، اذ كانت ابنة موزر ، السيدة فون فويْجت(٢) ، منهمكة في جمع هذه الأوراق المتفرقة . ولم يكن في وسعنا أن ننتظر تحقيقها ، وأقمت صلة معها ، لأستيقن بالاهتمام المخلص أن المقالات التي يُقدَّر أن لها أثرها في وسط محدد سيكون لها منفعة وجدوى في كل مكان ، سواء في المادة أم في الشكل . وتقبّلت هي وأبوها هذه البادرة من لَدُنْ غريب مجهول كل الجهل بقبول حسن للغاية ، اذ أزيح هم كانت تحمله ، الى حين ، عن طريق هذا التصريح .

وفي هذه المقالات القصيرة التي تشكل كُلاً حقيقياً ، اذ كتبت جميعاً بروح واحدة تلفت النظر وتستحق الإعجاب الى أعلى الدرجات معرفة بالغة العمق بنظام الحياة المدنية . فنحن نرى نظاماً مبنيّاً على الماضي ، وما يزال قائماً بصورته الحيّة . والناس يتمسكون بالأصل من ناحية ، ولا يستطيعون ، من الناحية الأخرى ، أن يعوقوا حركة الأشياء وتغيّرها . وهنا يخشى قوم من تجديد نافع ، ويجد آخرون متعة وسروراً في الجديد ، وان كان غير مُجْدٍ ، بل مؤذياً . وما أعظم المزايا التي يفصّل بها الكاتب أحوال المدن ، وكذلك العلاقة التي تربط بين الطبقات والمناطق والقرى ، بصورة متبادلة . ويطلع الناس على امتيازاتها ، مع العلل القانونية في الوقت ذاته . ونحيط علماً بموقع رأسمال الدولة ، وما يعود به من فوائد . ولكننا نرى في مقابل ذلك أيضاً الرسوم والمساوىء من أنواع شتى ، ثم المكاسب

المتعدده الوجوه . فكأنما يوضع الزمن القديم والزمن الحديث هنا أحدهما في مواجهة الآخر .

ونجد أوسنابروك ، العضو في اتحاد المدن الألمانية ( الهانزا ) في نشاط تجاري كبير من العصر السابق . وكانت تتمتع ، تبعاً لأحوال ذلك الزمان ، بموقع حسن يلفت الأنظار ، اذ تستطيع أن تستحوذ على منتجات الاقليم ، كما أنها تبعد عن البحر بعداً يحول دون الاسهام في احداث أثرها هناك أيضاً . أما الآن ، في العصر المتأخر ، فتقع موقعاً عميقاً في وسط البلاد ، وتبتعد شيئاً فشيئاً عن التجارة البحرية وتستبعد منها . أما كيفية حدوث ذلك فيتم سردها من جوانب عديدة . ويأتي على ذكر الصراع بين انكلترا والسواحل ، وبين الموانىء والبلاد الوسطى . وهنا يتم ابراز المزايا الكبرى التي يتمتع بها أولئك الذين يجاورون البحر ، وتُقدّم مقترحات جدية تتناول الكيفية التي يستطيع بها سكان البلاد الوسطى أن يستحوذوا على تلك المزايا بالطريقة ذاتها . ثم اننا نحيط بالكثير عن المهن والصناعات اليدوية ، وكيف تتجاوز المصانع هذه المهن وتقوّضها الروح التجارية . ونحن نرى السقوط نجاحاً لبعض الأسباب ، ثم ننظر الى هذا النجاح من جديد على أنه علة لسقوطٍ جديد ، ضمن دائرة خالدة يصعب حلّها ، ومع ذلك فان المواطن الصالح في الدولة يرسمها بطريقة تبلغ من الوضوح ما يجعل المرء يظل يعتقد أنّ في وسعه الخلاص من ذلك . ويكشف الكاتب بصورة مطلقة عن أعمق النظرات في أشد الظروف غرابة وخصوصية . أما مقترحاته ونصيحته فلا شيء من ذلك مأخوذ من الهواء ، ومع ذلك فكثيراً ما يكون غير قابل التنفيذ ، ومن أجل ذلك

أيضاً سمى المجموعة «خيالات وطنية » ، على الرغم من أن كل شيء يلتزم جانب الواقع والممكن .

ولكن لمّا كان كل شيء عمومي يستند الى النظام العائلي فهو يتجه ببصره الى تلك الوجهة أيضاً بصورة متميزة . ونجد من الموضوعات الخاصة بتأملاته الأولى والهزلية تغيرّ الأخلاق والعادات والملابس والنظام الغذائي والحياة المنزلية والتربية . بل لابد للمرء أن يؤكد كل شيء اذا ما أراد أن يستنفد كل الموضوعات التي يعالجها . وهذه المعالجة جديرة بالإعجاب . فثمة موظف كامل يتحدث الى الشعب في صحف أسبوعية ليقرّب الى أذهان كل امرىء ما تنويه الحكومة المتبصّرة التي تبتغي الخير أو تفعله ، من وجهة الصحيح . ولكن ذلك لم يكن تعليمياً بحال من الأحوال ، بل كان يتخذ أكثر الأشكال التي يمكن أن يسميها المرء شعرية ، تعدداً في جوانبها ، والتي لم يكن لها بدٌّ أن تُعدّ بليغة بأحسن معاني البلاغة ، وهو متسام على موضوعه دائماً . ويعرف كيف يعطينا نظرة مرحة الى أكثر الأمور جدّية ، متوارياً بصورة جزئية وراء هذا القناع حيناً ، ووراء ذلك القناع حيناً آخر ، ومتحدثاً بشخصه طوراً آخر ، وهو كامل أبداً ، ومستغرق في موضوعه . وهو على ذلك مرح أبداً ، ساخر بدرجة تقل أو تكثر ، بارع براعة مطلقة ، طيب المَعْدِن ، سليم الطويّة ، بل هو في بعض الأحيان فظ عنيف ، وكل هذا مقدّر محسوب الى حد يضطر المرء عنده الى الإعجاب بفكر الكاتب وعقله ، ورشاقته وبراعته ، وذوقه وشخصيته . ولست أعرف امرءاً يضاهيه في اختيار الموضوعات ذات المنفعة

العامة وتبصّره العميق . ونظرته الشمولية الحرة ، ومعالجته الموفّقة وفكاهته العميقة بمقدار ما هي باعثة البهجة ، سوى فرانكلين(١) .

لقد كان هذا الرجل يؤثر فينا تأثيراً لا حد له ، وقد كان له أعظم الأثر على شباب كان يريد شيئاً بارعاً أيضاً ، وكان يوشك أن يصل اليه . وكنا نعتقد أن في وسعنا أن نتقبّل أشكال محاضرته بقبول حسن أيضاً ، ولكن من كان يحق له أن يأمل التمكن من مضمون على هذا الجانب من الغنى ، وأن يعالج الموضوعات المستعصية بهذا القدر الكبير من الحرية ؟

ولكن ما من شك في أن هذا هو أجمل أهوائنا وأحلاها ، وهو الذي لايجوز لنا أن نتخلّى عنه ، على الرغم من أنه يسبب لنا كثيراً من الألم في الحياة ، وذلك أنه يستحوذ على ما نقدّره ، ونبجّله ، حيثما كان ذلك ممكناً ، بل يستحوذ على ما نبدعه من ذواتنا ونصوره .



# الكتاب الرابع عشر

ومع تلك الحركة التي انتشرت في صفوف الجمهور نشأت حركة أخرى ربما كانت ذات أهمية أكبر بالقياس الى الكاتب ، اذ حدثت ضمن بيئته الأقرب . وذلك أن الأصدقاء الأكبر سناً(١) ، والذين كانوا قد عرفوا تلك الآثار الأدبية التي كانت تحدث ضجة كبرى الآن ، وهي بعدُ في صورة مخطوطة ، وكانوا ينظرون اليها من أجل ذلك على أنها آثارهم بصورة جزئية ، كانوا يحتفلون بالنصر الكبير الذي تنبأوا به سلفاً بما كانوا يتسمون به من الجرأة الكافية . وقد صادفوا مهتميّن جداً ، ولا سيما أمثال هؤلاء الذين كانوا هم أنفسهم يحسّون بطاقة مثمرة في نفوسهم ، أو كانوا يرغبون في بعثها والعناية بها .

وقد برز بين الأوائل (لينتْس(٢) أشدَّ ما يكون حيوية ، وبصورة متميزّة كل التميزّ ، وسبقَ رسمُ الخطوط الأساسية للمظهر الخارجي لهذا الانسان الذي يلفت النظر ، كما جرى النظر في موهبته الفكاهية على نحو ينطوي على المحبة . وأود الآن أن اتحدث عن شخصيته حديثاً أقرب الى العناية بالنتائج منه الى الوصف ، اذ يستحيل أن نصحبه عبر تفاصيل مسيرة حياته ، ونعرض خصائصه عرضاً وصفياً .

ويعرف الناس ذلك التعذيب للنفس(٣) الذي كان قائماً في النظام اليومي ، اذ لم يكن الناس يعانون من المحنة في الخارج ومن قبل

الآخرين ، وكان ذلك التعذيب للنفس يبعث الاضطراب في أكثر النفوس فضلاً وامتيازاً على وجه الخصوص . أمّا ما يعذب البشر العاديين ، الذين لم يكونوا يلاحظون أنفسهم بأنفسهم ، عذاباً عابراً فحسب ، وما كانوا يحاولون أن يخرجوه من أذهانهم ، فذلك ما كان الأفاضل يلاحظونه ملاحظة حادة ، ويقدرونه ويحفظونه في كتب ورسائل ويوميات . وقد انضمت اليها الآن أشد المطالب الأخلاقية صرامةً ، وسواها ، مؤدّيةً الى أشد ألوان الاهمال في العمل . وكان الغرور الناشيء عن هذه المعرفة الجزئية للنفس يضلّل المرء فينتهي به الى أغرب العادات ومساوىء الأخلاق ، ومع ذلك فقد كان مما يبرر مثل هذا الاجهاد للنفس في مراقبة النفس علمُ النفس التجريبي(٤) الآخذ في الانبعاث والذي كان يأبى أن يعدّ كل ما كان على وجه الخصوص يبعث فينا الاضطراب من الداخل خبيثاً(١) أو مستنكراً . ولكنه لم يكن يستطيع مع ذلك أن يقرّ كل شيء ، وكذلك نشب نزاع أبديّ لاسبيل الى تسويته أبداً . وقد فاق لينتس كل الباقين من غير المشتغلين ، أو المشتغلين جزئياً ، في ممارسة ذلك والقيام به ، وهم الذين كانوا ينهكون أنفسهم من الداخل ، وعلى هذا فقد كان يعاني بصورة عامة من الفكرة العصرية الّتي كان من المفروض استبعادها عن طريق وصف فرتر . ولكن أسلوباً فردياً كان يميّزه من كل الآخرين الذين لم يكن للمرء بدّ من أن يعترف بأنهم أولو نفوس صادقة صريحة بصورة مطلقة . وذلك أنه كان ينطوي على تعلّق شديد بالدسائس.وكانت هذه في الحقيقة دسائس على نفسه من دون أن تكون له في ذلك أغراض حقيقية ، أو مفهومة ، أو أنانية يمكن بلوغها ، والأخرى أنه دأب على أن يقدم دائماً شيئاً مشوّهاً فظيعاً ، وكان هذا

هذا هو السبب في أنه كان يفيد في التسلية الدائمة . وعلى هذا فقد كان طوال حياته امرءاً ماكر الخيال ، وكان حبه خيالياً مثل كراهيته . وكان يسلك في تصوراته ومشاعره سبيل التعسّف ليكون لديه دائماً شيء ما يشتغل به . وكان يحاول ، بأكثر الوسائل بُطلاناً ، أن يضفي الواقع على ما يهواه وما يكرهه . وكان ما يفتأ يعود الى اتلاف عمله بنفسه ، وكذلك لم يسْدِ قط نفعاً الى امرىء يحبه . ولم يلحق أذى بامرىء يكرهه في يوم من الأيام ، وكان على الإجمال يبدو أنه لايقترف الخطايا إلا بالذنب نفسه ، وأنه لايتآمر إلا ليستطيع أن يطعِّم حكاية قديمة بحكاية جديدة .

وكان موهبته تنبثق من عمق حقيقي ، ومن خصب لاينضب مَعينهُ ، وهي موهبة كانت تتسابق فيها الرقة ، والرشاقة ، وحدة الذهن ، بعضها مع بعض ، وكانت ، على ما فيها من جمال ، تسبب قدراً غير قليل من الكدر . وهذه المواهب على وجه الخصوص هي التي يصعب اصدار الحكم فيها الى أقصى الحدود . وما كان المرء ليستطيع أن يغفل عن ملامح كبرى في أعماله ، فكان ثمة رقة مستعذَبة تنساب في ثنايا أشد الأشكال المشوَّهة مجانية للعقل ، والتواءً وتعقيداً ، مما لايستطيع المرء أن يغفره حتى مع تلك الفكاهة العميقة المتواضعة ، والموهبة الأصيلة في التندّر . وكانت أيامه تأتلف من جملة من الأشياء العَدَميّة كان يعرف كيف يضفي عليها ، بالحركة والنشاط ، معنى ما ، وكان يزيد من مقدرته على تبديد المزيد من الساعات الكثيرة أنّ الوقت الذي كان يستخدمه للقراءة كان يعود عليه دائماً بكثير من الثمار ، مع ذاكرته الموفّقة ، وكان يغني أسلوبَ تفكيره الأصيل بمادة متعددة الجوانب .

وكان القوم قد بعثوا به ، مع فرسان من ليفلاند ، الى شتراسبورج ، وتمكّنوا من اختيار مرشد بصورة غير موفّقة الى حد بعيد . وذلك أن البارون الأكبر سنّا مضى حيناً من الزمان عائداً الى وطنه ، وخلّف وراءه عشيقة كان يرتبط معها برباط وثيق . وقرّر لينتّس ، لكي يصدّ الأخ الثاني الذي كان يتقرّب من هذه المرأة أيضاً ، وعشّاقاً آخرين ، ويحفظ القلب الثمين لصديقه الغائب ، أن يتظاهر هو نفسه بالوقوع في غرام الجميلة ، أو يقع في غرامها ، اذا شئنا . وقام بتنفيذ فرضيته هذه متعلقاً تعلّقاً متناهياً في العناد بالمثال الذي كوّنه لنفسه عنها ، على حين كان يأبى أن يعيَ أنه لايزيد على أن يفيدها مزاحاً وتسلية ، شأنه في ذلك شأن الآخرين . على أن هذا كان خيراً له ! ذلك لأن المرأة عنده إنما كانت لعبا أيضاً وكان مما يبعث على على بقاء ذلك زمناً أطول أنها ردّت عليه ردَّ المُعابِث على النحو ذاته ، فكانت تقربّه حيناً وتصده حيناً آخر ، وتستدعيه طوراً ، وتصرفه عنها طوراً آخر ، ويقال ان القوم على يقين أنه حين كان يعود الى رشده ، كما كان ذلك يحدث له في العادة في بعض الأحيان ، كان يؤمّل السعادة لمثل هذه اللُقطة الجميلة على نحو يبعث على الارتياح التام .

وفيما عدا ذلك كان يعيش ، مثل ربائبه ، مع ضباط الحامية في أغلب الأحيان ، حيث كان يحتمل أن تنتابه النظرات الغريبة التي عرضها فيما بعد ، في المسرحية الهزلية «الجنود(١)» . وفي هذه الأثناء أسفر له هذا التعارف مع العسكر عن نتيجة خاصة به ، وهي أنه كان يعدّ نفسه خبيراً كبيراً بفن الأسلحة ، وكان قد درس بالفعل هذه

المادة شيئاً فشيئاً على نحو مفصّل ، حتى لقد تقدّم الى وزير الحرب الفرنسي بمذكرة ضافية كان يؤمّل من ورائها أفضل ضروب النجاح .
وقد نظر الى نقائص ذلك الظرف نظرة جيدة حقاً ، على حين كانت وسائل ذلك العلاج في مقابل ذلك مضحكة وغير قابلة للتنفيذ .
أما هو فكان على يقين أن في وسعه أن يكتسب بذلك نفوذاً كبيراً لدى البلاط ، وتمكن ، بفعل التقدير السيء للأصدقاء الذين صدوه بالمبررات حيناً وبالمقاومة الفعلية حيناً آخر ، من وقف هذا العمل الخيالي الذي كان قد نُسِخ بصورة نظيفة . مصحوباً برسالة وموضوعاً في مظروف ، ومُعَنْوَناً بعنوان رسميّ . واحراقه فيما بعد .

وكان قد أفضى اليّ مشافهة(١) ، ثم بعد ذلك بصورة تحريرية ، بمجمل متاهات حركاته المتقاطعة طولاً وعرضاً ، فيما يتصل بتلك المرأة . وكثيراً ما كان الشعر الذي كان يعرف كيف يصوغه بأشد الأشكال ابتذالاً يذهلني حتى كنت أرجوه رجاءً ملحاً أن يخصب نواة هذه المغامرة المستفيضة على نحو متعقل ، وأن يشكل من ذلك رواية صغيرة ، ولكن ذلك لم يكن شأنه ، اذ لم يكن يرتاح إلاّ حين يذوب في التفاصيل الى حد لا نهاية له ، ، ويشد نفسه الى خيط لانهائي دونما هدف ، وربما كان من الممكن(٢) ذات يوم تصوير مسيرة حياته الى الحقبة التي تلاشى فيها في الجنون ، بأية طريقة ، وَفْقاً لهذه المقدمات . أما في الوقت الحاضر فأنا مثابر على مــا يليني مما يعود الى هذا المقام في الحقيقة .

ولم تكد مسرحية « جوتس فون برليشنجن» تظهر حتى بعث اليّ لينتس بمقال مستفيض مكتوب على ورق رقيق شفاف كان يستخدمه في العادة من دون أن يترك منه أدنى هامش ، لا في الأعلى ، ولا في أسفل ،

ولا على الجانبين . وكان عنوان هذه الصحائف : « حول زواجنا(٣) » ، ولو أنها ظلت موجودة لأفادتنا في الوقت الحاضر أكثر مما أفادتني أنا في تلك الأيام ، اذ كنت ما أزال أتخبّط في الظلام تخبّطاً شديداً حياله ، وحيال طبيعته . وكان الغرض الرئيسي لهذه الكتابة المسهَبة وضع موهبتي وموهبته احداهما الى جانب الأخرى . وكان يبدو حيناً كأنه عالة عليّ ، ويبدو حيناً آخر كأنه يسويّ بيني وبينه . على أن هذا كله كان يتم مصحوباً بلفتات بلغ من فكاهتها وتنميقها أنني تقبلت وجهة النظر التي كان يريد أن يلقّنني إياها عن هذا الطريق بسرور أعظم ، اذ كنت أقدّر مواهبه تقديراً عالياً حقاً ، وألح عليه لكي يخرج بنفسه من هذا التخطبط فيما لاشكل لــه ، ويستخدم موهبة التشكيل التي فطر عليها استخداماً فنياً ، وقابلت ثقته بمنتهى المودة ، ولما كان في صحائفه يلح على العلاقة الوثقى ( مثلما كان العنوان الغريب يشير الى ذلك أيضاً ) فقد أخذت أخبره منذ الآن فصاعداً بكل شيء ، سواء من ذلك ما أنجزته أم ما كنت أزمع القيام به ، وكان يبعث اليّ في مقابل ذلك بمخطوطاته ، شيئاً فشيئاً ، وهي « معلّم البلاط » و « مينوزا الجديد » و « الجنود » ، وهما ضربان من المحاكاة لبلاوتوس ، وتلك الترجمة للمسرحية الانكليزية بمثابة إقرار لـ « ملاحظات حول المسرح » .

وكان مما لفت نظري في هذه الى حد ما أنه كان يعرب عن أفكاره في تقرير أوليّ مقتضب يشير الى ان مضمون هذا المقال الذي كان موجهاً بعنف نحو المسرح الأصوليّ كان معروفاً قبل بضع سنوات في صورة محاضرة في جمعية من أصدقاء الأدب ، أي في الوقت الذي كانت فيه «جوتس» غير مكتوبة بعد . وكان الوسط الأدبي ، ضمن

إطار علاقات لينتس في شتراسبورج ، وهو الوسط الذي كان من المفروض أن أعرفه ، يبدو منطوياً على بعض الإشكال . ولكني تركت الأمور تجري على ما هي عليه ، وسعيت في تأمين ناشر لهذا الكتاب مثلما فعلت حيال كتاباته الأخرى ، في وقت قريب ،من دون أن يتناهى الى شعوري بأدنى مقدار أنه كان قد اصطفاني موضوعاً أمثل لكراهيته الخيالية . وهدفا لملاحقته القائمة على المغامرة والأوهام(١) .

ولست أريد إلاّ أن أذكر بصورة عابرة ، وبحكم النتيجة(٢) ، رفيقاً آخر فاضلاً كان يعدّ من هذا القبيل على الرغم من أنه لم يكن يتمتع بمواهب فائقة ، وكان يدعى فاجنر(٣) ، وكان أول الأمر عضواً في شلّة شتراسبورج ، ثم في شلة فرانكفورت ، ولم يكن يفتقر الى الظرف ، والموهبة ، والاطلاع ، وكان يبدو أنه من أهل الطموح ، وعلى هذا فقد كان يلقى الترحيب ، وكان أيضاً يتعلّق بي تعلقاً مخلصاً ، ولما كنت لا أكتم شيئاً مما انتويه فقد تحدثت اليه كما تحدثت الى الآخرين ، عن نيّتي بصدد « فاوست » ، ولا سيما عن مصيبة جريتْشن ، والتقط الموضوع ، واستخدمه لمسرحية مأساوية هي « قاتلة الأطفال » ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يخطف فيها امرؤٌ شيئاً من مشروعاتي ، وساءني ذلك،من دون أن أحمل له غلاّ ، ولقد شهدت بعد ذلك أمثال هذه السرقات وضروب الاستباق للأفكار مرات غير قليلة ، ولم أكن لأحمل نفسي الهموم ، مع ترددي ، واغراء عدد غير قليل من الرؤساء والمغرورين .

وحين يسرُّ الخطباء والكتاب أن يستخدموا أشكال التضاد بالنظر الى الأثر الكبير الذي يمكن احداثه بذلك حتى وان كان لابد من

التماسها في البداية واستجلابها فلا بد أن يكون مما هو أدعى الى متعة الكاتب أن يتهيّأ له تناقض حاد . اذ يترتّب عليه أن يتحدث بعد لينتس عن كلينجر ، وكان كل منهما معاصراً للآخر ، وكانا يتنازعان المطامح فيما بينهما جنباً الى جنب . على أن لينتس ، الذي كان نَيْزَكاً عابراً ، عَبَرَ لحظة من الزمان فحسب،فوق أفق الأدب الألماني واختفى بغتة من دون أن يخلف في الحياة أثراً ما.أمّا كلينجر(١) الذي كان في مقابل ذلك كاتباً ذا نفوذ ، وموظفاً نشيطاً ، فقد حافظ على وجوده حتى هذا العصر..وسأتحدث عنه الآن من دون مقارنة أخرى من المقارنات التي قد تنجم عن ذلك بصورة تلقائية ، بالقدر الضروري ، اذ انه لم يكن ينجز ما ينجز في الخفاء ، بل ما زال يتمتع ، في كلا المجالين ، البعيد والقريب ، بذكرى وسمعة جيدتين .

لقد كان مظهر كلينجر ، وهو الذي يروق لي أن أبدأ به أكثر ممّن عداه ، مستحسناً جداً ، اذ كان قد أوتي بالفطرة قامة طويلة هيفاء ، حسنة البنيان ، وتكويناً للوجه أنموذجياً ، وكان معتداً بنفسه ، يتحلّى بسلوك دمث ، وكان في وسع المرء أن يعدّه أكثر أعضاء الشلّة الصغيرة كلها وسامة . أما سلوكه فلم يكن بالمجامل ولا بالمجافي ، وكان حين لاتثور عاصفة في داخله ، معتدل المزاج .

على أن المرء يحب في الفتاة ما هي عليه ، وفي الفتى ما يبشّر به ، وهكذا غدوت صديقاً لكلينجر بمجرد أن تعرفت عليه ، وكان يروق للناس بعفويته الخالصة ، وكان يكسبه الثقة شخصية شديدة التميّز لا تخطئها العين ، وكان طبعه مبنياً على الجد منذ الصبا ، وكان عليه ، هو و أختٌ له جميلة على شاكلته ، وطيبة ، أن يُعنَيا بوالدة كانت، وهي الأرملة ،في حاجة اليهما لرعاية شأنها.وكان قد حصّل

ودبّر بنفسه كل ما كان يتمتع به ، حتّى ان المرء ما كان ليأخذ عليه مسحة من الاستقلال المنطوي على الخيلاء كانت تسري في كل سلوكه ، وكان يتمتع بضروب من الاستعداد الطبيعي لها الأثر الحاسم ، مما يشترك فيه كل ذوي المواهب الحسنة ، بدرجة عالية ، من المقدرة على الادراك السهل ، والذاكرة الممتازة ، والموهبة اللغوية ، ولكنه كان يبدو أقــل تقديراً لكل شيء ما خلا الثبات والمثابرة اللذين كانا قد رسخا لديه كل الرسوخ بفعل الظروف وكأنما أوتيـهُـما من قِـبَل الفطرة .

ولم يكن بدٌّ لمثل هذا الفتى من أن تلائمه أعمال روسو ملاءمة ممتازة . فكان «اميل» كتابه الرئيسي والأساسيّ . وكان يزيد هذه الأفكار إثماراً لديه أنها كانت تحدث آثاراً عامة في كل العالم المثقّف ، بل كانت تؤثر فيه أكثر من تأثيرها في الآخرين ، فقد كان هو أيضاً ابناً للطبيعة ، وكان هو أيضاً قد بدأ الصعود من الأسفل ، ولم يكن يملك قط ما كان خليقاً بالآخرين أن يطرحوه جانباً ، ولم تكن الأوضاع التي كانوا أحرياء أن ينقذوا أنفسهم منها لتضايقه أبداً . وهكذا أمكن أن ينظر اليه على أنه واحد من أنقى فتيان ذلك الانجيل الطبيعي ، وأن يهتف ، بالنظر الى مطمحه الجادّ ، والى سلوكه من حيث هو انسان وابن له ، قائلاً بلا ريب : « كل ما يأتي من أيدي الطبيعة فهو خير ! » ولكن معاناة باعثة على الاشمئزاز كانت تدفعه الى التعقيب بقوله : « كل شيء ينحطّ بين أيدي البشر ! » ولم يكن عليه أن يخوض صراعاً مع نفسه ، بل خارج نفسه ، مع العالم القائم على النسب ، ذلك العالم الذي كان مواطن جنيف(١) يفكر بتخليصنا منه .

---

(١) روسو .

ولما كان هذا الصراع الآن كثيراً ما يُثْقِل على الفتى ويغدو مريراً بالقياس اليه وهو في هذا الوضع ، فقد كان يشعر بالانكفاء على نفسه على نحو أشد عنفاً من أن يمكنه من الوصول الى ثقافة تحفل بالبهجة والسرور ، بل كان عليه بالأحرى أن يشقّ طريقه كالعاصفة ، ومن أجل ذلك تتسلّل مسحة من المرارة الى كيانه كان يتعّهدها بعد ذلك ويغذيها بصورة جزئية ، ولكنه كان أقرب الى أن يحاربها وينتصر عليها .

ويتجلىّ في نتاجه ، على قدر ما يحضُرُني ، عقلٌ صارم ، وروح طيبة ، ومخيّلة نشطة ، وملاحظة موفّقة التعقد البشري ، وصياغة متميّزة الفروق بين الأجناس البشرية ، ويتسم فتيانه وفتياته بالانطلاق والعذوبة ، أما شبّانه فملتهبون ، وأما رجاله فيتسمون بالبساطة والتعقّل ، على أن الأشخاص الذين يصوّرهم تصويراً سلبياً ليس فيهم مبالغة مفرطة . وهو لا يفتقر الى المرح والمزاج الحسن والفكاهة والخواطر السانحة . وتقف الاستعارات والرموز طوع بنانه ، وهو يعرف كيف يسلينا ويمتعنا ، على أن المتعة كانت خليقة أن تكون أكثر نقاءً لو أنه لم يكدّر على نفسه وعلينا النادرة الممتعة الهامة عن طريق اساءة مريرة هنا وهناك ، ومع ذلك فقد كان هذا هو الذي يصنع منه ما هو عليه . وبذلك يغدو جنس الأحياء والكتاب من التنوّع بحيث يتردد كل واحد من الوجهة النظرية ، جيئة وذهاباً ، بين المعرفة والخطأ ، ومن الناحية العملية بين بعث الحياة والابادة .

وكان كلينجر يعدّ من أولئك الذين خرجوا بصورتهم الى العالم معتمدين على أنفسهم ، وعلى خواطرهم وعقولهم . ولما كان هذا يحدث الآن لجمهور كبير ، وضمن إطاره ، وكان هؤلاء يستخدمون

فيما بينهم لغة مفهومة منبثقة من الطبيعة العامة ، ومن خصوصية الشعب ، بقوة وتأثير . فقد كانت كل الأشكال المدرسية ، من قبلُ ومن بعدُ ، بغيضة اليهم الى أقصى الحدود ، ولا سيما حين كانت تنحطّ ، اذ تنفصل عن أصلها الحيّ ، الى عبارات ثابتة ، وتفقد بذلك معناها الأول النضير كل الفقدان . ومثلما كان أمثال هؤلاء الرجال يعلنون مناوأتهم الآراء والنظرات والأنظمة الجديدة كانوا يفعلون ذلك أيضاً حيال الأحداث الجديدة وحيال ذوي الأهمية من الناس البارزين الذين يبشرون بتغييرات كبرى أو يحدثونها ، وذلك سلوك لم يكن ليبعث على الضيق عندهم بحال من الأحوال ، لأنهم يرون ذلك الذي باتوا مدينين له بوجودهم وثقافتهم الخاصّيّن مهدّداً من الأساس .

ولكن ذلك الثبات من قبل شخصية بارعة يغدو أكثر جدارة بالتقدير حين يصمد خلال الحياة الدنيوية والعملية ، وحين يؤدي الأسلوب الخاص بمعالجة ما يعرض من الأمور التي قد تبدو لبعض عويصة بـــل مستعصية ، الى الهـــدف بأضمن الطرق ، اذا ما استعمل في الوقت الصحيح . وكان هذا يحدث له اذ كان ينهض المهمات الخطيرة(١) دونما تهاون ( وذلك امر ما كان ليتم قط لولا سجيّة مواطني المملكة الأصلاء ) . على انه كان في ذلك اكثر براعة وصلابة واستقامة ، وكان يعرف كيف يحافظ على ذلك ، وكان يواصل بلاءه ، مع إعجاب اعاظم اولياء نعمته وعطفهم ، وما كان لينسى قط ، لا اصدقاءه القدامى ، ولا الطريق الذي خلّفه وراءه، بل انه كان يسعى الى المحافظة على اكثر اشكال ثبات الذكرى كمالاً ، عبر كل درجات الغياب والفراق ، بعناد ، كما يستحق ان يذكر عنه

على نحو مؤكد ، انه لم يأنف ، وهو المقاتل بالرمح ، ان يخلّد ، في اوسمته ونياشينه وشعاراته(٣) المحلاّة ، سمات ايامه الأولى .

ولم يلبث الأمر طويلاً حتى دخلت أيضاً في علاقة مع لافاتر(١) . وكانت « رسالة الراعي »(٢) الى زملائه قد جلّت له كثيراً من الأمور في مواضع معينة ، ذلك لأن بعضاً منها كان متوافقاً مع افكاره كل التوافق . وسرعان ما غدت مراسلتنا ، مع عمله الذي لاينقطع ، شديدة الحيوية . وكان قد أعد عدّته منذ حين بصورة جدّية لكتابه الكبير في علم الفراسة الذي كان التمهيد له قد وصل من قبلُ الى الجمهور . وكان يطلب الى الناس جميعاً أن يبعثوا اليه بالرسوم ومساقط الظلال ، وبصور المسيح بوجه خاص . وعلى الرغم من أن طاقتي كانت في حكم المعدومة فقد زعم انه رسم عني بصورة نهائية صورة للمسيح كما كنت اتصوّره . وكانت امثال هذه الطلبات المتصلة بالمستحيل تعطيني حافزاً لبعض النوادر ، ولم أكن اعرف ما اضع ازاء خصوصياته من شيء آخر سوى ارتداد الى خصوصياتي .

وكان عدد اولئك الذين لم يكونوا يؤمنون بعلم الفراسة او يرونه على الأقل شيئاً غير يقينيّ ، وخداعاً ، كبيراً جداً ، بل كان كثير ممن كانوا يحسنون الظن بلافاتر يشعرون بحافز الى معابثته وتدبير مقلب له حيثما أمكنهم ذلك . وكان قد طلب ، في فرانكفورت ، عند رسام لايفتقر الى البراعة ، صور الظل الجانبي (البروفيل) لعدد من ذوي الأسماء المعروفة ، وسمح المُرسِل لنفسه بدعابة ، وهي انه بعث بصورة بارْدْت(٣) أولاً بدلاً من صورتي فتلقى على أثرها رسالة مضحكة في الحقيقة ولكنها عاصفة ، ومعها كل الأيمان وضروب التوكيد بأن هذه ليست صورتي ، وكل ما كان يمكن ان

يقوله لافاتر في دعم النظرية الفراسيّة في هذه المناسبة . أما صورتي الحقيقية المرسلة اليه بصورة لاحقة فقد كان أحرى ان يقرّها ، ولكن الخلاف الذي كان ينشب بينه وبين الرّسامين مثلما ينشب بينه وبين الأفراد ، برز هنا ايضاً . فأما اولئك فلم يكن في وسعهم قط ان يعملوا له العمل المتسم بالأصالة والدقة الكافية ، واما هؤلاء فكانوا يظلّون ، على الرغم من كل ما لديهم من المزايا التي يمكن ان يتحلّوا بها ، مفرطين مع ذلك في التقصير عن شأو الفكرة التي كان يحملها عن البشرية والناس إفراطاً اكبر من الا يعرّضه لشيء من الصدمة عن طرية الخصوصية التي يتحوّل بها الفرد الى شخصيّة .

وكان مفهوم البشرية الذي كان قد تكوّن لديه ، من خلال أناسيّه ، وثيق الصلة بالتصور الذي كان يحمله حيّاً في نفسه عن المسيح الى درجة انه كان يبدو له أن مما لايمكن فهمه كيف انّ انساناً يستطيع ان يعيش ويتنفس من دون ان يكون مسيحاً في الوقت ذاته . وكانت علاقتي بالديانة المسيحية تكمن في مجرد الذهن والخاطر . ولم يكن لديّ ادنى تصور عن القرابة الجسدية التي كان لافاتر ينزع اليها . ومن اجل ذلك كان مما يبعث على استيائي ذلك الالحاح الشديد من قبل رجل يتمتع بكل هذا القدر من حدة الذهن والكياسة اللذين كان يقبل بهما عليّ وعلى مندلسون(١) والآخرين . وكنت أزعم انه لابد للمرء حياله من امرين ، فاما ان يتحوّل الى مسيح ، مسيح على نمطه ، واما ان يجتذبه اليه ، وانه لابد للمرء ، على النحو ذاته ، ان يقنعه بذلك الذي يجد فيه سكينة نفسه . على ان هذا المطلب لم يكن له أفضل الأثر عندي على الرغم من مطابقته المباشرة الروح الدنيوية المتسامحة التي اعتنقتها شيئاً فشيئاً . ولكن كل محاولات الهداية لم

تنجح ، اذ انها تجعل من ذلك الذي يصطفيه المرء نصيراً ، عنيداً متصلّباً . وكان ما زاد في حالتي هذه أن لافاتر خرج آخر الأمر بالمعضلة العويصة : إما مسيحيّ ، وإما ملحد ! وأعلنت على أثر ذلك أنه اذا كان يأبى أن يدع لي مسيحيّتي كما كنت اعتنقها حتى الآن فقد يمكنني أن أقرر الاتجاه الى الالحاد طالما أنني أرى أنه ما من أحد يعرف حق المعرفة ما عسى أن يعنيه كلا هذين في الحقيقة .

على أن هذا الأخذ والردّ في الرسائل لم يكدّرا صفو العلاقة الحسنة على ما كان فيه من العنف ، اذ كان لافاتر يتحلى بصبر ومداومة ومثابرة لاتصدّق ، وكان على يقين من نظريته . ولما كان قد عقد العزم على نشر عقيدته في أرجاء العالم فقد ارتضى لنفسه أن ينفّذ عن طريق التربّص والحُلْم ما لم يتهيأ حدوثه عن طريق القوّة ، وكان يعد على نحو مطلق من أولئك البشر المحظوظين القلائل الذين تتوافق مهنتهم الظاهرة مع مهنتهم الباطنة كل التوافق ، والذين كانت ثقافتهم الأسبق عهداً تتطوّر أبداً وهي في ارتباط وثيق مع ثقافتهم اللاحقة ، وكانت ضروب مقدرتهم تتطور على نحو ملائم للطبيعة ، ولما كان مجبولاً على أرق ضروب الاستعداد الأخلاقي فقد جعل من نفسه كاهناً ، وكان يتمتع بالاطلاع الضروري ، ويظهر كثيراً من ألوان المقدرة ، من دون أن يجنح مع ذلك الى تلك الثقافة التي يسميها الناس في الحقيقة ثقافة العلماء . ذلك لأنه كان هو أيضاً يعدّ ، بحكم كونه مولوداً قبلنا كثيراً ، متأثراً بروح العصر القائمة على الحرية والطبيعة ، والتي تهمس لكل امرىء في أذنيه قائلة : « ان لدى المرء في ذاته من المادة والمضمون ما يكفيه ، دونما حاجة الى الكثير من الوسائل الخارجية ، وان كل شيء انما يتوقف على أن يطوّرها المرء

على النحو الملائم . وكان واجب الكاهن ، المتمثل في التأثير على الناس من الوجهة الأخلاقية بالمعنى اليوميّ ، ومن الوجهة الدينية بالمعنى الأسمى » يتطابق كل التطابق مع طريقته في التفكير . وكان من أشد الدوافع لدى الفتى أن يفضي الى الناس بالأفكار الخاصة بالاستقامة والورع ، كما كان يحسّ بها ، وأن يبعثها فيهم . وكان أحب شواغله اليه أن يلاحظ الآخرين كما كان يلاحظ نفسه ، وكان يُهَوِّن ذلك عليه احساس داخليّ مرهف ، ويسهّل هذا نظرة مرهفة الى المظهر الخارجي ، بل كان ذلك يفرضها عليه . على أنه لم يكن مجبولاً على التأمل ، ولا كانت لديه موهبة في التصوير بالمعنى الحقيقي ، بل كان يشعر بالأحرى أنه مدفوع بكل طاقاته الى العمل ، والى النشاط ، بحيث انني لم أعرف أحداً كان يعمل على نحو لاينقطع أكثر منه ، ولكن لمّا كان نظامنا الأخلاقي يتجسّد في شروط خارجية ، كأن ننتسب الى أسرة ، أو طبقة ، أو أرباب مهنة ، أو مدينة ، أو دولة ، فقد كان عليه في الوقت ذاته — مادام يريد أن يحدث أثراً — أن يتطرق الى هذه المظاهر الخارجية كلها ، ويبعث فيها الحركة ، وذلك ما كان ينجم عنه بعض الصدمات ، وبعض المآزق ، وكان ذلك بوجه خاص لأن النظام العام الذي كان عضواً فيه كان يتمتع ، ضمن أشد القيود دقة وتحديداً ، بحرية مورونة جديرة بالتقدير ، بل كان الفتى الجمهوري ذاته يعتاد التفكير في النظام العام والمشاركة في الحديث عنه . وفي إبّان الازدهار الأول لأيامه سرعان ما يُرى الفتى ، وهو الزميل النقابيّ ، في حال يعطي فيها صوته ويحجبه . فاذا ما أراد أن يحكم حكماً منصفاً مستقلاً كان لابد له أن يتأكد من قيمة مواطنيه قبل كل شيء ، فعليه أن يتعرف عليهم ، وعليه أن

يسبر أفكارهم ، وطاقاتهم ، وعلى ذلك يعود الى سريرة نفسه دائماً في الوقت الذي ينزع فيه الى سَبْر الآخرين .

وكان لافاتر يتمرّس بمثل هذه العلاقات في وقت مبكّر . على أن شاغل العمر هذا يبدو أنه شغله أكثر من الدراسات اللغوية ومن ذلك النقد التحليلي الذي يتصل بها ، والذي يعد أساساً لها كما يعدّ هدفَها ، وكان في السنوات المتأخرة ، حين اتسعت معارفه وآراؤه اتساعاً لاحدّ له ، كثيراً ما يصرّح مع ذلك ، جادّاً و هازلاً ، انه ليس بالواسع الاطلاع ، وانه الى مثل هذا النقص في الدراسة المتعّمقة يجب أن يعزوَ المرء تمسّكه بحروف الكتاب المقدس ، بل بحروف ترجمة الكتاب المقدس ، وأنه كان يجد هنا بالطبع غذاء ووسيلة مساعدة كافيَيْن لهذا الذي كان يلتمسه ويسعى اليه .

ولكن سرعان ما غدا ذلك المجال التأثيري الخاص بالنقابة وجماعة المهنة أضيق مما ينبغي بالقياس الى الجبّلة المفعمة بالحيوية . وليس من العسير على الفتى أن يكون منصفاً ، وانما شأن الوجدان النقيّ أن يستنكر الظلم الذي لم يقترفه بعدُ بنفسه . لقد كانت مظالم حاكم من الحكام(١) ماثلة بجلاء أمام أعين المواطنين، ولكن ايصالها الى المحكمة كان أشد عسراً ، وينضم لافاتر الى أحد الأصدقاء ، ويهدد كلاهما ذلك الرجل المستحق للعقاب من دون أن يسمّيا نفسيهما ، ويشيع أمر المسألة ، ويرى القوم أنفسهم مضطرين الى التحقيق فيها ، ويعاقب المذنب ، ولكن المتسببيّين في هذا الانصاف يتعرّضون للعتاب

ان لم يتعرضوا التوبيخ . وانما ينبغي ألاّ يتم احقاق الحق في الدونة المبنية على أساس سليم بطريقة مجانبة للحق .

ويتصل لافاتر ، وهو في رحلة يقوم بها في أرجاء ألمانيا ، بالرجال ذوي الاطلاع والتفكير الجيّد . ولكنه لايزداد بذلك إلاّ تشبثاً بأفكاره وقناعاته ؛ وحين يعود الى دياره يزداد عمله وتأثيره حرية على نحو مطرد ، بالاعتماد على نفسه ، ولما كان انساناً نبيلاً فاضلاً فقد كان يحس في نفسه بتصور رائع للبشرية ؛ وأن كل ما يناقض هذا من حيث الممارسة ، على كل حال ، وكل النقائص التي لاتنكَر ، والتي تنأى بكل امرئ عن الكمال ، ينبغي تسويتها عن طريق مفهوم الربّانية التي تنزّلت على الطْبيعة البشرية في أوسط العصور لكي تعيد بناء الصورة المصنوعة على مثالها فيما سلف بصورة كاملة .

كل هذا القدر أولاً عن بدايات هذا الرجل الذي يلفت الأنظار ، ثم ، قبل كل شيء ، وصف بهيج للقائنا واجتماعنا الشخصيّ. ذلك لأن تبادلنا الرسائل لم يكن قد استغرق وقتاً طويلاً حين أبلغني والآخرين أنه سيتوقف قريباً، في رحلة يزمع القيام بها الى الراين ، في فرانكفورت وعلى الفور انبعثت في صفوف الجمهور أشد ضروب الهرج والمرج ؛ فقد كانوا جميعاً متشوقين الى رؤية رجل يلفت الأنظار على هذا النحو ، وكان كثير منهم يؤمّلون الكسب في ثقافتهم الأخلاقية والدينية . أما المُرْتابون فقد كانوا يفكرون بالخروج باعتراضات هامة ؛ وأما ذوو الغرور فكانوا على يقين انهم سيوقعونه في الارتباك ويلحقون به العار بالحجج التي كانوا قد تسلّحوا بها ؛ وكل ماعدا ذلك مما ينتظر انساناً مرموقاً يفكر في التعامل مع هذا العالم المختلط من أمور تسر وتسوء .

وكان لقاؤنا الأول حاراً . اذ تعانقنا بأكثر الأشكال وداً ، ووجدته كما كانت بعض الصور قد نقلته اليّ . لقد كنت أرى فرداً . فذاً ممتازاً لم يرَ امرؤٌ مثلَه ولن يراه مرة أخرى ، رأيته حيّاً ذا قضاء . أمّا هو فكان في مقابل ذلك يشي في اللحظة الأولى . من خلال بعض الصيحات الغريبة . بأنه كان يتوقعني في صورة أخرى . وأكدت له في مقابل ذلك . وبالاستناد الى واقعيّتي الفطرية والمكتسبة أنه لمّا كانت مشيئة الرب والطبيعة أن يجعلاني على هذه الصورة فلا بد لنا أن نرتضي ذلك أيضاً . ثم تطرق الحديث على الفور الى أهم النقاط التي كنا أقلّ ما نكون اتفاقاً عليها في الرسائل ، غير أنه لم يُتَح لنا المجال لمعالجة هذه الأمور على نحو مفصَّل ، وقد أحطت علماً بما لم يكن قد خطر ببالي قط .

لقد دأبنا ، نحن الآخرين ، على الابتعاد عن الجمهور ، بل عن المجتمع ، حين نريد الحديث عن شؤون الفكر والقلب ، اذ يعسُر على المرء ، مع نمط التفكير المتعدد الجوانب ، ودرجات الثقافة المتباينة ، حتى مجرد التفاهم مع النفر القليل . ولكن لافاتر كان مختلف التفكير تماماً ، فقد كان يحب أن يمدّ ضروب تأثيره الى مدى واسع عريض . ولم يكن يرتاح إلاّ الى المجتمع الذي يملك موهبة خاصة في تعليمه وتسليته . وكانت تلك الموهبة تستند الى تلك الموهبة الفراسيّة العظيمة . وكان قد أوتي مقدرة حقيقية على التمييز بين الأشخاص والعقول ، بحيث كان يتبيّن في كل امرىء على وجه السرعة ما عسى أن يكون حال مزاجه ، فاذا أضيف الى ذلك الآن إقرار صادق ، وسؤال ينم عن عاطفة صادقة أمكنه أن يردّ الردّ الملائم ، من الفيض العظيم من الخبرة الداخلية والخارجية ، وبما يرضي كل الناس . وكان الحُلُم

العميق في نظرته ، والسحر المعيّن في شفتيه ، وحتّى اللهجة العامية السويسرية التي تشفّ عنها ألمانيّته الفصحى من خلال الإيقاع الحميم الذي يتخللّها ، كان هذا يَهَب الكل أولئك الذين كان يتحدث اليهم ، فيما يَهَب من أمور أخرى تميّزه ، أشد ضروب طمأنينة النفس إمتاعاً . بل انّ وضع جسده المحنيّ الى الأمام بعض الانحناء ، مع ضمور صدره ، كان يسهم إسهاماً غير قليل في موازنة طغيان حضوره مع سائر الجماعة . وكان يعرف كيف يتصرف حيال الخيلاء والصلف بهدوء وبراعة بالغين . ذلك لأنه كان ، في الوقت الذي كان يبدو فيه كأنه يتنحّى جانباً ، يخرج مرة واحدة بوجهة نظر كبرى ما كان الخصم المحدود الأفق ليفكّر فيها قط ، كَمِجَنّ من الماس(١) . وكان يعرف مع ذلك كيف يلطف من حدة النور المنبثق عن ذلك على نحو يبلغ من رقته أن أمثال أولئك الناس يشعرون ، في حضوره على الأقل ، أنهم تعلّموا واستيقنوا ، وربما استمر الانطباع عند بعض الآخرين في احداث أثره : ذلك لأن الأنانيين انما هم في الوقت نفسه قوم صالحون أيضاً ، وكل ما في الأمر أن القشرة القاسية التي تحيط بالنواة المثمرة تمّ إذابتها عن طريق التأثير اللطيف .

على أن ما كان يسبب لنا أشد الألم في مقابل ذلك كان حضور أمثال هؤلاء الأشخاص الذين كان لابد للدمامة مظهرهم أن تختم عليهم بخاتم لا يُنْقَض ، وهو خاتم العداوة اللدودة لتلك النظرية المتعلقة بمعنى الأشكال الخارجية . وكانوا يستعملون في العادة عقلاً بشرياً كافياً ، بل قدرات ومواهب أخرى ، مع خبث الطويّة ، بصورة حماسيّة ، ومع ريبيّة تنطوي على التفاهة ليجرّدوا من القوة

نظرية كانت تبدو مهينة لشخصيتهم : ذلك لأنه لم يكن من اليسير العثور على امرىء عظيم التفكير مثل سقراط الذي كان خليقاً أن يفسّر إهابه البهيميّ بالذات لمصلحة أخلاقية مكتسبة ، وكانت قسوة أمثال هؤلاء الخصوم وتصلبهم رهيبين بالقياس اليه ، ولم يكن طموحه المقابل لهما يخلو من الحماسة ، مثلما تضطر نار الصهر الى بث لظاها في الفلزّات المعاندة اذ تكون ثقيلة ومناوئة .

وفي مثل هذه الظروف لم يكن ثمة سبيل الى حديث حميم ، الى حديث كهذا الذي يمكن أن تكون له صلة بنفسيَتْنا على الرغم من أنني وجدت نفسي وقد غدوت واسع الاطلاع عن طريق ملاحظة الأساوب الذي كان يعامل به الناس ، ومع ذلك فلم أكن مثقفاً ، ذلك لأن وضعي كان مختلفاً عن وضعه كل الاختلاف . فان من يُحدِث تأثيراً أخلاقياً لايخسر أي جهد من جهوده ، لأنها تزدهر من جرّاء ذلك ازدهاراً أكثر الى حد بعيد مما يقربه الانجيل حيال ناثر الحب(١) بصورة شديدة التواضع . أما من يسلك سبيل الفن فقد خسر كل شيء في كل عمل من أعماله اذا لم يُعتَرَف به أنه كذلك . والآن يعرف المرء كيف دأب قرائي الأعزاء المهتمون على استنفاد صبري ، ولماذا كنت في غاية النفور من التفاهم معهم . وقد أخذت الآن أشعر بالمسافة الفاصلة بين تأثيري وتأثير لافاتر شعوراً بالغ الشدة ، فقد كان تأثيره في الحضور ، وكان تأثيري في الغياب ، ومن كان غير راض عنه على البعد فقد كان يصادقه على القرب . أما من كان يراني جديراً بالمحبة بالنظر الى أعمالي الفنية فقد كان يجد نفسه خائب الأمل جداً حين يصطدم بانسان عنيد رافض .

---

(١) انجيل لوقا ، الاصحاح الثامن .

وأمّا مرْك(١) الذي كان قد أقبل لتوّه من دآرمشتات فكان يلعب دور ابليس ، وكان يتندّر بوجه خاص على تدخل النسوة الصغار ، وحين قامت بضعة منهن بفحص الحجرات التي كان القوم قد أخْلَوْها للنبيّ ، ولا سيما حجرة النوم ، باهتمام ، قال الخبيث : لقد أرادت النفوس الوَرعة أن ترى أين أرقد القوم السيد — ولم يكن له بد أن يتدارك أمر نفسه . وكذا الآخرين ، بكل هذا ، لأن ليبْس(٢) ، الذي كان يرافق لافاتر ، رسم صورة ظله الجانبي رسما فائق التفصيل والإجادة ، كما ينبغي لصور البشر أولي الخطر أو غير أولي الخطر التي كانت آنئذٍ تتكدّس في المصنع الكبير لعلم الفراسة .

أمّا أنا فكانت مخالطة لافاتر بالغة الأهمية بالقياس اليّ ، وحافلة بالدروس : ذلك لأن ضروب تحريضه الملحّة بعثت انقلاباً في طبيعتي الهادئة ، ولا ريب في أن ذلك لم يكن في صالحي في تلك اللحظة الراهنة ، اذ ان الشرود الذي كان قد أصابني ازداد فحسب ، ولكن الحديث تطرّق الى كثير جداً من الأمور بحيث تولّد عندي أعظم الشوق الى مواصلة هذه التسلية .

ولذلك قررت أن أصحبه الى ايمس اذا ذهب اليها لكي أعالج في الطريق ، حين تضمنا العربة ، وننعزل عن الدنيا ، تلك الموضوعات التي كانت تشغل قلوبنا على نحو متبادل ، معالجة حرة .

وفي هذه الأثناء كانت محاورات لافاتر والآنسة فون كليتنبرج فائقة الاعتبار وحافلة بالنتائج بالقياس اليّ . فقد كان هنا مسيحيان من أقحاح المسيحية أحدهما في مواجهة الآخر ، وكان مما يُرى بوضوح تام كيف تتحوّر العقيدة الواحدة تبعاً لعقليات الشخصيات المتباينة .

وكان الناس يرددون في كثير من الأحيان ، في عصور التسامح تلك أن لكل انسان ديانته الخاصة(١) ، واسلوبه الخاص في تمجيد الرب : وعلى الرغم من أنني لم أكن أزعم هذا بالذات فقد كان في وسعي مع ذلك أن ألاحظ في الحالة الراهنة أن الرجال والنساء يحتاج كل منهما الى مسيح مختلف ، اذ كانت الآنسة كليتنبرج تتعامل مع مسيحها كما تتعامل مع حبيب يسلم المرء نفسه اليه من تسليماً مطلقاً ،ويعلق كل مسراته وآماله على شخصه ، ويَكِلُ اليه ، من دون ريب أو توجّس ، مصير الحياة . أما لافاتر فكان يعامل المسيحية معاملة الصديق الذي يقتدي به المرء دونما حسد ، وبصورة تنطوي على المودة ، ويقرّ بمكارمه ، ويمجدّها ، ويجتهد من أجل ذلك بالضبط في محاكاته ، بل في مماثلته . فيا له من فرق بين كلا الاتجاهين ! وانه لفرق يتحقق به التعبير بصورة عامة عن الحاجات الروحية للجنسين . وقد يمكن بالاستناد الى ذلك أيضاً تفسير كيف مال الرجال الذين هم أكثر رقّة الى أم المسيح ، وكرسوا لها ، كما صنع سانا تسار(٢) ، الحياة والمواهب على أنها آية الجمال والفضيلة الأنثوييّن ، وكانوا على كل الأحوال يمارسون دوراً ثانوياً مع الصبيّ الربانيّ .

أما كيف كان كلا صديقيَّ يواجه أحدهما الآخر ، وكيف كان أحدهما ينظر الى الآخر ، فذلك ما عرفته ، لا من الأحاديث التي كنت أشهدها فحسب ، بل من المفاتحات التي كان كلاهما يفاتحاني بها في الخفاء أيضاً . ولم أكن أستطيع أن أوافق الواحد منهما ولا الآخر كل الموافقة . ذلك لأن مسيحيِّ كان قد اتخذ أيضاً صورته الخاصة تبعاً لتفكيري . ولمّا كانا يأبيان كل الإباء أن يعترفا بمسيحيِّ فقد كنت أعذبهما بمناقضات وضروب شتى من التطرّف ، وحين

كان يوشك أن ينفــذ صبرهمــا كنت أنأى عنهما بــدعابة ما .
على أن الصراع بين المعرفة والإيمان (١) لم يكن قد غدا بعدُ
شأنامن شؤون الحياة اليومية ، ولكن كلتا الكلمتين ، والمفاهيم التي
يربطها الناس بهما ، كانت ترد حقاً من حين الى آخر أيضاً ، وكان
المُزْدَرون الحقيقيون للدنيا يزعمون أن كلاً منهما لايُعتمد عليه
من دون الآخر. ولذلك كان يطيب لي أن أعلن وقوفي الى جانب كليهما
بعد أن أتمكّن مع ذلك من الظفر باستحسان اصدقائي . وكنت أقول
ان كل ما يهم في مسألة الإيمان هو أن يؤمن المرء . أمّا ما يؤمن به
المرء فليس له أهمية البتّة . وانما الإيمان شعور عظيم بالأمن تجاه الحاضر
والمستقبل . وهذا الأمن ينجم عن الثقة بكائن هائل ، جبّار ، لا يُسبَر
غوره ، وأن كل شيء يتوقّف على عدم تزعزع هذه الثقة . أما
الكيفية التي نتصوّر بها هذا الكائن فهذه مسألة تتصل بسائر مؤهّلاتنا ،
بل بالظروف ، وليس لها أهمية مطلقاً . وإنما الإيمان وعاء مقدس
يقف كل امرىء على أهبة الاستعداد ليضحي فيه بشعوره وعقله
ومخيلته ، على قدر ما يستطيع . أما المعرفة فعلى نقيض ذلك تماماً ،
اذ ان الأمر لايتوقف على أن يعرف المرء ، بل على ماذا يعرف ،
وعلى مدى حسن المعرفة ومقدارها . ومن أجل ذلك يمكن للمرء أن
يجادل في المعرفة لأنها قابلة للتصحيح وللتوسيع وللتضييق ، والمعرفة
تبدأ من الجزئيّ ، وليس لها نهاية ولا صورة ، ولا يمكن قط تلخيصها .
وعلى أقصى الحدود يمكن ذلك في الحلم فحسب ، وعلى هذا فهي
تظل متعارضة مع الإيمان كل التعارض .

وأمثال أنصاف الحقائق هذه ، والأغاليط الناجمة عنها ، يمكن
لها ، اذا ما صُوِّرت تصويراً شعرياً ، أن تكون مثيرة ومسلية . أمّا

في الحياة فتفسد الحديث وتبعث فيه البلبلة . ولذلك سرّني أن أدع لافاتر ، مع كل أولئك الذين كانوا يلتمسون التهذيب عن طريقه ، بصحبته ، ووجدت أنني عُوِّضت عن هذا الاستغناء بما يكفي عن طريق رحلة قمنا بها معاً الى ايمس ، وكان يصحبنا طقس صيفي جميل ، وكان لافاتر مرحاً فائق السحر . ذلك لأنه لم يكن يظل عديم الحساسية حين يتخذ وجهة من وجهات فكره الدينية والأخلاقية ، التي لم تكن متسمة بالقلق بحال من الأحوال ، اذ كانت أحداث الحياة تستثير النفوس باعثة فيها المرح والطرب . فقد كان ليّن العريكة ، ظريفاً ذا نكتة ، وكان يحب الشيء ذاته في الآخرين ، على أن يظل ضمن الحدود التي يمليها عليه فكره المرهف . أمّا اذا تجرّأ امرؤ على تجاوز هذه الحدود على كل حال فقد كان دأبه أن يربّت على كتف ذلك الجريء ويدعوه الى الأدب بعبارة وديّة قائلاً : «أنت طيّب ! » وأفادتني هذه الرحلة ببعض الدروس ، وبعثت في نشاطاً تهيّأ لي في الإحاطة بشخصيته أكثر مما تهيّأ لي في ضبط شخصيّتي وتكوينها . وفي إيمس رأيته من جديد ، وقد أحدق به رهط من الناس من أنواع شتّى . وعدت أدراجي الى فرانكفورت ، اذ كانت أعمالي الصغيرة(١) قيد الإيجاز بحيث لم يكن في الامكان مفارقتها .

ولكن لم يكن مقدّراً لي أن أصل الى الراحة بهذه السرعة لأن بازيدوف وصل ، واحتك بي وأثرّ فيّ من جانب آخر . ولم يكن في وسع المرء أن يرى تضاداً صارخاً أكثر مما بين هذين الرجلين ، اذ كان مجرد النظر الى بازيدوف يشير الى النقيض . ولئن كانت ملامح وجه لافاتر تفصح عن نفسها ، مكشوفة للمتأمّل فقد كانت ملامح بازيدوف مشدودة وكأنها منسحبة الى الداخل ، وكانت عين

لافاتر صافية وورعة تحت أجفان جدّ عريضة . أما عينا بازيدوف فكانتا غائرتين في رأسه ، صغيرتين سوداوين ، حادتين ، تلمعان تحت حاجبين منتفشيْن . وفي مقابل ذلك كانت عظام جبهة لافاتر تبدو وقد أحدق بها قوس من الشعر الأسمر البالغ الرقّة . على أن صوت بازيدوف الأجش الغليظ ، وتعبيراته السريعة الحادة ، والضحكة الساخرة المعينة ، والقذف السريع بالحديث هنا وهناك ،وكل ما يمكن أن يميّزه سوى ذلك ، كل ذلك كان يتعارض مع الخصائص والسلوك اللذين كان لافاتر قد أفسدنا بتدليلنا بهما . وكان بازيدوف(١) أيضاً مطلوباً ظلباً شديداً في فرانكفورت ، وكانت مواهبه الذهنية الكبرى موضع الإعجاب ، غير أنه لم يكن بالرجل الذي يهذّب النفوس ، ولا بالذي يقوّمها . وكان كل ما يهمه من عمل أن يزرع ذلك الحقل الكبير(٣) الذي حدّده لنفسه ، على نحو أفضل ، لكي تتخذ البشرية منه في المستقبل منزلاً لها ، بصورة أوفر راحة وأكثر طبيعيّةً ، والى هذا الهدف كان ينطلق في طريقه لايلوي على شيء .

ولم أكن أستطيع أن أعقد أواصر المودة مع خططه ، بل لم استطع أن استجلي نواياه . أما أنه كان يريد لكل تعايم أن يكون مفعماً بالحياة ، موافقاً للطبيعة ، فـذلك ما أمكنه أن يحوز إعجابي وأما أنّ اللغات القديمة ينبغي أن تمارس في الحاضر فقد كان ذلك يبدو لي جديراً بالثناء وكان يسرني ان أقرّ ما كان وارداً في مشروعه من أجل تنمية النشاط ، ومن أجل نظرة الى العالم أكثر جدّة ونضارة : ولكن لم يكن يعجبني أن الرسوم في «كتابه الأوليّ» كانت مسلّية أكثر من الموضوعات ذاتها ، لأن الممكن وحده هو الذي يأتلف دائماً في العالم الواقعي ، ولأن العالم يظل ينطوي دائماً ، لهذا السبب ، وبصرف النظر عن كل التعقيد والفوضى الظاهرية ، على شيء

مُحكَم منضبط في كل أجزائه . ولكن ذلك «الكتاب الأوليّ» يمزّقه إرباً إرباً ، اذ ينتظم ما لا يصح بحال من الأحوال في النظرة الى العالم ، جنباً الى جنب ، بسبب قرابة المفاهيم بعضها مع بعض. ولذلك تُفتَقَد أيضاً تلك المزايا المنهجية من الوجهة الحسيّة ، وهي المزايا التي لابدّ لنا أن نقرّبها لأعمال مشابهة ، لآموس كومينيوس ( Amosni Comerius ) (١)

ومع ذلك فما كان دعى الى العجب كثيراً ، وأصعب ادراكاً من نظريته ، انما هو سلوك بازيدوف نفسه. لقد كان في هذه الرحلة ينطوي على الرغبة في كسب الجمهور عن طريق شخصيته من أجل مشروعه المنطوي على محبة الانسانية ، وفي فتح الجيوب ذاتها ، لا النفوس . وكان يعرف كيف يتحدث عن مشروعه حديثاً بارعاً ومقنعاً ، وكان كل امرىء يسره أن يسلّم له بما يزعم ، ولكنه كان يؤذي نفوس الناس الذين كان ينشد الظفر منهم بالتبرعات بأكثر الطرق استعصاءاً على الفهم ، بل كان يهينهم دونما حاجة ، اذ لم يكن يستطيع أن يكتم آراءه وأوهامه في الموضوعات الدينية . وهنا أيضاً كان بازيدوف يظهر في صورة النقيض للافاتر . فعلى حين كان هذا ينظر الى الكتاب المقدس على أن له صحةً وسرَياناً بصورة حرفية ، وبكامل مضمونه ، بل حتى كلمة كلمة ، وحتى في الوقت الحاضر ، ويعدّه قابلاً للتطبيق ، كان ذاك يشعر بحافز متناهٍ في اثارته ، الى تجديد كل شيء ، والى قلْب الأنماط ، سواء في مبادىء العقيدة ، أم في الطقوس الكنيسية ، تبعاً لأوهامه الخاصة التي صاغها ذات مرة . ومع ذلك فقد كان أكثر ما يكون قسوة وتهوّراً في سلوكه حيال تلك التصوّرات التي لاتُعزى الى الكتاب المقدس مباشرة ، بل الى تأويله ،

بتلك التعبيرات والكلمات الفنية والفلسفية أو التشبيهات الحسية التي كان آباء الكنيسة والمجامع يحاولون بها أن يوضحوا ما لا سبيل الى التعبير عنه ، أو يجادلوا الهراطقة . وكان يصرّح بطريقة قاسية تنطوي على اللامسئولية ، أمام الناس جميعاً ، انه ألدّ أعداء التثليث ، ولم يكن يستطيع أن ينتهي أبداً من الإدلاء بالحجج ضد هذا السرّ المعترف به على نطاق عام . وكان عليّ ، أنا أيضاً ، أن أعاني كثيراً جداً من ذلك في الأحاديث الخاصة ، ولم يكن لي بدّ من أن أدعه يورد لي الأقنوم(١) والكائن الأوحد ، وكذلك الروح القدس ، المرة بعد الأخرى ، وقد لجأت ، في مقابل ذلك الى أسلحة المناقضة Parodoxie وحلّقت فوق آرائه ، وتجاسرت على محاربة الجسارة بما هو أشد جسارة منها ، وأعطى هذا لفكري حافزاً جديداً . ولما كان بازيدوف أكثر مطالعة مني الى حد بعيد ، وكان يعرف أيضاً كيف يسدّد طعنات المبارز في الجدال على نحو أبرع مني ، أنا الطبيعي ، فقد كان عليّ أن أزداد إجهاداً لنفسي على نحو مطرد كلما ازدادت اهمية النقاط المتداولة بيننا .

ولم يكن في وسعي أن أفوّت فرصة رائعة كهذه لأدرّب نفسي على وجه التأكيد ، ان لم أُنَوِّرْها . وتمكنت من تعهد الأعمال الضرورية لأبي ولأصدقائي ، وجعلت أرتحل الآن ، في صحبة بازيدوف ، من فرانكفورت ، مراراً . ويا له من فرق أحسست به حين فكرت بالسحر الذي كان يشع من لافاتر ! لقد كان ، على ما كان عليه من نقاء ، يهيء لنفسه محيطاً نقياً أيضاً ، وكان القوم يميلون الى جانبه ببراءة عذريّة ، لكيلا يمسّوه بمكروه . أمّا بازيدوف الذي كان مفرطاً في الانكفاء على نفسه فلم يكن يستطيع أن ينتبه الى مظهره

الخارجي ، بل كان لمجرد تدخينه التبغ الرديء بغير انقطاع وقع بالغ الثقل . ولا سيما حين كان يعود للتوّ الى فتح اسفنجة أعدت اعداداً غير نظيف ، تشتعل بسرعة ، ولكنها ترسل دخاناً قبيحاً ، ، بعد انتهاء تدخين الغليون وتسمم الهواء في كل مرة مع الزفرات الأولى على نحو لايطاق . وكنت اسمى هذا المستحضر اسفنجة بازيدوف المنتنة وأردت أن أدخله تحت هذا العنوان في التاريخ الطبيعي ، فكان يجد فكاهة عظيمة في أن يفصل لي القول في التحضير المزعج على نحو يبعث الاشمئزاز حقاً ، ويأنّس الى اشمئزازي بسرور عظيم بالأذى . ذلك لأن هذا كان من الخصائص ذات الجذور العميقة للرجل الموهوب موهبة فائقة ، وهي أنه كان يهوى المعابثة والطعن الخبيث في أكثر الناس نزاهة . ولم يكن المرء يستطيع أن يراه ساكنا ، فكان يثير عن طريق التهكم بالابتسامة الساخرة ، والصوت الأجش ، وكان يسبب الحرج بالسؤال المباغت ، وكان يضحك بمرارة حين يكون قد وصل الى هدفه ، ولكنه كان يقرّ عيناً بلا ريب حين يرد عليه المرء بشيء ما بسرعة حضور البديهة .

وماأكثرما كان شوقي يشتد الى لافاتر ، فقد كان هو أيضاً يبدو مسروراً حين رآني من جديد وأفضى اليَّ ببعض ما كان ألمَّ به ، حتى الآن ، ولا سيما ما كان له صلة بالشخصيات المتباينة لرفاق المنازل الذين كان قد عرف كيف يتخذ لنفسه من بينهم كثيراً من الأصدقاء والأتباع . على أني وجدت الآن بعض المعارف القدامى وعن طريق أولئك الذين ، لم أرهم منذ سنين شرعت في إبداء الملاحظة التي ظلت خافية علينا في الصبا عهداً طويلاً ، وهي أن الرجال يشيخون ، وأن النساء يتغيّرن . وكانت الجماعة تزداد في كل يوم . وكان القوم يفرطون

في الرقص ، ولمّا كانوا يتلامسون على قرب شديد في كلا الحمّاميْن ، فقد تُبودلت بعض النكات بما كان بينهم من التعارف الحسن والوثيق . وقد تنكّرت ذات مرة في مظهر كاهن ريفيّ ، وتنكرّ صديق مشهور في ثياب زوجته ، وأثقلنا على الجماعة النبيلة الى حد بعيد بالتأدب المفرط ، فكان في ذلك ما أضفى المزاج الحسن على كلّ منهم ، ولم تكن تنقصنا حفلات المساء أيضاً ، وحفلات منتصف الليل ، والصباح . وكان استمتاعنا بالنوم ، نحن معشر الشباب ، قليلاً جداً .

وعلى النقيض من هذه التسليات كنت أقضي دائماً جزءاً من الليل مع بازيدوف . ولم يكن هذا يرقد على السرير قط ، بل كان يملي بغير انقطاع . وفي بعض الأحيان كان يلقي بنفسه على المهجع ، وتأخذه سنَة من النوم ، على حين كان صاحبه تيرو يظل قاعداً بهدوء تام ، والريشة في يده ، ويظل مستعداً لمواصلة الكتابة على التوّ ، حين كان النائمُ اليقظانُ يدع لأفكاره مسارها الحر من جديد . وكان هذا كله يحدث في حجرة موصدة إيصاداً شديداً ، مفعمة بدخان التبغ والاسفنج . وكنت كلما فرغت من رقصة وثبت صاعداً الى بازيدوف الذي كان يميل على الفور الى الحديث عن كل مشكلة والمجادلة فيها . وعندما كنت أنطلق مسرعاً ، بعد انقضاء بعض الوقت، الى الرقص من جديد ، كان يمسك بزمام موضوع مقالته وهو يمليها بهدوء تام قبل أن أسحب الباب ورائي كأن لم يكن هناك شيء آخر سواها .

ثم قمنا معاً برحلة الى المناطق المجاورة ، وزرنا القصور ، وبوجه خاص قصور النسوة النبيلات اللواتي كنّ أكثر ميلاً من الرجال الى تقبُّل الأمور الفكرية والروحانية . أما في ناساوْ ، عند السيدة

فون شتاين(١) ، وهي سيدة جليلة القدر الى أقصى الحدود ، كانت تتمتع بالاحترام العام ، فقد وجدنا رهطاً عظيماً ، اذ كانت السيدة فون لاروش(٢) حاضرة كذلك، ولم تتخلّف النسوة الصبايا والأطفال أيضاً . وكان من المفروض هنا أن يُقدَّم لافاتر في تجربة فراسية كانت في الغالب تقوم على أن يحاول القوم تضليله بحيث يَعُدُّ الجوانب القائمة على المصادفة في التكوين صورة أساسية . غير أنه كان أكثر إرهافاً في البصر من أن ينخدع . وكان عليّ من قبل ، كما كان عليّ من بعد ، أن أدلي بالشهادة حول حقيقة آلام فرتر ، وعنوان لوتّه ، وهو الطلب الذي لم أتملّص منه بأبرع طريقة ، وفي مقابل ذلك احتشد الأطفال من حولي لأروي لهم حكايات غريبة حقاً حيكت من بضعة موضوعات معروفة . وكنت في ذلك أتمتّع بمزيّة عظيمة ، وهي أن أحداً من أعضاء حلقة مستمعيّ لم يسألني بالحاح عما يمكن أن يعد حقيقة وعما يمكن أن يعد خيالاً .

وكان بازيدوف يطرح الشيء الوحيد الذي يراه ضرورياً ، ألا وهو التربية الأفضل للأحداث . ومن أجل ذلك كان يطالب النبلاء وأصحاب الأملاك بمبالغ كبيرة . ولكنه لم يكد يهيئ النفوس — سواء عن طريق الأخذ بالأسباب ، أم عن طريق البلاغة العاطفية ، الى ارادة الخير ، ان لم يوجهها اليه ، حتى مسّته روح العداء للتثليث ، وأفلت من عقاله من دون أن يشعر أدنى شعور بالمكان الذي هوفيه، خائضاً غمار أغرب الأحاديث ، وهو ، في رأي نفسه ، في الذروة من التديّن، على أنه يعد، حسب عقيدة المجتمع، في الذروة من التجديف. وجعل لافاتر يلتمس الوسيلة حيال هذا الوبال ، بالجدّ الهادىء الحليم ، أما أنا فبالدعابات المغيّرة لمجرى الحديث ، وأمّا السيدات فبالنزهات

المسليّة ، ومع ذلك فلم يكن من الممكن شفاء الغيظ . أما الحديث المسيحيّ الذي كان القوم يرجونه من حضور لافاتر ، والحديث التربويّ كما كان القوم ينتظرونه من بازيدوف ، والعاطفي الذي كان يفترض فيَّ أن أجد نفسي مستعداً له ، فقد فسد كل شيء من هذا القبيل ، وعُلّق مرة واحدة . وفي طريق العودة أنحى عليه لافاتر باللائمة . أما أنا فعاقبته بطريقة هزلية . وكان الطقس حاراً ، وربما كان دخان التبغ قد زاد حلق بازيدوف جفافاً . وكان يحس برغبة عارمة في قدح من الجعة ، وحين أبصر ، على الطريق الزراعي ، عن بعد ، حانةً ، أمر الحوذي ، وهو في الغاية من الشهوة ، أن يتوقف هناك . أمّا أنا فأهتف بذلك الحوذي ، في اللحظة التي همَّ فيها أن ينطلق ، بعنف ، وبلهجة آمرة ، أن يمضي في سيره ! ولم يستطع بازيدوف ، بصوته الأجش المبحوح ، أن يخرج بنقيض ذلك . وكنت أحث الحوذي بمزيد من الشدة ، وكان يطيعني . وطفق بازيدوف يلعنني ، وودّ لو يضربني بجُمْعِ يديه ، ولكنني رددت عليه بأشد ضروب الطمأنينة قائلاً : « هدّىء من روعك أيها الأب ! فان عليك أن تقدم الي جزيل الشكر ، وان من حسن الحظ أنك لم تر شارة الجعة ! فهي تأتلف من مثلثين متشابكين ، وانك لخليق أن يعتريك الجنون في العادة من مثلث واحد . ولو أن المثلثين كليهما ظهرا في وجهك لكان لابد للمرء أن يقيدك بالسلاسل . وانتهى به هذا المزاح الى ضحك عارم ، وكان في أثناء ذلك يشتمني ويلعنني ، وكان لافاتر يروض صبره على الأحمق الكبير والصغير .

وحين كان لافاتر يتأهب للرحيل الآن ، في منتصف تموز ، وجد بازيدوف أن من المفيد له أن ينضم اليه ، وكنت قد اعتدت هذه

الجماعة ذات الخطر الى درجة لم أكن عندها استطيع مغالبة نفسي على تركها . وقد كانت لنا رحلة جد ممتعة تبعث على سرور القلب والفكر ، نزولاً على محاذاة نهر اللاهن . ولدى رؤية خرائب حصن يلفت النظر كتبت تلك الأغنية « عالياً ، فوق البرج القديم(١) » في كتاب مجموعة ليبس الشعرية ، وحين لقيت القبول الحسن كتبت ، لكي أفسد الانطباع من جديد ، تبعاً لأسلوبي في الشقاوة ، ضروباً شتى من الشعر المضحك المختل الوزن ، والمقالب الفكاهية ، على الصفحات التالية ، وسررت لرؤية الراين الرائع من جديد ، وتسلّيت بمباغتة أولئك الذين لم يكونوا قد استمتعوا بعد بهذه المسرحية وحططنا الرحال الآن في كوبلنتس ، وكان التدافع عظيماً حيثما ظهرنا ، وكان كل منا نحن الثلاثة يثير الاهتمام والفضول على حسب طريقته ، وبَدَوْنا ، أنا وبازيدوف ، كأننا نتسابق أيّنا يستطيع أن يكون الأقلّ تهذيباً . وكان لافاتر يتصرف بعقل وذكاء ، إلاّ انه لم يكن يستطيع أن يخفي آراءه العزيزة على قلبه ، وبذلك بدا ، مع ارادته الأكثر نقاءً ، بالقياس الى كل الناس من النوع المتوسط لافتاً للنظر الى أقصى الحدود .

وقد احتفظت بذكرى طاولة حانة رائعة في كوبلنتس ، في أبيات هزلية مختلّة الوزن قد ترد الآن أيضاً ، مع أخواتها في طبعتي الجديدة(٢) . كان الأول يُطلع كاهناً ريفياً على أسرار وحي يوحنا . وكان الآخر يجتهد عبثاً في اقامة الحجة لمعلم رقص عنيد ، على أن التعميد تقليد عفى عليه الزمن ، ولا يلائم أيامنا ، وحين واصلنا الآن المسير الى كولونيا ، كتبت في كراسة ما :

ومضينا في طريقنا ، مثلما يقول عاموس(٣)

بخطوات عاصفة نارية

فأنبياء عن اليمين ، وأنبياء عن الشمال

ورجل الدنيا في الوسط .

ومن حسن الحظ أن رجل الدنيا هذا كان يتمتع أيضاً بجانب يشير الى الناحية السماوية كان مقدَّراً له أن يُمَسّ بطريقة خاصة كل الخصوصية ، وكان قد سرني ، منذ كنت في ايمس ، أن أسمع أن من المرسوم لنا أن نلتقي في كولونيا بالأخوين ياكوبي(١) اللذين كانا يتحركان ، مع رجال آخرين من ذوي الفضل والنباهة ، نحو ذَيْنِك المسافرَيْن اللذين يلفتان الأنظار . أمّا أنا فقد كنت أؤمّل أن أتلقى منهما الصفح عن الاساءات الصغيرة التي نجمت عن اساءة أدب تسببت فيها نكتة هردر اللاذعة . وكانت تلك الرسائل والقصائد التي كان جلايم وجورج ياكوبي يتبادلان المتعة من خلالها علانية ، قد أتاحت لنا الفرصة لبعض النوادر . ولم نكن نحسب أنه يُحتَاجُ ، لإيلام الآخرين الذين يشعرون بالارتياح ، الى قدر من الزهوّ بالنفس مماثل لإسداء المرء الخير العميم الى نفسه أو الى أصدقائه . وكان قد قد نشأ بذلك اختلاف معين بين أعلى الراين وأدناه ، ولكنه كان اختلافاً ضئيل الأهمية الى حد كان من الممكن التوسط فيه بسهولة ، وفي هذا الصدد كانت النسوة ملائمات على نحو متميز . وكانت صوفي لاروش ذاتها قد أعطتنا أفضل تصور عن هؤلاء الأخوة النبلاء ، وقدمت الآنسة فالمر ، المسافرة من دسلدورف الى فرانكفورت وذات الصلة الوثيقة بذلك الوسط ، من خلال ما تمتاز به نفسها من رقة عظيمة ، وما يتسم به فكرها من ثقافة غير عاديّة ، شاهداً على مكانة المجتمع الذي ترعرعت فيه . وكانت تشيع في نفوسنا الخجل شيئاً

فشيئاً بصبرها على سلوكنا الفج الألماني الجبليّ ، وعلمتنا المداراة ، اذ تركتنا نشعر أننا في حاجة اليها أيضاً بلا ريب . وكان اخلاص الأخت الياكوبية الصغرى والمرح العظيم من جانب زوجة فريتس ياكوبي يوجهان روحنا وعقلنا على نحو يزداد باطراد ، الى تلك الأقاليم . وكانت المذكورة أخيراً من الملاءمة بحيث تتقبلني كل القبول : فكانت ، وهي ذات الحساسية السليمة من دون أثر للافراط في النزعة العاطفية ، والمعبّرة عن ذاتها تعبيراً مرحاً ، هولندية رائعة ، تذكرّ ، دونما تعبير عن الشهوانية ، من خلال كيانها المتسم بالطيب ، بنساء روبانز . وكانت السيدات المذكورات قد عقدن ، لدى إقامتهن الطويلة والقصيرة ، أواصر العلاقة الوثقى مع أختي ، ودفعن بكيان كورنيليا الجادّ ، الجامد ، الخالي من السحر الى حد ما ، الى الانفتاح والابتهاج ، وهكذا اتيحت لنا دسلدورف ، وبمبلفورت ، بروحهما وقلبهما ، في فرانكفورت .

وكذلك أمكن للقائنا الأول(١) في كولونيا أن يكون صريحاً ومبنياً على الألفة الحميمة في الوقت ذاته : ذلك لأن حسن رأي تلك السيدات فينا كان قد أحدث أثره باتجاه البيت على النحو ذاته ، ولم يكن القوم يعاملونني ، كما كانوا يفعلون حتى الآن ، في الرحلات ، على أنني مجرد تابع لذينك النجمين السياريّن الكبيرين ، بل كانوا يتوجهون اليّ على وجه التخصيص أيضاً ليُسْدوا اليّ بعض الفائدة ، وكانوا يبدون ميّالين الى أن يتلقوا عني أيضاً .وكنت قد تعبت حتى الآن من حماقاتي وشقاواتي ، التي كنت أخفي وراءها مع ذلك في الحقيقة مجرد الاستياء من أن قلبي وخاطري قلّما كانا يجدان اهتماماً ورعاية في هذه الرحلة . ولذلك انبثقت سريرتي بعنف .

وربما كان هذا هو السبب في أنني قلّما أتذكر الحوادث بالتفصيل. اذ ان ما فكر به المرء ، والصور التي رآها ، يمكن أن تنبعث من جديد في العقل والمخيلة ، ولكن القلب لا يواتينا كل هذه المواتاه ، وهو لا يُعيد لنا المشاعر الجميلة . ونحن أقل ما نكون قدرة على أن نجسّد لأنفسنا من جديد لحظات حماسية ، اذ يتعرض المرء لمداهمتها وهو غير متأهّب ، ويُسلم نفسه لها دونما شعور ، ولذلك يتسم الآخرون الذين يلاحظوننا في أمثال هذه اللحظات ، بنظرة أكثر وضوحاً وصفاءً منّا نحن أنفسنا .

أما الأحاديث الدينية فكنت حتى الآن أرفضها بهدوء . وكان من النادر أن أردّ على الأسئلة الاستيضاحية بتواضع ، لأنها لم تكن تبدو لي ، في مقابل ما كنت أبحث عنه ، إلاّ مفرطة في المحدودية . وكنت اذا أراد أحدهم أن يفرض عليّ مشاعره وآراءه في نتاجي الخاص ، ولا سيما حين كان الناس يعذبونني بمقتضيات العقل المتصل بالحياة اليومية ، ويملون عليّ إملاء بالغ الحسم ما كان عليّ أن آتي وأن أدعَ من الأمور عيلَ صبري ، وانهار الحوار ، أو تداعى بحيث ما كان أحد يستطيع أن يفصل في أمري برأى ملائم ملاءمة خاصة . وكان من الطبيعي الى حد أبعد كثيراً بالقياس اليّ أن أثبت أني امرؤٌ ودود ليّن الجانب ، ولكن نفسي كانت تأنف التلقين المدرسيّ ، بل كانت تريد التفتّح من خلال الارادة الطيبة ، وأن تُستَحثَّ على العطاء والبذل عن طريق الاهتمام الحقيقي . ولكن كان ثمة شعور يتفاقم عندي تفاقماً شديداً ، ولم يكن يتاح له أن يعبّر عن ذاته بقدر كاف من الطرافة ، وذلك هو الاحساس بالماضي والحاضر في واحد(١):

وهي نظرة كانت تدخل في الحاضر شيئاً شبحياً ؛ وقد عُبِّر عنها في كثير من أعمالي الكبيرة والصغيرة ؛ كما أنها تحدث في القصائد أثراً مستحسناً دائماً على الرغم من أنها لابد أن تبدو في اللحظة الّتي تعبّر فيها عن ذاتها وهي حيّة ، وداخل الحياة ذاتها ، غريبةً بالقياس الى الناس جميعاً ، مستعصية على التفسير ، بل ربما كانت غير سارّة .

وكانت كولونيا هي المكان الذي كان العصر القديم يمارس فيه عليّ تأثيراً لا يُقدَّر . فقد كانت أنقاض الكاتدرائية(١) تثير المشاعر المعهودة أصلاً في شتراسبورج ( لأن العمل غير الناجز يشبه العمل المدمّر ) . ولم يكن في وسعي أن أمارس التأملات الفنية . وكنت قد أوتيت الكثير المفرط في كثرته ، والقليل المفرط في قلته ، ولم يكن يوجد أحد يستطيع أن يخرج بي من هذه المتاهة ، متاهة الناجز والمرغوب فيه ، والفعل والنيّة ، والمشيد والمرسوم بخطوطه الأولى ، مثلما يحدث الآن حقاً بوساطة أصدقائنا النشطين المثابرين(٢) . وكنت ، وأنا في جماعة ، أُعْجَب في الحقيقة بهذه القاعات والأعمدة التي تلفت النظر ، ولكني كنت ، وأنا وحدي ، استغرق في هذا ، في غمرة تشييده ، وهو بعيد عن الاكتمال ، صرحاً من صروح الدنيا قد اعتراه الجمود وهو موسوم أبداً بـمَيْسَم الكآبة . فقد طالما تقاصرت ههنا فكرة هائلة عن التنفيذ ! أَوَلاً يبدو كأنما لم توجد الهندسة هنا إلاّ لتقنعَ بأنه لاسبيل الى إنجاز شيء عن طريق أناس عديدين ، في تسلسل زمني ، وأنه لايتحقق ، في الفنون والأعمال ، إلاّ ما ينبثق ناضجاً ومجهّزاً من رأس المخترع ، كمنيرفا .

ولم أكن أقدر ، في هذه اللحظات الّتي كانت أقرب الى أن تُثْقِل بوطأتها منها الى أن ترتفع بالقلب ، أن أكثر المشاعر رقة

وجمالاً كانت تنتظرني وهي مني جدّ قريبة . فقد قادني القوم الى مسكن يإباخ(٢) ، حيث واجهت هذا الذي دأبت في العادة على مجرد تصوّره في خاطري ، مواجهة فعلية وحسيّة . وربما كانت هذه العائلة قد انقرضت منذ عهد طويل . ولكننا لم نجد في الطابق السفلي الذي كان يفضي الى حديقة ، شيئاً قد أصابه التغيّر : بلاط مزخرف زخرفة نظامية بقطع على شكل المعين من القرميد الأحمر المسمّر ، وكراسيُّ عالية منقوشة ، لها مقاعد ومساند مخيطة من الخارج ، وألواح للموائد أنزلت في موضعها على نحو فني ، منصوبة على قوائم ثقيلة ، وأضواء معلّقة ، ومدفأة جدارية هائلة ، ومعها آلات النار الملائمة ، وكل شيء متوافق مع تلك الأيام السالفة ، ولا شيء جديد في المكان كله ، لاشيء جديد إلاّ نحن أنفسنا . أمّا ما كان يزيد من الأحاسيس المستثارة بذلك الآن زيادة عارمة ، ويكمّلها ، فكان صورة عائلية كبيرة(٣) فوق المدفأة الجدارية ، كان صاحب المنزل الغني الغابر قاعداً مع زوجه ، وقد أحاط بهما الأطفال ، مصوَّرين : وكلهم حاضرٌ ، معاصرٌ ، ناضرٌ ، مفعم بالحياة ، وكأنه ابن البارحة ، بل ابن اليوم ، ومع ذلك فقد كانوا قد ولّوْا جميعاً . وكان هؤلاء الأطفال أولو الوجنات المستديرة قد شاخوا ، ولولا هذه الصورة الفنية لما بقيت منهم ذكرى . أما كيف كان سلوكي وتصرفي حين طغت عليّ هذه الانطباعات فذلك مالا أعرف كيف أعبر عنه . وقد تم الكشف عن أعمق أساس لاستعداداتي البشرية وألوان مقدرتي الأدبية بوساطة الحركة اللانهائية في القلب ، وأمكن لكل ما هو حسن وجميل مما يكمن في نفسي أن يتفتّح وينبثق . ذلك لأنني بتُّ منذ هذه اللحظة أميل ، من دون مزيد من التقصّي والأخذ والرد ، الى اكتساب ثقة أولئك الرجال الأفاضل طوال حياتي .

ونتيجة لهذا التواؤم في الروح والفكر ، حيث يتم التعبير عن كل ما يعيش داخل كل امرىء أقدمت على التغنيّ بأكثر قصائدي الغنائية(١) جدّة وأحبّها اليّ ، وهما «ملك توله» ، و « كان هناك عاشق جدّ جسور » اللتان أحدثتا أثراً طيباً . وكان يزيدني راحة في انشاد قصائدي أنها لم تزل متصلة بقلبي ، ولم تكن ترد على شفتيّ إلاّ قليلاً ، اذ كان من اليسير أن يمنعني أشخاص حاضرون معيّنون ربما كان شعوري المفرط في الارهاف يسيء اليهم ، وكنت أتيه في غمرة الإنشاد في بعض الأحيان ولا أستطيع أن أتبيّن سبيلي ، وما أكثر ما اتُّهِمت من أجل ذلك بالعناد وبطبع غريب حافل بالأوهام .

وعلى الرغم من أن طريقة التصوير الأدبي كانت هي أكثر ما يشغلني ، وكانت تتلاءم في الحقيقة مع طبيعتي ، فان التفكير في موضوعات شتى لم يكن غريباً عني . وكان اتجاه ياكوبي الأصيل الملائم لطبيعته ، حيال ما لا يمكن سَبْر غوره ، موضع الترحيب الأقصى ، كما كان مريحاً . وهنا لم يكن ينشب خلاف ، لامن الوجهة المسيحية ، كما كان الحال مع لافاتر ، ولا من الوجهة التعليمية ، كما كان الحال مع بازيدوف . وكانت الأفكار التي كان ياكوبي يفضي بها اليّ تنبثق من شعوره على نحو مباشر . وما أكثر ما تغلغل ذلك في نفسي بوجه خاص ، حين لم يكتم عني ، في ثقة مطلقة ، أعمق متطلّبات نفسه . ولم يكن من الممكن أيضاً أن ينبثق لي عن مثل هذا الاتحاد العجيب بين الحاجة والعاطفة المحتدمة ، والأفكار ، إلاّ ضروب من الشعور الحدسي تجاه ما يحتمل أن يغدو أكثر وضوحاً لي في المستقبل . وكان من حسن الحظ أنني عالجت نفسي ، ان لم أكن ثقفتها ، وتمثّلت في نفسي حياة رجل ممتاز

وطراز تفكيره ، ولم يكن ذلك في الحقيقة إلاّ بصورة منقوصة ، وكأنه يحدث بطريقة الاختلاس . ولكني آنست من ذلك ضروباً هامة من التأثير . وكان هذا العقل الذي أثّر فيَّ هذا التأثير الحاسم ، والذي كان له أثر جدّ كبير على نمط تفكيري بأسره ، هو سبينوزا(١). وذلك أنني بعد أن قلّبت النظر حواليّ عبثاً ، وأنا التمس وسيلة تثقيفية لطبيعتي المُحيِّرة ، وقعت أخيراً على كتاب «الأخلاق» لهذا الرجل . أمّا ما يمكن أن أكون استخلصته من هذا السفر بالقراءة ، وما يمكن أن أكون أدخلته عليه في القراءة ، فذلك مالا يمكنني أن أقدم حساباً عنه . وجملة القول أنني وجدت هنا تهدئة لعواطفي المحتدمة ، وبدا لي كأن أفقاً كبيراً ، حرّاً ، من آفاق النظر الممتدة على العالم الحسّي والأخلاقيّ ، ينفتح لي . غير أن ما كان يشدُّني اليه بوجه خاص انما كان تلك الغيرية التي لاحدَّ لها ، والتي كان بريقها ينبعث من كل جملة . وكانت تلك الكلمة الرائعة : « من كان يحب الله حقاً (٢) فعليه ألاّ يطالب الله أن يقابله بالحب » ، مع كل الجمل السابقة المبنيَّة عليها ، وكل ما ينجم عنها من نتائج ، تملأ عليّ كل تفكيري . لقد كان التحلّي بالايثار في كل شيء ، وأنْ يكون المرء أكثر ما يكون إيثاراً ، في الحب والصداقة ، هو متعتي القصوى ، ومبدأي ، وممارستي ، بحيث كانت تلك الكلمة الصريحة اللاحقة : «اذا كنت أحبك(٣) فماذا يُهِمُّك» ، تنبعث من صميم قلبي حقاً . وأخيراً فربما كان ينبغي ألاّ يغيب عن بال المرء ههنا أن أوثق الأواصر لاينجم في الحقيقة إلاّ عن المتعارض . لقد كانت سكينة سبينوزا التي توازن كل شيء ، في تضادّ مع نزوعي الذي يبعث الاضطراب في كل شيء ، وكان منهجه الرياضي هو النقيض لطريقتي الشعرية

في الإحساس والتصوير . بل لقد كان اسلوب المعالجة ذلك المُحكَم الذي كان الناس يأبَوْن أن يجدوه ملائماً للموضوعات الأخلاقية ، كان هذا الأسلوب ذاته يجعل مني تلميذه المتحمّس ، ومُبَجِّله الفائق التبجيل . وكان الفكر والقلب ، والعقل والحس ، يبحث أحدهما عن الآخر ضمن علاقة ضرورية من الأنساب المختارة(٤) ، ومن خلال هذه العلاقة تحقق اتحاد الكائنات الأكثر تبايناً .

ولكن كل شيء كان مايزال في الطور الأول من التأثير والتأثُّر المعاكس ، وهو يتخمرّ ويفور . على أن فريتس ياكوبي ، وهو أول من حملته على يرسل أن نظره في هذا العماء ، وهو الذي كانت طبيعته تعمل على النحو ذاته ، في أعمق الأعماق ، تقبّل ثقتي بحرارة ، وردّ عليها بمثلها ، وسعى الى التمهيد لتعرُّفي على عقله . وكان هو أيضاً يحس بحاجة فكرية لاسبيل الى التعبير عنها ، وكان هو أيضاً يأبى أن يهدّىء ذلك بوساطة معونة أجنبيّة ، بل كان يريد أن يستخلص ذلك من ذات نفسه ، وقد تكوَّن واستنار . أمّا ما كان يفضي اليّ به عن حال نفسه ، فلم أكن استطيع أن أدركه . وكان يزيد في قلة ادراكي له أنني لم أكن استطيع أن أكوِّن لنفسي تصوراً خاصاً عن حالة نفسي . أما هو فقد كان يسعى حقاً ، وهو الذي كان يتقدمني خطوات بعيدة في التفكير الفلسفي ، بل في تأمّل سبينوزا ، الى توجيه طموحي الغامض وترشيده . وكانت مثل هذه القرابة الفكرية البحتة جديدة عليّ . وقد أثارت رغبة عارمة في مزيد من البيان . وفي الليل ، حين كنا قد افترقنا وانسحبنا الى غرف النوم التمسته مرة أخرى . وكان شعاع القمر يتراقص على الراين ، وكنا ، ونحن وقوف عند

النافذة ، غارقين في خضم الأخذ والعطاء الذي ينبجس في زمان التفتح ذلك الرائع ، بغزارة بالغة .

ومع ذلك فما كنت لأعرف كيف أقدم بياناً عن ذلك الأمر الذي لاسبيل الى التعبير عنه في الوقت الحاضر . على أن ما هو أوضح من ذلك عندي رحلة الى قصر بينزبرج للصيد(١) ، وهو القصر الذي كان يتمتع ، في موقعه على الجانب الأيمن من الراين ، بأروع إطلالة . على أن ما سحرني هناك بالذات فوق كل الحدود انما كان زخارف الجدران بريشة فينِكس*(٢). كانت كل الحيوانات التي يستطيع الصيدْ أن يقدمها قاطبة جاثمة في نظام حسن ، وفي حلقة محيطة كأنما هي قاعدة قاعة أعمدة كبرى . وكان المرء يطلّ بنظره من ورائها على منظر طبيعي فسيح الأرجاء . وكان الرجل الخارق للعادة قد استنفد موهبته كلها في بعث الحياة في تلك المخلوقات الخالية منها ، وبلغ في تصويره الإهاب الحيواني المتناهي في تعدد جوانبه ، من الأشعار الشائكة الى الشعر العادي ، والريش والقرون المتشعّبة ، والمخالب ، حد التساوي مع الطبيعة ، بل فاقها من حيث التأثير . ولو أن المرء أَوْلى الأعمال الفنية على الإجمال الإعجابَ الكافي لاضطر الى التفكّر في اللمسات التي أمكن بها إخراج أمثال هذه الصور على هذا النحو الذي يتساوى فيه الظرف مع الرشاقة . ولا يدرك المرء كيف نشأت ، بوساطة أيدٍ بشرية ، وبأي نوع من الأدوات . وذلك أن الفرشاة لم تكن كافية ولم يكن للمرء بد من أن يفترض وجود معدات خاصة غدا بها مثل هذا العمل المعقد ممكناً . لقد كان المرء يقترب ، وكان المرء يبتعد .

---

( * ) Jan Weenix رسام هولندي (١٦٢١ – ١٦٦٠ ) . «المترجم»

فتتولاه الدهشة ذاتها : اذ كانت العلة معادلة للأثر في استحقاقها للإعجاب .

وسارت الرحلة المُستأنَفة باتجاه الراين على نحو سارٍ سعيد ، وكان اتساع النهر يدعو النفس أيضاً الى أن تتفتّح وتنطلق وتنظر الى المدى البعيد . ووصلنا الى دسّلدورف ، ومن هناك الى بمبلدورف ، المُقام الأكثر امتاعاً وبهجة ، حيث كان مبنى سكني واسع (١) يتاخم حدائق فسيحة أحسنت رعايتها يضمّ في جنباته رهطاً من ذوي الفكر والتهذيب . وكان أعضاء الأسرة(٢) كثيرين ، كما أن الأمر لم يخلُ قط من غرباء كانت هذه الظروف المتسمة بالغنى والإمتاع تطيب لهم حقاً .

على أن إيثاري للمدرسة الهولنديه أتيح له أن يجد في متحف دسّلدورف(٣) غذاء دسماً ، اذ كان يوجد فيه قاعات بأسرها من الصور الأصلية البارعة . ولئن كانت بصيرتي لم تكتسب زيادة فقد غدت معرفتي مع ذلك أكثر غنى ، كما توطدت هوايتي .

وسرعان ما بعث الهدوء الجميل ، والراحة والمثابرة التي كانت تمثل السمة الرئيسية لهذه الوحدة العائلية ، الحياةَ أمام عيني الضيف ، اذ استطاع أن يلاحظ حقاً أن مجالاً واسعاً من مجالات التأثير كان ينطلق من هنا ، ويمس أماكن أخرى . وكان نشاط المدن المجاورة ورفاهُها يسهمان إسهاماً غير قليل في تصعيد الشعور بغبطة داخلية . وزرنا «البرفيلد»(٤) وسررنا بما في بعض المصانع الحسنة التجهيز من نشاط . وهنا وجدنا صاحبنا (يونج( الذي يدعى شتللنج(٥) ، من جديد وكان قد قابلنا في كوبلنتس ، وكان يتخذ من الإيمان بالله ، والإخلاص للبشر ، صُحْبةً ممتعة . ورأيناه هنا ضمن وسطه ، وسررنا بالثقة التي

كان يوليه إياها مواطنوه ، أولئك الذين لم يكونوا ، على انشغالهم بالمكاسب الدنيوية ، يهملون المتاع السماوي . وكانت المنطقة الحافلة بالمشروعات تضفي مظهراً يبعث على الاطمئنان ، لأن المفيد هنا كان ينبثق عن النظام والنظافة . وقضينا في هذه المشاهدات أياماً سعيدة .

وكنت إذا عدت أدراجي الى صديقي ياكوبي ، استمتعت بالشعور الساحر برابطة تتخلّل أعماق النفس ، وكان يبعث الحياة في كل منا الأمل في التأثير المشترك ، وهو الأمل المتناهي في حيويته . وكنت أطالبه مطالبة الملحّ ، أن يصور كل ما يضطرم ويحتدم في نفسه ، بأية صورة من الصور ، تصويراً قوياً . وكانت هذه هي الوسيلة التي انتزعت بها نفسي من كل هذا القدر الكبير من ضروب الارتباك . وكنت آمل أن يلائمه ذلك أيضاً . ولم يقصّر في المبادرة الى ذلك بشجاعة . وما أكثر ما لم ينجزه من الحسن والجميل والذي يشرح الصدر ! وافترقنا على هذا آخر الأمر ونحن نحس إحساساً سعيداً بالاتحاد الأبديّ من دون شعور مسبق بأن طموحنا سيتخذ اتجاهاً معاكساً(١) كما تبيّن ذلك في مسار الحياة على نحو بالغ الشدة .

أما ما لقيته بعد ذلك في طريق العودة باتجاه منابع الراين فقد تلاشى من الذاكرة تماماً . وذلك لأن النظرة الثانية الى الأشياء العالقة بالذكرى تذوب في العادة مختلطة مع النظرة الأولى(٢) من ناحية ، ولأنني كنت أنزع من ناحية أخرى ، اذ كنت منكفئاً على نفسي ، الى إعداد الكثير الذي عانيته ، ومعالجة هذا الذي أثر عليّ وأنا أفكر في الوقت الحاضر في الحديث عن نتيجة هامة شغلتني كثيراً حيناً من الزمان ، اذ استحثتني على الانتاج .

وذلك أنه لم يكن من الممكن ، مع تفكيري الفائق التحرر ، ومع حياتي وسلوكي الخاليين كل الخلو من الهدف والخطة ، أن يظل خافياً عليّ أن لافاتر وبازيدوف كانا يستعلان وسائل فكرية ، بل كهنوتية ، لأغراض دنيوية ، وكان لابد أن يلفت نظري بسرعة ، وأنا الذي كنت أبدّد موهبتي وأيامي بغير هدف ، أن كلا الرجلين كان يضمر في الخفاء ، كلٌ على طريقته، مجتهداً في الدعوة والتعليم والإقناع ، أهدافاً معينة كان يهتم اهتماماً شديداً بالوصول اليها . وكان لافاتر يتصرف برفق وذكاء ، على حين كان بازيدوف يتصرف بعنف وخبث ، بل بفظاظة ، كما كان كلاهما أيضاً مقتنعٌ بفضل عمله بحيث لم يكن بدٌ للمرء أن يعدهما من أهل النزاهة والإخلاص ، بل لم يكن بدٌ للمرء أن يحبهما ويبجّلهما . وكان في وسع المرء أن يقول عن لافاتر بوجه خاص ، تمجيداً له ، انه كانت له أهداف سامية حقاً ، وانه كان من حقه ، حين كان يتصرف بذكاء رجل الدنيا ، أن يعتقد حقاً أن الغاية تضفي القداسة على الوسيلة . وفي الوقت الذي كنت فيه الآن أرقب كليهما ، بل أعترف اليهما برأيي بصراحة ، وأسمع رأيهما في مقابل ذلك انبعثت فكرة مؤداها أن الانسان الفاضل ينزع الى نشر الجانب الربانيّ الكامن فيه خارج ذاته أيضاً ، ولكنه يواجه العالم الفظّ . ولا بدّ له ، لكي يؤثر فيه ، أن يضع نفسه على قدم المساواة معه ، ولكنه يتخلى بذلك عن كثير من تلك الخصال السامية . وفي النهاية يدير ظهره لها تماماً ، ويتم إغراق السماويّ الخالد في جسد الرغائب الأرضية ، وتجرفه المصائر الزائلة فيما تجرف . وجعلت أتامّل الآن مسار حياة كلا الرجلين من وجهة النظر هذه ، وبدت لي جديرة بالتقدير قدرَ ما هي جديرة بالأسف : ذلك لأنني كنت

اعتقد أنني أرى بصورة مسبقة ، أن كليهما قد يجد نفسه مضطراً الى التضحية بالأسمى من أجل الأدنى . ولكن لمّا كنت قد تابعت كل الملاحظات من هذا النوع الى مداها الأقصى ، وقلبت النظر فيما حولي ، متجاوزاً خبرتي المحدودة الى حالات مماثلة في التاريخ ، فقد تولد لديّ تصميم عل أن أصور في حياة محمد(١) ، الذي لم أستطع أبداً أن أنظر اليه على أنه مخادع(٢) ، تلك الطرق التي كنت أتأملها في الواقع بحيوية بالغة ، تصويراً دراميّاً . وكنت قد قرأت قُبَيْل ذلك حياة النبي الشرقي باهتمام كبير ودرستها . ولذلك كنت على استعداد كبير حين انبثقت الفكرة في ذهني . وكان المجموع يقترب بصورة مطردة من القالب النظامي الذي كنت قد جَنَحْتُ اليه من جديد ، على الرغم من أنني كنت ألزم جانب الاعتدال في استخدام الحرية المكتسبة من المسرح ذات مرة ، وهي التصرف في الزمان والمكان وفقاً للمزاج . وكانت المسرحية تبدأ بنشيد كان محمد يترنّم به وحيداً تحت سماء الليل المشرقة بالبهجة ، حين يبزغ النجم الودود (Gad)(١) (جوبيتر عندنا ) ، ويتجه كل التبجيل الى هذا حصراً على أنه ملك النجوم . ولا يلبث الأمر طويلاً حتى يبزغ شعاع القمر ، ويحظى بالعين والقلب من المتضرّع الذي يُندَب عندئذ الى ثناء جديد اذ بعثت فيه الشمس البازغة النشاط على نحو رائع . ولكن هذا التبدّل ، مهما يكن باعثاً للسرور فهو يعدّ مع ذلك باعثاً للقلق ، فالنفس تحس أن الشمس لا بدّ أن تتعرّض مرة أخرى للغَلَب ، ويتجه

---

(١) من الواضح هنا أن جوته ينسب الرواية المشهورة ، الواردة في القران الكريم ، عن قصه تدرج إيمان سيدنا ابراهيم ، وارتقائه الى الإيمان بالله وحده ، الى سيدنا محمد(ص) « المترجم »

الى الله وحده ، الذي لابد لكل هذه الكائنات الرائعة المحدودة أن تدين له بوجودها . وكنت قد نظمت هذا النشيد بكثير من الحب ، وضاع مني(١) ، على أن من الممكن بلا ريب أن تعاد صياغته من أجل أغنية ، ويروق للموسيقي بتعدد أشكال التعبير فيه . ولكن على المرء أن يتصور : كما كانت النية منذ ذلك الوقت أيضاً ، رائدَ القافلة مع أسرته ، والعشيرة كلها . وبذلك تتحقق العناية بتبدّل الأصوات ، وقوّة الجوقات على نحو سليم .

وبعد أن ينتهي محمد نفسه الى الإيمان يفضي بهذه المشاعر والأفكار الى ذويه ، فينحاز اليه زوجه ، وعليّ ، بصورة مطلقة . وفي الفصل الثالث يحاول هو نفسه وعليٌّ ، ولكن بصورة أعنف ، أن ينشر هذه العقيدة في القبيلة على نطاق أوسع . وهنا تتجلىّ الموافقة والمعارضة تبعاً لاختلاف الشخصيات . ويبدأ الخلاف ، ويشتد النزاع ، ويضطر محمد الى الفرار . وفي الفصل الثالث يقهر خصومه ويجعل دينه ديناً عاماً ، ويطهر الكعبة من الأصنام ، ولكن لمّا لم يكن من الممكن أداء كل شيء بالقوة ، فانه يضطر أيضاً الى اللجوء الى الحيلة . وفي الفصل الرابع يتابع محمد غزواته . وفي الفصل الخامس يشعر بالتسمم وتجعل منه رزانته العظمى ،وهي العودة الى ذاته ، والى الروح الأعلى ، جديراً بالإعجاب . وينزّه تعاليمه ويوطد دعائم دولته ، ويقضي نحبه .

كذلك كان مشروع العمل الذي شغل فكري زمناً طويلاً : ذلك لأنه لم يكن لي في العادة بدٌّ من أن استجمع أول الأمر شيئاً ما في ذهني قبل أن أبادر الى التنفيذ . فقد كان من المفروض أن يتم تصوير كل ما تقدر عليه العبقرية حيال البشر عن طريق الشخصية والروح ، وكيف تكسب من جراء ذلك وتخسر . وتم نظم العديد

من الأناشيد التي يتوجب ادخالها بصورة عابرة ، وهي القصائد التي لم يتبقَّ منها بعد إلاّ ما يَرِد بعنوان «نشيد محمد(٢)» ، بين قصائدي . وقد كان من المرسوم لعلّي ، في هذه المسرحية ، أن ينشد هذا النشيد في نقطة الذروة من النجاح قُبَيْل الانعطاف الذي يحدث عن طريق السمّ . وما زلت أذكر المقاصد الخاصة ببعض المواضع ، ولكن تطوّر هذه المواضع خليق أن يذهب بي هنا مذهباً مفرطاً في البعد .



# الكتاب الخامس عشر

وكنت أعود أدراجي دائماً ، من ضروب من التسلية متعددة الجوانب الى حد بعيد ، تحفز الى تأملات جدّية، بل دينية ، الى صديقتي النبيلة فون كليتنبرج(١) التي كان حضورها يهدىء ثائرة أهوائي وعواطفي المحتدمة الذاهبة كل مذهب ، لحظة من الزمان على الأقل ، والتي كانت ، بعد أختي ، أعزّ من أقدم اليهن بياناً عن أمثال هذه المقاصد . ولقد كان من الممكن أن ألاحظ حقاً أن صحتها كانت تتدهور من حين الى آخر ، ولكني كنت أتجاهل ذلك ، وكان مما يؤهلني لذلك أن مرَحَها كان يزداد مع المرض . وكان من عادتها أن تقعد في مقعدها لدى النافذة ، لطيفة نظيفة ، وتستمع الى أقاصيص نزهاتي بروح طيبة ، كما تستمع الى ما أتلوه عليها . وكنت أرسم لها بعض الرسوم أيضاً لأصف لها المناطق التي رأيتها وصفاً أسهل . وذات مساء ، حين استحضرت في ذهني بعض الصور من جديد ، بدت لي ، مع الشمس الغاربة ، هي وبيئتها ، كمن تكدّر صفوه ، فلم أستطع أن أتمالك نفسي أن أضع شخصها ، وأشياء حجرتها ، على قدر ما تسمح به مقدرتي الضعيفة ، في رَسْمٍ كان خليقاً أن يكون فائق السحر لو كان بين يدي رسام بارع الفن مثل كيرستنج(٢). وبعثت به الى صديقة خارج الدار ، وأضفت اليه أغنية في صورة

تعليق واستدراك :

انظري في هذه المرآة السحرية(٣)
الى حلُمٍ ، ما كان أعذبَه ، وأحسنه ،
فتحت جناحَيْ ربّك ،
تهجع صديقتنا ، وهي تعاني !

* * *

وانظري ، كيف تغالب موجة الحياة ،
لتتجاوزها ،
وانظري الى صورتك بازائها ،
والى المسيح ، الذي عانى من أجلكم .

* * *

واستشعري ما شعرت به أنا
في أديم هذا الهواء السماويّ ،
حين أخرجت هذا الرسم ، ودفعت به
في نزوع نافد الصبر

* * *

وكنت اذا ظهرت في هذه الأبيات ، كما كان يحدث في العادة أيضاً في بعض الأحيان ، بمظهر الأجنبي ، بل الوثني ، لم يكن هذا بغيضاً اليها ، بل كانت تؤكد لي أنني أكون على هذا النحو أحبَّ اليها كثيراً من ذي قبل ، حيث كنت استخدم المصطلحات المسيحية التي كان استعمالُها يأبى أن يستقيم لي على الوجه الصحيح أبداً ، بل لقد بلغ بنا الأمر ، حين كنت أتلو عليها أخبار التبشير التي كان يطيب لها جداً ، وعلى الدوام ، أن تسمعها ، أنني كنت أقف الى

جانب الشعوب في وجه البعثات التبشيرية ، وأبيح لنفسي أن أفضّل وضعها السابق على الوضع الجديد ، وكانت تظل أبداً ودودة حليمة ، وكان يبدو أنها لاتنطوي على أدنى قلق عليّ وعلى خلاصي .

أما أنني كنت أبتعد شيئاً فشيئاً عن ذلك المذهب ، فكان مردّ ذلك الى أنني كنت قد سعيت الى الاحاطة به بجدّ بالغ الى درجة الإفراط ، وهوىً جامح . وكان ميلي الى رهبانيات الأخوة(١) يزداد أبداً منذ اقترابي من تلك الجماعة الّتي كانت تجتمع تحت راية انتصار المسيح . على أن لكل ديانة جاذبيتها العظمى حين تكون في طور النشوء . ولذلك فمن الممتع جداً أن نفكر في أيام الرسل حيث يتجلىّ كل شيء وهو بعد جديدٌ ناضر ، ومباشر . وقد كان لجمعية الأخوة في هذا الصدد شيء سحريّ بحيث كانت تبدو كأنها تستأنف ذلك الوضَع الأول ، بل تخلّده ، وكانت تربط أصلها بأقدم العصور ، ولم تفرغ قط من عملها . وكانت قد شقّت طريقها في العالم الفظّ ، في الزوايا المهملة منه فحسب ، أما الآن فقد أخذت عين مفردة ، تحت حماية رجل تقيّ فاضل(١) ، تضرب جذورها ، لتنتشر مراراً ، من بدايات غير ملحوظة ، تبدو كالمصادفات على نطاق واسع ، في أرجاء العالم . وكانت أهم النقاط في هذا الصدد هي أن القوم كانوا يزاوجون بين الدستور الديني والدستور المدني مزاوجة لاتقبل الانفصال ، بحيث كان المعلم يقوم مقام الحاكم في الوقت نفسه ، وكان الأب يقوم مقام القاضي في الوقت ذاته ، بل ان ما كان أكثر من ذلك هو أن الرئيس الكهنوتي الذي كان القوم قد محضوه ثقة مطلقة في الأمور الكهنوتية قد انتدب لادارة الشؤون الدنيوية ،

وكان جوابه يلقى أذناً صاغية عن طريق النطق بنتيجة الاقتراع ، سواء أكان ذلك متعلقاً بالبتّ في أمور الإدارة على وجه الإجمال أم في أمر كل فرد من الأفراد . وكان الهدوء الجميل ، كما يشهد عليه المظهر الخارجي على الأقل ، مغرياً الى أقصى الحدود ، اذ كانت رسالة التبشير ، من الناحية الأخرى ، تستغرق كل الطاقة الفاعلة الكامنة في الإنسان . وكان الرجال الأفاضل الذين تعرّفت عليهم في مَجْمع ما رينبورن(٢) الذي ذهب بي اليه المستشار موريتس(٣) وكيل أعمال الجـْراف فون ايسنبورج ، قد اكتسبوا كل تقديري ، وكان مما يتوقف عليهم وحدهم أن يجعلوني في زمرتهم ، واشتغلت بتاريخهم ، وتعاليمهم(٤) ، ومنشأها ، وتكوينها ، ووجدت نفسي في حال تتيح لي أن أقدم بياناً عن ذلك ، وأن أتحدث فيه الى المهتمين به ، ومع ذلك فلم يكن لي بدٌّ أن ألاحظ ان الإخوة كانوا يأبَوْن أن يعدّوني مسيحياً أكثر مما تعدني الآنسة فون كليتنبرج ، وذلك ما أقلقني أول الأمر ، على أنه بعث فيما بعد شيئاً من البرود في ميلي . ومع ذلك فقد لبثت زمناً طويلاً لاأستطيع العثور على الأساس الحقيقي للتمييز ، على الرغم من أنه كان واضحاً وضوح الشمس ، الى أن واجهني مواجهة المتصدي بطريق أقرب الى المصادفة منه الى البحث والتقصي . وذلك أن ما كان يفصلني عن جمعيات الأخوة ، مثلما كان يفصلني عن النفوس المسيحية النبيلة الأخرى ، انما كان هو الشيء ذاته الذي كانت الكنيسة قد انقسمت على نفسها من أجله غير مرة ، فقد كان فريق يزعم أن الطبيعة البشرية تفسد بالسقوط في الخطيئة الى درجة لايعود ممكناً عندها العثور على أدنى خير فيها ، حتى في أعمق نواة منها وأن على الإنسان ، من أجل ذلك ، أن يتنازل

عن طاقاته الخاصة تنازلاً مطلقاً ، وأن يؤمّل كل شيء من الرحمة وآثارها . أما الفريق الآخر فكان يطيب له جداً في الحقيقة أن يسلم بنقائص البشر الموروثة ، ولكنه كان يريد أن يسلم للطبيعة من الداخل ببرعم معين آخر يمكن له ، حين تبعث فيه الرحمة الالهية الحياة ، أن يترعرع متطوراً الى شجرة بهيجة للسعادة الروحية . وقد أشربتُ هذه القناعة الأخيرة حتى اعمق أعماقي من دون أن أعرف ذلك، على الرغم من أنني كنت قد اعتنقت النقيض بفمي وقلمي ، ولكني كنت أتخبطّ ، اذ لم أكن قد أفصحت قط عن المعضلة الحقيقية ، ومع ذلك فقد انتُزِعْتُ من هذا الحلم ذات مرة على نحو مفاجيء تماماً ، حين جهرت برأيي هذا المتناهي في البراءة ، كما كان يبدو لي ، في حديث روحيّ ، بصورة عفوية تماماً . وكان عليّ أن أحتمل من أجل ذلك موعظة تأنيبيّة كبرى ، وزعم القوم في مقابل ذلك أن هذه هي البيلاجيانية*(١) الحقة ، وأن من شؤم العصر الحديث بالذات أن هذه النظرية الهدامة توشك أن تنتشر من جديد ، واعترتني الدهشة من ذلك ، بل ذعرت ، ورجعت الى تاريخ الكنيسة ، ونظرت عن كثب في نظرية بيلاجيوس وسيرته ، ورأيت الآن بوضوح كيف تقلبت القرون بكلا هذين الرأيين اللذين يستحيل التوفيق بينهما ، بين مدّ وجزر ، وتقبّلهما الناس واعتنقوهما ، تبعاً لطبيعتهم الأقرب الى الفعل ، أو الأقرب الى المعاناة .

وكان كرّ السنين الماضية يستحثني بلا هوادة على تدريب طاقة خاصة ، وكان يضطرم في نفسي نشاط لايهدأ ، ومعه الارادة المثلى

---

(*) نسبة الى بيلا جيوس (٣٦٠ - ٤٢٠م) راهب بريطاني أنكر الخطيئة الأصلية وقال بحرية الارادة التامة . (المورد)

في البناء الأخلاقي . وكان العالم الخارجي يقتضي أن يُنظّم هذا النشاط ويستعمل لمنفعة الآخرين ، وكان عليّ أن أعالج هذا المطلب الكبير في نفسي ذاتها ، وكان اعتمادي على الطبيعة من كل الجوانب ، وكانت قد تجلّت لي في روعتها ، وكنت قد عرفت كثيراً جداً من البشر الصالحين الطيبين الذين كانوا يأخذون أنفسهم بالشدة في واجباتهم ، ومن أجل واجباتهم ، وبدا لي أنه ليس من الممكن أن أحرمهم ، بل أن أحرم نفسي ، وتبينّت لي الهوة التي تفصلني عن تلك النحلة . وعلى هذا فلم يكن لي بد من الانفصال عن هذا المجتمع ، ولما لم يكن من الممكن أن أُجرّد من ميلي الى الكتب المقدسة ، كذلك من ميلي الى المؤسس والمؤمنين الأوائل ، فقد اصطنعت لنفسي مسيحيّة من أجل استعمالي الخاص ، وسعيت ، عن طريق الدراسة الدؤوبة للتاريخ ، وعن طريق الملاحظة الدقيقة له ، والمتلائمة مع ذهني ، الى وضع أسسها وإقامة بنيانها .

ولكن لمّا كان كل ما تقبلته نفسي بالمحبة يتحول على الفور الى صيغة أدبية فقد بادرت الى خاطرة عجيبة ، وهي التناول الملحمي لقصة اليهودي الخالد(١) التي كانت قد انطبعت في ذهني منذ وقت مبكر من خلال الكتب الشعبية ، لأصور ، عن طريق هذا الخيط الموجّه الأساسي ، النقاط المتصلة بتاريخ الأدب والكنيسة ، بحسب واقع الحال . أما كيف اصطنعت الأسطورة لنفسي ، وما هو المغزى الذي رسمته من ورائها ، فذلك ما أنوي سرده الآن .

كان في القدس حذاء تطلق عليه الأسطورة اسم آهاسفيروس . وكان صاحبي الحذاء(٢) في درسدن قد زودّني بالملامح الأساسية من أجل هذا ، وكنت قد أضفيت عليه روح زميل له في الحرفة ،

الأحوال محيّا المتألّم في الوقت الحاضر ، بل كان محيّا ذاك الذي صفا صفاء رائعاً وهو يُشِعّ حياةً سماوية . ويصرف عينيه بعيداً وقد خطفت هذه الظاهرة بصره ، ويسمع هذه الكلمات : « أنت تتبدّل على الأرضين ، الى أن تعود الى رؤيتي من جديد في هذه الصورة » ولا يعود المذهول الى رشده إلاّ بعد بعض الوقت ، ويجد شوارع القدس خاوية ، اذ كان الناس جميعاً قد اندفعوا نحو ساحة المحكمة . ويدفع به الاضطراب والشوق قُدُماً الى الأمام ، ويشدّ الرحال .

وقد يكتب مرة أخرى عن هذا الحدث الذي تنتهي عنده القصيدة دون أن تُختَتم . وكان قد تم كتابة المطلع . ومواضع متفرقه ، والخاتمة . ولكن كان ينقصني الجمع . وكان ينقصني الوقت القيام بالدراسات الضرورية لكي أضفي عليه المضمون الذي كنت أرغب فيه . وكانت الأوراق القلائل أحرى أن تظل راقدة حين عبرت بي حقبة لم يكن لها بد من أن يُحاكَ نسيجها بالضرورة ، منذ أن رأيت «آلام فرتر» ورأيت آثارها بعد ذلك .

على أن مصير البشرية المشترك الذي لابد لنا نحن جميعاً أن نسهم فيه لابد أن يكون عبؤه أثقل ما يكون على أولئك الذين تتنامى طاقاتهم الذهنية في وقت أسبق ، وعلى نحو أوسع . فقد يعلو شأننا ونحن في حمى الأبوين والأقرباء ، وقد نستند الى الإخوة والأصدقاء ، وقد نتسلّى بالأصدقاء ، ونُسعَد بالأحبّاء ، وعلى هذا فالنهاية دائماً هي أن الانسان يرتدّ الى نفسه ويبدو أن الذات الالهية نفسها قد اتخذت من الانسان موقفاً لايمكن معه أن تقابل خشوعه وتوكلّه ، ومحبته ، دائماً ، وعلى الأقل في لحظة الحاجة الملحة ذاتها . وكنت قد عرفت ، وأنا بعدُ صغير بما فيه الكفاية ، في كثير جداً من الأحيان ، أن هاتفاً

يناديني في أحرج اللحظات قائلاً : «يا طبيبُ طبَّ لنفسك !(١)» . وما أكثر ما اضطررت أن اتنهّد صائحاً بألم : «سأدوس المعصرة وحدي» . ففي الوقت الذي كنت فيه أنظر حواليّ ، بعد توكيد استقلالي ، أجد أن موهبتي المثمرة انما كانت هي أضمن القواعد لهذا الاستقلال ، ولم يفارقني ذلك لحظة واحدة منذ عدد من السنين ، فما كنت أعيه وأنا يقظان في النهار كان يتكوّن في الليل ، حتى في مرات أكثر عدداً ، في أحلام نظامية . واذا فتحت عينيّ فاما أن يبدو لي كلّ جديد عجيب واما أن يبدو لي الجزءُ من موجود سابق . وكنت في العادة أكتب كل شيء في أكثر أوقات النهار بكوراً ، أما في المساء ، بل حتى ساعة متأخرة من الليل ، حين كان الخمر والأنس يزيدان في الحيوية والنشاط ، فكان في وسع المرء أن يطلب مني ما يشاء ، وانما كان الأمر يتوقّف على مجرد الفرصة التي تتسم ببعض السمات . وحينئذ أكون على أهبة الاستعداد . وحين أخذت الآن أفكر في هذه الموهبة الطبيعية ، ووجدت أنها تمتّ الي بصلة كاملة ، وأنها لايمكن أن تلقى تشجيعاً ، ولا إعاقة من قبل أي شيء خارجيّ ، بات في وسعي أن أقيم حياتي كلها ، بعد ذلك ، على الأفكار ، وأنا مسرور . وتحوّل هذا التصوّر الى صورة ، خطرت ببالي شخصية بروميثيوس(٢) الأسطورية القديمة التي عَمَرت ، بعد انفصالها عن الآلهة ، عالماً ، انطلاقاً من ورشتها . وكنت أشعر شعوراً صائباً حقاً أن ماله أهمية لايمكن انتاجه إلاّ حين يلجأ المرء الى العزلة ، ولقد كانت أشيائي التي لقيت قدراً كبيراً من الإعجاب ، من بنات العزلة . ومنذ أن دخلت مع العالم في علاقة أوسع لم تكن تنقصني طاقة الإبداع ، ولا متعتها ، ولكن التنفيذ كان يتعثر ، لأنني لم أكن أملك الأسلوب حقاً ، لا في

يبعث على الأسى . لقد رثيت لحالهم . وكان القدماء أنفسهم يقرّون بأن حالتهم مأساوية حتماً . وعندما عرضتهم في الخلفية من مسرحيتي «إيفيجينيا(١)» في صورة أعضاء معارضة هائلة كنت مديناً لهم حقاً بجزء من الأثر الذي أتيح لهذه المسرحية أن تحدثه .

ولكن الكتابة الأدبية والتصوير كانا يسيران لديّ في ذلك الوقت جنباً الى جنب دونما توقّف . فكنت أرسم صور أصدقائي(١) على طريقة الظل الجانبي (بروفيل) على الورق الأشهب بالطباشير الأبيض والأسود . وكنت حين أملي أو أوعز بالتلاوة عليّ ، أرسم بالخطوط العريضة أوضاع الكاتبين والقارئين مع ما يحيط بهم ، ولم يكن الشبه مما تخطئه العين ؛ وكانت اللوحات تلقى قبولاً حسناً ، وإنما يتمتع المتذوقون بهذه المزية دائماً لأنهم يقدمون أعمالهم بغير مقابل ، فقد كنت ، حين شعرت بما في هذا التصوير من القصور ، أعود أدراجي الى اللغة والإيقاع اللذين كانا يواتيانني على نحو أفضل . أمّا مقدار البهجة والسرور والهمّة التي كنت أنصرف بها الى العمل فذلك ما تشهد به بعض القصائد التي كانت على الدوام تبث فيّ من الشجاعة الجديدة مثلما تبث في أصدقائي في لحظة النشوء ، مُنْبِئةً عن طبيعة الفن وفن الطبيعة(٢) .

وحين كنت ذات مرة ، في هذه الحقبة ونحوها ، مشغولاً ، على ضوء محدود ، وأنا جالس في حجرتي التي كان البريق على الأقل يضفي عليها بذلك مظهر ورشة الفنان ، كما كانت الجدران فوق ذلك أيضاً تحمل المرء ، بما ثُبِّتَتُ عليها من أعمال غير ناجزة ، على أن يصدر حكماً مسبقاً بوجود نشاط كبير ، دخل عليّ رجل

نحيل معتدل القوام ، حسبته أول الأمر ، في الغسق الجزئي ، فريتس ياكوبي ، ولكن سرعان ما حيّيته تحية الغريب ، وقد تبيّن لي خطأي ، وكان في سلوكه العفوي المهذب مسحة عسكرية معينة لا تخطئها العين ، وذكر لي اسمه ، فون كنيبل(١) ، وعلمت من خلال مفاتحة قصيرة ، أنه أنشأ وهو في الخدمة البروسية ، في برلين وبوتسدام ، ومن خلال إقامة طويلة مع الأدباء والأدب الألماني على اطلاقه هناك ، علاقة حسنة مفعمة بالنشاط ، وكان يلزم جانب ملر(١) بصورة متميزة ، ويتبنى طريقته في انشاد القصائد . وكان أيضاً على اطلاع دقيق على كل ما كتبه جوتس(٢) الذي لم يكن له بعدُ اسم بين الألمان . وكان قد تم ، بتدبير منه ، طبع «جزيرة البنات» ، لهذا الأديب في بوتسدام ، ووصلت حتى الى أيدي الملك الذي يروى أنه أعرب عن تشجيعه لها .

ولم نكد نخوض في هذه الموضوعات الأدبية الألمانية بوجه عام حتى عرفت ماسرّني ، وهو أنه معيّن في الوقت الحاضر في فايمار ، وأنه مخصَّص في الحقيقة لمرافقة الأمير قسطنطين(٣) ، وكنت قد سمعت عن الأحوال هناك بعض الأمور المشجّعة ، اذ كان يأتينا من هناك كثير من الغرباء الذين شهدوا كيف استدعت الدوقة آماليا(٢) أعظم الرجال فضلاً لتربية أميرها ، وكيف اسهمت جامعة يينا بوساطة أساتذتها ذوي الخطر بدورها في هذا الغرض الجميل على النحو ذاته — وكيف أن الأميرة المذكورة لم تكن ترعى الفنون فحسب ، بل كانت هي ذاتها تمارسها ممارسة عميقة ونشيطة . وقد سمع القوم أيضاً أن فيلاند(٤) يتمتع بحظوة ممتازة ، مثلما أسهمت مجلة «دويتشه ميركور» ، التي جمعت أعمال عدد كبير من المثقفين الخارجيين ، اسهاماً غير

الوجهة حيناً وتلك الوجهة حيناً آخر ، تبعاً لنظام الحكم والديانة . وكان الناس يحاولون أن يستخلصوا الفروق بين كِلَيْهما بمزيد من الدقة . وقد تبيّن من خلال ذلك بالذات كم يكون من المفيد أن يكون المرء أنموذج جيد نصب عينيه يمكن ، اذا لم ينظر المرء في تفاصيله ، بل الى المنهج الذي وضعا وفقاً له ، أن يطبق على أشد الحالات تبايناً ، وأن يغدو ، بتأثير هذه الناحية ذاتها ، ذا منفعة قصوى في الحكم .

وعند المائدة استؤنفت هذه الأحاديث وأدّت الى حكم مسبق لصالحي أفضل مما كان يحتمل أن استحقه . ذلك لانني بدلاً من أن أتخذ تلك الأعمال التي كنت قادراً على تقديمها بنفسي ، موضوعاً للحديث ، وأن أطالب باهتمام لايتجزّأ ، بالمسرحية ، وبالرواية ، كان يبدو أنني أُفضّل ، من خلال موزر ، هؤلاء الكتاب الذين كانت موهبتهم تنطلق من الحياة العملية ، وتعود أدراجها لتصب في الحياة العملية ذاتها بصورة مباشرة وفورية ، ونافعة من جديد ، على حين لايمكن أن تجديَ الأعمالُ الشعرية التي تحوم حول الأخلاقيّ والحسيّ إلاّ بالاستطراد أو الانعطاف ، وعلى نحو يكاد يقتصر على المصادفة .

وكانت هذه الأحاديث تسير على شاكلة ألف ليلة وليلة ، اذ كانت المادة الهامة تتداخل في المادة الأخرى أو تتجاوزها . وكان بعض الموضوعات يحدث وقعاً مستحسناً من دون أن يفكر المرء في متابعته ، وكذلك أخذوا عليّ عهداً ، اذ لم يكن لإقامة الضيف أن تكون إلاّ قصيرة ، أن ألحق بهم إلى ماينتس ، وأقضي هناك بضعة أيام ، وهو الوعد الذي بذلته من كل قلبي وأنا مسرور ، وانطلقت بهذا الخبر السارّ الى البيت لأُنْبِئ به والديّ .

ومع ذلك فقد أبى والدي أن يرضى بذلك اذ كان يظل بمنأى عن العظماء ، نظراً لأفكاره الخاصة بالمواطنة . وعلى الرغم من أنه كان على صلة بوكلاء الأمراء والأسياد المجاورين فلم تكن له علاقة شخصية بهم بحال من الأحوال ، بل كانت قصور الأمراء من الموضوعات التي اعتاد أن يتندَّر عليها ، وأن كان لَيَسرُّه أيضاً أن يرى ما يُعرَض عليه من أشياء . إلاّ أنه لم يكن للمرء بدٌّ في هذا الصدد أن يكون ، فيما يبدو له ، حاضر البديهة ، وصاحب نكتة . وكنا اذا طبّقنا عليه القول المأثور ، « بعيداً عن جوبيتر ، بعيداً عن البرق » ، ولاحظنا مع ذلك أنه لايمكن ، في حالة البرق ، أن يكون ثمة حديث عن مورد ولا عن مصدر ، كان يورد القول المأثور القديم ، وهو أنه ليس من المستحسن أكل الكرز مع السادة الكبار ، وكنا نردّ بالقول ان مما هو أشد سوءاً أن يأكل المرء مع القوم الشَرِهين من سلّة واحدة . على أنه لم يكن يجحد هذا ، ولكن كان ثمة مَثَل آخر في متناول يده ، على نحو سريع ، يريد به أن يضعنا في مأزق حرج . ذلك لأنه لمّا كانت الأمثال والحِكَم الشعرية تصدر عن الشعب الذي لابد له ، على الأقلّ ، أن يلذّ له النُطق بها ، لأنه مضطر الى الامتثال لها ، على حين يعرف الكبار كيف يعوّضون أنفسهم عن طريق الفعل . ثم انه لما كان شعر القرن السادس عشر يتسم بالطابع التعليمي القوي بصورة مطلقة تقريباً لم يكن من الممكن أن يُفْتَقَد الجد والهزل في لغتنا ، وذلك ما مارَسَهُ الناس من أدناهم الى أعلاهم ، وكذلك كنا نحن معشر الشباب ، نتمرس بذلك ، من الأعلى الى الأدنى ، اذ كان يطيب لنا ، ونحن نتصور شيئاً عظيماً ، أن نتخذ مواقف العظماء الذين أسوق بعضاً من أقوالهم ، والردود عليها :

وكان يقع بين يديّ ، وأنا أجمع الأبيات الواردة آنفاً من صحائف المذكرات الصغيرة القديمة ، مزيدٌ من أمثال هذه التمارين التي كنّا نوسّع فيها حكماً ألمانية قديمة ، ونعارضها بعد ذلك بأمثالٍ أخرى تتحقّق ، على نحو مماثل في الجودة ، من خلال المعاناة ، وربما أمكن أن تقدم مختاراتٌ(١) منها ذات يوم باعثاً لذكرى بهيجة في صورة خاتمة لمسرحيات العرائس .

ومع ذلك فقد أبى والدي أن يتخلّى عن أفكاره بوساطة كل هذه الردود . وكان من عادته أن يدّخر أقوى حججه لخاتمة الحديث ، اذ كان يصوّر مغامرة فولتير(٢) مع فريدريش الثاني تصويراً مفصّلاً ، كيف اضمحلّت الحظوة الفائقة ، والألفة الحميمة ، والمودّات المتبادلة ، وتلاشت مرة واحدة . وكيف شهدنا مسرحية يُعتقل فيها ذلك الأديب والكاتب الممتاز من قبل جند مدينة فرانكفورت ، بناءً على طلب المقيم فرايتاج(٣) ، وبأمر محافظ المدينة فون فيشارد(٤) ، ويتم وقفه وقتاً طويلاً في فندق « تسور روزه » ، سجيناً — . وكان من الممكن الرّد على ذلك ببعض الاعتراضات ، ومن ذلك أن فولتير نفسه لم يكن بريئاً ، غير أننا كنا نستسلم في كل مرة بدافع الاحترام البَنَوِيّ .

ولما كان ثمة تلميح أيضاً الى أمثال هذه الأشياء وأشباهها ، فقد كنت لا أكاد أعرف كيف ينبغي لي أن أتصرف ، ذلك لأنه حذرني بطريقة لامواربة فيها ، وزعم أن الدعوة انما تمت لمجرد استدراجي الى فخ ، للانتقام مني لتلك الجسارة(٥) التي أقدمت عليها بحق فيلاند المتمتع بالحُظْوة . ومهما يكن من شدة إيماني بنقيض ذلك ، اذ كنت أرى بوضوح مفرط أن ثمة حكماً مسبقاً تثيره صور سوداويّة من

الأحلام ، بأن يبعث الخوف في نفس الرجل النبيل ، فانني لم أكن أريد أن أسلك سلوكاً مناقضاً لقناعته ، ولم أكن استطيع مع ذلك أن أجد ذريعة يحق لي بموجبها أن اتنصّل من وعدي من دون أن أبدو عاقاً سيّء الأدب . وكان من المؤسف أن صديقتنا فون كليتنبرج(١) كانت طريحة الفراش ، وهي التي دأبنا على الاعتماد عليها في أمثال هذه الحالات وقد كنت أجد فيها وفي أبي رفيقتين ممتازتين . وكنت أسميها دائماً مستشارة القول والفعل ، ذلك لأنها حين كانت تلقي نظرة مرحة ، بل مباركة ، على الأشياء الأرضية ، كان يتجلّى لها بسهولة فائقة ما كان يربكنا نحن أبناء الأرض الآخرين . وكانت تعرف كيف تدلّ على الطريق الصحيح في العادة ، وذلك لأنها كانت تطل على المتاهة من عل ، ولم تكن حبيسة فيها . ولكن لو أنّ المرء حزم أمره لاستطاع أن يعتمد على مروءة أمي ومقدرتها . فمثلما كان النظر يفيد تلك ، كان الإيمان يفيد هذه . ولما كانت تحتفظ بمرحها في كل الأحوال فانها لم تكن تفتقر قط أيضاً الى الوسائل المساعدة لإنجاز المقصود أو المرغوب . أما في الوقت الحاضر فقد بُعِثَ بها الى الصديقة المريضة لتعود برأيها ، وطُلِبَ اليها بعد ذلك ، اذا انحازت الى جانبي ، أن تحصل على موافقة الأب الذي تساهل عند ذلك أيضاً على الرغم من أن ذلك كان بغير اقتناع ، وعلى مضض .

وعلى هذا النحو بلغت مانيتس في فصل جد بارد من السنة ، في الساعة المحدّدة ، واستقبلت من قبل صاحبيَّ السيادة الشابين ومرافقيهما حسب الدعوة ، بمودة بالغة ، وتذكر القوم الأحاديث التي خضنا فيها في فرانكفورت . أمّا الأحاديث المبدوءة فقد استؤنفت . ولما تطرّق الحديث الى أحدث أشكال الأدب الألماني وألوان جرأته كان من

المناسب بصورة كاملة أن يتطرّق الحديث أيضاً الى تلك المسرحية المشهورة «آلهة وأبطال ، وفيلاند(١)» حيث أبديت في البداية على الفور ، وأنا مسرور ، ملاحظةً مفادها أن الناس قد نظروا الى المسألة نظرة الأنس والمرح ، ولكني تعرضت لحافز يحفزني الى رواية كيف سارت الأمور في الحقيقة بهذا المقلب الذي أثار كل هذه الضجة الكبرى . وعلى هـذا لم أستطع أن أجد مندوحة عن الإقرار قبل كل شيء بأننا لا نعرف حدوداً الهوى ، ولا نعرف حدوداً الجفاء من حيث كوننا ننتمي الى أعالي الراين حقاً . وكان تقدير شكسبير يصل عندنا الى حد العبادة (٢) . وكان فيلاند ، في مقابل ذلك ، ينحي باللائمة على الكاتب الكبير في كثير من الأمور اذا كانت لسمته البارزة الخاصة بافساده على القراء اهتمامهم ، وتكديره صفو حماستهم ، في هوامش ترجمته ، وذلك بطريقة كانت تبعث على استيائنا الى أقصى الحدود ، وتهوّن في نظرنا من شأن عمله ، فبتْنا نرى فيلاند الذي كنا نُكْبِرُه أديباً ، والذي أجدى علينا مترجماً الى حد بعيد ، مزاجياً في النقد ، وأُحادِيَّ النظرة ، وغير منصف . وأضيف الى ذلك أنه كان يجاهر بعداوته لأنصاف آلهتنا وأبطالنا الإغريق ، ويزيد بذلك من حدة ارادتنا السيئة تجاهه . ومن المعروف بقدر كاف أن الآلهة والأبطال من الإغريق لم يكونوا يستندون الى سمات أخلاقية بل الى سمات جسدية جلية ، ومن أجل ذلك كانوا يقدمون الفنان صوراً بالغة الروعة . أمّا الآن فقد صور فيلاند في «ألْسيست» أبطالاً وأنصاف آلهة على النمط الحديث ، وذلك ما لم يكن لأحد أن يعترض عليه بشيء ، لأن من حق كل امرىء أن يعدّل التقاليد الشعرية تبعاً لأغراضه ونمط تفكيره ، ولكنه بدا لنا ، في الوسائل التي أدرجها في «الميركور» حول الأوبرا

المذكورة ، أنه يبرز هذا الأسلوب في المعالجة بطريقة مفرطة في التحامل ، ويقترف الآثام بطريقة غير مسؤولة بحق الأفاضل من القدماء وأسلوبهم الأمثل ، اذ كان يأبى أن يعترف بحال من الأحوال بالطبيعة المتسمة بالصحة والعافية والخشونة ، والتي تكمن في أساس تلك الأشكال من النتاج . ولم نكد نفرغ من النقاش في هذه المتاعب ، في رهطنا الصغير ، بطريقة حماسية ، حتى انتابتني الحُمياّ المعتادة ، المتمثلة في مَسْرَحَة كل شيء ، ذات يوم من أيام الآحاد بعد الظهر ، ودوّنت ، على زجاجة من البورجنديّ الجيدّ ، المسرحية كلها ، كما هي الآن ، في جلسة واحدة . ولم تكد تُقْرأ على رفاقي الحاضرين ويتلقونها باستحسان كبير ، حتى بعثت بالمخطوطة الى ليتنس في شتراسبورج ، حيث بدا هذا مفتوناً بها أيضاً ، وقال انه لابد من طباعتها فوراً . وبعد بعض الرسائل الصادرة والواردة سلّمتُ بذلك ، ودفع بها الى المطبعة في شتراسبورج . ولم أعرف إلاّ بعد زمن طويل أن هذا كان من أوائل خطوات ليتنس التي كان ينطوي معها على رغبة في الإضرار بي وتشويه سمعتي لدى الجمهور ، وهو الأمر الذي ما كنت لأحسّ بشيء منه أو أقدره في ذلك الزمان .

وعلى هذا النحو كنت قد حدثت أولياء نعمتي الجدد ، ببساطة متناهية ، وبصورة مسبقة ، عن هذا الأصل البريء المسرحية ، على قدر ما كنت أعرفه أنا ، وأفضيت اليهم ، لأقنعهم كل الإقناع ، بأنه لاوجود هنا لشخصية ما ، ولا لمقصد آخر ، وذلك بالطريقة المضحكة والجريئة التي دأبنا على اتخاذها التهكم والسخرية فيما بيننا . . وعلى أثر ذلك رأيت النفوس وقد عاد اليها إشراقها الكامل ، وأعجب

التوم بنا الى حد ما ، اذ كنا ننطوي على كل هذا القدر من الخوف . فقد ينام أي امرىء على إكليل غاره . وكان التوم يقارنون مثل هذه الزمرة بأولئك القراصنة(١) الذين يخشون في لحظة ما أن يسترخوا بتأثير الراحة ، ومن أجل ذلك يطلق قائدهم . حين لايكون هناك أعداء ولا شيء يغيرون عليه . مسدساً تحت مائدة الطعام . لكيلا يخلو الأمر من الجراح والآلام ، حتى في السلام . وبعد بعض الأخذ والرد في هذا الموضوع حفزني آخر الأمر حافز الى أن أكتب كتاباً وديّاً(٢) الى فيلاند . فانتهزت الفرصة لذلك ، اذ كان قد أعلن في «الميركور(٣)» تحرره الشديد من هذه النزوة الصبيانية وسلك آخر الأمر سلوكاً ينم عن الكياسة مثلما كان يفعل في خصوماته الأدبية .

وانقضت الأيام القلائل من الإقامة في ماينتس على نحو ممتع جداً . وذلك لأنني كنت حين يُحتَبَسُ أولياء النعمة الجدد بالزيارات والمآدب خارج البيت أظلُّ عند ذويهم ، فأرسم بعضهم ، وأتزلّج على الجليد أيضاً حيث كانت خنادق الحصون المتجمّدة تتيح لذلك أفضل الفرص . وعدت أدراجي الى الدار وقد أترعت بالخير الذي أصابني هناك ، وكنت أوشك أن أخفّف عن نفسي العبء بالسرد المفصّل . ولكنني لم أجد إلاّ وجوهاً متكدّرة ، ولم يبق خافياً عليّ وقتاً طويلاً أن صديقتنا كلتنبرج(٤) قد رحلت عنّا ، وتأثرت لذلك تأثراً شديداً اذ كنت في حاجة اليها وأنا في حالتي الراهنة أكثر من ذي قبل ، وروى لي التوم ، ليهدئوا روعي ، أن وفاة كوفاة الأتقياء أعقبت حياتها المباركة . وأن إشراقها المبنيّ على الإيمان ظل بغير كدر حتى النهاية . وكان مايزال هنالك عقبة أخرى تقف في طريق الإفضاء الحرّ . وذلك أن والدي تمسك بموقفه بدلاً من أن

يُسَرَّ بالمخرج الحسن لهذه المغامرة الصغيرة ، وزعم أن هذا كله لايعدّ من ذلك الجانب إلاّ تظاهراً ، وأن القوم ربما كانوا يفكرون ، فيما يلي ذلك ، بالاقدام على شيء أكثر سوءاً تجاهي . ولذلك انطلقت بقصتي الى الصديقين الشابين اللذين لم أستطع بالطبع أن أفضي اليهما بالمسألة على نحو مفصّل بما يكفي . ولكن نتيجة فائقة الإزعاج بالقياس الى نجمت هنا أيضاً عن الهوى والارادة الطيبة . فقد ظهر بُعَيْد ذلك منشور بعنوان «بروميثيوس» ونقّاده (١) ، في قالب مسرحي أيضاً ، وقد نفّذ فيه كاتبه خاطرة ساخرة ، وهي أنه وضع ، بدلاً من أسماء الأشخاص تماثيل صغيرة منقوشة من الخشب ، في ثنايا الحوار . وأشار ، بصور ساخرة شتى ، الى أولئك النقّاد الذين كان قد سُمع عنهم كلامٌ عليّ في أعمالي وما يتصل بها . فهنا كان فارس العربة الألتونية ينفخ في البوق بغير رأس ، وهنا كان دبّ يزمجر ، وهناك كانت إوزّة تقرقر ، ولم يكن عطارد بالمنسّي ، كما كانت بعض المخلوقات البريّة والأليفة تحاول ان تضلل المصور في ورشته ، على انه يستأنف عمله من دون ان يلاحظ شيئاً على وجه الخصوص في هذا الصدد ، ولا يلتزم الصمت كما كان ينوي ذلك على وجه الاطلاق . وقد لفت نظري هذا المُزاح المنبثق على غير توقّع ، اذ كان لابد أن يكون ، تبعاً للأسلوب واللهجة ، صادراً عن واحد من رهطنا ، بل كان المرء خليقاً أن يعدّ الكتيّب من عملي الخاص ، ولكن كان من أشد الأمور إزعاجاً لي أن بروميثيوس تفوّه ببعض ماله صلة بالإقامة في ماينتس(٢) ، والتصريحات التي جرت هناك ، وما كان من المفروض الا يعرفه في الحقيقة أحد سواي ، ولكن ثبت لي أن المؤلف من أولئك الذين كانوا يشكلون الدائرة الأضيق حولي . والذين

سمعوني أروي تلك الأحداث والتفاصيل باسهاب . وكان كل منهم يشتبه بالآخرين . أما الكاتب المجهول فقد عرف كيف يتقن التنكّر ، وطفقت أشتمه بعنف شديد ، اذ كان مما يبعث على استيائي الى أقصى الحدود أن أرى هنا ، بعد هذا القبول الحسن الغاية ، والحديث البالغ الأهمية ، وبعد رسالتي الحميمة المكتوبة الى فيلاند ، بواعث من جديد لسوء ظن مرة أخرى . ومنغصات جديدة . ومع ذلك فلم يستغرق الارتياب في ذلك وقتاً طويلاً . ذلك لأنني عندما كنت أتلو الكتيّب في حجرتي ، وأنا أسير جيئة وذهاباً ، تناهى الى مسمعي ، من خلال الخواطر والالتفتات ، بوضوح تام ، صوت فاجنر(١) ، وكان هو ذاته أيضاً . وذلك أنني حين وثبت نازلاً الى أمي ، وأفضيت اليها باكتشافي ، اعترفت لي أنها تعلم ذلك . وكان الكاتب الذي أوجس خيفة من النجاح السيء مع توفّر نية حسنة وجديرة بالثناء الى هذا الحد ، كما كان يبدو له ، قد كشف عن نفسه لها ، ورجا منها الشفاعة ، لكيلا يتحقق تجاهه وعيدي الذي أطلقته ، وهو أنني لن أصحب الكاتب بسبب سوء استعمال ثقتي . وكان مما أجدى عليه كثيراً هنا أنني اكتشفت الأمر بنفسي ، وأن مزاجي اتجه نحو المصالحة بتأثير الارتياح الذي يرافق كل اكتشاف خاص . وتم الصفح عن الخطأ الذي أتاح الفرصة لمثل هذا الاثبات لمقدرتي على الكشف ، ولم يكن من اليسير في هذه الاثناء اقناع الجمهور(٢) أن فاجنر هو المؤلف ، وأنني لم يكن لي يد في تلك اللعبة ، ولم يكن الناس ليسلموا له بذلك التعدد في الجوانب ، لأنهم لم يكونوا يحسبون أنه محيطٌ بكل ما يجري التندّر به والخوض فيه ، وملاحظٌ له ، وأنه قادر على تصويره بطريقة معروفة ، تصويراً لائقاً من دون أن يحوز من اجل ذلك على موهبة فائقة ، وهكذا فقد

كان عليَّ ألاّ أكفّر عن حماقاتي الخاصة وحدها ، بل عن طيش اصدقائي وتسرّعهم هذه المرّة ، وفيما يليها ، في كثير جداً من الأحيان أيضاً .

ولمّا كان عدد من التفاصيل المتوافقة يذكّرني فأنا أريد أن أذكر بعض الرجال ذوي الأهمية الذين أقام فريق منهم في بيتنا ، في أوقات متباينة ، مروراً في أثناء رحلاتهم ، وتلقّى فريق منهم ضيافتنا الودّية . ولا ريب أن في طليعة هؤلاء كلوبشتوك(٣) ، وكنت قد تبادلت معه عدداً من الرسائل حين أوضح لي أنه مدعوٌّ الى الذهاب الى كارلسروهه ، والإقامة هناك ، وأنه سيصل في الوقت المحدد الى فريدبرج ، وأنه يرغب أن ألحق به الى هناك . ولم أقصّر في الحضور في الساعة الملائمة ، ولكنه كان قد تعرّض لإعاقة في طريقه بالمصادفة . وبعد أن انتظرت بضعة أيام عبثاً عدت أدراجي الى البيت حيث وصل بعد بعض الوقت فحسب ، واعتذر عن تخلّفه في الخارج ، وأعرب عن تقديره الفائق لتأدّبي التائه ، وكان شخصه ضئيلاً ولكنه حسن البنية ، وكان سلوكه يتسم بالجد والرصانة من دون أن يكون جافاً ، وكان حديثه متزناً وممتعاً. وعلى الإجمال كان في حضوره شيء من حضور الدبلوماسي . ومثل هذا الرجل يتصدى للمهمة الصعبة ، وهي توطيد مكانته الخاصة ، ومكانة من هو أعلى منه ، ومن لابدّ أن نحسب له حساباً في الوقت ذاته ، وأن يرعى مصلحته الى جانب مصلحة الأمير التي هي أهم منها كثيراً ، بل مصلحة دول بأسرها . وكان قبل كل شيء يحظى بمرضاة الناس في هذا الوضع الحرج . وكذلك كان كلوبشتوك يبدو في سلوكه رجلاً له شأنه ، ممثلاً لهيئات عليا ، وللدين ، وللأخلاق ، والحرية . على أنه كان يتحلى أيضاً بسمة أخرى من سمات أهل الدنيا ،

وهي أنه لايتحدث بسهولة عن أشياء ينتظر المرء الحديث عنها بالذات ويرغب فيه . أما الأشياء الشعرية والأدبية فقلّما كان الناس يسمعونه يتحدث عنها. ولكن لمّا كانقدوجد فيّوفي أصدقائي متزلجين(١) متحمسين فقد جعل يتحدث إلينا حديثاً مستفيضاً حول هذا الفن الرفيع الذي قلّب النظر فيه تقليباً عميقاً ، وأحسن تقدير ما يجب التماسه في هذا الصدد وما يجب اجتنابه . ومع ذلك فقبل أن نتمكن من الأخذ بحظّنا من تعليمه المبنيّ على الهوى كان لابد لنا أن نتقبّل التوجيه الخاص بالمصطلح ذاته الذي قصَّرنا في حقه . وذلك أننا كنا نتحدث بالألمانيه الفصحى الخاصة بالمناطق العليا عن فعل التزلّج (Schlittschuhen) ، وكان هو يأبى أن يقرّ ذلك على الاطلاق ، لأن الكلمة لاتأتي أبداً من الزلاجة ، أي كأنّ المرء ينطلق على قضبان الزلاجة الخشبية الصغيرة ، بل من الخَطْو ( Schritt ) ، اذ يخطو المرء ، على غرار الآلهة الهوميريين ، على هذه النعال المجنّحة فوق البحر المتحول الى أرض ، والآن وصل الأمر الى الآلهة ذاتها فقد كان يأبى أن يعترف بنعال الخطو ( Schrittschuhen ) العالية المصقولة صقلاً تجويفيّاً ، بل كان يوصي بقطع الفولاذ الواطئة العريضة المصقولة صقلاً مستقيماً منبسطاً على أن هذا هو الأجدى في العَدْو السريع . أما الأعمال الفنية التي دأب القوم على أدائها مع هذا التمرين فلم يكن لها صديقاً . ودبّرت لنفسي ، حسب وصيته ، زوجاً من الأحذية المسطحة ذات الأعواد الطويلة المعقوفة واستخدمته كثيراً من السنين على الرغم من بعض الإزعاج . وكان يعرف أيضاً كيف يدلي بدلوه في الحديث عن الفروسية الفنية وإعداد الخيل ، ويفعل ذلك بسرور . وكذلك كان يرفض عن قصد ، كما كان يبدو ، الحديث

عن مهنته الخاصة في العادة ليتحدث عن الفنون الأخرى التي يمارسها على سبيل الهواية بمزيد من الطلاقة . وقد كان في وسعي أن أذكر المزيد بعدُ عن هذه وغيرها من سجايا الرجل الممتاز لولا أن أناساً عاشوا معه زمناً أطول سبق أن أطلعونا من ذلك على ما يكفي(١) . غير أني لا أستطيع أن أصرف نفسي عن ملاحظة واحدة ، وهي أن أولئك الذين حبتهم الطبيعة بمزايا فائقة ، ولكنها وضعتهم في مجال من مجالات التأثير ضيق ، او غير متناسب معهم على الأقل ، يقعون في العادة في امور غريبة ، واذا كانوا لا يتمكنون من الاستعمال المباشر لمواهبهم فانهم يحاولون تكريسها بطرق غير عادية وعجيبة .

وكذلك كان تسيمرمان(٢) ضيفنا حيناً من الزمن . وكان هذا الذي يمتاز ببنية طويلة وقوية ، وطبيعة تتسم بالعنف والاستقامة ، متحكماً في مظهره وسلوكه كل التحكم بحيث كان يظهر في المصاحبة طبيباً من رجال الدنيا ، ولم يكن يطلق العنان لشخصيته التي تستعصي على الضبط من الداخل إلاّ في الكتابات وفي المخالطة الحميمة . وكان حديثه متعدد الجوانب ينطوي على اطلاع فائق . واذا استطاع المرء ان يغفر له انه كان يحس احساساً مسبقاً ، وبحيوية كبيرة ، بنفسه وبشخصيته ، وبأياديه ، لم يكن من الممكن ان توجد صحبة تنزع اليها النفس اكثر من صحبته . ولمّا لم اكن مصاباً قطّ بهذا الذي يسميه الناس غروراً،وكنت اسمح لنفسي في مقابل ذلك أيضاً، أن أكون مغروراً من جديد ، وهذا يعني أنني أبادر ، غير عابىء ، إلى إبراز ما كان يسرني من نفسي ، فقد انسجمت معه الى حد بعيد . وكنا نسمح لأنفسنا بتبادل الإطراء واللوم ، ولمّا كان يثبت أنه صريح يفصح عما لديه فقد عرفت كثيراً جداً عنه في أجل قريب .

ولكن اذا كنت أحكم على الرجل حكم الشاكر الممتن ، وذي الارادة الطيبة والمتعمق ، فلا يجوز لي أن أقول ذات مرة انه كان مغروراً فنحن معشر الألمان نفرط كثيراً في اساءة استعمال كلمة «مغرور» : ذلك لأنها تحمل معها في الحقيقة مفهوم الفراغ . والناس يشيرون بذلك بالبداهة ، الى من لايستطيع أن يكتم سروره بخوائه ، ورضاه بحياته الجوفاء . أما تسيمرمان فكان على النقيض من ذلك تماماً ، اذ كانت له مآثر عظمى ، ولم يكن يتمتع بالارتياح الباطني . على أن من لايستطيع أن يقرّ عيناً ، بهدوء ، بمواهبه الطبيعية ، ومن لايستطيع أن يخرج من ممارسة تلك المواهب بمكافأته ذاتها ، بل ينتظر ويؤمّل أولاً أن يعترف الآخرون بما أنجز ويقدروه التقدير اللازم ، فسيجد نفسه في وضع سيء ، لأن من المعروف جداً أن الناس لايجودون بالاستحسان إلاّ على نحو ضئيل جداً الى حد يكدر الثناء ، بل يحوله ، اذا ما كان مُجدياً الى حد ما ، الى لوم . ومن خرج على الملأ من دون أن يكون قد اتخذ أهبته لذلك لايستطيع أن يتوقع شيئاً سوى الاستياء. ذلك لأنه حتى حين لايقدّر ما يصدر عنه فوق قدره فانما يقدره مغالياً بلا ريب ، وكل تَقَبُّل نجده في الدنيا فانما هو مقيد أو مشروط . ثم ان الثناء والاستحسان يقتضيان الاستعداد التقبل . شأنهما في ذلك شأن كل متعة ، وليطبق المرء هذا على تسمّرمان ، وسيضطر الى أن يعترف : ان مالا يأتي به المرء معه لايستطيع أن يحصل عليه .

ولو أن المرء أبى أن يقيم وزناً لهذا التبرير لكنّا أقلّ من ذلك بعدُ مقدرة على أن نبرر لهذا الرجل الذي يلفت النظر خطيئة أخرى ، لكن سعادة آخرين تفسد بذلك بل يُقضي عليها . وكان ذلك سلوكه حيال أولاده . وذلك أن ابنة له(١) كانت مسافرة معه تخلّفت عندنا

حين كان يتفقّد بعض الجيران . وربما كانت في نحو السادسة عشرة . وكانت على نحولها وحسن قوامها تظهر بغير زينة . وكان وجهها ذو الملامح العادية خليقاً أن يكون مستعذباً اذا ما تجلّت فيه مسحة من الاهتمام . ولكنها كانت تبدو دائماً ساكنة كالصورة . وكان من النادر أن تفصح عما في نفسها . أما في حضور أبيها فلم تكن تفعل ذلك أبداً . ولكنها لم تكد تخلو بضعة أيام الى أمي وتتقبّل الحضور المشرق الساحر لهذه السيدة المُواسِيَة حتى ألقت بنفسها على قدميها ، بقلب مفتوح ، ورجت منها ، مع آلاف الدموع ، أن تمسكها لديها ، وأعلنت اليها بأشد ضروب التعبير حرارة ، أنها تريد أن تمكث في البيت خادماً أو أَمَةً طوال حياتها ، لا لشيء إلاّ لكيلا تعود الى أبيها الذي لايستطيع المرء أن يتصور قسوته وطغيانه . وقالت ان أخاها قد جنّ من هذه المعاملة . وأنها احتملت هذا بشقّ النفس طوال هذا الوقت لأنها كانت تعتقد أن الأمر لا يختلف عن ذلك في أية عائلة ، أو أنه ليس بأفضل كثيراً . ولكنها حين خَبَرت معاملةً فيها كل هذا القدر من الرفق والبشاشة والعفوية تحول حالها الى جحيم حقيقي . وكانت أمي في حالة من التأثر الشديد حين نقلت اليَّ هذا الفيض العاطفي الغامر ، حتى لقد بلغ من ذلك أنها أفهمتني بطريقة لا لَبْسَ فيها أنها ستكون راضية حقاً بأن تحتفظ بالبُنَيّة إذا استطعت أن أقرر الزواج منها ، وأجبت بالقول : « لو كانت يتيمة لأمكن التفكيرُ في ذلك والبحث فيه ، ولكني أعوذ بالله من حَمٍ كهذا الأب ! » وقد بذلت أمي كثيراً من الجهد لدى هذه البُنَيَّة الطيبة ، على أن ذلك لم يكن يزيدها إلاّ تعاسة مطردة ، ووجد القوم آخر الأمر مخرجاً آخر ، وهو أن يجعلوها في فندق عائلي ، على أنها لم تعمّر طويلاً .

وما كنت لأذكر هذه الخصلة المعينة في رجل من ذوي الفضل لولا أن الحديث العلني تطرق اليها(١) ، وذلك حين جعل القوم يذكرون بعد موته السوداوية التعيسة التي كان يعذب بها نفسه والآخرين في ساعاته الأخيرة . ذلك لأن تلك القسوة على أبنائه كانت هي أيضاً سوداوية . بل جنوناً جزئياً . وقتلاً معنوياً كان يتجه به ، بعد أن ضحّى بأولاده ، نحو نفسه ذاتها آخر الأمر . غير أننا نريد أن ندخل في الحسبان أن هذا الرجل الذي كان يبدو على هذا القدر من التماسك انما كان يعاني في أفضل سنواته ، وأن أذىً جسدياً كان يعذب الطبيب البارع عذاباً لا يُرجى له بُرء ، وهو الذي أسعف الكثيرين من المرضى في الماضي البعيد والقريب . أجل ، لقد كان هذا الرجل الطيب يعيش ، مع ما كان عليه من المظهر الخارجي ، والمجد والشرف ، والمكانة والثروة ، أشدّ أشكال الحياة كآبة ، ومن أراد مزيداً من الاطلاع على ذلك ، من المنشورات المطبوعة الموجودة ، فلن يلعنه ، بل سيرثي له .

ولكن اذا كان المرء ينتظر مني أن أقدم بياناً أكثر تفصيلاً عن أثر هذا الرجل الهام عليّ فليس لي بدّ من أن أتذكر ذلك العصر مراراً بوجه عام .

لقد كان العصر الذي كنا نعيش فيه عصراً يمكن للمرء أن يسميه العصر الكثير المطاليب : ذلك لأن المرء كان يطرح على نفسه ، وعلى الآخرين مطاليب لم يسبق لإنسان أن أدّاها . وذلك أنه كانت قد لمعت في النفوس الممتازة ، المفكرّة والحسّاسة ، خاطرة مؤداها أن النظرة الأصيلة المباشرة المبنيّة على الطبيعة ، والسلوك المؤسّس عليها

هي أفضل ما يستطيع المرء أن يمنّي نفسه به ، وأن الوصول اليهما ليس بالصعب إطلاقاً . واذاً فقد كانت المعاذاة مراراً هي مفتاح الحل العام . وكان كل امرىء يفتح عينيه على قدر ما يستطيع ، غير أن الحقيقة هي أن الأطباء هم الذين كان لديهم السبب أكثر ممن عداهم للإلحاح في ذلك ، وقد سنحت لهم الفرصة لكي يعدّلوا أنفسهم تبعاً لذلك . وهنا كان يضيء لهم من زمن قديم نجم كان في وسعه أن يكون مثالاً لكل ما يتمنى المرء . وكانت الأسفار التي تصل الينا تحت اسم هيبو قراطس الكوسي(١) تقدم الأنموذج الكيفية التي ينبغي للإنسان أن ينظر بها الى العالم ، وينقل ما يحدث من دون أن يتدخّل هو فيه ؛ ولكن أحداً لم يكن يحسب أننا لانستطيع أن نرى كما يرى الإغريق ، وأننا لن نكتب الأدب ، ولن نصوّر ، ولن نشفي ، كما يفعلون . ولكن اذا سلّمنا أيضاً بان المرء يستطيع أن يتعلّم منهم فقد تحقّقت في هذه الأثناء معرفة ما لا نهاية لكثرته بنقاء عظيم ، وما أكثر ما تكوّنت الخبرات تبعاً للآراء ، ولكن كان على المرء أن يعرف هذا أيضاً . وأن يميّزه ويغربله ، وانه لمطلب هائل مرة أخرى . ثم كان على المرء أيضاً أن يتعرّف على الطبيعة المكتشفة وهو يقلّب النظر حواليه ، ويتصرف شخصياً ، كما لو كان ينظَر اليها وتعالج أوّل مرة . وكان من الواجب هنا ألاّ يتحقق إلاّ الأصيل والحق . ولكن لمّا لم يكن من الممكن تصوّر ثقافة على الإطلاق بغير تاريخ متعدد الجوانب ، وتخلق ، وكان من العسير تصوّر الممارسة بغير تجريب وتهريج ، فقد نشب صراع عنيف في الوقت الذي كان على المرء فيه أن يعزل سوء الاستعمال عن الاستعمال العادي وأن يحظى اللباب بالغلبة على القشور . وحين خطا القوم الآن أيضاً خطوات نحو الممارسة رأوا

أن من الممكن أن يخلصوا من المسألة آخر الأمر من أقصر طريق حين يستعينون بالعبقرية التي من شأنها أن تسوّيَ النزاع بموهبتها السحرية . وأن تنجز المطاليب . وكان العقل في هذه الأثناء يتدخل في المسألة أيضاً ، اذ كان ينبغي لكل شيء أن يوضع على أساس مفاهيم واضحة ، وأن يعرض في قالب منطقي اجتناباً لكل حكم مسبق ، والقضاء على كل خرافة . ولما كان بعض الناس الممتازين ، مثل بورهافه(١) ، وهالر(٢) قد أنجزوا مالا يصدّق فقد كان يبدو أن من حق الناس أن يطلبوا من تلاميذهما وخلفائهما ما هو أكثرُ بعد ، وكان الناس يزعمون أنْ قد تمّ شق الطريق في الوقت الذي كان من النادر فيه أن يمكن الحديث عن الطريق . ذلك لأنه مثلما يتجمع الماء الذي تزيحه السفينة من جديد منسكباً وراءها ، فكذلك تنعقد عروة الخطأ بعد أن تكون العقول الممتازة قد أزاحته جانباً ، وهيّأت لنفسها مكاناً ، وراءها بسرعة كبيرة من جديد ، بحكم الطبيعة .

ولكن تسمّرمان الطيب لم يكن يريد أن يكوّن لنفسه تصوّراً عن ذلك ، اذ كان يأبى أن يقرّ أن العبث يملأ الدنيا في الحقيقة ، وكان ينطلق مهاجماً كل مايراه باطلاً ، وقد بلغ به الضيق سَوْرَة الغضب . وكان يستوي عنده أن يتشاجر مع الممّرض أو مع باراسيلسوس ومع جرّاح المثانة أو مع أهل الكيمياء الطبيعية ، اذ كان يطعن هنا مثلما يطعن هناك . وكان اذا استنفد جهده بالعمل حتى ينْبَهِر نَفَسُه أخذه العجب الفائق لأن كل رؤوس هذه الهيدرا * التي كان يعتقد أنه داسها بقدميه لم تلبث أن عادت نبضاتها الكاملة ، مكشّرة عن أنيابها من أعناق لا تحصى .

---

(*) أفعوان خرافي ذو تسعة رؤوس قتله هرقل ، كلما قطع رأساً نبت محله رأسان جديدان « المورد »

من يقرأ كتبه ، ولا سيما عمله البارع «حول المعاناة» فسيتبيّن له ، بصوره أكثر تحديداً ، ما بيني وما بين هذا الرجل الممتاز . وهو مالم يكن له بد أن يؤثر عليّ تأثيراً أقوى ، اذ كان يكبرني عشرين عاماً . ولمّا كان طبيباً مشهوراً فقد كان يتمتع بالأفضلية في العمل لدى الطبقات العليا . وهنا كان الحديث يدور في كل لحظة عن فساد الزمن بفعل الاسترخاء والترهّل والافراط في الملذّات . وعلى هذا النحو أيضاً كانت أحاديثه الطبّية ، شأن أحاديث الفلاسفة وأصدقاء الأدباء ، تحملني على العودة من جديد الى الطبيعة . أما حُمَيّا الإصلاح العارمة فلم أكن استطيع أن أشاطره أيّاها مشاطرة كاملة ، بل سرعان ما انسحبت ، بعد انفصالنا ، عائداً أدراجي الى مادتي الحقيقية ، وأخذت أحاول استعمال المواهب التي اسبغتها عليّ الطبيعة ، بجهد معتدل ، وفي تعارض هزليّ مع ما لم أكن أُقِرُّه ، لكي أفسح لنفسي بعض المجال ، وأنا غير عابىء بالمدى الذي يمكن أن تصل اليه آثاري ، وما عسى أن تفضي بي اليه .

وكذلك مرّ بنا فون ساليز(١) الذي أنشأ في مارشلينز المؤسسة الفندقية العائلية الكبرى ، وهو رجل رصين حصيف لابدّ أن يكون أدلى في الخفاء ، بملاحظات عجيبة الى الحد الأقصى . عن نمط الحياة المتسم بجنون العبقرية ، والخاص بزمرتنا الصغيرة . وربما لَقِيَ الشيء ذاته سولتسر(٢) الذي اتصل بنا في رحلته الى جنوب فرنسا ، وثمة موضع على الأقل في وصف رحلته ، يبدو أنه يُلمح الى ذلك ، اذ يذكرني فيه .

على أن هذه الزيارات التي تتساوى متعتها مع فائدتها كانت متداخلة مع تلك الزيارات التي ربما كان المرء يودّ لو يرفضها .

فقد كان ثمة مغامرون فقراء ، فاقدو الحياء يتجهون الى الشاب الأليف المؤانس ، ويدعمون بمطاليبهم الملحة عن طريق صلات التربى . وسيَر الحياة الحقيقية منها والمزعومة . وكانوا يقرضونني المال، ويضعونني في حال أضطر معها إلى الاقتراض من جديد ، حتى دخلت مع الاصدقاء الأثرياء ذوي المقاصد الحسنة في هذا الصدد، في علاقة هي من الإزعاج في غايته . ولئن كنت أتمنى أن يذهب هؤلاء الثقلاء غنيمة لكل جوارح الطير فقد كان والدي يشعر كذلك أنه في وضع تلميذ الساحر الذي يوّد لويرى منزله مغسولاً غسلاً نظيفاً ، ولكنه يصاب بالرعب حين يقبل الطوفان فيقتحم العتبات والدرجات اقتحاماً لاسبيل الى صدّه . ذلك لأن خطة الحياة المتوازنة التي كان والدي قد ابتدعها لي تعرّضت بفعل الخير العميم المفرط . التحريف والتسويف ، وتعديل الصياغة من يوم الى آخر ، خطوة فخطوة ، خلافاً لما كان منتظراً . وكانت الإقامة في ريجِنْزْ بورج وفيينا بحكم المُتَخلىّ عنها . ولكن كان لابد أن تتم في الطريق الى ايطاليا رحلة عامة لكي يخرج المرء على الأقل بنظرة شاملة . وفي مقابل ذلك كان الأصدقاء الآخرون الذين لم يستطيعوا أن يقرّوا مثل هذا الطريق المتعرّج الكبير لدخول الحياة العملية ، يرون أن على المرء أن يستفيد من اللحظة التي يتاح له فيها بعض النفع . ويفكر في مشروع دائم في مسقط رأسه . ذلك لأنني على الرغم من أنني قد استُبْعِدْتُ من مجلس الشورى(١) بفعل الجد أولاً ، ثم بفعل العم ، فقد كان ما يزال هناك بعض الوظائف المدنية التي يستطيع المرء التماسها وتكريسها في هذه الأثناء ، ثم ينتظر المستقبل . وكانت بعض الوكالات تتيح مايكفي من العمل ، وكانت وظائف المفوّضين مشرفة ، فغرّني ذلك واعتقدت

أيضاً حق الاعتقاد أني أصلح لذلك من دون أن يسبق لي اختبار نفسي، وهل يمكن أن تلائمني مثل هذه الطريقة في الحياة التي تقتضي أن يكون المرء أكثر ما يكون سروراً بالعمل في التسلية بصورة وافية بالغرض . وأضيف الآن الى هذه المقترحات والمشروعات ميل لطيف آخر بدا أنه يقتضي تدبيراً محدداً ، ويزيد في مضاء تلك العزيمة .

وذلك أن المجموعة الآنفة الذكر ، والمؤلفة من الرجال والنساء ، والتي كانت تدين لأختي ببقائها ، فضلاً عن منشأها ، كانت ما تزال قائمة بعد زواجها ورحيلها ، اذ كان القوم قد ألف بعضهم بعضاً ، ولم يكونوا يعرفون ما هو أفضل من أن يقضوا أمسية في الأسبوع في هذا الوسط من الأصدقاء . وكان ذلك الخطيب الرائع (٣) الذي عرفناه منذ الكتاب السادس قد عاد الينا بعد ما عرض له من تصاريف الزمان وهو أكثر حنكة وتمرّساً ، وقام مراراً بدور المشرع للدولة الصغيرة ، وكان قد ابتدع على أثر تلك الدعابات السابقة شيئاً مشابهاً ، اذ قرروا أن يقترعوا في كل يوم ، لا لتحديد أزواج من المتحابيّن ، كما كان الأمر في الماضي ، بل من أجل أزواج حقيقيّين . وكان يقال إن المرء يعرف معرفة كافية كيف يجب أن يكون سلوكه حيال الحبيبة. أمّا كيف يجب أن يكون سلوك الزوج والزوجة في المجتمع فذلك أمر غير معروف بالقياس الينا ، ولا بدّ ، قبل كل شيء ، من تعلمه الآن ، مع تقدم السنين . وكان يقدم القواعد العامة التي كان من المعروف أنها تتمثل في أنه لابد للقوم أن يتصرّفوا كما لو كان الواحد منهم لاينتمي الى الآخر ، فلم يكن يجوز لهم أن يجلس أحدهم الى جانب صاحبه ، أو يحادث الواحد منهم صاحبه كثيراً ، ولم يكن يجوز

لأحدهم أن يسمح لنفسه إلاّ بقدر ضئيل من المداعبات وكان . على المرء في هذا الصدد ألاّ يجتنب كل ما يمكن أن يثير الشبهة والاستياء بصورة متبادلة فحسب ، بل يكون على النقيض من ذلك ، مستحقاً لأعظم الثناء اذا ما عرف كيف يوثّق ارتباط زوجه به بطريقة عفوية .

وعلى أثر ذلك أجريت القرعة لتعيين بعض الأزواج المفرطين في التأنّق الذين يطيب لهم ذلك ، وكان ثمة ضحك ومزاح ، وكانت كوميديا الحالة الزوجية العامة تبدأ بمزاج حسن ، ويتم تجديدها كل مرة في اليوم الثامن .

وهنا اتفق أن حدثت مصادفة عجيبة بما فيه الكفاية ، وهي أن الحظ قسم لي منذ البداية المرأة ذاتها(١) مرتين ، وكانت شخصية طيبة جداً ، من ذلك الطراز الذي يطيب للمرء أن يتصوره زوجاً له ، وكانت جميلة الصورة ، عادية مكتملة ، وسيمة الوجه ، وكان يهيمن على سلوكها رصانة تشهد على صحة جسمها وفكرها . وكانت هي ذاتها تماماً في كل الأيام والساعات . وكان نشاطها المنزلي موضع التقدير الكبير . وكان في وسع المرء أن يتبيّن في مظاهرها الخارجية، من دون أن تكون ثرثارة ، عقلاً مستقيماً وثقافة طبيعيّة ، فكان من اليسير الآن مقابلة مثل هذه الشخصية بالمودة والاحترام ، على أني كنت معتاداً من قبل أن أفعل ذلك صادراً فيه عن مشاعر عامة . أما الآن فكان ثمة تعاطف تقليدي يحدث أثره في صورة واجب اجتماعي . فلما جمع الحظ بيننا الآن مرة ثالثة أعلن المشرّع المتندّر بلهجة احتفالية للغاية قائلاً : «لقد تكلمت السماء ، وما عاد في وسعنا الآن

أن نفترق ، وارتضينا الأمر ، كلٌّ من جانبه ، وانسجمنا انسجاماً متبادلاً بالغ الحسن ،في واجبات الزواج العلنية، بحيث أمكن أن نُعَدَّ أنموذجاً حقاً . ولما كان على مجموع الأزواج المجتمعين في المساء أن يتخاطبوا ، حسب النظام العام ، بصيغة المخاطبة الخالية من الكلفة ، في تلك الساعات القلائل ، فقد اعتدنا هذه المحادثة الحميمة خلال سلسلة من الأسابيع الى حد باتت عنده هذه الصيغة تجري على ألسنتنا أيضاً في الأوقات الفاصلة ، وعلى نحو مريح ، ولكن العادة شيء عجيب ، فقد كان كلانا لايجد ، بصورة تدريجيّة ، شيئاً أكثر طبيعيّةً من هذه العلاقة ، وكانت قيمتها تزداد عندي على نحو مطرد ، وكان أسلوبها في الوجود معي يشهد على ثقة جميلة هادئة ، بحيث لو وجد قبالتنا كاهن لأوعزنا اليه بعقد قراننا على الفور من دون كثير تفكير .

ولما كان لابدّ من تلاوة شيء جديد في كل اجتماع من اجتماعاتنا المتسمة بالأنس فقد جلبتُ ذات مساء ، في صورة شيء مستحدث جديد كل الجدة ، مذكرات بومرشيه عن كلا فيجو في صورتها الأصلية ، وحازت قدراً كبيراً من الإعجاب ، ولم تنقصها الملاحظات التي يقتضيها الأمر ، وبعد أن أفاض القوم في الحديث عنها ، بين أخذ وردّ ، قالت شريكتي العزيزة : « لو كنت مولاتك ، لازوجتك ، لرجوت منك أن تحول هذه المذكرات(١) الى مسرحية ، فانها تبدو لي ملائمة لذلك كل الملاءمة » ، وأجبت قائلاً : « لكي تري ، ياعزيزتي ، أن المولاة والزوجة ، يمكن أن تجتمعا في شخص واحد فأنا أَعِدُ أن أتلوَ موضوع هذه الكراسة ، بعد ثمانية أيام من هذا

اليوم ، في صورة مسرحية ، مثلما يحدث الآن لهذه الصحائف » .
وعجب القوم من هذا الوعد الجريء ، ولم أقصّر في انجازه . ذلك لأن ما يسميه الناس في أمثال هذه الحالات ابتكاراً كان عندي وليد اللحظة الراهنة . وحين كنت أقود زوجتي الاسمّية الى بيتها أخلدت الى الصمت فسألتني ما عسى أن يكون دهاني ؟ وأجبت قائلاً : « أنا أتخيّل المسرحية ، وها أنذا في وسطها ، وأنا أرغب أن أظهر الك أنه يسرني أن أعمل شيئاً إكراماً لك » ، وضغطت على يدي ، وحين قبّلتها مقابل ذلك بحرارة قالت : « يجب ألاّ تخرج عن الدور ! فان الرقة ، كما يقول القوم ، لاتليق بالأزواج » ، وأجبت قائلاً : «دعيهم يقولون ما هم قائلون فسوف نجري في ذلك على طريقتنا» .

وقبل أن أصل الى البيت ، من طريق ملتو طويل بالطبع ، كانت المسرحية قد تمت صياغتها في الذهن الى حد بعيد ، ولكني أريد ، لكيلا يبدو هذا مفرطاً في التبجّح ، أن أعترف أن الموضوع تجلّى في صورة درامية ، بل مسرحية ، حتى منذ القراءة الأولى والثانية ، ولكن لولا مثل هذا الحافز لكانت المسرحية ، مثل كثير غيرها ، مجرد ولادة واحدة من الولادات الممكنة . أما كيف كان سلوكي في هذا الصدد فذلك معروف بما فيه الكفاية ، وهو أنني حين تعبت من الأشقياء الذين كانوا يتصدّون ، بدافع الانتقام أو الضغينة ، أو النوايا المنطوية على الصَغار ، للطبيعة النبيلة ويدمّرونها ، أردت أن أدع العقل النقيّ ، الدنيويّ ، ممثّلاً في كارلوس ، يفعل فعله ، عن طريق الصداقة الحقّة أمام العاطفة الحارّة ، والهوى ، والاستياء الظاهريّ ، لكي ابعث الحيوية أيضاً على هذه الطريقة في مسرحية

مأساوية ، ولما كان أبونا الكبير شكسبير يخوّلني الحق في ذلك ، فاني لم امتنع لحظة واحدة عن ترجمة المشهد الرئيسي والتصوير المسرحيّ الحقيقيّ ترجمة حرفية . ولكي أختتم ذلك آخر الأمر استعرت خاتمة قصيدة غنائية انكليزية (بلاّدة)(١) وعلى هذا فرَغْت من ذلك قبل أن يُقبِل يوم الجمعة بعدُ . أما الأثر الطيب الذي بلغته عند التلاوة فذلك أمر يسهل على المرء أن يُقِرّ لي به . وكان سرور رفيقتي ومولاتي بذلك سروراً غير قليل . وكان واقع الحال أن علاقتنا قد توثّقت عراها على نحو أشدّ بفعل هذا النتاج الذي كان بمثابة الذريّة الروحية .

ولكن مرْك الشيطان ألحق بي هنا أول مرة ضرراً كبيراً ، وذلك لأنني حين أخبرته بالمسرحية ردّ بقوله : « يجب عليك ألاّ تكتب لي مزيداً من أمثال هذه التفاهة في المستقبل ، فهذا ما يقدر عليه الآخرون أيضاً » ولا ريب أنه لم يكن في ذلك على حق ، وما من شك في أنه ليس من الواجب أن يكون كل شيء متجاوزاً لكل التصوّرات التي أحاط بها المرء ذات مرة . وانما يكون من المستحسن أيضاً أن تأتلف بعض الأشياء مع العقلية العامة . ولو أنني كتبت في تلك الأيام اثني عشريّةً من المسرحيات ، من ذلك النمط الذي كان خليقاً أن يسهل عليّ ، مع بعض المزاج المَرِح ، لكان من الجائز أن يثبت منها ثلاثٌ أو أربع على المسرح . وفي وسع كل ادارة تعرف كيف تقدّر ذخيرتها ان تقول اي نوع من المزايا تعدّ هذه المزية .

وباتت لعبة زواجنا الغريبة ، بفعل أمثال هذه وغيرها من الدُعابات أسطورة العائلة ان لم تكن اسطورة المدينة ، اذ لم يكن وقعها في آذان أمهات جميلاتنا بالوقع المستكرَه . وكذالك لم يكن لمثل هذه المصادفة

وقع مستهجن عند أمي أيضاً ، فقد كانت من قبل تؤثر برعايتها المرأة التي كنت قد دخلت معها في علاقة غريبة الى هذا الحد ، وربما أسرّت اليها أن من الممكن أن تغدوَ كنّةً طيبّة مثلما يمكن أن تغدو زوجة ، ولم يكن ليرضيَها مثل هذا اللَغَط غير المحدّد الذي كنت أتعرّض له منذ وقت طويل ، والحق أنها كانت تلقى من قِبَلنا المتاعب . فقد كانت هي التي تضطر الى القيام بخدمة الضيوف المتدفّقّين ، خدمة واسعةمن دون أن ترىمايعوضها عن الاستضافة الأدبية شيئاً آخر سوى الشرف الذي كان القوم يُولونه ابنَها اذ كانوا يولمون له الولائم . ثم انه كان من الواضح لديها أن قدراً كبيراً من الشباب الذين كانوا جميعاً بلا ثروة ، كانوا يجتمعون ، لا من أجل المعرفة والكتابة الأدبية وحدهما ، بل من أجل حياة اللهو ، وأنهم قد يُشْتَمِل بعضهم على بعض ويلحق بعضهم الضرر ببعض . وكان ذلك آخر الأمر أشدّ ما يكون توكيداً لديّ أنا الذي كانوا يعرفون سخاءه الطائش ، وولعه بأخذ الأمور على عاتقه .

من أجل ذلك كانت الرحلة الإيطالية المزمع القيام بها منذ وقت طويل ، والتي بعث الوالد فيها الحياة من جديد ، تعدّ أضمن الوسائل الى قطع كل هذه العلاقات مرة واحدة . غير أني فكرّتْ قبل ذلك بترسيخ الرابطة التي سبق التمهيد لها لكيلا ينتاب العالم الواسع شيء خطير جديد ، ولكي تغدو العودة الى الوطن أحرى بأن تتعلق بها النفس ، ولكي يغدو القرار النهائي حاسماً . أمّا أنني كنت أنسب اليها هذه الخطة مجرد نسبة فحسب ، أو أنني رسمتها بوضوح ، ربما مع الصديقة السعيدة(١) ، فذلك مالا أودّ الفصل فيه . وجملة

القول ان أفعالها كانت تبدو مبنية على نيّة مبيّتة ، اذ كان عليَّ أن اسمع في بعض الأحيان أن وَسَطنا العائلي قد غدا بعد زواج كورنيليا بالغ الضيق حقاً ، وكانوا يزعمون أنني خسرت أختاً ، وأن أمي خسرت مساعدة ، وأن أبي خسر تلميذة ، ولم يقف الأمر عند هذه الأحاديث ، اذ نتَج عن ذالك ، الى حدّ ما ، أن والديَّ لقيا تلك المرأة في نزهة ودَعَواها الى الحديقة ، وتحدثا اليها وقتاً طويلاً . وكان المزاح يتناول ذالك الآن على مائدة العشاء ، ويُلاحَظ بارتياح معين أنها حظيت باعجاب والدي ، اذ كانت ، على وجه الإجمال ، تحوز على الخصال الرئيسية التي كان يلتمسها في المرأة من حيث كونه خبيراً .

وعلى أثر ذالك كان يجري في الطابق الأول اعداد بعض الأشياء التي يجري اعدادها حين ينتظر القوم ضيوفاً ، كما كان يتم تفقد الأمتعة الكتانية ، والتفكير أيضاً في أثاث منزليّ كان مهملاً حتى الآن . هنالك فاجأت أمي ذات مرة وهي تتأمّل الأراجيح القديمة في الحجرة الأرضيّة التي كان يبرز منها بوجه خاص أرجوحة فائقة الحجم من خشب الجوز المطعم بالعاج والآبنوس ، كانت تنوس بي في غابر الأيام . وبدت غير راضية كل الرضا حين أعربت لها عن ملاحظة مفادها أن هذه العلب المتأرجحة قد ولّى زمانها تماماً . وأن الناس يعرضون الأطفال في سلة صغيرة ظريفة ، وقد تحررت أطرافهم معلّقين بشريط على الكتف ، كسائر السلع الصغيرة .

وجملة القول أن أمثال تلك الإرهاصات المتصلة بالادارة المنزلية المتجددة كانت كثيراً ما تتجلّى . ولمّا كنت أسلك حيال هذه الأمور

سلوك من يعاني كل المعاناة ، فقد خيّم ، عن طريق هذه الفكرة ، وعلى حالة كان يفترض أن تدوم مدى الحياة ، سلام على منزلنا وعلى سكانه لم يستمتع بمثله منذ أمد طويل .



# القسم الرابع

**ما من احد يقف في وجه الرب**
**سوى الرب ذاته(١)**

## تصدير

في صدد معالجة سيرة حياة تتقدم بأوجه متعددة ، كما هو شأن هذه السيرة التي أقدمنا على بسطها ، نصلُ ، لكي نجعل أحداثاً معينةً قابلة للادراك والقراءة ، الى حالة تقتضي بالضرورة أن نفصّل بعض الأشياء التي تضيع في مسار الزمن ، وأن نلمّ شتات الأشياء الأخرى التي لايمكن ادراكها إلاّ من خلال تسلسل ما ، وننسّقَ المجموع على هذا النحو في أقسام يمكن للمرء أن يحكم عليها بنظرة كلية شاملة معقولة ويكتسب منها بعض الأمور .

وبهذه النظرة نفتتح الجزء الحاليّ ليسهم في تبرير تدبيرنا . ونُشْفِعه بالرجاء أن يأخذ قراؤنا بعين الاعتبار أن هذه القصة المستأنفة هنا لاتأتلف كل الائتلاف مع نهاية الكتاب السابق ، وانما تهدف الى أن تعود شيئاً فشيئاً الى الإمساك بالخيوط الرئيسية ، وأن تعرض الأشخاص كما تعرض الأفكار والأحداث ، في تسلسل أساسيّ سليم .

# الكتاب السادس عشر

وكما دأب الناس على القول انه ما من مصيبة تأتي وحدها ، يمكن أيضاً أن نلاحظ بلا ريب أن الأمر مجبول على الطريقة ذاتها في حالة السعادة ، بل في أحوال أخرى تتجمّع حوالينا بطريقة متناغمة — والمسألة تتمثل عندئذ في أن مصيراً من المصائر يفرض علينا أمثال تلك الأحوال ، أو أن الإنسان يملك المقدرة على أن يجتذب اليه ما يلائم ذاك .

لقد اكتسبت ، في هذه المرة على الأقل ، خبرة مفادها أن كل الأشياء كانت تتضافر من أجل توطيد سلام خارجي وداخلي ، وقد أتيح لي ذاك اذ كنت انتظر بصورة عفوية مخرجاً لما كان القوم يعلقونه عليّ في أذهانهم ولما كانوا يريدونه بي ، ولكن كان من المفروض أن أصل الى ذاك عن طريق دراسات متجددة .

وكنت قد سلخت وقتاً طويلاً وأنا لا أفكر في سبينوزا . أمّا الآن فقد غدوت مندفعاً اليه بفعل الأخذ والرد . وذلك أنني وجدت في مكتبتنا كتيباً(٣) كان مؤلفه يناضل ذاك المفكر بالذات نضالاً عنيفاً ، وقد وضع في هذا الصدد ، لكي ينطلق في عمله انطلاقة مجدية حتماً ، صورة سبينوزا قبالة العنوان ، مع كتابة تحتها ، وهي :

Signum reprobationis in vultu gerens

ومؤدّاها أنه يحمل في محيّاه سيماء اللعنة والتخبّط ، ولم يكن المرء يستطيع بالطبع أن يجحد هذا لدى رؤية الصورة ، لأن الصورة المنقوشةعلى النحاس كانت رديئةالى حد يدعوالى الرثاء،وكانت مشوهة تشويهاً كاملاً ، ولم يكن لي بد ، والحال هذه ، من أن يخطر ببالي أولئكالخصوم الذين يشوّهون أي امرىء يريدون به شراً ، تشويهاً مسبقاً ، ثم يحاربونه على أنه شيء رهيب .

على أن هذا الكتاب لم يحدث أثراً عليّ لأنني لم أكن أحب الأخذ والردّ على الاطلاق ، إذ كنت أوثر دائماً أن أعرف عن الانسان كيف كان يفكر ، على أن أسمع من آخر كيف كان عليه أن يفكر . ومع ذلك فقد ساقني الفضول الى مادة سبينوزا في معجم بيل(١) . وهو سَفْير يعد ، بسبب ماينطوي عليه من الاطلاع الواسع وحدة الذهن ، جديراً بالتقدير ونافعاً بمقدار ما يعدّ مضحكاً وضاراً بما فيه من لغو وهذر .

وقد أثارت مادة «سبينوزا» في نفسي الاستياء وسوء الظن ففي البداية يقدّم الرجل على أنه ملحد(٢) ، وتقدم أفكاره على أنها مرفوضة الى أقصى الحدود ، ثم يُعتَرف بأنه رجل هادىء التفكير ،منهمكفي دراساته ، وأنه كان مواطناً صالحاً وانساناً يفضي بمكنون صدره . وكان من ذوي الدخل السنوي الهادئين ، واذاً فقد كان يبدو أن القوم نسوا تماماً كلمة الانجيل : «ينبغي لكم أن تعرفوهم من ثمراتهم !» فكيف يمكن أن ينجم عن حياة ترضي الانسان والرب مبادىء هدامة ؟

وكنت أتذكر الى حد بعيد أيّ سكينة وصفاء خيّما عليّ حين تصفّحت ذات مرة الأعمال التي خلفها(٣) ذلك الرجل الذي يلفت

النظر ؛ واتضح لي هذا الأثر بوضوح تام بعد من دون أن استطيع تذكر التفاصيل ، ولذلك أسرعت الى الأعمال التي غدوت مديناً لها بقدر كبير ، وطالعتني منها نفحة السلام ذاتها من جديد ، وانهمكت في هذه المطالعات ، وبتّ أعتقد ، وأنا أنظر في نفسي ذاتها ، أنني لم أرَ العالم قطّ بهذا الوضوح .

ولما كان قد نشب كثير من الخلاف(١) حول هذا الموضوع ، وذلك في العصر الحديث أيضاً ، فاني أرجو ألاّ يُساءَ فهمي ، ولا أريد هنا أن أتوانى عن الإدلاء ببعض الأمور حول ذلك النمط من التصور الذي يثير كثيراً من الخوف ، بل الاستهجان .

ان كياننا الطبيعي المتمثل في الحياة الاجتماعية والأخلاق والعادات والحنكة في أمور الدنيا والفلسفة والدين ، بل في كثير من الأحداث العارضة ، كل ذلك يهيب بنا أن نتعفف(٢) ، اذ ينبغي ألاّ نبرز الى الخارج قدراً كبيراً مما ينتمي الينا في الباطن ، على نحو متناه في الخصوصية . والناس يسلبوننا ما اكتسبناه بشق النفس ، وما أتيح لنا على نحو ودي ، وقبل أن نكون قد غدونا على بيّنة من أمرنا حقاً في هذا الصدد ، نجد أنفسنا مضطرين الى أن نتخلّى عن شخصيتنا ، قطعة فقطعة أوّل الأمر ، ثم نتخلى عنها بصورة كاملة . ولكن من المألوف في هذا الصدد ألاّ يحترم المرء من يقف من أجل ذلك موقفاً غير لائق ، وانما ينبغي المرء أن يرسم على وجهه ملامح أكثر حلاوة كلما كان الكأس أكثر مرارة ، لكيلا يتعرض المتفرّج الى إهانة من قِبَل أية تقطيبة وجه .

ومع ذلك فقد زوّدت الطبيعة الانسان بكثير من الطاقة والنشاط والجلَد لحل هذه المسألة الصعبة ، ولكن الاستهانة التي يؤتاها بصورة غير قابلة التخريب تسعفه بوجه خاص ، وبذلك يغدو قادراً على أن يتخلى عن الفرد وعن الناس في كل لحظة بمجرد أن يجوز له أن يبسط يده الى شيء جديد عند الآخر . وعلى هذا النحو نظل أبداً نعيد صياغة حياتنا بأسرها دونما شعور ، المرة بعد الأخرى . فنحن نُحِلُّ عاطفةً محل الأخرى ، ونجرب الصنائع والميول والهوايات ، لنصبح آخر الأمر قائلين : « ان كل شيء باطل وغرور . وما من أحد ينتابه الفزع من هذه الكلمة الخاطئة ، بل الكافرة بالله ، بل يعتقد المرء أنه إنما نطق بشيء من الحكمة ، وبشيء لاسبيل الى دحضه . وليس هناك إلاّ أناس قلائل يستشعرون هذا الإحساس الذي لايطاق ، بصورة مسبقة ، ويقعون ، لكي يتحاشوا كل ضروب اليأس الجزئي ، في اليأس الكامل ، بصورة نهائية .

وهؤلاء يؤمنون بالخالد والضروري ، والقانونيّ ، ويسعون الى الى تكوين تلك التصوّرات التي لايمكن إفسادها ، بل لايمكن محوها ، بالنظر فيما هو زائل ، ولكن ذلك أحرى أن يدعمها . ولكن لمّا كان يكمن في ذلك بالفعل شيء فوق الطبيعة البشرية ، فان أمثال هؤلاء الأشخاص يُعدّون في العادة أناساً مستنكَرين ، ملاحدة ، لا دين لهم ، بل ان المرء لايعرف ماذا يضيف اليهم من قرون ومخالب .

وكانت ثقتي بسبينوزا ترتكز على الأثر المسالم الذي كان يحدثه لديّ ، وقد زاد هذا الأثر فحسب حين شكا القوم اليَّ أصحابي من متصوفي السبينوزيّة ،إذ بلغني أن لَايبْنتْسِ(١) نفسه لم يستطع أن

ينجو من هذا المطعن ، بل بلغني أن بورهافه(٢) الذي تعرض للشبهة بسبب أفكار مماثلة ، كان عليه أن ينتقل من اللاهوت الى الطب .

ولا يحسبنّ المرء أن من الجائز أن أصدّق على كل كتاباته واعتنقها بصورة حرفية ، اذ تبيّن لي بوضوح بالغ أنه ما من أحد يفهم الآخر ، وأنه ما من أحد يخطر بباله مثلُ ما يخطر ببال آخر حيال الكلمات ذاتها ، وأن الحديث الواحد أو القراءة الواحدة يثيران لدى الأشخاص المختلفين سلاسل متباينة من الأفكار ، وان المرء لخليق ان يصدّق مؤلف «آلام فرتر و«فاوست» بلا ريب ، في أنه لما أشبع بأمثال هذه الألوان من سوء الفهم إشباعاً عميقاً لم يخامره مجرد توهّم فهم رجل ارتقى وهو تلميذ لديكارت ، عن طريق الثقافة الرياضية واللاهوتية اليهودية ، الى قمة الفكر ، وما زال يبدو حتّى يومنا هذا هدفاً لكل الجهود التخمينيّة .

غير أن ما اكتسبته منه كان خليقاً أن يتجلى بوضوح كاف لو أن الزيارة التي يقوم بها اليهودي الخالد(٣) لسبينوزا ، والتي كنت قد ابتدعتها لنفسي لتكون عنصراً مقوماً ثميناً لتلك القصيدة ، ظلت باقية مدوّنة ، غير أني أعجبت بالفكرة حق الإعجاب ، واشتغلت بها في هدوء وأنا مسرور الى درجة لم أصل معها الى تدوين شيء ، ولكن هذا أدى الى توسيع الخاطرة التي ما كانت خليقة أن تكون بغير طائل ، من حيث كونها دعابة عابرة ، الى درجة أنها فقدت سحرها ، وأخرجتها من ذهني لثقلها ، ولكني أريد أن أبيّن وأصور بما أمكن من الإيجاز والشمول الى أي حد ظلت النقاط الرئيسية لتلك العلاقة بسبينوزا نقاطاً لاتنسى ، اذ كانت تمارس تأثير كبيراً في المرحلة اللاحقة من حياتي .

وانما تحدث الطبيعة آثارها بموجب قوانين خالدة ، ضرورية ، ربانية ، والناس مجمعون على ذلك كل الإجماع دونما شعور ، ولينظر المرء كيف أن الظاهرة الطبيعية التي تشير الى العقل ، والرشد ، بل حتّى الى العسف ، تبعث فينا الدهشة ، بل الرعب .

وحينما يبرز في الحيوانات شيء مشابه للرشد لانستطيع أن نفيق من دهشتنا ، ذلك لأنها تبدو ، على الرغم من قربها الشديد منا ، منفصلة عنا بهوّة لاقرار لها ، ومنفيّة الى مملكة الضرورة ، بلا ريب . ومن أجل ذلك لايستطيع المرء أن يؤاخذ أولئك المفكرين الذين رأوا في تقنيّة تلك المخلوقات المفعمة بالفن الى حد لا نهاية له ، والمحدودة مع ذلك بحدود دقيقة ، تقنيةً آلية تماماً .

واذا اتجهنا نحو النباتات أصاب ادعاؤنا مزيداً من التأييد ، وليدخل المرء في حسبانه الاحساس الذي يعترينا حين يطبق نبات الميموز(١) أوراقه ذوات الزغب أزواجاً لدى اللمس ، وأخيراً ينطلق العود الصغير هابطاً كأنما يستجيب الى نداء باطني . على ذلك الاحساس الذي لا أريد أن أطلق عليه اسماً ما ، يتصاعد أكثر من ذلك بعدُ لـدى تأمّل نبات Hedysarum gyrans الايدوصارون الـدوّار (٢) الذي يرفع وريقاته ويخفضها من دون باعث خارجي مرئي ، ويبدو كأنه يلعب مع نفسه ، كما هو الحال في تصوراتنا . ويتصور المرء مَوْزاً(٣) أوتي هذه الموهبة بحيث يخفض من تلقاء نفسه اوراقه الهائلة كالمظلات ويرفعها بصورة متناوبة ، ان كل امرىء يرى ذلك أول مرة لخليق أن يرتدّ بخطاه الى الوراء رُعْباً . لقد بلغ من تأصّل المفهوم الخاص بمزايانا أننا لا يمكن أن ننزل العالم الخارجي بصورة

قطعية عن جزء من ذلك ، بل اننا نطيب نفساً بالافتئات على هذه المزايا لدى أشباهنا حيثما كان ذلك مواتياً .

وثمة فزع مشابه يداهمنا في مقابل ذلك حين نرى الانسان يتصرف تصرفاً مجانباً للعقل تجاه قواعد أخلاقية معترف بها على نطاق عام ، أو يتصرف تصرفاً غير مفهوم تجاه مصلحته ومصلحة الآخرين . ولكي نتخلص من الفزع الذي نحس به في هذا الصدد نحوّله على الفور الى توبيخ واستهجان ، ونسعى الى التخلص من مثل هذا الإنسان ، سواء في الواقع أم في الفكر .

غير أني كنت أطبق هذا التناقض الذي يبرزه سبينوزا بكل هذه القوة ، على شخصي الخاص ، بصورة بالغة الغرابة ، وانما يقصد بما قلت آنفاً(١) أن يفيد في مجرد جَعْلِ ما يلي ذلك قابلاً للإدراك . .

وكنت قد وصلت الى النظر الى الموهبة الكامنة لديّ على انها طبيعة ، ولا سيما حين دأبت على النظر الى الطبيعة الخارجية على انها موضوع تلك الموهبة ، والحق أن ممارسة هذه الموهبة الأدبية كان من الممكن أن ينبعث فيها النشاط عن طريق حافز ما ، وأن تتجدد ، ولكنها كانت تظهر في أشد صورها بعثاً للسرور ، وغزارة ، على غير ارادة بل خلافاً للإرادة .

متنقّلاً بين الحقول والغابات(٢) ،
مرسلاً اغنيّتي من خلال المزمار ،
كذلك انقضى النهار كله .

وكانت الخاطرة نفسها ترد عند الاستيقاظ في الليل ، وكان يلذّ لي في كثير من الأحيان ، مثل أحد أسلافي(٣) ، أن أوصي بعمل

سترة جلدية ، وأن أتعوّد أن أثبت ، بفعل الشعور ، ما ينبثق بغتة ، وقد بلغ من اعتيادي أن أترنم بأغنية قصيرة من دون أن أتمكن من استعادتها مجتمعة مرة أخرى ، أنني هرعت بضع مرات الى منصة الكتابة ولم اضيّع وقتاً في تعديل وضع صفحة من الورق موضوع بصورة عرضانية ، بل دوّنتُ القصيدة من بدايتها الى نهايتها من دون أن أفارق مكاني ، على محور صفحة الورق المنحرفة ، وبهذا المعنى ذاته كنت أوثر كثيراً جداً أن ألجأ الى قلم الرصاص الذي كان يرسم الملامح على نحو أكثر طواعية ، ذلك لأنه اتفق لي في بعض المرات أن صرير الريشة وتناثر رذاذها كان يوقظني من كتابتي المتسمة بسمة السائر في نومه . وكانت تشرد بذهني وتخنق نتاجاً صغيراً في المخاض . وكنت أنطوي على تقدير خاص لأمثال هذه الأشعار ، لأنني كنت بلا ريب أسلك تجاهها سلوك الدجاجة نحو الفراخ التي فقستها اذ تراها تزقزق حواليها . وكانت متعتي السابقة في الافضاء بها من خلال المحاضرات تتجدد مرة أخرى ، ولكن كان يبدو لي من المستهجن أن أقايضها بالمال .

وأريد في هذا الصدد أن أذكر حالة ظهرت في الحقيقة فيما بعد . وذلك أنه حين أخذ الطلب يزداد على أعمالي ، بل مسّت الحاجة الى مجموعة منها ، غير أن تلك الأفكار كانت تحول بيني وبين إنشاء مثل هذه المجموعة بنفسي ، استفاد هيمبورج(١) من ترددي ، وتلقيت ، على غير توقع ، بعض النسخ من أعمالي المطبوعة معاً ، وقد عرف هذا الناشر المتطفل كيف يفخر أمامي بمثل هذه الخدمة التي أسداها الى الجمهور ، وتقدم اليّ في مقابل ذلك بشيء من البورسسلان البرليني ،

اذا شئت أن أطلبه . وفي هذه المناسبة كان لابد لي أن يخطر ببالي أن يهود برلين كانوا يضطرون أن يأخذوا قدراً معيناً من البورسلين لكي يتاح للمصنع الملكي رواجٌ مضمون . على أن هذا الازدراء الذي نجم عن ذلك تجاه الطابع الفاقد الحياء جعلني احتمل الاستياء الذي كان لابد لي أن أحس به تجاه هذا السطو ، ولم أُجِبْه . وفي الوقت الذي كان فيه يتصرف بملكي ما وسعه التصرف ثأرت لنفسي في الخفاء ، في الأبيات التالية :

أيها الشاهدون الكرام(٢) ، على سنوات الأحلام الحلوة ،
والأزهار الذابلة ، والشعر المبارك
والحجب المُرخاة قليلاً ، والشرائط الكالحة
ورهائن حداد الحب الذي انطفأ صوته
الذين قدموا ألسنة لهيب موقدي
يلمّ شتاتها سوسياس(٣) الوقح
فكأن العمل الأدبي ، والشرف
قد صارا اليه بطريق الوراثة
وهل يطلب اليّ ، وأنا مازلت حياً ، أن أقرّ عيناً ..
بسلوكه ، على مائدة الشاي والقهوة ؟
ألا بعداً للبورسلين ، وللخبز المحلى بالسكر !
فأنا ميت عند آل هيمبورج .

ومع ذلك فلـّما كانت الطبيعة التي أخرجت لديّ امثال هذه الأعمال الكبيرة والصغيرة بغير إلحاف في الطلب تُخـلد الى السكون في فترات توقّف كبرى ، ولما لم يكن في وسعي أن أخرج شيئاً خلال

فترة زمنية طويلة ، حتّى لو أردته ، وكنت من أجل ذلك أحس بالملل في كثير من الأحيان ، فقد ظهر عندي ،مع ذلك التناقض الشديد ، فكرة مؤدّاها : هل ينبغي لي أن أدع ، من الجانب الآخر ، الانسانيّ والعقلاني ، والمفهوم لديّ ، يستعمل لمنفعتي أنا والآخرين ، وأن أكرس وقت الراحة ، كما سبق أن فعلت من قبل ، وكما كان يطلب اليّ على نحو يزداد قوةً باطراد ، لشؤون الدنيا ، فلا أدع على هذا النحو شيئاً من طاقاتي بغير استعمال ؟ وكنت أجد ما يبدو خارجاً عن تلك المفاهيم العامة متوافقاً مع طبيعتي ، ومع وضعي الى حد حملني على أن أقرر التصرف على هذه الطريقة ، وأن أضع بذلك حداً للتأرجح والتردد . وكان يطيب لي جداً أن أتصوّر أن من حقي أن أطالب الناس بأجر حقيقي أيضاً لقاء خدمات فعلية ، وأن استأنف التبرع بتلك الموهبة الطبيعية الجميلة مقابل ذلك على نحو بعيد عن الأثَرة ، بحكم كونها شيئاً مقدساً . وبهذه النظرة أنقذت نفسي من المرارة التي كانت خليقة أن تتولّد عندي حين كنت اضطر الى ملاحظة أن الموهبة التي يشتد البحث عنها والإعجاب بها في ألمانيا ، هذه الموهبة على وجه التخصيص ، تعامل معاملة الخارج على القانون ، المهدور دمُه . ذلك لأن الناس لم يكونوا يرون في إعادة الطبع (بغير اذن(١) شيئاً مباحاً ، بل مضحكاً ، في برلين وحدها ، بل كان المركيز الموقر فون بادن(٢) ، الذي حظي بالثناء لما يتحلى به من فضائل الحاكم ، والامبراطور جوزيف الذي كان يعطي المبرّر لقدر كبير من الآمال ، يبذلان التشجيع ، أما ذاك فلصاحبه ماكلوت ، وأما هذا فلصاحبه النبيل فون تراتنر ، وكان من المفهوم بصراحة أن حقوق

العبقرية، وكذلك ملكيتها ، مبذولتان من دون قيد أو شرط ، للعامل ولصاحب المصنع .

ولما شكونا من ذلك ذات مرة في حضور زائر من بادن روى لنا القصة التالية . كانت السيدة المركيزة(٣) قد أنشأت ، بحكم كونها سيدة جمة النشاط ، معملاً للورق أيضاً ، ولكن البضاعة ساءت الى درجة أن القوم لم يستطيعوا أن يذهبوا بها الى أي مكان ، وعلى أثر ذلك تقدم تاجر الكتب ماكلوت باقتراح أن يطبع على هذا الورق نتاج الشعراء والناشرين ليرفعوا قيمته بذلك في ناحية ما ، وتلقف القوم هذا بكلتا يديهم .

والحق أننا أعلنا أن هذا اللفظ انما هو اسطورة ، ولكننا كنا نتسلّى بها ، وغدا اسم ماكلوت في الوقت ذاته من أسماء الشتيمة ، وكان كثيراً ما يستعمل في أحداث السوء . وهكذا كان الشباب أولو النزَق الذين كانوا يضطرون في كثير من الأحيان الى الاقتراض ، على حين كانت الدناءة تغتني من مواهبهم ، يجدون أنفسهم تعتاض من ذلك بما يكفي عن طريق بضعة من الخواطر الحسنة .

وكذلك ينطلق الأطفال والفتيان السعداء انطلاقاً يتميّز بوجه خاص ، بأن الأخيار والأبرياء لايكادون يقدرون على ملاحظة العلاقة مع كل بيئة من البيئات ، على أنهم أقلّ من ذلك قدرة على الاعتراف بها ، وهم ينظرون الى العالم على أنه مادة يشكلّونها ، وعلى أنه مخزون ينبغي لهم أن يتمكنوا منه ، وكل شيء يعود اليهم ، ويبدو كل شيء قابلاً للاختراق أمام ارادتهم ، وما أكثر ما يتلاشون أمام كيان جامح يتسم بالخواء ، ومع ذلك فان هذا الاتجاه يتطوّر عند من هم أفضل

منهم الى حماسة أخلاقية ، تنطلق متجهة ، حسب الفرص ، الى أي حيز حقيقيّ أو ظاهري ، مدفوعاً بدافع خاص ، ولكنه يستسلم في كثير من الأحيان أيضاً للتوجيه والقيادة والتضليل ، .

وكان الفتى الذي نتحدث عنه على مثل هذه الحال ، ولئن كان قلما يلفت أنظار الناس فقد كان يبدو لطائفة منهم جديراً بالترحيب الى حد بعيد ، فقد كان الناس يجدون لديه، بمجرد أن يلقاهم أول مرة ، عقلاً حراً بصورة مطلقة ، وقلباً مفتوحاً مرحاً في الحديث ، وسلوكاً ينطوي على اللامبالاة في بعض المناسبات ، وعن هذا الأخير قصة صغيرة :

كان قد نشب في حارة اليهود(١) التي تتزاحم مبانيها تزاحماً شديداً حريق ضار ، ودفعتني نيتي الحسنة ، وما نجم عن ذلك من حب المساعدة المجدية ، الى الذهاب الى هناك ، وأنا على ما عليه من حسن الهندام ، وكان الناس قد تسلّلوا ، قادمين من حارة جميع القديسين ، واقتحمت هذا الممرّ فوجدت هناك عدداً كبيراً من الناس مشغولين بحمل الماء ، وهم يتدافعون خارجين بدِلاء ملأى ، عائدين بدِلاء فارغة . وسرعان ما رأيت أنه لو شكلّ الناس مَعْبَراً حيث كانوا يناولون الدِلاء ويتناولونها لكانت المعونة مضاعفة. وأمسكت بدَلْوَيْن مملوئين ، ولبثت واقفاً ، ودعوت آخرين اليّ ، وسلمت الحمولة الى القادمين ، واصطف الآخرون على الجانب الآخر ، ولقي هذا التدبير استحساناً ، كما لقي إقناعي واهتمامي الشخصي تشجيعاً ، وسرعان ما اكتمل الممرّ من المدخل الى الهدف المشتعل ، واختُتِم ، ولكن لم يكد المرح الذي تم به هذا يبعث المزاح المرح في هذه الآلة الحية

التي تحدث أثرها على نحو واف بالغرض حتى كانت الشجاعة قد تجلّت وافسحت مجالاً للسرور بالأذى ، فكان الهاربون المساكين يضطرون الى المرور بصورة لامفرّ منها إذا ما دخلوا الزقاق المريح ، ومتاعهم البائس على ظهورهم ، ويمكثون بغير منجاة من الريبة ، وكان الغلمان الخبيثون ينضحونهم بالماء ويضيفون الازدراء والفظاظة الى البؤس . ولكن الجور ، سرعان ما توقف بالاقناع الرصين وكلمات التأنيب البليغة ، وكان ذلك على ما يبدو مراعاة لثيابي النظيفة التي أهملتها .

وكان الفضوليون من أصدقائي قد أقبلوا ليشاهدوا الحادث ، وبدوا مندهشين من رؤية رفاقهم بالأحذية والجوارب الحريرية — لأن الناس لم يكونوا يخرجون على غير هذا النحو في تلك الأيام — في هذه الأعمال ذات البَذَل ، واستطعت أن اجتذب اليّ قليلاً منهم ، أما الآخرون فضحكوا وهزّوا برؤوسهم ، وصمدنا وقتاً طويلاً لأن بعض المنسحبين كان بينهم من يرتضي أيضاً أن ينضّم الينا ، وتعاقب كثير من المولعين بالتفرّج ، وعلى هذا النحو غدت مغامرتي البريئة معروفة لدى الكثيرين ، ولم يكن لهذا الاستهتار العجيب بد من أن يغدو حكاية المدينة .

وقد انتهى مثل هذا التهور في السلوك ، القائم على أية نزوة من نزوات المزاح ذات النية الطيبة الصادرة عن اعتداد سعيد بالنفس ، مما يسهل على الناس أن يعيبوه على أنه غرور ، الى أن جعل من صديقنا امرءاً يلفت النظر بعدُ من خلال أعاجيب أخرى .

وكان شتاء بالغ القسوة قد غطىّ الماين تغطية كاملة بالجليد ، وحوّله الى أرض صلبة ، وكانت أشد حركات المرور الضرورية

والاجتماعية المرحة نشاطاً تحتدم فوق الجليد ، وكانت مسارات التزلّج(١) التي لا حدود لها ، والمواضع الفسيحة التي تجمّدت على نحو ثقيل تعج بالحشود المضطرمة ، ولم أكن أتخلّف منذ الصباح الباكر ، وقد تخلل الصقيع جسدي ، اذ كنت خفيف الثياب حين وصلت راكباً ، مثلما فعلت أمي بعد ذلك لمشاهدة المسرحية ، وكانت جالسة في العربة ، في فرائها المخمليّ الأحمر الذي كان يبدو فخماً كل الفخامة ، وهو معقود على الصدر بخيوط وشُرّابات ذهبية قوية ، وصحت قائلاً بصورة مرتجلة، من دون مزيد من التريّث : « أعطني فراءك يا أمي العزيزة ، فاني أحسّ بصقيع رهيب ، ولم تفكر هي أيضاً بالأمر أبعد من ذلك ، وفي لحظة واحدة أحرزتُ الفراء الذي لم يكن تلاؤمه سيئاً على الاطلاق ، اذ كان يبلغ بطتّي الساق بلونه الأرجواني ، وهو مبطّن بفراء السمور ، ومزين بالذهب ، مع قبعة الفراء السمراء التي كنت أعتمرها ، وهكذا كان الطريق يعلو بي ويهبط ، وأنا خالي البال ، وكان يبلغ من شدة الزحام أن المرء لم يكن يلاحظ ، بوجه خاص ، حتى الظاهرة النادرة ، على الرغم من حدوثها الى حد ما ، ذلك لأن القوم كانوا يعدّونها في جملة أشكال شذوذي من جديد ، في الجد والهزل .

وبعد أمثال هذه الذكريات الخاصة بسلوك سعيد لامبال نتابع الخطى نحو الخيط الحقيقي لقصتنا .

لقد قال فرنسي ألمعيّ(٢) ذات مرة : حين يكون قد سبق لأي دماغ حسن أن اجتذب انتباه الجمهور عن طريق أي مأثرة من المآثر

فان الناس يبذلون غاية ما في وسعهم ليمنعوه من أن يخرج بأمثالها مرة أخرى في يوم من الأيام .

وان هذا لمن الحق ؛ فثمة أيُّ شيء حسن ، أو ينم عن حضور البديهة يتم ابداعه ، ويتحقق الظفر بالإعجاب ، ولكن الاستقلال ينتهي الى الضياع .ويقوم الناس بتشويه الموهبة المركزة وتشريدها ، لأنهم يحسبون أنهم يستطيعون أن يمتحوا من شخصيتهاشيئاً ماويحرزوه لأنفسهم

وبهذه الروح كنت أتلقى بعض الدعوات ، أولا أتلقى الدعوات . وكان أحد الأصدقاء أو المعارف يقترح عليّ ، بما يزيد على الإلحاح في كثير من الأحيان ، أن أمهّد لنفسي هنا وهناك .

وكان شبيه الأجنبيّ ، الذي كان اسمه المعلن (بير) ثم غدا من جديد ، بسبب ما لقي من الصدود العدائي المتكرر (ربيب فوليتر الهوروني (١) ، ثم غدا هنديّ كمبرلاند الغربي (٢) ، كان يثير الفضول بحكم كونه ابن الطبيعة على ماالديه من المواهب الجمّة . وهكذا كان القوم يشتغلون في كثير من البيوت بالمفاوضات الملائمة لرؤيته .

وكان من جملة ذلك أن أحد الاصدقاء التمس مني ذات مساء أن أشهد معه حفلة موسيقية صغيرة أقيمت في بيت تجاري مرموق(١) من بيوت الاصلاح الديني ، وكان الوقت قد تأخر ، ومع ذلك فقد لبيّته لأني كنت أحب كل شيء مرتجل ، وأنا في هندام حسن كعادتي ، ودخلنا من خلال حجرة بلون التّراب الى حجرة الجلوس الحقيقية الفسيحة ، وكان الجمع غفيراً، وكان هناك جناحٌ* قائم في الوسط

---

(*) الة موسيقية

كانت قد جلست اليه في الوقت ذاته ابنة البيت الوحيدة ، وهي تعزف ببراعة وظُرْف لهما شأنهما ، ووقفتُ عند النهاية الدنيا للجناح لأتمكن من ملاحظة صورتها وشخصيتها عن كثب بما يكفي ، وكان في سلوكها شيء من سمات الأطفال ، وكانت الحركات التي يضطرُّها اليها العزفُ عفوية وخفيفة .

وبعد الفراغ من السوناته تقدمّت نحوي ، عند مؤخرة البيانو ، وتبادلنا التحية من دون مزيد من الكلام ،لأن رباعياً كان قد بدأ ، وفي الختام تقدمت منها الى مسافة أقرب ، وجاملتها بعض المجاملة قائلاً كم يسرني أن يطلعني هذا التعارف الأول في الوقت ذاته على موهبتها ، وعرفَتْ كيف ترد على كلماتي بظرف فائق ، وحافظَتْ على موقفها ، كما حافظت على موقفي ، واستطعت أن ألاحظ أنها كانت تتأملني باهتمام ، وأني كنت أقف في حقيقة الأمر عرضة للناظرين ، وذلك ما أمكنني أن أرتضيه لنفسي غاية الرضى ، اذ كان القوم يعرضون على ناظري شيئاً بالغ السحر وكان كل منا ينظر الى الآخر ، ولست أريد أن أنكر أنني قد دخل في روعي أنني أحسست بجاذبية من أرق أنواع الجاذبية ، ومع ذلك فقد كانَ تماوجُ الجمع وألوانُ أعماله يمنعان كل نوع آخر من التقارب هذا المساء ، ولكني مضطر بلا ريب الى الاعتراف باحساس ممتع أحسسته حين أفادتني الأم عند الوداع أنهما تأملان رؤيتي مرة أخرى في أجل قريب . وبدت الابنة كأنها تُقِرّ ذلك بشيء من المودة . على أني لم آلُ جهداً في تكرار زيارتي بعد فترات انقطاع ملائمة ، اذ كان يدور عندئذ حديث قائم على التفاهم كان يبدو أنه لاينبىء عن علاقة عاطفية حارّة .

وفي هذه الأثناء كان ما تمّ التمهيد له من انفتاح دارنا للضيوف يجلب على والديَّ وعليَّ أنا بعض المتاعب . ولم أحرز بذلك شيئاً من التقدم في اتجاهي الذي كان ينزع دائماً الى ادراك ما هو أسمى ، والتعرّف عليه وتنميته ، وصياغة مثل ذلك بطريق المحاكاة حيثما أمكن ذاك . أما الناس فكانوا أتقياء على قدر ما كانوا طيبين ، وكانوا يفتقرون الى الذكاء والحذق ما داموا يمارسون النشاط ، ولم يكن في وسع ذلك أن يعنيني في شيء ، على أن هذا كان يشوّش ذهني . وقد دوّنت من ذلك بعناية حادثة تلفت النظر .

ففي مطلع عام ١٧٧٥ أبلغنا يونج الذي سمي فيما بعد شتـِلِّنـْج(١) ، من الراين الأدنى ، أنه قادم الى فرانكفورت ، وقد استُدعيَ ليقوم هناك بمعالجة عينيّة هامة ، وكان موضع الترحيب لـَدَيَّ ، وآوَيناه .

وكان السيد فون ليرسْنـَر(٢) ، وهو رجل وقور مسن كان يلقى التقدير بتربيته وتوجيهه لأولاد الأمراء ، وسلوكه المتبصّر في البلاط ، وأثناء الرحلات ، يحتمل منذ وقت طويل مصيبة العمى الكامل ، ومع ذلك فلم يكن من الممكن أن يخمد تـَوْقـُه الى المساعدة كل الإخماد . وكان يونج قد انجز منذ بضع سنين ، بجرأة عالية ، وجلد قائم على الوَرَع ، كثيراً من عمليات السادّة في العين ، في الراين الأسفل ، واكتسب بذلك شهرة واسعة ، وأتاح له صدقُ طَويّته ، وامكان الإعتماد على شخصيته وتقواه الخالصة ، ثقة عامة ، وانتشر هذا في اتجاه تيار النهر ، على طريق كثير من الروابط التجارية . وقرر السيد فون ليرسْنـَر وأتباعه ، بعد استشارة طبيب حصيف ، استدعاء طبيب العيون الناجح في الوقت الذي كان فيه تاجر من فرانكفورت

قد أخفق فيه العلاج ، ينصح بالعدول عن ذلك بصورة جديّة ، ولكن ماذا يمكن أن تبرهن حالة منفردة في وجه كثير جداً من الحالات الناجحة ! على أن يونج أقبل الآن وقد أغراه الأجر الجزيل الذي كان محروماً منه حتى الآن ، أقبل ليزيد في شهرته ، وهو مطمئن البال مسرور ، وجعلنا نمنّي أنفسنا بالسعادة الى جانب نديم المائدة هذا الطيب المرح .

وبعد عدد من التحضيرات الطبيّة ثقبت الغشاوة في كلتا العينين ، وكنا في الغاية من التوتر ، اذ كان هذا يعني أن المريض سيكون بصيراً بعد العملية فوراً ، الى أن يكون الضماد قد حجب ضوء النهار من جديد . ولكن كان من الممكن أن يُلاحَظ أن يونج لم يكن طلق الأسارير ، وأن شيئاً كان يُثْقِل على قلبه ، كما أفضى اليَّ بعد مزيد من التقصّي أن القلق يساوره من جراء نتيجة العلاج . وفي العادة لم يكن يبدو شيء أسهل من ذلك في الدنيا ، كما سبق أن شاهدت بنفسي مراراً في شتراسبورج ، وكما وُفّق الى ذلك شتِلّنج أيضاً مئات المرات . فبعد الجرح المحْدَث من دون ألم في القرنية العديمة الحس كانت العدسة المتكدّرة تنبثق لدى أخفّ ضغط من تلقاء ذاتها ، وكان المريض يبصر الأشياء على الفور ، وكان عليه أن يحتمل العينين المعصوبتين فحسب الى أن يكون العلاج الناجز قد أتاح له أن يستخدم العضو الممتع وفقاً لارادته ، وعلى النحو الذي يريحه . وكم من مسكين أتاح له يونج هذه السعادة قد استنزل بركة الرب وثوابه من السماء الى الأرض ، وهما اللذان كان يفترض أن يحملهما هذا الرجل الغنيّ .

وقد أقرّ يونج بأن الأمور لم تسر هذه المرة بكل ذلك القدر من السهولة والنجاح ، وأن العدسة لم تنبثق ، واضطر الى استخراجها

وتخليصها في الحقيقة ، لأنها كانت قد تضخّمت ، ولم يحدث هذا من دون شيء من العنف ، ثم أخذ الآن ينحي على نفسه باللائمة لأنه أجرى العملية على العين الأخرى أيضاً . ولكن القوم كانوا قد وضعوا نصب أعينهم على نحو أكيد أن يُجروا كلتيهما معاً ، ولم يفكر امرؤٌ في مثل هذه المصادفة ، ولما طرأت وقضي الأمر لم يستريحوا منها ، ولم يثوبوا الى رشدهم . وجملة القول ان العدسة الثانيه لم تخرج من تلقاء ذاتها بل كان لابد من حلّها بالمذيبات واستخراجها .

أما مدى ما كان عليه رجلٌ على هذا الجانب من طيب القلب وسلامة الطويّة والتقوى ، في مثل هذه الحال ، فذلك ما لايتيحه وصف ولا شرح . وربما كان الشيء العمومي عن مثل هذا الطراز من العقل يعدُّ هنا وارداً في مكانه الصحيح .

وذلك أن العمل الصادر عن تربية أخلاقية خاصة هو أكثر مايمكن للمرء أن يسمع به بساطةً وملاءمةً ، فالدافع الى ذلك فطري لديه ، وهو ينساق الى ذلك عن طريق العقل البشريّ ، والمحبة ، بل يندفع الى ذلك اندفاعاً .

وكان شتللنج يعيش في شعور بالمحبة يتسم بالسمة الدينية الأخلاقية وما كان ليتاح له وجود بغير إفضاء ، وبغير ارادة طيبة مقابلة ، وكان يطالب بالميل المتبادل ، وكان يخلد الى الهدوء حيث لا يعرفه الناس ، وكان يتولاه الحزن حيث لا يحب الناس من يعرفونه . ومن أجل ذلك كان يجد نفسه أفضل ما يكون مع أولئك البشر أولي النوايا الطيبة الذين يشتغلون بكمال أنفسهم ضمن مجال مهني هادىء محدود مع شيء من الرفاه .

وهؤلاء يفلحون الآن في التخلص من الغرور ، وفي الإقلاع عن التطلّع الى الشرف الظاهريّ وفي اكتساب الحذر في الحديث ، وفي ممارسة سلوك ثابت وديّ تجاه الرفاق والجيران .

وفي معظم الأحيان يكمن في الأساس هنا قالب غامض من قوالب الفكر ، يتعرّض للتعديل بتأثير الفرديّة . ومثل هؤلاء الأفراد ، الذين يتعرّضون للاستثارة بطريق المصادفة ، يعلقون أهمية كبرى على مسيرتهم التجريبية ، والناس يعدّون كل شيء من قبيل القدر المتعالي على الطبيعة ، مع الإيمان بأن الله يفعل فعله بصورة مباشرة .

ومع ذلك ففي الانسان ميل معين الى الثبات على حاله ، وفي الوقت ذاته الى التصادم والانقياد ، وفيه تردد في التصرف من تلقاء ذاته ، وهذا الأمر يتفاقم لدى اخفاق الخطط المتناهية في معقوليّتها ، مثلما يتفاقم بفعل النجاح العرضي الناشيء عن الظروف غير المتوقعة ، والّتي يتلاءم بعضها مع بعض بصورة مواتية .

ولكن مثلما يتعرض السلوك الرجوليّ اليقظ بفعل مثل هذا النمط من الحياة ، للفساد ، فان اسلوب الوصول الى مثل هذه الحالة ينطوي على الخطورة أيضاً .

أمّا ما يتحدث به أولئك المتقاربون فكراً كأحبّ ما يكون الحديث فهو ما يسمى بالتنبيهات(١) ، وهي التغيرات الخاصة بالحسّ ، الّتي لاننكر قيمتها في علم النفس ، وهي في الحقيقة ما نسميه في الشؤون العلمية والشعرية «اللمحة — Aperçus » : وهي ادراك(٢) مبدأ كبير ، وذلك ما يعد دائماً عملية فكرية عبقرية ، والمرء يصل الى ذلك عن طريق النظر والتأمل ، لا عن طريق استعادة الأفكار ،

ولا عن طريق التعليم أو الرواية . وهنا يتصل الأمر بالوعي بالطاقة المعنوية ، الذي يستقرّ في العقيدة ، ويتم الاحساس به على هذا النحو وهو في أمان يتسم بالزُهوّ في خضم الأمواج .

ومثل هذه اللمحة تمنح المكتشف أعظم السرور ، لأنها تُلمِح الى اللانهائيّ بطريقة أصيلة ، وهي لاتحتاج الى تسلسل زمني من أجل الاقتناع ، فهي تنبثق انبثاقاً كاملاً ، وتكتمل في اللحظة ، ومن هنا جاءت الكلمة الفرنسية القديمة المقتّاة :

في قليل من الوقت وجد الله الحق En Peu d' heure

Dieu labeure .

فالصدمات الخارجية تحدث في كثير من الأحيان الانطلاق الجبّار لمثل هذا التغيّر في الاحساس ، ويعتقد المرء أنه يرى أمارات وعجائب .

وكانت الثقة والمحبة تربطان بيني وبين شتلنج بأوثق رباط . وما من شك في أنني كنت قد أثّرت في مجرى حياته أيضاً تأثيراً حسناً وموفّقاً ، وقد كان مما يلائم طبيعته كل الملاءمة أن يحتفظ بكل ما يحدث من أجله في قلبه الممتنّ الرقيق ، ولكن صحبته لم تكن بالسارّة ولا بالمجدية بالقياس الى مجرى حياتي في تلك الأيام . والحق أنه كان يسرني أن أدع لكل امرىء الكيفية التي كان يريد بها أن يقوّم ويشكّل لغز أيامه ، ولكن طريقة نسبة كل شيء نلقاه من الخير بطريقة معقولة في مجرى حياة قائمة على المغامرة ، الى تأثير إلهيّ مباشر ، كان يبدو لي مفرطاً في الادعاء حقاً ، كما أن طريقة التصور القائمة على أن كل ما يعود بنتائج سيئة يصعب احتمالها ، ناجمة عن طيشنا وغرورنا ، في عَجَلة أو تهاون ، انما هو فنّ تربية الهي ، كان يستعصي على

عقلي . وعلى هذا فلم يكن في وسعي إلاّ أن أصغي الى الصديق الطيب ، ولكن من دون أن أردّ عليه بشيء سارّ، ولكن ما من شك في أنه كان يسرني أن أتغاضى عنه شأن كثير من الآخرين ، وكنت أحميه فيما بعد كما كنت أفعل من قبل ، اذا لم يتورع امرؤ ذو عقلية دنيوية مفرطة عن ايذاء طبعه الرقيق . ومن أجل ذلك لم أكن أدع خاطرة الرجل الخبيث تتناهى الى مِسْمعيه. وهو ذلك الرجل الذي صاح ذات مرة بكل جدّ قائلاً : « كلا ، لو كنت على علاقة حسنة مع ربّي ، مثل يونج ، لما توسلت الى الكائن الأعلى من أجل المال ، بل من أجل الحكمة والمشورة الحسنة ، لكيلا أرتكب كثيراً من الحماقات التي تكلّف مالاً وتجرّ وراءها سنوات الديون البائسة » .

ذلك لان الوقت لم يكن الآن وقتاً لمثل هذا الهزل والتجديف . وانقضت بضعة أيام بين الخوف والأمل . وتفاقم ذلك ، وتقلص هذا ، وتلاشى ، والتهبت عينا الرجل الطيب الصبور ولم يبق شك في أن العلاج قد أخفق . أما الحالة التي وقع فيها بذلك صديقنا فتستعصي على الوصف . لقد كان يدافع عن نفسه تجاه يأس هو من أشد أشكال اليأس استبطاناً وعمقاً وسوءاً . وأي شيء لم يكن مضيّعاً في هذه الحالة ! لقد كان في طليعة ذلك الشكر الأعظم من قبل المتماثل للشفاء ، العائد إلى النور من جديد ، ثم أروع ما يمكن للطبيب أن يُسرَّ به ، ألا وهو ثقة العدد الجمّ الغفير من الآخرين الذين هم في حاجة إلى العون . ثم السمعة التي خلّفت بها الممارسة الفاسدة لهذا الفن أسرة في وضع يائس . وجملة القول اننا كنا نمثل مسرحية أيوّب المزعجة من البداية إلى النهاية ، اذ كان الرجل المخلص يتولىّ بنفسه دور الأصدقاء اللائمين . وكان يريد أن ينظر الى هذا الحادث على أنه عقـاب لأخطاء ارتكبت حـتى ذلك الوقت ، وكان يبدو له كأنه نظر الى وسائل العين التي اتيحت له بطريق المصادفة

نظرة تجديفية على أنها رسالة ربّانية من أجل هذا الغرض ، وكان ينحي على نفسه باللائمة لأنه لم يدرس هذه المادة التي تبلغ ذروة الأهمية دراسة مستفيضة ، بل تصرف في معالجاته تصرفاً سطحياً فحسب ، وكيفما اتفق . وكان يعرض لنفسه في هذه اللحظة ما كان أصحاب المقاصد السيئة يغتابونه به ؛ فتولاّه الشك في أن هذا قد يكون حقاً أيضاً . وكانت أمثال هذه الأمور تؤلمه إيلاماً يزيد في عمقه أنه لم يكن له بدّ من اقتراف خطيئة الطيش البالغة الخطر بالقياس الى البشر الأتقياء ، بل كان مما يؤسفه أيضاً خطيئة الصلف والغرور في مجرى حياته ، وفي مثل هذه اللحظات كان يتعرّض للضياع . وكنا مهما أمكن لنا أن نتفاهم لا نصل آخر الأمر إلا الى النتيجة الضرورية عقلاً : وهي أن أحكام قضاء الرب لايُسبَر غورُها .

على أني كنت خليقاً أن أتعرّض لمزيد من الأذى في روحي المتطلّعة الى المرح لولا أنني أخضعت هذه الأحوال النفسية ، على الطريقة التقليدية ، للنظرة الودّية وأعددتها لنفسي على طريقتي ، إلاّ أنه كان يكدّر صفوي أن أرى أمي الطيبة تُجزى على عنايتها وجهدها المنزلي هذا الجزاء السيء ، على أنها لم تكن تحس بذلك في نفسها الرضيّة ذات النشاط الذي لاينقطع . أما والدي فكان أمره يؤلمني أشد الإيلام . لقد كان قد وسّع من أجلي ادارةً منزلية قائمة على الصرامة ، وبصورة لائقة ، وكان يطيب له جداً أن يستمتع بصورة خاصة ، على المائدة ، بحديث مرح ، بل متباين ، حيث كان وجود الغرباء يجتذب الأصدقاء المحليين أيضاً ، كما يظل يجتذب المسافرين العابرين مرة بعد أخرى ، اذ كنت أتيح له ؛ عن طريق ضروب شتى من المبارزة الجدلية ، ارتياحاً كبيراً وابتسامة ودودة . ذلك لانني كنت أمارس الأسلوب الفظيع القائم على المشاكسة في كل شيء ، ولكني لم أكن أعاند إلاّ الى الحدّ الذي يغدو عنده ذلك الذي هو على الحق ، عرضة للضحك

على كل الأحوال . ولم يكن من الممكن على الاطلاق التفكير في ذلك في الأسابيع الأخيرة . ذلك لأن أكثر الأحداث إسعاداً وبهجة ، وهي تلك التي أثارتها المعالجات الجانبية الموفقة من قبل الصديق الذي تولته التعاسة الكبيرة من جراء المعالجة الرئيسية ، ما كان ليحدث أثراً ، بل كان أجدر كثيراً ألاّ يتيح للمزاج الكئيب منعطفاً آخر .

ذلك لأن هذا هو ما أضحكنا به على وجه التفصيل متسوّل يهودي شيخ كفيف ، من ايسنبورج(١) ، اذ اقتيد الى فرانكفورت ، وهو في ذروة البؤس ، فلم يكن يستطيع أن يجد مأوى ، ولا غذاءً ضئيلاً ورعاية ، ولكن الطبيعة الشرقية الصلبة أسعفته على نحو حسن جداً بحيث رأى نفسه وقد شفي شفاءً كاملاً من دون أدنى المتاعب. وحين سأله القوم هل آلمته العملية أجاب على سبيل المبالغة : « لو كان لي مليون عين ، لوددت أن أُجريَ لها العملية ، كل مرة بدرهم ونصف ، واحدة فواحدة. وعند رحيله كان سلوكه في الزقاق يتسم بالغرابة ذاتها. كان يحمد الله بأسلوب العهد القديم ، ويثني على الرب وعلى صاحب العجائب ، وعلى رسله . وكذلك كان يخطو ، في هذا الشارع الطويل الحافل بالصنائع ، ببطء نحو الجسر . وكان الباعة والمشترون يخرجون من الحوانيت وقد باغتتهم هذه الحماسة النادرة التي يُعبر عنها بحرارة أمام العالم كله ، وقد استثيروا للتعاطف الى حدّ أنه سُعِد بالأعطيات الجزيلة زاداً الطريق من دون أن يطلب أي شيء أو يلتمسه .

ولكن لم يكن يحق للناس في محيطنا أن يأتوا على ذكر مثل هذا الحدث البهيج . ذلك لأنه في الوقت الذي كان من الممكن أن يُظنّ فيه أن الأشد بؤساً كان على بؤسه المنزلي ، في ذروة السعادة ، في

موطنه الرملي على الجانب الآخر من الماين فقد كان واحد من ذوي اليسار والنبالة يفتقد على هذا الجانب من الماين الراحة التي لاتقدّر ، والتي كانت مناط الأمل أول الأمر .

ومن أجل ذلك كان من المزعج بالقياس الى صاحبنا الطيب أن يتلقى الألف جولدن التي دفعها بطريقة نبيلة أناس من ذوي الشهامة، وكانت مشروطة على كل حال . وكان يقصد بهذه النقود أن تسدّد لدى عودته جزءاً من الديون التي كانت تلقي بثقلها على ظروف كئيبة ، بل تعيسة .

وكذلك فارقنا بغير عزاء ، لأنه كان يتوقع في عودته استقبال زوجة مثقلة بالهموم ، ولقاءً متغيراً من قبل أبَوَيْ زوجه اللذين كان من الممكن أن يعتقدا أنهما خُدِعا في اختيار رفيق حياة لابنتهما . وكان في وسعه منذ الآن أن يتنبّأ بالسخرية والتهكم من قبل أولئك الذين كانوا يريدون به السوء وهو بعدُ في سعادته ، في هذا البيت وذاك ، ومن هذه النافذة وتلك. ولم يكن للممارسة التي عطّلها مجرد غيابه بد من أن تثير مخاوفه الى أقصى الحدود .

وهكذا أذ نّا له في الذهاب ، على أن ذلك لم يكن بغير أمل من جانبنا ، لأنه معدِنه الطيّب ، القائم على الإيمان بمعونةٍ ممّا ورا الطبيعة لم يكن له بدّ من أن يبثّ الثقة المتواضعة الهادئة في أصدقائه .

# الكتاب السابع عشر

حين أعود الى الخوض من جديد في قصة علاقتي بليلي يجب عليّ أن أتذكر أنني أنفقت أمتع الساعات معها ، في حضور أمها حيناً ، ووحدها حيناً آخر . وقد كان القوم يثقون ، من خلال كتبي ، بمعرفتي بالقلب البشري كما كان الناس يسمّون ذلك في تلك الأيام . وبهذا المعنى كانت أحاديثنا منطوية على الأهمية من الوجهة الأخلاقيه(١) ، على أية طريقة .

ولكن كيف كان المرء يريد أن يتحدث عمّا في داخله من دون أن يكشف بصورة متبادلة عن طوية نفسه ؟ ومن أجل ذلك لم يلبث الأمر طويلاً حتى روت لي في ساعة من ساعات الصفاء قصة صباها . كانت قد نشأت على التمتع بكل المزايا الاجتماعية ، ومباهج الدنيا . ووصفت لي اخوتها وأقاربها وكذلك الظروف المحيطة بهم ، إلاّ أن أمها ظلّت في غموض مهيب . وكان التفكير يتناول النقائص الصغيرة : وعلى هذا لم يكن في وسعها أن تنكر أنها كان لابدّ لها أن تلاحظ في نفسها موهبة معينة في اجتذاب الناس اليها ، وذلك ما كان يرتبط به في الوقت نفسه تسليم بخصلة معينة ، ووصلنا من خلال ذلك ، عن طريق الأخذ والرد ، الى النقطة الحرجة ، وهي أنها مارست هذه

الموهبة بحقّي أيضاً ، على أنها لقيت عقوبتها ، اذ اجتُذِبَت من قبَلي أيضاً .

وكانت هذه الاعترافات تصدر عن طبيعة يبلغ من نقائها وطفوليتها أنها استحوذت عليّ بذلك استحواذاً بالغ الشدّة .

ونشأت الآن حاجة متبادلة ، الى أن يرى أحدنا الآخر ، بل اعتيادٌ لذلك . وكم كان عليّ أن أعاني من الحرمان في بعض الأيام ، وفي بعض الأمسيات ، الى الليل حين لم أكن استطيع أن أعقد العزم على رؤيتها في محافلها ! !

وكانت علاقتي بها علاقة الفرد بالفرد ، علاقة بالابنة الجميلة الساحرة ، بل كانت من طراز أسمى . ومع ذلك فلم أكن ألقي بالاً إلى المظاهر الخارجية ، والى تدخل ظرف اجتماعي وتكرار تدخله . وكانت قد نشأت حاجة لاسبيل الى كبتها ، فلم أكن استطيع أن أكون من دونها ، ولا هي أن تكون من دوني ، ولكن يا لها من أيام ضائعة ، وساعات مبدّدة ، تلك التي نجمت عن البيئات والمؤثرات الخاصة بأعضاء معينين من محيطها !

فهناك حفلات اللهو التي كانت تنتهي الى أن تكون حفلات إزعاج ، والأخ المعوّق(١) الذي كان عليّ أن أتبعه في سفره ، والذي كان ينجز أعماله أول الأمر بمنتهى التقاعس والبطء أول الأمر ، ولست أدري لعله كان يصدر في ذلك عن سرور بالأذى ، على أنه كان يفسد بذلك كل الموعد الذي أُحْسِنَ تقديره . كما أني مضطر هنا أيضاً الى اجتناب الأشكال الأخرى من الإصابة والتقصير ،

ونفاد الصبر والحرمان ، وكل هذه الضروب من العذاب التي كانت خليقة أن تجد بلا ريب قراءً مشغوفين في أية رواية اذا ما رويت بمزيد من التفصيل . ولكن لكي أقرب مع ذلك هذا الوصف التأمّلي النظرة الحية من تعاطف الشباب ، لابأس في إيراد بعض الأغاني التي هي معروفة في الحقيقة ، ولكن ربما كانت معبرة هنا بوجه خاص :

ياقلبُ ، ياقلبي(١) ، إلامَ يفضي هذا ؟
وما الذي يُهمُّك الى هذا المدى ؟
فيا لها من حَياة غريبة جديدة !
اني ما عدت أعرفك
لقد تولّى كل ما أحببت ،
بعيداً ، ففيم تكدّر صفوك ،
وتولّى نشاطك ، وراحتك —
فواعجباً ، أنّى وصلت الى هذا ؟

* * *

أفيكبّلُك ريعان الشباب ،
هذا الطيف الساحر ،
وهذه النظرة المترعة بالإخلاص والطيب
بعنفوان لا نهاية له ؟
فاذا أردت أن أتخلص منها سريعاً ،
وأن أحزم أمري ، وأهرب منها ،
عاد بي طريقي اليها .

* * *

وعلى هذا الخيط السحري الصغير
الذي لا ينصرم
تمسك بي الفتاة الحبيبة النَزِقة
بصورة محكمة ، على غير ارادتي
ولابد لي أن أعيش الآن
في مجال سحرها ، وعلى طريقتها
فأعْجِبْ به من تغيير عظيم !
ويا أيها الحبُ ، يا حبُّ ، أطلق سراحي !

* * *

لماذا تجتذبيني (٢) اجتذاباً لايقاوم
الى بهائك ؟
أوَ لم أكن أنا الفتى الطيب جدّ سعيد
في الليلة الموحشة !

* * *

كنت راقداً في ضوء القمر
موصداً عليَّ حجرتي الصغيرة ، في الخفاء
وضوء القمر المرتعش ينساب حواليّ ، محدقاً بي تماماً
وغفوت .

* * *

هنالك جعلت أحلم بالساعات الذهبية المترعة ،
ساعات المتعة الخالصة
وكان قد أحسّ بذلك الطفل العزيز
في أعماق صدري .

أتراني مازلت ذلك الذي كنت تمسك به
على طاولة اللعب ، تحت كثير من الأضواء
والذي طالما وضعته قبالة كثير
من الوجوه التي لاتطاق ؟

* * *

وازدهار الربيع عندي أكثر فُتوناً
غير أنه ليس في المروج الآن
وحيثما كنتَ ، أيُّهذا الملاك ، كان الحبّ والمروءة
وحيثما كنت ، كانت الطبيعة .

فلو أن امرءاً تلا على نفسه هذه الأغانيَّ متدبِّراً ، وقد يكون خيراً من ذلك أن تُقدَّم تقديماً غنائياً مع الشعور ، فلا ريب أنْ ستهبّ نفحةٌ من رغد تلك الساعات السعيدة .

ومع ذلك فلسنا نريد أن نغادر ذلك الرهط الكبير المتألّق مسرعين من دون أن نضيف قبل ذلك أيضاً بعض الملاحظات،ونفسر بوجه خاص خاتمة القصيدة الثانية .

لقد قابلتني تلك التي لم أتعوّد رؤيتها إلاّ في ثياب المنزل البسيطة التي قلما كانت تتغير ، قابلتني الآن متألقة في هندام أنيق من الزيّ الشائع ، ومع ذلك فقد كانت هي ذاتها تماماً ، وظل سحرها ومودتها كالعهد بهما ، إلاّ أنني أودّ أن أقول ان موهبتها في الاجتذاب برزت بصورة أكبر ، إلاّ أن يكون ذلك لأنها كانت تقف في مواجهة كثير من الناس ، وكانت تجد سبباً لتفصح عن ذاتها إفصاحاً أكثر حيوية ، ولتُعدد جوانب نفسها من وجوه عدة ، تَبعَاً لما يَعرُض

لها به هذا أو ذاك . وجملة القول انني لم أستطع أن أنكر تجاه نفسي أن هؤلاء الأغراب كانوا يقعون مني في الحقيقة موقعاً مزعجاً من ناحية ، وأنني لم أُحرم مع ذلك قدراً كبيراً من السرور اذ تعرّفت على فضائلها الاجتماعية ، وتبيّن لي أنها ناضجة أيضاً لظروف أوسع وأكثر عموماً .

أكان مع ذلك هو الصدر ذاته ، المحتجب الآن وراء الأناقة ، الذي كان قد كشف لي عن باطنه ، والذي كنت أنظر فيه بمثل الوضوح الذي كنت أنظر به في صدري ، أو كانت حقاً هي الشفاه ذاتها التي وصفت لي في وقت جد مبكر الظرف الذي نشأت فيه والذي قضت فيه سنواتها . لقد كانت كل نظرة متبادلة ، وكل ابتسامة مصاحبة تنبيء عن تفهم خفي نبيل . وقد كان يأخذني العجب ، حتى هنا وسط الجمهور ، من التوافق الخفي البريء الذي كان قد تم بأكثر الطرق انسانية وطبيعية ومع ذلك فقد كان ينبغي لمثل هذه العلاقات أن تشدّها حرية الريف ، مع الربيع القادم ، برباط أوثق ، وكانت أوفنباخ(١) على الماين تبشّر منذ تلك الأيام ببدايات هامة لمدينة كانت تُؤْذِن بالتكوّن فيما بعد . وكانت قد برزت مبانٍ جميلة فخمة بالقياس الى تلك الأيام . وكان العم برنارد(٢) الذي أريد أن اسميه على التوبكنية عائلته ، يقطن أكبرها ، وقد ألحقت بها مبانٍ صناعية على نطاق واسع . وكان يسكن قبالتها دورفيل(٣) ، وهو رجل أصغر سناً ذو حيوية وخصال جديْرة بالأعجاب . وكانت الحدائق المتصلة بها ، والمرابع التي تصل حتى الراين ، والتي تفسح في كل مكان ، مخرجاً الى المناطق المجاورة الساحرة ، تتيح للداخل والمقيم ارتياحاً عظيماً . ولم يكن في وسع المحبّ أن يجد مكاناً لمشاعره مرغوباً أكثر منه .

وأقمت عند يوهان أندريه(١) . وفي الوقت الذي يجب عليّ فيه أن أذكر هنا هذا الرجل الذي حقق لنفسه فيما بعد ما يكفي من الشهرة ، يجب عليّ أن أسمح لنفسي باستطراد صغير لأقدّم بعض التصوّر عن حركة الأوبرا في تلك الأيام .

ففي هذا الزمان كان مارشاند(٢) يدير المسرح في فرانكفورت ، ويحاول أن يحقق ما يمكن تحقيقه عن طريق شخصيته الخاصة . وكان رجلاً وسيماً ضخم البنية حسن القوام ، في أفضل سنواته . وكان الجانب المريح الليّن يبدو له هو السائد ، ومن أجل ذلك كان حضوره على المسرح مستحباً بما فيه الكفاية . والراجح أنه كان يحوز من الصوت قدر ما كان المرء يحتاجه حقاً في تلك الأيام لاخراج الأعمال الموسيقية على كل حال . ومن أجل ذلك كان يجتهد في تقديم الأوبرات الفرنسية الصغرى والكبرى .

وقد أصاب نجاحاً بوجه خاص في (الأب) في الأوبرا الجريترية*(٣) «الجميلة أمام الغول» ، حيث تمكن من أداء اللفتات بصورة معبرة للغاية في الرؤيا التي أقيمت وراء الضباب .

على أن هذه الأوبرا بأسلوبها الناجح حقاً اقتربت من الأسلوب الرفيع ؛ وكانت ملائمة لإثارة أرق المشاعر . وفي مقابل ذلك كان شيطان من شياطين الواقعية قد استحوذ على مسرح الأوبرا ، فظهرت الأوبرات الخاصة بموقف معين ، والأوبرات المهنية ، وكان قد تقدمها أوبرات «الصيادون(٤ ) و«تجار البراميل» ، ونحو ذلك مما لا

---

(١) نسبة الى أندريه جريتري ( A.Grètry ) ، من كبار مؤلفي الأوبرات الهزلية الفرنسية (١٧٤١ – ١٨١٣ ) .

واختار اندريه لنفسه «الخزّاف» وكان قد كتب القصيدة بنفسه ، واستخدم في النص العائد اليه كل موهبته الموسيقية .

وكنت قد أقمت عنده . ولست أريد أن أتحدث عن هذا الأديب والمؤلف الموسيقي البارع (١ )دائماً إلا بمقدار ما يقتضيه المقام هنا .

كان رجلاً ذا موهبة فطرية حية . وكان في الحقيقة مستوطناً في أوفنباخ بحكم كونه تقنيّاً وصناعياً . وكان يراوح خطاه بين رئيس الفرقة والمتذوّق . وكان يجتهد بصورة جدية في ترسيخ قدمه في الموسيقا بصورة عميقة على أمل بلوغ تلك المنزلة . وكان آخر من يميل الى تكرار مؤلفاته تكراراً لا نهاية له .

ويُذكر من الشخصيات التي برهنت في تلك الأيام على ذروة الفعالية في سد الفراغ وبثّ الحياة فيه ، القس ايفالد(٢) الذي كان يعرف ، على ما يتحلى به من حضور البديهة والمرح الاجتماعي ، كيف يقوم بالدراسات المتصلة بواجباته وطبقته بهدوء ، وبنفسه ، كما اشتهر فيما بعد أيضاً ، شهرة مجيدة ضمن مجاله اللاهوتي ، ولا بد أن يحسب له حساب في أوساط تلك الأيام بحكم كونه امرءاً لايُستَغنى عنه ، في فهمه وفي جوابه .

وكان العزف الليلي(٣) على البيانو يشدّ صاحبنا الطيّب أندريه بصورة كاملة الى رهطنا . ولم يكن هناك إلاّ القليل من الساعات التي لم يكن يتدخل فيها في حياة العائلة ، وفي النظام اليومي للحياة الاجتماعية معلّماً ، وموجهاً ، ومنفّذاً .

وقد تم على يديه تلحين «لينوريه(٤)» لبورجر ، وكانت في تلك الأيام جديدة كل الجدّة في المام الناس بها ، وقوبلت بالحماسة من قبل الألمان ، وكان يقدمها بسرور ، مراراً .

بل كنت أنا أيضاً على استعداد لانشادها ، اذ كنت كثيراً ما أقدمها تقديماً نابضاً بالحياة ، ولم يكن الناس يملّون بعدُ في تلك الأيام من اللون الواحد المتكرر . وكان الرهط اذا تُركَ له أن يختار أيّاً من كِلَيْنا يرغب أن يسمع حكماً لصالحي في أكثر الأحيان

ومهما يكن من أمر هذا كله فانه لم يكن يفيد العاشقين إلاّ في اطالة أمد اللقاء ، اذ لايعرفون كيف يعثرون على النهاية . وقد كان من السهولة بمكان أن يدفع يوهان بأندريه الطيب ، عن طريق الاغراء المتبادل بينهما معاً الى الحركة التي لاتنقطع ، والى أن يطيل أمد موسيقاه بالاعادة حتى الى ما بعد منتصف الليل وقد أمّن كلا العاشقين لنفسيهما بذلك حضوراً قيمّاً لا يستغنى عنه .

وكان المرء اذا خرج من البيت عند الصباح الباكر جداً وجد نفسه في الهواء الطلق الى أبعد الحدود ، ولكنه لم يكن في الريف حقاً ، فكان ثمة مبانٍ مرموقة كانت في ذلك العصر خليقة أن تضفي الشرف على المدينة ، وحدائق يحيط بها البصر في صورة مدرجات فيها أحواض للأزهار ، وسوى ذلك من الأحواض التزيينيّة ، وإطلالةٌ عامة على النهر حتى الضفة الأخرى ، وملاحة نشيطة منذ الصباح في معظم الأحيان ، بالمعدّيات وسفن القَطْر المشدودة ، والقوارب ، وعالم نابض بالحياة ينساب في لين ودَعَة ، منطوياً على أحاسيس قديمة مستعذَبة متناغمة ، بل ان مرور الأمواج المصطخبة ، ووَشْوَشات القصب على نهر يتحرك بهدوء ، باتا منعشَيْن الى أقصى الحدود ، ولم يقصّرا في نشر سحر يبعث الطمأنينة البالغة في نفس القادم . وكانت سماءٌ مشرقة ، هي سماء أجمل الفصول ، تخيم على ذلك كله ، وما

كان أعذب ما يجد الرهطُ المُؤْتَلِفون أنفسهم فيه عند الصباح من جديد ، وقد أحاطت بهم أمثال هذه المشاهد .

فاذا بدا مثل هذا النمط من الحياة للقارىء الجادّ مع ذلك مفرطاً في الاسترخاء ، مغرقاً في التهاون ، فليُدخِل في حسبانه أنه كان يتخلّل ذلك الذي يوصَف هنا ، كما هو في سياقه ، مراعاةً لأسلوب السرد ، أيام وأسابيع من الحرمان ، وصُروفٌ أخرى ، وضروب أخرى من النشاط ، بل كان هناك سآمة لاتحتمل ، وعلى صورة تثير الاشمئزاز .

وكان الرجال والنساء منشغلين انشغالاً شديداً في نطاق واجبهم ، كما أنني لم أقصّر ، أنا أيضاً ، في تَدَبُّر ما يترتّب عليّ بالنظر الى الحاضر والمستقبل . وكنت أجد بعدُ ما يكفي من الوقت لإنجازٍ كانت موهبتي وهوايَ الجامح يدفعان بي اليه دفعاً لا سبيل الى مقاومته . وكان فن الشعر يقتضيني أولى ساعات الصباح ، وكان النهار المتقدّم مخصصاً لشؤون الدنيا التي كانت تعالج بطريقة خاصة تماماً ، وكان والدي الحقوقي ، متعمّقاً ، بل مدقّقاً ، يتولى بنفسه شؤونه التي كانت تفرض عليه ادارة أمور ثروته ، كما تفرض الاتصال بالأصدقاء الذين كانوا يحظون بالتقدير . وعلى الرغم من أن شخصيته لم تكن تسمح له بالممارسة العملية ، اذ كان مستشاراً امبراطورياً ، فقد كان مع ذلك ، في متناول أيدي بعض الأصدقاء الحميمين ، صديقاً حقوقياً ، اذ كانت المذكرات المُنْجَزَة تُوَقّع من قبل محامٍ مسجّلٍ كان يعود عليه كل توقيع من أمثال هذه التوقيعات بعائد معقولٍ .

على أن قدومي لم يزد نشاطه إلاّ حيويّة ، وقد استطعت أن ألاحظ على نحو مؤكد تماماً أنه كان يقدر موهبتي أكثر مما يقدر ممارستي

وكان من أجل ذلك يفعل كل شيء ليفسح لي الوقت الكافي لدراساتي وأعمالي الأدبية . وكان يدرس الملفّات على أنها معلّم سريّ في التدقيق ، دراسة عميقة حاذقة ولكنها بطيئة التصور والتنفيذ . وكنا اذا التقينا طرح عليّ المسألة ، وكان انجازها يتحقق من جانبي بسهولة كانت تصل به الى ذروة المتعة الأبوية ، ولم يتورّع ذات مرة عن التصريح أيضاً بقوله : لو كنت غريباً عنه لحسدني .

وانضم الينا من أجل تسهيل هذه الأمور كاتب(١) لو أُحْسِن وصف شخصيته وطبعه ، لكان من الممكن أن يُحسِّن روايةً ويزينها . فبعد سنيّ الدراسة التي أحسِن استعمالها ، والتي تمكن فيها من اللاتينية كل التمكن ، كما حصّل معارف جيدةً أخرى ، قطَعت الحياةُ الجامعية المفرطةُ في الطيش ما تبقى من مسيرة أيامه . وكان يجرر أذياله حيناً من الزمان في حالة من البؤس . ولم يتحول الى ظروف أفضل إلاّ فيما بعد مستعيناً بخط بالغ الحسن وبراعة في الحساب . وتعرّف شيئاً فشيئاً ، بمساندة بعض المحامين . على شكليات سير المعاملة القانونية بصورة دقيقة ، واتخذ من كل أولئك الذين كان يعمل في خدمتهم رعاةً له ، وكان قد التزم تجاه بيتنا أيضاً ، وكان تحت تصرفنا في كل المسائل القانونية والحسابية .

وكان هذا الآن يقوم بجانبه بأعمالنا المتوسعة على نحو مطرد . والتي كانت تتعلق بالشؤون القانونية كما تتعلق ببعض المهمات والطلبات والارساليات . وكان يعرف في دار البلدية كل الأساليب والحيل ، وكان متمرساً على طريقته في كلا الضربين من المقابلات الخاصة بالعمدة . ولما كان يعرف حق المعرفة بعض السادة الجدد في

مجلس الشورى الذين سرعان ما ارتقى بعضهم الى قضاة محلفين ، وذلك منذ دخولهم في الوظيفة ، بسلوكهم الذي كان مايزال مفتقراً الى الثقة والاطمئنان ، فقد اكتسب ثقة معينة كان في وسع المرء أن يسميها بحق نوعاً من النفوذ ، وعرف كيف يستعمل هذا لمنفعة أوليائه . ولما كانت صحته تضطره الى أن يمارس نشاطه بصورة معتدلة فقد كان الناس يجدونه دائماً على استعداد لانجاز كل مهمة ، وكل طلب ، بعناية .

ولم يكن حضوره بالمستكره . كان نحيل الجسد ، وكان وجهه عاديّ التكوين ، ولم يكن سلوكه متسماً بالثقل ، على أنه كان مع ذالك طلق الأسارير بارعاً فيما يتصل بالعقبات التي يجب اكتساحها ، في تعبير عن الاطمئنان الى قناعته بما ينبغي عمله . وكان من الجائز أن يكون موغلاً في الأربعيات . وانه ليؤسفني بعدُ ( ويحق لي أن أكرر ما ذكرت آنفاً ( أنني لم أدخله ، في صورة عجلة مُحرّكة ، في آليّة أية أقصوصة من الأقاصيص .

وقد يحق لي ، وأنا آمل أن أكون قد أرضيت قرائي الجادين بعض الرضى من خلال ما سردت ، أن أتوجه من جديد ألى تلك النقاط اليومية المتألقة حيث كانت الصداقة والمحبة تتجليّان في أجمل بهائهما .

أما العناية والسرور في الاحتفال بأعياد الميلاد ، مع بعض التغيير ، فذالك أمر يكمن في طبيعة تلك الروابط . وقد نظمت هذه القصيدة من أجل عيد ميلاد القس ايفالد :

في كل الساعات الطيبّة(١)

التي يرتقي فيها الحب والخمر

يجب أن تُغَنّى هذه الأغنية ،
مُحْكَمَةً من قبلنا !
وليحفظ الله الذي جاءَ بنا الى هنا
ملتئماً شملنا
وليجدد ألسنة اللهيب فينا
فانه هو الذي أوقدها .

ولما كانت القصيدة محفوظة حتى اليوم الحاضر ، ولم يكن من اليسير أن يجتمع رهط مرح على مأدبة من دون أن تنبعث فيها الجدّة مرة أخرى فاننا نوصي بها أيضاً ذريتنا ، ونتمنى لكل أولئك الذين يتلونها وينشدونها ، المتعة والانشراح ذاتهما ، مثلما كنا في تلك الأيام نحس ، من دون أن نفكر بأي عالم آخر ، اذ نحن في دائرتنا المحدودة ، أننا توسعنا الى عالم آخر .

ولكن المرء سينتظر الآن أن يحتفل بصورة خاصة بعيد ميلاد ليلي(١) الذي تكرر في المرة السابعة عشرة في ٢٣ حزيران ١٧٧٥ . وكانت قد وعدت أن تأتي الى أوفنباخ عند الظهيرة . ويجب علي أن أعترف أن الأصدقاء كانوا قد استبعدوا من هذا الاحتفال ، في توافق سعيد ، كل العبارات المنمّقة التقليدية ، واعدّوا أنفسهم لاستقبالها وتسليتها بمجرّد ضروب المودة الحارّة التي كانت لائقة بها.

وكنت ، وأنا مشغول بأمثال هذه الواجبات الممتعة أرى الشمس مائلة للمغيب ، وهي تبشر بنهار تالٍ مشرق ، وتعد حفلنا بحضورها البهيج المتألق ، حين دخل الحجرة جورج ، أخو ليلي ، الذي لم يكن يستطيع أن يكتم ما في نفسه بصورة بعيدة عن التهذيب تماماً ، وبيّن

من دون مداراة أن حفلنا الصباحيّ قد تكدّر ، وأنه لايعرف هو نفسه كيف حدث ذلك ، ولا من أي طريق . ولكن أخته تبلغنا أنه يستحيل عليها البتة أن تأتي غداً في الظهيرة الى أوفنباخ وأن تسهم في الاحتفال المخصّص لها ، وأنها تأمل في التمكن من تحقيق وصولها في مستهل المساء فحسب ، وأنها تشعر الآن حق الشعور ، وتعلم حق العلم : كيف أن هذا لابد أن يكون له وقع مزعج عليّ وعلى أصدقائنا ، وهي ترجوني ، بقدر ما تستطيع من الإلحاح والحرارة البالغة : أن أخترع شيئاً ما يغدو به المزعج في هذا الخبر الذي تكل أمر الإفضاء به اليّ ، لطيفاً ، بل جميلاً ، وأنها تريد أن تشكر لي ذلك أجزل الشكر .

وأخلدت الى الصمت برهة ، وكنت قد سكت في الوقت ذاته أيضاً ، ووجدت ، بما يشبه الالهام الربانيّ ، ما ينبغي عمله ، وصحت قائلاً : « أسرع يا جورج ، وقل لها ان عليها أن تطمئن كل الاطمئنان ، وأن تجعل من الممكن أن تأتي عند المساء ، وأنا أعد أن هذه المصيبة بالذات ينبغي أن تتحول الى احتفال ، وستحوذ الفضول على الفتى ، وودّ لو يعرف ما عسى أن يكون ذلك ، على أن هذه الرغبة قوبلت بالرفض العنيد على الرغم من توسّله بكل الفنون والسلطات التي يجرؤ على ممارستها أخ لمحبوبتنا .

ولم يكد يبتعد حتى أخذت أغدو وأروح في حجرتي وأنا مزهوّ بنفسي زهوا غريباً ، وقد داخلني الشعور البهيج الطلق بان الفرصة قد سنحت هنا لأظهر أني خادم لها بطريقة باهرة ، وحبكت عدداً من صحائف الورق بالحرير الجميل ، كما يليق بقصيدة المناسبات ، وأسرعت الى كتابة العنوان :

«لن تأتي !(١)»

مسرحية عائلية فاجعة ، سوف تقدم والشكوى الى الله : في الثالث والعشرين من حزيران ١٧٧٥ ، في أوفنباخ على الماين ، بأكثر الأساليب طبيعية ، والحدث يستغرق من الصباح الى المساء» .

ولما لم يكن لهذه الدعابة مسوّدة ، ولا نسخة ، فقد سألت عنها في كثير من الأحيان ، ولكنني لم أستطع أبداً أن أحيط علماً بشيء من هذا القبيل ، ولذلك فأنا مضطر الى اعادة نظمها من جديد مرة أخرى ، وذلك ما لا يصعب عليّ بوجه عام .

أما ميدان الرواية فهو بيت دورفيل وحديقته في أوفنباخ ، والحدث يستهل بالخادمات ، حيث تقوم كل منهن بليورها بدقة ، وتغدو ترتيبات الحفل واضحة كل الوضوح ، ويتدخل الأطفال في ذلك وقد تمت صياغتهم على نحو مستمد من الحياة ، ثم السيد والسيدة مع ضروب خاصة من النشاط والمؤثرات ، ثم يأتي المؤلف الموسيقي هانز أندريه ، الجار الذي لايعتريه الكلل في الوقت الذي يختلط فيه كل شيء في اطار انشغال سريع معيّن . ويجلس الى «الجناح(*)» ، وينادي على القوم ليجتمعوا اليه جميعاً ، وليصغوا الى اغنية الحفل التي فرغ منها للتوّ ، ويقوم بتجربتها ، ويجتذب اليه البيت كله ، ولكنهم ينفضون عنه جميعاً ليتابعوا أعمالاً ملحّة ، ويستدعي الواحد منهم الآخر ، ويحتاج كل منهم الى الآخر ، كما يؤدي وصول البستاني في هذه الأثناء الى لفت الأنظار الى مشاهد الحديقة والمياه والأكاليل ، وبكرات الأشرطة ذات النقوش الكتابية ، من الطراز البالغ الزخرفة » ، ولا ينسى شيء .

---

(*) آلة موسيقية كبيره

وحين يجتمع القوم الآن حول أكثر الموضوعات اثارة للبهجة يدخل ساعٍ له الحق في اداء دور شخصية من الشخصيات أيضاً ، وهو من طراز السعاة الغادين الرائحين ؛ وقد تمكن ، عن طريق أعطية مفرطة في السخاء ، أن يلاحظ على وجه التقريب أي نوع من الأحوال يسود هنا ، وهو يُزهى بعض الزهو بطُرْده ، ويأمل قدحاً من الخمر ورقائق من الخبز ، ويناول الآن البرقية بعد شيء من التمنّع الخبيث . أما ربّ البيت فتنسدل يداه وتسقط الأوراق على الأرض ، ويصيح قائلاً : « دعوني أمضي الى المائدة ! دعوني أذهب الى الخزانة لكي استطيع أن أمسح بيدي فحسب .

وهذا اللقاء المستظرف بين أناس يستمتعون بالحياة يتميز قبل كل شيء برمزية لغوية وايمائية ، وينشأ نوع من اللغة الخاصة بالمحتالين التي تسعد المتمرّسين ؛ وتظل خافيةِ على الأغراب ، أو تكون ، حين يلاحظونها ، مزعجة الى أقصى الحدود .

وقد كان من أجمل خصائص ليلّي خاصّةٌ يُعبّر عنها هنا بالكلمة والإيماءة في صورة ضربة باليد ، وهي التي كانت تحدث حين كان يقال شيءٌ يصدم الشعور أو يُنْطَقُ به ؛ ولا سيما حين كان القوم يجلسون الى المائدة أو يكونون على مقربة من سطح منبسط .

وقد كان الأصل في ذلك سوء أدب لاحد لظُرفِه ارتكبَتْه ذات مرة حين أقدم غريب يجلس الى جانبها الى المائدة على نحو غير لائق ، ومن دون أن تغيّر ملامح وجهها الظريف مسحت بيدها اليمنى ، بظرف فائق ، على خوان المائدة ، فأزاحت كل ما بَلَغته بهذه الحركة اللطيفة الى الأرض في غير مبالاة . ولست أعرف كل ذلك ؛ من سكين وشوكة

وخبز ومملحة ، ومنه ما يختص باستعمال جارها ، وذعر القوم جميعاً ، وهرول الخدم ، ولم يعرف أحد ما عسى أن يعني هذا سوى المتفرجين من حولها الذين سرهم أنها ردّت على عمل غير لائق ، وسوّته بهذه الطريقة البالغة الظرف .

واذاً فقد عُثر هنا على رمزٍ من أجل رفض شيء مثير للاشمئزاز مما كان يرد حقاً في بعض الأحيان في مجتمع مهذّب طيب ، جدير بالتقدير ، سليم المقاصد ، على أنه ليس ، مع ذلك ، بالمجتمع الذي أُشرب ثقافة . وقد كنا نحن جميعاً نسمح لأنفسنا بالحركة باليد اليمنى ، حركةً رافضة ، أما الإزاحة الحقيقية للأشياء فلم تسمح هي لنفسها بها فيما بعد إلاّ بصورة معتدلة ، وعلى نحو ينطوي على الذوق . واذاً فحين يُسْبِغ الأديب الآن على ربّ البيت هذه الرغبة في المسح ، هذه العادة التي تحولت عندنا الى طبيعة في صورة إيماءة ، فانما يرى المرء ما هو مهمّ ومؤثر . ذلك لأنه في الوقت الذي تهدد فيه بالازاحة كل شيء عن كل الأسطحة ، يصدّه القوم جميعاً ، ويحاولون تهدئته ، الى أن يلقي بنفسه آخر الأمر ، في المقعد ، اذ أنهكه الجهد كل الانهاك .

ويصيح القوم قائلين : « ماذا حدث ! أهي مريضة ؟ وهل مات أحد ؟ وينادي دورفيل : «اقرأوا ! ، اقرأوا ! ، انها هناك ، راقدة على الأرض ، وتُلتَقَط البرقية ، ويقرأها القوم ، قائلين : «لن تأتي»

وكان الفزع الكبير قد انتشر ممتداً الى فزع أكبر ، — ولكنها كانت بخير حقاً ! — ولم يصبها شيء ! — ولم يصب أحد من الأسرة بأذى ، وبقي الأمل معلقاً على المساء .

وفي النهاية أقبل أندريه الذي كان في هذه الأثناء يواصل عزف الموسيقا ، وجعل يعزي ، ويلتمس لنفسه العزاء ، ودخل أيضاً القس

ايفالد ، وزوجه بصورة متميزه ، بأستياء ، ، وتعقّل ، وتعفّف على غير ارادته ، واستعداد معتدل ، ولكن كل شيء كان ما يزال يجري مختلطاً بعضه ببعض ، الى أن يقبل آخر الأمر العم برنارد الهادىء بصورة انموذجية ، وهو يتوقع إفطاراً جيداً وغداء مستحسناً ، وهو الوحيد الذي ينظر الى المسألة من وجهة النظر الصحيحة ، ويلقي كلمات مواسية متعقلة ، ويعيد كل شيء الى توازنه مثلما يتمكن الإآه في المأساة الاغريقية تماماً ، من ازالة الارتباك لدى أعظم الأبطال بقليل من الكلمات .

وتم تدوين هذا كله خلال جزء من الليل بقلم سيال ، وسُلّم الى ساع أُبلغَ بوجوب وصوله بتمام الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي مع البرقية الى أوفنباخ .

وحين أبصرت الصباح البالغ الاشراق استيقظت وقد حزمت أمري وتأهبت للوصول كذلك عند الظهيرة الى أوفنباخ .

واستُقبِلت بأعجب وابل عاصف من الزعيق . أما الحفل الذي فسد فلم يكد يجري له ذكر . وكانوا يُنحون باللائمة ويشتمون لأنني أصبتهم في الصميم . أما الخدم فقد سرّهم أن يظهروا مع السادة على المسرح ذاته ، إلاّ أن الأطفال الذين هم الواقعيّون(١) الأشدّ صراحة ونزاهة ، أكّدوا بعناد ، أنهم ما كانوا ليتكلّموا على هذا النحو ، وأن كل شيء خليق أن يكون مخالفاً كل المخالفة لما ورد مكتوباً هنا . وقد هدّأت من روعهم ببعض الزيادات في أعطيات الحلوى والفاكهة ، وأحبّوني كشأنهم دائماً ، ثم ان مأدبة غداء بهيجة واقتصاداً في كل ضروب الاحتفال أضفيا المزاج الحسن علينا ، وكانت ليلّي بغير

أبّهة ، ولكن ربما كانت على هذا أكثر فتنة في الاستقبال ، وأقبلت ، ورحبّت بها الوجوه المشرقة ، بل الجذلى ، وهي تكاد تشعر بالصدمة لأن تخلفها يتيح كل هذا القدر من المرح . وروى القوم لها كل شيء ، وتَلَوْا عليها كل شيء ، وشكرتْ لي ، على طريقتها الفاتنة الحلوة ، وعلى قدر ما استطاعت .

ولم يكن الأمر يحتاج الى حدة ذهن خاصة ليلاحظ المرء أن تخلّفها عن الحفل المخصص لها لم يكن بطريق المصادفة ، بل كان ناجماً عن اللغط المتصل بعلاقتنا ، ولم يكن لذلك في هذه الأثناء أدنى أثر ، لا في أفكارنا ، ولا في سلوكنا .

ولم يكن ليُفْتَقَد في هذا الفصل من السنة التدفّق الجماعي من المدينة بصورة متعددة الجوانب ، وكنت في كثير من الأحيان لا أعود الى جماعتي إلاّ في ساعة متأخرة من المساء فأجدها مشاركة في الاهتمام من حيث المظهر ، ولمّا لم أكن أظهر في معظم الأحيان إلاّ ساعات قلائل فقد كان يسرني أن أكون ذا نفع في أي شيء من الأشياء ، اذ كنت أسعى في تأمين ما عظم وما هان من حاجاتها ، أو آتي لأتولىّ أي مهمة لها ، ولا ريب أن هذه الخدمة هي أكثر ما يمكن أن يلقاه الإنسان مما يبعث على البهجة ، كما يمكن أن تروي أمثاله لنا قصص الفروسية بطريقة غامضة في الحقيقة ولكنها قوية .

أمّا أنها كانت تسيطر عليّ فذلك مالا سبيل إلى إخفائه ، وقد حقّ لها بلا ريب أن تسمح لنفسها بهذا الفخر : فههنا ينتصر الغالبون والمغلوبون ، وينشرح كلاهما صدراً بالكبرياء ذاتها .

غير أن تأثيري هذا المتكرر ـ الذي لم يكن في معظم الأحيان إلاّ قصير الأجل ، كان يزداد قوةً مع الأيام ، وكان يوهان أندريه يملك

دائماً احتياطياً من الموسيقا ، كما كنت آتي ، أنا أيضاً ، بالغريب والجديد الخاصّ ، فكانت تنهلُ أزهار الشعر والموسيقا ، وكان زماناً متألّقاً أيّما تألّق ، وكان ثمة توتر معيّن يهيمن على الجماعة ، ولم يكن الناس يصادفون قطّ لحظات صحو من السكر ، وكان هذا يتجلىّ للآخرين من علاقتنا من دون سؤال البتّة. ذلك لأنه حيثما يبرز الهوى والعاطفة المحتدمة في طبيعتهما الخاصة الجريئة يَهَبان الجرأة للنفوس الوَجِلة التي لاتدرك الآن لماذا ينبغي لها الآن أن تستخفي بحقوقها المماثلة . ومن أجل ذلك أخذ الناس يطلعون على علاقات مستخفية بدرجة تقلّ أو تكثر ، اذ كانت الآن تشق طريقها بغير وجل ، أما الآخرون الذين لم يَدَّعوا ذلك يُعرَف عنهم فكانوا يشاركون في التسلل وراء الستار على نحو مريح .

وكنت اذا لم أستطع أيضاً ، بسبب الأعمال المعقدة ، أن أقضي الأيام هناك عندها ، أتاحت الليالي المشرقة الفرصة للقاء مطول في الخلاء ، وذلك أن من شأن النفوس العاشقة أن تتقبّل الحدث المتأخر بصدر منشرح .

لقد كان ظرفاً ورد مكتوباً عنه : « اني أنام ، ولكن قلبي يقظان(١) » . وكانت ساعات الاشراق وساعات الظلام قد استوت بعضها مع بعض ، ولم يكن في وسع ضوء النهار أن يطغى على ضوء الحب ، كما تحوّل الليل بفعل تألّق الهوى الى نهار بالغ الاشراق .

وكنا قد تجولنا تحت أصفى سماء من النجوم حتى ساعة متأخرة في المنطقة الخالية ، وبعد أن صحبتها والمجموعةَ من باب الى باب ، الى البيت ، وودّعتُها آخر الأمر ، كان احساسي بالنوم قليلاً الى

درجة أنني لم أقصّر في القيام بجولة جديدة ، فذهبت الى الطريق الريفيّ الى فرانكفورت ، لأُسْلِم نفسي الى أفكاري وآمالي ، وجلست على مقعد طويل في سكون الليل المتناهي في صفائه ، لأخلوَ الى نفسي ، واليها .

وكان مما بدا لي جديراً بالملاحظة لحنٌ يصعب تفسيره ، قريبٌ الي كل القرب ، ولم يكن صَلْصَلَةً ، ولا هديراً ، على أنني اكتشفت ، مع المزيد من الانتباه ، أنه تحت الأرض ، وأنه من عمل حيوانات صغيرة ، وربما كان قنفذاً ، أو بناتٍ عِرسْ ، أو ما يمكن أن يقوم بمثل هذا العمل في مثل هذه الساعة .

وكنت قد أوغلت بعد ذلك في الطريق الى المدينة ، في جبل رودَرْبرج(٢) حيث كان في وسعي أن أتعرّف على الادراج التي تؤدي صعوداً الى كروم العنب ، من بريقها الأبيض الكلسيّ ، وقعدت ، وغفوت .

ولمّا استيقظت من جديد كان قد خيّم الغسق . ورأيت نفسي في مواجهة السور العالي الذي كان قد أقيم في العصور السالفة وقاية من الجبال المنتصبة فوقه . وكانت زاكسنْهاوْزِن أمامي ، وكان الضباب الخفيف يشير الى طريق النهر ، وكان ناضراً محبّباً اليّ .

هنالك لبثت الى أن غدت الشمس المشرقة تضيء الجانب المقابل شيئاً فشيئاً . وكانت هذه هي المنطقة التي كان من المفروض أن أرى فيها الحبيبة من جديد . وكنت أعود أدراجي الهوينا الى الفردوس الذي كان يحيط بها وهي بعدُ نائمة .

ولكني كنت كلما اضطررت الى الإقلال من زياراتي لأوفنباخ من أجل نطاق العمل المتنامي الذي كنت أتوق الى توسيعه والسيطرة عليه ، حبّاً لها ، وكان لابد لها ، بفعل ذلك ، أن تسبب قَدْراً معيناً من الحرج المؤلم ، كان يلاحظ على نحو بالغ التوكيد أن المرء يخلّف وراءه الحاضر في الحقيقة ويفقده من أجل المستقبل .

فلمّا تحسّنت الآن آمالي في المستقبل شيئا فشيئاً جعلت أقدر أهميتها أكثر مما كانت عليه في الواقع . وزادني تفكيراً في حسمٍ عاجل أنّ علاقة علنية كهذه ما كان لها أن تتصل دونما إزعاج . ولم يكن أحدنا يعبّر عن ذلك بصراحة حيال صاحبه ، كما جرت العادة . ولكن الشعور بالارتياح المطلق المتبادل ، والايمان الكامل بأن الانفصال مستحيل ، والثقة الموضوعة من قبل كل طرف في الطرف الآخر ، كل هذا نجم عنه من الجدّ ما جعلني ، وأنا الذي كنت قد عقدت العزم على ألاّ أقيم مرة أخرى علاقة متعثّرة ، أجد نفسي مع ذلك متورّطاً من جديد في هذه العلاقة من دون يقين من نجاح مُوات ، ومصاباً حقاً ببلادة في الحسّ . ولكي أنقذ نفسي منها كنت أنغمس على نحو مطرد في أعمال دنيوية تافهة ، ولم يكن يحق لي مرة أخرى أن أؤمّل الظفر منها إلاّ بمجرد الحظوة والرضى من جانب الحبيبة .

وفي هذا الظرف العجيب الذي ربما كان المرء يحس في مثله ببعض الألم ، أسعفتنا صديقة من أصدقاء البيت نظرت نظرة متمعّنة جداً في مجمل العلاقات والشخصيات والظروف ، وكان الناس يسمّونها الآنسة دِلْف(١) ، وكانت تشرف ، مع أختها الكبرى على محلّ تجاريّ صغير في هايدلبرج ، وكانت تدين بكثير من الشكر ، في

وقائع شتى ، لمحلات الصيرفة الكبرى في فرانكفورت . وكانت تعرف ليلي وتحبها منذ الصبا . وكانت شخصية لها خصوصيتها ، وسمعتها الرصينة الرجولية ، وخطوتها المماثلة ، الخشنة السريعة ، الماضية قدماً الى الأمام . وكان لديها من الأسباب ما يجعلها تنسجم على نحو خاص في هذه الدنيا ، وقد عرفتها من أجل ذلك ، بمعنى معيّن ، ولم يكن في وسع المرء أن يعدّها من ذوات المكر ، فقد كان في وسعها أن تنظر في العلاقات نظرة طويلة ، وتواصل حمل نواياها بهدوء معها ، على أنها كانت تتمتع حينئذ بموهبة رصد الفرص . وكانت اذا رأت أفكار الأشخاص تتأرجح بين الشك والعزم ، على حين كان كل شيء يتوقف على الحسم ، عرفت كيف تبذل مثل هذه الطاقة المتمثلة في كفاءة الشخصية بحيث لم يكن من السهل أن تخفق في تنفيذ مشروعها . والحق انها لم تكن تنطوي على أغراض أنانية ، فقد كان حسبُها من الجزاء أن تعمل شيئاً ، أو تنجز شيئاً ، ولا سيما عقد الزواج ، وكانت قد أمعنت النظر ملياً في حالتنا ، وتقصّتها مع الحضور المتكرّر حتى استيقنت آخر الأمر أن هذا الميل يجب تشجيعه ، وأن هذه النوايا التي كانت مستقيمة ، ولكن لم تجر متابعتها ومبادرتُها بما يكفي ، خليقة أن تلقى المساندة ، وأنه يجب أن تُختتم هذه الرواية الصغيرة على أحسن الوجوه نفعاً .

وكانت تتمتع منذ كثير من السنين بثقة والدة ليلي . ولما أدخلت بيتي ، بوساطتي ، عرفت كيف تستميل والدي اليها . ذلك لأن هذه الشخصية المتسمة بالخشونة ، بالذات ، لاتعد مستثقلةً في الدولة — المدينة ، بل تعد موضع الترحيب بما تنطوي عليه من العقل في خلفيتها ، وكانت مُلِمّةً برغائبنا وآمالنا إلماماً حسناً للغاية ، ورأى حبُّها لنأثير

رسالةً في ذلك ، وجملة القول انها كانت تتفاوض مع الوالدين ، فلم تكد تشرع في ذلك حتى أزاحت العقبات التي ربما وقفت في طريقها — وخلاصة القول أنها تدخل علينا ذات مساء ، وتجيء بالموافقة ، ثم انها تصيح بنا ، بطبيعتها الآمرة ، المتعاطفة . ووقفت قبالة ليلّي ، وقدمت اليها يدي ، فوضعت يدها عليها ، والحق انها لم تكن مترددة ، بل كانت بطيئة ، وبعد شهيق عميق سقط كل منا بين ذراعي الآخر بحرارة . .

وكان قراراً غريباً من العليّ المهيمن علينا ، كان علي أن أشهدَه أيضاً في مسيرة حياتي العجيبة كما يخطر ببال العريس .

وقد يحق لي أن أقول ان هذا هو أكثر الذكريات عذرية على الاطلاق بالقياس الى رجل أخلاقيّ . وانه لممّا يسر المرء أن يستعيد تلك المشاعر التي يصعب التعبير عنها وقلّما يتهيّأ له الافصاح عنها . لقد تغير الظرف السابق تغيّراً مطلقاً ، فقد أزيلت التناقضات الأكثر بروزاً ، وسُوي النزاع الأكثر عناداً . فالطبيعة الجموحة ، والعقل الذي يوجه التحذير أبداً ، والدوافع المستبدّة ، والشريعة المعقولة التي كانت في العادة تثير لدينا نزاعاً مقيماً دائماً ، كل هذا تطهّر الآن في وحدة متوائمة . وفي المهرجان التَقَويّ المحتفل به على نطاق عام يُطالَب بالمحظور ، ويُرفَع المستنكَر الى واجب لا مفرّ منه .

غير أن المرء سيسمع ، مع الاستحسان الأخلاقيّ ، أنه كان ثمة تغيّر معيّن في العقلية يحدث لديّ منذ هذه اللحظة ، فلئن كانت تبدو لي حتى الآن جميلة ساحرة ، جذابة ، فقد باتت تبدو لي الآن نبيلة من ذوات الشأن . لقد كانت شخصيّة مزدوجة، وكان بسحرها

وعذوبتها مما يخصّني ، وكنت أشعر بهذا كما كنت أشعر به من قبل ، ولكن قيمة شخصيّتها ، وثقتها بنفسها ، وحسن الاعتماد عليها في كل شيء ، كل هذا ظل خاصاً بها ، وكنت أرمقه وأنظر اليه نظرة ثاقبة ، وكان يسرني من حيث كونه رأسمال كنت خليقاً أن أشارك في الاستمتاع بفوائده مدى الحياة .

ولقد عُبِّر عن ذلك منذ عهد طويل ، بحقّ ودلالة ، فعلى قمة الظروف لايصمد المرء طويلاً . وقد تم الإقرار بالموافقة التي انتُزعَت بوساطة الآنسة دِلْف ، في الحقيقة ، من الوالدين في كلا الجانبين ، على أنها موافقة ثابتة غالبة، في صمت ، ومن دون شكليّات أخرى. ذلك لأن المثاليّ ، كما يستطيع المرء في الواقع أن يَسِم به هذه الخطْبة ، لايكاد يدخل الواقع حتّى تنشأ أزمة حين يكون المرء قد اعتقد أنه ختم المسألة تماماً . فالعالم الخارجي عالم قاسٍ قسوة مطلقة ، وهو يتمتع بالحق ، اذ لابدّ له أن يكرس نفسه تكريساً نهائياً ، على أن الثقة بالعاطفة كبيرة ، ومع ذلك فنحن نراها في كثير جداً من الأحيان تخفق في مواجهة الواقعيّ الماثل أمامها ، فالأزواج الشباب الذين يسمحون لأنفسهم ، ولا سيما في هذا العصر المتأخر ، بالدخول في هذه الظروف من دون أن يتزوّدوا بالزاد الكافي ،لايمكنهم حقاً أن يمنّوا أنفسهم بشهور عسل ، اذ ان هناك عالماً يهددهم تهديداً مباشراً بمطاليب لا تحتمل ، وهي ، اذا لم يتحقق اشباعها ، تدع الزوجين الشابين يبدوان من أهل العبث .

ولم يكن في وسعي أن أدرك من قبلُ قصور الوسائل التي كنت قد لجأت اليها بصورة جدّية بغية الوصول الى هدفي ، لأنها كانت

خليقة أن تكفي حتى نقطة معينة ، غير أنها زادت الهدف قرباً الآن ، وأبت أن تتلاءم هنا وهناك كل التلاؤم .

والآن برزت النتيجة المخادِعة التي تجدها العاطفة مريحة الى هذا الحد ، في تنافرها الكامل شيئاً فشيئاً ، فقد كان لابد أن يُنظَر بشيء من اليقظة الى بيتي ووضعي العائلي في خصوصيته الكاملة . ولا ريب أنه كان يكمن في أساس ذلك شعور بأن مجمل ذلك انما يقوم على زوجة ابن . ولكن أي نوع من النساء كان يدخل في الحسبان في هذا الصدد ؟

لقد تعرّفنا ، في نهاية المجلّد الثالث ، على المرأة الرصينة ، الظريفة ، المتبصّرة ، الجميلة ، البارعة ، التي تظل هي ذاتها دائماً ، والمفعمة بالهوى ، والخالية من الأهواء ، وكانت هي واسطة العقد في قبة تم تشييدُها وتدويرها ؛ ولكن لم يكن في وسع المرء أن ينكر هنا ، لدى التأمل الهادىء ، غير المتحرج ، أنه لكي يَكِل المرء الى هذه المُكْتَسَبة حديثاً مثل هذه المهمة أيضاً ، كان لابد له أن يشيد قبّة جديدة .

وفي هذه الأثناء لم يكن هذا قد اتضح لي بعدُ ، ولا لَها ، ولكن كنت اذا تمثلت نفسي في بيتي ، وفكرت في ادخالها فيه بدا أنها لاتلائمني ، كما أنني كنت اضطر الى تغيير ملابسي من حين الى آخر ، بل الى تبديلها مرة أخرى ، لمجرد الظهور في محافلها ، لكيلا أكون مخالفاً لأهل اليوم والأزياء السائدة ، غير أن هذا ما كان ليتم حيال نظام منزليّ تبدو فيه الأبهة المتقادمة الآن في بيت من بيوت الطبقة الوسطى ، فخمٍ ، حديثِ البناء ، كأنما ساقت النظام في طريق رجعيّ .

وكذلك لم يكن من الممكن أن تتكوّن أيضاً حتى بعد هذه الموافقة المكتسبة ، علاقة بين الوالدين ، ويمَهّد لها السبيل ، ولا روابط

عائلية وكان هناك تقاليد دينيّة مختلفة ، وعادات مختلفة ، فاذا أرادت تلك الساحرة أن تستأنف نمط حياتها الى حد ما لم تجد في البيت الفسيح ، بلياقته ، فرصة ، ولا مجالاً .

ولئن كنت حتّى الآن قد ضربت صفحاً عن هذا كله فقد كانت نظرات جميلة تنفتح من الخارج فتهدئني وتقوّيني ، من أجل الوصول الى مركز مزدهر . وتدب روح النشاط في كل مكان ، وتبعث ألوان المقدرة والمواهب على الثقة ، ويحسب كل امرىء ان كل شيء انما يتوقف على مجرد الاتجاه المتغيّر . فالشباب المندفع يجد التشجيع ، والناس يثقون للعبقرية بكل شيء ، لأنها لاتقدر إلاّ على ما هو مؤكد حقاً .

وكان تيار الأدب والفكر الألماني في تلك الأيام يُنظَر اليه في الحقيقة على أنه فتح جديد تماما ، وكان بين رجال الأعمال أناس يرغبون في زُرّاعٍ بارعين ، ومدبّرين أذكياء من أجل الأرض التي يجب حراثتها من جديد . وقد تمكنت ألوان النجاح التي حققتها الماسونية(١) ذات السمعة الحسنة والأساس الجيد ، والتي كنت قد تعرّفت على أعضائها من خلال علاقتي بليلّي ، من التمهيد لتقاربي معها بطريقة بارعة . أما أنا فقد كنت أرفض كل ارتباط وثيق ، بدافع الشعور بالاستقلال الذي بدا لي فيما بعد جنوناً . ولم أكن مدركاً أن هؤلاء الرجال لابد أنهم كانوا خليقين بلا ريب ، بما اتسموا به من الوحدة بمعناها الأسمى ، أن يكونوا عوناً لي على أهدافي القريبة جداً من أهدافهم .

وأعود أدراجي الى أشد الأمور خصوصية .

ففي أمثال هذه المدن ، مثل فرانكفورت ، توجد أماكن جماعية ، ومقار . ووكالات يمكن أن تتوسع بغير حدود عن طريق النشاط . وقد تجلىّ لي مثل هذا أيضا لدى النظرة الأولى على نحو مفيد ومشرف في الوقت ذاته . وكان القوم يفترضون أنني متلائم معهم ، وكانت المسألة خليقة أن تمضي على ما يرام أيضاً بشرط ذلك الثالوث الموصوف والخاص بالمستشارية . فالناس يسكتون عن الشكوك ، وينبىء بعضهم بعضاً بما هو ملائم ، والناس يتغلّبون على كل تردد عن طريق النشاط المتسم بالعنفوان ، وبذلك يدخل على الحالة شيء غير حقيقيّ دون أن تتعرّض العاطفة من جراء ذلك لتخفيف حدّتها .

وليس هنالك،في أوقات السلام ، مطالعة أكثر امتاعاً الجمهور من مطالعة الصحف العامة التي تقدم الينا الخبر السريع عن أحدث حوادث العالم ، فالمواطن الهادىء السليم يمارس من خلال ذلك ، بطريقة بريئة ، روح التخزّب التي لانستطيع ، ولا ينبغي لنا ، أن نتخلص منها ، وكل مواطن مطمئن يؤمّن لنفسه حينئذ ، وكأنما هو في سباق ، مصلحة تعسّفية ، وكسباً وخسارة غير جوهريّين ، ويهتم اهتماما بالغ الحيوية ، كما في المسرح ، ومع ذلك فهو مجرد اهتمام خياليّ ، بسعادة الآخرين وشقائهم . . وهذا الاهتمام يبدو في كثير من الأحيان تعسفياً ، ومع ذلك فهو يستند الى أسس أخلاقية . ذلك لأننا نهب الاستحسان الكبير للنوايا الجديرة بالثناء طوراً ، ثم لانلبث أن نتجه ، وقد جرفنا النجاح الباهر ، نحو من كنا خليقين أن نعيب مقاصده . وقد كان ذلك العصر يقدم لنا مادة خصبة لكل هذه الأمور .

وكان فريدريش الثاني الذي يعتمد على قوته يبدو أنه ما زال يتحكم بمصير أوروبا والعالم . وكانت كاترينا،السيدة العظيمة ، التي

حافظت على عرشها بنفسها ، وبصورة لائقة ، تفسح مجالاً واسعاً الرجال البارعين ذوي الحظوة العالية ، لتوسيع سلطان الحاكمة على نحو مطرد ، ولمّا كان هذا يحدث على حساب الأتراك(١) الذين اعتدنا أن نردّ بنظرة متعالية على الازدراء الذي كانوا ينظرون به الينا ، فقد كان يبدو أنْ ليس ثمة بشر يُضَحىّ بهم في الوقت الذي كان فيه أعداء المسيحية هؤلاء يسقطون بالآلاف ، وقد كان الأسطول المحترق في مينا تشيسمه سبباً في مهرجان عام للمسرّات في أرجاء العالم المتمدّن ، وكان كل امرىء يأخذ بحظه من كبرياء النصر حين عمد القوم ، لكي يحافظوا على صورة أصيلة لذلك الحدث الكبير ، ومن أجل الدراسة الفنيّة ، حتى الى نسف سفينة حربيّة في الهواء(٢) في ميناء ليفورنو . وبعد ذلك بوقت غير طويل يتسلم ملك شماليّ شاب زمام الحكم ، بمقدرته الخاصة أيضاً ، ولا يأسف الناس لمن يقمعهم من الارستقراطيين لأن الارستقراطية على إطلاقها لم تكن تتمتع بحظوة لدى الجمهور ، اذ كانت تحدث آثارها في الخفاء بحكم طبيعتها ، وكان يزداد أمنها كلما قلّلت من الحديث عن نفسها ، وقد كان أحرى بالقوم في هذه الحال أن ينظروا نظرة أفضل الى الملك الشاب(٣) لأنه كان مضطراً ، لكي يحافظ على التوازن مع الطبقة العليا ، الى رعاية الرهط الأدنى وتوثيق صلته به .

ولكن اهتمام العالم كان أكثر حيوية حين لاحت على شعب بأسره سيماء التحرر ، وكان القوم قد شاهدوا من قبل بسرور المسرحية ذاتها مصغّرة . فقد لبثت كورسيكا(٤) زمناً طويلاً نقطةً تتوجه اليها العيون . وكان باولي قد اجتذب كل القلوب اليه حين ذهب الى

انكلترا عبر ألمانيا . اذ لم يعد في مقدوره أن يتابع تحقيق مشروعه الوطني .
وكان رجلاً وسيماً أهيَف ساحراً ودوداً . وقد رأيته في دار بيتمان(١) حيث أقام وقتاً قصيراً ، وكان يقابل الفضوليين الذين كانوا يتزاحمون عليه ، بالمؤانسة المرحة ، ولكن كان من المفترض الآن أن تتكرر مشاهد مماثلة لذلك في القارة الأبعد(٢) ، وكان الناس يتمنّون للأمريكيين كل التوفيق ، وقد أخذت أسماء فرانكلين وواشنطن تلمع وتبرق في سماء السياسة والحرب ، وتحقّقت بعض الأمور من أجل التخفيف عن البشرية . وحين أظهر الآن ملكٌ جديد من ملوك فرنسا(٣) ، حسن المقاصد ، أفضل الرغائب ، وهي أن يقتصر على التخلّص من بعض أشكال الاستغلال ، يلتزم بأنبل الأغراض ، ويحقق اقتصاداً وطنياً يقوم على الكفاية بصورة منتظمة ، وأن يتخلى عن كل سلطة تعسفية ، وألاّ يحكم إلاّ عن طريق النظام وحده ، عند ذلك انتشرت في أرجاء العالم كله أكثر الآمال إشراقاً ، وبات الشباب الواثق يعتقد أن من حقه أن يمنّيَ نفسه وكل بني جنسه المعاصرين بمستقبل جميل رائع .

ومع ذلك فلم أكن أُسهِم في كل هذه الأحداث إلا بمقدار ما كانت تثير اهتمام المجتمع الكبير ، فلم أكن أنا ، ودائرتي الأضيق ، نُعنى بالصحف والأخبار ، بل كان يعنينا التعرّف على الناس ، أما البشر على اطلاقهم فكنا نطيب نفساً بالتغاضي عنهم .

وكان الوضع المطمئن للوطن الألماني الذي رأت مدينتي ومسقط رأسي نفسها مندمجةً فيه هي أيضاً منذ ماينوف على مائة عام ، قد حافظ على صورته محافظة كاملة على الرغم من بعض الحروب والهزات .
وكان من الأمور الباعثة لارتياح معين أن تدرّج المراتب المتناهي في تعقيده كان يبدو أنه يربط بين كل الشخصيات بدلاً من أن يفصل

بينها ، وذلك من الأعلى الى الأدنى : من الامبراطور نزولاً حتى اليهوديّ . فاذا كان ثمة ملوك يتبعون الامبراطور فقد كان الحق الانتخابي ، والحقوق المكتسبة المكرّسة في هذا الصدد يعطيان هؤلاء توازناً حاسماً . أما الآن فقد كان كبار النبلاء يرتبطون بالصف الملكي الأول ، بحيث كانوا يستطيعون ، بالنظر الى امتيازاتهم الهامة ، أن يعدوا أنفسهم أنداداً للأعلى ، بل أعلى منه بمعنى ما . اذ كان الأمراء الناخبون الكهنوتيّون يحتلون كل المجال الآخر ، في الصدارة ، كما كانوا يتبوّأون ، بحكم كونهم أحفاد النظام الهرميّ في المراتب مكاناً رفيعاً لا يُزاحَمون عليه .

فاذا تذكرّ المرء الآن المزايا الفائقة التي تمتّعت بها هذه الأسر المؤسّسة منذ عهد قديم في الوقت ذاته ، وفضلاً عن ذلك في الأوقاف ، وفي منظمات الفروسية ، والوزارات ، والاتحادات ، وجمعيات الأخوة ، استطاع أن يتصور بسهولة أن هذه الكتلة الكبيرة من الرجال ذوي الخطر الذين كانوا يشعرون أنهم تابعون وأندادٌ في الوقت ذاته ، انما كانوا يقضون أيامهم في سرور متناهٍ ، وفي نشاط دنيوي منظم ، وكانوا يُعِدّون ذريّتهم ، ويُسْلِمونها الى سرور مماثل ،دونما جهد خاص . على أن هذه الطبقة لم تكن تفتقر الى ثقافة فكرية ، لأن الثقافة العسكرية والتجارية العالية كانت قد برزت أول ما برزت بروزاً له شأنه منذ مائة عام ، واستحوذت على مجمل الوسط النبيل مثلما فعلت بالوسط الدبلوماسي أيضاً ، ولكنها تمكنت في الوقت ذاته أيضاً من اكتساب العقول عن طريق الأدب والفلسفة ، ووضعها في نقطة استشراف عالية ليست بالمؤاتية للحاضر كل المواتاة .

ولم يكن قد خطر بعدُ ببال أحد في ألمانيا أن يحسد تلك الكتلة الهائلة ذات الامتيازات ، أو يأبى عليها المزايا الدنيوية السعيدة ، وكانت الطبقة الوسطى قد انصرفت الى التجارة والعلوم دونما عائق ، وارتقت بذلك ، مثلما ارتقت عن طريق التقنية الوثيقة الصلة بها ، الى عنصر توازن هام . وكانت المدن الحرة تماماً ، أو نصف الحرة ، تشجع هذا النشاط ، كما كان الناس يحسون في ذلك بمتعة هادئة معينة . فأمّا من كان يرى ثروته تزداد ، ويرى نشاطه الذهني يتصاعد ، ولاسيما في المادة الحقوقية والسياسية ، فقد كان في وسعه أن يتمتع بنفوذ هام في كل مكان . ومع ذلك فكان المرء اذا ما وضع لدى أعلى محاكم الاستئناف ، وكذلك في أي مكان آخر ، مقعداً للأدباء أمام مقعد النبلاء ، كان من الممكن أن تتصادق النظرة الشمولية الأكثر حرية لأحدهما مع النظرة الأكثر عمقاً بسرور . ولم يعثر الناس في الحياة مطلقاً على أثر للخصومة ، وكان النبلاء آمنين بفضل امتيازاتهم التي لاسبيل الى بلوغها والتي أضفى الزمان عليها القداسة . وكان المواطن يرى أن مما لا يليق بمنزلته أن يطمح ، من خلال حرف مقدم على اسمه ، الى بريق ذلك الحرف . وكان لدى التاجر ، والتقني(١) ، ما يكفي من العمل لكي يتنافس مع الأمم التي كانت تخطو خطىً أسرع (٢) الى حد ما . وكان المرء اذا لم يشأ أن يراعي التقلّبات اليومية جاز له أن يقول بحق انه كان على الإجمال عصر طموح خالص على نحو لم يظهر مثله من قبل ولا أمكنت المحافظة عليه أيضاً وقتاً طويلاً فيما بعد ، بسبب ضروب التصعيد الخارجية والداخلية .

وفي هذا العصر كان مركزي مواتياً جداً لدى الطبقات العليا . ولئن كانت المنغّصات في «آلام فرتر» قد عُبِّر عنها بنفاد صبر يقع

على الحدود بين علاقتين(٣) معينتين ، فقد ترك القوم الأمور تأخذ مجراها بالنظر الى الجوانب العاطفية الأخرى في الكتاب ، اذ كان كل امرىء يشعر حقاً أن الغاية لاتتجه هنا الى تأثير مباشر .

ولكنني كنت قد تبوّأت مركزاً حسناً جداً لدى الطبقات العليا بفضل «جوتس فون برليشنجن » . ومهما يكن قد تحقق من أوجه البراعة في الأدب حتى ذلك الوقت، فقد تم تصوير الأحوال الألمانية القديمة بطريقة حافلة بالمعرفة وبارعة . فهناك ، في الطليعة ، الامبراطور الذي لا يُمَس ، مع بعض الدرجات الأخرى ، وفارس من الفرسان كان يفكر وهو في غمرة الوضع العام الذي لايسوده قانون ، أن يسلك سلوك الرجل الفذّ الخاصّ ، وهو سلوكٌ ان لم يكن قانونياً فقد كان مع ذلك مبنياً على الحق ، وهو يتورّط بذلك في أوضاع بالغة السوء . غير أن هذه العقدة لم تُلْتَقَط من الهواء ، بل عُرِضَت عرضاً متسماً بالحيوية المشرقة ، وكانت من أجل ذلك تتسم بقليل من المعاصرة أيضاً هنا وهناك . ولكنها معروضة مع ذلك دائماً بالروح التي يصوّر بها الرجل الطيب البارع نفسه ، أي بقدر ضئيل من محاباة النفس في سرده الخاص .

وكانت الأسرة ما تزال مزدهرة ، وكانت علاقتها بالفروسية الفرانكية قد ظلّت على تكاملها على الرغم من أن هذه العلاقات ربما غدت ، شأن بعض الأشياء الاخرى في ذلك العصر ، أكثر هُزلاً وأقل فعالية .

أما الآن فقد اكتسب النهر الصغير (ياجست) وحصن (ياجستهاوزن) معنى شاعرياً ، وباتا يطرقهما الزوار مثل دار البلدية في هايلبرون .

وكان القوم يعرفون أنني كنت قد وضعت في ذهني نقاطاً أخرى بعدُ من ذلك التاريخ المعاصر . وكان لبعض العائلات التي كانت ماتزال تنتسب ببراعة الى ذلك العصر ، متسع من الأمل في أن ترى آباءها الأوّلين كأنما بعثوا الى ضوء النهار .

وانما تتولّد متعة خاصة عامة حين يعيد المرء الى ذاكرةِ أمةٍ تاريخها بطريقة لبقة ، فهي تقرّ بفضائل أجدادها . وتضحك من نقائصهم التي تعتقد أنها تغلبت عليها منذ أمد طويل . ومن أجل ذلك لايمكــن أن يُفتَقد الاهتمام والاستحسان لــدى مثل هذا التصوير . وقد أتيح لي بهذا المعنى أن أتمتع بتأثير متعدد الجوانب .

ومع ذلك فربما كان مما يلفت النظر أنه لم يكن هناك نبيل في جملة عمليات التقارب العديدة ، وضمن عدد الشباب الذين لازموني . ولكن كان هناك في مقابل ذلك بعضُ من بلغوا الثلاثينات ، وكانوا يلتمسونني ويزورونني . وكان يخالط ارادتهم وطموحهم أمل سعيد في تكوين أنفسهم تكويناً جدّياً بالمعنى الوطني والانساني العام .

ذلك لأن الاتجاه الى الحقبة الواقعة بين القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر(١) كان قد تم تكريسه بصورة مطلقة ، وكان متسماً بالحيوية في هذا العصر ، وقد وقعت في يدي أعمال أولريش فون هوتّن ، وكان يبدو غريباً بما فيه الكفاية أنّ ما هو مماثل لما برز هناك بدا متجلّياً هنا أيضاً من جديد .

وقد نجد الرسالة التالية من أولريش فون هوتّن الى بيليبالد بركهايمر(٢) موضعاً ملائماً هنا .

«ان ما أعطتناهُ السعادة ، تعود فتنتزعه منا في معظم الأحيان ،
وليس هذا وحده ، بل ننا نرى كل شيء آخر يضاف الى الإنسان من
الخارج خاضعاً للمصادفة ، فأنا الآن أطمح الى الأمجاد التي وددت
لو أصل إليها بغير حسد ، بل بأي طريقة كانت ، اذ يتملكني ظمأٌ
شديد الى المجد حتى انني لأتمنى لو كان لي أكثر ما يمكن من ألقاب
النبالة ، وانه لخليق أن يسيء اليّ ، يا بيليبالد الغالي ، أن أعدّ نفسي
منذ الآن نبيلاً ، على الرغم من أنني ولدت بهذه المرتبة ، وفي هذه
العائلة ، ولهذين الأبوين ، اذ لم أشرّف نفسي بطموحي(٣) الخاص ،
وان في خاطري لعملاً كبيراً جداً ! فأنا أفكرّ تفكيراً أسمى !
لا من قبيل أنني أودّ لو أرى نفسي وقد ارتقيت الى طبقة أكثر نبلاً
وتألقاً . بل أودّ على نحو آخر لو التمس ينبوعاً أمتح منه نبالة خصوصية .
وألاّ أُعَد من النبلاء الحقيقيين راضياً بما أتلقاه من آبائي السالفين ،
بل أضيف الى ذلك المتاع بنفسي شيئاً آخر ينتقل مني الى ذريتي ،

من أجل ذلك أتجه بدراساتي وجهودي ، وأطمح الى هناك ،
وأنا على طرف النقيض في الرأي مع أولئك الذين يرون الغناء في
ما هو كائن . ذلك لأنه ما من شيء من أمثال ذلك يكفيني كما أنبأتك
بطموحي المنتمي الى هذا النوع ، وأنا أعترف بأني لا أحسد أولئك
الذين تخطّوْا ظروفي بعد أن انطلقوا من أدنى الطبقات . وهنا لا أتفق
في التفكير بحال من الأحوال مع رجال طبقتي الذين دأبوا على تعيير
أولئك الذين نبغوا بفعل براعتهم وهم من أصل متواضع . ذلك لأن
أولئك الذين استحوذوا على مادة المجد التي أهملناها نحن وتملكوها
يُفضّلون علينا بحق كامل ، ولئن كانوا أبناء دبّاغين ، أو صانعي

لبابيد ، فقد عرفوا كيف يصلون الى مثل ذلك مع صعوبة أكبر مما كنا خليقين أن نجد .

على أن غير المثقف الذي يحسد ذلك الذي نبغ عن طريق المعارف لاينبغي أن يسمىّ غبياً فحسب ، بل ينبغي أن يعد من البؤساء ، بل من أشد الناس بؤساً . وإنما يزعج نبلاءنا في هذا الخطأ بوجه خاص كل الخصوص أنهم ينظرون الى أمثال هذه الزخارف نظرة منحرفة . وإلاّ فما عسى أن يعني ، بحق الله ، أن يحسد المرء ذلك الذي يملك ما أهملناه نحن ؟ لماذا لم نجتهد في دراسة الشرائع ؟ والثقافة الحسنة(١) ، والفنون المثلى ، لماذا لم نتعلمها بأنفسنا ؟ لقد تقدمنا هنا حذّاؤون ، وصناع لبابيد ، وأصحاب عربات ، فلماذا تخلينا عن الموقع ، ولماذا تركنا أكثر الدراسات حرية الخدم ، وتُرِكْنا ، ويا العار ، لأوساخهم ؟ لقد استطاع كل بارع ، نشيط ، بطريقة قانونية كاملة ، أن يستحوذ على ميراث النبلاء الذي كنا نأنف منه ، وأن يستفيد منه عن طريق العمل . فيا لنا من أشقياء ! أو يهملون ذلك الذي يكفي كل امرىء من أدنى الناس ليَعْلُو علينا . ألا فلنمسك عن الحسد ولنجتهد في الوصول الى ما يتباهى به الآخرون في إزراء بنا معيب .

ان كل نزوع الى المجد أمر مشرف ، وكل كفاح من أجل ما هو مفيد فهو جدير بالثناء ، وليبق لكل طبقة مع ذلك شرفها الخاص ، ولتكن لها حليتها الخاصة بها !

ولست أريد أن أزدري تلك الصورة العائدة الى الأجداد ، ولا أشجار النسب التي أعدت اعداداً لائقاً ، ولكن مهما تكن قيمتها فانها لا تكون قيمتنا نحن إلاّ حين نجعلها خاصة بنا عن طريق الأعمال ،

كما أنها لاتستطيع البقاء حين لايتقبّل النبلاء الأخلاق التي تلائمهم .
وعبثاً يعرض عليك الأب السمين البدين من آباء تلك البيوت صور الأجداد المنصوبة . حين يكون هو نفسه ، وهو غير عامل ، أقرب الى أن يقارن بكتلة منه الى أن يماثل أولئك الذين تقدموه مضيئين له الطريق ببراعتهم .

لقد أردت أن أفضي اليك بكل هذا القدر من طموحي ومن جبلتي ، إفضاءً مفصّلاً بقدر ما هو مخلص .

وقد أتيح لي أن أسمع من أصدقائي ومعارفي النبلاء أمثال هذه الأفكار الطيبة ذات العنفوان ، والتي تبيّن نجاحها من خلال النشاط المستقيم ، وان لم يكن ذلك بقدر كبير من الانسياب المتسلسل . لقد كان هذا قد تحول الى عقيدة ، فلا بد المرء أن يكتسب نبالة شخصية . ولئن كان يظهر في تلك الأيام الجميلة أيُّ ضرب من التنافس فقد كان ذلك من الأعلى نحو الأسفل .

أما نحن الآخرين فقد كان لنا ما كنا نريده ، من الاستعمال الحرّ المسلّم به لمواهبنا التي حبتنا بها الطبيعة ، على النحو الذي كان من الممكن أن تكون عليه علاقاتنا المدنية على كل حال .

ذلك لأن مسقط رأسي كان له في هذا الصدد وضع خاصّ كل الخصوصية لم يحسب حسابه بالدرجة الكافية . فعلى حين كانت ممالك المدن الشمالية مؤسسة على التجارة المتوسعة ، والمدنُ الجنوبية على الفن والتقنية ، مع تراجع الأحوال التجارية ، كان هناك في فرانكفورت — الماين عقدة معينة يجب ملاحظتها وكان يبدو أنها تأتلف من الثروات التجارية والرأسمالية والأملاك العقارية وأملاك الأراضي ، ومن حب

المعرفة والجمع . وكان المذهب اللوثري يمسك بزمام القيادة ، وكان المشاركون القدماء في الميراث أو الملك يحملون اسم آل ليمبورج(١) ، وكان بيت فراو نشتاين(٢) في بداياته مجرد نادٍ ، أمين لما هو معقول ، على ما أحدثت الطبقات الدنيا من الهزّات ، ولم يكن الحقوقيّ ، ولا الميسور وذو التفكير الحسن . لم يكن أحد من هؤلاء مستبعداً من المنصب ، بل كان أولئك الحرفيون الذين تمسكوا بالنظام في الأوقات العصيبة أهلاً للمستشارية ، وان كانوا مجرد جامدين في أماكنهم . أما مراكز الثقل المقابلة القانونية الأخرى ، والمؤسسات الشكلية ، وكل ما يتصل بمثل هذا الدستور ، فكانت تتيح لكثير من الناس مجالاً للنشاط لم تكن التجارة والتقنية فيه تتعرضان للإعاقة بأي معنى من المعاني في وضع محليّ ملائم للتوسع .

وكانت فئة النبلاء العليا تعمل لنفسها غير محسودة ، ولا تكاد تلفت النظر : ولم يكن هناك بدّ لطبقة ثانية مقاربة لها أن تكون أكثر طموحاً ، وقد حاولت أن تلفت الى نفسها الأنظار ، مستندة الى قواعد من العائلات الموسرة ، من خلال المعرفة القانونية والسياسية .

وكان أولئك الذين يدعون بالاصلاحيين يشكلّون ، كما كان اللاجئون يفعلون ، في أماكن أخرى ، طبقة ممتازة ، وحتى حين كانوا يخرجون الى التعبّد في بوكنهايم(٣) يوم الأحد في مركبات جميلة كان ذلك على الدوام نوعاً من الانتصار على ذلك القسم من المواطنين الذي كان يحق له دخول الكنيسة سيراً على الأقدام في الطقس الحسن والرديء على السواء .

أما الكاثوليك فقلّما كان المرء يلاحظهم ، ولكنهم كانوا هم أيضاً قد باتوا يعون المزايا التي اكتسبها كلا المذهبين الآخرين .

# الكتاب الثامن عشر

ولا بدّ لي ، في صدد العودة الى الشؤون الأدبية ، أن أبرز ظرفاً كان له أثر عظيم على الشعر الألماني في تلك الحقبة ، ويجب ملاحظته بشكل خاص ، لأن هذا التأثير أتصل في مجمل مسيرة فننا الشعري حتى اليوم الحاضر ولا يمكن أن يتلاشى في المستقبل أيضاً .

لقد كان الألمان قد اعتادوا القافية منذ العصور القديمة ، اذ كانت تهيء مزية تتمثل في أن المرء يستطيع أن يتصرف بطريقة جد بسيطة ، ولم يكن يحتاج على وجه التقريب إلاّ أن يعدّ المقاطع الصوتية . أما اذا كان المرء ينتبه أيضاً الى الروح والمعنى في المقاطع الصوتية فكان يستحق الثناء الذي كان بعض الشعراء يعرفون كيف يحظون به . وكانت القافية تشير الى خاتمة الجملة الشعرية ، بل كانت حتى الأجزاء الأصغر من الجملة تلاحظ في حالة الشطرات الأقصر . وكانت الأذن ذات التكوين الفطري الحسن تُعنى بالتغيير والظرف ، ولكن القوم عمدوا الآن الى إسقاط القافية مرة واحدةمن دون أن يدخلوا في الحسبان أن مسألة قيمة المقاطع الصوتية لم تحسم بعد ، بل كانت صعبة الحسم . وكان كلوبشتوك في الطليعة(١) . أمّا مقدار جهده وما أنجزه فمعروف — وكان كل امرىء يشعر بما في المسألة من الافتقار الى اليقين ، وما كان ينشرح صدراً بالجرأة . ولما كانت تلك النزعة الطبيعية تستحثه فقد

لجأ الى النثر الشعري(١) ، وقد شقّت قصائد جسنر الرَعَوية الفائقة الجمال طريقاً لانهاية له ، وكتب كلوبشتوك الحوار في «موقعة هرمان» بالنثر ، وكذلك في «موت آدم» . وبفعل المسرحيات المأساوية الخاصة بالطبقة الوسطى ، وكذلك بفعل المسرحيات الدرامية ، هيمن اسلوب مسرحيّ رفيع مفعم بالاحساس ، وعلى نحو معكوس كان البحر اليمبيّ الحماسيّ الذي انتشر عندنا بفعل نفوذ الانكليز يستنزل الشعر الى النثر ، ولكن لم يكن في وسع المرء أن يتخلّى عن المطاليب المتصلة بالإيقاع والقافية بوجه عام ، ولم يستطع رامبلر(٢) الصارم حيال قضاياه الخاصة أن يتورع عن تطبيق هذه الصرامة على الأعمال الأجنبية أيضاً على الرغم من أن ذلك كان مبنّياً على مبادىء غير يقينيّة ، فقد كان يحوّل النثر الى شعر ، ويغيّر ويحسّن عمل الآخرين ، وذلك ما لم يستأهل به إلا قليلاً من الثناء . وقد زاد ذلك المسألة اضطراباً على اضطراب . ولكن الذين وُفِّقوا الى ذلك أكثر ما يكون التوفيق كانوا أولئك الذين يستخدمون القافية التقليدية مع انتباه معين الى قيمة المقطع الصوتي ، وكانوا يلاحظون ، وهم يستهدون بالذوق الطبيعيّ ، قوانين خفية غامضة غير مجزوم بها ، ومثال ذلك فيلاند(٣) الذي ظل يتخذ وقتاً طويلاً أنموذجاً للمواهب المعتدلة على الرغم من أنه كان يمتنع على التقليد ، على أن الممارسة ظلت غير واثقة الخطى على كل حال . ولم يكن منهم من لم يتعرّض للتيه في تلك اللحظة ، حتى أفضلهم . ومن هنا نجمت المصيبة المتمثلة في أن عصر العبقرية الحقيقي في شعرنا لم يُخرج إلاّ قليلاً مما يستطيع المرء أن يسميه صحيحاً في نوعه . ذلك لأن العصر كان هنا أيضاً متدفّقاً يطرح مطاليبه ، متسماً بالفعالية ، ولكنه لم يكن تأمّلياً ، ولم يكن يحقق الرضى عن الذات .

ومع ذلك فلكيْ يجد القوم أرضاً يضعون عليها أقدامهم من الوجهة الشعرية ، ولكي يكتشفوا عنصراً يستطيع المرء فيه أن يتنفس بفكر حرّ ، رجعوا بضعة قرون الى الوراء ، حيث برزت من خلال ظـرف من ظروف العمـاء مهارات جدّية بصـورة متألقـة ، وعلى هذا النحو عقد القوم أواصر المودّة من جديد مع فن الشعر في تلك الأيام ، وكان شعراء الغزل(١) قد باتوا مفرطين في البعد عنا ، ولم يكن هناك بدّ للمرء من أن يدرس اللغة أولاً ، ولم يكن هذا شأننا فقد كنا نريد أن نعيش ، لا أن نتعلّم .

وكان أقرب هؤلاء الينا هانززاكس (٢) ، الشاعر الفحل حقاً . كان موهبة أصيلة ، ولم يكن بالطبع مثل أولئك الفرسان ورجال البلاط ، بل كان مواطناً بسيطاً ، كما كنا نحن نفخر أيضاً بأن نكون كذلك ، وكانت الواقعية التعليمية تلائمنا ، وكنا نستعمل الإيقاع الخفيف ، والقافية المواتية على نحو مريح في بعض المناسبات . وكان يبدو أن هذا النمط ملائم جداً لشعر اليوم . وكنا نحتاج اليه في كل ساعة .

ولما كانت أعمال هامة من الأعمال التي تقتضي انتباهاً وعملاً يستغرق السنين ، بل العمر ، تبنى على أساس بهذا القدر من التهور ، وعلى بواعث طائشة بقدر يقل أو يكثر ، فان في وسع المرء أن يتصور كيف كانت ضروب النتاج العابرة الأخرى تتشكل فيما يتشكل ؛ ومن أمثلة ذلك الرسائل الشعرية(٣) ، والأمثال والأهاجي ، من أنواع شتى ، وذلك ما كنا نواصل الاقتتال فيه في الداخل ، والبحث عن النزاع عليه في الخارج .

ولم يتبقّ من ذلك إلاّ القليل باستثناء ما هو مطبوع(١) . وربما ظل ذلك باقياً وقد تكشف الملاحظات الموجزة لذوي الفكر عن الأصل والهدف بمزيد من الوضوح .

وقد يميل أولو النظر الأكثر تعمّقاً،والذين يواجهون مثل هذه الأشياء في المستقبل ، الى ملاحظة أن كل أمثال هذه الأطوار الغريبة كان يكمن في أساسها طموح شريف . وذلك أن الارادة المخلصة تتنازع مع الكبرياء ، والطبيعة مع التقليد ، والعبقرية مع ذاتها ، والشدة مع اللين ، والبراعة غير المتطورة مع الاعتدال المتطور ، بحيث يستطيع المرء أن ينظر الى ذلك السلوك بمجمله على أنه صراع الطلائع الذي يلي اعلان الحرب ، وينبىء عن نزاع عنيف . ذلك لأنه اذا نظر الى الأمر بدقة فان الصراع في هذه السنوات الخمسين لم ينتهِ خوضه بعدُ ، وهو مازال مستمراً ، إلاّ أنه في اقليم أعلى(١) .

وكنت قد ابتدعت ، مستهدياً بمسرحية للعرائس ، ومسرحية من مسرحيات الحجرة(٢) قديمة ، شخصية شوهاء جنونية تحمل عنوان «عرس الأبله» ، وكان المخطط على النحو التالي : الأبله «هانز فورست(٣)» الذي بلغ سن الأهلية القانونية للتوّ ، يريد أن يتزوّج فتاة غنية تدعى أورسِلْ بلانْدينهِ . أما وصيّة ، كليكيان بروستفليك ، وأمها أورسل ، الخ . . . فراضيان بذلك كل الرضا ، ويتم بذلك بلوغ الخطة التي تستغرق كثيراً من السنين ، وتتحقّق ، ولا يقوم هنا أدنى عائق ،

---

(١) Budenspiel مسرحية تمثل في حجرة بيت خصوصي ، أمام جمهور قليل من أهل البيت وأصدقائهم ويغلب أن يكون الممثلون أيضاً من هذا البيت ذاته .
«المترجم»

وانما يقوم الأمر كله في الحقيقة على مجرد أن رغبة الشابين في أن ينال أحدهما الآخر تتعرض للإعاقة بفعل طقوس الزفاف ، والاجراءات السائدة التي لا مندوحة عنها في هذا الصدد . وفي المقدمة يظهر طالب الزواج ويلقي كلمته التقليدية المبتذلة ، منتهياً بهاتين القافيتين :

عند صاحب حانة القملة الذهبية

هناك تقام مأدبة الزفاف

وللتخلص من مأخذ المساس بوحدة المكان كان يُرى في خلفيّة المسرح الحانة المذكورة ، متألّقة بشعاراتها ، ولكنها منصوبة كأنها تدور على لسان خشبة بحيث يمكن عرضها من كل الجوانب الأربعة ، مما يترتب عليه مع ذلك تغيير الكواليس الأمامية للمسرح بصورة بارعة .

ففي الفصل الأول كان الجانب الأمامي متجهاً صوب الشارع بشعاراته الذهبية المصنوعة وفقاً للمجهر الشمسي (٢) ، وفي الفصل الثاني يكون الطرف الجانبي متجهاً نحو حديقة المنزل ، وفي الثالث نحو غابة صغيرة ، وفي الرابع نحو بحيرة قريبة الموقع . . حيث يتم ، بوساطة ذلك التنبؤ بأنه لن يكلف مهندس الديكور اسدالُ ستار مع الأمواج المتلاطمة على المسرح كله ، حتّى كوة المُلقّن، الا قليلاً من الجهد في الساعات التالية .

غير أن الأهمية الحقيقية للمسرحية لم يجر التعبير عنها بعد . ذلك لأن النكتة الأساسية تعرّضت للتصعيد الى حد جنوني بحيث ان مجموع الشخوص في المسرحية كان يتألف من جملة من أسماء الشتيمة والازدراء الألمانية والتقليدية التي يتم بها التعبير عن شخصية الفرد ، وعلاقة كل فرد بالآخر في الوقت ذاته .

ولما كان من حقنا أن نأمل أنّ ما هو معاصر في المجتمع الفاضل ستُتيلى في المحيط العائليّ المهذّب أيضاً ،فانه لا يُباح لنا ما يُعدّ تقليداً في كل مُلْصَق مسرحيّ ، وهو أن نسمّي شخوصنا عليه كلاً بدوره . ولا أن نعرض المواضع التي يُبْلون فيها أحسن البلاء ، وبأشد أشكال الوضوح، كلاً في مكانه ، على الرغم من أنه لابد أن يتنجم عن ذلك، وبأشد الطرق سذاجة ، ملابسات مضحكة ساخرة لا مواربة فيها ، ونكات بارعة .

ونضيف ، على سبيل التجربة(١) ، صفحة نفوّض فيها أصحابنا الناشرين في الحكم على إمكانية القبول .

كان لابن الخال شوفت ، بسبب علاقته بالأسرة ، الحق في أن يُدعى الى الاحتفال ، ولم يكن لدى أحد ما يتذكره في هذا الصدد فعلى الرغم من أنه لم يكن يصلح لشيء في الحياة مطلقاً كان له وجود مع ذلك ، ولمّا كان موجوداً فان المرء لم يكن يستطيع أن ينكره بحكم اللياقة ، ولم يكن يجوز للمرء أيضاً أن يتذكر في ذلك اليوم من أيام الأعياد أنه كان غير راضٍ عنه في بعض الأحيان .

على أن المسألة كانت أخطر شأناً مع السيد شوركه ، اذ كان قد أسدى الى الأسرة نفعاً ، وان كان ذلك بالذات قد نفعه هو أيضاً ، وألحق بها الضرر في مقابل ذلك من جديد ، وربما كان ذلك لمصلحته ، وربما كان ذلك لأنه وجده ملائماً. أما أولو الذكاء الأكثر أو الأقل فقد وافقوا على قبوله ، وأمّا القلائل الذين كانوا يريدون أن يستبعدوه فلم يكن صوتهم راجحاً .

ولكن كان هناك شخصية ثالثة يعد الفصل فيها أمراً أصعب ، وكانت انساناً عاديّاً في المجتمع ليس أقل من الآخرين ، ليّن العريكة ،

دَمِثاً ، يمكن اتخاذه لأمور شتى ، وكان ينطوي على النقيصة الوحيدة :
وهي أنه لم يكن يطيق سماع اسمه . وكان لايكاد يسمعه حتى يتولاّه
في الحال غضب الأبطال ، أو كما يسميه الشمالي ، غضب الوحوش ،
ويهدّد بضرب كل من حوله يميناً ويساراً حتى الموت ، وكان ، وهو
في مثل هذه الحُميّا يلحق الأذى من ناحيه ، ويتعرض له من ناحية
أخرى ، كما اتخذ الفصل الثاني من جرّائه أيضاً نهاية بالغة الاختلاط .

وليس من الممكن هنا أن نفوّت الباعث على تأديب ماكلوت
اللصوصي . وذلك أنه يخرج متجولاً بمطبوعاته الملوّثة ، وحين يطلع
على الاستعدادات للعرس لايستطيع مقاومة الدافع الى التطفّل هنا
أيضاً ، وانعاش أمعائه المتضوّرة من الجوع على حساب الآخرين من
الناس ، ويُبْلِغ عن حضوره ، ويقوم كيليان بروستفايلك بتمحيص
ادعاءاته ، ولكنه يضطر الى ردّه ، لأن كل الضيوف ، كما يقال ،
من الشخصيات العامة المعترف بها ، وذلك مالا يستطيع المستدعي أن
يدعي الحقّ فيه . ويبذل ماكلوت(١) أقصى ما في وسعه ليبرهن على
أن له من الشهرة مثل مالأولئك القوم.ولكن لمّا كان كيليان بروستفايلك،
مديــــر المراسم الصارم ، يأبى أن يتزحزح عن موقفه، فان ذلك الذي
لم يذكر اسمه يهمّ ، في نهاية الفصل الثاني ، بعد أن شفي من غضبته
الوحشية ، بالطفيليّ الذي يمت اليه بصلة القربى الكاملة ، اهتماماً
يبلغ من إصراره أن هذا يقبل آخر الأمر بين سائر الضيوف .



وفي هذا الوقت أُبْلغ عن حضور الخرافيَيْن شتولبرج(٢) اللذين
أرادا أن يتحدثا الينا وهما يزمعان الرحيل الى سويسرا ، وكنت قد
دخلت ، بالظهور الشديد البكور لموهبتي في تقويم عرائس الشعر

بجوتّنجن(١)،في علاقة وديّة فائقة معهما ، ومع جملة من الشباب الذين تعد شخصيّتهم وأثرهم معروفين بما يكفي . وكان الناس قد كونوا في ذلك الزمان مفاهيم جد غريبة عن الصداقة والحب . والحق انه كان شباباً مفعماً بالحيوية ، ينفتح بعضه على بعض ، وكان يخرج بباطن ينطوي على الموهبة ، ولكنها موهبة غير مثقّفة ، وكان بين القوم علاقة كانت تبدو . في طبيعتها . مماثلة للثقة القائمة فيما بينهم ، تجاه الحب ، والهوى الصادق ، ولقد غُررْتُ عن نفسي في هذا الصدد مثلما غُرَّ الآخرون وعانيت من ذلك كثيراً من السنين بأكثر من طريقة ، وما زال يوجد رسالة من بورجر(١) من ذلك الزمان ، يتبيّن منها أن الحديث بين هؤلاء الرفاق لم يكن وارداً بحال من الأحوال عن الجماليّ من الوجهة الأخلاقية . لقد كان كل امرىء يشعر بالانفعال ويعتقد أن من حقه بلا ريب أن يتصرّف ويقرض الشعر وفقاً لذلك الانفعال .

ووصل الأخوان ، ومعهما الجراف هاوْجفتس(٢) ، واستقبلا من قبلي بصدر منشرح ولياقة سمحة ، وأقاما في الفندق ، ومع ذلك فقد كانا يَشهدان مائدتنا في معظم الأحيان ، وقد أظهر اللقاء الأول المرح أنه سار الى أقصى الحدود ، ولكن مالبثت أن ظهرت أعراض غريبة .

وطرأت على أمي حالة خاصة ، فقد كانت تتمكن بطريقتها البارعة المستقيمة من العودة بنفسها الى العصور الوسطى بصورة مباشرة لتكون مساعدة في وظيفة مربية لدى أية أميرة لومباردية أو بيزنطيّة ، ولم تكن تدعى باسم آخر سوى السيدة المربية(٣) ، وارتضت لنفسها

النكتة ، وكان يزيدُها مُضِيّاً في تخيلات الصبا هذه أنها اعتقدت أنها كانت ترى في زوجة جوتس فون برليشنجن نظيراً لها .

ومع ذلك فلم يكن مقدّراً للأمور أن تظل طويلاً على هذا النحو ، حين تجلّت الكراهية الشعرية للطغاة(٣) بعد الاستمتاع بالزجاجة الواحدة أو الأخرى من الخمر ، وجعل القوم يظهرون تعطّشهم للدماء أمثال هؤلاء البُغاة . أمّا والدي فهزّ برأسه مبتسما . وأما والدتي فكانت تكاد لاتسمع في حياتها بالطغاة ، ومع ذلك فقد كانت تذكر أنها رأت في «حوليات» جوتفريد(٤) أمثال هؤلاء البشر المستنكرين مصوَّرين على النحاس ، ومنهم الملك قمبيز الذي انتصر اذ أصاب قلب الولد الصغير بالسهم في حضور أبيه ، على نحو ماظل مثل هذا عالقا بذاكرتها ، غير أن التحوّل بهذه الضروب من التعبير وما شاكلها ، التي تزداد عنفاً بصورة مطّردة ، الى الجانب الهزليّ ، كان يلوح لها في قَبْوِها ، حيث كانت براميل كبيرة من أعتق الخمور محفوظة لديها حفظا جيداً ؛ وكانت مقادير غير قليلة منها توجد هنا ، وتحظى بعنايتها ورعايتها هي نفسها ، من سنوات ١٧٠٦ ، ١٥ ، ٢٦ ، ٤٨(٥) ، ولا تُلْتَمس إلاّ فيما ندر ، وفي المناسبات الاحتفالية الهامة .

وبينما كانت الآن تقدم الخمر الصارخ اللون في زجاجة صقيلة صاحت قائلة : «ههنا دم الطغاة الحقيقي ! وبه فَاْتَتَسلّوا ! ولكن فَاْتنأوْا عن بيتي بكل أفكار القتل ! » . وصحت قائلاً : « أجل انه لدم الطغاة ، فما من طاغية أكبر ممن يُقدَّم اليكم دمُ قلبه ، فلتنعشوا أنفسكم به ؛ ولكن باعتدال ، اذ ان عليكم أن تحاذروا أن يستعبدكم بنكهته وروحه ؛ فالكرمة طاغية الكون التي ينبغي أن تُستَأصَل ، ومن

أجل ذلك ينبغي لنا أن نختار كتاب ليكورجوس(١) المقدّس ، التراقيّ ، راعياً ، ونبجله ، وتناول الكتاب المقدس بقوة ، ولكنه كان أهلاً لأن يكون في عداد الشهداء ، هناك في الأعالي ، اذ ذهب بلبّه باخوس الشيطان المغوي ، وأفسده .

وهذه الكرمة أشد الطغاة سوءاً ، فهي منافقة ، متملّقه ، وأشد عنفاً في الوقت ذاته . انها الجرعات الأولى من دمها تصب في أفواهكم ، ولكن القطرة تغري بالقطرة الأخرى ، دونما انقطاع ، وهي تتوالى كسمط اللآلىء الذي يخشى المرء أن يُقَطِّعه» .

ولئن كان من الممكن أن أتعرّض لشبهة ايراد كلمة رياء بدلاً من ذلك الحديث ، مثلما فعل أفضل المؤرخين فقد يحق لي أن أعرب عن امنيتي في أن يكون كاتب من أهل السرعة قد أنشأ هذه الخطبة المنمّقة ، ونقلها الينا ، واذاً لوجد المرء الموضوعات ذاتها على وجه الدقة ، بل ربما كان انسياب الحديث أكثر سحراً واغراءً . وإنما يفتقر هذا التصوير الراهن ، على الإجمال ، الى الثرثرة المستفيضة ، والى فيض شباب يشعر بذاته ولا يدري الى أين ينبغي له أن ينطلق بقوة ومقدرة .

وفي مدينة مثل فرانكفورت يجد المرء نفسه في وضع عجيب ، وذلك أن الغرباء الذين يصادف بعضهم بعضاً على الدوام يدلّون على كل أصقاع الأرض ، ويبعثون حب الارتحال . وقد سبق أن غدوت من أولي التَرحُّل بتأثير بعض الحوافز . أمّا الآن على وجه الخصوص ، وفي اللحظة التي كانت المسألة فيها مسألة قيام بمحاولة التمكّن من الاستغناء عن ليلي ، اذ كان ثمة اضطراب معين يجعلني عاجزاً عن أي عمل معين ، فقد كانت مطالبة آل شتولبرج لي باصطحابهم الى

سويسرا موضع ترحيب . فلمّا شجعني إقناع والدي ، الذي كان ينظر نظرة السرور الشديد الى رحلة في ذلك الاتجاه ، وكان يوصيني بالعبور الى إيطاليا ، حيث كان من المناسب واللائق ألاّ أفوّت ذلك . صحَّ عزمي من أجل ذلك بسرعة ، وسرعان ما انطلقت ، وغادرت ليلّي مع شيء من التلميح ، ولكن بغير وداع ، فقد كانت قد ترعرعت في قلبي الى حد بتٌّ اعتقد عنده أنني لست بناءٍ عنها أبداً .

وفي ساعات قلائل رأيت نفسي مع رفاقي المرحين في دار مشتات . وكان على المرء هنا ، لدى البلاط ، أن يسلك سلوك اللياقة الكاملة ، فقد كان الجراف هاوجفتس يتولى هنا القيادة والتوجيه في حقيقة الأمر ، وكان أصغرنا ، حسنَ القوام ، ذا مظهر رقيق نبيل ، وملامح وادعة ودودة ، وكان هو ذاته مشاركاً على الدوام ، ولكن بالقدر الذي يجعله مغايراً للآخرين ، من حيث كونه امرءاً لاينتابه الضرر أو التأثّر . ولذلك لم يكن له بد من أن يحتمل من جانبهم ضروباً شتّى من الأحاديث الساخرة ، والتسميات ، وكان من الممكن أن تسير الأمور على هذا النحو ما داموا يعتقدون أن في وسعهم أن يظهروا أنفسهم في صورة أبناء الطبيعة ، ومع ذلك فحين كان الأمر يتصل باللياقة ، وكان الرجل يضطر ، دونما تبرم ، الى أن يظهر من جديد في صورة الجراف ، هنالك كان يعرف كيف يمهد لكل شيء ويسويه بحيث كنا نخرج من ذلك بسمعة ان لم تكن أفضل السمعات فقد كانت على أية حال سمعة لابأس بها .

وكنت في هذه الأثناء أنفق وقتي لدى مرْك الذي كان ينظر الى رحلتي المزمعة نظرة عابرة شيطانية ، وكان يعرف كيف يصف

رفاقي الذي سبق لهم أن زاروه أيضاً ، وصفاً يقوم على الفهم في غير مجاملة ، وكان يريد ، على طريقته ، معرفة مطلقة ، وكان ما في طبيعتي من طيبة القلب البريئة التي لاتقاوم ، مؤلماً له ، وكانت اللامبالاة الخالدة ، والعيش مع ترك الأحياء يحيون أمراً مستنكراً عنده ، وكان يصيح قائلاً : أمّا أن ترتحل مع هؤلاء الغلمان فتلك نزوة سخيفة ، ثم انه كان يصفهم وصفاً بايغاً ، ولكنه ليس بالصحيح كل الصحة ، وقد كان يفتقر مطلقاً الى حسن المقصد ، ومن أجل ذلك كان في وسعي أن أعتقد أنني أبعد منه نظراً على الرغم من أنني لم أكن أرى أبعد منه إلاّ بمقدار ما كنت أعرف كيف أقدّر الجوانب التي كانت تقع خارج مجال رؤيته .

وكانت نتيجة أحاديثه قوله : « لن تبقى معهم طويلاً » . وأنا أذكر في هذا الصدد كلمة تلفت النظر كان يردّدها عليّ فيما بعد حتى كنت أرددها أنا لنفسي ، وأجدها في معظم الأحيان ذات شأن في الحياة . كان يقول : « ان طموحك وتوجهك الذي لاسبيل الى تحويله هو أن تُسبغ على الواقعيّ صورة شعرية . أما الآخرون فيسعون الى تحقيق ما يسمى بالشعري والخيالي ، وهذا لايفضي الى شيء سوى السخف ، فاذا ما أدرك المرء الفرق الهائل بين كلا هذين الأسلوبين في السلوك ، وتمسك به ، وطبقه حصل على كثير من الإيضاح فيما يتصل بآلاف الأشياء الأخرى .

وكان من سوء الحظ أن كان هناك قبل أن تبارح الجماعة دار مشتات ، باعث آخر لتوطيد وجهة نظر مرْك .

فقد كان في تلك الأيام من ضروب الجنون التي نجمت عن تصور مفاده أنه لابد للمرء أن يسعى الى التحول الى الوضع الطبيعي ، الاستحمام

في الماء الحر الطليق ، وفي العراء . ولم يكن في وسع أصدقائنا . هنا أيضاً ، من بعد لياقة آصابوا فيها النجاح على كل حال ، أن يتوانوا عن هذا الأمر غير اللائق أيضاً . على أن دار مشتات الواقعة في بقعة رملية من دون مياه جارية ،أتيح لها مع ذلك بركة بالقرب منها لم أسمع بها إلا في هذه المناسبة . وجعل الأصدقاء ذوو الجبلّة الحارة ، والقائظون على نحو آخذ بالازدياد ، يلتمسون الانعاش في هذا الغدير . ولا ريب أن رؤية الفتيان العراة في وضح النهار كانت خليقة أن تبدو في هذه المنطقة شيئاً له خصوصيته ، وقد كان هناك فضيحة على كل الأحوال ، وكان مرْك يزيد في حِدّة استنتاجاته ، ولست أنكر أنني عجّلت برحيلنا .

وقد تبيّن ، ونحن بعدُ في الطريق ، أن هناك فرقاً معيناً في العقلية والسلوك ، على الرغم من كل المشاعر الطيبة والنبيلة ، وروى ليوبولد شتولبرج ، بحرارة ، كيف اضطر الى التخلي عن علاقة غرامية حارة مع انكليزية جميلة . وقام من أجل ذلك برحلة واسعة جداً . وكان الناس اذا أبانوا له الآن ، في مقابل ذلك ، باهتمام ، أن المرء ليس بالغريب عن أمثال هذه الأحاسيس أيضاً انبعث لديه شعور لاحدّ له بالشباب ، فلم يكن يجوز لشيء في الدنيا أن يقوم على صعيد واحد مع هواه وآلامه ، وكذلك مع جمال حبيبته وسحرها . فاذا أراد المرء أن يردّ هذا الادعاء الى الرصانة ، على نحو ما يليق حقاً بالرفاق الطيبين ، عن طريق الحديث الرصين ، كان يبدو أن المسألة لم تكن تزداد الا سوءاً ، ولم يكن هناك بدٌّ الجراف هاوجفتس ، ولي أيضاً ، ان نتجه آخر الأمر الى طيّ هذا الموضوع . فلما وصلنا الى مانهايم

نزلنا بغرُفات جميلة في فندق راق . ولدى عـقْبة(*) الغداء الأول التي لم يُتَجنّب فيها الخمر طالَبنا ليوبولد بأن نشرب على صحته ، وكان ذلك ما حدث في غمرة صخب كبير . وبعد إفراغ الكؤوس صاح قائلاً : « أما الآن فما عاد الشراب من هذه الكؤوس المقدسة مباحاً بعد ، وان نخباً آخر لحليق أن يكون تدنيساً ، ومن أجل ذلك فلنتلف هـــذه الكؤوس ! » . وعمد على الفور الى كأسه ذي الساق القائمة فضرب به الحائط وراءه . وتبعناه نحن الآخرين ، وجعلت أتصور كأنّ مرْك يمسك بخناقي .

ولكــن الشباب يوحى اليه منذ الطفولة ، ألاّ يأخــذ شيئاً على الرفاق الطيبين ، وأن العلاقة العفوية الطليقة يمكن أن تُمَس ولكنها لاتُصاب .

وبعد أن كانت الكؤوس التي تحدثنا عنها على أنها انكليزية قد زادت شرابنا قوة اسرعنا الى كارلسروهه(١) بقلب مطمئن وصدر منشرح ، لنتوجه بثقة ، ودونما همّ ، الى وسَط جديد ، ووجدنا هناك كلوبشتوك الذي كان يمارس ، بلباقة كبيرة ، سيادته المعنوية القديمة على التلاميذ الذين كانوا يبجلونه تبجيلاً فائقاً ، والذي كان يسرني أن أخضع له أنا أيضاً ، بحيث أمكنني ، اذ دُعيت مع الآخرين الى دارته ، أن أسلك سلوك المستجدين ، كما أنه كان يُطلَب الى المرء بلا ريب أن يكون طبيعياً ولكن على نحو له دلالته ، وكان السيد المركيز الحاكم الذي يحظى بتقدير عال بين الحكام الألمان بحكم كونه

---

(*) Dessert الفاكهة والحلوى .

من أشرف الأمراء ، ولا سيما بسبب مقاصده الممتازة في الحكم ، يسرّه أن يخوض في الأمور المتصلة بسياسة الدولة . وكانت السيدة المركيزة ، العاملة في الفنون والخبيرة بها ، وببعض المعارف الحسنة ، تريد الآن أن تظهر أيضاً إسهاماً معيناً بأحاديثها الظريفة ، وذلك ما كنا نقف منه موقف الشاكرين . على أننا لم نكن نستطيع أن ندع أشغالها الورقية الرديئة ، في المنزل ، وضروب محاباتها لما كلوت(٢) ، القائم بأمر الطبعات اللاحقة ، بغير تندّر .

وكان أشد الأمور اثارة لاهتمامي أن الارشيدوق الشاب في زاكسن – فايمار قد أقبل الى هنا مع عروسه النبيلة الأميرة لويزه فون هيسّن – دار مشتات الدخول في علاقة زوجية رسمية ، مثلما وصل الى هنا أيضاً من أجل ذلك الرئيس فون موزر(٣) ليحقق الوضوح لعلاقات جلياة الشأن كهذه ، وليَعْقِدها مع كبير المربين في البلاط بصورة كاملة . وكانت أحاديثي مع كلتا الشخصيتين هي الأكثر امتاعاً ، وكانت تُختَتم مراراً ، في المقابلة الوداعية بتوكيد انه سيكون من الممتع لكليهما معاً أن يـَرَياني قريباً في فايمار .

وقد بعثت بعض الأحاديث الخاصة مع كاوبشتوك ، مع ما كان يظهر لي من الود ، صراحة وثقة به . وأخبرته بأحدث مشاهدفاوست (١) التي بدا أنه يتقبّلها بقبول حسن ، وكان يمحضها الاستحسان البالغ أيضاً ، كما سمعت بذلك ، في مواجهة الآخرين ، وهو الاستحسان الذي لم يكن من السهل عنده بحسب طبعه في الأحوال العادية ، وتمنى للمسرحية الاكتمال .

على أن هذا السلوك غير المتحضّر ، والذي كان يسمى في تلك الأيام عبقريا ، تعرّض لشيء من التهدئة في كار لسروهه ، على أرض

لائقة هي بمثابة الأرض المقدسة . فقد انفصلت عن زملائي في الوقت الذي كان عليّ فيه أن أسلك طريقاً جانبياً لكي أذهب الى ايمندنجن حيث كان صهري(٢) كبير القضاة . وكنت أقدّر هذه الخطوة لرؤية أختي(٣) من أجل اختبار فعليّ . وكنت أعرف أنها لم تكن تحيا حياة سعيدة من دون أن يتمكن المرء من أن يردّ المسؤولية في ذلك اليهاأو الى زوجها ، أو الى الظروف . كانت شخصية لها خصوصيتها ، ومن الصعب الحديث عنها . ونريد أن نحاول أن نوجز هنا ما يمكن الافضاء به .

كانت بنية الجسد الجميلة مواتية لها ، ولم تكن كذلك ملامح الوجه التي كانت تفتقر الى قدر معين من التوازن والظرف ، على الرغم من أنها كانت تعبّر عن الخير والعقل والاهتمام تعبيراً فيه ما يكفي من الوضوح .

وقد أضيف الى ذلك أن الجبين العالي المحدّب بقوة كان يُحدِث ، بفعل الزي السائد البائس ، اذ يجلو الشعر عن الوجه ويحصُرُه ، انطباعا معينا غير مستحبّ ، في الوقت الذي كان فيه يعطي الخصائص الخلقية والذهنية أفضل الأمارات . وفي وسعي أن أتصور أنها لو استطاعت ، مثلما أدخل ذلك العصرُ الأحدث ، أن تُغَشّيَ الجزء الأعلى من وجهها بخصلات من الشعر ، وتحفّ صدغيها ووجنتيها بخصلات مستديرة مشابهة ، لكانت خليقة أن تجد نفسها أكثر طلاوة أمام المرآة ، دونما قلق من ألاّ تعجب الآخرين مثلما لا تعجب نفسها . وليضف المرء الى ذلك مصيبة أن بشرتها قلما كانت نقيّة ، وهو شرّ كان يُلْمَس في العادة بفعل مصيبة شيطانية منذ الصبا ، في أيام الأعياد ،

وفي أيام الحفلات الموسيقية والحفلات الراقصة ، وسائر الدعوات الأخرى .

وكانت قد كافحت في هذه الظروف شيئاً فشيئاً ، على حين كانت خصائصها الباقية الرائعة تكتمل في تشكُّلها على نحو مطرد .

وكانت شخصية حازمة ليس من اليسير قهرها ، ونفساً تهتمّ وتحتاج الى الاهتمام ، وتكويناً ممتازاً للفكر ، ومعارف حسنة ، ومثلها من المواهب ، وبعض اللغات . . والقلم البارع ، بحيث لو أتيح لها حظ من الخارج لعُدَّت من أكثر من يشتد عليهن الطلب من نساء زمانها .

ويجب أن نفضيَ ، فوق هذا كله ، بشيء عجيب بعدُ ، وهو أن كيانها لم يكن ينطوي على الحد الأدنى من النزعة الحسيّة . كانت قد ترعرعت الى جانبي ، وكانت تودّ لو استأنفت حياتها وأنفقتها الى جانبي ، في هذا الانسجام الأخوي ، وكنا قد ظللنا بعد عودتي من الجامعة ، غير قابلين للانفصال ، وكانت لنا ، على ما بيننا من الثقة المتناهية عمقاً ، أفكارٌ ، وأحاسيسُ ، ونزواتٌ ، وانطباعات مشتركة ، عن كل ما يَعرُض في المجتمع . ولمّا ذهبتُ الى فيتسلار بدت لها الوحدة أمراً لايطاق وحلّ محلي صديقي شلوسّر الذي لم يكن مجهولاً بين الأخيار ولا كان بغيضا اليهم . وكان من المؤسف أن النزعة الأخوية تحوّلت عنده الى هوى صريح ، وربما كان ذلك ، مع شخصيته الصارمة الوجدانية ، هواه الأول . وهنا وجد الرفيق المرغوب المستحسَن أيمّا استحسان ، كما تعوّد الناس أن يقولوا ، والذي يحق لي أن أقول انها اقتنعت به بعد أن كانت تردّ باصرار عروضاً مختلفة هامة ، ولكن

من قِبَل رجال لاشأن لهم ، من أمثال أولئك الذين كانت تشمئز منهم .

وينبغي لي أن أعترف مخلصاً أنني ربما لم يكن يسرني ، حين كنت استرسل في الخيال حول مصيرها ، أن أتصورها ربّة منزل ، بل كان يطيب لي جداً أن أتصوّرها رئيسة دير ، مشرفة على طائفة نبيلة . فقد كانت تتمتع بكل ما يقتضيه مثل هذا المركز الرفيع . وكانت تفتقر الى ماتقتضيه الدنيا اقتضاءً لا مندوحة عنه ، وكان لها على النفوس الانثوية سلطان لايقاوم ، وكانت تجتذب النفوس الفتيّة بسحرها ، وتسيطر عليها بالروح التي تتسم بها سجاياها الباطنية . ولما كانت تَشْرَكني في احتمالها العام لما هو خير وانسانيّ ، بكل جوانبه العجائبيّة ، على ألاّ يرتدّ الى نقيضه فحسب ، فلم يكن ثمة حاجة الى اخفاء شيء خصوصيّ تتميّز به أي سجيّة هامة ، عنها أو الاستحياء منها ، ومن أجل ذلك أمكن لأشكال الصحبة بيننا ، كما رأينا من قبل ، أن تتخذ مساراً متعدد الجوانب دائماً ، وحراً ، وظريفاً ، وان كان يصل الى حد الجرأة في بعض الأحيان . أما عادة مصاحبة النسوة الصبايا مصاحبة تقوم على التهذيب والمجاملة ،من دون أن ينجم عن ذلك تقييد أو استحواذ حاسمان ، فلم أكن أدين بها إلاّ لها . على أن القارىء البصير ، الذي يتمتع بالمقدرة على أن يقرأ بين هذه السطور ما لم يُكتَب كتابة ، بل أُلمِحَ اليه إلماحاً ،سيقدّر المشاعر الرصينة التي دخلت بها ايمّندنجن في تلك الأيام .

وكان مما أثقل على قلبي أكثر من ذلك بعدُ لدى المغاردة بعد إقامة قصيرة أن أختي أوصتني بالانفصال عن ليلّي وصيةً متناهية

في الجد ، بل أمرتني بذلك . وكانت هي نفسها قد عانت كثيراً من حالة الخطوبة ذات الأجل البعيد ، وكان شلوسّر لم يعقد خطوبته عليها لاستقامته ، قبل أن يستيقن من توظيفه في دوقية بادن الكبرى ، بل قبل أن يغدو موظفا بالفعل . ولكن القرار الحقيقي أُجّل تأجيلاً لم يكن في الحسبان ، واذا كان لي أن أفضي بتخميني في هذا الصدد فقد كان شلوسّر الطيب ، مهما يكن من لياقته للعمل ، امرءاً ليس بأهل أن يرغب فيه الأمير خادما متصلاً به على نحو مباشر ، ولا بأهل أن يكون مشاركا قريبا من الوزراء ، بسبب تقيده الصارم بالقانون ، على أن تعيينه المأمول والمرغوب فيه بالحاح في كار لسروهه لم يتحقق ، ولكن هذا التأجيل اتضح لي حين شغرت وظيفة كبير القضاة في ايمندنجن ، وحُول على أثر ذلك الى هناك ، وأنيطت به الآن وظيفه مهيبة ذات مورد حسن أظهر أنه أهل لها تماماً . وكان يبدو أن مما يلائم عقليته واساوبه في التصرف كل الملاءمة أن يكون هنا وحده ، وأن يتصرف تبعا لقناعته ، وفوق كل شيء ، أن يقدم المرء اليه الحساب ، سواء أثنى عليه أم ذمّه .

ولم يكن من الممكن الاحتجاج على ذلك بشيء ، ولم يكن بدٌّ لأختي أن تتبعه ، ولم يكن ذلك بالطبع الى مقر رسمي كما كانت تؤمّل ، بل الى مكان لم يكن له بد أن يبدو لها عزلةً ، بل قفراً ، في مسكن كان رحباً في الحقيقة ، يتسم بروعة الرسميّ ، وجلاله ، ولكنه محروم من كل أُنس ، ولحقت بها بعض الصبايا اللواتي كانت قد عقدت معهن أواصر الصداقة من قبل . ولمّا كانت أسرة جيرولك(١) قد رزقت البنات فقد كانت أولئك البنات يختلفن اليها بحيث كانت

تستمتع على الأقل بصحبة تتسم بالثقة المبنية على طول الزمن مع كل هذا القدر من الحرمان .

وقد كانت هذه الظروف ، وهذه الضروب من المعاناة ، هي التي اعتقدت أنها كانت تملك بها الحق في أن تأمرني بمنتهى الجد بالانفصال عن ليلّي (٢) . وبدا لها أن من العسير أن تنتزع مثل هذه المرأة . التي كانت قد كوّنت عنها أسمى التصورات ، من حياة إنْ لم تكن براقة فقد كانت مع ذلك مضطرمة بالحياة ، الى بيتنا الذي هو جدير بالثناء في الحقيقة ، ولكنه ليس مؤهّلاً للحفلات الهامة — بين أب طيّب النوايا ، غير ثرثار ، ولكنه يطيب نفساً بالأمور التعليمية ، وأم فائقةِ النشاط المنزلي ، على طريقتها ، وكانت لاتريد أن تُشْغَل ، بعد الفراغ من العمل ، عن عملها اليدوي المريح ، بحديث وادع مع شخصيات شابّة مهذّبة منتقاة .

وفي مقابل ذلك وضعت لي العلاقة مع ليلي في إطار من الوضوح يتسم بالحيوية ، لأنني كنت قد سردت عليها كل شيء بحذافيره ، في في رسائل تارة ، ومن خلال الألفة الحميمة ذات الثرثرة العاطفية الحارّة حينا آخر .

وكان من المؤسف أن وصفها لم يكن إلاّ تفصيلاً لما كان الواشي خليقاً أن يجتهد في الهمس به عن صديق ما عاد المرء يثق له بشيء حسن ، شيئاً فشيئاً ، مع قليل من الملامح المميّزة .

أما الوعد فلم أكن أملك لها منه شيئا ، على الرغم من أنني كنت مضطراً الى أن أعترف اليها أنها أقنعتني ، وذهبتُ ، وفي شعور كاللغز كانت العاطفة تواصل الاغتذاء به . اذ كان الحبّ الوليد مازال يتشبّث بأذيال الأمل معانداً في اللحظة التي يأخذ فيها الأمل بالابتعاد بخطى قوية .

أما الشيء الوحيد الذي مازلت أتذكره بوضوح بين هذا المكان وزوريخ فهو شلاّل الراين عند شافْهاوْزن(٣) ، فهنا تتبيّن، بفعل اندفاع جبار للنهر ، المرحلة الأولى التي تدلّ على أرض جبلية نوشك أن ندخلها ، وينبغي لنا أن نبلغ المرتفعات بشق النفس ، شيئاً فشيئاً ، في علاقة مطردة على الدوام .

وما زال ماثلاً في ذهني منظر بحيرة زوريخ اذ أستمتع به من بوابة «السيف(١)» ، وأنا أقول من بوابة الفندق ، لأني لم أدخله ، بل أسرعت الى لافاتر(٢) ، وكان الاستقبال مرحاً ، حاراً ، ولا بدّ للمرء أن يعترف أنه كان ظريفاً لامثيل له ، حميماً ، رفيقاً ، مباركاً ، يسمو بالنفس ، ولم يكن في وسع المرء أن يتصوّر حضوره على نحو آخر ، وكانت زوجه ، ذات الملامح الغريبة نوعاً ما ، والوديعة مع ذلك ، تنمّ عن الورع والرقة ، وتنسجم كل الانسجام ، شأن كل شيء آخر ، مع اسلوب تفكيره وحياته . وكان حديثنا الأول الذي كان لايكاد ينقطع ، كتابه في «الفراسة(٣)» ، وكان القسم الأول من هذا السَفْر الغريب ، اذا لم أكن مخطئاً ، قد طبع كله تقريباً ، أو كان قريباً من الاكتمال على الأقل . ويحق للمرء أن يعده تجريبيّاً عبقرياً ومنهجيّاً جامعاً . وقد كانت لي معه أغرب العلاقات ، وكان لافاتر يريد أن يجعل من العالم كله معاونين له ومشاركين . وكان قد أوعز ، منذ رحلته على الراين ، بتصوير عدد جم من الناس ذوي الشأن لكي يجتذبهم من خلال شخصيتهم الى الاهتمام بعمل كان من المفروض أن يظهروا هم أنفسهم فيه ، وكذلك كان شأنه مع الفنانين ، اذ كان يهيب بكلّ منهم أن يبعث اليه برسوم من أجل أغراضه ، وكانت

تصل ، ولم تكن تصلح لما قصد بها على نحو صريح ، وكذلك كان يكلف بالحفر على النحاس ، عن يمينه وشماله ، وحتّى هذا كان قلّما يوفّق فيه على نحو متميز . وكان ثمة عمل كبير قد أنجز من قبله ، وتم الإعداد ، بالمال والجهد من أنواع شتّى ، لعمل هام أضفى كل شرف على علم الفراسة ، وفي الوقت الذي كان يفترض فيه أن ينجم عن ذلك الآن مجلّد ، هو مجلد علم الفراسة ، المؤسس على النظرية ، والمدعوم بالأمثلة ، وأن يقترب من مكانة علم من العلوم ، لم يكن ثمة لوحة تفيد ما كان عليها أن تفيده ، ولم يكن بدٌّ لكل اللوحات من أن تؤخذ عليها المآخذ ، وتُحَدّ بالحدود ، ولم تكن تلقى حتّى مجرد الثناء ، وانما يُسلّم بها فحسب ، بل كان بعضها يزال بفعل التأويلات . وقد كان ذلك بالقياس اليّ ، وأنا الذي كان يسعى دائماً الى تثبيت قدمه قبل أن يخطو الى الأمام من أشد المهاّم التي يمكن أن تلقى على عاتق نشاطي حرجاً ، وليحكم المرء بنفسه . فقد ذهب المخطوط ، مع نسخ اللوحات المدرجة من أجل النص ، اليَّ في فرانكفورت . وكنت أتمتع بحق إلغاء كل مالا يروقني ، وتغييره ، وادخال ما يروق لي ، وذلك ما استعملته باعتدال شديد بالطبع . وكان هناك مرة واحدة أدرَجَ فيها ردّاً حماسياً معيناً على ناقد متجن فحذفته ، وأدخلت بدلاً منه قصيدة مرحة في الطبيعة(١) ، فلامني في ذلك ، على أنه أقرّ تصرفي فيما بعد حين فترت حرارته .

ومن يتصفّح المجلدات الأربعة من «علم الفراسة» ويقرأها ، وذلك مالن يندم عليه ، يتصور مدى الأهمية التي كانت لاجتماعنا ، اذ كانت معظم الصحائف الواردة فيها مرسومة من قبل ، وكان قسم منها منقوشاً ، ومقدّماً ، ومفصولاً فيه ، وكان القوم يفكرون في

الوسائل الحاذقة التي يمكن بها أن يُجْعَل حتى ذلك الذي يصلح ، مفيداً في هذه الحالة ، أي صالحاً .

وإذا ما تصفّحت العمل اللافاتريّ مرة أخرى أثار لدي إحساساً بهيجاً الى حد مضحك ، اذ يُخَيّل اليَّ أني أرى أمامي ظلال أناس كانوا معروفين عندي جداً من قبل ، وقد سبق أن أثاروا غيظي ذات مرة ، وكان مقدَّراً لي ألاّ أسَرَّ الآن بهم .

على أن إمكانية الجمع الى حدّ ما بين هذا القدر الكبير من التصاوير غير اللائقة كانت تكمن في الموهبة الجميلة والصريحة للرسام وحفاّر النحاس ليبْس(٢) ، اذ كان في الحقيقة مفطوراً على التصوير الطليق الحرّ لما هو واقعيّ . وذلك ما كان يمثل جوهر المسألة هنا في الحقيقة ، فقد كان يعمل في خدمَة عالم الفراسة المطالب بالعجائب ، ومن أجل ذلك لم يكن له بدٌ من أن ينتبه انتباهاً دقيقاً ليقترب من متطلبات معلمه . وكان ابن الفلاح الموهوب يشعر بالالتزام الكامل الذي يدين به لسيد من أهل الكهنوت من المدينة ذات الامتيازات الفائقة السموّ ، وقد أدى عمله على أفضل ما يرام .

ولما كنت أعيش في مسكن منفصل عن رفاقي فقد كنت أزداد غربة عنهم يوماً فيوماً من دون أن أشعر بأدنى ضغينةمن جراء ذلك ، اذ ما عادت حفلاتنا الريفية تتلاءم على الرغم من أن بعض الصلة كانت ماتزال باقية في المدينة ، وكانوا قد أبلغوا عن وصولهم بكل ما في الامراء الشباب من الخيلاء ، حتى لدى لافاتر ، ذلك الفَراسيّ البارع الذي بدوا له بالطبع شيئاً آخر مختلفاً عن سائر العالم ، وقد أعرب لي عن وجهة نظره في ذلك . وإني لأذكر بوضوح تام أنه صاح وهو

يتحدث عن ليوبولد شتولبرج : «لست أدري ماذا تريدون أنتم جميعاً(١) فانه فتى نبيل ممتاز موهوب ، ولكنهم وصفوه لي على أنه بطل ، بل هرقل . وما رأيت في حياتي شاباً أكثر استرخاءً منه ورقة وقابلية للتحديد . اذا كان الأمر يتصل بذلك ، وأنا مازلت بعيداً عن النظرة الفراسيّة اليقينية ، ولكن الكيفية التي تبدو بها المسألة ، فيما يتصل بكم وبالجماعة ، شديدة التشويش بلا ريب» .

وكان الاهتمام بلافاتر ودراساته الفَراسيّة قد تصاعد بصورة جدّ حيوية منذ رحلته الى الراين الأسفل ، وكان كثير من الزيارات المتبادلة يتدفّق عليه بأوجه متعددة ، حتى لقد شعرت بالحرج الى حد ما من أن يُنظَر اليه على أنه الأول بين رجال الكهنوت ، وأهل الفطنة ، وأن يُعدَّ واحداً من أولئك الذين يجتذبون الأجانب وحدهم . ومن أجل ذلك كان يعرف كيفَ يذكر أولئك الذين كانوا يزورونه ، ويحثهم ، اجتناباً لكل حسد واساءة ، على أن يقابلوا الرجال الباقين أيضاً بالمودة والتقدير .

وكان الشيخ بودْمَر(٢) يلقى في هذا الصدد الاحترام على نحو متميز ، وكان علينا أن نسلك الطريق الى زيارته ، ونقدّره تقدير الشباب ، وكان يقطن في مرتفع يطل على المدينة الأكبر ، أو الأقدم ، الواقعة على الضفة اليمنى حيث تحشد البحيرة مياهها مكوّنة نهر الليمّات(١) . وعبرنا هذه ، وارتقينا آخر الأمر المرتفع القائم وراء الأسوار على دروب تزداد صعوداً باطراد ، حيث تشكلّت بين التحصينات وسور المدينة القديم ، على نحو بالغ الظرف ، ضاحيةٌ

(١) Limmat الرافد الأيمن لنهر الآره في سويسرا .

من بيوت ينضم بعضها الى بعض تارة ، وتتفرّق تارة أخرى ، بأسلوب بين الريفيّ والمدنيّ . وهنا كان ينتصب منزل بودمر ، مُستَقَرُّ حياته بأسرها ، في أكثر البيئات طلاقة وبهجة ، اذ كان علينا أن نطلّ عليها في وضح النهار وفي جماله ، قبل الدخول ، إطلالةً فائقة الإمتاع ، وأُدْخِلنا ، على ارتفاع سُلّم ، الى حجرة كُسِيَت الجدران من حولها بالخشب ، حيث تَلقّانا شيخ طلق الأسارير ، معتدل القامة . واستقبلنا بتحية دأب على مخاطبة الشباب من الزائرين بها ، وإنّا لخليقون أن نعدّ من قبيل التلّطف منه أنه تلكأ كل هذا القدر في مغادرة الدار الفانية ، لكي يتعرّف علينا ولتقرّ عينه بمواهبنا ، وليتمنى لنا السعادة في مسيرة حياتنا الشاسعة .

أما نحن فقد حمدنا له ، ونحن سعداء ، أنه يحوز ، وهو الأديب المنتمي الى العالم البطركي ، وعلى مقربة من المدينة ذات الثقافة الفائقة ، مسكناً رَعَوياً حقاً طوال حياته،وانه استمتع سنتين طوالاً،في الهواء الطلق ، بمثل هذه النظرة البعيدة ، قريرَ العين على الدوام .

وبدا أنه لم يضق ذرعاً حين التمسنا أن نلقي نظرة عامة من نافذته بدت في الواقع ، مع بريق الشمس المشرقة ، في أفضل فصول السنة ، شيئاً لامثيل له البتّة . وكان القوم يطلّون بنظرهم على كثير مما كان ينبسط من المدينة الكبيرة ، على نهر الليمات نحو المنخفض ، وعلى هذه المدينة الأصغر فوق الليمات ، وكذلك على خصوبة حوض الزيل(١) ويرون الى اليسار من الخلف جزءاً من بحيرة زوريخ بسطحها المتألّق المضطرب ، وجوانبها المتعددة اللانهائية ، من الضفاف الجبلية وضفاف

---

(*) Sihl الرافد الأيسر لنهر الليمات .

الوديان التي تتعاقب فيما بينها ، الى المرتفعات ذات الجوانب المتعددة التي لا تحيط بها العين والتي كان على المرء أن يرى عليها ، وهو مبهور من هذا كله ، السلسلة الزرقاء من سفوح الجبال العليا(١) عن بعد . وهي السلسلة التي ألف الناس أسماء قِمَمها ، بشوق بالغ .

وبدا أنه يرتاح الى افتتان الشباب بهذا الشيء غير العادي الذي بات بالقياس اليه شيئاً يومياً منذ كثير من السنين ، وغدا ، اذا جاز للمرء أن يعبّر على هذا النحو ، مشاركاً مشاركة ساخرة ، وافترقنا ، ونحن أفضل الأصدقاء ، حين غدت كفة الشوق الى تلك الذُرى الجبلية الزرق هي الراجحة في أذهاننا .

وفي الوقت الذي أوشك فيه أن استأذن بطريركنا الجليل أذكر أولاً أنني لم أتحدث بعدُ عن هيئته وتكوين وجهه ، وعن حركاته وطراز سلوكه .

والحق أني لا أجد من اللائق تماماً على الاطلاق أن يقوم الرحالة بما يشبه الكشف عن سمة الرجل الهام الذي يزورونه ، وكأنهم يريدون أن يقدموا مادة لأمر توقيف . وما من أحد يدخل في الحسبان(٢) أن المسألة انما هي لحظة يتقدّم فيها ويتعرّض للمراقبة الفضولية ، وأنها لاتكون مع ذلك إلاّ على طريقته الخاصة . وعلى هذا يمكن للمَزُور أن يبدو ، بصورة حقيقية حيناً ، وبصورة ظاهرية حيناً آخر ، متكبراً أو متواضعاً ، سكّيتاً أو ثرثاراً ، مرحاً أو متجهّماً . ولكني أود في هذه الحالة الخاصة أن أعتذر بأن شخص بودمر الجليل ما كان ليحدثَ الانطباع المستحسن بالصورة ذاتها لو أنه وصِف بالكلمات . ومن حسن الحظ أن صورته بريشة جراف(٣) فون باوزه ، التي

تصور الرجل تصويراً كاملاً ، مهما تكن الصورة التي يبدو لنا بها ، موجودة ، وهي في الحقيقة مقترنة بنظرته الخاصة بالفحص والتأمّل .

وقد صادفتني في زوريخ متعة خاصة ، لم تكن غير متوقعة في الحقيقة ، ولكنها مرغوبة الى أقصى الحدود ، حين لقيت هناك صديقي الشاب ، باسّا ڤانت(١) . وكان ، وهو ابن بيت من بيوت الاصلاح الديني المرموقة في مسقط رأسي ، يعيش في سويسرا من ينبوع تلك النظرية التي قُدر له أن يجهر بدعوته اليها ذات مرة . ومع أن قامته لم تكن طويلة بل رشيقة ، فقد كان وجهه ، ومجمل كيانه يبشران بمضاء العزيمة وسحرها . وكان الشعر واللحية الأسودان ، والعينان المفعمتان بالحيوية يبشران على الإجمال بالاجتهاد الرصين المنطوي على الاهتمام .

ولم نكد نتبادل التحيات الأولى متعانقين حتى اقترح عليّ أن ازور المقاطعات الصغرى(٢) التي سبق له أن تجوّل فيها بافتتان عظيم ، والتي يريد الآن أن يسلّيني ويفتنني برؤياها .

وفي الوقت الذي كنت فيه أخوض مع لافاتر في أولى الموضوعات وأهمّها ، وكنا نكاد نستنفد شؤوننا المشتركة ، كان رفاق رحلتي المرحين قد انطلقوا في بعض الدروب وتجوّلوا في المنطقة على طريقتهم. واعتقد باسّافانت وهو يحاصرني بالصداقة الحارّة أنه قد اكتسب بذلك الحق في الاستحواذ على صحبتي خالصةً له ، ولذلك فقد عرف كيف يعزيني ، من باب أَوْلى ، بالجبال ، في غياب أولئك القوم ، اذ كنت أنا أميل ميلاً صريحاً الى القيام بهذه الجولة التي طالما اشتقت اليها . ونزلنا في السفينة ، ومَخَرْنا البحيرة الرائعة في صباح متألق صاعدين في وجه التيار .

وربما أمكن لقصيدة مُدْرَجة عن تلك اللحظات السعيدة أن تقدم بعض الشعور الأوّلي .

والغذاء الناضِر(١) ، والدم الجديد ،
أمتصُّهما من العالَم الطلق ؛
ألا ما أظرف الطبيعة ، وما أطيبها ،
الطبيعة التي تضمني الى صدرها !
والموجةُ تهز قاربنا كالسرير ،
صاعدةً به على إيقاع المجاذيف ،
والجبال التي تغشاها السحب مشرئبّةً الى السماء
تتلقانا في مسيرتنا .

* * *

عيناهُ ، أي عيني ، ما الذي يخفض بصرك ؟
أو عُدْتُنَّ من جديد ، أيتها الأحلام الذهبيّة ؟
ألا بُعْداً لك أيها الحلم ، فمهما تكن ذهبيّاً ،
فههنا الحب ، والحياة أيضاً .
وعلى الموجة تأْتَلِق آلاف النجوم العوائم ؛
والأمداء البعيدة المتراكمة من حولنا ،
تشرب قطع الضباب الرَخِيّ .

* * *

ورياح الصباح تجُنِّح الخليج الظليل ،
وفي البحيرة ،
تنعكس الثمرة الناضجة

* * *

وألقينا مراسينا في ريشترزفيل(١) حيث كان قد أُوصيَ بنا الدكتور هوتس(٢) من قِبَل لافاتر . وكان ، وهو الطبيب . والرجل المتناهي في تبصّره وحسن مقاصده ، ، يتمتع بسمعة مشرفة ، في مكانه ، وفي المنطقة بأسرها ، ونحن لانعتقد أن من الممكن تمجيد ذكراه على نحو أفضل من أن نشير الى موضع في «علم الفراسة» لِلافَاتَر(٣) ، يدلّ عليه .

وارتقينا الجبال الواقعة فيما وراء ذلك ، ونحن نلقى أفضل الضيافة ونتسلّى على أكثر الوجوه ظُرفاً ونفعاً حتى في المحطات التالية من جولتنا وحين كان علينا أن ننزل من جديد وادي شنديلليجي رجعنا القهقرى مرة أخرى ، لنتملىّ من المنظر الخلاب فوق بحيرة زوريخ .

أما كيف كان مزاجي فذلك ما تدلّ عليه السطور التالية كما هي محفوظة بعدُ كما كُتِبت في تلك الأيام في كراسة تذكارية :

أيّ سعادة كان هذا المنظر سيمنحني !
لو أني لم أُحبْبك يا ليلّي العزيزة(٤) ،
ومع ذلك ، فلو أنيّ لم أُحْبِبْكِ
فما عسى أن تكون سعادتي ؟

* * *

وإني لأجد هذه النبرة التعجبيّة أكثر تعبيراً مما طُبِعت عليه في مجموعة قصائدي .

على أن الطرق الوعرة التي كانت تفضي من هنالك الى خلوة ماريا(٥) لم تستطع أن تلحق الضرر بروحنا المعنوية الحسنة . وكان قد أدركنا طائفة من الحجاج الذين كانوا قد لوحِظوا من قَبلنا منذ أن كنا في الأسفل عند البحيرة . وهم يواصلون خطاهم بصورة

نظامية مع الدُعاء والنشيد . وتركناهم يمرّون بنا ونحن نحيّيهم ، وقد بعثوا الحياة على نحو متميز مستحسن في هذه المرتفعات المقفرة ، اذ دَعَوْنا الى الانسجام مع أغراضهم المتسمة بالورَع . وكنا نرى الدرب المتلوّي الذي كان علينا أن نقطعه مرسوماً بصورة حيّة ، وبدوْنا أكثر سروراً باتباعه ، اذ كان لتقاليد الكنيسة الرومانية(٣) دلالتها وتأثيرها على نحو مطلق بالقياس الى البروتستانتي . لأنه لايعترف إلاّ بالأول ، وبالباطنيّ الذي انبعثت عنه . والانسانيّ الذي تكاثرت بوساطته من جيل الى جيل . أي أنها حين تلحّ على اللباب لاتُعنى في هذه اللحظة ذاتها بالقشور ، ولا بغلاف الثمرة ، ولا بالشجرة ذاتها ، أغصانها وأوراقها ولحائها وجذورها .

وكنّا نرى الآن الكنيسة الفخمة تنتصب مشرئبّة في واد مقفر خال من الأشجار . والدير بمحيطه الواسع المرموق ، في وسط مستوطنة نظيفة . لنتملّى من هذا العدد الكبير المتنوع من الضيوف على نحو لائق الى حدّ ما .

وكانت الكنيسة الصغيرة في الكنيسة ، وهي المستقر الغابر القديس ، اذ غطيت بالمرمر وحوّلت قدر الإمكان الى معبد لائق ، شيئاً جديداً لم أره قط من قبل ، وهي هذه القاعدة الصغيرة التي بنيت حواليها ، ومن فوقها الأعمدة والقباب ، ولم يكن هنالك بدٌّ من أن يثير التأملات الجدية أن شرارة واحدة من الأخلاق والورع أوقدت هنا شعلة صغيرة مضيئة متوقدة أبداً وكان على جماعات المؤمنين أن تهبط إليها حاجّة بمشقة كبيرة لتستوقد من هذا اللسان المقدس من اللهب شمعتها الصغيرة أيضاً . ومهما يكن من أمر ذلك فانه يشير الى حاجة لا حد لها عند البشرية الى ضوء مماثل . والى حرارة مماثلة ، مثلما أقام ذلك ، واستمتع

به ذالك الأوّلُ في شعور متناهٍ في العمق ، وايمان متناه في اليقين .
وقادنا القوم الى حجرة النفائس التي كانت ، بما هي عليه من الغنى والتأثير الكافيين ، تجلو العين المندهشة ، قبل كل شيء ، تماثيل نصفية بالحجم الطبيعيّ ، بل بالحجم العملاق ، للقديسين ، ومؤسسيّ أنظمة الرهبنة .

ولكن انتباهاً مختلفاً كل الاختلاف أثاره مرأى خزانة فتحت في أعقاب ذالك . وكانت تنطوي على نفائس من العصور القديمة قُدمت الى هنا ، وأُضفيَ عليها الشرف . وشدّنا ظرف تيجان شتى من عمل صائغين نابهين ، وجرى تأمُّل تاج بينها من دون سواه ، وهو تاج مسنّن من الطراز الفني الخاص بالعصور القديمة على نحو ما كان المرء يرى مثلها على هامات الملكات في العصور القديمة . ولكنه يمتاز برسم بالغ الزخرفة وتنفيذ ينطوي على العمل الذي لايتطرق اليه الوهن ، بل كانت الحجارة الملّونة المطعّم بها موزعة باختيار وبراعة فائقين ، وموضوعة بعضها إزاء بعض — وجملة القول انه عمل من طراز يبلغ منه أن المرء خليق أن يعلن لدى النظرة الأولى أنه عمل كامل من دون أن يتمكن من تطوير هذا الانطباع بالاستناد الى الفن .

ثم ان الذهن والنفس يميلان في أمثال هذه الحالات ، حيث لا يُعرَف الفن ، بل يُشْعَرُ به ، الى تطبيق مؤداه أن المرء يود لو يمتلك هذه الطُرْفَة ليستجلب بها السرور . والتمسوا الاذن باخراج التاج الصغير ، وحين رفعت هذا بيدي بصورة لائقة وأنا أمسك به على مستوى مرتفع لم أكن أتصوّر شيئاً آخر سوى أن عليّ أن أضغط به على خصلات شعر ليانّي المشرقة المتألّقة ، وأن أقودها الى المرآة وأعاين سرورها بنفسها والسعادة التي تفيضها . ولقد طالما فكرت بعد

ذلك في تحقيق هذا المشهد من قبل رسّام موهوب . وكان عليّ أن أقدم منظراً مفعماً بالدلالة العاطفية الى أقصى الحدود ، وإذاً لكان مما يستحق الجهد عندئذ أن يكون المرء هو ذاته الملك الشاب الذي يحظى على هذه الطريقة بعروس ومملكة جديدة .

ولكي يتيح القوم لنا رؤية ممتلكات الدير بصورة كاملة قادونا الى حجرة للفن والطرائف والمواد الطبيعية . ولم يكن لديّ في تلك الأيام إلاّ القليل من التصور عن قيمة مثل هذه الأشياء . ولم أكن بعدُ قد اجتُذِبت الى الجيوغنوسيا(١) التي تستحق أقصى الثناء في الحقيقة ، ولكنها مع ذلك تمزّق الانطباع الخاص بسطح الأرض الجميلة قبل التأمل الفكري. على أن الجيولوجيا الخيالية كانت أجدر ألا تطغى عليّ بأغاليطها ، ومع ذلك فقد اضطرني الكاهن الذي يقودني الى هنا وهناك أن أعير بعض الانتباه لمستحاثة لرأس خنزير بريّ صغير يقدرها العارفون ، كما قال ، أعظم التقدير ، محفوظة حفظاً جيداً في فخار أزرق . وقد ظلت أيضاً ، على ما كانت عليه من سواد ، باقية في المخيلة في كل العصور التالية ، وكان القوم قد وجدوها في منطقة رابّرز فيل التي استطاعت وهي الموحِلة من أقدم العصور ، أن تتقبّل أمثال تلك الموميات تقبُّلاً حسناً ، من أجل العالم اللاحق ، وتحافظ عليها .

ولكن كان يجتذبني على نحو مختلف تماماً ، وتحت الإطار والزجاج ، نقش على النحاس لمارتن شون(٢) ، يصور وفاة ماريا ، ولا تستطيع إلاّ نسخة كاملة ، بالطبع ، أن تعطينا تصوراً عن فن أستاذ كهذا ،

---

(١) Geognosie علم يبحث في البنية العامة ، الداخلية والخارجية للأرض .

ولكننا سنكون حينئذ أيضاً ، مثلما هو الحال في كل كاملٍ من أي نوع ، متأثرين الى الحد الذي يجعلنا لانتخلّص مرة أخرى من الرغبة في امتلاك المثيل ، لكي نستطيع أن نكرر النظر دائماً — مهما انقضى من زمن طويل فيما بين ذلك — فلماذا ينبغي لي ألاّ أبادر فأعترف هنا أنني لم أتوانَ فيما بعد حتى وصلت كذلك الى نسخة مماثلة ممتازة من هذه اللوحة .

وفي السادس عشر من حزيران ١٧٧٥ ، حيث كنت أجد هنا التاريخ مسجلاً باديء ذي(١) بدء ، سلكنا طريقاً شائكاً ، ولم يكن ثمة بدٌّ من ارتقاء مرتفعات صخرية موحشة ، وذلك في عزلة كاملة وقفر يباب ؛ وفي الساعة التاسعة الاّ ربعاً من المساء كنا نقف قبالة قمّتي هوكن السويسريتان ،وهما ذروتان تنتصبان وتطاولان السماء بجبروت ، احداهما الى جانب الأخرى . ووجدنا الثلج في دروبنا أول مرة وكان مايزال عالقاً بتلك الذرى الصخرية المدببة منذ الشتاء . وكانت غابة من الشربين مغرقة في القدم تملأ الوهاد التي لا يحيط بها البصر على نحو مهيب ومخيف ، وكان علينا أن نهبط اليها . وبعد استراحة قصيرة وثبنا ، ونحن منتعشون متمتعون بالرشاقة الجريئة ، الى درب المشاة الذي يهوي الى الأعماق ، من صخرة الى صخرة ، ومن لوح الى لوح ، ووصلنا في الساعة العاشرة الى شفيتس وكنا قد غدونا مرهَقين ومَرِحين في الوقت ذاته ، خائرين وثائرين ، ونقعنا غُلّة ظمأنا الشديد اللاهِب ، وشعرنا أننا أكثر حماسةً بعد . فلو أن المرء تصور ذلك الشاب الذي كتب منذ حوالي عامين «آلام فرتر ، وصديقاً أصغر منه كان قد سرى فيه اللهيب أمام مخطوط ذلك الأثر

الرائع ، وقد تحوّل كلاهما ، على غير معرفة وارادة ، الى مايشبه الظَرْف الطبيعيّ . وهما يذكران ، بصورة حيّة ، أهواءً وعواطف غابرة . ويُلحقان بها الحاضر ، وهما يصوغان خططاً عديمة الأثر ، ويتقلّبان في مملكة الخيال وقد استحوذ عليهما الشعور بالقوة التي تبعث على الارتياح – لاقترب المرء حينئذ من تصور ذلك الوضع الذي ماكنت لأتمكن من وصفه لولا أن اليوميات قد ورد فيها : «الضحك والهتاف المرح داما حتى منتصف الليل» .

وفي صباح السابع عشر كنا نرى قمتي هوكن(١) السويسريتين قبالة نوافذنا . والى هذين الهرَمين الطبيعيين الهائلين اللذين لانظام فيهما كانت تعرج السحائب بعد السحائب . وفي الساعة الواحدة بعد الظهر انطلقنا من شفيتس الى جبال الريجي ، وفي الساعة الثانية الى أشعة الشمس الرائعة على بحيرة لاوَرْتْس(٢) . وكنا لانكاد نرى شيئاً على الاطلاق من فرط السعادة . وكانت فتاتان بارعتان تقودان السفينة ، وكان هذا ساحراً ، وارتضيناه . ووصلنا الجزيرة التي يقولون ان الطاغية السابق قد أقام فيها ، ومهما يكن من أمره فقد كان كوخ أخي الغابة(٣) قد حلّ الآن بين الخرائب .

وارتقينا جبل ريجي (٤) . وعند السابعة والنصف كنا واقفين عند أم السيد المسيح في الثلج ، ثم في المعبد ، مارّين بالدير ، وفي فندق «تسوم اوكسن» .

ويوم السبت ، في الثامن عشر ، وفي وقت مبكر ، تم رسم معبد «أوكسن» ، وفي الساعة الثانية عشرة ، الى الحمام البارد(٥) ، أو الى ينبوع الأخوات الثلاث ، وفي الثانية والربع كنا قد ارتقينا المرتفع .

ووجدنا أنفسنا في السحاب ، وكان هذه المرة بغيضاً الينا بصورة مضاعفة ، اذ كان يعوق الاطلال بالنظر ، وكان ضباباً هابطاً مبللاً . ولكن حين تقشّع بعضه عن بعض ، هنا وهناك ، وأتاح لنا أن نرى ، وقد أحْدَقَت بنا الأُطُر المتماوجة ، عالماً نقياً رائعاً تغشاه أشعة الشمس ، في صور تتجلى على التناوب . ما عدنا نأسف على تلك المصادفات ، اذ كان منظراً لم يُرَ قط ، ولا يمكن أن يُرى مرة أخرى . ولبثنا وقتاً طويلاً في هذا الوضع غير المريح الى حد ما ، لكي نظفر ، من خلال الصدوع والهُوى ، تحت كتل السحاب المتحركة أبداً ، بجانب صغير من الأرض المُشْمِسة أو شريط ضيق من الضفة ، ونهاية صغيرة من البحيرة .

وفي الساعة الثامنة مساءً كنا عائدين مرة أخرى أمام الفندق ، وجلسنا الى الأسماك المشويّة والبيض والخمر الكافي ، من جديد .

فلمّا خيم الغسق الآن ، وأقبل الليل شيئاً فشيئاً أخذت تشغل آذاننا ألحان متناغمة على نحو حافل بالإيحاء ، من رنين أجراس المعبد ، واصطخاب الينبوع ، وحفيف النسائم المتعاقبة ، والأبواق البعيدة — وكانت لحظات تبعث على الارتياح والسكينة وتُهَدهِدُ الى النوم .

وفي السادسة والنصف من صباح التاسع عشر انطلقنا الى الأعالي أولاً ، ثم هبطنا الى بحيرة فالد شتيتّر ، فالى فيتسناو ، ومن هناك ، على الماء ، الى جيرساو ، وعند الظهيرة كنا في الفندق على البحيرة . وحوالي الساعة الثانية كنا قبالة رابية جروتلي(١) ، حيث أقسم الأبطال الثلاثة . هناك على اللوح ، حيث وثب(٢) البطل منطلقاً ، وحيث خُلِدت أسطورة حياته وأعماله بالتصوير تشريفاً له . وفي الثالثة

كنا في فلولن ، حيث نقل بالسفينة ، وفي الرابعة في ألتدورف ، حيث رمى التفاحة فأطاح بها .

ومن البدهي أن يشتبك المرء بهذا الخيط الشعري من خلال متاهة هذه الجدران الصخرية التي لاتنطوي على شيء تقوله لنا ، وهي التي تبلغ الى الماء في انتصابها العمودي . أما أولئك الذين لاسبيل الى زعزعتهم فيظلون هنالك في مثل سكون ستائر المسرح الجانبيّة . وما السعادة أو الشقاء ، والسرور أو الحزن ، إلاّ أمور ترد في صدد الأشخاص الذين أدرجت أسماؤهم اليوم في اللائحة .

ومع ذلك فقد كانت أمثال هذه التأملات خارج مجال نظر أولئك الفتيان بصورة كاملة ، اذ كانوا قد طرحوا عن أذهانهم ما انقضى منذ أجل قريب . وكان المستقبل ينبسط أمامهم بالغ الروعة لايسبر غـوره ، كالجبل الـذي كانـوا يتطلعون الى ، ارتقـائه ،

وفي العشرين انطلقنا الى أمستيج حيث أعدّ لنا القوم أسماكاً مشوية مستطابة تماماً . وهنا ، على هذه الجبال الموحشة بما فيه الكفاية ، حيث كان نهر الرويس ينبثق من الصدوع الصخرية الأكثر انحداراً ، وماء الثلج العذب يعابث ضفاف الحصباء النقيّة ، لم أتوان عن انتهاز الفرصة وانعاش نفسي في الأمواج المصطخبة .

وفي الساعة الثالثة انطلقنا صاعدين من هناك ، وكانت قافلة من البغال تمتد أمامنا ، وسرنا بمحاذاتها على كتلة عريضة من الثلج ، ولم نعرف إلاّ بعد ذلك أنها كانت جوفاء ، وكان ثلج الشتاء قد استقر هنا في صدع من صدوع الجبل التي لم يكن للمرء بد من أن يدور حولها ، وغدت تستخدم الآن طريقاً مستقيماً مختصراً ؛ اذ كانت المياه المتدفقة

في الأسفل قد فرّغتها شيئاً فشيئاً ، وكانت القبة تتضاءل بالذوبان على نحو مطرد بفعل هواء الصيف ، بحيث كانت الآن تمسك هذه الجهة وتلك على نحو طبيعيّ . واستيقنّا من هذه الحادثة الطبيعية العجيبة بأن تجرأنا على التقدم من الأعلى ، نحو الأسفل شيئاً ما ، باتجاه الهوة الأكثر عرضاً .

وفي الوقت الذي كنا فيه نرتفع على نحو مطرد كانت غابات الشربين تظل في القاع ، وكان يُرى من خلالها نهر الرويس المزبد من حين الى آخر فوق مهاوي الصخور . وفي السابعة والنصف وصلنا الى فازن ، حيث لم يكن لنا بدٌّ ، لكي ننعش أنفسنا بالخمر اللومباردي الأحمر الثقيل الحامض ، أن نتدارك أنفسنا أولاً بالماء ، وأن نعتاض بكثير من السكر عن العناصر المكوّنة التي عجزت الطبيعة عن انضاجها في العنب ، وعرض النادل قطعاً متبلورة جميلة . غير أن ابتعادي في تلك الأيام عن أمثال هذه الدراسات الطبيعية كان يبلغ منه أنني لم أرغب أن أثقل على نفسي حتى بالثمن البخس لهذه المنتجات الجبلية .

وفي الساعة السادسة والنصف من الحادي والعشرين : الى الأعلى ، وكانت الصخور تزداد جبروتاً وهَوْلاً على نحو مطرد ، وكان الطريق يزداد مشقّة حتى الى حجر الشيطان(١) ، وحتى رؤية جسر الشيطان . وطاب لرفيقي أن يستجمّ هنا ، وقد شجعني على رسم المناظر الهامّة . وكان من الممكن أن أوفّق الى رسم الخطوط الأساسية ، ولكن لم يكن ثمة شيء يتقدم ، ولا شيء يتأخر ، ولم تكن لدي لغة لأمثال هذه الموضوعات . واستأنفنا جهدنا . وكان القفر الموحش الهائل يبدو كأنه يتصاعد باطراد . فتحوّلت الألواح الى جبال ، والمنخفضات الى هُوىً سحيقة ، فقادني رائدي الى ثغرة أورسن(٢) التي دخلتها

بشيء من الامتعاض . فقد كان ما رأيناه حتى الآن جليلاً حقاً . أمّا هذه الظلمة فقد أزالت كل شيء .

ولكن الرائد الماكر كان قد تصور بالطبع ، وبصورة مسبقة ، الدهشة التي لم يكن لها بدٌ أن تفاجئني عند الخروج . وذلك أن النهر المزبد بصورة معتدلة كان يتلوّى هنا برفق خلال واد منبسط كان في الحقيقة محصوراً بين الجبال ، ولكنه واسع اتساعاً كافياً مع ذلك ، وهو يغري بالسكنى ، وكانت غابة من الشربين تنتصب على بقعة أورسر الصغيرة النظيفة وكنيستها التي كانت تواجهنا على أرض مستوية ، وتعد مقدسة لأنها كانت تحمي المستوطنين عند قاعها من الكتل الثلجية المتدحرجة العالية . وكانت مروج الوادي المخضَوْضِرة قد زُيِّنَت من جديد على حافة النهر بأحواض قصيرة من الزهر ، وسُرَّ القوم هنا بالخضرة المفتقدة طويلاً ، وكان اطمئنانهم عظيماً ، وكانوا يشعرون ، على الدروب المنبسطة بقواهم تعود الى الانتعاش ، وكان زُهُوّ رفيق سفري غير قليل بالمفاجأة التي كان قد مهّد لها بهذه البراعة .

وعلى البساط وجدت الجبنة الأورسريّة المشهورة ، وارتضى الفتية المستثارون تذوّق خمر من الخمور البائسة تذوّقاً ممتازاً لكي يزيدوا بعدُ في تصعيد ارتياحهم ، ولكي يضفوا على مشروعاتهم شطحة من شطحات الخيال .

وفي الساعة الثالثة والنصف من الثاني والعشرين غادرنا مأوانا لكي نخرج من وادي أورسر المنبسط وندخل وادي ليفين(٢) الصخري . وهنا أيضاً افتقدت كل الخصوبة على الفور . فمن صخور عارية كأنها مكسوّة بالطحلب . وقد غَشِيَهَا الثلج ، الى ريح عاصفة

بصورة متقطعّة تسوق السحب الينا وتدفع بها مروراً بنا ، فالى صخب الشلالات ، ورنين أجراس البغال في القفر اليباب المتناهي في خوائه ، اذ لم يكن المرء يبصر القادمين ولا الراحلين . وليس يكلف المخيلة هنا كثيراً أن تتصور أو كار التنانين في الصدوع . ولكن القوم كانوا مع ذلك يشعرون بالمرح والانطلاق بفعل شلال من أجمل الشلالات الذي يعد في معظم الأحوال ملائماً للتصوير ، والذي تتعدّد جوانبه على نحو عظيم في كل المستويات ، والذي أُوتيَ ، في هذا الفصل من السنة بالذات ، الثلجَ الذائب على نحو فائض السخاء ، اذ تحجبه الغيوم حيناً وتنجلي عنه حيناً آخر ، ليَشُدَّنا الى المكان ردحاً طويلاً من الزمان .

وأخيراً وصلنا الى بحيرات صغيرة ضبابيّة ، كما أودّ أن أسميّها ، لأنها كانت لاتكاد تتميّز من الخطوط المرتسمة في الغلاف الجويّ ، ولم يلبث الأمر طويلاً حتى انجلى البخار عن مبنى ، وكان المضافة ، وشعرنا بسرور عظيم ، اذ استطعنا أن نأوي أول الأمر الى سقفها المضياف .

# الكتاب التاسع عشر

ولمّا أنبأ عن قدومنا النباح الخفيف بجَرْوٍ قادم نحونا استقبلتنا لدى الباب شخصية نسائية طاعنة في السن ولكنها متماسكة ، واعتذرت عن السيد الأب الذي كان قد ذهب الى ميلانو ، ولكن كان من المنتظر قدومه من جديد هذا المساء ، ثم انها عُنَيِت براحتنا وحاجاتنا من دون أن تتفوّه بكثير من الكلام.وضمتنا حجرة دافئة فسيحة، ووضع الخبز والجبن والخمر الصالح للشرب على المائدة ، ووُعِدْنا أيضاً بعشاء كاف . ثم استؤنفت الآن مفاجآت النهار ، وجعل الصديق يزْهى زُهُوّاً كبيراً بأن كل شيء قد أصاب خير نجاح ، وانطوى يوم من الأيام لايقدر على صياغة انطباعاته من جديد شعرٌ ولا نثر . وعند حلول الغسق المتأخر دخل الأب المهيب(٢) أخيراً ، وحيّا ضيوفه بحفاوة ودّية حميمة ، وأوصى الطاهية ، بكلمات مقتضبة ، بكل الانتباه الممكن . وحين لم نتوانَ عن إظهار عَجبنا من أنه رغب أن ينفق حياته هنا في الأعالي ، في صحراء كاملة كهذه ، بعيداً عن كل مجتمع ، أكدّ أنه لا ينقصه المجتمع أبداً ، مثلما أتينا نحن أيضاً لنسرّه بزيارتنا ، وان نقل البضائع المتبادل بين ايطاليا وألمانيا نشيط جداً ، وهذا التبادل المستمر أبداً في الشحن يدخله في علاقة مع أصحاب البيوت التجارية . وهو ينزل في كثير من الأحيان الى ميلانو ، ويأتي

في مرات أقلّ من ذلك الى لوزان . ومن هناك تبعث اليه البيوت التي يترتّب عليها أن تتولى أمر العمل البريدي لهذا الطريق الرئيسي في كثير من الأحيان بشباب يفترض فيهم أن يتعرفوا هنا ، من علٍ ، وعند النقطة الفاصلة ، على كل الظروف والوقائع المتعلقة بهذه الأمور .

وبهذه الأحاديث المتعددة الجوانب انقضى المساء ، ونمنا ليلة هادئة على مضاجع قصيرة مثبتة على الجدران أقرب إلى أن تذكر برفوف الكتب حين تكون مهاجع .

وحين نهضت من الفراش مبكراً سرعان ما وجدت نفسي في العراء ، في الحقيقة . ومع ذلك فقد كنت في حجرات محصورة بقُنَنِ الجبال العالية . وكنت قد هبطت الى درب المشاة الذي كان يؤدي الى ايطاليا ، وجعلت أرسم ، على طريقة الهواة ، مالاسبيل الى رسمه(١) ، وما كان أحرى ألاّ يستطيع أن يعطي صورةً ما : وكانت هذه هي أوائل قمم الجبال التي كان الثلج الذائب المتحدّر يظهرها بأخاديدها البيض وظهورها السود . وكانت تلك الصورة قد ظلت في أثناء ذلك لاتخبو في ذاكرتي بفعل هذا الجهد العقيم .

وتقدّم مني رفيقي بجرأة ، وبدأ بالقول : «ماقولك في قصة مضيفنا الكهنوتي مساء الأمس ؟» أوَ لم تجد ، مثلي ، متعة في التوجه من هذه القمة الأفعوانية ، منحدراً الى تلك المناطق الساحرة ؟ ولابد أن يكون الارتحال بالهبوط خلال هذه الصدوع رائعاً ، لاجهد فيه . وحين ينفتح عند بيلليتزونا فكم سيكون في هذا من المتعة ! لقد أُشْرِبَت روحي جزر البحيرة الكبرى(٢) حيّةً من جديد بفعل كلمات الأب ، ولطالما تسامع الناس بذلك ورأوه منذ أسفار كايْسلَر(٣)

بحيث لااستطيع أن أقاوم الإغراء . ومضى قائلاً : « أوليس الأمر كذلك بالقياس إليك ؟ فأنت تقعد في البقعة الصحيحة تماماً . ولقد سبق أن وقفتُ هنا ، ولم تكن لديّ الجرأة على الوثوب الى هناك : فامضِ من قُدُمادون أَخْذ وردّ من، ولتنتظرني في آيرولو، فاني لاحقٌ بك مع الساعي بعد أن أكون قد ودّعت الأب الطيب وسوّيت كل شيء » .

وأجبت قائلاً : « لايمكن أن يروق لي مشروع كهذا مرتجل كل الارتجال » وصاح ذاك قائلاً : « وماذا يقتضي ذلك من تفكير كثير! « أما المال فلدينا منه مايكفي للقدوم الى ميلانو ، وأما القرض فسيتهيّأ لنا ، وإني لأعرف أكثر من صديق تجاريّ من معارضنا هناك» ، وازداد الحاحاً بعدُ ، فقلت : «انطلق ، وجهّز كل شيء للوداع ، ، ثم فلنَعْزِم بعد ذلك » .

ويبدو لي كأن الإنسان لايشعر ، في مثل هذه اللحظات ، بتصميم في نفسه ، وإنما هو أقرب الى أن تحكمه وتحدّد مساره الانطباعات السابقة ، وكانت لومبارديا وإيطاليا ماثلتين أمامي كشيء غريب كل الغرابة . أما ألمانيا فكانت ماثلة كشيء معروف ، عزيز ، حافل بالمناظر المحلية ، ولأعترف بأنّ ما كان يحيط بي كل هذا الزمن إحاطة كاملة ، ويحمل وجودي ، ظل الآن أيضاً . آخر العناصر التي أَقْدرُ على الاستغناء عنها ، والتي لم أكن لأجرؤ على تجاوز حدودها . وكانت ثمة قَلب صغير ذهبي ما يزال معلقاً على الشريط ذاته الذي ثبتُّه حوله ، وقد استدفأ بعنقي ، ، غالياً عزيزاً ، وأمسكت به ، وقبّلته أيضاً . ولنورد ما ابتعثه ذلك من قصيدة هنا أيضاً :

أيّهذي الذكرى(١) ، ذكرى السرور الخافت ،
التي مازلت أحملها في عنقي ،
أتُراك تلومين عهداً أطول من رباط الروح الذي يجمعنا معاً ؟
أم تراك تطيلين أيام الحب القصيرة ؟

* * *

أم تُراني أهرب منك ، يا ليليّ ،
وما زلت مضطراً إلى السياحة في البلاد الغريبة ،
وفي الوديان والغابات البعيدة !
وأنا على ارتباطي بك ،
فان قلب ليلّي ما كان له أن ينفصم ،
بهذه السرعة عن قلبي .

* * *

وذلك مثل طير يقطع الخيط ،
ويعود الى الغابة ،
وهو يجرّ وراءه عار السجن .
فما زال وراءه قطعة صغيرة من الخيط ،
وما عادَ الطائرَ القديم الذي ولد حراً
فقد غدا منتمياً الى امرىء ما

* * *

ونهضت بسرعة ، لأنأى عن الموضع الوعر ، ولكيلا يجرفني الصديق القادم منقضّاً مع حامل الأمتعة ، الى الهاوية معه . وحييّتُ ، أنا أيضاً ، الأب الورع ، وتوجهت ، من دون أن أضيّع كلمة ، الى

الدرب الذي كنا قد أتينا منه . وتبعني الصديق بشيء من التلكؤ . وعلى الرغم من حبه لي وتعلقه بي فقد ظل حيناً متخلفاً على مسافة ما : الى أن جمعنا وضمنا آخر الأمر ذلك الشلال الرائع من جديد . وقُدِّر له أن يجعل ما سبق إقراره صالحاً ونافعاً آخر الأمر أيضاً .

أما الهبوط فما أنا بقائل عنه أكثر من أننا وجدنا ذلك الجسر الثلجيّ الذي كنا قد عبرنا فوقه بهدوء ، في جمع مثقل بالأحمال قبل أيام قلائل ، قد انهار كل الانهيار ، وكان علينا الآن ، اذ كنا مضطرين الى سلوك طريق جانبيّ من خلال الخليج المفتوح ، ان ننظر نظرة الدهشة والاعجاب الى الأنقاض الهائلة لفن عمارة طبيعيّ .

على أنه لم يكن من الممكن أن تكون رحلة العودة مؤلمة كل الإيلام بالقياس الى صديقي ، وربما كان قد تصور مثل هذه من قبل ، وكان قد أمّل ، بمكر ظريف ، أن يفاجئني على الفور ، ومن أجل ذلك لم يكن ممكناً للعودة أن تتم بذلك القدر من المرح . أما أنا فقد كنت على دروبي الصامدة مشغولاً على نحو أكثر ثباتاً ، بالإمساك بالمهول الذي(١) دأب على اللحوق بفكرنا مع الزمن ؛ وذلك على الأقل في تفاصيله المميّزة التي يمكن الإحاطة بها .

ووصلنا من خلال المرتفعات الهامة الخاصة ببحيرة فيرفالدشتات الى كوسناخت . وصولاً لم يخل من بعض الأحاسيس والأفكار الجديدة والمتجددة ، حيث كان علينا ونحن نلقي عصا التسيار ، ونستأنف جولتنا ، أن نحيي معبد فيلهلم تل(٢) القائم على الطريق ، ونتذكر تلك الغيلة المشهورة في العالم كله بأنها غيلة بطولية وطنية ، وكذلك سرنا على بحيرة تسوج التي كنا قد تعرفنا عليها عن بعد ونحن

نهبط من قمة جبل الريجي ، ولا أتذكر من تسوج إلاّ بعض الألواح الزجاجية المرسومة(٣) في حجرات الفندق ، وهي ليست بالكبيرة جداً ولكنها ممتازة في نوعها ، وقد أدخلت في مصاريع النوافذ . ثم كان طريقنا يؤدي الى وادي الزيل عابراً الألبيز ، حيث زرنا هانوفَرياً شاباً قد ارتضى لنفسه العزلة،وهو فون ليندْاو(٤) ، لكي نخفّف من الاستياء الذي كان قد أحس به من قبل حيال صُحبَةً أبيتُها عليه بأسلوب ليس في الغاية من المودة واللياقة . وقد كانت الصداقة الغيورة لدى عابر السبيل الممتاز هي في الحقيقة السبب في رفض حضور عزيز ولكنه غير مريح في الحقيقة .

ولكن لابد لي ، قبل أن نهبط من هذه المرتفعات الرائعة الى البحيرة من جديد ، وننزل المدينة ذات الموقع العزيز ، أن أُدليَ بعدُ بملاحظة عن محاولاتي لاكتساب شيء من المنطقة عن طريق الرسم وتخطيط اللوحات . وكانت عادة النظر الى المنظر الطبيعي على أنه صورة تغريني منذ الصبا بمشروع تثبيتها حين كنت أبصر المنطقة على أنها صورة ، وبالرغبة في التمسك بذكرى راسخة عن أمثال هذه اللحظات . أما فيما عدا ذلك فسرعان ما كنت أشعر في مثل هذا العالم بقصوري اذ كنت أتمرّن الى حد ما بموضوعات محدودة فحسب ، وكان الإلحاح والتعجّل في الوقت نفسه يضطرانني الى وسيلة مساعدة رائعة ، وكنت لا أكاد أحيط بموضوع مثير للاهتمام وأشير اليه بخطوط قلائل ، وبوجه عام ، على الورق ، حتى أنفذ التفاصيل التي لم استطع بلوغها ولا تنفيذها ، بقلم الرصاص ، مع كلمات الى جانبها على التوّ . وكنت اكتسب بهذه الطريقة من الحضور الداخلي لأمثال تلك المناظر ما يجعل كل مكان ، على أي نحو يمكن أن أحتاج

اليه بعد ذلك في القصيدة أو القصة ، يَمْثُل أمامي قريباً في متناول يدي .

وعند عودتي الى تسورش(١) لم أجد آل شتولبرج ، وكانت إقامتهم في هذه المدينة قد اختُصِرت بطريقة عجيبة .

ولنعترف بصورة مطلقة أن المسافرين الذين ينأوْن عن محدودية بيوتهم يعتقدون على نحو ما أنهم يدخلون طبيعة ليست غريبة فحسب ، بل هي حرة كل الحرية . وما أكثر ما كان المرء أقرب الى أن يجن جنونه ، اذ لم يكن المرء يُذَكَّر بعدُ ، في كل لحظة ، عن طريق التفتيش البوليسي لجوازات السفر ، وعن طريق الرسوم الجمركية ، وأمثال ذلك من العقبات ، بأن الأمور في الخارج أكثر تقييداً وسوءاً بعدُ مما هي عليه في البيت .

ثم ان المرء اذا ما صوّر لنفسه ذلك الاتجاه المطلق الى حرية طبيعيّة متحقِّقة فسوف يغفر للنفوس الشابة التي كانت تنظر الى سويسرا على أنها المحل المناسب بالذات ، إضفاءها السمة الرعويّة على طبيعة الفتوة الناضرة . وما من شك في أن قصائد جسْنَرْ الرقيقة(٢) وكذلك نقوشه البالغة السحر قد أعطت الحق في ذلك بصورة حاسمة الى أقصى الحدود .

وفي الحقيقة فان الاستحمام في مياه غير محصورة يبدو الآن أنه يؤهل لمثل هذه البيانات الشاعرية في المقام الأول . وكانت أمثال هذه التمارين الطبيعية لاتبدو متلائمة تلاؤماً حسناً مع الأخلاق الحديثة ، وكان القوم يمسكون عنها أيضاً الى حد ما . أما في سويسرا ، لدى رؤية المياه المنسابة الجارية ، والمتساقطة ، والمتجمعة على السطح ، والمنتشرة شيئاً فشيئاً باتجاه البحيرة ، ولدى الشعور بالرطوبة ، فقد

كان الإغراء لايقاوم . ولا أريد أن أنكر . أنا نفسي ، أنني اتفقت مع رفاقي على السباحة في البحيرة الصافية ، وعلى بعد كاف ، كما كان يبدو ، عن كل نظر آدميّ . ومع ذلك فالأجساد العارية تضيء الى مدى بعيد ، وكان كل من رأى ذلك يتولاّه الغيظ .

على أن الفتيان الطيبين الأبرياء ، الذين لم يجدوا شيئاً يصدم الشعور في ظهورهم أنصاف عراة ، كراعٍ شاعريّ ، أو عراة تماماً كاله وثني ، ذُكِّروا من قبل الأصدقاء بالكفّ عن مثل هذا ، وأفهمهم القوم أنهم ليسوا في البدايات الأولى من الطبيعة ، وانما هم في بلد يرى من المستحسن والمفيد أن يتمسك المرء بالأصول والتقاليد العائدة الى العصور الوسطى . ولم يكونوا بالعازفين عن رؤية ذلك ، وذلك ، بوجه خاص ، لأن الحديث كان عن العصور الوسطى التي كانت تبدو لهم جديرة بالتمجيد على أنها طبيعة ثانية ، ومن أجل ذلك غادروا الضفاف المفرطة في الاضاءة ، ووجدوا في نزهاتهم خلال الجبال مياهاً صافية جيّاشه ، منعشة بحيث بدا لهم أن من المستحيل أن يعرضوا عن مثل هذا الانعاش . وعلى هذا النحو كانوا قد وصلوا في نزهاتهم البعيدة الى الوادي الموحش حيث ينسكب وراء الألبيز نهر الزيل ليصب في الليمات تحت تسورش . وبعيداً عن كل مسكن ، بل عن درب يطؤه المشاه . وجدوا أن مما لاحرج فيه البتّة أن يخلعوا ملابسهم ويعرّضوا أنفسهم بجرأة لأمواج النهر المزبدة ، على أن هذا الأمر لم يحدث بالطبع من دون صياح ، وبغير زغردة السرور الوحشية المستثارة بفعل البرودة حيناً ، وبفعل الارتياح حيناً آخر ، اذ كانوا يوشكون أن يدشّنوا هذه الصخور المكسوّة بالغابة ، بتحويلها بصورة وحشية الى مشهد رعَويّ .

غير أنه ليس من الممكن تحديد هل تسلّل وراءهم ذوو المقاصد السيئة ، أم استثاروا بأنفسهم خصوماً بفعل هذا الصخب الشعري في العزلة . وجملة القول انه لم يكن لهم بدٌّ من أن يشهدوا ، من الأَجَمة الصماء العليا ، قذفاً بالحجارة على أثر قذف ، ولم يكن هناك يقين ، أكان ذلك من قبل قلائل أو كثيرين ، أو كان مصادفة أم عمداً ، ولذلك وجدوا أن من الأحكم أن يغادروا العنصر المنعش ويلتمسوا ملابسهم .

ولم يصب أحد ، وكانت المباغتة والاستياء هما الأذى النفسي الذي عانوا منه ، وتمكنوا ، وهم الفتية المحبّون للحياة ، أن ينفضوا عن أنفسهم ذكرى هذا الأمر بسهولة .

ومع ذلك فقد كانت النتائج المتناهية في الازعاج تمتد الى لافاتر ، اذ آوى اليه فتية على هذا الجانب من الوقاحة إيواء الأصدقاء ، وقام بنزهات معهم ، وشجعهم فيما عدا ذلك ، وهم الذين تسبب طبيعتهم الجامحة التي لايمكن إلجامها ، بل الكافرة ، مثل هذه الفضيحة في منطقة مهذبة حسنة الانضباط .

ومع ذلك فقد عرف الصديق الكهنوتيّ ، بحسن درايته في تهدئة مثل هذه الأغراض ، كيف يسوي هذا الأمر أيضاً ، وبعد انسحاب هؤلاء الرحالة العابرين كالشهاب كان كل شيء قد أعيد الى نصابه لدى عودتنا .

وقد حاولت في الفقرة الخاصة برحلات فرتر(١) التي طبعت ضمن المجلد السادس عشر من أعمالي حديثاً ، من جديد ، أن أصف هذا التعارض بين النظام السويسري المحمود ، والمحدودية التشريعية ، وبين مثل هذه الحياة الفطرية التي تلقى التشجيع في إطار جنون الشباب .

ولكن لمّا كان الناس قد درجوا على أن يتقبلّوا كل ما يصوره الأديب تصويراً بارعاً ، بمثابة رأي حاسم ، ونقد تعليمي ، فقد كان السويسريون معرضين(٢) بسبب ذلك إعراضاً شديداً ، وأمسكت عما كنت أنويه من استئناف ذلك الذي كان يفترض أن يصف الى حد ما وصول فرتر الى الحقبة التي توصف فيها آلامه ويكون بذلك على نحو مؤكد موضع ترحيب لدى العارفين بالبشر .

ولما وصلت تسورش لازمت لافاتر الذي نعمت بكرم ضيافته من جديد وحدي معظم الوقت . وكان «علم الفراسة» يجثم ، بصوره العادية والشاذّة ، على كاهل الرجل الممتاز بثقل يزداد على نحو مطّرد ، وتحدثنا في كل شيء ، حديثاً عميقاً بما يكفي تبعاً للظروف ووعدتُه في هذا الصدد بالمشاركة الواردة حتّى الآن بعد عودتي .

على أن ثقة الشباب المطلقة قادتني في هذا الصدد الى مقدرة على الادراك السريع ، وكان أكثر من ذلك الشعور بالمقدرة على التصوير المتناهية في المطاوعة . . ذلك لأن الأسلوب الذي كان لافاتر يحلل به أشكال السيماء لم يكن في طبعي . وقد كان الانطباع الذي أحدثه لديّ هذا الانسان في اللقاء الأول يحدد في الحقيقة علاقتي به الى حد ما ، على الرغم من أن حسن النية العام الذي كان يحدث أثره لديّ ، مضافاً الى نزق الشباب ، كانت له الهيمنة الدائمة في الحقيقة ، وكان يجعلني أرى الأشياء في جو من غموض معيّن .

وقد كان فكر لافاتر عظيم الأثر على نحو مطلق ، ولم يكن في وسع المرء ، وهو بالقرب منه ، أن يدفع تأثيراً حاسماً ، وعلى ذلك فقد كنت مضطراً الى أن أتقبّل تأمّل الجبهة والأنف والعينين ، والفم ،

كلاً على حده ، والموازنة بين أحوالها وعلاقاتها . أمّا ذلك الناظر فكان يفعل هذا بحكم الضرورة ليخرج بحساب كامل عن هذا الذي يتأمله بوضوح بالغ . وكان يبدو لي دائماً من قبيل الفعلة الخبيثة ، والتجسس أن أقصد إلى تحليل انسان معاصر إلى عناصره . والوقوف بذلك على آثار خصائصه الأخلاقية . وكان أحب الي أن أقف على حديثه الذي يفصح فيه عن نفسه بنفسه كما يحلو له . ذلك لأني لا أريد ، تبعاً لذلك ، أن أنكر أن الأمر كان يبعث على الخوف الى حد ما على مقربة من لافاتر : ذلك لأنه في الوقت الذي كان فيه متمكناً من خصائصنا بطريق الفراسة كان في الاقناع سيد أفكارنا التي كان يستطيع من خلال تعاقب الحديث أن يخمّنها بسهولة مع شيء من حدة الذهن .

ومن كان يشعر بتركيب ( Synthese ) مثمر حقاً في داخله كان له في الحقيقة الحق في التحليل لأنه يختبر الكلّ الداخليّ فيه على محك الفرديّ الظاهريّ ، ويبرره . ولنقدم مثالاً فحسب على الكيفية التي كان لافاتر يتصرف بها .

لقد كان عليه يوم الأحد بعد الموعظة التزام ، بحكم كونه كاهناً ، بأن يبسط يديه بكيس المخمل ذي القبضة القصيرة الى كل من يخرج ، وأن يتقبل الأعطية اللطيفة مباركاً لها ، وقد فرض على نفسه هذا الأحد ، على سبيل المثال ألاّ ينظر الى شخص من الشخوص ، بل ينتبه الى اليدين ويفسّر صورتهما لنفسه ، ولكنّ مالم يكن يَعْزُب عن انتباهه لم يكن شكل الأصابع وحده ، بل سيماء الأصابع أيضاً حين القاء الأعطية . وقد كان عليه أن يفضي الي من ذلك بالكثير .

وما أكثر ما كان لابدّ أن تتسم به مثل هذه الأحاديث من التعليم والاثارة بالقياس اليّ ، أنا الذي كنت في الطريق الى تأهيل نفسي لأكون رسّاماً للبشر ؟ .

وقد حفزني في بعض قراءاتي اللاحقة حافز الى التفكير في هذا الرجل الذي يعدّ من أكثر الرجال الذين وصلت الى علاقة حميمة الى هذا الحد معهم ، امتيازاً . وهكذا كتبت البيانات التالية عنه في عصور مختلفة ، ولم يكن لنا بدٌّ ، بالنظر الى اتجاهينا المتنازعين ، أن يُعَدَّ كلٌّ منا غريباً عن صاحبه كل الغرابة . ومع ذلك فقد كنت آبى أن أكدّر تصوري الخاص بكيانه الممتاز . وكنت أتمثله في ذهني مراراً ، وعلى هذا النحو نشأت هذه الصحائف مستقلةً بعضها عن بعض كل الاستقلال ، وسيجد المرء فيها تكراراً ، ولكن المأمول ألاّ يجد فيها تعارضاً .

لقد كان لافاتر في الحقيقة ذا عقلية واقعية تماماً ، ولم يكن يعرف شيئاً مثالياً (ideell) الاّ في القالب الأخلاقي . فاذا تمسك المرء بهذا التصور عن هذا الرجل الغريب انجلت له الصورة بادىء ذي بدء ، وليس كتابه «نظرات في الخلود(١)» في الحقيقة إلاّ ضروباً من الاستئناف للوجود الراهن بشروط أخف من تلك التي يترتب علينا أن نحتملها هنا . ويرتكز علم الفراسة عنده على الاقتناع بأن الحضور الحسيّ يسقط مطلقاً مع الحضور الذهني ويقدم شاهداً عليه ، بل يصوره ذاته .

ولم يكن من اليسير عليه أن يعقد أواصر الصداقة مع المثل الفنية لأنه كان ينظر في أمثال هذه الطبائع الى استحالة كونها منظمة

تنظيماً حياً . نظرة مفرطة في الشدة ، ولذلك كان يردّها الى مملكة الخرافة ، بل الى مملكة المهول ( Monstros ) ، وكان ميله الذي لايُصَدّ ، والذي يتمثل في ارادة رؤية المثاليّ متحققاً ، يجرّ عليه سمعة المتعصّب على الرغم من أنه كان يشعر أنه ما من أحد كان أكثر إلحاحاً على الواقعيّ منه . ومن أجل ذلك لم يكن يستطيع أن يكتشف وجه الخطأ في طريقة تفكيره وسلوكه .

ولم يكن من اليسير أن يوجد امرؤٌ أكثر منه سعياً محموماً الى أن يُعَرف . وقد كان بذلك يمتاز بملاءمته لان يكون معلّماً . ولئن اتجهت جهوده الى تقويم فكر الآخرين وأخلاقهم فان هذا لم يكن بحال من الأحوال آخر ما عمل فيه .

وكان أكثر ما يسعى اليه تحقيق شخص المسيح . ومن أجل ذلك كان ذلك الاندفاع غير المعقول الى انجاز صورة المسيح بعد الأخرى ، ونسخها ، والإيعاز بالرسم على غرارها ، ولم يكن أيٌّ منها كافياً له بالطبع .

أما كتاباته فعسيرة الفهم حتى منذ الآن ، اذ ليس من اليسير أن يستطيع المرء الإيغال فيما يقصد اليه في الحقيقة . وما من أحد كتب خارجاً من الزمان وداخلاً في الزمان بمقدار ما كتب . وانما تعد كتاباته يوميّات حقيقية تقتضي من التاريخ المعاصر أكثر التأويلات أصالة ، وهي مكتوبة بلغة الشلّة التي لابد للمرء أن يعرفها ليكون منصفاً لها ، وإلاّ فستبدو بعض الأمور القارىء المتبصّر جنونية ونابية عن الذوق كل النبوّ ، مثلما وُجّهت الى الرجل ، وهو بعدُ على قيد الحياة ، وبعد مفارقتها ، مآخذ كافية في هذا الصدد .

وكان من ذلك ، على سبيل المثال ، أننا سببّنا له كثيراً من الصداع بعملنا المسرحي ، اذ كنا نصور كل ما يمكن أن يرد في هذا القالب فحسب ، وكنا نأبى أن ندع قالباً آخر يحظى بالاعتبار ، حتى لقد اجتهد ، حين استثير بذلك ، في أن يبيّن لنا بشدة ، في كتابه «بونتيوس بيلاتوس(١)» : أنه لايوجد عمل أكثر دراميّة من الكتاب المقدس ، وانه يجب اعلان أن قصة آلام السيد المسيح هي مسرحية المسرحيّات .

وفي هذا الفصل من الكتيّب ، بل في العمل كله مطلقاً ، يبدو لافاتر شديد الشبه بالأب ابراهام فون سانتا كلارا(٢) ، ذلك لأنه لابدّ لكل امرىء فَطِن يريد أن يؤثر في اللحظة الحاضرة ، أن يسلك هذا السلوك . وعليه أن يتقصّى الميول والأهواء ، واللغة والمصطلحات لكي يستعمل هذه حينئذ من أجل أغراضه ويتقرب من الجمهور الذي يريد أن يجتذبه اليه .

ولما كان يفهم المسيحية فهماً حرفياً كما كان الكتاب المقدس ، وكما كان بعض المفسّرين يقدمونها ، اذ كان مثل هذا التصور يفيده في استكمال طبيعته الخاصة الى درجة أنه ظل يضم في ناسوته الفرديّ الناسوت الرباني على نحو مثالي ، الى أن أنصهر معه في واحدٍ ، آخر الأمر ، انصهاراً حقيقياً ، واتحد معه ، بل بات يحق له أن يذكر أنه هو ذاته .

وقد كان لابد له ، بفعل هذه العقيدة الانجيلية الحرفية الصحيحة ، أن يكتسب أيضاً قناعة كاملة بأنه لابد أن يكون في وسع المرء أن يمارس المعجزات في هذه الأيام مثلما كان يفعل في ذلك الزمان ،

ولما كان قد نجح نجاحاً تاماً منذ وقت مبكر في أن يحقق بالقوة ، في المسائل الهامة والملحّة ، عن طريق الصلاة المحمومة . بل العنيفة ، تحويلاً ملائماً لأحداث تهدد بخطر شديد ، في اللحظة الحاضرة ، فلم يكن في وسع أية حجة عقلية باردة أن تضلّله أدنى تضليل . ثم انه لمّا كان مفعماً بالكلمة العظمى البشرية التي اعيدت صياغتها ببساطة المسيحية من جديد ، والتي أتيح لها خلود سعيد ، وكان في الوقت ذاته ملمّاً بالحاجات المتعددة للفكر والقلب ، وبالحاجة التي لاحد لها الى المعرفة ، وهو يشعر بذاته بتلك المتعة في التوسع ضمن اللانهائي الذي تدعونا اليه السماء ذات النجوم دعوة تتسم حتى بالسمة الحسيّة ، فقد رسم الخطوط العريضة لكتابه «نظرات في الخلود» الذي ربما بدا ، للجزء الأكبر من المعاصرين ، بالغ الروعة .

ومع ذلك فقد كان كل هذا الطموح ، وكل الرغائب ، وكل المشروعات يرجح عليها العبقرية الفراسيّة التي كانت الطبيعة قد آتته إياها . ذلك لأنه مثلما يكون المحك(١) أكثر ما يكون كفاءة لإظهار الفرق بين المعادن المصقولة عن طريق الاسوداد ، والخاصة الخشنة – الصقيلة في سطحها العلويّ ، كان هو أيضاً ، يتحلّى ، بوساطة التصور الخالص عن البشرية الذي كان يحمله في نفسه ، وبموهبته الملاحظة الحادة المرهفة التي كان يمارسها أولا عن دافع طبيعي من علٍ فحسب ، وبطريق المصادفة ، ثم عن تفكير ، وبصورة مقصودة ومنظمة ، بالملائمة إلى أقصى الدرجات للالمام بخصوصيات الأفراد من البشر ومعرفتها وتمييزها ، بل التعبير عنها . وانما يبدو لنا أن كل موهبة ترتكز على استعداد طبيعي صريح منطوية

على شيء سحري لأننا لا نستطيع أن ندرجها هي ذاتها ، ولا آثارها ، تحت مفهوم ما .

والحق ان نظرته في البشر كلٍّ على حدة كانت تتجاوز كل التصورات ، فقد كان الناس يصابون بالدهشة حين يجري الحديث عن هذا الرجل أو ذاك ، بل كان من المخيف أن يعيش المرء بالقرب من الرجل الذي كان يتجلّى له بوضوح كلُّ حد من الحدود التي بدا للطبيعة أن تقيّدنا بها نحن الأفراد .

على أن كل امرىء يعتقد أن ما يحوزه قابل للإفضاء به ، وكذلك كان لافاتر لايريد أن يستعمل هذه الموهبة العظيمة لنفسه فحسب ، بل كان عليه أن يلتمسها لدى الآخرين ويستثيرها ، بل كان ينبغي نقلها حتى الى الجمهور . أما التأويلات الخاطئة المظلمة والخبيثة ، والنكات السخيفة ، وضروب التهكم(١) الدنيء التي قدمت هذه النظرية اللافتة للنظر حافزاً كبيراً لها ، فذلك مالايزال ماثلاً في ذاكرة فريق من الناس . وقد كان هذا يحدث على نحو لايخلو من جريرة من جانب الرجل الممتاز نفسه . ذلك لأنه على الرغم من أن وحدة الطبيعة الداخلية كانت تقوم على أخلاقية سامية فانه لم يستطع ، مع تعدد جوانب مطامحه ، أن يصل الى الوحدة الخارجية ، اذ لم يكن من الممكن أن يوجد فيه الاستعداد لطريقة التفكير الفلسفي ولا الموهبة الفنية . وذلك أنه لم يكن بالمفكر ولا بالشاعر ، بل لم يكن حتى خطيباً ، بالمعنى الحقيقي . ولمّا لم يكن بحال من الأحوال مستعداً لأن يتناول شيئاً بطريقة منهجيّة ، فقد كان يبادر الى الفردي بصورة فردية ، وكان يرصفه بجرأة ، واحداً الى جانب الآخر . ويعدّ عمله

ولما كان ... ذلك يلفت النظر ، وقد أمكن أن
في المس... فيه هو ذاته كلاً متكاملاً .
تحو... ج نفسه إلاّ في صورة عملية
ؤا... مما كان يدرك الفردية في الحياة .

... ذاته يبين لنا ، مع الأسف ، كيف يتخبّط
... جانب من حدة الذهن في أشد ألوان المعاناة عموماً ،
... كل الفنانين والعابثين الأحياء ، وينفق مالاً لا يُصدق من
... من رسوم ونقوش نحاسية لاشخصية فيها لكي يقول بعد ذلك في الكتاب ان هذه اللوحة وتلك أخفقت بدرجة أكثر أو أقل ، وأنها غير مهمة ، ولا نفع فيها ، وبالطبع فهو يُرهِف بذلك حكمه وحكم الآخرين ، ولكن ذلك يثبت أيضاً أن ميله كان يدفعه الى أن يكدّس الخبرات أكثر من أن يبعث فيها الهواء والضوء . ومن أجل ذلك بالضبط لم يكن يستطيع قط أن ينطلق نحو نتائج كنت أرجوه من أجلها في كثير من الأحيان ، رجاء المُلِحّ . أمّا ما أفضى به من هذه النتائج في وقت لاحق إلى الأصدقاء في جو حميم(١) فلم يكن من قبيل النتائج بالقياس اليّ ، ذلك لأنها كانت تتألف من مجموعة من خطوط وملامح معينة ، بل ثآليل وشامات كان يرى أن سمات معينة ، أخلاقية ، وفي كثير من الأحيان لاأخلاقية ، ترتبط بها ، وكان بينها ملاحظات تبعث على الفزع ، ولكن هذا لم يكن يشكل سلسلة ، وانما كان كل شيء يختلط بعضه ببعض كيفما اتفق ، ولم يكن يُرى في أي مكان تمهيد ، أو توجد إحالة . وكذلك كان المنهج الأدبي أو الروح الفنية قلّما يسودان في سائر كتاباته التي كانت أقرب الى أن تتضمن على الدوام تصويراً عنيفاً بصورة حماسية لتفكيره وارادته ،

وكانت تعوّض في كل وقت هذا الذي كانت تقصّر في اداثه على الإجمال عن طريق التفاصيل المتناهية في حرارتها وظرفها .

وقد تكون الملاحظات التالية ، العائدة كذلك الى تلك الظروف ، واردة في مكانها الصحيح هنا .

ما من أحد يسلّم لآخر بمزيّة وهو مسرور ، مادام في وسعه أن يجحدها الى حد ما فحسب . والمزايا الطبيعية في كل نوع هي الأقل قبولاً للانكار ، ومع ذلك فقد كانت العادة الشائعة في الحديث العام في ذلك الوقت لاتُسلِّم بالعبقرية إلاّ للأديب . أما الآن فقد بدا ، دفعة واحدة ، أن عالما آخر ينفتح ، وبات المرء يطالب بالعبقرية الطبيب ، والقائدَ ، والسياسيّ . وسرعان ما بات يطالب بها كل البشر الآخرين الذين كانوا يفكرون بالنبوغ نظرياً أو علمياً . وقد عبر تسيمّرمان(١) عن هذه المطاليب تعبيراً فائقاً . أما لافاتر فلم يكن له بد من أن يشير ، في كتابه «علم الفراسة» بالضرورة ، الى تقسيم أكثر عموماً للمواهب الفكرية من كل نوع . لقد باتت كل «عبقرية» شعاراً عاماً(٢) . ولما كان الناس يتسامعون بها في كثير جداً من الأحيان فقد حَسِبوا أيضاً أن ما كان يفترض أن تعنيه هو موجود في العادة . ولكن لمّا كان كل امرىء له الحق في مطالبته الآخرين بالعبقرية فقد اعتقد هو آخر الأمر أنه لابد أن يكون حائزاً عليها . وانقضى وقت طويل الى أن جاء الوقت الذي أمكن فيه أن يقال ان العبقرية هي تلك الطاقة البشرية التي توجد بفعل السلوك والعمل ، والقانون والقاعدة . وفي تلك الأيام كانت تتجلّى بمجرد أن تتخطى القوانين الموجودة ، وتقلب القواعد الواردة ، وتعلن أنها فوق الحدود .

ومن أجل ذلك كان من اليسير أن يكون المرء عبقرياً . ولم يكن ثمة شيء أكثر طبيعية من أن يهيب سوء الاستعمال بالقول والفعل بكل البشر الملتزمين بالقواعد أن يتصدّوا لمثل هذا الاختلال .

فكان المرء اذا ضَرَب في الأرض من دون أن يعلم حقاً لماذا والى أين ، كان هذا يعني رحلة عبقرية ، وكان المرء اذا قام بشيء معكوس من دون غرض أو منفعة سمي هذا نزوة عبقرية،وكان الناس الأكثر شباباً ، والمفعمون بالحيوية ، يتلاشون في اللامحدود(١) . وكان المتعقلون الأكبر سناً ، والذين ربما كانوا بغير موهبة وفكر ، يعرفون عند ذلك كيف يصورون الاخفاق المتعدد الوجوه الى حد كبير ، تصويراً يبعث على السخرية أمام أعين الجمهور بشماتة بالغة .

وهكذا كنت أجد نفسي وقد عرض لي ما يعوق تطويري لنفسي وإعرابي عن ذاتي من قبل الاسهام في التأثير والتأثر الخاص المتقاربَيْن في الفكر ما يكاد يربو على ما يعرض من قِبَل مقاومة المتعارضَيْن فكراً . وكانت الكلمات ، والنعوت ، والعبارات تنتشر بين الجمهور المردِّد الكلام بغير فكر على حساب أعلى المواهب الفكرية حتى أن المرء ليسمعها حتى الآن هنا وهناك ، في الحياة العامة من غير المثقفين . بل لقد تغلغلت حتى في القواميس . وعانت كلمة «عبقرية» من هذا التأويل الخاطىء الذي أراد الناس أن يستخلصوا منه ضرورة استبعادها برمتها من اللغة الألمانية . وهكذا فربما كان الألمان الذين يجد العامّ لديهم فرصة للانتشار أوسع كثيراً مما يجد لدى الأمم الأخرى ، خليقين أن يصلوا الى أجمل ازدهار للّغة ، والى الكلمة التي هي أجنبيّة في المظهر فحسب ، ولكنها تخص كل الشعوب على حد سواء

لولا أن روح الأسمى والأفضل التي أعيد تأسيسها من جديد بفعل فلسفة أعمق ، كانت قد صيغت من جديد صياغة موفّقة .

لقد ورد الحديث فيما سبق عن سن الشباب عند رجلين لن تمّحي ذكراهما أبداً من تاريخ الأدب والتقاليد الألمانية ، ومع ذلك فنحن لانتعرف عليهما في العصر المذكور الى حد ما إلاّ من خلال خطواتهما الخاطئة التي انقادا اليها بتأثير مبادىء زائفة تتصل بالحياة اليومية في المجتمع الخاص بمعاصريهما المعادلين لهما في السن . ولكن ما من شيء أكثر بداهة الآن من أن نستعرض صورتهما الطبيعية وطبيعتهما الحقيقية مع التقدير والتمجيد كما كان مثل هذا يحدث في تلك الأيام ذاتها مع الحضور المباشر للافاتر المتغلغل ، وذلك مالا نبالي من أجله بأن نورد هنا المواضع التي تلفت النظر ، والتي تتصل بكليهما ، من القسم الثاني للأثر المذكور ، وفقرته الثلاثين ، ص٢٤٤ ، لأن المجلدات الثقيلة والغالية ، من العمل الفَراسِيّ الكبير ،لايمكن أن تتوفر على التوّ إلاّ في أيدي القليل من قرائنا .

والفتيان اللذان توجد هنا أمامنا صورتاهما(١) ومساقط ظلهما هما أول من جلس ووقف من الناس أمامي للوصف الفراسي مثلما يجلس من يريد أن يرسم ، أمام الرسام .

لقد كنت أعرفهما ، ذينك النبيلين ، من قبل ، اذ قمت بالمحاولة الأولى لملاحظة شخصيتيهما ووصفهما تبعاً للطبيعة ، وتبعاً لكل ألوان المعرفة الأخرى .

وههنا وصف الانسان باكمله : —

أولا : الأصغر

انظر الى الفتى الناضر ذي الأعوام الخمسة والعشرين ! الى المخلوق السابح في الهواء بخفته ، العائم ، الرشيق ! انه لا يرقد ، ولا يقف ، ولا يستند ، ولا يطير ، بل يهوم أو يسبح ، فهو أكثر حيوية من أن يستقر ، وأكثر تقلقلا من أن يقف وقفة ثابتة ، وأثقل ، وألين عودـ ، من أن يطير .

فهو اذاً سابح في الهواء لايمس الأرض ! وليس في ملامحه العامة كلها خط مسترخ كل الاسترخاء ، ولكن ليس فيها أيضاً خط مستقيم ، ولامتوتر ، ولا مقوس على نحو محكم ، أو محني انحناء شديداً ، ولا وهدة منكسرة ولا مقدمة جبلية صخرية في الجبين ، ولا قسوة ، ولا صلابة ولا غلظة غاضبة ، ولا هيمنة مهددة ، ولا جرأة حديدية — انه قابل للاثارة قابلية مرنة حقاً ،ولكنه ليس بالفكر المتعمق الحديدي ، الصلب ، الممحمص ، وليس هناك تفكير بطيء أو ترو ذكي ، ولا وجود ، في أي مكان ، للمتفكر وقد أمسك باحدى يديه بكفة الميزان إمساكاً محكماً وبالسيف بالأخرى ، كما لا يوجد البتة أيضاً أدنى تصلب في النظرة والحكم ! ومع ذلك فهناك الاستقامة الكاملة في العقل ، أو بالأحرى روح الحقيقة المتناهية في بعدها عن التلوث !

فهو الحساس الباطني دائماً ، وما هو بالمفكر المتجه الى الخارج أبداً ، وليس أبداً بالمطور الممحص للحقيقة التي تم رؤيتها والتعرف عليها ومحبتها والمبادرة اليها بسرعة بالغة . . . انه السابح الخالد في الهواء ، وهو ذو النظر ، وصانع المثل ، والمجمل ، والصائغ لكل أفكاره ! وهو أبداً شاعر نصف سكران ، يرى ما يريد أن يراه ، وليس بالبائس ذي الفكر المشوش — وليس بالمحطم في قسوة — ولكنه الشامخ ، النبيل ، ذو العنفوان ! الذي يضرب في أصقاع الجو ، وقد تولاه «ظمأ الى الشمس» مكبوت ، ويطمح الى ما فوق ذاته ، ثم لا يهبط — من جديد الى الأرض ! ويهوي الى الأرض ، ويغوص في طوفان «نهر الصخور» — وليست نظرته بنظرة النسر الملتهبة ! وليس في جبهته وأنفه شجاعة الأسد ! ولا في صدره جلد الجواد الذي يحمحم من القتال ! ولكن فيه على الإجمال كثيراً من سلاسة الفيل الانسيابية . . . .

أما انشداد شفته العليا المتقدمة نحو الأنف غير الحليق الذي لازوايا له ، والنازل الى الأمام فيظهر مع هذا الانغلاق للفم ، كثيراً من الذوق والحساسية المرهفة . وأما القسم السفلي من الوجه فيظهر كثيراً من النزعة الحسية والجمود واللامبالاة . على أن مجمل الخطوط الأولية لنصف الوجه يظهر الصراحة والاستقامة والانسانية ، ولكنه يظهر في الوقت نفسه سهولة الإغراء ودرجة عالية من انعدام الحذر القائم على سلامة الطوية ، والذي لا يلحق الضرر بأحد سواه ذاته ، أما الخط الأوسط للفم فيمثل في سكونه انساناً مستقيماً لاخطة عنده ، مجبولا على اللين ، طيباً ، وهو في حركته رقيق مرهف الحس قابل للإثارة الى أقصى الحدود ، طيب نبيل . أما في قوس الجفنين ، وفي بريق العينين ، فلا يستقر هومير ، بل المتحمس ، والمتمثل الأكثر عمقاً واستبطاناً ، وسرعة ، لهومير . وهو ليس بالشاعر الملحمي ، ولكنه شاعر الأناشيد وهو العبقرية التي تنبجس ، وتقلب الخلق ، وتضفي النبل ، وتصور ، وتهيم ، وتسحر كل شيء بتحويله الى صورة بطولية ، وتضفي السمة الربانية على كل شيء — وأما الأجفان نصف المرئية الخاصة بمثل هذا القوس

فتمثل شاعراً يزداد على الدوام ارهافاً في الحس بحكم كونه فناناً يبدع بموجب خطة ، ويعمل ببطء ، فناناً من المشاق أكثر منه فناناً صارماً – على أن مجمل محيا الفتى كله فيه من الاستحواذ والجاذبية ما هو أكثر كثيراً من الوجه النصفي الذي يعد مفرطاً بعض الإفراط في التقلقل والاتساع . كما أن مقدمة الوجه تشهد ، لدى أدنى حركة ، على طيبة داخلية حساسة رفيقة مبدعة ، غير مكتسبة ، وعلى حيوية لها ارتعاشة رقيقة تثير فزع الباطل وتتعطش الى الحرية ، وهي لاتستطيع أن تخفي الانطباع الأدنى من بين الانطباعات الكثيرة التي تتلقاها مرة واحدة وبغير انقطاع . وكل موضوع لها صلة وثيقة به يدفع الدم في الوجنتين والأنف ، كما أن الحياء المتناهي في عذريته عند نقطة الشرف ينتشر بسرعة البرق فوق البشرة المتحركة برفق –

أما لون البشرة فليس باللون الباهت للعبقرية التي تبدع كل شيء وتلتهم كل شيء ، وليس باللون اللاهب الجامح لذلك الذي يطأ بقدميه في ازدراء ، وليس بالأبيض اللبني البليد ، ولا الأصفر القاسي والصلب ، ولا المسمر للعامل الكادح البطيء ، ولكنه الأبيض الضارب الى الخمرة ، والبنفسجي ، وهما ينطقان بكل هذا القدر ، ويتماوجان فيما بينهما الى هذه الدرجة ، وقد تمازجا تمازجاً موفقاً كتمازج القوة والضعف في مجمل الشخصية . على أن روح المجموع وروح كل مسحة خاصة هي الحرية ، وهي النشاط المرن الذي ينطلق بيسر ويرتد بيسر . والشهامة والمرح الصادق يضيئان من مقدمة الوجه ومن وضع الرأس ، وامتناع الحس على الفساد ، وارهاف الذوق ، وصفاء الفكر وطيب الروح ونبلها ، والطاقة النشيطة ، والشعور بالقوة والضعف ، كل هذا يبدو أنه يتغلغل في كل مكان الى هذا الحد في مجمل الوجه بحيث ينحل الشعور بالذات الذي هو في العادة شعور جريء ، الى تواضع نبيل عن هذا الطريق ، ويحتجب غرور الشباب الطبيعي دونما قسر وتصنع في هذا الكل العابث على نحو رائع ، احتجاباً ساحراً – أما الشعر الضارب الى البياض ، وطول القامة ، وعلم اطمئنانها ، والرشاقة اللطيفة في المظهر ، وما في المشية من انسياب في الهواء ، وانبساط الصدر ، والجبهة البيضاء الخالية من التجاعيد ، أو فوق ذلك ضروب أخرى متباينة من التعبير تنشر على الانسان كله أنوثة معينة ترتد بها الانطلاقة الداخلية الى الاعتدال فيستحيل بذلك على القلب كل إهانة ودناءة مقصودتين إلى الأبد . ولكن يتبين في الوقت نفسه أيضاً أن الشاعر الجريء الناري ، ليس مقدراً له أن يغدو وحده ، وبنفسه ، ادارياً صلباً ، منفذاً للخطط ، مثابراً ، أو خالداً في المعركة الدموية ، ثم ألاحظ الآن ، في النهاية فحسب ، أنني لم أقل بعد شيئاً عن أكثر الأشياء لفتاً للنظر ، ولا شيئاً عن البساطة النبيلة الخالصة من كل تكلف ولا شيئاً عن طفولة القلب ! ولا شيئاً عن الانعدام الكامل للشعور بنبله الظاهر ! ولا شيئاً عن البراءة التي لا سبيل الى التعبير عنها والتي يتقبل بها التحذير واللوم ، بل المآخذ والظلم ، ويصبر عليها . –

ومع ذلك فمن عساه يريد أن يجد في صدد انسان طيب يكمن فيه كل هذا القدر من الانسانية الخالصة ، نهاية للإدلاء بكل شيء يلمسه أو يحس به لديه !

## وصف الأكبر سناً

ماذا قلت عن الأخ الأصغر – وما أكثر ما يمكن أن يقال عن هذا أيضاً ! على أن أن أكثر ما أستطيع أن ألاحظه من النبل هو هذا : ان هذا الشكل وهذه الشخصية أكثر اندماجاً وأقل رحابة من السابقة . فكل شيء هناك أكثر طولا وامتداداً ، وكل شيء هنا أقصر وأعرض وأكثر تقوساً وانحناءاً ، وكل شيء هناك أكثر تقلقلا ، وهنا أكثر تهذيباً وتشذيباً ، وذلك هو حال الجبين ، وكذا الأنف والصدر ، فهما أكثر اندماجاً وأكثر حيوية ، وثمة طاقة وحيوية أقل انتشاراً وأكثر تسديداً ! وإلا فهو السحر ذاته والبراءة ذاتها ! أو ليست هي الصراحة التي تلفت النظر ، بل هو المزيد من المكر ، ولكنه في الأساس ، أو بالأحرى في الفعل ، هو الاستقامة ذاتها ، وهو النفور الذي لاسبيل الى قمعه ، من الظلم والخبث ، وهو استحالة المصالحة مع ما يسمى كيداً أو مكراً ، وهي الصلابة ذاتها في وجه الطغيان والعسف ، وهو الشعور الخالص النزيه ذاته ، بكل ما هو نبيل وطيب وعظيم ، وهي الحاجة ذاتها الى الصداقة والحرية ، والحساسية ذاتها ، والتوق النبيل ذاته الى المجد ، والانفتاح ذاته في القلب لكل البشر الطيبين الحكماء ، البسطاء ، الأقوياء ، مشهورين أو غير مشهورين ، معروفين أو غير معروفين ، وهي اللامبالاة ذاتها ، القائمة على الطيش . كلا بل ليست هي ذاتها مباشرة ، فالوجه أكثر تهذيباً وتربية وأكثر صلابة ، وفيه مزيد من اللياقة الداخلية التي تتطور بسهولة ، للأعمال والمشاورات العملية ، ومزيد من الجرأة التي تشق طريقها ، والتي تتجلى به بوجه خاص في عظام العينين البارزة بقوة ، والمدورة على نحو يذهب بحدتها ، وليس هو الحس الشاعري المتدفق ، ولا الرشاقة السريعة للطاقة المثمرة عند الآخر ، ولكنه يتسم مع ذلك ، كما هو الحال في الأقاليم الأعمق ، بالحيوية والصحة ، والباطنية ، وليست هي عبقرية الضوء الهوائية ، الهائمة على وجهها في السماء التي تغشاها حمرة الشفق الصباحي ، والتي تشكل الصور – وإنما هي مزيد من الطاقة الداخلية ، وربما بقدر أقل من التعبير ! أكثر عنفواناً ورهبة – وأقل أبهة واستدارة ، على الرغم من ان ريشته لاتفتقر الى التلوين ولا الى السحر – وهو المزيد من النكتة والمزاج الجنوني ، والتهكم المضحك ، والجبهة والأنف والنظرة – كل شيء نازلا هكذا ، مغلقاً هكذا من الأمام ، وهو حاسم بالقياس الى النكتة الأصلية الباعثة للحياة في كل شيء ، والتي لا تجمع من الخارج حقاًبل تطرح من الداخل ، ويعد كل شيء في هذه الشخصية على الاطلاق أكثر بروزاً والحاحاً ، وأكثر حفولا بالزوايا ، وأكثر اقتحاماً وعصفاً ! – فليس ثمة انبساط في أي مكان ، ولا استرخاء في أي مكان ، سوى ما في العين المسبلة ، حيث تنبثق المتعة ، كما في الجبين

والأنف ، وفيما عدا ذلك فان هذا الازدحام في كل شيء ، حتى في هذه الجبهة – انما هو التعبير الذي لا يقبل الغش ، عن العظمة التي لم تكتسب اكتساباً ، وعن القوة والا ندفاع الانساني ، والثبات ، والبساطة والعزم ! – » .

وبعد أن اضطررت ، منذ أن كنت في دار مشتات ، الى أن أُقرَّ لمرْك بانتصاره في أنه كان قد تنبأ بالانفصال العاجل عن الجماعة المرحة . وجدت نفسي من جديد في فرانكفورت ، واستقبلت استقبالاً حسناً من قبل الناس جميعاً ، ومن قبل والدي أيضاً ، على الرغم من أن هذا جعلني ألاحظ عدم موافقته على أنني لم أهبط الى آيرولو ، ولم أبلغه بوصولي الى ميلانو ، وكان ذلك على نحو غير صريح في الحقيقة ، بل كان بطريق الصمت . ولم يستطع بوجه خاص أن يثبت أدنى اهتمام بتلك الصخور والبحيرات الضبابية ، وأوكار التنائن الموحشة ، ومع ذلك فقد كان يتركني ، لا على سبيل المعارضة ، بل بطريقة عرضيّة ، ألاحظ ما كان له في الحقيقة كل الوزن في هذا ، وهو أنه ماعاش من لم يرَ نابولي .

ولم أتجنّب ، ولم يكن في وسعي أن أتجنّب رؤية ليلّي ، وكان بيننا ظرف دقيق يتسم بالمراعاة ، وكنت قد أُبْلِغت أن القوم قد أقنعوها في غيابي كل الاقناع بانها منفصلة عني لامحالة . وأن هذا سيكون أكثر ضرورة ، بل أكثر لياقة ، لأنني أعربت عن نفسي بنفسي بما فيه الكفاية عن طريق غيابي المتعسّف كل التعسّف . ولكن الأماكن ذاتها ، في المدينة والريف ، والشخصيات ذاتها ، التي كانت قد أَلِفَت كلَّ ما كان موجوداً حتى الآن . كانت لاتكاد تدع كلا المتحابيّن بعدُ أبداًمن دوناحتكاك على الرغم منتباعد كل منهما عن الآخر بطريقة عجيبة . لقد كان ظرفاً ملعوناً(١) يحاكي بمعنى معين جحيم العالم السفلي . أي لقاء أولئك المتباعدين السعيد – الشقيّ .

لقد كانت لحظات كان يبدو فيها أن الأيام الغابرة تعاد صياغتها من جديد ، ولكنها تتلاشى على الفور كالأشباح التي تبرق في الظلام .

وكان أولو المقاصد الحسنة قد أسرّوا اليّ أن ليلّي قد اعلنت حين أُبْلِغت بكل العقبات الخاصة بارتباطنا أنها تزمع التخليّ ، بدافع الميل اليّ ، عن كل الظروف والعلاقات ، والذهاب معي الى أمريكا(٢) . وكانت أمريكا في ذلك الوقت ماتزال أكثر مما هي الآن ، الأرض الموعودة بالقياس الى أولئك الذين كانوا يجدون أنفسهم في حرج من وضعهم الراهن .

ولكن ما كان خليقاً أن ينعش آمالي كان هو ذاته ما يحبطها ، فكان منزل أبي الجميل ، وهو الذي كان على بعد مئات قليلة من منزلها ، يمثل حالة أكثر امتناعاً على الظفر بها من البيئة غير المؤكدة البعيدة وراء البحر ، ولكني لاأنكر أن كل الآمال ، وكل الرغائب كانت تبرز في حضورها ، كما كانت ضروب جديدة من الشك تختلج في نفسي .

وكانت وصايا أختي بالطبع شديدة النهي والحزم ، ولم تكن قد جلَت الوضع ، بكل ما كانت قادرة عليه من الشعور المتفهّم ، في إطار من الوضوح فحسب ، بل كانت رسائلها القوية المؤلمة حتى الإيلام تتابع بمزيد من القوة في التفصيل ، النصّ ذاته . وكانت تقول : « حسناً ، اذ لم يكن في وسعك أن تتجنّب ذلك فلا بد لك أن تحتمله ، اذ ان على المرء أن يصبر على أمثال هذا ، لا أن يختاره اختياراً » . وانصرمت بعض الشهور في هذا الوضع الذي هو أشد الأوضاع شقاءً ، وكانت كل الظروف تتسم بالعداء لهذه الرابطة ،

وفيها وحدها ، كما اعتقد . وكما أعرف ، كانت تكمن طاقة هي خليقة أن تتغلب على هذا كله .

وكان كلا العاشقين يتجنبان ، وهما على معرفة بحالهما ، اللقاء وحدهما ، ولكن لم يكن في وسع المرء أن يتجنّب ، بحكم المألوف ، الوجودَ في المجتمع . عند ذلك فُرِضَ عليّ أشد ضروب امتحان كيفية انسجام النفس ذات الشعور النبيل ، اذا أردت الافصاح عن نفسي بمزيد من التفصيل . ولنعترف بوجه عام أن العاشق يسره في حالة التعارف الجديد ، أو الميل الناشيء حديثاً أن يسدل ستاراً على الماضي ، فالهوى لايعبأ بالحوادث السابقة ، ومثلما يبرز على نحو عبقري بسرعة البرق ، لايمكنه أن يعرف ماضياً ولا مستقبلاً . والحق ان معرفتي الحميمة الوثيقة بليلّي قد تم التمهيد لها عن طريق تحُدّثها اليّ عن صباها الأول : كيف أثارها بعض الهوى والتعلّق ، بصورة مطلقة ، ببعض الغرباء الزائرين لمنزلها المفعم بالحيوية ، منذ أن كانت طفلة ، وكيف تسلّت بذلك على الرغم من أنه لم يكن له نتيجة وارتباط لاحقان . وانما ينظر المتحابّون حقاً الى كل ما أحسّوا به حتى الآن على أنه مجرد تمهيد لسعادتهم الراهنة ، وعلى أنه مجرد أساس ينبغي لبنيان حياتهم أن ينتصب عليه . أمّا ضروب الهوى الغابرة فتبدو كأشباح الليل التي تتسلّل منسربةً قبل بزوغ النهار .

ولكن ماذا حدث ! لقد أقبل المعرض ، وهكذا ظهر سرب تلك الأشباح في واقعها ، وأقبل كل أصدقاء المنزل الهام من التجار شيئاً فشيئاً وسرعان ماتبين أنه ما من أحد كان يريد أو يستطيع أن يتخلى عن نصيب معين من الابنة الساحرة كل التخلّي . فأما الأصغرون

سناً فقد بدوا في صورة المعروفين كل المعرفةحقاًمن دون أن يكونوا ثقلاء ، وأمّا الأواسط فكانوا أولي تهذيب ملتزم معين كهؤلاء الذي يكتسبون المودّة وربما خرجوا بمطاليب أعلى على أية حال ، وكان بينهم رجال أولو وسامة ورَغد يدلّ على رفاهية بالغة .

ولكن السادة الطاعنين في السن كانوا لايُطاقون البتة بسلوكهم المتسم بسلوك الأعمام ، ولم يكونوا يلتزمون حدوداً معينة ، وكانوا يطالبون ، مع التربيت المستنكر ، حتى بالقبلة التي لم تكن الوجنة تحرم منها ، وقد كان طبيعياً جداً بالقياس اليها أن ترضي الجميع على نحو لائق ، غير أن الأحاديث كانت تثير أيضاً بعض الذكرى ذات الشأن ، وكان الحديث يجري على الماء ، وفي البر ، عن تلك الرحلات الترفيهية وعن بعض الأخطار ذات المخرج الفكه ، وعن الحفلات الراقصة والنزهات المسائية ، وعن التهكم على الخاطبين المضحكين . وكل ما كان من الممكن أن يثير الغيظ الذي هو أحفل بالغيرة ، في العاشق الذي لاعزاء له ، والذي كان كأنه استحوذ لنفسه حيناً من الزمان على النتيجة الختامية لكثير جداً من السنين . ولكنها لم تفوت الصديق مع هذا التزاحم ، وفي غمرة هذه الحركة ، وحين كانت تتوجّه اليه كانت تعرف كيف تفصح بالقليل عن أكثر الأشياء رقةً ، مما بدا أنه يلائم الوضع المتبادل كل الملاءمة .

ولكن ماعلينا ! فلننصرف عن هذا العذاب الذي ما زال لايكاد يطاق في الذاكرة الى الشعر الذي يتم به التمهيد لبعض التخفيف اللطيف من العبء العاطفيّ في هذا الظرف .

وربما كانت قصيدة «متنزّه ليليّ(١)» عائدة الى هذه الحقبة تقريباً ، ولست أحجم عن إيراد القصيدة هنا لأنها لاتعبّر عن ذلك

الظرف الحساس ، بل لمجرد أنها تنزع الى تصعيد ما يبعث على الضيق ، عن طريق العنف العبقري ، وتحويل الحرمان الى اليأس عن طريق الصور التي تبعث على الغيظ بطريقة هزلية .

أما القصيدة التالية فهي أقرب الى أن تعبر عن ذلك الشقاء ، ومن أجل ذلك أوردت هنا .

لقد عراكُنَّ الذبول(١) ، أيتها الوردات الحلوات ،
ولم يحملكنّ حبي ،
ألا فلتزدهرن ، بالله ، لهذا اليائس ،
الذي يحطّم الكرب روحه !

* * *

وإني لأذكر تلك الأيام محزوناً ،
حينما كنت ، متعلّقاً بكِ ، أيهذا الملاك ،
وأنا أرقب أول برعم صغير
حين كنت أغدو الى حديقتي

* * *

وكنت ماأزال أحمل كل الأزدهار .
وكل الثمار ، الى قدميْكِ ،
وكان الأمل ينبض في القلب ،
تلقاء محياكِ .
لقد عراكُنَّ الذبول ، أيتها الوردات الحلوات .
ولم يحملكن حبي ،
ألا فلتزدهرن ، بالله ، لهذا اليائس ،
الذي يحطّم الكرب روحه !

وكانت أوبرا «إرفين وإلميرا» قد نشأت عن أنشودة مستحسنة واردة في «قس ويكفيلد(٢)» لجولد سميث . وقد امتعتنا في أفضل الأوقات ، حيث لم نكن نقدر أن شيئاً مماثلاً كان ينتظرنا .

وقد سبق أن أوردت من قبل ألوان الانتاج الشعري من تلك الحقبة ، ولقد وددت فحسب لو أنها ظلت محفوظة جميعاً ، وقد كان ثمة انفعال مستمر في أوقات الحب السعيدة ، يعطي ، اذ يصعده الهـّم الطارىء ، حافزاً للأغاني التي لم تكن تعبر مطلقاً عن شيء مفرط في التوتر ، بل كانت تعبر دائماً عن شعور اللحظة الراهنة . وقد كان كل شيء مفعماً بالحيوية ، من أغاني الاحتفالات الاجتماعية ، الى أصغر تقدمة للهدايا مما كان يشترك في الشعور به مجتمع مثقف ، فكانت هذه بهيجة أول الأمر ، ثم مؤلمة ، وأخيراً لم يكن هناك ذروة للسعادة ، ولا حضيض للألم ، لم يُكرَّس له صوت من الأصوات .

وقد كانت والدتي تعرف كيف تحول ، بأذكى الطرق وأكثرها مفعولاً ، مسار كل هذه الأحداث الداخلية والخارجية بمقدار ما كان من الممكن أن تمسّ والدي بطريقة مزعجة ، وهو مَنْ كانت أول كَنّية تلائمه ملاءمة رائعة يتضاءل أملها تضاؤلاً مطردا في أن تُرى داخلةً بيته . ولكن هذه السيدة الحكوميّة ، كما دأب على تسميتها فيما بينه وبين زوجته ، لم تكن لتروق له بحال من الأحوال . .

وكان في هذه الأثناء يدع الأمور تأخذ مجراها ويستأنف عمل مكتبه الصغير بنشاط حقيقي . وكان صديق الحقوق الشاب(١) ، وكذلك الكاتب البارع ، يحققان مزيداً من التوسّع على نحو مطرد ، ولمّا كان الغائب لايُفتقَد ، كما هو معروف ، فقد كانا يخليان

لي السبيل ، وكانا يسعيان الى ترسيخ أقدامهما على نحو مطرد ، في الأرض التي لم يكن مقدّراً لي أن أتقدم فيها .

وكان من حسن الحظ أن اتجاهاتي تلاقت مع أفكار الوالد ورغائبه ، وكان لديه تصور جد عظيم عن موهبتي الشعرية ، وقدر كبير من السرور الخاص الناجم عن التشجيع الذي لقيته أعمالي الأولى ، حتى انه كان كثيراً ما يحدثني في الجديد . وفيما ينبغي الشروع فيه بعد ذلك . ولم يكن يجوز لي أن أدعه يلاحظ شيئاً أبعد من هذه التكات الخاصة بمجالس الأنس ، والأشعار العاطفية .

وبعد أن كنت قد عكست في «جوتس فون برليشنجن» الرمز الخاص بحقبة عالمية هامة ، على طريقتي ، أخذت أقلّب النظر حوالي ، وأنا ألتمس بعناية نقطة تحول مماثلة في تاريخ الدول ، وحظيت باهتمامي ثورة هولندا ، وكان «جوتس» يمثل رجلاً طيباً يتلاشى في الجنون : اذ يرى أن القويّ ذا المقصد الحسن كان يتمتع ببعض الأهمية في عصور الفوضى . أما في «إجمنت(٢)» فكان ثمة ظروف ذات أساس راسخ لم يكن من الممكن أن تظل بمنأى عن الاستبداد الصارم المحسوب على أساس سليم . وكنت قد تحدثت في ذلك الى والدي بأكثر الأساليب حيوية ، فيما يجب عمله ، وفيما أريد عمله ، حتى ولّد هذا لديه حاجة لاتقهر ، الى أن يرى هذه المسرحية الناجزة في رأسي ، على الورق ، وأن تُطبع وتنال الإعجاب .

ولئن كنت قد وجهت نشاطي كله في الأيام الغابرة ، حين كنت ماأزال آمل أن استأثر بليلّي ، الى النظر والممارسة في الأعمال المدنية ، فقد اتفق الآن بالذات أنْ كان عليَّ أن أسدّ الثغرة الرهيبة التي كانت

تفصلني عنها بما هو فكري وروحي ، وعلى ذلك أخذت فعلاً في كتابة أجمنت . ولم يكن ذلك في الحقيقة بطريقة متسلسلة ، كما كان الحال في المسرحية الأولى ، «جوتس فون برليشنجن» ، بل بادرت على الفور الى المشاهدالرئيسيةمن دون أن ألقي بالاً الى الروابط في كل الأحوال ، وبذلك قطعت شوطاً بعيداً ، اذ لبثت مشدوداً ، في الليل والنهار ، من دون مبالغة ، من قبل والدي ، وبأسلوبي المتهاون في العمل ، اذ كان يعتقد أن ما نشأ بهذه السهولة يمكن أن يُرى مكتملاً بهذه السهولة أيضاً .



# الكتــاب العشرون

وكذلك استأنفت العمل في (إجمنت) ، ولئن كان شيء من التراخي يظهر بذلك في حالتي الحماسيةفقد كان يُعينني أيضاً حضور فنان طيب علىتزجية بعض الساعات الكئيبة . وكنت هنا أدين بالفضل في طمأنينة الروح الخفيّة ، كما كنت أفعل من قبلُ في كثير من الأحيان ، الى طموح مضطرب ، الى التدريب العمليّ ، في أيام لم يكن ذلك مأمولاً فيها في العادة .

وكان جورج ملشيور كراوز(١) المولود في فرانكفورت ، والذي تعلم في باريس ، قد عاد للتوّ من رحلة قصيرة في شمالي ألمانيا ، فبحث عني ، وشعرت على الفور بدافع وحاجة الى الالتحاق به ، وقد كان رجلاً مرحاً من رجال الدنيا ، وكانت موهبته اليسيرة التي تدخل البهجة قد وجدت المدرسة الملائمة في باريس .

وكان للألمان هناك في ذلك الوقت مأوى مستطاب ، اذ كان يعيش هناك فيليب هاكرت(٢) متمتعاً برفاهية وسمعة حسنة ، وكانت الطريقة الألمانية الأمينة التي كان ينفّذ بها المناظر الطبيعية برسمها وفقاً للطبيعة . بألوان الجواش ، والألوان الزيتيّة عـلى نحو موفّق ، وهي النقيض للأسلوب العملي الذي كان الفرنسيون قد انهمكوا فيه ، موضع ترحيب شديد . وكان فيلي(٣) الذي يحظى بتقدير عالٍ بحكم

كونه نقاشاً على النحاس ، يقدّم الأساس والأرضية للإنجاز الألمانيّ .
أمّا جريم(٤) الذي كان قد غدا صاحب نفوذ فكان يُسدي الى مواطنيه نفعاً غير قليل ، وكانوا يقومون برحلات ممتعة سيراً على الأقدام من أجل الرسم عن الطبيعة بصورة مباشرة . وعلى هذا النحو كان يتم انجاز بعض الأمور الحسنة والإعداد لها .

وكان بوشيه(٥) ودانّو ، وهما فنانان أصيلان حقاً ، كانت أعمالهما ماتزال تُرى دائماً جديرة بأقصى الاحترام ، على الرغم من أن روح العصر وجوهره كانا يعصفان بها ، يميلان الى الظاهرة الجديدة ، ويباشران النشاط بنفسيهما ، على الرغم من أن ذلك لم يكن إلاّ على سبيل الهزل والتجربة . وكان جروز«١» الذي يقضي حياته في محيط العائلة وحده بهدوء ، مسروراً بتصوير أمثال تلك المشاهد المدنيّة ، مفتوناً بأعماله الخاصة ، وكان يتمتع بفرشاة صادقة شيقة .

وقد استطاع صاحبنا كراوز أن يتمثل كل أمثال هذه في موهبته ، وكان يُكَوِّن نفسه عن طريق المجتمع ، ومن أجله ، وكان يعرف كيف يصور روابط الصداقة العائلية تصويراً فائق الزُخْرُف عن طريق اللوحة المصورة ، ولم يكن بأقلّ من ذلك نجاحاً لديه رسوم المناظر الطبيعية التي كانت تروق للعين بخطوطها العامة النقيّة ، وحبرها الصيني الواسع النطاق(٢) ، وتكوينها المستعذَب . أمّا المغزى الباطني فكان يكفيه حقيقة بسيطة معينة ، وكان يكفي صديق الفن بوجه خاص براعتُه في تمهيد كل شيء يرسمه بنفسه عن الطبيعة ليكون لوحة ، وإعداده على الفور

وكان هو ذاته أكثر الاجتماعيين عذوبة : فقد كان المرح اللامبالي يصحبه مطلقاً ، ولما كان على إستعداد للخدمة بغير هوانٍ ،

متحفظاً في غير كبرياء ، فقد كان يجد نفسه في كل مكان كأنه في بيته ، محبوباً في كل مكان ، وكان أكثر الفانين على الاطلاق نشاطاً ، وأكثرهم تلاؤماً في الوقت نفسه ، ولمّا كان متحلّياً بمثل هذه الموهبة الشخصية فقد وصل بخدماته خلال وقت قصير الى الأوساط العليا ، ولقي قبولاً حسناً بوجه خاص في قصر الشريف فون شتاين في ناساوْ على نهر اللاّن ، مسانداً لابنة (٣) موهوبة ساحرة الى أقصى الحدود ، في طموحها الفني ، وباعثاً في الوقت نفسه ، للحياة ، ببعض الأساليب ، في الحياة الاجتماعية .

وبعد زواج هذه السيدة الشابة الفاضلة من الجراف فون فرتر أخذ الزوجان الجديدان الفنان معهما الى أراضيهما الهامة في تورنجيا ، وهكذا وصل أيضاً الى فايمار ، وهنا عُرف ، واعتُرف به ، وأبدت الأوساط ذات الثقافة العالية هناك الرغبة في بقائه .

ومثلما كان لطيفاً في كل مكان فقد شجّع لدى عودته منذ الآن الى فرانكفورت ، حبي للفن الذي كان حتى الآن مجرد حب للجمع ، على الاتجاه الى التمرين العمليّ . وانما يعدّ القرب من الفنان بالقياس الى الهاوي أمراً لامندوحة عنه ، لأنه يرى في ذلك كمال وجوده الخاص ، وتتحقّق رغائب المولَع في الفنان .

ووفقت بتأثير استعداد طبيعي معين ومران ، الى خطوط عريضة ، كما كان ماكنت أراه أمامي في الطبيعة يتشكل بسهولة في صورة ، غير أني كنت أفتقر الى طاقة التجسيد الحقيقية ، والطموح البارع الى اضفاء الجسد على الخطوط العريضة ، عن طريق حُسنِ التدرّج بين الاضاءة والظلمة ، وكانت رسومي القائمة على التقليد أقرب

الى أن تكون ضروباً من الاستشعار البعيد لأية صورة من الصور .
وكانت الشخوص عندي تحاكي المخلوقات الهوائية في مطهردانتي التي
يعتريها التمزع أمام ظل الأجسام الحقيقية ، لأنها لاتلقي ظلالاً .

وبفعل استثارة لافاتر الفراسية — لأن هذا ما يجوز للمرء حقاً أن
يسمّي به الإثارة العاصفة التي كان يسعى بها الى أن يحمل الناس جميعاً ،
لا على تأمل ضروب السيماء فحسب ، بل على المحاكاة الفنية ، أو
العَبَثية الشائهة لأشكال الوجه ، بفعل ذلك هيّأت لنفسي تمريناً على
تصوير لوحات للأصدقاء على الورق الرمادي بطباشير أسود وأبيض ؛
وكان الشبه مما لاتخطئه العين ، ولكن الأمر كان يحتاج الى يد صديق
فنان لإخراجها عن الأساس الباهت .

وفي أثناء التقليب والتصفّح في الحقائب الفنية التي كان كراوز
الطيب قد جلبها معه من أسفاره كان أحب الأحاديث لدى طرح
ضروب من التصوير للمناظر الطبيعية أو الشخوص ، المحيطُ الفايماريّ
وبيئته . وكنت أنا أيضاً يطيب لي المقام جداً هناك ، اذ كان مما لابدّ
أن يتملّق الفتى أن يتأمل هذا القدر الكبير من الصور على أنها مجرد
نص خاص بتنفيذ مفصّل مكرر : وهو أن المرء يودّ لويراني هناك .
وقد كان يعرف كيف يبث الحياة بظرف فائق في تحياته ودعواته ،
عن طريق شخصية مقلّدة . وكانت زيتيّة ناجحة نجاحاً حسناً تصور
رئيس الفرقة الموسيقية فولف عند الجناح ، وزوجُه وراءه ، وهما
يتأهّبان للغناء ، وقد عرف الفنان نفسه في الوقت ذاته كيف يبيّن
بالحاح شديد مقدار المودة التي سيلقاني بها هذان الزوجان الغاليان .
وكان بين رسومه بضعةٌ من الرسوم الخاصة بمناطق الجبال والغابات

حول قرية بورجل(١) . وكان حطاب طيب قد حول الأجزاء الصخرية المتشكلة بأشكال خشنة والجرود والمسافات المشغولة بالغابات الى مناطق صالحة للتجوال على سبيل التسلية ، وربما كان ذلك منحباً لبناته الساحرات أكثر منه حباً لنفسه . وذلك عن طريق الأسيجة والدروب السهلة . فكان المرء يرى النساء في ثياب بيض على الطرق الجميلة غير مفتقرات الى الصحبة . وكان مقدّراً للمرء أن يتبيّن في رجل من الشباب (بْرتوخ (١)الذي لم تكن نواياهالجديّة تجاه كبراهن محل إنكار . على أن كراوز لم يكن يستاء حين كان الناس يجرؤون على أن يشيروا بشاب ثانٍ اليه والى ميله المتفتّح تجاه الأخت .

وكان برتوخ قد نبغ بمعارفه ونشاطه ، بحكم كونه ربيب فيلاند(٢)، الى درجة تحمل على تعليق أفضل الآمال عليه في المستقبل ؛ اذ كان قد عُيِّن أمين سرّ خصوصياً للأرشيدوق ؛ وكان الحديث يجري بصورة مطلقة عن استقامة فيلاند ، ومرحه ، وطيب نفسه ، وكان قد أشير الى مشروعاته الأدبية والشعرية الجميلة بالتفصيل ، ونوقش تأثير «الميركور» في ألمانيا ، وأبرزت كثير من الأسماء من وجهة النظر الأدبية ، والادارية الحكومية ، والاجتماعية ، وسُمّي في هذا السياق موزويس (٣) وكيرمس ، وبيريندس ولوديكوس . أما النساء فقد أشير من بينهن الى زوجة فولف وأرملة كوتسيبو(٤) ومعها ابنة ساحرة وغلام طلق الأسارير ، الى جانب بعض الأخريات ؛ اشارة جيدة ومميزة ، وكان كل شيء يشير الى حياة أدبية وفنية حديثة العهد بالنشاط .

وهكذا كان يتبيّن العنصر الذي كان من المفروض في الأرشيدوق الشاب أن يحدث آثاره فيه شيئاً فشيئاً بعد عودته . وكانت السيدة كبيرة الأوصياء(٥) قد أعدت العدة لمثل هذا الظرف . أمّا ما كان يتصل بتنفيذ الأعمال الهامة فقد كان مقتنعاً كما كان ذلك هو الواجب في مثل هذه الادارات الاحتياطية ، بأن يوكل الى القوة الفعلية للحاكم المقبل . وأما الخرائب الرهيبة الناجمة عن حريق القصر فكان القوم ينظرون اليها منذئذٍ على أنها حافز لألوان جديدة من النشاط ، وكان المنجم المتحوّل الى طوابق في (إلميناو(٦)) ، والذي كان القوم قد عرفوا كيف يؤمّنون له بداية جديدة ممكنة ، عن طريق صيانة باهظة التكاليف للدهليز العميق ، وجامعة ينا (٧) التي كانت قد تخلفت عن روح العصر بعض التخلف مع ما كان يتهددها من خسارة الأساتذة الفائقي البراعة ذاتهم ، الى جانب كثير من الأشياء الأخرى ، يثيرون شعوراً عاماً نبيلاً ، وكان القوم ينظرون حواليهم التماساً لشخصيات يمكن أن تندب لتنمية وجوه من الخير بالغة التنوع في ألمانيا الطامحة . وهكذا تجلت نظرة مستقبلية جديدة على الاطلاق كأحسن ما يمكن أن يتمنى شباب قوي مفعم بالحيوية . ولئن بدا من المؤسف أن يدعو المرء أميرة شابة دون منزلة المبنى اللائق الى مسكن شديد التواضع قد بني لأغراض مختلفة كل الاختلاف ، فقد كانت المنازل الريفية ذات الموقع الجميل من ايترسبورج والبلفدير ومرابع اللهو الأخرى ، تقدم متعة الحاضر والأمل في اثبات امكان النشاط المثمر والممتع في هذه الحياة الطبيعية التي كانت في تلك الأيام قد تحولت الى ضرورة .

لقد رأى القارىء في مسار(١) هذا السرد لسيرة الحياة ، رؤية مفصلة كيف حاول الطفل ، والغلام ، والفتى ، والشاب ، أن يقترب

مما يجاوز الطبيعة ، وكان يجنح أولاً الى ديانة طبيعيه (٢) ، ثم يتعلق بديانة وضعية تعلقاً مقترناً بالحب . ثم انه يجرّب طاقاته الخاصة عن طريق الانكفاء على نفسه ، ويسلم نفسه آخر الأمر الى العقيدة العمومية منشرح الصدر . وكان اذا تنقّل في الأماكن القائمة بين هذه الأقاليم جيئة وذهاباً ، وبحث ، ونظر حواليه ، لقيه بعض ما لم يكن ممكناً أن يعود الى أيٍّ من هؤلاء جميعاً ، وجعل يعتقد على نحو مطرد أنه يتبيّن أن من الأفضل أن ينصرف عن فكرة المهول الذي لايُدرَك . وكان يعتقد أنه يكتشف في الطبيعة الحية وغير الحية ، وذات الروح وغير ذات الروح ، شيئاً لم يكن يتجلىّ إلاّ في التناقضات ، ولم يكن من الممكن بسبب ذلك أن يُحاط به عن طريق تصوّرٍ ما ، وكان أقلَّ من ذلك بعدُ قابليّةً للإحاطة به عن طريق كلمةٍ ما . ولم يكن ذلك ربّانياً . اذ كان يبدو غير عقلانيّ ، ولا إنسانياً ، اذ لم يكن له عقل ، ولا شيطانياً ، اذ كان يتسم بالإحسان ، ولا ملائكياً . اذ كان يلاحظ لديه سرور بالأذى في كثير من الأحيان . لقد كان يضاهي المصادفة ، اذ لم يكن يدل على تسلسل ، وكان يحاكي التنبؤ ، اذ كان يشير الى الترابط في العلاقات . وكان كل ما يحدُّنا يبدو ممكن الاختراق والتغلغل فيه بالقياس اليه ، وكان يبدو أنه يتصّرف بالعناصر الضرورية لوجودنا تصّرف المتعسّف ، وكان يقلّص الزمان ويوسّع المكان ، وكان يبدو أنه لايرتضي إلاّ المستحيل ، ويطرح الممكن جانباً في ازدراء . وكنت أسمّي هذا الكائن الذي كان يبدو أنه يخالط كل الكائنات الأخرى ويفصل بينها ، ويربط بينها ، شيطانياً ، على مثال القدماء ، وعلى

مثال أولئك الذين أدركوا شيئاً مماثلاً . وسعيت الى انقاذ نفسي من هذا الكائن الرهيب بالهرب ، على عادتي ، وراء صورة من الصور .

وكان من الأقسام المتفرقة التي درستها من تاريخ العالم أيضاً الأحداث التي عادت بالشهرة الكبيرة على هولندا المتحدة فيما بعد . وكنت قد أمعنت في البحث في المراجع بنشاط ، واجتهدت في الاطلاع المباشر قدر الإمكان ، وتمثّل كل شيء حياً ، وكانت الأوضاع قد بدَت لي في ذروة الدرامية ، وكانت الشخصية الرئيسية التي لفتت نظري والتي جعلت الشخصيات الأخرى تلتفّ حولها في ذروة السعادة ، هي الجراف إجمنت الذي كنت أرتاح الى عظمة الفروسية الانسانية عنده أشد الارتياح . ولكن لم يكن لي بدٌّ من تحويله ، من أجل استعمالي الخاص الى مثل تلك الشخصية التي كانت تحوز مثل تلك الخصائص التي تزيّن شاباً أكثر مما تزيّن ربّ أسرة ، وامرءاً عزَباً ، أكثر مما مما تزيّن محدوداً ببعض العلاقات على كل ما يتسم به من حرية الفكر ، وحين خرجت به الآن في خواطري وقد عاد اليه الشباب ، متحرراً من كل الشروط ، أضفيت عليه حبَّ الحياة بغير حساب ، والثقة بنفسه بغير حدود ، وموهبة اجتذاب الناس جميعاً اليه ، وكذلك الظفر بالحظوة لدى الشعب ، والهوى الهادىء من لَدُن أميرة ، والهوى الصريح من قِبَل فتاة من فتيات الطبيعة ، واهتمامَ ذكي من أذكياء السياسة ، بل حتى بالحظو ةلدى ابن أكبر مناوئيه .

على أن الشجاعة الشخصية التي تميز البطل هي القاعدة التي يرتكز عليها كل كيانه ، وهي الأساس والأرضية التي ينبثق منها ، فهو لايعرف خطراً ، ويتعامى عن أكبر ما يدانيه منه . فنحن نشق طريقنا وسط الأعداء الذين يُحْدِقون بنا على كل حال . أما أحابيل الدهاء

السياسي فأصعب اختراقاً ، اذ ان الجانب الشيطاني(٢) الذي هو موضع المقامرة من قبل كلا الجانبين ، والذي يضمحل في حلبة صراعه ما هوغال عزيز، وينتصر فيه ما هو مكروه، ثم توقع انبثاق جانب ثالث سوف يتماشى مع رغبة الناس جميعاً ، هذا هو حقاً ما يهيىء للمسرحية التشجيع الذي تتمتع به حتى الآن ، وبالطبع فان ذلك لم يكن لدى ظهورها على الفور ، بل فيما بعد ، وفي الوقت المناسب .

وكذلك فأنا أريد أن أبادر هنا أيضاً بنفسي ، من أجل بعض الأحبة من القراء ، وأدلي بشيء استيقنت منه في وقت لاحق بعيد فحسب ؛ لأني لا أعلم هل أصل في أجل قريب الى الحديث عنه مرة أخرى .

فعلى الرغم من أن ذلك الجانب الشيطاني يمكن أن يتجلى في كل ما هو جسدي وغير جسدي ، بل يفصح عن نفسه لدى الحيوانات بأكثر الطرق لفتاً للنظر ، وكذلك يتخذ الوضع مع الانسان ، بصورة مميزة ، أغرب سياق العلاقات ، ويشكل أحد النظم الأخلاقية للعالم ، حيث لايكون ثمة قوة مناقضة له ، ولكنها مع ذلك قوة عابرة له بحيث يستطيع المرء أن يعد الأول بمثابة الورقة ، والثانية بمثابة الغلاف . وللظواهر التي يمكن احداثها عن هذا الطريق أسماء لاتحصى ؛ لأن كل الفلسفات والأديان سعت الى حل هذا اللغز وحسم هذه المسألة في النهاية بطريقة نثرية أو شعرية ، وذلك ما يظل أمامها فيما بعد مفتوحاً بغير عائق . ولكن هذا الشيطاني يبدو أكثر ما يكون رهبة حين يبرز في أي انسان على نحو غلاب ، وقد استطعت . خلال مسيرة حياتي ، ملاحظة بضعة منهم(١) عن كثب تارة ، وعن بُعْدٍ تارة أخرى . وهم ليسوا دائماً بأفضل البشر ، لافكراً ، ولا مواهب . وقلّما يمتازون بطيب القلب . ولكن طاقة هائلة تنبعث منهم ، وهم يمارسون

سلطاناً لايصدق على كل المخلوقات ، بل حتى على العناصر ، ومن يستطيع أن يقول الى أين سيمتد أثر كهذا الأثر ؟ ان كل القوى المعنوية المتحدة لاتقدر على شيء حيالهم ، وعبثاً يسعى الفريق الأكثر استنارة من البشر الى اثارة الاشتباه بأنهم مخدوعون أو مخادِعون ، اذ ان الجمهور يُجْتَذَب من قِبَلهم ، وقلما يوجد معاصرون لهم من أمثالهم . وما من شيء يمكن التغلب عليهم به سوى الكون ذاته الذي بدأوا الكفاح به ، وربما كانت هذه الملاحظة هي التي نشأ عنها ذلك القول المأثور الذي هو غريب ولكنه هائل : ما من أحد يقف في وجه الرب سوى الرب ذاته .

ومن هذه التأملات العليا أعود من جديد الى حياتي الصغيرة ، التي كان ينتظرها ، بلا ريب ، أحداث غريبة أيضاً ، تكتسي مظهراً شيطانياً على الأقل ، وذلك أنني كنت قد عدت من قمة جبل جوتهارد مولّياً ظهري لإيطاليا ، الى البيت ، اذ لم استطع أن استغني عن ليلّي ، فالهوى المؤسس على أمل التملك المتبادل ، والحياة المشتركة الدائمة لايموت دفعة واحدة ، بل يتغذى بالرغائب المشروعة والآمال المخلصة التي يؤمّلها المرء ، وان من طبيعة الأشياء أن تكون الفتاة في أمثال هذه الأحوال أقرب الى الاعتدال من الفتى ، وبحكم كون البنيّات الجميلات من ذرية باندورا فقد أُضْفِيت عليهن الموهبة المستحبّة ، وهي الاثارة والإغراء ، وحشد الناس من حولهن ، وعلى نحو هو الى أن يكون عن طريق الفطرة ، ونِصفَ متعمّد ، أقرب منه الى أن يكون عن طريق الهوى ، بل الاستهتار ، حيث يتعرض في كثير من الأحيان ، شأن ذلك المتعلِّم للسحر ، لخطر الفزع من حُميّا المعجبين . ثم انه ينبغي أن يُصار هنا بلا ريب الى الاختيار آخر الأمر ، اذ يجب أن يُفَضّل واحد على سبيل الحصر ، وأن يقود واحد العروس الى البيت .

وما أكثر ما يكون ذلك الذي يوجه اختيار القائمة بالاختيار هنا محكوماً بالمصادفة بلا ريب ! لقد كنت قد تخليت عن ليلّي عن قناعة ، ولكن الحب جعل هذه القناعة مشكوكاً فيها . وكانت ليلّي قد ودّعتني بالروح ذاتها ، وكنت قد قمت بالرحلة الجميلة المسلّية ، ولكنها أحدثت النقيض تماماً . فقد كنت أومن بالفراق ، ولم أكن أومن بالانفصال مادمت غائباً ، وكان لكل الذكريات والآمال والرغائب مجال حرّ للعبث . ثم انني عدت الآن ، وكما يكون لقاء المتحابين بحرية وسرور فردوساً كذلك يكون لقاء المنفصلين لأسباب عقلانية فحسب ناراً لاتطاق ، ومدخلاً الى الجحيم . ولما عدت أدراجي الى محيط ليلي شعرت بكل تلك الضروب من الالتباس التي كانت كدّرت صفو علاقتنا مضاعفة . ولما تقدّمت منها هي ذاتها من جديد حزّ في قلبي أنها باتت كالمفقودة بالقياس اليّ . ومن أجل ذلك صممت مراراً على الهرب ، ومن أجل ذلك لم يكن ثمة شيء أحبّ اليّ من أن يأتي الزوجان الشابّان من دوقيّة فايمار ، من كارلسروهه الى فرانكفورت وأن ألحق بهما أنا ، بناء على دعوات سابقة ولاحقة ، الى فايمار . وكنت قد لقيت من جانب صاحبي السيادة ذَيْنِك سلوكاً متفضِّلاً ، بل متسماً بالألفة ، مطرداً على الدوام ، فكنت أرد عليه بالثناء الحار من جانبي . وقد تعلّقت بالدوق منذ اللحظة الأولى ، وقدّرت الأميرة التي كنت قد عرفتها منذ عهد بعيد على الرغم من أن ذلك كان بمجرد النظر ، وبرغبتي في اظهار شيء ودّي بصورة شخصية تجاه فيلاند الذي كان قد سلك تجاهي سلوكاً بالغ الحرية ، واصلاح اساءاتي(١) التي كان نصفها ناجماً عن الجرأة ، ونصفها عن المصادفة ، على الفور من جديد . وكانت تلك هي الأسباب الدافعة التي كانت خليقة أن

تستفزّ أيضاً فتى متحمساً ، بل تسوقه سوقاً . على أنه أضيف الى ذلك الآن بعدُ أنني لم يكن لي بدٌّ من الهرب من ليلتي على أي طريق من الطرق ، سواء أكان ذلك جنوباً ، حيث كانت أقاصيص والدي اليومية تصورلي أروع جنة للفن والطبيعة ، أم الى الشمال ، الى حيث دعاني رهط له شأنه من القوم الأفاضل .

وقد بلغ الزوجان الأميريّان الشابان(٢) الآن فرانكفورت ، في طريق عودتهما ، وفي الوقت ذاته كان بلاط دوقية ماينينجن(٣) حاضراً ، وقد لقيت استقبالاً بالغ المودة من هذا ، ومن أمين السرّ فون دوركهايم(٤( المرافق للأمير الشاب . ولكيلا يفتقر الأمر ، على طريقة الفتيان ، الى حادثة غريبة ، وضعني سوء تفاهم في حرَج لا يصدق ، على الرغم من أنه فكاهيّ الى حد بعيد . وذلك أن أصحاب السيادة الفايماريّين والماينِنْجيّين كانوا يقيمون في فندق ، ودعيت الى المائدة ، وكان البلاط الفايماريّ ماثلاً في ذهني الى درجة أنه لم يخطر ببالي أن التمس مزيداً من المعلومات عنه ، لأنني لم أكن واسع المخيّلة بما يكفي لأعتقد أن القوم يريدون أن يأخذوا من الجانب الماينيجيّ ايضاً بعض الملاحظات عني . وأذهب ، في هندام حسن ، الى فندق «الأمبراطور الروماني» ، فأجد حجرات السادة الفايماريين خاوية . ولمّا كان هذا يعني أنهم لدى الماينيجيّين فقد توجهت إلى هناك ، ولقيت استقبالاً وديّاً . وأحسَب أن هذا زيارةٌ قبل المائدة ، أو أن القوم ربمّا يأكلون معاً ، وانتظر المخرج ، ولكن الحاشية الفايمارية تتحرك دفعة واحدة ، فأتبعها أيضاً ، ولكنها لاتذهب الى حجراتها ، بل تنزل على الدرج الى عرباتها ، وأجد نفسي في الشارع وحدي ، وبدلاً من أن أتجسّم المتاعب الآن في تقصّي المسألة ببراعة وذكاء ،

والتماس أي ايضاح ، سلكت طريقي الى البيت ، على طريقتي الحازمة ،
حيث وجدت والديَّ على مائدة العقبى ، وهزّ والدي برأسه ، بينما
حاولت والدتي أن تواسيني قدر الإمكان ، وفي المساء أسرَّت اليّ أن
والدي أعرب ، حين انصرفت ، أنــه يعجب عجباً شديداً من أنني
أبيت أن أتبيّن ، وأنا الذي لا أتسم في العادة بالبلادة ، أن القوم
لايفكرون بالتهكّم عليّ وتعييري إلاّ من ذلك الجانب . ولكن هذا
لم يكن ليؤثر في نفسي . ذلك لأنني كنت قد لقيت السيد فون دوركهايم
الذي استجوبني بطريقته اللطيفة ، مع ضروب ظريفة من العتاب الفكاهيّ
وكنت قد أفقت الآن من حلمي ، وسنحت لي الفرصة لتقديم الشكر
بأسلوب مهذب حقاً على ما أتيح لي من الرفق الذي كان مخالفاً لما كنت
آمل واتوقّع ، ولالتماس الصفح .

وبعد أن تقبلّت من أجل ذلك الاقتراحات البالغة المودة لأسباب
وجيهة ، تم الاتفاق على ما يلي : كان هناك فارس قد تخلّف(١) في
كارلسروهه ، وكان ينتظر عربة "لانداويّة" (٢) مصنوعة في شتراسبورج ،
وكان سيصل في يوم معين الى فرانكفورت ، وكان عليّ أن أكون
على أهبة الاستعداد للرحيل معه على الفور الى فايمار . على أن الوداع
المرح اللطيف الذي لقيته من أصحاب السيادة الشبان ، والسلوك الودي
لرجال البلاط ، جعلا هذه الرحلة على ما يرام بالقياس اليّ ، وكان
الطريق يبدو منبسطاً على نحو بالغ الامتاع . ولكن كان من المقدّر
أيضاً أن تتعقد هنا بطريق المصادفة مسألة بالغة البساطة ، وأن تتعرض
للتشويش بفعل النزعة العاطفية الحماسية ، وتصاب بالدمار الكامل تقريباً :
ذلك لأنني بعد أن ودعت من ودعت في كل مكان ، وأعلنت عن

يوم رحيلي . ثم حزمت أمتعتي على عجل ، ولم أنس في هذا الصدد كتاباتي غير المطبوعة . جعلت أترقب الساعة التي قيل انها ستأتيني بالصديق المذكور في العربة الجديدة ، وتوردني بقعةً جديدة ، وتدخلني في علاقات جديدة . وانقضت الساعة ، والنهار أيضاً ، ولما كنـــت قد أعلنت أنني غائب منذ الصباح المذكور ، لكيلا أقوم بالوداع مرتين ، وبصورة مطلقة ، لكيلا يزدحم عليّ الطراق والزوار ، فقد كان لابدّ لي أن ألزم السكون في البيت ، بل حتى في الحجرة ، ووجدت نفسي بسبب ذلك في وضع غريب . ولكن لمّا كان في الوحدة والضيق في كل وقت شيء مواتٍ جداً بالقياس اليّ ، اذ كنت اضطر الى الاستفادة من أمثال هذه الساعات ، فقد استأنفت الكتابة في مسرحيّتي «إجمنت» ، وأنجزتها تقريباً ، وتلوتها على أبي الذي مال بوجه خاص كل الخصوص الى هذه المسرحية ، ولم يكن يرغب في شيء أكثر من أن يراها منتهية ومطبوعة ، اذ كان يأمل في ازدياد السمعة الحسنة لابنه عن هذا الطريق . ولكن مثل هذه الطمأنينة والاغتباط الجديد كانا ضروريين أيضاً بالقياس اليه : ذلك لأنه كان يعلّق على تخلّف العربة أكثر التعليقات انطواءً على القلق ، وكان يرى في المسألة مجرد اختراع ، ولم يكن يعتقد بلا نْداويّ جديد ، وكان يعدّ الفارس المتخلف شبحاً من أشباح الهواء ، وكان ذلك ما أفهمني اياه في الحقيقة بصورة غير مباشرة فحسب ، ولكنه كان يعذب نفسه ويعذب أمي بمزيد من التفصيل ، اذ كان ينظر الى مجمل المسألة على أنها دعابة مضحكة من دُعابات البلاط التي أطلقها القوم نتيجة لإساءاتي ليزعجوني ويعيّروني اذ قعدت الآن قعوداً معيناً بدلاً من ذلك الشرف المأمول . أما أنا نفسي فقد تمسكت في الحقيقة بعقيدتي أول الأمر ، وسُرِرْت

بساعات العزلة التي لم تتكدّر علي، لا من قِبل الأصدقاء، ولا من قِبَل الغرباء، ولا من قبل أي تسلية اجتماعية أخرى، واستأنفت الكتابة في «أجمنت» بنشاط كبير، وان لم يكن ذلك من دون حافز داخلي، وربما جاء هذا المزاج النفسي في صالح المسرحية ذاتها، التي لم يكن من الممكن أن تكتب، وهي التي يحرّكها قدر كبير جداً من العواطف، من قبل امرىء خال من العواطف كلّ الخلو. وهكذا انصرمت ثمانية أيام، ولست أدري كم انصرم بعدها، ثم أخذ هذا الاحتباس الكامل يثقل عليّ. ولما كنت قد تعوّدت الحياة في الخلاء منذ عدد من السنين، في صحبة الأصدقاء الذين كنت أقيم معهم أكثر العلاقات المشتركة نشاطاً واخلاصاً، بالقرب من محبوبة كنت في الحقيقة قد عقدت العزم على الانفصال عنها. وكانت مع ذلك تطالب بي بقوة كلما أتيحت لي إمكانية الدنوّ منها — كل هذا أخذ يثير لديّ الاضطراب حتى لقد أخذت جاذبية مسرحيّتي المأساوية تهدد بالتضاؤل، كما أخذت طاقة الانتاج الشعري تهدد بالتلاشي بفعل نفاد الصبر. ولبثت بضع أمسيات لم يكن فيها من الممكن عندي أن أظل في البيت، فانسللتُ متدثراً في معطف كبير، أجوس في المدينة، مارّاً بمنازل أصدقائي ومعارفي، ولم يفتني أن أعرّج على نافذة ليلّي، وكانت تسكن في الطابق الأرضي من دار على الناصية. وكانت الستائر الخضر مسدلة، ولكنني استطعت أن ألاحظ ملاحظة جيدة أن الأضواء كانت في مكانها المعتاد. وسرعان ماسمعتها تغني على البيانو، وكانت هي الأغنية: أوّاه، ما شدّ ماتجتذبني اجتذاباً لايقاوَم!»، وهي التي نُظِمت فيها قبل مالا يبلغ حولاً كاملاً. وكان لابد أن يبدوَ لي أنها تغني غناءً أكثر تعبيراً من ذي قبل، وكان في وسعي أن أفهمها كلمة كلمة، بوضوح.

وكنت قد ضغطت بأذني على نحو بالغ الدنوّ الى أقصى حد كان يسمح به السياج المحني نحو الخارج . وبعد أن غنتها الى النهاية رأيت من خلال الظل الذي سقط على الستائر أنها نهضت . وجعلت تمشي جيئة وذهاباً ، ولكن عبثاً كنت أحاول أن أمسك بمسقط شخصها الساحر من خلال النسيج الكثيف ، على أن تصميمي الحازم على الانصراف ، وعلى ألاّ أُثْقِل عليها بحضوري ، وأن أتخلّى عنها حقاً ، وتصوُّر نوع اللفت الغريب للنظر الذي لابد أن يثيره ظهوري من جديد ، كل ذلك أمكنه أن يحملني على أن أعزم على مفارقة القربى الحبيبة الى حد بعيد .

ثم انقضت بضعة أيام وكانت فرضية والدي يزداد احتمال صحتها على نحو مطّرد ، اذ لم تصل حتى رسالة من كارلسروهه تبيّن أسباب تأخر العربة . وتعثّرت كتابتي ، وكان لأبي الآن دور حسن حيال الاضطراب الذي كنت أتعرّض من جرائه للانهاك الداخليّ ، فكان يصوّر لي أن المسألة ما عادت تقبل التغيير الآن ، وأن حقيبتي قد حزمت ، وأنه يريد أن يعطيني المال والاعتماد المصرفيّ ، للذهاب الى إيطاليا ، وأن عليّ أن أصمّم على الانطلاق على الفور ، ورضيت آخر الأمر ، وقد تولاني الريب والتردد في مسألة هامة كهذه ، أن أرتحل ، اذا لم ترد عربة ولا خبر في ساعة محددة ، وأن يكون ذلك أولاً الى هايدلبرج وألاّ يكون الرحيل من هناك الى سويسرا مرة أخرى ، بل خلال جراوبُندن أو التيرول عبر الألب . .

ولابد أن تنجم بالطبع أشياء عجيبة ، حين يُدْفَع بشباب لاخطة لديه ، ويسهل الى حد كبير أن ينقاد في طريق خاطىء ، الى طريق خاطىء آخر . من خلال خطأ عاطفيّ له صلة بالسنّ . ولذلك فلا ريب

أن من سنة الشباب ، والحياة على وجه الاطلاق أننا لانتعلّم استجلاء الاستراتيجيّة في العادة إلاّ بعد أن تكون الحملة قد انقضت . وفي مسار العمل الخالص قد يكون مثل هذا الأمر القائم على المصادفة يسير الاستجلاء . ولكن صدورنا تنشرح كثيراً بالتآمر مع الخطأ على الطبيعيّ الأصيل ، مثلما نخلط الأوراق قبل أن نوزعها لكيلا يتكدّر نصيب المصادفة من العمل ، وهكذا ينشأ بصورة مباشرة العنصر الذي يسرّ الجانب الشيطاني كثيراً أن يحدث تأثيره ضمنَه وعليه ، ويزداد لعبه معنا سوءاً كلما ازداد شعورنا بدُنُوِّه .

وانصرم النهار الأخير ، وكان عليّ أن ارتحل في الصباح التالي ، وكنت الآن في حاجة ملحة إلحاحاً لاحد له ، الى أن أرى مرة أخرى صديقي باسّافانت(١) الذي كان قد عاد لتوّه من سويسرا ، اذ كان خليقاً أن يكون لديه سبب فعليّ للغضب لو أنني أسأت الى الثقة الحميمة بيننا عن طريق التكتّم الكامل ، ولذلك واعدته ، عن طريق امرىء غير معروف ، ليلاً ، في مكان معين ، حيث وصلت ، متدثِّراً بمعطفي ، قبلَه ، ولم يتخلّف هو أيضاً . وكان ، على ما اعتراه من العجب ، مندهشاً أكثر من ذلك بعدُ ممن وجده في المكان . وكان السرور شبيهاً بالدهشة ، ولم يكن ثمة سبيل الى التفكير في الاقناع والتشاور وتمنى لي السعادة في رحلتي الايطالية ، وافترقنا ، وفي اليوم التلي وجدت نفسي ، في الوقت المناسب ، عند شارع برج نذر م..

أمّا اتجاهي الى هيدلبرج فقد كانت لديَّ أسباب عديدة له : فمنها سبب معقول ، وهو أنني كنت قد سمعت أن الصديق سيأتي من كارلسروهه عن طريق هايدلبرج ، وبمجرد وصولي سلّمت في البريد بطاقة يترتّب على القوم أن يسلّموها الى فارس مسافر بطريقة معينة ،

وأما السبب الثاني فكان عاطفياً ، وكانت له صلة بعلاقتي السابقة بليلّي . وذلك أن الآنسة دلْف التي كانت أمينة هوانا ، بل كانت الوسيطة لدى الوالدين في رابطة جدية ، كانت تسكن هنا ، وكنت أقدر أن من أعظم ضروب السعادة أن استطيع قبل مغادرة ألمانيا ، أن أخوض مرة أخرى في حديث حول تلك الأيام السعيدة مع صديقة غالية ، صبورة ، متبصّرة . ولقيت استقبالاً حسناً ، وأدخلت على بعض الأسر ، كما أعجبت بأسرة المدير العام للغابات ، فون فريده(١) ، الى حد بعيد . وكان الوالدان من الشخصيات التي تبعث الارتياح بصورة لائقة ، وكانت احدى البنات تشبه فريدريكه ، وكان الوقت وقت قطاف العنب على وجه الدقة . وكان الطقس جميلاً وقد انبعثت في نفسي كل المشاعر الإلزاسية في واديَي الراين والنيكر الجميلين . وكنت قد عانيت في هذا الزمان شيئاً عجيباً في نفسي وفي الآخرين ، ولكن كل شيء كان مايزال في طور النشوء ، ولم تكن الحياة قد اسفرت لديّ عن نتيجة من النتائج ، وكان اللانهائيّ الذي كنت قد وعيته أقرب الى أن يربكني . أما في المجتمع فكنت ما أزال كعهدي ، بل ربما كنت أكثر لياقة وتسلية . وهنا ، تحت هذه السماء الطليقة ، وبين البشر ذوي الوجوه الطَلْقة كنت ألتمس من جديد الألعاب القديمة التي تظل بالقياس الى الشباب جديدة خلاّبة أبداً . ولمّا كان الفؤاد ينطوي على غرام سالف لمّا ينطفىء بعد فقد كنت أثير الاهتمام على غير ارادة مني ، حتى حين كنت أكتمه . وسرعان ما ألفت هذا المحيط أيضاً ، بل بات هذا ضرورياً ، ونسيت أنني كنت أنطوي على خطة لاستئناف رحلتي بعد بضع أمسيات من الثرثرة . وكانت الآنسة دلْف من الشخصيات اللواتي يكون لهن عمل دائماً من دون أن يكنّ ماكرات على وجه الدقة ، ويشغلن الآخرين ، ويهيمنّ بتحقيق هذه الأغراض حيناً ، وتلك الأغراض

حيناً آخر ، وكانت قد عقدت معي أواصر صداقة مخلصة ، وكان يزيد من مقدرتها على إغرائي بطول المقام أنني كنت مقيماً في بيئتها ، حيث كان في وسعها أن تضفي على بقائي أنواعاً شتى من المتعة ، وتضع في طريق رحيلي كل أنواع العوائق . وكنت اذا أردت توجيه دفة الحديث نحو ليلّي لم تكن راضية كل الرضى ، ومهتمة كما كنت آمُل ، وكانت أقرب الى الثناء على عزمنا المشترك على الانفصال في مثل هذه الظروف ، وزعمت أنه لابد للمرء أن يسلم بما لابد من التسليم به ، وأن يضرب صفحاً عن المستحيل ، وأن يلتمس مجالاً جديداً من مجالات الاهتمام الحيوية ، ولما كانت من أهل الخطط فقد أبت أن تدع هذا للمصادفة ، بل كانت قد وضعت خطة لعملي المقبل تبين لي منها أن دعوتها الأخيرة لي الى هايدلبرج لم تكن خالية من الغرض كما كان يبدو .

وذلك أن الأمير الناخب كارل تيودور(١) الذي عمل كثيراً جداً من أجل الفنون والعلوم كان مايزال مقيماً في ما نهايم.ولما كان البلاط كاثوليكياً ، وكانت البلاد بروتستانتية ، فلهذا بالضبط كان لدى الطرف الآخر كل سبب ليدعم نفسه عن طريق المجدين المفعمين بالأمل . وكان عليّ الآن أن أذهب على اسم الله الى ايطاليا ، واستكمل نظراتي في مادة الفن هناك . وكان يقال ان القوم يريدون في هذه الأثناء أن يعملوا من أجلي ، وسيتبيّن لدى عودتي هلى نضج الهوى المتفتّح لدى الآنسة فون فريده أم خمد ، وهل يستحسن أن أتخذ الأساس لنفسي ولسعادتي في وطن جديد عن طريق الارتباط بعائلة مرموقة .

والحق أني لم أرفض هذا كله ، ولكن طبيعتي التي لاتخطيط فيها لم تكن تستطيع أن تتلاءم مع النزعة التخطيطية عند صديقتي كل التلاؤم . وكنت استمتع بطيب اللحظة ، وكانت صورة ليلي تطيف بي وأنا يقظان حالم وتختلط بكل شيء آخر مما كان يمكن أن يروق لي ، أو يسليني ، فابتعثت الآن الجدّ المتمثل في مشروع رحلتي الكبير أمام نفسي ، وعزمت على التخلّص بطريقة حليمة ولبقة ، ومواصلة طريقي خلال بضعة أيام .

وكانت الآنسة دِلف قد صورت لي ، على نحو مفصّل ، حتى ساعة متأخرة من الليل ، خططها وما يعتزم القوم عملَه من أجلي . ولم أكن استطيع شيئاً سوى أن أقدّر مع الشكر أمثال هذه الأفكار ، على الرغم من أنه لم يكن من الممكن أن يغيب عن البال تماماً رغبة محيط معين في أن يدعم نفسه لدى البلاط بوساطتي ، وبوساطة حظوتي المحتملة ، ولم نفترق إلاّ في حوالي الواحدة . ولكنني لم أكن قد نمت طويلاً حين أيقظني بوقُ حوذيّ عربة البريد الذي توقف راكباً أمام الدار وسرعان ماظهرت بعد ذلك الآنسة دِلف مع ضوء ورسالة في يديها . وتقدمت من مخدعي ، وصاحت قائلة : « ها قد أخذناها ! فاقرأ وقل لي ما الأمر ، لابد أنها آتية من لَدُن الفايماريين ، فاذا كانت دعوةً فلا تُلَبِّها ، وتذكر أحاديثنا ، فالتمست منها الضوء ، وربع ساعة من العزلة ، فغادرتني على مضض ،ومن دون أن أفتح الرسالة جعلت أنظر أمامي مطرقاً حيناً من الزمان .

كان ساعي البريد قادماً من فرانكفورت ، وكنت أعرف الخاتم والخط ، واذاً فقد كان الصديق قد وصل الى هناك ، وقد دعاني ، وكان عدم الإيمان والشك قد أعجلانا ، ولم كان ينبغي للمرء ألاّ ينتظر ،

وهو في وضع مَدَنيّ مطمئنّ ، رجلاً أبلغ عن قدومه على نحو مؤكّد ، وقد يتأخر رحيله بفعل قدر كبير من المصادفات ؟ وأدركت الأمر فجأة كمن زالت عن عينيه غشاوة ، وتمثّل لي من جديد كلّ ماسبق من الطيب والرفق ، والثقة بصورة حيّة ، وكان يتولاّني الخجل من قفزتي الجانبية الغريبة ، وندمت الخطاب الآن .

، وكان كل شيء قد سار على النحو الطبيعي تماماً ، وكان مرافقي المتخلف قد انتظر العربة الجديدة التي كان يفترض أن تأتي من شتراسبورج يوماً ، فيوماً ، وساعة فساعة ، مثلما انتظرناه ، ثم ذهب من أجل الأعمال الى فرانكفورت عن طريق مانهايم ، وقد أفزعه ألاّ يجدني هناك . وبوساطة ساع من سعاة البريد السريع بعث بالصحيفة السريعة حيث افترض فيها مسبقاً أنني سأعود أدراجي على الفور بعد انجلاء الخطأ ، وأنني لا أريد أن ألحق به العار بأن يصل الى فايمار من دوني.

وعلى قدر ما كان عقلي وذهني يميلان على السواء الى هذا الجانب فان اتجاهي الجديد لم يكن يفتقر مع ذلك أيضاً الى كفة موازنة هامة . لقد كان والدي قد طرح عليّ خطة رحلة فائقة الجمال ، وزوّدني بمكتبة صغيرة كان في إمكاني أن أُعدَّ نفسي بها ، واستهدي بها في المكان نفسه . ولم أكن قد حظيت حتى الآن بتسلية أخرى في ساعات الفراغ ، بل انني لم أفكر في رحلتي القصيرة الأخيرة في العربة بشيء آخر . وكانت تلك الموضوعات الرائعة(١) التي كنت قد تعلمتها منذ الصبا عن طريق الرواية والمحاكاة من أنواع شتى تحتشد ماثلة في ذهني ، ولم أكن أعرف شيئاً مرغوباً فيه أكثر من الدنوّ منها في الوقت الذي كنت فيه أبتعد عن ليلّي ابتعاداً حازماً .

وكنت قد لبست ثيابي في هذه الأثناء ، وجعلت أغدو في الحجرة وأروح ، ودخلت مضيفتي الرصينة ، وصاحت قائلة : « ما هو الأمل الذي ينبغي أن أؤمّله ؟ » فقلت : « يا آنستي الفاضلة ، لاتقنعيني ، فقد عقدت العزم على أن أعود ، أما الأسباب فقد وازنت بينها بنفسي ، ولم يكن من المثمر في شيء أن أكررها ، ولابدّ من عقد العزم في نهاية الأمر ، ومن ترى ينبغي له أن يعقده سوى ذلك الذي يعنيه آخر الأمر . وكنت متأثراً ، وكانت هي كذلك ، وكان ثمة مشهد عنيف أنهيته بأن أوعزت الى غلامي بتسليم البريد(١) ، وعبثاً كنت أرجو من مضيفتي أن تهدىء من روعها ، وأن تحوّل الوداع الهزليّ الذي قمت به مساء الأمس لدى الجماعة الى وداع حقيقيّ ، وأن تدخل في حسبانها أن المقصود إنما هو مجرد زيارة وانتظار الى أجل قريب ، وأن رحلتي الإيطاليه لم تُلْغَ ، وأن عودتي الى هنا لم تنقطع : وأبت أن تعترف بشيء . وكانت تزيد ذلك الذي كان مضطرباً من قبل اضطراباً على نحو مطرد ، وكانت العربة واقفة أمام الباب ، والأمتعة محزومة ، وقد أطلق حوذي البريد اشارة نفاد الصبر المألوفة ، فانتزعت نفسي ، وكانت ما تزال تأبى أن تدعني أنطلق ، وجعلت تسوق حجج الحضور كافة بطريقة فنية بما فيه الكفاية حتى جعلت أخيراً أهتف باندفاع وحماسة بكلمات اجمنت : « أمسك ! يا بنيّ ، يا بنيّ(٢) ، فان خيول العصر الشمسية تشق طريقها كأنما تضربها بالسياط أشباح غير مرئية مع عربة قدَرنا الخفيفة ، ولا يتبقىّ لنا شيء آخر سوى أن نتشبّث بالأعنة رابطي الجأش ، ونجنِّب العجلات الحجارة هنا ، والسقوط هناك ، يميناً تارةً ، ويساراً تارة أخرى . أمّا الى أين المسير ، فمن يعرف ذلك ، وهو الذي لايكاد يذكر من أين أتى .

# فهرس الجزء الثاني

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

## القسم الرابع

٢٥٠٠ ط١ /١٩٩٢/٨

ليس جوته بحاجة الى من يعرف به . فهو شاعر أوروبا ومفكر عصري الأنوار والرومانتيكية . ولكن كتابه هذا يطرح علينا سؤالين :

الاول ـ علام أعطى جوته لمذكراته عنوان « الشعر والحقيقة » ؟

الثاني ـ عن نوع مذكرات جوته . وهو نفسه يجيب عن سؤالنا في مقدمة الكتاب : عالج جوته مشكلات عصره كلها ، عبر عن أحاسيسه ، قيمه ، طموحاته ، وعن الآفاق التي شقها أو سيشقها الانسان الغربي اذ ذاك . ومن المعلوم ان « فوست » صار ، في نظر الكثيرين شعار المرحلة تلك ، ومع أن جوته استخدم للتعبير عن فكرة الأجناس الأدبية وأنواع الكتابة ، ففي فكره فائض عنها كلها . ويبدو أن هذا « الفائض »أربك قراءه بحيث كتب اليه أحد أصدقائه طالبا منه أن يوضح للناس الناظم الداخلي لمؤلفاته . وكتاب « الشعر والحقيقة » هو الجواب عن هذا الطلب . وكتاب جوته الذي شارك وبشكل فعال في كل جوانب فعاليات عصره، الأدبية والسياسية والاجتماعية ، كان في الوقت ذاته أبعد نظرا من رجالات ذاك العصر . فالقسم الأعظم مما كتب ما يزال يستدعينا حتى اليوم وسيستدعي أبناءنا على ما يبدو رغم الفاصل الزمني الكبير بيننا وبينه . ومما يسترعي الانتباه حقا هو أن مذكرات جوته هذه غنية بالأفكار والأحاسيس ، بالألوان والصور ، بالمعاني والحقائق غنى أي مؤلف آخر من مؤلفاته . أفيكون الشعر عند جوته هو الطريق الى الحقيقة ؟ على الأرجح .

فثمة فلاسفة يرون اليوم مع هيدجر وبعده ، أن الفكر هو حيث يحصل التلاقي بين الشعر والفلسفة وأن الشعر والفكر واحد . أجل الشعر ، ولكن من مستوى .... جوته مثلا ....

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٢